

جمال الغيطاني كتاب التجليات

الأسفار الثلاثة



دار الشروق

سلسلة الدراسات والبحوث

كتاب التخليق
الأسفار الثلاثة

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

الطبعة ١٠ شارع جواد حسى - داهي ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨
داهي : شروق - لكس : SHOROK UN
تيلكس : ٨١٦٤ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ : ٣٩٤٨٥٩
داهي : داهي - لكس : SHOROK 28175 LE

جَمْعُ نَابِلٍ الْغَيْطُ وَالْغَيْطُ

كُتُبُ نَابِلٍ التَّجَلِّيَّاتُ
الأسفار الثلاثة

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عفوك ، ورضاك ، يا غفور يا كريم يارب

.. فلما رجعت بعد أن لم أستطع صبراً ، وكيف أصبر على ما لم أحط به
علما ، لما اكتمل إيابي ، فرغت إلى نفسي استعيد واسترجع بينا زمن المحن
يلوح ويبدو ، صرت في بوار ، لا تطمئن بي دار ، ولا يستقر لقرارى قرار ،
صرت متحركاً وساكتاً ، بعد ان كنت أشبه بطير ، أطيّر من غصن إلى
غصن ، والغصن الذى انطلقت منه هو الذى يطير عني ، عدت محدودا بعد
ان كنت طليقا ، وكل محدود محصور ، وكل محصور عاجز ، رجعت بعد ان
كنت الطالب والمطلوب ، العاشق والمعشوق فلم يكن رحيلى إلا بحثا عني ولم تكن
هجرى إلا منى وفى وإلى ، كدت أصل إلى أصلى ، كدت أنفذ إلى أسرار
النار والنور والليل والنهار والشمس والقمر والبرق ونسيم الصبا وخلق الندى
والرجع والصدى والغايات وسلمى ولىلى واختفاء الشفق وتعاقب الفصول ،
كنت قاب قوسين أو أدنى ، لكن غشى عيني ما يغشى ، لم أستطع صبرا ،
وكيف أقدر على ما لم أحط به خبرا . عدت بعد أن نعمت بأجمل صحبة
وأنعم على مولاى بالرفقة ، بعد أن علمنى بعضاً مما لا أعلم . رجعت بعد
فراقى للأهل والوطن ، بعد أن قطعت اليباب واخترت الحجب وتساقطت
أمامى كل الحواجز التى لاتقدر على اجتيازها الطبيعة الإنسانية ، وأنا مفطور
على الرحيل الأبدى ، فلا استيطان لى اصلاً وأبدأ ، رجعت فهان على أن

يتلاشى كل ما رأيت ، فعكفت ، ودونت ، لعل آتى مما رأيت بقبس ،
أحياناً وضحت ، وأحياناً فصلت ، وأحياناً رمزت ولوحت ، سترت وما
أفصحت ، لكننى بعد أن امتلكت بيانى . وكدت انتهى من الكتابة ، خطر
لى خاطر ، أن أفرغ يدى من هذا الأمر الجلل خوفاً من قلة التحقيق وعدم
قدرتى على التدقيق ، فعزمت ، ومزقت كل ما دونت ، شتته ، وذريته ،
وصار كأنه لم يكن ، صار نسياً منسياً ، صار أثراً مندثراً بعد أن كان
مسطوراً ، وتساءلت ، هل آتى على وعلى تجلياتى حين من الدهر لم تكن
شيئاً ؟ وعلى أثر ذلك غربت نجوم عزائمى وفترت همتى ، ولفنتى ذكريات
دوامس ، وأصبح اللعاب مرا فى فى .. وفجأة ، عند ساعة يتقرر فيها
الفجر ، صاح بى الهاتف الحقى ...

يا جمال ..

انتهت ، فإذا بنور ساطع يشرق فى ليل نفسى ، نور ليس مثله مثل حتى
ظننت أنى عدت إلى مركز الديوان البهى ، ثم رأيت فى بؤرته ثلاثة وعلى
مسافة خلفهم ثلاثة ، وفى منتصف المسافة بينهم واحد ، أما الثلاثة الأول
فيتوسطهم حبيبى وقرة عينى ورفيق تجلياتى وملاذ همومى ومقيل عثرائى ،
إمامى الحسين سيد الشهداء ، إلى يمينه أبى وإلى يساره عبد الناصر ، أما
الثلاثة الواقفون إلى الخلف فملاحمهم متغيرة ، تارة أرى إبراهيم ومازناً
وخالداً ، وتارة أرى أمى وإخوتى وعيالى ، أو جدتى وخالى وبعض أصحابى
وقلة ممن أحببت أو عادونى أو أشخاصاً عرفتهم لمدة طويلة أو لفترة وجيزة أو
وقعت غيبائى عليهم فى لحظة مجهولة عند مرورى بمقهى أو تطلعى إلى شرفة .
أما الواحد الواقف فى المنتصف فعرفت فيه مولاى الشيخ الأكبر محيى الدين بن

عربي .. حديق إلى الحسين بنظر ثابت جميل فتعذر النطق علىّ وإن تلوت في
خاطري :

ومن عجب إني أحسن إليهم
وأسأل شوقاً عنهم وهم معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها
ويشكرو النوى قلبي وهم بين أضلعي

أذن سيد الشهداء فتقدم مني الشيخ الأكبر محيي الدين ، خطا نحوي وهو
في موضعه ، لم يفارقه ، كذلك لم أفارق مكاناً وإن صرنا في مواجهة ، نظر
كل منا إلى الآخر وقتاً طويلاً في صمت ، ثم غضضت البصر فانفصلنا دون
النطق بكلمة ، ولكن بعد أن فهمت الأمر وأدركت البشارة ، انحسر النور ،
ذهبوا عني ، غير أنني امتثلت ، فعكفت على إعادة تدوين ما كتبت ، فكان
هذا الكتاب الذي يحوي تجلياتي وما تخللها من أسفار ومواقف وأحوال
ومقامات ورؤى ، وهذا كتاب لا يفهمه إلا ذوو الألباب ، وأرباب
المجاهدات ، أما إذا أظهر البعض استغلاق الفهم أو الملامة فإنني أتلو :
﴿ قال فما خطبك يا سامري ، قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ صلى الله
العظيم ...

التجليات الأولى
وهي
تجليات الفراق

نجل ساطع

لو أعرف للفراق موطناً ، لسعيت إليه ، وفرقة ..

نجلي التمام

.. بعد أربعين دورة من دورات الأفلاك ، تجلى لى أبى فى اللامكان ،
والزمان العجيب ، أفق مضموم غير منبسط ، وأبعاد مدركة بالحس فلا
ترى . وجدران مشيدة من مواد لا نعرفها ، ليست خشباً ، أو طوباً ، أما
السقف فن شعاع أحمر ، درجة منه منزلة متفردة ، يجلس أبى ، يواجهنى
بوضع جانبي ، تلك جلسة لم أعتدها منه . خطورت تجاهه بقلب خافق ،
واقبال دافع ، لكن عند حد معين ، توقفت ، عرفت اننى لا يمكننى الخطو ،
لم أحاول فوقفت ، يتجلى أبى فى ثياب دنيوية . قيص أسود من الصوف ،
بنطلون أسود ، شعره ناعم ، مسترمل ، طويل ، ملاحه شابة ، مستريحة ،
راضية ، وقدرت اننى أرى وجهه عندما كان فى العشرينيات ، خلواً من
التجاعيد . من سحابات الهموم ، تطلع إلى وتطلعت إليه . شبع منى ، ولم
أرتو منه ، لكن دنا الأبدى ، فطلبت الكلام ، وإذا به ينطق ، يصل صوته
إلى مسامى ، صوت ذو وتيرة واحدة ، خلو من التنعيم ، حدثنى بلهجة من

يللى ببيان من المذيع إلى مستمعين لا يراهم ، وآخرين عنه لا يعرفهم ، قال
فاستوعبت ، نطق المحبوب فدونت ..
» .. لا تقلق علىّ يا جمال ، لا تحزن ، كان موتى مرىحاً فلم أعان ، انتهى
الزمن القديم والحديث فى سبع دقائق ، ما قالته أملك ، وما حدثك به أخونى
صحيح . فلا يضيق صدرك ، المهم .. اخبرنى ، ماذا انتم فاعلون ؟ .
وذهب أبى ..

شرح ذلك التجلى

.. من شرفة البيت أطل ، لوحى ييدى فرد وردوا ، مضيت وعند
ناصية الشارع استدرت فرأيت ملامحه ترنو . وضعه السكونى ، كان يرقبى ،
ولم يخاطر ببالى الكليل خاطر ، ولم ينفذ نظرى المحدود عبر الغيب ، فشيت ،
وفى اليوم التالى سافرت ، وتنقلت ، ورأيت ، وقابلت ، ابتهجت ،
وعملت ، واستمتعت ، ومن حين إلى حين فكرت فيه وتذكرت ، وأخيراً
عدت ، فى المطار استقبلتنى زوجتى ضاحكة مبهجة ، استفسرت ، فقالت إن
الجميع بخير ، كلهم بخير ، بعد وصولى البيت ، بعد أن قبلت طفلى النائم .
وفردت الهدايا ، لاحظت تبعثر نظراتها فسألت ترددت فوجفت ، ألححت
فارتبكت ، ضاق صدرى بصدرى ، ألححت ، ألححت ، فتطلعت الىّ
بعينها الواسعتين ..
والدك .. تعيش أنت ..

تجلّ خاطف

ولما بدا الكون الغرب لناظرى ، حننت إلى الأوطان حنين الركائب .

تجلى المستحيل

.. رأيت جمال عبد الناصر ، المكان محدد ، والزمان معين ، رأيته في ميدان الدق . أول الثمانينات ، التي كانت بعيدة ، وتولى الآن كأطيف ، من قبل لم أراه إلا مرة واحدة ، يعبر شارع رمسيس . أقف فوق الرصيف . مر أمامي . بدا قريبا جداً مني . خيل إليّ أنه رمقني من خلف زجاج سيارته . ومن قبل رأيته في يومى العيدين ، الكبير والصغير . لم يكن العيدان يكتملان إلا عندما نشب على أطراف أصابعنا ، ونرقب ظهور الدراجات البخارية . وسيارات الحرس ، ثم عربة المصورين ، ثم يهل على المحتشدين ، بفوديه مشيب ، تحيطه لمعة ، فلا ترى إلا هو . في تلك السنوات كان أبى يحمل أخى الأصغر ، ثم يطاول بعنقه الواقفين ، في هذا التجلى رأيته بلا حرس . بلا مصورين ، بلا ضجيج لكنه بدا شاهقا خارج الزمان الأرضى . يفوق وجوده المادى بوجود غير مرئى . الناس حوله ماضون . لا يتبّه أحد . لا يلتفت أحد . اندفعت تجاهه ، رأى اقبالى ، تحول بعينيّه ناحيتى ، ولاحظت أنه منهك ، متعب ، قلت محملا صوته معنى الحنين الذى لا يمكن تفسيره ، والتفسيرات المطلوبة ، والكلام المدفونة ..

ايه .. كيف حالك .. مالك ؟.

هل تعرفنى ..

ومن لا يعرف من لا يُعرف ؟ ..

هز رأسه ، وهنا لاحظت أن المشيب طلق في رأسه كله .

- إذن .. أنا في مصر ..

دهشت .. صالح ..

- ولكنى أرى مالا يجب أن يُرى .

توقف لحظة ، ثم بدأ ينطق كلماته من خزائن الحيرة والتساؤلات ..

- هل اخترق الاسرائيليون الجبهة ؟.

قلت : لا .

- هل وصلت جيوشهم إلى القاهرة ؟.

قلت : لا .

قال ، ماذا أرى إذن ؟ فسر لي ، اشرح لي ، تأخرتمونا في الزمان ،
وتقدمناكم ، أجبني ، أليست هذه أعلامهم ؟ أليس هؤلاء سياحهم ؟
أليست هذه كتبهم وصحفهم ؟.

قلت : هذا حقيقي ، انتى ضد ذلك ، ولكننى لا أجاهر خوفا وثقية ..

قال متعجبا : ماذا جرى ؟ هل انقلبت الآيات ؟

بدا صوته غريبا ، بدأ غير حقيقى ، سألت نفسى يوما ، أحقا عشت زمانه ؟
هل رأيت عنه وله ؟ لكن هاهو أمامى ، لاحظت أن الناس يتجمعون ،
بعضهم يحدق ، وان منهم من أدرك فولى ، ومنهم من عرف فدنا ، قلت
والجمع يتزايد :

سأشرح لك .. ولكن فوق كل ذى علم عليم .

تجلى الأمانى

قال تعالى : ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ صدق الله العظيم .

أمانى النفس حديثها بما ليس عندها ، صاحبها خاسر ، يلذ له الزمان
بها ، فإذا رجع مع نفسه لم يرفى يده شيئا ، فحظه كما قال من لا عقل له ..

أمانى أن تحصل تكن أحسن المتى

والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

تجلى الانتصار

.. سريت في النور الأخضر، في زمن الزهور المرجو، فرأيت نفسى
أخرج من مدينة رباط الجميل عند شاطئ المحيط، أرحل، وأعبر الحدود بلا
راد أو مانع، دخلت سيناء الأبدية، ورأيت آثار الحرب القديمة، وهياكل
الدبابات. واستعدت لحظات اختراق الشظايا الجسد الإنسانى، وصرخة
الألم. وتذكرت أيامى عندما عملت مراسلا حريبا. أنقل إلى من لا أعرفهم
ما يجرى. مايقوم به أبناء الوطن، كان من الممكن أن أموت في تلك الأيام
التي لا يذكرها إنسان الآن، كنت سأصبح نسيا منسيا في زمن السوء، وزمن
التجليات، استمر سريانى في الشعاع الأخضر، عبرت سيناء، سلكت طرقا
ممهدة إلى الدهر الفلسطيني. رأيت اللافئات عربية، والمقاهى،
والضحكات، والحياة اليومية ومررت بمدن بدت لنا كحلم لطول ما انعزلت
عنا، ورأيت بقايا حروف عبرية على لافتات صفراء تركت كذكرى وعبرة.
كل شيء عاد إلى أصله، و«إن عدم عدنا»، قال دلىلى، لماذا تقرأون ثم
تسون؟ هل نسيتم أن عدة ممالك قامت هنا تحت علامة الصليب،
واستمرت ما يقرب من قرنين، جيوش، وخيول برید، ونظم، وأجهزة
دعاية، وأمراء، وأتباع، وفرسان الداوية، ثم زال هذا كله، لم يقل أهل
ذلك الزمان بالأمر الواقع. تنهت إلى الغضب في صوت دلىلى، تنهت إلى
شحوب اللون الأخضر، إلى أن أوان التجلى ينذر بانهاء، رأيت أبى، هو
دلىلى ومرشدى، بدأ متعبا، كما رأيته دائما في الأعوام الأخيرة. السنوات
التي لم أدرك في حينها أنها أخيرة، انتهت إلى بناء قديم، مدخله غريب كأنه
لاؤدى إلى شيء، جدرانه من الدبش، خلو من النوافذ، قال «أنذرتكم
ولم تنبهوا، أبديت الإشارة تلو الإشارة فلم تعقلوا، نهتكم فتجاهلتم،

حاولت فتعالميتم ، لماذا الحزن ؟ .
ولى بوجهة الأسيان ، نأى صوته عنى ، تحتفى نبراته وتضيع . « على أى
حال ، سياخذ الحزن وقته ، ثم يولى كل شىء .. » هممت بالرد ، فثقل
لسانى ..

تجلّ يقينى

.. ما من شىء يثبت على حاله ، لوحدث ذلك لصار العدم ، كل شىء
فى فراق دائم ، المولود يفارق الرحم ، الإنسان يفارق من دنيا إلى آخرة
مجهولة بلا آخر ، البصر يفارق العين إلى المرئى ، ثم يفارق المرئى إلى البصر ،
الليل يفارق النهار ، والنهار يفارق الليل ، والساعة تفارق الساعة ، والدمر
يفارق الدهر ، الذرة فى فراق دائم عن الذرة ، الجسد يعانق الجسد ثم
يفارق ، يولج القضيبي فى الفرج ، ثم يفارقه ، تثبت الأوراق غضة ،
خضراء ، ثم تفارق الأغصان ، الفكرة لا تلحق بالفكرة ، والصورة
لا تمكث فى الدهن ، يحىء شتاء ، ويحىء صيف ، ثم ربيع ، ثم خريف ،
كل يفارق إلى حين ، كل فى فراق دائم ، الذات تفارق الذات ، حتى
الأشياء التى ظننا أنها باقية أبدا ، حتى الأيام التى اعتقدنا أنها لن تتبدل قط ،
ولن تتغير ، ولن تزول ، كل شىء ، كل شىء فى فراق ، كل شىء يتغير ،
كل شىء يتغير .. فلنفهم ! .

تجلى المحاولة

.. تجلى لى عبد الناصر ثانية ، بدا غاضبا ، لكنه يفعل ، أمر بتكيس
أعلام الأعداء ، وإزالته من فضاء القاهرة ، أمر بإلقاء القبض على جميع

أفراد العدو المتواجدين في الديار ، من سفير وأعضاء سفارة ، و مندوبين ،
وتمثل هيئات ، وجواسيس ، ورسم باعتبارهم أسرى حرب ، أمر ، وأمر ، لم
يمتلك قلماً وشعاراً يوقع به ، إنما طاف بالميادين يزق ، يصيح ، فالوسائل
معدومة ، والحيلة واهية ، والقدرة قصية ، والوجوه غريبة ، والسحن غير
معهود ، والأيام غير الأيام ، والزمن خلاف الزمن ، كان باستطاعته أن
يبصر ما لا يبصره الآخرون ، أخذ الهول ، وتملكه جزع ، ما يراه لم يتخيله
يوماً في صحو أو منام ، ما يدور قاس ، عبر النهر ، ولمح أطيايف الأهرامات
وتجلى في الميدان الكبير ، رآه غيří ، لم يصدقوا عيونهم ، ولى بعضهم
فراراً ، وامتلاًوا منه رعباً ، وتعلق به آخرون ، اعتقدوا فيه ، مشوا خلفه ،
بنوه ، شكوا إليه ، وعاتبته عجوز عمياء ادركت صوته ، فشا الخبر في
الخلق ، هرول مراسلو الصحف الأجنبية ، استقصوا ، واستفسروا وتحلقوا ،
ودنوا ، ظهرت الأخبار في موجزات الأنباء ، وقع الاضطراب في أسواق
النقد العالمية ، اهتر الدولار ، واضطرب الاسترلن؁ ، وازدهر البن ، استنفر
الناتو والساتو ، وأعلن زعماء حيروت والمابام وما شابهها ، إنها الحرب ! ،
من الحوارى خرجت النسوة حاسرات ، مصفقات ، ضارعات ، شاكيات ،
خرج جمع من هنا وجمع من هناك ، وأحجم قادة مراكز الشرطة عن اتخاذ
قرار انتظاراً لما ستسفر عنه الأحوال ، ارتجفت صدور ، واينت قلوب ،
واختلف آخرون ، وفجأة خرج جند كثيف ، أعمارهم تدور حول العشرين ،
يقودهم ضابط يرتدى رداء أسود غطيس ، حلة غريبة ، مليئة بالجيوب ،
والطلقات ، يمر بمرحلة الزهو بنجمتى الرتبة التالية للتخرج ، والمخيلة بالزى
الغريب للمستحدث ، أشهر خنجراً ، دفع عبد الناصر في صدره ، وأوماً ،
فتدافع الجند ، اقتادوه ففترق الخلق ، نزل صمت بغض ، ثقيل ، فأينت

الهموم ، وتدفقت مياه جديدة في أنهار البلوى ..

توتيل

﴿ وشروه بثمان نجس ، دراهم معلودة ، وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ .
﴿ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .
صدق الله العظيم

تجلى الكلد

رأيت محمد أحمد بن إياس الحنقى المصرى ، بدا مهيبا ، تفوح منه رائحة
الريحان الذى يتمو فوق المقابر ، بالضبط كما تخيلته وأنا أقرأ بدائع الزهور فى
وقائع الدهور ..

جئتك من قبل ..

قلت :

أذكر عودتك فى عام الهزيمة .. لكلك تركنى .

قال :

ينأى الحكيم عن حميمه إذا أوحشت الدار ..

قلت :

القلب سليم ، والود بين جوانحى مقيم ..

سألتى ..

لكننى أراك مكدودا .

قلت :

مات أبى وأنا فى غربة ، لم أر اغماضة عينيه ، ولم أحمل جثائه ، ولم

أشهد لحظة مواراته ، ولم أدر ، ولم أعرف ، ولن أدرك ماذا رأى في
اللحظات الختامية ، أو أى الصور أو الأطياف التى تجلت وتبدت له ..

قال :

هل لك علامة ؟

قلت :

ثقل قلبى ختى موئى ..

قال :

يا حبيبى ، لا نحجبك الحيرة عن الحيرة ، أنى للمقيد بمعرفة المطلق .

قلت :

زدنى يا خلى ..

قال :

تجلّ وتجلّ ، ان النائم يرى مالا يراه اليقظان !! .

ثم ذهب ..

تجلّ مغربى

.. تجليت لنفسى وأنا على سفر ، أقف فوق رصيف قطار ، أدخل إلى
القطار ، أرى أبى فوق الرصيف ، إنه أكبر سنا من أى مرة تجلى لى فيها ،
غائر العينين ، تلك النقطة من العمر عندما يمتزج سواد العين بياضها ،
انحنى ، امسك طرف جلبابه بأسنانه ، يحمل عدة حقائب ، كلها مليئة
بالكتب ، صحت ..

أبى .. هل سأحتاج هذه الكتب كلها ..

أوما ، قرأت شفتيه .

أنت على سفر طويل .

ثم تلفت حوله ، بدا حملة ثقيلًا ، والحمل يخصني ، فتعجبت ، ثم تحرك
القطار ، بعدت ، ولم أعد قريبًا منه ، ازداد النأي ، وبدأ زمن الفراق والفقْد
من قبل أن أعد له العدة ، حلت ظلمات ، ثم تجلى أبى داخل قصر قديم منمنم
الجدران ، فيه نخل وصبار وريحان وزهور صفراء لم نعهدها ، قصر لأحد
أقاربه ، أحد أعمامى ، من أين عرفت ؟. لا أدري .

حال بينى وبينه الحاجز اللامرئى ، حوله بساط من سندس أخضر ، وفي
السماء ألوان لا أسماء لها فى لغات دنيانا ، أخبرنى أن المكاشفة لم تتم بيننا فى
دنياء ، رحل وأمور عديدة لا نعرفها عنه ، قلت ، اضرب لى مثلاً ، فقال :
كان لى أخوان ، مات أكبرهما فى طفولته ، لسبب لا نعرفه ، ومات الآخر فى
بداية فتوته عندما كان يسحب بقرة ، جرجرته فجأة ، سحلته ، قلت ، أنت
لم تقص علينا ذلك . قال ، وأنتم لم تهتموا ، ولم تسألونى ، ثم قال ، دقق
النظر هناك تستطيع أن تراهما ، ولكننى عبثًا حاولت أن أرى ، عبثًا حاولت أن
أسمع ، انتهت إلى تزايد المسافة بيننا ، واحتوت القصر الذى يحتوينى ، كان
القصر مغربًا ، والنمنات اندلسية ، ولّى بوجهه عنى ، قال كمن يحدث
آخرين ، كنت أباكم ، وأنتم أبنائى ، شبيتم ، وأصبحتم رجالاً ، وفتحتم
بيوتاً ، ولم تعرفوا شيئاً عنى .

شرح

فما للإنسان يتجاهل ويعمى ، ويمشى فى دجنة ظلم ، حيث لا ظل ولا

ماء ؟.

تجلى الأرض والزمان المتغير

.. تلك رقعة محدودة ، عند المفارق ، وآه من المفارق ، فى طريق اليومى الذى اعتدت أن أسلكه ، وطشتها أقدام لم أرها ، وستخطو فوقها أقدام لاتزال فى رحم الغيب ، كانت رمالا وصخرا ومن قبل لها ، والآن مرصوفة بالأسفلت ، وبعد بناء مدينتى أصبحت مروية ، نضرة بالخضرة ، ملاعب للخييل ، ثم صارت ممتزجا حتى أوائل القرن الماضى ، نما العمران ، وتكاثرت المباني ، وجاء التزام ، لكن طال الوقت أو قصر ، لن تنصب المباني إلى أبد ، ولن تبقى المفارق ، ستعلو مبان وقد لا تشيد أخرى وربما انطلق منها الإنسان يوما إلى الفضاء الخارجى ، يلاحق الأفلاك فى مساراتها ، ربما داسها أبى مرارا فى سعيه اليومى ، وقد يدوسها أحد أبنائى ، أو واحد من أحفاد أحفادى ، إنسان منحدر من صلبى لن يسمع عني ، ولن يدرك أبدا ما عانيت فى زمن السوء ، لأن اسمى سيتساقط كورقة جافة من شجرة الأصل والسلالة ، كما تساقط الذين سبقونى من أجداد جدودى ، آه لو تجلى لى أحدهم ، عاش منذ آلاف الأعوام ، من هو؟ كيف عاش؟ بمن ارتبط؟ اصفى إلى من يقول ، وإن عدتم عدنا ، أدرك ان العودة محال ، لأن الدنيا فى فراق دائم عن الدنيا ، أبصر رقعة الأرض فى سفرها عبر الزمن الذى لن أعيشه ، أرى تدفق الحركة فوقها بعد فراق النهای ، وأتمنى لو أثبت رسالة أو علامة فوقها لمن سيظئوها ، لمن سيعبرها ، لعل وعسى ..

تجلى غامض

رأيت عيد الناصر ، مكشوبا ، حاسرا ، مهبطا ، أقبلت عليه وعندما تكلم ، تكلم بصوت أبى .

قال لي : نعم ..
قلت له : نعم .
فبش وهش لفهمي عنه ، وعندما أدركت سر فرحه ، قلت له : لا ..
فارتجف ، وتغير لونه ، وشك فيما عنده .
قال لي : كيف وجدتم الأمر ؟
قلت له : سوء ما بعده سوء .
ضُرب بيني وبينه حجاب رقيق .
قلتُ له : لماذا ؟
غمغم ، وتتم ولم يجر جوابا .
قلت له : لماذا ؟ لماذا ؟
شغل بنفسه عني ، فقلت عاتباً : لماذا ، لماذا ، لماذا ؟

تجلى الحزن

« .. هذا فراق بيني وبينك » :

تجلى الشهيد

رأيت نفسي في مركب بلا شراع ، تطلعت إلى موج البحر ، فجأة رأيت
شخصاً على بعد ، مشى على وجه الماء ، لحث طريقة خطو أبي ، تكلم
فأصغيت إلى صوت صاحبي الذي استشهد يوم الجمعة ، التاسع عشر من
أكتوبر ، في الحرب التي قيل إنها آخر الحروب ، عجت واضطربت فارتج
على ، الجسد لأبي ، انحناءة كفيه لا أخطئها أبداً ، أما الصوت فلصاحبي
الذي عرفته ، واحتमित معه بظلام الليل خلف الكتيبان ، عندما عبرنا الخليج

والقناة إلى خطوط الأعداء ، قال ، أنا غاضب ، قلت له ، لماذا يا مقتول
بشطايا العدو الذى أصبح صديقا ؟ قال ، لأنك لاتظل على امرأتى وعيالى ،
ثم اخفى ، رأيت نفسى ماضيا لزيارة أسرة صديقى الشهيد ، دخلت البيت
بعد غيبة سبع سنوات ، شممت رائحة استقرار ، طيخ متفن وأثاث فى الظل
ومبيدات حشرية وعطر ، تقدمتنى زوجته ، بدا وجهها متوردا ، رأيت حول
الحفنين ظلال المساحيق بدلا من العتامة التى أحاطتها عقب رحيله الأبدى ،
لاحظت خلو الجدار المواجه من الشهادات وبراءات الأوسمة والنياشين ،
جاءت الابنة ، أصبحت عروسا شهية ، ترتدى الجيتر ، وزهرة صناعية
توسط شعرها الناعم . اتصل الحديث ، فدار حول نظام المواعيد الجديدة ،
وازدحام النوادى بالأعضاء ، واختفاء مساحيق الغسيل المحلية ، وظهور
المساحيق الأجنبية ، وخلو الصحف من الأخبار المثيرة ، وظهور مكاتب
المستثمرين الأجانب فى الضاحية لاكتظاظ وسط المدينة ، وارتفاع أسعار
الإيجارات ، وتعطل التيار الكهربائى أحيانا . قت وسلمت وانصرفت ،
مشيت بين الناس غير مصغ ، كأننى أدرك فراق صديقى الأبدى أول مرة . لم
بأتيا على ذكر الكتاب الذى أصدرته عنه ، وأرسلته إليهما ، رأيت خلو الدنيا
منه ، خلال السنوات السبع التى خلت تجلّى لى مرات ، أحيت ذكراه بينى
وبين نفسى ، وعندما أصبح العدو صديقا ، وتبدلت الأحوال وزفرفت
الأعلام التى طالما نكستها ، تخيلت ردود أفعاله ، وصار عزائى أن انفعالاتى
ترديد لانفعالاته ، مشيت ، مشيت ، وتجلّى لى الماضى القريب ، تجلّى صاحبى
فى ثيابه القتالية ، اختراقه خطوط العدو الليلية ، مخاطراته ، مفاجآته ، رأيت
مفتحا ، ورأيت منسحبا ، لكن غيرى لم يروه ، ولم يلمحوه ، ولم يذكره ،
وأصغيت بقلب تكأكات عليه الكروب ، وتعاضمت به النوب ، قلب أصبح

مدحوض الحجة ، وخفت أن يتجلى لي ثانية فأنبه بما لايسره ، فتمنيت
الفراق .

شرح

﴿ .. وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم ، فهم
لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ، لا يؤمنون .. ﴾ .

وَمِنْهَا
التجليات الديوانية

بحر البداية

.. لما فهمت ما فهمت ، وعرفت ما عرفت ، وصرت إلى ما صرت إليه ، لما أدركت أن العين تبصر ، والتناول شاسع ، لما أيقنت أن أنفاس الإنسان عزيزة وإن النفس الذى يخرج لا يعود ، وأنه لا ينبغي أن يصرف إلا فى الأنفس والأعز ، لما ايقنت أن ما فات لن يرجع ، وإن كل شىء يتغير ، وفرق عظيم أن يقرأ الإنسان ذلك . وإن يعيشه ويكتوى به ، لما أطلت التأمل والنظر فى الحول ، والعصر ، والدهر ، والثوانى ، والدقائق ، والساعات ، والأيام والأسابيع والشهور والفصول والسنين ، لما تغيرت الأحوال المكددة بى ، رحل أبى ، وأولج قاتلى قلمي فى موطنى ، ووطئ الأرض التى أول ما لامسها رأسى . ومد ظلاله داخل بيتى ، وهدد بالدنس عشتى ، لما ساءت الأحوال ، واكفهر العمر ، لما انحسر ظل أبى ، لما ولما ولما .. لم أنكص على عقبي ، قاومت وهنى ، وغالبت عظيم همى بعد نأى لذائق ، تأججت ويا للعجب رغباتى ، ففقدت العزم على أن أرى ما لم يره بشر ، وأن أعيش ما لم يحظر على قلب إنسان ، أن اتجلى ، وأتجلى ، ثم أتجلى ، وضعت نصيحة شيخى ابن إياس كحلقة فى أذنى ، عندما قال لى : تجلّ وتجلّ ، ان النائم يرى ما لا يراه اليقظان ، وهكذا سمعت وسمعت حتى جئت إلى بحر البداية . وقفت عند شاطئ ، اصغيت لعل أسمع ، حدثت لعل أرى ، أرهفت

لعلى أشعر ، طال انتظاري ، طال وقوفي ، حتى كدت أنفنى ، كدت أرجع ،
وفجأة أتانى الهاتف ، صاح باسمي .
يا جمال .

.. عند اللحظة التي يتقرر فيها الفجر وليال عشر، خفق قلبي في صدرى
خفقة كاد ينخلع منها ، هلعت ، ولم ألم نفسي ، إن الإنسان كان هلوعا ،
خاصة إذا جاءه الهاتف الذي لا يأتي إلا في اللحظات الجسام لينبئ بالجلل
من الأمور ، أو لينذر بأمر عظيم ، لكنه لا ييوح ، لا يفصح ، بعد أن
تماسكت ، وللمت نفسي ، وهدأت روحي ، جاءني صوت عجيب ،
غريب ، مجهول المصدر ، فكأنه صادر من الجهات الأربع الأصلية .
ماذا تبغى ؟ .

لم يتلجلج لساني برغم اضطرابي ، قلت ..
يا حسرة على مافات ، يعذبني ما انقضى ، وما ينقضى .. أما من
وسيلة ؟ .

ولماذا الآن ؟ .

قلت :

ماجري هزنى ، اطلب الفرصة .. أريد أن أرى الماضي .. أن أرحل إلى
المستقبل ..

قل لي بحنو :

ولماذا الآن ؟ .

تتميم أول

قلت ، صباح اليوم التالى لعودتى من سفرى سعبت إلى زيارة أبى الزبارة الأولى ، أبى الذى كان ، كان يمشى ، ويسعى ، ويحن ، ويروى ، ويتألم ويستفسر عما نريد ، ثم يحاول أن يلبي ، لم أكن أعرف مشواه ، لأننا فى المدينة لم نبن مأوانا الأبدى ، ليس عن تقصير ، أو غفلة ، إنما عن قلة حيلة ، وصعوبة أحوال ، صحنى شقيقى ، وجارنا ، هما من رأيا لحظة المواراة الأخيرة ، شهدا المعول يزيع الكومة أثر الكومة ، سلكتنا الطريق الذى يحزم المدينة ، يمتد خارجها ويؤدى إلى مداخلها ، وعند نقطة محددة رأيت منعطفا على ناصيته حوانيت قديمة ، نجار ، والثانى لإصلاح إطارات العربات المعطوبة ، والثالث لبقال فقير ، والرابع لأدوات البياض والطلاء على مسافة قريبة توجد قثائن حرق الجير ، والخامس لبائع خبز ، والسادس مغلق ، والسابع بلا ملامح ، لم أدر محتواه ، ولجنا مررا يغفل عن رؤيته العابرون ، ضيقاً مترباً ، مهجوراً . به يبدأ طريق تأبى المركبات دخوله ، حده الأيمن جدران صفراء ، صامته ، تتخللها أبواب صدئة ، مغلقة ، فى كل لحظة ، بعد كل خطوة ، توقعت أن يتوقفا ، أن يشرأ إلى مدخل بعينه ، لكنها استمرا ، وتبعتهما ، بعد مسيرة عشر دقائق حان الحين ، عرجنا إلى اليمين ، ثم إلى اليسار ، وقفنا عند مدخل فناء مفتوح ، أشار أخى إلى مساحة من الأرض ، مكشوفة بلا سور ، رمال غامقة ولا نبات ، لا صبار أو ريحان ، قال إن أقاربنا أصحاب المدفن شيئا عيتين جديدتين ، لم يحددا مساحتها بسور ، أبى أول الداخلين ، الراقدين ، دنوت ، تلوت ، بكيت ، ابتعدت ، رحلت وعدت . أحاطا بى ، قلت لنفسى ولم أقل لخلق .. أليس فى هذا

جور؟ أليس في ذلك قسوة؟ هذا العمر، تلك المعاناة الطويلة، تلك الأيام والليالي، هل تنتهى هنا وتصبح نسيا منسيا؟ هل يبت أثره ويضيع خبره هنا؟ هل سيكون كأن لم يكن؟ أمعت توغلت، فطلبت السعى ..

طرح

ولماذا .. لماذا الآن؟ .

تتميم ثان ..

قلت غير هياب أو وجل، إننى عشت زمن الحرب، واجهت الموت، رأيت استقرار الشظايا بعد مروق. رأيت تفجر المباني، والآليات، رأيت آلام الجراح لحظة الميلاد على الوجوه، افزعنى مرور المقاتلات الاعتراضية والقاصفات الأرضية على ارتفاع منخفض حتى إننى لمحت ألوان خوذات الطيارين، رأيت امرأة، مازلت أذكر ملامحها، وطول قامتها، وسواد ثيابها، ونخضرة الوشم على ذقنها، تعيش قرب الماء، فى تلك الأيام كان للماء معنى، الخط الفاصل بيننا وبينهم كان عند الصفتين، كان للماء معنى ومغزى، إذا ارتفع رأس أكثر مما قدر له نالته رصاصات القناصة، كان الوصول إلى الماء مغامرة، وبطولة، وعملاً مرموقاً، أما تزويد الجند المرابطين هناك بالمؤن فلا يقدر عليه إلا كل ذى قلب جسور، فى المنطقة الزراعية عاشت أم ضيف الله مع أولادها الخمسة، حفرت خندقاً يديها، مجاوراً للبيت المبنى من طين وعيدان بوص، أسدلت على مدخله ستارة من قماش

أصفر ، لماذا ؟ حتى لا يجرّحهم إنسان أثناء الحركة أو شن الغارات ، وتبادل القصف المدفعي ، هكذا قالت لي .
ولّى هذا كله ، محي ، غابت الصور ، كأن شيئاً لم يكن ، فهل يحو الزمن الزمن ؟ ..

فصل

قيل لي ، إن المطلب وعمر ، والمبغى عسير ، لكن طريقك ليس بمسدود ، عليك بالديوان ، قلت .. أي ديوان ؟ قيل لي ، لا تكن عجولاً ، أمور كثيرة لا تعرفها ولو تكشف لك الثروات والنتائج ، بدون اعدادك للعدة لحل بك كرب عظيم ، اصبر يا جمال الصبر الجميلاً ، من صبر وعمل نبت وأعطى ، تجلياتك وعرة طرقها لم يسلكها أحد ، اسع إلى الديوان الموكل بتدبير عالمنا المحدود ، اسع إلى رئاسة الديوان ، فإن فهمت فقد أدركت ، وأن أدركت فقد وفقت .. ثم لفني صمت ..

من مدائن التجليات

.. بعد طول انتظاري لعل وعسى ، بعد هبات ، قررت الخوض في بحر البداية ، لم أخش الغرق ، ولم أرهب البلبل ، أبحرت وطال البحار ، لقطع المسافات في البحر زمن يخالف زمن البر ، فكيف الحال في التجليات ، حيث تتجاوز وتتصفر البدايات والنهايات ، لم أدركم انقضى عندما تجلت لي مدينة يغمرها الضوء الهادئ ، يلفها البحر كما يلف البياض صفار البيضة ، أما

الضوء فليس بنهارى ، وليس بقمرى ، وليس وليس .. عرفت وأنا أدنو من أبوابها أن الليل لا يلج النهار هنا ، وأن الأوقات لا تتغير كما عهدت ، إنما تتجاوز متوالية ثم تكرر كرتها ، تجلى لى بناء شاق ينبثق من منتصفها لكننى لم أميز التفاصيل ، طفت بأسوارها الشاهقة والتي يعجز البصر الكليل عن رؤية نهاياتها ، بدا لى باب صغير تسبقه قنطرة صلبة من فيروز ، ولجته ، ذهل لى ، وارتبك نبضى عندما رأيت مبانيها من أطراف ملونة حتى ليخطر للعقل الحدود أن يواصل المشى فيمكنه اختراقها ، لكنه يفاجأ بصد لطيف ، هين ، حازم ، لم أستطع إلا المشى فوق الأرصفة البلورية ، عند المفارق تتقابل اصضاء الأضواء وظلال الألوان ، أما المناخ فسبتمبرى ، لا يتبدل ، لا يتغير ، امتد الشهر الذى يبدأ فيه الخريف ، أصبح أزلاً ممدوداً ، بدايات الخريف ، حيث لا تتطوى النفوس كما يحدث فى الشتاء ، إنما تتأهب لذلك ، بداية الانحناء ، فلا بسط ولا انطواء ، لا حر ولا برد ، لا وضوح ساطع ولا قتامة مقبضة ، رأيت أسواراً قصيرة مبنية ، لبناتها من شعاع ، لبنة من ضوء ، ولبنة من ظلال ، ولبنة من شفق ، ولبنة من ألق ، أو هكذا خيل إلى ، فداركى مقيدة بما عرفته وخبرته ، وما يلقى فى صدرى وقلبى من معارف جديدة إنما يلقى بحسبان ، بعد الخطو خطوات عرفت أن المسافات تضيق ، لم أدركم مر على ، كم انقضى ، لكننى لم أتردد ، لم أفكر فى النكوص ، قلت لنفسي إن الممكنات لا تنهاى ، فما بالى بالاممكنت ؟ بعد حين رأيت برجاً مستديراً من ضوء أخضر ، يتخلله باب مستطيل فته دائرية ، موارد ، بعد اختلاس النظر لاح لى طريق من ظلال . لكننى لم أدن . توقفت . انتظرت . لم يطل وقوفى إذ نوديت ..

افصح ..

. نوديت من مكان خفي ، فتأدبت في وقفتي ، وأطرقت . ماذا تريد ؟ .
قلت : اسعى إلى رئيسة الديوان ..
ماذا تريد ؟ .

قلت : همى كبير ، لكننى سأوجز ما أرجوه ، ان استعيد ما لا يمكن استعادته . قيل لى ، مطلبك عسير .. لكنك ما وصلت إلى هنا إلا بالمحاولة
اخفى الصوت ، خطوات عبر البرج ، كلّ بصرى عن احتمال البريق وتردد
الأضواء والألوان التى لا اسم لها في عالم الممكنات ، مشيت ، وبعد خطوات
أدركت أن الموجودات كلها تتخاطب ..

فائدة

.. في صحيح الأخبار ، ما من دابة إلا وهى مصيخة يوم الجمعة شفقا
من الساعة ، وكان عليه السلام راكبا على بغلة فنفرت عند قبر لما سمعت
عذاب صاحبه حتى كادت أن تلقيه ، وقال في جبل أحد ، هذا جبل نجبه
ونجينا ، وصبح الحصى في كفه ، وهذا حجر سلم عليه ، ولا تقوم الساعة حتى
يحدث الرجل فخله بما فعل أهله ، وقالت الجلود ، انطلقنا الله الذى أنطق
كل شيء ، وقد أخبر تعالى ان الظلال ومن في السموات والأرض والشمس
والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس فما ترك شيئا من
العالم إلى درجة الإنسان إلا وقد أخبر عنه إنه يسجد لله ، قال : « وإن من شيء
إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ..

تنميم

نوديت ..

يا جمال ..

فتوقفت . قبل لى ..

هل جاهدت ؟ .

قلت : حاولت ..

عبرت الميدان مثلاً ، تخللت أشجاراً من ذكريات متداخلة ، وصورا متدلّية ورغبات منسية ، وامنيات لم تتحقق ، أدركت اننى أوغلت وإن الرجوع محال ، لم يتبق لى إلا المضى ، أدركت - والإدراك يبرق فى فؤادى كما تباغتنا روائح الأيام الحلوة المولية - إننى قاب قوسين فتحملت غربتى ونأبى وتصبرت ، وهنا تجلّى لى طريق ضيق أرصفته من مسك أبيض ، وجوانبه من عنبر مفرور أو هكذا شبه لى ، عند نهايته نوديت : هل طلبت العلم ؟ .

قلت : حاولت .

نزل برد وسلام وسكون . فتجلّى لى ما تحويه المباني فى جملته وليس فى تفصيله ، ما من حركة فى الدنيا إلا ولها مقابل هنا ، ما من جoad أو نبات ، ما من ثابت أو متحرك إلا وله صورة ومثال ، ما من صوت إلا رجعه هنا ، حتى لحظة تماس الموجة بالموجة أدركت لكننى لم أر ، لكننى عرفت أن منازل المدينة مسكونة ، كل منزل اختص بشيء ، فتنزل للصدى ، ومنزل للصوت ، ومنزل للقلوب ، ومنزل للحجب ، منزل للزيادة ، ومنزل للنقص ، منزل للفقد ومنزل للجمع ، منزل للوجدان ، ومنزل لرفع الشكوك ، ومنزل للوجود المخزون ، ومنزل للقهر والخسف والعسف ، ومنزل

للآيات الغريبة ، ومنزل للاستعداد والتأهب ، ومنزل للمباغطة ، ومنزل
للسباح والمنع ، ومنزل للفضل ، ومنزل للإلهام ، ومنزل للحظات الوداع ،
ومنزل للحظات الأخيرة لرؤية الأحبة ، ومنزل لعبور الجسور ، ومنزل
للحنان ، ومنزل للرأفة ، ومنزل للشكر ، ومنزل لتعانق نظرات العشق ،
ومنزل لتلمس الأيدي برقة ، ومنزل لتلاحم الأيدي بقوة ، منزل للشكر ،
ومنزل للضرر ، منزل لليأس ، منزل للنصر ، ومنزل للهزيمة ، منزل للريح
ومنزل للخسارة ، منزل لمصادر الضوء ، ومنزل لتألق العيون ، ومنزل
لارتجاف الجفون ، ومنزل لانفراج الشفاء ، ومنزل لمقارن الطرق ، ومنزل
لمحطات المسافرين ، ومنزل للمودة ، ومنزل للستر ، ومنزل لرفع الضرر ، منزل
للسعداء ، ومنزل للأشقياء ، منزل للغرباء ، ومنزل للتائهين ، منزل للمجور ،
ومنزل للعذاب المحسوس ، منزل للنسب ، منزل للأعراض والتائم ، منزل
للأوضاع ، منزل للكيمات ، منزل للهواجس ، والأبصار ، ومنزل لحفقات
القلوب ، منزل للميلاد ، ومنزل للموت ، منزل للجزء ، ومنزل للكل ،
منزل لما كان ، ومنزل لما يكون ، ومنزل لما سيكون ، ومنزل لما لن يكون ،
منزل يضم صور القارات ، ومنزل للمحيطات ، ومنزل للأنهار ، ومنزل
للمخلجان ، ومنزل للشعاب ، ومنزل للشم الرواسي ، ومنزل للوديان ، ومنزل
للكهوف ، منزل للمدن التي كانت ، ومنزل للمدن التي ستكون ، منزل
للقرى القابعة ، ومنزل للقرى المنبسطة ، منزل للنواصي المنتشرة ، منزل
للمداخل المؤدية ، منزل للضواحي ، والميادين التي قامت يوما وستقوم ،
منزل للمنعطقات الضيقة ، والحارات ، والأبواب ، ودرجات السلام ،
ومنزل للأبواب التي يسكن خلفها الأحبة ، منزل للأقنية ، ومنزل للقباب ،
ومنزل للأبراج ومنزل للقلاع ، ومنزل للمخائئ الحصينة ، ومنزل للمعابد ،

ومنزلة للأركان الظليلة ، ومنزلة للحدائق ، منزل للامسيات ، منزل للأيدى
الممسكة بالزهور ، منزل للقاءات الصدفة ، ومنزل لما لن يتكرر ، منازل لا
ثبات لها ، ولا ثبات لأحد فيها ، أدركت المنازل كلها فى جملتها وليس فيها
تحويه ، ولم أتوقف ، لم أسمع ، غير إننى فرحت واستبشرت ، نوديت ..
يا جمال ..

قلت : نعم ..

قيل لى : هل أدركت ؟ .

فقلت : ياويلتا على ما فرطت ١١ .

وصل ..

.. حل رضا ، غمرنى فسكنت ، عشت لحظات ما بعد سقوط المطر
الراذى على الضواحي النائية المورقة بالخضرة ، ايقنت بقرب وصولى إلى
بعض مما أسعى إليه ، عالمنا الأرضى ملخص ، موجز هنا ، البداية والنهاية ،
لا ماضى بعيد ولا مستقبل نالى ، ما كان وسيكون فى تجاور ، ما لا كان
وسيكون ، ما كان ولن يكون ، كل شىء فصل تفصيلا ، فجأة انجلى
بصرى ، فرأيت الديوان ، لاح لى بعيدا لحظة اقترابى ، بدا شاهقا ليس
كمثله شىء فى دنيانا ، ولما رأيته ، رأيته من الجهات الأربع الأصلية ، فكأنى
انظر إليه بئانية عيون ، ألمت بالتفاصيل فكأنى أراه من أعلى ومن أسفل ، لم
ألق ما يسعنى من حروف الكلام ، أقصد كلامى ، حاول ذهنى أن يشبه بما
يعرف فاستدعى مبانى النصب التذكارية ، لمن ماتوا فى الحروب ولم تعرف
أسمائهم أو عناوينهم ، واجهات المعابد الأسبوية المعقدة التراكيب ، مداخل
الممرات الجبلية ، أدركت أن المركز هنا ، والمحور هنا ، لم ينادى صوت ، لم

يروغى هاتف مفاجئ ، لم يرعبنى لمس ، إنما خيل إلى أننى محمول ، وأننى أطفو فى فضاء غروبى بلا غمامات ، ونحى قباب وأهلة وصلبان وأمنة ، قبل لى إن كل شىء هنا ، أيامك وأيام غيرك ، لكن شيئاً واحداً - إن جاز تسميته بشىء - لا يمكنك رؤيته مهما حاولت ، لن تدركه مهما جاهدت . لن تصل إلى كنهه مهما عانيت ، هجم على ولفنى أسى إنسانى كثيف ، وقبل أى بادرة استفسار منى نوديت

يا من كان ، يا من تكون ، ولن تكون ..

اطرقت ، إذن .. ساقف بين يدى الطاهرة ، حامية النقاء ، ورئيسة الديوان ، والعضوين النورانيين .

شرح

الديوان مركز الهيمنة على عالمنا الأرضى ، منه تتقرر الخطوط العامة للمصائر ، وتتحدد الاتجاهات الرئيسية ، وما يتقضى يصير إليه ، بدءاً من الحوادث الجسام حتى همسات طفل لم يخبر الدنيا بعد ، ينعقد مجلسه مساء كل سبت دنيوى ، مدته تبدأ بعد غروب شمسنا حتى شروق الفجر ، خلالها يتقرر ما سيكون فى سبعة أيام دنيوية مقبلة وتنظر المظالم ، وتقرر العقوبات ، وينصف الحجر من فالقه ، لهذا يفزع المكلمون ، متوسلين برئيسه الطاهرة ، يهتفون : يا رئيسة الديوان ، ولا يفضل نداء طريقه إليها كان مصدره ومكانه ، وزمانه ، تصفى رئيسة الديوان ، السيدة زينب إلى أنين المخلوقات جميعها ، حتى أنين الشجر من لسع الرياح ، يساعدها عضوان ، عضو إلى يسارها ، سيد شباب أهل الجنة الحسين عليه السلام ، وإلى يمينها شقيقه الأكبر ، من مات مسموما ، طيب القلب والسيرة ، الحسن عليه السلام .

الديوان

.. ولجت كثيبا من العنبر الأبيض ، بهرى ضوء ، سرى فى بصرى
ظاهرا ، وسرى فى أعصابى باطنا ، سرى فى أجزاء بدنى ، وفى لطائف نفسى
أصبحت عينا ، أصبحت سمعا ، فرأيت بكلى ، لم تقيدنى الجهات . فى
الوسط تجلّت لى رئيسة الديوان ملتحفة بوشاح من الندى الذى ينمو على
حواف أوراق الزهر ، إلى يسارها الحسين ، إلى يمينها الحسن ، بين أيديهم ما
يشبه اللفائف الكبار ، أخذنى البهت ، ثم الاشرار عندما رنت إلى رئيسة
الديوان ..

ما ورايك يا جمال ؟ .

قلت :

وجود محدود ، ورغبة فى وجود غير محدود ..

قالت :

ما الذى دعاك إلى الخروج ؟

قلت :

حيرتى ، وألمى ، ورغبتى فى الولوج ..

وهنا التفت إلى سيد الشهداء ، صريع كربلاء ، فانشرح صدرى ، وتيسر

أمرى ، وتهلل قلبى ، وحشت نفسى عن الاندفاع إليه حشمة وتأدبا ورهبة ..

قال لى : ماذا يؤرقك ؟ .

قلت : ما كان وما سيكون .

لم أتمالك نفسى ، فقلت مندفعا وما من حجاب بيننا ..

كان أبى يحبك ..

لم يكسفى لاندفاعى .. أوما ..

أعرف ذلك ..

قلت : أنت عبق حيانى الأول ، عشت بجوار مرقد رأسك آمن أيامى ..

أوما : أعرف ذلك ..

قلت : كنا نصلى فى مسجدك العيدين ، وهناك رأينا عبد الناصر ومواكبه
فى بدايات النهار ..

هز رأسه : أعرف ذلك ..

تشجعت فقلت : كان أبى ملازما لضريحك ، دائم الطواف حوله ، لم
ينقطع عن صلاة به إلا لمرض أو سفر أو غم عظيم ، كان يستجير بك فى أيام
الشدة ، وكان يقول لمن يرضى عنه إنه سيقراً الفاتحة عند مقامك ..

قال : أعرف ذلك ..

قلت ولا مانع يردنى ، ظلالك تلف طقولتى وشبابى ، كان أبى يمسنى
بيد ، ويمسك أخى بيد ، ثم نمضى لزيارتك ، نخلع نعالتنا ، ونلج ضريحك ،
نقبل أعتابك ونخرج لنطوف بالشوارع القريبة ، باعة البخور ، السبح ،
المناديل الملونة ، المصاحف ، كتب السير والملاحم ، واللبان ، والبخور ،
الطواق ، العنبر فى علب صغيرة من الصفيح حجمها يماثل عقلة الأصبع ،
والعطور كنا نشرب الخروب ثم نتجه إلى المقهى القريب الملحق بفندق قديم
يتزل به بعض أبناء بلدتنا ، كان أبى يزورهم ، يحكى لهم ويسمع منهم ..

قال سيد الشهداء برقة ..

أعرف ذلك ..

قلت بحسرة ..

تلك أيام ولت بلا رجعة ..

قال : كل شيء وله أوان ..

التفت إلى أخيه الأكبر ، قلت : من أهلة طفولتي تبدو لي لوحة مطبوعة ملونة ، بها الأخضر ، والأصفر ، والأحمر ، يتوسطها والدكما عليه السلام ، يلتحف بعباءة خضراء ، بين يديه سيف في غمد ، فوقه كتب بلسان عربي « أسد الله الغالب ، علي بن أبي طالب » ، إلى يساره يقف الحسين ، وإلى يمينه . تقف أنت ..

هز الحسن رأسه ، بدا كأنه مغمض العينين ، انس قلبي ، رأيت الابتسامة ألطف من طلة الحبيب ، وأرق من الشعور بالأمن عند طفل ، ذهبت عنى الرجفة ، هدأت ، وفكرت فيما سأصير إليه ، تطلعت إلى رئيسة الديوان فتجلت لي مخوفة بظلال الندى الفجرى ، بهية سمحة ، شرحة ، مستفيضة ، دالة ، منجبة ، نجبية .. قالت ..

ماذا يحريك ؟ .

قلت : تبدل الأحوال ..

قالت : وماذا ؟ .

قلت : ما يبلى .. ما يزول .

قالت : وماذا ؟ .

قلت : ما من يقين باق ..

قال : ثم ماذا ؟ .

قلت : عكوفى على الأمانى ، وانقضاء الأوقات قبل تحققها ..

قالت : ثم ماذا .. ثم ماذا ؟ .

قلت : التحول ، والتغير ، والتبدل ، تحيرنى الأشياء فى تفرقها ، وتجمعها ، فى اختلافها ، واتفاقها ، الطاعة والعصيان ، الريح والخسران ،

العبد والحر ، الحياة والموت ، الوصول والفوت ، النهار والليل ، الاعتدال والميل ، البر والبحر ، الشفع ، الوتر ، الصحة ، المرض ، البداية ، النهاية ، الفرح ، الحزن ، الروح والشبح ، الأرض والسماء ، التركيب والتحليل ، الكثير والقليل ، الغداء ، الأصيل ، البياض والسواد ، الرقاد والسهاد ، الظاهر والباطن ، المتحرك والساكن ، اليباس واللبن .

توقفت ، كفت ، بعد صمت قالت رئيسة الديوان ..

لأنك حاولت ، لأنك جاهدت ، فستجلى لك بعض من بعض ، وليس كل في كل ، لأنك محدود بوجود مقدر ، ولن يتسع ، ستجلى لك لمع ، وأشارات ، سيصحبك من حين إلى حين سيد شباب أهل الجنة ، اصبر الصبر الجميل ، فلو مددت الكلام وحاولت السعى وراء الحقائق لكنت يمينك ولحفي القلم ، وضاعت القراطيس والألواح ..

مدت يدها ذات الندى والطل ، مستنى فأصبح البصر حديدا والتناول شاسعا ، قالت ..

ثمة أمر واحد - إن جاز تسميته بأمر - لن يتجلى لك أبدا ، لا تسأل عنه لأنك لن تحاط به علما مهما أوتيت ، ولن تنفذ إليه ، ولا تتعجل ، إن الإنسان كان عجولاً . قلت ..

قلبي مترع بالدهشة ، والخيرة ، والأمل ، فإنا من موضع لمزيد

وَمِنْهَا
تَجْلِيَّاتُ الْأَسْفَارِ

السفر الأول سفر الميلا

حقيقة ..

كل شيء في سفر دائم ..

بيان ..

طريق أبي في الحياة غريب ، وطريق في طريق أبي غريب ..

اشارة ..

الدنيا منزل من منازل المسافرين ، وانها لقنطرة على نهر عظيم جرار .. تعبر ..

التأهب

.. احتواني صريع كربلاء ، سيد شباب أهل الجنة بعينين سمحتين وجبين
وضاء ، ونظرات محب شفق ، حتى إني خجلت من التطلع إليه ، تلك رقة
لم أعهد لها ، وهذا حنان لم يسبق عليّ مثله ، سررت ، وتيسمت ، وتشببشت
ونزل في قلبي أمن وشوق ، أنست بعد وحشة ، وأصبحت كأني في جماعة

وحشد عظيم اقترت فشممت له رائحة طيبة ، ونفسا عطريا ، سألتى أنا ..

إلى أين السفر؟.

قلت :

أطول المسافات ؟.

قال :

الإنسان لا تسهل عليه صعوبات البداية ، إلا إذا عرف شرف الغاية ..

أمسكت بيده ذات الندى والطل .. قلت ..

انى مسلم إليك ذاتى ، لكننى تواق إلى لحظات الميلاد ..

فصل

كل شيء يدور ، تدور الأيام فى الأسابيع ، والأسابيع فى الشهور ،
والشهور فى السنين ، والسنين فى الدهور ، نهار يكر على ليل ، وليل على
نهار ، فلك يدور ، وخلق يدور ، حروف تدور ، ونعيم يدور ، صيف
يدور ، وشتاء يدور ، وخريف ، وريبع يدور ، شقاء يعقب راحة ، وحزن
بعد فرح ، وميلاد بعد موت ..

ريحانة من سفرنا الأول

تجلت لى قرينتا فى أقصى الصعيد ، تجلت فى الألوان ، الأصلية ، أما
مصدر الضوء فخفى ، ضوء فجرى ولا فجر ، حمرة شفقية ، ولا شفق ، لا
حرارة ولا برودة ، إنما هى اللحظة المواتية ، مع أن اسم اليوم مفقود ، وموقع
الشهر مجهول ، والسنة غير معروفة . يوم بعيد ، قصى ، مضموم على نفسه ،

غير متصل بغيره ، وصلت إليه بعد اقلاع ونأى ، تجلت لى البيوت
مضمومة ، متساندة فوق مرتفع حتى تبتعد عن مياه النهر زمن الفيضان ،
محاطة بنخيل كثيف ، وحقول ، وطرق متربة ، وسواك لم تدر بعد . وأشجار
دوم ، وجميز ، وسنط ، وكافور عتيق ، وتين له رائحة عسلية تطنى عند
المنحنيات . ألمت بالبيوت ، والبئر البحرية ، والجبانة القبلية . سريت فى
القرية ، بصرى حديد ، وغطائى مرفوع ، وصدرى رحب ، سمى ثاقب ،
وقلبى نافذ ، وحواسى مرهفة ، عرفت أنه ما من أحد يمكنه رؤيتى أو
الاصغاء إلى . وإن الحوار ملغى بينى وبين من أرى ، شب فى جنبى فضول ،
وعرفت أن اللحظة تدنو ، دخلت البيت ، رأيت ثلاث نساء يقفن ، يرتدين
الملابس السوداء الداكنة ، إحداهن قصيرة ، نحيلة ، شعرها جعد ، على
ذقنها وشم دائرى أخضر . تجلت لى جدتى ، ترقد بينهن ، وعلى وجهها ألم
عظيم ، تبدو لى دماء ، أولى بنظرى بعيدا ، لكننى أعاود التحديق ، تقول
المرأة القصيرة على فترات متتالية إن الفرج وشيك ، وإن الطلق تزايد ، وأنه
مبارك بإذن الله ، رأيت امرأة أخرى نحيلة ، طويلة ، تخرج من المندرة ،
وتطلب من رجل يرتدى عمامة من اللباد يلف حولها شال من صوف بنى
اللون ، أن يذكر الله حتى يحىء الفرج ، عرفت أنه والد أبى ، جدى
جدى الذى لن يذكر ملامحه أبى ، لأنه مات بعد عامين اثنين من ولادته ،
شغلت حينما بملامحه ، وإلى أى حد تنسب إلى ، أو انتسب إليها ؟ فوق
مصطبة مجاورة للفرن يتمدد فتى فى السادسة وإلى جواره شقيقه الأصغر ،
أعماى الذين لم أعرفهم لأنى لم أرهم ، وحدثنى أبى عنهم لأول مرة بعد
رحيله الأبدى وظهوره فى تجليات الفراق ، حاولت أن ألم بملامحهم ولكن
عبثا حاولت ، مع اننى كنت أرى ما لا يمكن لبشر أن يروه ، عجيب أن

أطيافا صغيرة ، وتفاصيل ضئيلة ، تغيب عني ، انتقلت ببصرى إلى داخل
المنذرة ، ورأيت المرأة القصيرة ، لم أعرف اسمها ، تمسك أبي المولود لتوه ،
تضربه ضربا هينا ، لينا ، على ردفه وظهره ، جاءت الصرخة الأولى نحيلة
موجزة ، تملكنى روع ، اقتربت أكثر ، تعجبت عندما مررت من خلال المرأة
الثالثة البدينة الصامتة طوال الوقت ، لم أعرف اسمها أيضاً ، التفت إلى
جانب قلبي الأيمن ، رأيت صريع كربلاء ، دليلى ، مولاي وصفيني
ومرشدى . يغيب عني إذا غبت عنه بفكرى ، ويبدولى إذا ما فكرت فيه ،
وإذا ورد على بالى ، وضمد خاطرى ، إذا لفتنى حيرة ، أو لفتنى خوف ، هو
قاب قوسين أو أدنى منى ، لا ينأى ولا يهجرنى ، يرفق بى ، ليس على
بضنين ، كنت وجلا ، مروعا ، مأخوذا حتى لا أقدر على البوح أو النطق .
كنت كأنى أنا ، كأنى الفرع الذى خرج منه أصله ، كأنى الصدى الذى
أحدث صوته ، كأنى الولد الذى أبوه ابنه ، كأنى القوس الذى اتصل
بنصله ، كأنى الظل الذى أوجد مصدره ، ذهلت فانتشيت أجوس داخل
روحي ، نهى حبيى ، أوما برأسه الطاهر الذى حُزَّ من القفا يوما وتتم بشفتيه
النورائيتين اللتين لفتها أشرف الخلق ، وعبث بها يزيد بن معاوية ، أوما باتجاه
أبي المولود ، حضنى على اطالة النظر إلى الحبيب المفقود فأمعنت أبى عمره
دقائق ، مغمض العينين ، منبعج الرأس ، تسرع المرأة القصيرة به إلى خارج
المنذرة ، ملفوف فى جلباب رجلى قديم ، نجمى به إلى والد والدى ، يرفع
رأسه ، بوجه خلو من التعابير ، تجرى لحظة المواجهة الأولى ، يبدو جدى
حريصا على ألا يظهر سرورا أو غما أو انشراحاً كأنه لو أظهر شيئا من ذلك
سيبدى ضعفا لا يليق بأشداء الرجال ، تشاغلته بالنظر إلى أبى ، رأيت شها
كبيرا بين وجهه وملامح أبيه ، كان مغلق العينين صامتا ، تقرص المرأة انفه

الدقيق برقة ، يصرخ أبي المولود ، وتلك صرخته الثانية ، يفتح عينيه مواجهها الضوء للمرة الأولى ، يتسم جدى ، يقول : « آه يا بن الفرطوس » .. وهنا ذهب أبى ، ولم أعرف اليوم ، والتاريخ ، والسنة ، مع أنى رأيت مارأيت ، وهذا عجيب !!

اطلالة

.. التفت إلىّ الرحيم بى ، فأوما برأسه الجميل وكأنه أدرك ما فكرت فيه أشار إلى بقعة الأرض التى لامسها رأس أبى لحظة خروجه إلى الدنيا ، ذكرنى محبى وحبيبى بأن الموجودات كلها تتكلم فى أسفارى وتجلياتى ، الأصول تتحدث وتجيبنى ، وهنا سمعت ما لاعهد لى به ، مالا أقدر على وصفه لبشر ، ما تضيق به حروف الكلام من كل منطوق ولسان ، أقول وشجنى رقرق معتق ان تلك البقعة كلمتنى ، وكان الكلام هامسا ، قالت إن أبى لامسها مرة واحدة ولم تتكرر ، لحظة ولادته ، العجيب انه قضى عدة سنوات فى هذا البيت ، لكنه لم يحب ولم يتمدد ، ولم يمش ، ولم يخط ، ولم يلعب ، لم يلامسها ، ولم يطأها ، وفى آخر زيارة إلى البلدة قبل رحيله الأبدى بشهر واحد ، جاء ، دخل كل البيوت ، سلم ، وتأمل ، واستعاد ، وتذكر ، صافح حتى النساء ، قضى ليلة فى البيت الذى ولد فيه ، بيت أبيه والذى آل إلى أحد أعمامه ظلما ، - هذا يطول شرحه ، وسيأتى تفصيله فى موضعه - . قضى ليلته فى الساحة الخارجية .

لم يطأنى ، ولم يجلس قرى ، ليس لأن البيت اتسع ، وأن مواضع الحجرات تبدلت ، وأن موضعى الآن صومعة قح ، أبدا ، لم ينظر إلىّ حتى ، فارقنى ولم يعاودنى لحظة ميلاده .

سكنت بقعة الأرض ، أطلت النظر والتحديق ، كان السؤال يلقي في ذهني ، وقبل أن ألفظه ألقى الجواب ، هكذا أجابني ، قالت إن والد والدي لم يطأها ، وإن مرّ فوقها مرات لا تحصى ، لكن أما أن يسبق بقدميه أو يتأخر ، كذلك جدوده . لكن ثمة جد بعيد ، عاش في الزمن القديم ، اتخذ مني مجلساً ، لم يفارقني لمدة تسعين عاماً ، لم يفارقني إلا ليقضى حاجته في موضع معين بين نخيل كثيف اندثرت شجيراته منذ زمن ، عندما جاءني لأول مرة كان عمره يتجاوز المائة عام .

نظرت إلى جانبي الأيمن حيث دليلى ومرشدى الحسين ، لم يبد مانعا ، لم يظهر اعتراضاً ، أو مأ فوقع تجلى الفؤاد ، واستعدت الزمن المفقود ، فرأيت جدي ، بدا متين البنية فتياً ، لكنه إذا وقف ينحني حتى ليلا مس رأسه منتصف صدره ، يتأيل إذا خطا ، يقطب إذا نظر ، يرتجف إذا أشار ، يهمس إذا تكلم ، يرتدى الحرق السود . عرفت أنه سليم الحواس . حادها ، مرهفها ، وانه يرى في الظلام ، ويسمع عن بعد في ضجيج العاصفة ، سليم الأسنان ، حدثني بقعة الأرض فقالت إنها الأسنان التي تثبت بعد سن المائة ، وإن ظهورها بدأ بعد عودته من طوافه ، تساءلت . أى طواف هذا ؟ قالت بقعة الأرض إنها لا تقدر على اخباري إلا بما جرى فوقها ، أو في باطنها ، وإذا شئت فلأستقصى من مواطئ أقدامه ، لكنني لم أشأ مفارقة الموضع الذي لامسه أبى عند قدومه إلى الدنيا ، فطلبت الانفضاء إلى بما تيسر ، حدثني بقعة الأرض فأوجزت وألخت ، قالت إن جدي البعيد كانت له كرامات وإشارات منذ ولادته ، هكذا تحدث بعض الذين جلسوا على مقربة ، قالوا إنه كان يحملق بعينه ، دائماً في السماء البعيدة ، وفي رمضان لم يكن يرضع إلا ليلاً وفي لحظة مرض أملت به رفعت أمه يديها إلى السماء ، طلبت له الشفاء فأجابها صوت خفي ، آمين ، وعندما شب لم

يرتكب معصية ، أو زلة ، وفي يوم شتوى غائم ، طرح أحدهم سؤالاً عليه ، قال له النعامة .. أمى حيوان أم طير؟.. لم يجب . إنما أمعن الفكر ، ثم دار على الناحية كلها ، سأل ، استفسر ، لم يشف غليله ما سمعه ، قرر أن يرحل بحثاً عن الاجابة ، اختفى من البلدة ، من الناحية ، لم يظهر له أثر ، ولم يسمع عنه خبر ، حتى عد مفقوداً ، ونسيه ناسه ، ساح في العالم لمدة مائة وعشرين سنة قبل رجوعه إلى الناحية ، ويلزم نفس البقعة التي لامسها رأس أبي ، قضى مائة وعشرين سنة في نفس الموضع يغزل الصوف ، يمر به الناس فيتعلمون ، أو يومثون ، أما الصبية فيتصايحون ويتساءلون عن هويته عن اسمه ، ومنهم احفاد احفاده . لا يعرفهم ولا يعرفونه ، بعضهم يرميه بالحصى ، ونوى البلح فلا يبذل جهدا لدفع الأذى عن نفسه ، في آخر أيامه قبل أن يختفى نهائياً جاءه رجل مديد القامة ، أبيض الشارب واللحية ، أزهر الثياب ، أنور الجبين ، سأل جدى ، هل عثر على إجابة لسؤاله ؟ هز رأسه من اليمين إلى الشمال ، واختفى لحظة نزول الغسق . وهنا صمتت بقعة الأرض ، وتلاشى التجلى ، سألت ملهوفاً ، ما اسم جدى ؟ فلم أتلّق إجابة ، ولم يسعفنى حبيبى ، رأيت تغير ذرات التراب ، وتوالى الأيام ، وتعاقب الليالى ، ونزول المطر الشحيح ، ولسع الرياح ، وانطواء الحر ، والبرد ، تقول بقعة الأرض لم يمسنى بشر ، ولم أكن موطناً لإنسان إلا لجدك القصى ورأس أبيك عند مولده ، مع ان موضعى معمر .. قلت وعندى أمل فى وصل الحوار ، والتلق ، ما اسم جدى البعيد ... ما اسم اليوم الذى ولد فيه أبى ؟ رأيت أبى المولود يرضع الرضعة الأولى ، وأمه تسند رأسه الصغير ، وفه يحاول الالتصاق بالثدى المنتفخ باللبن . رأيتة نائماً . رأيتة يحرك ذراعيه ، وقدميه ، رأيتة يحملق تجاهى ، ينظر إلى مكان وقوفى ، وكنت أترجع على مهل ، وصوتى داخلى

ملوم . مضموم ، فلا همس ، ولا يوح ...

زمزمة

إذا ما تجلى لى لكلى نواظر
وان هو ناجانى لكلى مسامع

وصل

تجليت برفقة حبيبى إلى يوم الأربعاء ، التاسع من مايو ، ستة خمس وأربعين ، وتسعائة ، وألف ، تجلت لى أُمى متعبة ، مستسلمة ، ورأيت نفسى مولودا فى نفس اللحظة التى ولد فيها أبى ، لم أدر ما بداخلى ولم أحط بكنه معارفى ، وما يدركه حسى . سمعت جدتى تقول لأُمى « مبروك جاءك ولد » تفتح أُمى عينها ، تتطلع إلىّ ، يحملونى إليها لترانى ، اقتربت لأرى نفسى ، رأسى منبعج ، جسدى مزرق ، يشبه وجهى ملامح أبى لحظة ولادته ، لكن ما من شبه يحمىنى بعيدى البعيد ، تقول جدتى ، ماذا تسميه ؟ تقول أُمى بإعياء الوالدة التى جاءت إلى الدنيا بمخلوق جديد ، « لن نسميه قبل أن ترسلوا إلى أبيه فى مصر... » ، الوقت فجرى ، والليل يتشقق ، وريح عاصفة تهز الباب الذى يستند خالى بظهره ، وعيدان البوص الجافة توشك أن تتطاير ، طقس عتيف فى غير أوانه ، تنظر جدتى إلى امرأة اسمها « الدودة » ، رأيتها مرارا فى سنينى الأولى ، زوجها خفير نظامى ، كنت أجلس إليها أمام الفرن وهى تدفع بأقراص العجين عبر فوهته ، وتلقى بالبوص ، والجلّة ، والوقيد ، ونمكى لى الحواديت ، امرأة طيبة وكنت أحبها ، ماتت منذ سنوات لم أدر مقدارها مع انقطاعى عن البلدة ، وقلة زياراتى ، وابتعادى ، نسيت ملامحها ، تاهت فى مجاهل طفولتى ، لم أرها إلا فى هذا التجلى بصحبة سيد شباب أهل الجنة ،

تبدو لى أكثر شباباً ، وامتلأ ، هى أول من امسكنى ، وأول من نظر إلى قبل
أُمى ، وقبل أبى ، وقبل جدتى ، أول من ضربنى لتنبعث منى الصرخة الأولى ،
رأيت دماء تغطى كومة حشائش خضراء فرشوها تحت أُمى ، أول ما لامست ،
تقول جدتى ، ادهى يا دودة إلى ولد حميد ، وخليه يكتب خطاباً إلى أحمد فى
مصر ، أطيل النظر إلى جسدى المولود ، الدقيق الأطراف ، المحدود ، رأيتنى
مغمض العينين ، ولا أقوى على مواجهة الضوء ، تعجبت ، وقلت : أهذا أنا ؟
يهز حبيبي الحسين رأسه ، يومئ ، يقول : أنت فى دهشة ، لكنها ليست
صورتك الأولى . لسبب خفى ، غمض على ، انتابنى حزن دنيوى خفيف ، فيه
لطف ، وشفقة ، وكأن صفى ومولائى أدرك ما حل لى ، فانتبى يسمح بيده
شعرى ، هدأت روحي ، وراق بالى ، وعدت أسافر عبر التجلى ، رأيت ولد
حميد يكتب خطاباً إلى أبى ، ورأيت الخطاب يصل ، وموظفاً لا أدرى اسمه
يقراً لأبى ، رأيت ارتباك أبى وسروره واختلاجات روحه وارتعاشات ملامحه ،
لم أطل النظر ، إذ ألقى سيد الشهداء بطمأنينة محورها اننى سأراه كثيراً فيما بعد ،
وسأتملى منه ، رأيت حيرة أبى عندما لا يهتدى إلى الطريق الأمل للتعبير عن
انفعالاته ، وعز على أن أراه مرتبكاً فناديته - خطوات تجاهه ، لكن سيد
الشهداء حاشنى برقة ، وحزم ، ما من فائدة ترجى ، الاتصال مقطوع ، الولوج
محال ، قلت يا أسنى ، ورأيت أبى يملئ خطاباً على شخص لا أعرفه ، ويطلب
من أُمى ، ومن خالى ، ومن جدتى ، أن يسمونى بعبد الرؤوف . رأيت أُمى
تحتضننى ، ورأيت جدتى تتلو التعاويذ ، تمسك بعروس ورقية تثقب مكان
العينين بإبرة ، ثقبوا متتالية ، كل وخزة فى عيني إحدى النسوة الحاسدات ،
رأيت نفسى أنقباً ، وكنت ضامراً ، نحيلاً ، ارتجف ، وتلفنى رعشة ، اخذنى
قلق واشفقت ان يحل لى مكروه ، انتهيت إلى ابتسامة شفيعى ، فأدركت اننى
أعيش ، وتعجبت ، كيف أخاف على هذا المولود الذى هو أنا وأنا هو أن

يتم ، رأيت أمي تبكي ، وأدركت أنها تذكر ولديها اللذين رحلا قبل مجيئي ،
رأيتها تخشى الفقد والشكل ، هممت أن اطمننها ، أن أقول لها انني سأعيش ،
كدت أنطلق ، ثم تذكرت فصمت ، تذكرت قول حبيبي في الديوان ، لكل
شيء زمان ، تقول أمي : « اكتبوا إلى أحمد ليختار اسما غير اسم عبد الرؤوف ،
لو استمر يحمل هذا الاسم فلن يعيش .. » ، تطمننها جدتي ، لكنها تصر ،
هكذا أنبأتها الرؤيا ، لم تشأ الافصاح ، لكن الولد سيضيع منها ، « اكتبوا إلى
أبيه » ، رأيت أبي يتسلم الخطاب الثاني ، ثم يصغى إلى سطورهِ ، ورأيتهُ يملأ
الرد ، ويطلب منهم أن يسموني جمال ، لم يفكر طويلا ، إنما ورد الاسم على
خاطره ، ورأيت الشخص الذي أراد أبي أن يطلق اسمه عليّ ، شاب من أقاربه
الأقربين ، طويل ، ممتلئ ، يسكن بيتا قريبا من النيل ، ويدرس في كلية
الحقوق ، مات بعد ولادتي بسبعة شهور ، رأيت أبي يبكيه ، ويذكرني لحظة
موارته التراب ، ويعود من القرافة إلى الحسين ، ويشتري لي جلبابا ، وطاقية ،
ورطلاً من الحلوى ، ويرسلها إلى البلدة مع مسافر ضرير ، رأيت أمي راضية
هادئة البال ، تهدهدني ، تغني لي : « نام نام وأنا أذبح لك جوزين حام » ،
كنت ملفوفا في خرق سود ، لم أستطع أن أرى وجهي ، أو ملامحي ولم أعرف ما
بي ، وإن خمنت انني اعاني ضيقا ما ، ولم أعرف ابن كم شهر أنا ، ثم شغلت
عن رؤيتي لنفسى بالاستفسار عن النساء الثلاث اللواتي حضرن ميلاد أبي ،
وعرفت انهن رحلن منذ زمن بعيد ، وإن أمي لاتذكرهن ، لا تعرفهن ،
وشغلت بالمسافة الفاصلة بين بقعة الأرض التي لامسها رأس أبي ، والبقعة التي
لامسها رأسي ، وكانت مفروشة بالنبات الأخضر ، فكانت سبعين ذراعا
قدما ، تصمت أمي ، أدرك انني نمت ، تميل عليّ ، تقبلني ، فيعاودني حزن
في وقتي ، لكنه حزن غثيت ، يكاد يعصف بي ، تطرق رأسي ، أخطو تجاه
سيد الشهداء مبتعدا عن أمي التي تحملني نائما وعلى ملامحها استسلام أمره

عجب ، يرت حبيبي رأسي ، فيزداد شجني ، ويحق لي التأسي ...

حقيقة ..

« .. لم ير آبي لحظة ميلادي ، ولم أر لحظة غيابه الأبدى ، وما بين القوسين
سر غريتنا .. » .

تجلى السفر ..

.. لا نزال في سفر دائم منذ نشأة أصولنا ، إلى ما لانهاية له ، إذا لاح
لك منزل تقول فيه ، هذا هو المهدف والغاية ، ثم تفتح عليك منه دروب
وطرائق أخرى ، ما من منزل تشرف عليه إلا وتقول ، هو نهاية المقصد ،
وإذا دخلته لا تلبث أن تخرج منه راحلاً ، كم سافرت في أطوار المخلوقات إلى
أن تكونت دما في أبيك وأملك ثم اجتمعا من أجلك عن قصد لظهورك أو
غير قصد ، فانتقلت منيا ، ثم انتقلت من تلك الصورة علقه ، إلى مضغة ،
إلى عظم ، ثم كسى العظم لحما ، ثم أنشئت نشأة أخرى ، ثم أخرجت إلى
الدنيا فانتقلت إلى الطفولة ، ومن الطفولة إلى الصبا ، ومن الصبا إلى
الشباب ، ومن الشباب إلى الفتوة ، ومن الفتوة إلى الكهولة ، ومن الكهولة
إلى الشيخوخة ، ومن الشيخوخة إلى الهرم ، ومن الهرم إلى البرزخ ، فاثمة
سكون اصلا ، بل الحركة دائمة في الدنيا ليلا ونهارا ...

وصل السفر ..

.. كأن استاذي ، وشاهد أيامي ، أدرك ما بي ، وما جال بخاطري ، وما
راودني ، فتوقفنا في الصالة العلوية لمستشفى دار الشفا بالعباسية ، أعرف اليوم

واللحظة ، ليست عنى بقصية ، الطابق رابع ومخصص بأكمله للولادة ،
رأيت نفسى ارتدى حلة رمادية ولى من العمر واحد وثلاثون عاما وستة شهور
وتسعة أيام وأربع ساعات ونصف ، أقف فى الممر المبلط ، لا يصلنا أى
صوت من داخل الغرفة المعزولة ، يقف والد زوجتى صامتا ، كذا شقيقها ،
ولم يكن أبى حاضرا ، كأن الزمن تقدم به ، ومنذ حول مضى فى الدنيا
غربيا ، أو مضينا نحن عنه فى الدنيا غرباء ، ومع أن هذا لا يصح ، ولا
يجوز ، لكنه أمر وقع ، ولا حيلة لى الآن إلا أن أهم ، أتألم وأسعى ، أتجلى
وأسافر وأعرف الغربة وأعانى لياليها اللوامس ، وأغرق فى بحورها الطوامس
أعانى ثقل الشوق الذى لافائدة ترجى منه ، ويأسرنى الفقد الذى لا راد له ،
وأذوق مر الفراق الذى لالقاء بعده ، والنأى الذى لا وصول يليه أو ينيه ،
وانحسر على ما انقضى وما فاتنى بلا فائدة ترجى ، لو عرفت ما عرفت
لسمعت وما تكاسلت وما توانيت ، ولما ارتكبت ما ارتكبت ، لكن أنى لى
بمعرفة المصير ، كنت جهولا ، عجولا ، خلق الإنسان من عجل ، لم يتبق لى
فى الأزمان المغبرة إلا أن أتجلى ، وأسعى ، وألوذ بشفاعة حبيبى ، لعله
يرضى ، لعله يخفف ، لعله ينجينى ، رأيت الباب يفتح والطيب يخرج ، يبدو
هادئا ، يتحنى بى ركننا ، يقول إن الولادة طبيعية ، وأنه اضطر إلى اجراء
جراحة بسيطة لن تترك أى أثر بالمرءة . يقول متداركا ، مبروك جاءك ولد ، ثم
يقول الأتعاب ثمانون جنيا ، وعشرون أجرة تخدير ، رأيت يدى تمتد
بالمظروف الذى يحوى النقود ، يقول شكرا ، ثم يمضى ، تمر دقائق قبل خروج
المرضة البيضاء تحضن إلى صدرها لفافة ، تتوقف أمامى ، تطلب من شقيق
زوجتى أن يفلق النافذة ، الهواء بارد ، تزيح طرف اللفافة ، أرى عيني
تحدقان إلى ابنى المولود ، مستطيل الرأس ، مغمض العينين ، رأيت لحظة

المواجهة بيني وبين ابني ، راعني أنه يشبه ابني شديداً حتى لكانه نموذج مصغر لوجهه ، كان مغمض العينين ، تمسك الممرضة انفه ، بصرخ مرين متعاقبتين ، تغطي وجهه ، تقف منتظرة ، رأيت يدي تمتد بالحلاوة ، خمسة جنيات ، تمضي إلى غرفة المواليد الجدد ، اليوم خميس ، التاسع من ديسمبر عام ستة وسبعين وتسعمائة وألف ، ما بين مجيء ابني إلى الدنيا وبين ميلاد شفيعى ودليلي الحسين ، اثنان وتسعون وثلاثمائة وألف ستة هجرية ، وما بين مجيئه وميلاد جمال عبد الناصر ثمانية وخمسون سنة ميلادية . وما بين مجيئه وميلاد أبي مقدار لا أعلمه من السنين والشهور والأيام ، نظرت إلى مجيى وإمامي ، ابسم برقة وحنو ، يهز رأسه وكأنه لا فائدة من محاولتي ، هل كان أبوك يعرف مقدار عمره ؟ قلت لا ، هل حاول أحدكم معرفة ذلك ؟ قلت لا . قال ، كيف ستعرف ذلك الآن ولماذا ؟ ولم أتكلم لأنني لاحظت لوماً أو ما يشبه ذلك في نبراته ، لهجة من يعرف ولا يريدني أن أعرف ، تجلت لي لحظة ميلاد أبي ، ولحظة ميلادى ، ولحظة رؤية ابني لأول مرة . رأيت نفسى أوجد ثلاث مرات في ثلاثة أماكن ، اتلقى ببصر واحد ، وأفهم بعقل واحد ، لم أشأ أن أثقل على صغيى ، فسألت نفسى بنفسى ، هل تشابه الملامح في لحظات البداية ، ثم تختلف عندما يبدأ السفر ، ونفترق في كل مرحلة ، فلا يبقى إلا الشبه الخفى ، غير المرصود ، الذى لا يعيه عقل ، حتى تتلاشى تماماً مع أقول العمر وحلول الهرم ، لماذا لم أهدأ ، ولم يسعفى مولاي ؟ وتردد داخلي : هذا من أسرار السفر ، أدركت أنه ما من موضع لإجابة ، رأيت نفسى لم أفارق الطابق الرابع ، الردهة خالية ، ولا فة صماء تطلب الصمت حرصاً على راحة المرضى ، ورائحة مطهر طبي ، وسكون في ضوء غسقى فخشعت ، وانتهت إلى صوت غريب يحدثنى بلغتى ، نبراته

غريبة ، وإيقاعاته عجيبة ، أذكرت صدوره من أحد الأحجار المصقوفة في جدار الطابق الرابع ، يقول لى إنه قبل أن يؤخذ ، وتشذب حروفه ، قبل أن يضعوه في هذا الجدار كان ملقى في حقل قريب من المكان ، كانت المنطقة كلها حقولاً خضراء ، قبل أن تجث وتترصف بالأسفلت ، وتقوم المباني ، وهنا تحولت الموجودات فرأيت الحجر ملقى على مقربة من سكة حديدية ، وأعمدة تلغراف ، وسماء منبسطة ، والوقت ليس بليل ، وليس بنهار ، ورأيت أبى قادما من أقصى المدينة يسمى . رأيت متعبا ، حواف جلاببه مثقلة بتراب ، بدا فتياً ولم أدر عمره ، ولا فى أى السنين هو ، وأن عرفت أنه بلا مأوى ، وأنه فى أيامه الأولى بالعاصمة ، وانه لم يعرف بعد شوارعها ، وانحأها ، وحاراتها ، ودروبها ، وانه لكى يتقل من مكان إلى مكان فلا بد أن يسأل ، وأن يستقصى ، وأن يستوثق ، وأن يبرز العناوين المكتوبة ، أذكرت أنه يقصد أحد ابناء البلدة فى الضاحية القريبة ، وأن أمامه وقتاً طويلاً ، رأيت ينظر حوله ، رأيت حيرته ، حيرته الخاصة ، المنبعثة من ملاحظه ، ومن شقائه ، ومن غلّبه ، يتوقف فجأة أثناء سيره ويتلفت حوله كأنه يرجو العون من خفى لا يُرى ، يقول « آه يا بوى .. » . يتمدد ، يستند رأسه إلى الحجر ، بعد لحظة يضع ذراعه تحت رأسه .. ذات الحجر الذى حدثنى من موضعه فى جدار المستشفى الذى ولد فيه ابنى ، تجليت داخل التجلى ، سافرت خلال السفر ، ورحلت إلى الرحيل ، بينا الحجر يكرر برتابة : توسدن أبوك ، توسدن . نظرت إلى مخلصى ، بدا صامتا ، حتى اخشعنى صمته وأقعدنى سكونه ، وخطر لى ، كيف رأيت ما رأيت ، ولم أر لحظته هو ..

تنبیه ..

لا تطلبوا المولى الحسين بأرض شرق أو بغرب
ودعوا الجميع وعرجوا نحوى قمشه بقلبي

السفر القصي ..

.. هذا سفر صعب ، وما فيه تلميح لا تصريح ، وإشارة لا إفصاح ،
اليوم هو الخامس من شعبان ، السنة الرابعة للهجرة ، امرأة تحدثني ، لا
أعرفها ، تقول إن فاطمة الزهراء أولدته بعد حول من مولد أخيه الحسين ،
فجاءها النبي ﷺ وقال : هاقي ابني ، فدفعته إليه وهو ملفوف بمنحرة
بيضاء ، فاستبشر به ، واذن في أذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ، ثم وضعه في
حجره وبكى ، فقلت ، فذاك أبي وأمي يا رسول الله مم بكاؤك ؟
قال : أبكى لما يصبه بعدى ...

أسفار الميلاد ..

. لم أسأل ولم استفسر مع أن الخطوب كثيرة ، والمسائل عديدة بلا
حصر ، لكنني خفت أن اضايقه ، أو أخالف له أمرا بدون قصد ، تبعته
كظله عندما واصل السفر ، وبعد حين رأيت لحظة ميلاد زهرة من شقائق
النعمان ، ورأيت لحظة انشقاق بيضة في عش صقريقع فوق دروة . ورأيت
لحظة موت حوت معمر ، ورأيت لحظة بداية الغمام في الأعلى ، ورأيت
انفلاق حبة قعح ، ولحظة إخصاب نخلة ، رأيت ميلاد جمال عبد الناصر في
حجرة رمادية ببلدة صغيرة نائية ، ورأيت لحظة إخصاب بويضة داخل رحم

امرأة في مدينة شهباء ، مبانها بيضاء ، في أقصى اقليم الشام ، رأيت النطفة
ثم العلقه ثم الجنين في أطوار ، ورأيت الأب يقول بعد الميلاد بدقائق ، سموها
«لور» ، التفت إلى وليي ومرشدي متعجبا ، أجباني باختصار سيكون لك
شأن معها في التجليات المستقبلية ، كدت اتعجب ، كيف سألقاها ، وهي
من أقليم بعيد ، وما من فرصة بادية ، لكنني لم أسأل ، رأيت تكور واكتمال
كوكب بعيد ، رأيت لحظة فناء نجم خارج المجرة ، رأيت النجم إذا هوى ،
لحظة ميلاد البرق ، وتفجر الشرارة ، ورأيت جنين سنبله ، ميلاد اللبن في
تلافيف الضرع ، رأيت ميلاد الندى ، ظهور الموجة لحظة اكتساب اللون
لصفاته ، الأحمر للأحمر والأزرق للأزرق والأصفر للأصفر ، رأيت ميلاد
فكرة ، محيى معنى ، رأيت ميلاد الفراق ، واللقاء ، وارتجافة الفقد ،
تدفقت الرؤى ، اغمضت عيني عندما توهجت التجليات ، لا عهد لي
بذلك ، تمنيت الفرار من تلك الأسفار ، لكنه شد على يدي ، وانتظر
فانتظرت ، حتى خف عني ذلك الذي روعني ، وعندئذ مسكت على
أنفاسي ، وعدت هادئا ، قريرا ، كأني غريق بعد النجاة ، كأني مولود
لتوى ، ما طمأنني وقوفه إلى جوارى ، وشده لأزرى ، رأيتته يلاأفق المبين ،
ليس على بضنين . خطر لي الخامس الصفح الجميل لو انني اخطأت بدون
قصد . لكنه هدأني ، فسطمت من الأذى ، استسلمت وتأدبت ، وسرحت
في كل ما رأيت .. وإذا به يقول بحنو : تجلد فأمامك أسفار طويلة ..

لطيفة شعرية ..

فقلت اخلائي هي الشمس ضوءها
قريب ولكن في تناولها بعد

تجلیات الأسفار
وَمِنْهَا
أسفار الغزبة

حقيقة

إني من الراحلين أبداً ، فليس لي استيطان أصلاً ..

دمعة

يارب لم نبك من زمان
إلا بكينا على زمان

سفر الابدال

.. تجلى لي أبي طفلاً محبوباً ، ثم طفلاً يلهو ، في أى زمن ؟ ما موقع اليوم
بين الأيام والسنة بين السنين ؟ هذا ما لم أعرفه وما لم أقف عليه ، لم يطلعي
شفيعى ومولاي ، قدرت تقديراً لكننى لم أستطع أن أحلد ، ابن ثلاثة ؟
أربعة ؟ ربما يدنو من الخامسة .

في هذه الأسفار أثناء مواجهة أبى وأحبابى وغير أحبابى سألنى أنواعا
وأنواعاً ، فواجهته من حيث اتى أراه . وأخرى من حيث إنه يرانى ، ومقابلة
من حيث إني أراه ويرانى ، مرة أأتس به ، ومرة يأتس بى ، ومرة نأتس

معا ، ومرة يوحشني رأيتة مريضاً ، أمه مهمومة ، تعلق إلى رقبته حجاباً
مثلاً ، ترجو شيخ المسجد أن يقرأ له ورداً وأدعية ، تطيل النظر إلى وجه أبي
مخطوف اللون ، شاحب الرواء ، تخشى أن يكون الجن قد أبدلوه في الليل
عندما تركته وحيداً ، أبدلوه بطفل عليل من عندهم ، وأضفوا عليه ملامح
أبي ، تجيها الجدة نجمة التي تجاوزت المائة ، نبت لها الأسنان الخضراء ،
تزوجت من جنى مؤمن في صباها ، لذلك لم تقترن بالرجال قط ، تنصحتها
بحمل أبي إلى الساقية المهجورة ، تضعه بجوار بثرها الجافة ، وعجلتها الخشبية
المكسورة وأن تقف ضارعة ، متوسلة بأصحاب الكرامات وأرباب الطريق ،
ترجوهم مساعدتها على استعادة طفلها الصحيح وأن يأخذوا ولدهم المعتل
السقيم ، وإذا استحال ذلك فالعوض على الله العلي القدير ، وليأخذوا
البديل ، تمضى جدي ، بقلب داعم ترك أبي وحيداً لا يعي هجره ،
يضمده الليل والسكون ، تردد حوله أصوات الليل الخلوى الغامض ، خفت
على أبي أن يأكله الذئب أو يختطفه بعض السيارة من العجر الرجل الذين
يعبرون القرى ويعيونهم على الأطفال وما خف حملة ، وقفت إلى جوار جسمه
الضامر ، رجوت مولاي أن يؤنسني ، فاستجاب لي ، قطعت الليل بطوله ،
لكنني قرب الفجر والنجوم تتناقص في السماء وملامح النخيل تتحدد ،
اختلط الزمن عليّ ، وتداخلت الرؤى ، واشتد التجلي فرحلت إلى عدة
أماكن في وقت واحد ، نزلت مدناً متباعدة في آن معا ، رحلت إلى الأزمان
المختلفة ، فكنت أرى شوارع المدينة الواحدة عند بداية انشائها ، وأسمع
ضجيج حركتها بعد قرن من زمانها ، صرير باب ، تشقق جدار ، خرير
ماء ، وصياح إنسان ، ويعار الشاة ، وخوار البقر ، ونهيق الحمار ، ضجيج
المواكب ، زئير لجموع في أزمنة الاضطرابات ، رأيت الأوقات الحشنة ،

والفترات الآمنة ، تشعبت ، تفرقت . منى رحلت إلى جهات متعددة ، كأنى
قسمت إلى عدة أشخاص ، يحركهم عقل واحد ، ويرون الموجودات بعينين
اثنتين ، ويتكلمون بلسان واحد ، استمر ذلك ، ثم تملكت ، وتجمعت ،
عدت بعد أن شردت ، كنت أعى ذهابى فى رجوعى ، وإيابى فى ذهابى ،
أرى ما سافر منى يأوى إلى ، وما رحل منى يستقر عندى ، حتى تم اكتمالى ،
فتحت عيني ، فإذا بالصبح ساطع ألق ، أبى ليس فى مكانه ، فزعت ،
أخذتني الرجفة ، وتملكني الهدة ، تجيء أمه من بيتها تسعى . رأت مكانه
خاليا ، لطمت ، عاطت ، شقت ثيابها ، وعندما مالت لتهيل تراب الأرض
فوق رأسها ظهر أبى ، خرج من بين أعواد الذرة ، بدا ضاحكا ، صحيحا ،
موردا ، كأن لم يمسه أذى ، ليس به مرض ، ذهب عنه العلة ، صاحت
أمه تسأله ، أين كان ؟ ارتمت عليه ، تحسسته ، حملته ، هذا قلبها ، وبردت
نارها ، لم تقص إلى إنسان باستجابة الجن لها ، وإعادتهم طفلها الصحيح ،
غير أنى لاحظت ما لم تلاحظه هى ، رأيت تغير خطوه ، يمشى بميل إلى الأمام
بينما يلوح ظل خفيف لعرج ، وهذا لم يكن به ، ورثناه عنه ، انتقل إلى
ابنى ، وابنتى ، وأحفادى من بعدى ، ثم تجلى لى أبى فى فناء البيت ، تقعد
أمه مفتوحة العينين ، لكنها لا ترى ، عمياء ، متى جرى ذلك ؟ لم ألتق
جوابا ، يبدو أبى فى السادسة أو السابعة ، عرفت أنه يتيم ، وأنه لا يذكر
ملاح أبیه الذى رحل فجأة تاركا أباه ابن ثلاثة أعوام وعدة شهور ، وهنا
سافرت برجمة إلى ليلة نائية ، جدى شاحب ، متعب ، عاد بعد أن قطع
مسافة طويلة مشيا ، لم أعرف الغرض من مشيه ، دخل والعمة هادئة ،
والنجوم بعيدة ، قام ثم قعد ، ابتعد ثم اقترب ، نظر إلى السماء القصية ، إلى
نجوم ثلاثة تقع على خط مستقيم ، عندما يتحرك موضعها إلى الشرق يصبح

الفجر واجبا ، لكن النجوم الثلاثة لا تبتعد كثيراً عن مركز السماء ، يروح جدى ويحيى ، يأبى دخول الغرفة التحتية حيث تنام جدتى وإلى جوارها أبى ، يقعد فى الرحبة المكشوفة ، يسعل مرة ، ثم مرة ، ثم مرات ، يهتر جسده حتى ان سعاله يوقظ جدتى ، تتساءل مخضوضه عما به ؟ يقول إنه متعب ، وإن صدره يؤله ، تخاطبه من داخل الغرفة . تطلب منه أن يدخل . الليل بارد ، يقول إنه يتظر حلول الفجر ، تسأل جدتى بينا سعاله يهن ثم يهن ، هل أغلى لك ورق الجوافة ؟ سعاله يتقطع ، كأن شيئاً يتعثر فى حلقة ، عرفت أن صوتها يبدو له بعيدا ، وان طنينا يبدأ ، وأن داخله يرق ويهوى فى بئر بلا قرار ، وإنه غير قادر على الرد ، وإنه يردد بلسان مثقل ... خلاص ... خلاص ، وان آخر ماورد على ذهنه من صور صورة ابنه الذى هو أبى ، تخرج جدتى ، تحيط جدى ، تصرخ ، تعول ، وليت نظرى شطر أبى ، مستغرق ، نائم ، يحلم بوقيد القرن ، ورائحة جلود القرب التى يحملها السقاعون على ظهورهم متفخخة بمياه البئر ، غير أنه ظامئ ظمأ شديداً يحمله أبوه ، يستعد ليسقيه ، غير أن رجلا غامضا يصرخ من بعيد ، فيغلبو أطفال كثيرون .. يستيقظ مفزوعا ، نظرت إلى يمينى ، رأيت مولاي ، شفافاً ، رهيفا ، أبديت الرغبة بصامت نطقى فأذن لى ، عندئذ بدأ معراجى إلى منزل الأحلام ..

سفر خاطف

.. رحلت إلى حلم بعيد لأبى فى ليلة لم أدر موقعها من طفولته ، لم أعرف موقع المكان الذى يتمدد فيه ، كنت بمفردى لكننى متصل بشفيعى ، تغيرت

الألوان والموجودات ، وأصبحت حى القلب ، فطنا بمواقع الحروف
والألفاظ ، ممسكا بجوهر المعانى ، رأيت نفسى ، وكنت أدرى أننى الواقف فى
بحال رؤيتى ، رأيت ما فوق وما تحتى ، ما يحيطنى ، تبدل فجأة وجهى ،
أصبح وجه جدى ، لم أروع ولم أفزع ، لأننى كنت أعى أن الواقف هو أنا
وان تبدلت ملاعى ، أو تغير حجمى ، أو تلاثى وجودى المادى ، شغلت بما
تيسر لبصرى من المكان ، النبات أخضر ، وصحراء قرية ، خط من بيوت
متضامة ، كل بيت من أربعة طوابق ، أبى فى شرفة الطابق الثالث ، ملاحه
تراوغنى ، فأراه طفلا ، ثم شابا ، ثم هرما ، ثم تتداخل مراحل العمر ..
سألنى :

أنت من ؟ .

فقلت :

أنا جمال ..

فقال :

جمال من ؟ .

فأجبت :

جمال .. الذى سينبت من صلبك وسيكون ابنك ..

بدا حائراً ، لا يفهم ، أدار ظهره لى بعد تحديق ، وإذا به يقف على
شاطئ بحر عريض بلا آخر ، بحر متوحد الزرقة كأنه مرآة ، يمسك جفنة
معدنية منقوشة ، يملؤها بماء البحر المالح ، يقلب به بعيدا ، يتحول الماء إلى
بخار يتصاعد إلى عمق الكون ، تستمر حركة يده ، أدرك أن سنين طويلة
مرت عليه ، يتزع ماء البحر ، سأله ..

عم تبحث ؟ .

التفت الىّ ويده لا تتوقف ولا تكف ولا تن .. قال .. عما ضاع مني ..
لم أدر كم انقضى ، غير اني سمعت الأسماك والحيتان والأصداف
والشعاب وسائر مخلوقات البحر تستجير منه وتستغيث : لو استمر سيجف
البحر ، وتنكشف القيعان ، وتنتفى الحيوانات ، تنهد البحر مضطراً ، التي بين
يدى أبى بما ضاع منه ، هرعت لأعرف ، لكن حيل بينى وبين ذلك ،
استدار بعد حين فإذا بجسده ضامر ، وعليه تعب وغبار أيام ثقيلة لا يمكن
نفضه ، قلت : عندما تغيب ستمضى في نفس ساعة رحيل أبيك ، ستقول
نفس الكلمات ، لكن لن توجهها إلىّ لأننى لن أكون إلى جوارك ، انتهت إلى
اننى أحاوره بدون كلام ، بمجرد النظر نتحدث ، ليس بيننا كلام معتاد ،
والاصطلاح بالنظر أصلاً ، كنت إذا نظرت إليه علمت جميع ما يريد
منى ، وإذا نظر إلىّ علم جميع ما أريده منه ، فيكون نظرى سؤالاً ، ويكون
نظره جواباً ، وقد يكون نظرى جواباً ، ونظره سؤالاً ، منى إليه تنتقل
أحاسيس جمّة ، ومشاعر تضيق عنها ألفاظ الدنيا ولغاتها ولهجاتها ، قال لى ،
وردد ..

لكننى لا أعرفك ...
نطقت بالنظر الأسيان ..
أنت لم تتجبنى بعد ..

صمت عنى ، آذن سفرى بانتهاء ، انسحبت ، تراجعت بدون خطوط ،
يعبرنى غمام سابح ، ندف فوقها ندف ، كنت فيما يبدو ثقیل الوطأة على رؤياه
في منامه ، استيقظ مكروش النفس ، حزينا ، رأيت الإمام الحسين إلى
جوارى ، وكان أبى في حدود الثلاثين أو الخامسة والثلاثين ، هكذا قدرت ،
يرقد في بيت غريب عنه ، عرفت أنه ضيف ، وأنه سيمضى في صباح الغد ،

إلى أين ؟ ، حجب ذلك عني ، عرفت أنها المرة الأولى التي اقترن فيها بأبي قبل أن ينجبني ، عرفت انني في هذه الفترة من عمر الدنيا كنت ذرات متفرقة ، متوزعة ، وعناصر شتى ، بعضها ولج داخله ، وبعضها في سبيله إليه ، وبعض لم يستدل إليه بعد ، عرفت أن آلاف المواضع احتوتني ، وأن شيئاً مني ما زال قصياً ، نائياً ، بعيداً عن التحقيق ، رأيته بعد استيقاظي يبذل محاولة لتذكر ملامحي ، رسمى أو اسمي ، لكن تفاصيل الحلم تبددت من ذهنه ، كذا اسمي الذي نطقته ، لكن الحلم ترك احساساً مبهماً أقرب إلى الكدر..

انتهى معراجي الخاطف ...

تلقيين ..

.. لما كان العالم أكرى الشكل ، لهذا يحن الإنسان إلى البداية ، النهاية متصلة بالبداية ، لا بد من نهاية وإلا ما كان ثمة بداية ، أول النشأة الإنسانية رحم ضيق حيث لا هواء ولا حروف ولا كلم ، وآخرها قبر حيث لا ظل ولا رؤى ، أولها يتمدد على الظهر رضيعاً ، وقرب نهايتها يرقد على الظهر هرماً ، عاجزاً ، أولى الخطى مرتجفة ، مترددة ، وآخر الخطى مرتعشة ، واجفة ، رقبة الوليد مثقلة بالرأس ، تهتر ، يسيل لعاب الفم ، ترتجف الرقبة العجوز ، وأيضاً .. يسيل لعاب ، في الطفولة تلفه الوحدة فيبكي ، في الهرم تشتد عليه الوحدة فيأسو ولا يبكي ، أولها ظهر منحني كذا آخرها ، عند الخروج إلى الدنيا لا يدري بشر ماذا يعقل المولود ؟ وعند الخروج من الدنيا لا يدري إنسان ماذا جال بعقل الراحل وأى صور رأى ، أى فكرة طرأت ؟ هكذا

تلتحم النقطة بالنقطة ، تتصل الدائرة ، ويكمل الشبه بالعالم الأكرى ..
فتعلم !! .

سفر الموجودات

.. تدفق سفرى بصحبة مولاي عبر حجب وفراغات مجهولة لى ، تعجبت
إذ يشمل الديوان هذا كله ، عرفت اننى على صلة بسائر الموجودات ، سمعت
نداءات الأغصان ، وحوارات الأحجار ، وهسهسات النجوم ، ولغيات
الندى ، ولهجات الرياح ، وصريخ النيازك ، واستغاثات الشهب ، وأنين
الذرة عند انشطارها ، واصداء تمدد الكون الناقى ، كنت أفهم مايلفظ وما
يقال ، تتقرب الموجودات من أنا برفقته ، تناجيه ، تدعوه ، تؤنسه ، تبدي
الاستعداد للروح ، للنطق ، حدثنى جدران البيت الذى أقام فيه أبى مع أمه
العمياء ، كلمنى الجدار الشرقى عن تحذيرات أمه المتكررة ، ان يتببه إلى
عمه ، أن يأخذ حذره منه ، إنه يبغي به ضراً ، حدثنى الجدار القبلى عن
طففتها عليه إذا خرج ليملاً أو ليقايض بائعاً متجولاً على شىء كأن يستبدل قدح
فح ، بحفنة ترمس ، حدثنى صومعة القمح والفرن ، والمصطبة الأمامية عن
وحدة جدتى ، عن خشيتها الليلية ، عن قيامها ، وتحسسها الطريق إلى ابنها
الذى هو أبى ، عن شمها لرائحته ، اصغاتها إلى أنفاسه ، ثم تلمسها طريقها
إلى الباب ، اغلاقه بالضبة والمفتاح ، واطفاء اللبة الساروخ حتى لا يستدل
غريب أو قريب على مكان نومها ، حدثنى وصداه يولى : تبدل الحال
بالحال . ثم نزل صمت ، ظل بصرى مشدودا إلى جهته ، إلى الفراغ المؤدى
إليه ، حتى أدركت ضياع الأثر ، احتوى الموجودات صمت عجيب لا عهد
لى به ، تلجى قائم ، كان أطراف الكون استجابت لشجنى الشفوى الذى

مبعثه خفى عني ، في غماره أطلت على نخلة من الباسقات المورقات ، همست إلى بنعم طيب فيه أبدية ومحايدة وسرع عجيب ، حدثني عن أبي ، بدأت أرى ما تفضي به إليّ ، رأيت أبي طفلاً ، قدرت انه ابن عامين ، لم أسأل عن عمره لأنني ابتغت من استحالة الرد علىّ لما واجهته من صمت عني بهذا الصدد ، وان لم تن رغبتى ، اضمرت النية في التوجه بفضولى إلى شفيعى ، إلى رئيسة الديوان عندما تحين لحظة قد تكون ملائمة ، لعل وعسى ، رأيته مرحاً في الأرض ، يلعب أمام جدى ، وهنا طلبت الرحيل المباغت ، فرأيت أبى مولوداً تهدهده أمه ، تلاعبه ، تناغيه ، تناديه بألفاظ المحبة ، رأيت لسانه صغيراً ، رقيقاً ، عيناه متفتحتان لم تتخلصا بعد من زنقة الولادة . تزايد أساى ، وهن غصنى ، وتضعض قلبي ، ما أوسع الفارق بين ما أرى ، وبين وجه أبى الذى ودع به الدنيا ، الوجه المثقل بمواقع السنين والأيام ، بالغضون ، بالحنين الذى لم يرتو ، القلب الذى لم يشبع ، والتعب البادى حتى في لحظات سروره ، لمت نفسى ، وعنفت عمري ، لأننى عايشته طويلاً ، خبرت لحظات ضيقه ، واطلعت على منابع آلامه ، ولم يدر بخلدى أنه كان طفلاً يوماً ، وأنه هدهد ، وأنه لوعب ، ودوعب ، التمسّت العذر ، ومن هو مثلى ليس له إلا التماس العذر بعد أن فات الأوان ، ثقلت اعذارى فكتمت عني ما بى ، رشحت عيني الوسنى فأخفيت دمعى في أغوار حلقي ، حنت النخلة علىّ ، مالت بحريدها العالى حتى لامسنى قالت لى الشواشى : لا تمزن ، ستعلم عدد السنين والحساب ، خفف هذا عني فأنست بعد وحشة ، رأيتها فارعة لا تهتر إلا في الليالى العاصفة ، قرينتا مسورة بالنخيل ، رحل بصرى إلى الموضع الذى احتز فيه رأس سيد الشهداء . رأيته مضمدا بالنخيل ، حدثنى نخلة أبى : لك عودة إلى كربلاء ، حدثنى عن موت

جدى ، وتيم أبى ، وطمع عمه ، واستناده إلى الجزع المتين ، وتخطيطه التراب بعود قش ، وتفكيره فى الأرض التى ورثها أبى ومقدارها فدان ونصف فدان ، وأربع وعشرون نخلة موزعة على البلدة ، أذن لى بالرحيل الخاطف ، فرأيت نفسى أمشى مع خالى عند منحى ينز رائحة التين العسلىة . وفضاء غروبى تتخلله دقائق وابور الطحين ، مكتومة ، تتوحد بالفضاء الصامت الغريب المؤدى إلى المجهول ، يتوقف خالى ، يشير إلى نخلة بين النخيلة : هذه نخلة أيلك ، رأيت جزءاً من زمنى المولى ، نصحب أبى ، أنا وأخى الأصغر ، نمشى بين بيوت البلدة ، يظهر عم أبى ، قصير القامة ، نحيفاً ، عمامته كبيرة ، نترجع ، نتوارى خلف أبى ، لا نعد أيدينا ، إذ نرور البلدة لا نذهب إلى أهل أبى وناسه ، لانقطاعه عنهم منذ زمن ولسماعنا أنهم أرادوا به الأذى ، لكن أى أذى ؟ وكيف ؟ هذا ما لم نخط به علماً ولم نعرفه ، رأيت أبى راجعاً لتوه من قريتنا ، أطلت التحديق فرأيت عمرى فى حدود الثانية عشرة ، يحكى أبى أخبار سفرته ، ثم بصمت قبل أن يقول ، إنه باع النخلات ، تسأل أمى : ألم يكن ممكننا رهنها ؟ يقول : لم يقبل أحد والمدارس اقترت والأولاد فى حاجة إلى مصاريف ، وملابس جديدة ، هل يعقل أن يذهبوا بملابس السنة الماضية ؟.. عدت إلى النخلة الوحيدة الفارحة وكنت مقدد الأحران ، أقبلت عليها ، تلك تمت إلى أبى وإن لم تعد ملكاً له ، تلك عانى من أجل الاحتفاظ بها ما عانى ، ثم باعها لينفق من ثمنها علينا ، أطلت النظر إليها ، مددت البصر ، وهنا نظر إلى إمامى الحسين . فهمت عن صمته ، يطلب ألا أسرع ، أن أحذر العجلة ، إن الإنسان كان عجولاً ، عدت اصغى إلى النخلة ، حدثتني فقالت إنها شهدت أبى من الأعلى يعيش مع أمه العمياء بعد رحيل أبيه أربع أو خمس سنين من عمر الدنيا ، كانت أمه تخشى أقاربه ، وتخاف

الأيام الدانية فتدخر المال القليل ، يقول لها أبي : هاتي لنا لحماً نأكله ، تنظر إلى الجهة التي يجلس فيها ، تقول : أنا أعمل من أجلك حتى لا تصعب في كبرك ، يرتد أبي إلى صمته ، حدثت إليه بالبصر الموله ، قدرت أنه ينسل من طفولته في تلك السن المبكرة ، وأنه يعول المهم في عمر لا يشغل فيه غيره إلا باللهو ، لم أره يلعب حيث يجب اللعب ، ولا يجرى حيث يجب أن يجرى ، رأيته يواجه الدنيا صامتاً ، يقضى جل وقته في تقشير عيدان البوص وتكوين أشكال متداخلة ، يمر على مقربة من المسجد ، ويصغى إلى أصوات الأطفال ، يرددون وراء الفقيه الحروف ، والكلمات ، فيأسو ، ويتمنى ثم يبتعد ، عادت النخلة تميل على من عل ، غرب زمان أبي ، ورأيت شيخاً مهيباً ، قادماً من بعيد ، يمشي على هباء ، فانتظرت ما يكون ..

يا من قضى ..

.. يكتسب ما حولي لونا لا مثيل له في عالم الحس ، درجة واحدة فلا ظلال ، ولا تموجات ، أزرق وليس بأزرق ، يتقدم الشيخ عبره ، يواجه سيد الشهداء ، لم أسمع حواراً لكنني فهمت أنه يأخذ الاذن ، يستدير حتى يواجهني ، عرفته ، تعانقت نظراتنا ، لم أكن قد واجهته منذ أن جاءني بصحبة أحبائي وأوليائي ، عندما تعانقت نظراتنا ، ثم ولى عني بدون لفظ ، وأشحت عنه بدون كلام ، لكنني نفذت وفعلت .. في هذه المرة تحدث إلي ، قال الشيخ الأكبر عبي الدين بن عربي ..

.. اعلم أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام ، الذي هو أول جسم انساني تكون ، وجعله أصلاً لوجوه الأجساد الإنسانية ، وفضلت من خميرة طيبته فضلاً خلق منها النخلة ، فهي أخت آدم ، وهي لنا عمة ..

قلت : تلك نخلة تمت إلى أبي . وكما مضى هو ستمضى هي . طال الأجل
أو قصر ، وكل ماضٍ عدم ، وكل مستقبل لا وجود له ، ستجتر يوماً ويصفر
سعفها ، ثم يحف ويذبل ، سيثقل جذعها ، ربما امتد جزء منه في سقف بيت
لا نعرف أهله ، وربما نصب جزء آخر في جسم جسر خشبي يصل ضفتين
متقاربتين لا ندري من سيطؤه .. قال الشيخ الأكبر ..

لا ينجو حذر من قدر ..

صمت ثم قال ..

في منزل البقاء بالديوان ستجد مثلتها ، مخضرة ، مشرقة دائماً ، ومن
عجائب مطعوماتها أنه أي شيء يؤكل منها أو يبلى أو يتساقط ينبت بديل له
في نفس زمان أكله أو قطعه ، إذا قطعت منها ثمرة فزمان قطعت أياها يتكون
منها مثلها ، فلا يظهر فيها نقص أصلاً ..

سمعت هاتفا خفياً يصيح ..

يا من تقضى ، ولا يقضى عليك ..

واختفى الشيخ الأكبر ..

النبوءة ..

.. رأيت علياً بن أبي طالب في إحدى سفراته يمر بكريلاء ، كان الحسين
ياغفا بعد ، آمناً غوائل الدهر وعواديهِ ، رأيت أباه يقف ولا يترجل ،
يفضطرب قلبه اضطراباً عظيماً ، يطيل النظر إلى البلدة المحاطة بالنخيل ، إلى
الفرات ومائه المتدفق ، إلى السماء المرفوعة بغير عمد إلى تراب الأرض ، ثم
يبكى ، فيسأله من معه ، لماذا يبكي ؟ لكنه لا يجيب ..

التمهيد ..

.. عادت النخلة الحبيبة تحدثني فأصغيت ، قالت إن عم أبي راح يلف البلدة ، يزور البيوت ويتحدث إلى الأقارب ، إلى الأعراب ، إلى المقيمين ، إلى العابرين ، يكلمهم عن الأرملة العمية التي مات زوجها وتعيش مع طفلها الذى لا يدري من أمور الدنيا شيئاً ، انها تمشى على هواها ، تجلب العار للمرحوم شقيقه ولابنه من بعده ، رأيته يجلس عند السواقى وقرب البئر القبلية ، فى الرحبة المبللة بضوء القمر والنجوم النائية ، يتكلم بلسانه ويديه . له تهته واطراقة . وإشارة من أصبعه الصغير ، يردد .. إذا كانت سيرة المرأة بهذا الشكل فهل الولد - يقصد أبى - من صلب ابيه حقا ؟ .. تحدث طويلا وعينه على القلدان ونصف القلدان من قبل ومن بعد ..

تجلى الوجوه المتتابعة

.. تمهلت تخلقى ، اخضر جذعها ، وابيض سعفها وتباطأ عن الاهتزاز حتى سكن ، سرى داخلى ترتيل خفى ، تساوى عندى القرب والبعد واقترن الشرق والغرب ، شددت الرحال إلى الجهات الأربع الأصلية وأنا واقف لم أبحر مكافئ ، سفرى خاطف ، والبرق حولى بُريق ، والأنغام خفية ، مرقت عبر مدن هاجمة فى ضوء غروبى واهن ، تمهلت خطاى فى ضواحي آوى سكانها داخل بيوتهم فما من إنسان يدل أو يرشد ، تفرق مكنون فؤادى ، وتبسست الأزمنة أمامى ، وترددت أصداء اللحظات المارقة ، والأوقات المتباعدة عني ، المنقضية ، وصلت إلى انحاء شاسعة ، رأيت وجوها جمعة ، رأيت أيدى تقبض على حزن من تراب كربلاء ، تحمله أينما اتجهت ، رأيت

اللمحظات التي فار فيها تراب البقعة المشهودة محتلتا بلون الدم فأنبأ بما سيصير
وما سيجرى لمولاي ودليلي ، رأيت وجوها من جيشه قليل العدد ، رأيت
وجوها من الجيش الذي عرفته وعرفني وشهدت حربه قبل اغرار الزمن ،
رأيت وجوها متحلقة حولي ، كالقناديل الهائمة ، رأيت وجوها ظمأى ،
وجوها تميل بعد عبور القناة لتقبل الرمال المحررة ، رأيت وجوها باهتة ،
وأخرى ساكنة . وجوها ناطقة . وجوها زاعقة ، مصدر الصرخات لحظة
الالتحام بالعدو ، رأيت وجوها غائبة ، وأخرى هويتها حاضرة ، وجوها
حائرة ، وقلة أئية ، رأيت وجوها مثقلة بالغربة ، بالوحدة ، بالعزلة ، ورأيت
وجوها ونيسة ، ضاحكة . رأيت وجوها قادمة إلى الدنيا لتوها وأخرى ماضية
إلى مجهول محض ، وجوه ساعية ، وأخرى قاعية ، رأيت وجوها في وجوه ،
مبحرة عبر الشطايا ، تفوص ، تطفو ، تمسك بالحد المتين ، تلك ملامح
مفتقدة للأنس ، وهذه متألة ، وتلك عابسة . وجوه أعرفها . وكثرة أجهلها ،
تتوالى المراثيات ، أطيف ، وشفق ، تداخل ، انفراج ، تباعد واقتراب ، في
الخصم لمحت وجوها لم أره إلا مرة واحدة في زمن الجراح النازقة ، أيام وقوع
الجزيمة ، توسلت إلى شفيعى أن يوقفنى عنده فاستجاب لى . خاطبته بضمير
صارخ وذاكرة جلية ، قلت له : غبت عنى بعد أن رأيتك المرة الأولى
والأخيرة ، لكنك باق في قلبي ، والبقاء الحقيقي في القلب ، كالموت
لا يكتمل إلا إذا استقر في القلب . وتذكرت بألم ينهل منى ويستنى ، زيارتى
لزوجة صديقى الشهيد ، لامبالاتها ، وتبدد الذكرى ، وسريان النسيان .
قلت له : أنت تسكن عندى في منزلة الصاحب والمثل والقُدوة ، قلت : لن
أكذب ولن أدعى . قد تمر أيام لا استعيدك فيها ، لكنك حى دائماً إذ
تداعى المعانى حولك ، أنت رأيت أيام الضياع العظمى بداية فقد عصره

بأكمله ، مفتتح زمن البلوى ، كنت لا أطيق العودة إلى بيتي ، أخشى
الهجوم ، وأخاف الانفراد ، من مقهى إلى مقهى تنقلت ، من شارع إلى
شارع ، ظهر الجند المتعبون المنسحبون من خط الدفاع الثاني ، أذكر أحدهم
مبهل الثياب ، منكوش الملامح ، ضجت سبائاً بالظلم ، والقتل ،
وشبعت الضباع والذئاب ، سمعت أصواتها المسترخية في ليالي يونيو الحارة عند
خروجها إلى الحلاء تطلب شم الهواء لتهمس اللحم الآدمي ؛ وقالت إحدى
مجنونات العدو الذي صار صديقا ..

وصل في فصل

أقول أنا :

عجبت للناسي وقومي ، يتصرون إذ يهزمون ، ويهزمون عندما يتصرون ..

وصل في وصل

.. قالت المجنونة : غاصت مدرعاتنا في الأجساد كما تغوص السكين في
الزبد ، وفي حجرة رمادية الطلاء بمبنى إحدى الصحف قابلته ، كان مبجوح
الصوت بعد طوافه يوما وليلة وجمع من الخلق وراءه يهيب بعبد الناصر ألا
يذهب ، ألا يمضي في تنفيذ ما قاله عندما أطل بوجهه مكروبا من شاشة
التلفزيون ، قبل ظهوره بثوان كنت آمل في مفاجأة يعلنها أو تطور في أنباء
القتال يخفف بدايات جراحاتي ، لكنني عندما رأيت ملاعجه الشكلي تضعضعت
أمانتي ، تذكرت الأيام ، في الحجرة المطلية باللون الرمادي قال صاحب
الوجه المتألم : لا فائدة ترجى من الكلام الآن ، ضاع الوطن الأول ، ويضيع
الآن جزء من الوطن الثاني ، ما من حل إلا القتال ، انصرفنا ، افترقنا ، أمام

المبنى سألت صاحبي الذى يعرفه : من يكون ؟ قال إنه فلسطينى يدرس الزراعة فى القاهرة ، وينظم الشعر أما اسمه فإذن أبو غزالة ، توالى الأيام الثقال ، ذكرته والأوجاع متمكنة منى ، وسوء الليالى تلفنى ، كم مر من الزمن حتى قرأت اسمه فى الصفحة الأولى للجرائد ؟ ، ربما شهر أو شهران ، ذات صباح من هذه الصباحات المؤدية إلى الشتاء ، أطل على اسمه من سطور الصفحة الأولى عندما كانت معارك الثأر تنشر فى الصفحات الأولى ، كذا صور الشهداء ، كان ذلك قبل انقلاب الآيات ، وتبدل المعانى ، قبل أن يصبح الأخوة ألد الأعداء ، والاتصال بهم أو التعاطف معهم ، يجعل الواحد منا جاسوسا أو خائنا ، إذن .. استشهد مازن أبو غزالة - أقول استشهد ولا أخشى - فوق مرتفعات طوباس ، مازلت أذكر الموقع الذى سألت فيه دماؤه ، ورأى منه الصورة الأخيرة - ترى ماهى ؟ - مازلت أذكر موضع الخبر من الصفحة ، وعبارات البيان ، ما زلت أذكر طوباس ، إذن .. أنا حتى القلب ..

ملتقى خاطف ..

نعم .. الذكرى لمن كان له قلب ..

وصل فى وصل فى وصل

.. رأيت وجه مازن عند انهيار الجسد . جاءته الشظية من جانب الصدر الأيمن ، ولت ملاحه عنى ، رأيت قبسا ضئيلا من يوم كربلاء ، عبد الله بن مسلم بن عقيل يقترب من الإمام الحسين ، يقول : أتأذن لى بالقتال ؟ يقول له

الحسين ، يا بني كفالك وأهلك القتل ، يقول : يا عم بماذا ألقى جذك محمدا
وقد تركتك ، والله لا كان ذلك أبداً ، يتقدم ، يحمل على القوم يقاتل ،
يرميه رجل بسهم ، يخترق جانب صدره الأيمن ، يسقط صارخا ،
متحسرجا ..

وا أبتاه .. وانقطاع ظهره ..

تلوح ملامح مازن في أفق قصي ، زعقت ..

مازن .. عرفت كيف تموت ، ولم نعرف كيف نحيا ..

رأيت وجه جندي عمره بمائت عمري ، نقف في خندق محاط بأكياس
الرمال وصفائح مضلعة من حديد ، يشير إلى الضفة الأخرى من قناة السويس
يقول : بعد قليل تتغير نوبة الحراسة عندهم ، رأيت وجهها هائماً ، حائماً
كقنديل مضيء معلق بخيوط لا ترى ، لم أعرف صاحبه ، رأيت وجه أبي كما
كان يبدو في تلك الأيام التي لم أكن أدر أنها أخيرة ، رأيت متعباً ، ينظر إلى
من داخل عينيه ، وكنا نقف عند محطة للأوتوبيس ، وثمة رجال ونساء
ينصرفون ، يتفرقون ، العودة الليلية ، رأيت وجه أبي ، يسعى في صباح
باكر ، يحمل إفطارنا ، طبق الفول ، ودورقا مليئاً باللبن ، رأيت كاملاً ،
يرتدي الجلباب ، ويمشي في طريق أعرفه ، واحفظ ملامحه لكثرة ما عبرته في
صغري وفي كبري ، في مبتدئ وفي خبري ، طريق يصل بين حارة الدرب
الأصفر ، ومدخل حارة الميضة ، وكان البقال في موضعه ، والمدرسة
الابتدائية ، وتاجر الخضار ، والمسجد الأثرى القديم ، ومدخل الحمام الصغير
الضيق ، والمقاعد مرصوفة أمام المقهى ، رأيت هذا كله ، وكان يتكشف لي
جزءاً فجزءاً ، لكنني لم أر غير أبي ، الطريق خال تماماً ، لون الضوء
يرتقلى ، درجة من اللون كونية لا أرضية ، ثم رأيت نفسي فجأة ، ولم يد

على أنى أنه لاحظنى ، أو رآنى ، استمر فى مشيه وكنت أمشى إلى الخلف ،
أواجهه بصدري وملاحى ، يتقدم وأترجع ، لأخشى التعثر أو الكبوة ،
كنت أرى بظهرى ، كنت أواجهه فى حركته ، قامنى تماثل قامته ، كل شعرة
من رأسى بجذء شعرة من رأسه ، عينائى تقابلان عينيه ، وأننى يقابل أنفه ،
ونفس التعبير الذى أراه على وجهه ، منطبع على وجهى ، ناديته فلم أسمع
صوتى ولم يسمعى ، لكن خيل إلى أنه التفت إلى جهة ما ، فجأة ترامت
وجوه ، تدفقت ملامح ، رأيت وجه الرياح ، وجه المطر ، ملامح الندى ،
وجه الظل ، وجه الليل ، وجه النهار ، النهار المشمس والنهار الظليل ، وكان
ذلك أشمل من عينى ، من حدائق* المحدودتين ، لم أحتمل ، لنت بحبيبي
لكنه شغل عنى بالنظر إلى جهة لا أقدر على تحديددها ، جهة ليست من
الجهات الأصلية أو الفرعية تطلعت إلى ناحية خاطبتنى منها النحلة الباسقة ،
لكننى لم أرها ، بل أدركت أن أوانها آذن بانتهاء ، ربما تعاودنى فيما بعد ،
توارت عنى ، صمتت عنى ، ولا قدرة لى على انطاقها ، كنت حزينا ولا
أخشى الحزن ، فالحزن إذا فقد من القلب حوب ..

تنبيه

ما يجمعه وقت ، يفرقه وقت .

درس

اعلم أن العالم الدنيوى الذى نحن فيه الآن له انتهاء يؤول إليه لأنه
محدث ، وحكم المحدث أن ينقضى ..

أمنية

ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى ..

نشوء الحيرة ..

.. أطلعتني مولاي وقرّة عيني على بعض من أسرار رحلي ، عرفت أنه من بين رفاق سفرى الأصوات والروائح والأحاسيس ودقائق ما يفنى وما يستحدث ، عرفت أنني إذا أخلصت الاستجابة للتجليات رأيت ، وإذا رأيت سمعت ، وإذا سمعت شعرت ، وإذا شعرت استقصيت ، وإذا استقصيت فهمت وإذا فهمت أدركت ، وهكذا اندفعت ، انجرفت إلى تلك اللحظة النائية من الليل المنطوي في غيايات الدهر ، رأيت جدتي نائمة ، أخبرني الحر الشديد أن الخلق ضجوا منه لطول اقامته ، وثقله ، وقال بعضهم إن مثله لم يقع منذ سنوات ، تحففوا من الثياب ، واحتموا بعتمة الليل ، ضاق صدر أبي ، فصعد إلى أعلى السقيفة ، نام فوق أقراص الجلة الجافة ، وعيدان البوص ، كان يرتدى جلباباً قديماً ، ولى وجهه باتجاه السماء ، نظر إلى النجوم ، إلى ضباب غامض يتخلل الفراغات ، وهنا أخبرني نجم قصي أنني مقبل على لحظات سيستعيد بها أبي مراراً ، في أمكنة متباعدة ، في أوقات مختلفة ، في الصحو والنوم ، أخبرني الليل الجليل أن ملامحه أثناء النوم بدت متعبة ، أكبر من عمرها الحقيقي ، وأن نومه هادئ ، لا صوت يصدر عنه ، صدره منتظم في تنفسه ، هذا ما أكله لى أيضاً الهدوء الجنوبي المشحون بالنذر ، وجن قلبي ، تمنيت لو أزعت ، لو أهزه محذراً ، لكنني لم أفعل لاستحالة تحقق ذلك ، هنا نطق الصمت ، سمعت السكون يقول إنه كان

مستكنا ، لا يبيده إلا نباح كلب ناء ، أو أصداء بعيدة غامضة المصدر ،
قادمة من أعماق الدنيا ، واهتزاز أخصان أو أوراق لمرور حيوان ما عبرها ،
وعواء ممطوط للذئب يقعى ، حدثنى الصمت المستكن فقال إن الذين قدموا
إلى البيت كانوا حفاة ، تسلقوا الجدار البحرى المبني من اللبن ، هبطوا القناء
الداخلى ، ثم ولجوا الغرفة ، بركوا على جلتى العمياء ، صرخة ثاقبة ، فيها
فرع إنسانى ، ونهاية لا بداية بعدها ، ومباغثة ، وعماء فى عماء ، حدثنى
الصرخة فقالت إنها آخر صوت نطقته قبل أن يكلمها ، قبل أن يغوص
النصل أربع عشرة مرة فى جسدها ، وهنا كلمنى الذعر الذى ألم بأبى ، قال
إن أبى لم يستيقظ بسبب ضجعة ، أو صرخة ، كان مستغرقا ، خلوا من
الأحلام فى هذه اللحظات لكن ثمة شيئا غامضا ، سببا يستعصى على
التفسير ، جعله يقوم لاهث الأنفاس ، قلبه يلقى ، وعرقه يترق ، أكد لى
الذعر الذى ألم بأبى أنه لم يوقظه ، لكنه حل بروحه وسكن جسده لحظة أن
فتح عينيه ، وأن أمورا غامضة رافقته عند تمكنه من أبى ، وأن هذا كله دفعه
إلى الجرى ، إلى القفز فوق أسطح البيوت المجاورة ، عاد الصمت ليحدثنى
عن نباح الكلاب الذى بدأ ، نباح ليلى متذر متلاحق ، فى هذه اللحظة
رأيت القتلة داخل البيت يتقدمهم عم أبى ، يبحثون داخل الصومعة ، فى
غرفة الخزين ، فوق الفرن ، ثم صعدوا السطح ، تكسرت عيذان البوص ،
وأقراص الجلة تحت أقدامهم ، رأيت النصل الذى قطع الأوردة ، وأنهى
حياة جلتى ، خفت أن يعثروا على أبى ، أن يلحقوا به ، رأيت وجه أبى
مغموسا فى خوف ورعب وظلمة ، سمعته يردد . استر يارب .. استر يارب ..
أمى ، أمى ، لم يكن قد عرف بعد بما جرى لها ، علمت بمقتل جلتى قبل أن
يعلم ، واطلعت عليها فى لحظاتها الأخيرة قبل أن يدرى أو يتخيل اننى سأكون

ابنه ، كنت قريباً منه ، وكان دانياً منى ، حدثنى مسام جلده عن عرقه
الغزير ، رأيت ارتعاش اطرافه ، رأيت تهدجه ، رأيت لحظة ميلاد هذه
النظرة التى لازمته حتى فى أوقات مرحة وتخففه من كدوراته ، نظرة الشقاء
والضنى ، نظرة تعب وحيرة ، نظرة الرغبة فى الهجوع ، فى التماس الراحة ولو
لمقدار محدود من الوقت ، اصغيت إلى صوت نحيل ، اسيان ، لم أدر
مصدره ، أو كنهه ، يقول لى أنها ليست بنظرة ، لكنه ملمح أيضاً ، وصفة ،
ومعنى وعلامة ، ما رأيته ميلاد الحيرة والخوف من المجهول اللامرى ، لكنك
لم ولن تعرف مقدار الحنين الذى أنهك أبالك طوال عمره ، وحزنه الشاحب
الرهيف ، الحاد كنصل السكين عند استعادته هذه اللحظة ، قبوعه فى الليل
الغميق مطارداً بالموت ، واليقين من أنه لن يرى أمه ثانياً أبداً . لحظات إذ
يستعيدها تعكمه وتدغمه ، تضفى الرجفة على خطاه ، والقلق على تعوده ،
والسكوت المفاجئ أثناء حديثه ، والغم لحظات سروره ، والشرود عند
اصغائه ، وتأتى بالكوايس إلى نومه ، تدفعه إلى التردد بصوت مرتفع .. آه
يابوى ياأنا .. ابتعد الصوت عنى ، غير اننى رأيت لحظات متوالية متتابعة ،
من أزمنة متباعدة ، يجلس فيها أبى صامتا بيننا ، يقول فجأة .. آه .. آه ..
يابوى ياأنا .. يقعد فى شرفة آخر بيت سكن فيه ، البيت الذى كان بسقفه
وجدرانه آخر ما رأى ، يسند رأسه إلى يديه ، يقول فجأة .. آه يابوى ..
يأكل ، يجلس بين ضيوف جاءونا من البلدة ويتحدث ، يضحك ، ثم
يسكت فجأة ، آه يابوى .. يأكل ، يمضغ ، يبلع ، يصمت .. آه يابوى !
يسعل ، يعبر طريقاً مزدحماً ، يغص بالخلق فى وسط المدينة ، يتوقف ، بينما
يعبره الزحام من جميع الجهات ، يقول .. آه يابوزيا ياأنا ! ..

واقعة ..

. ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثمانين ميلادية .
ليلة تفصل غروب يوم الإثنين عن شروق الثلاثاء ، عدت بعد سهري إلى بيت
صديق الذى أقضى فيه أيامى بمدينة باريس الأوروبية ، فردت الأريكة بنية
اللون المنقوش قماشها بورود زرقاء والى تتحول إلى سرير ، غسلت وجهى
وأسنانى ، وملأت كوبا أحرص على أن يظل قريبا منى أثناء نومي خوفا من
ظما مفاجئ ، نمت ، لم أدر بماذا حلمت ؟ أو ماذا رأيت ؟ لكننى فزعت
من نومي ، قت مكروبا ، أنفاسى متلاحقة ودقات قلبى متسارعة وعرقى
وفير ، وأطرافى مرتجفة ، لم أدر أى حلم رأيت ؟ أو الصوت الذى ايقظنى إن
كان هناك صوت ؟ لكن بؤرة ما هزنى كان أبى ، كنت ملهوبا ، خائفا عليه ،
وعندى شفقة وحنو عظيمان ، قعدت فى الفراش مرددا بلا توقف ، بلا
فواصل سكونية ، مالك يابوى .. مالك ؟ ..

ثم تداركت نفسى ، نظرت حولى ، بدأت أعى ، تلك حجرة ليست فى
بيتى ، هذا بيت ليس فى مدينتى ، أنا فى مدينة نائية عن موطنى ، أنا فى سفر
بعيد عن أبى ، أبى بعيد عنى ، خف كرى ، قلت بصوت مرتفع : هل
سأصدق الهواجس ؟ نظرت الى ساعتي ، كانت الثالثة والثلاث من فجر يوم
الثلاثاء بتوقيت باريس ، نفس توقيت قاهرقى ..

تفسير ..

.. تجلى لى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، ولما كنت لا أقدم على
تصرف أو فعل إلا إذا نظرت إلى سيدى الحسين ثم استأذنه بالقول أو النظر ،

لهذا تطلعت إليه ، فأذنى لى .. بادرنى الشيخ الأكبر فقال إن ما جرى فى باريس ليس بغريب على بعض الأفراد دون غيرهم وإننى يجب ألا أطيل التفكير فى ذلك لأن أموراً عديدة لا تزال مستعصية على الإدراك لكنها ستعرف يوماً ..

لاحظت أنه يتحدث إلىّ بدون أن يقترب منى ، وأن مسافة تفصلنى عنه لم استطع تحديدها ، تبدو لى قريبة ، لكن صوته لا يتغير ، وحججه فى نظرى لا يدركه نقص أو زيادة حدثى برقيق إشارة ودقيق عبارة :

رأيت مثل ذلك لوالدى - رحمه الله - وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوماً أخبرنى بموته ، وإنه يموت يوم الأربعاء ، وكذلك كان ، فلما كان يوم موته - وكان مريضاً شديداً بالمرض - استوى قاعداً ، غير مستند ، وقال لى : يا ولدى اليوم الرحيل والبقاء ، فقلت له : «كتب الله سلامتك فى سفرك هذا ، وبارك لك فى لقاءك !» . ففرح بذلك وقال لى «جزاك الله يا ولدى عنى خيراً ، كل ما كنت اسمعه منك تقوله ولا أعرفه وربما كنت أنكر بعضه هوذا أنا أشهده» ، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء ، له نور يتلألأ ، فشر بها الوالد ، ثم إن تلك اللمة انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه ، فقبلته وودعته وخرجت من عنده ، وقلت له «أنا أسير إلى المسجد الجامع أن يأتينى نعيك» ، فقال لى : «رح ولا تترك أحداً يدخل على» وجمع أهله وبناته فلما جاء الظهر ، جاءنى نعيه فجئت إليه ، فوجدته على حاله - يشك الناظر فيه - بين الحياة والموت ، وعلى تلك الحالة دفناه ، فسيحان من يختص برحمته من يشاء ..

قلت : « إذن سافر أبي في نفس اللحظة التي فزعت فيها ؟ » .
قال الشيخ الأكبر :
« نعم » ثم اختفى ..

ماذا لو؟

.. ماذا لو أنه نام بالغرفة إلى جوار أمه ؟ ماذا لو أنه لم يفرغ من نومه ؟
ماذا لو انه لم يول مبتعدا ؟ تساءلت فعلت أراه بجوار أمه ، الليل ثقيل
والصمت جاثم ، لم يحدثني الصمت ولم يشرح لي النجم القصي ، إنما رأيت
الظهور المفاجئ للقتلة ، النصال ترتفع وتهوى ، يتمكتون من أبي ، وهنا
أحاطني عماء ، وتبعثرت في الموجودات ، تفتت إلى ذرات غير مرئية ،
وتلاشيت في مترل النسيان فلم التّم ، ولم أكن نطفة ، ولا علقة ، ولم أكن
شيئا ، لم أنطق ، ولم أبصر ، ولم أصغ ، تبددت ، وذاب وعيي في لا
وعيي ، استغثت ، استجددت ، امسكني شفيعى منها ذلك التجلي الثقيل ،
كنت مرعوشا فطبطب علىّ ، واسانى ، وحننا علىّ ، اسر إليّ بما جرى عندما
غاص النصل في ظهر أبيه علي بن أبي طالب ، قال إنه رأى قاتل أبيه بعينه
لكنه لم يمد إليه يدا ، لم يعذبه كما ادعى بعض المؤرخين من عملاء معاوية
أوصى والده بذلك وأنفاسه تتناقص وتغشى إلى التلاشي ، قال له ولأخيه
الحسن : عزمت عليكما لما حبستما الرجل فإن مت فاقتلاه ولا تمثلا به . قال
مؤنسى انه رأى قاتل أبيه بعينه ، هنا لحت التأثر في صوته ، فأطرقت صامتا
وأنا متحير ، لا أدري ماذا أقول ؟ وكيف أواسي أنا من يواسي الدنيا ؟ وكيف
أخفف عمن يخفف آلام الشهداء ، أتى لي بمخاطبة من هو بمخاطبات الدنيا
خبير ، عليم ؟ ، وكأنه أدرك ما بي ، فتركني أعود إلى أبي ، أو أعاد أبي إليّ .

سلام ..

.. السلام على الأيام الرواحل ، السلام على الأعمار المتقضية ، السلام على
البهجة الزائلة ، والبسمة الحانية ، والأنة الشاكية ، واللحظة التي لا يمكن
استعادتها أبداً ، السلام على أيام الجهاد ، والنزى الذى احتوى ، والظلال
الوارقة ، السلام على ماهوآت ، السلام على الدهر المهلك ، المحيى ، القائم
بالسنن ، السلام على الطل والندى .. السلام ، السلام على المن والسلوى ..

السفر إلى البدايات والنهايات ..

.. سافرت برقعة إمامى إلى تلك الأيام من حياة أبى ، دنت منى الموجودات
بعد طول نأى ، ودنوت منها بعد شتات عجيب ، حدثنى الليالى المتوالية عن
بداية هجاج أبى ، وهيامه على وجهه ، حدثنى مواطئ قلمي عن خطوه
المتعب ، عن كده وتعبه ، عن قعوده ، عن قيامه ، عن تمدده بقرب السواق
المهجورة ، والآبار التى جفت ، وعند حقول القصب ، عن هربه من عمه الذى
سكن البيت ، وراح يبحث عنه ليقتله وتوول إليه قطعة الأرض والنخلات ،
كلمتنى السكونات المساقية ، وافصح لى الصمت الغروبى ، عن خوفه ، عن
حذره ، عن افتقاده السقف ، والفراش اللين ، والباب المغلق ، ورائحة الطعام
فى القدر الفخارى فوق الكانون ، ورائحة الأرغفة لحظة خروجها من الفرن ، عن
قراءته الفاتحة كى يبعد الشياطين والأرواح الشريرة السارحة وأرواح المقتولين
الهائمة ، الأرواح التى تظهر للناس فى صور مختلفة ، على هيئة بشر ثم تنقلب إلى
صور الحيوانات والسعالى ، تطول وتقصر ، ترسل الشرر ، حدثنى قر ضنين
الضوء غير مكتمل عنه ، عندما لبد بين النخيل فى المتخفص الممتد تحت بيوت

البلدة ، ورؤيته لخيال غريب يمرق عبر السعف المتشابكة ، يقفز يتللى ، يتقلب ،
يقذف أماكن نائية بحجارة مستديرة ، لم يدر أى من أين يتناولها ومن أى جعبة
يستخرجها ؟ ، تلا أبى الفاتحة ، وآية من قصار السور ، اختفى الخيال ، فيما بعد
عرف أنه عفريت قاطع طريق ، وأنه يظهر فى الليالى شبه المظلمة ، وانه يقلف
مواضع بعيدة جداً بالحجارة ، حدثنى الليالى المتعاقبة عن ارتعاده ورجفته ،
ودعائه ان يقضى الظلام ، ان يسرع النهار بالبحى ، عن خوفه من الذئاب ، من
الضباع ، خاصة الضباع ، سمع أنها تتعقب الإنسان بصبر ، بإصرار حتى ينال
التعب منه ، عندئذ تثب عليه ، تضربه ضربة واحدة ، تطرحه أرضاً ، تبدأ لحس
أجزاء معينة من جسده ، ما حول الأست ، باطن القدمين ، حتى تفكك
الأعصاب ، عندئذ تبدأ الاتهام الشره ، كلمتنى نخلة نضرة ، سخية الطرح ،
قالت إنها مدينة بوجودها واهترازاها اللطيف ، واخضرار سعتها إلى أبى ، لم يكن
ممكناً ان توجد لولا دفنه لنواة بعد أن أكل بلحة صفراء صغيرة مستطيلة ، عاش
اياماً على البلح المتساقط وثمار أخرى ، تلك البلحة الصفراء تأملها بعينه الأرقنتين
ومسح التراب عنها يديه ، بعد أن أكلها شرد ذهنه ، ساح بفكره ، وتذكر أمه ،
ترحم عليها بصوت عال ، ثم بكى ، واثناء بكائه دفن النواة الصلبة فى الطين ،
فوق نفس الموضع تساقطت دمعات من مآقيه ، دموعه أول من روى البداية ،
قالت لى النخلة إنها منذ بزوغها إلى الدنيا ، فى نفس اللحظة الماثلة تذرف دمعتين
وان جاراها من دمع أبى القديم ، ولن يتزف كله إلا إذا ذبحت أو اجشت من
جذرها المتين . تعجبت وتأثرت ، قلت .:

إذن أنت مسقية بدموع أبى ؟ تحترينها فى رحمك المكون ؟ قالت النخلة
المزهوة النضرة ، لولا أبوك لما كنت ولما تمايل سعفى عند هبوب التسمات ، لما كان
طرحى ، واخصابى . كدت اطلب لحظة بزوع الدمعتين غير ان مفرج كروبي

امسك يدي مسكاً هينا لينا حازماً ، قادني فرأيت قبراً وحوله رمال صفراء ناعمة متوحدة اللون كأنها لا تفارق الأصيل أبداً ، منها تثبت شجيرات شاحبة الخضرة ، لم أعهد لها ولم أعرف اسمها ، أشار قائلاً : هذا مثوى أبي أمير المؤمنين ، وتلك الشجيرات منا ونحن منها ، صحبني إلى رؤية أخرى ، رأيت قبر جمال عبد الناصر الرخامي ، رأيت مهجوراً من الحراس ، من الناس ، أما الزمن فتقدم عني غريب على ، عرفت ان القبر خال منه ، فكذت أستفسر ، لكنه أشار إلى ورود حمراء صغيرة يتخلل كلاً منها دوائر زرقاء ، تتوسط كل دائرة نقطة بيضاء ، قال إن هذه الورد منه وهو منها ، اضمرت السؤال ولم أعين وقتاً لنطقه ، صحبني إلى رؤية تالية ، إلى قبور غير مطروقة ، لا يعرف الطريق إليها إنسان ، لا تزار أيام الأعياد والمواسم ، ولا يقف عند أطرافها باعة الزهور الصفراء الغامقة ، زهور الموت ، ولا يقصدها الفقهاء ، قبور بلا علامات ، تحوى رفات جنود ماتوا في حروب متتالية ، رأيت ميناء وضفتي القناة وأماكن متباعدة من الوداد ، رأيت خنادق مطمورة لا تبدو معالمها ، وأساسات مذكورة لقواعد خرسانية اقيمت يوماً ، طلع على وجه نسيته ، لم أره في زمانى الدنيوى إلا للحظة عابرة ، عامل أجهل اسمه من عمال البناء الصعايدة محمول على محفة ، ساقه اليمنى مبتورة أثر غارة من طيران العدو ، العدو بلغة زمنى القديم ، وجه خرج صاحبه من قرينه القصية يسمى طلباً للرزق ، جاء مع الترحيلة إلى الجبهة ، تذكرت ابن رأيت . في قسم بمستشفى عسكري غص بالجرحى ، لم يكن قد استقر بعد فوق سرير ، رأسه لا يلامس الحقة ، في عينيه اسى وخوف من أيام صعبة سيواجهها بلا قدرة ، بلا ساق تعينه وتساعد ، هذا القلق ، تلك الملامح السمراء ، شكل مقدمة الرأس ، ليست غريبة عني ، لوهلة خطر لي أن ملامح أبي تلقى بظلال ، أشفقت وجزعت أن تكون ساق أبي قد بترت يوماً مع أنها لم تمس بسوء ، وأبي نفسه سافر بلا عودة ،

لكن رحيله لا يمنعني من الخوف أو الضيق لو فكرت في احتمال أن مكروها كما كان
سببها يوماً ما ، رأيت أوراقاً مطموسة المحتوى ، وفوارغ ذخيرة ، وأسلاك
تليفونات ميدانية مدت عبر الحذر والخشية ، وانفعالات شتى ، رأيت شظايا
صدفة ، وسلسلة بها حلقة محفور عليها رقم جندي ، رأيت دروبا في التيه ،
وأصداء نظرات حذرة ، وروائح سابحة في الأعلى ، أشار مولاي بأصبعه في
حركة دائرية ، قال : هؤلاء من قومك .. هذا منهم ، وهم منه . ثم صحبني إلى
رؤية تالية ، إلى قبر أبي ، وهلع قلبي ، لم أجده ، إنما رأيت مبنى شاهق
الارتفاع ، أبيض ، أصم ، نوافذه مصمتة ، غريب لا أعرف ما بداخله ، رأيت
فراشات صغيرة عاجية اللون لا ترى في ضوء الدنيا العادي ، قال : هذه من
أبيك ، وأبيك منها ، قلت ملتاعا ، وهل تعني أنني أنا ، وانها هي هي ؟ وهنا
صمت عني ، عدت إلى أبي الطفل المطارد من عمه ، عدت لتصبح بدايتي في
نهايتي ونهايتي في بدايتي ، تجلت لي غمامة بيضاء هيئة لينة ، تسبح فوق ذرى
شاهقة ، جبال بعيدة عن موطني ، لم يذهب إليها أبي ولم يسمع بها ، رأيت
خطوطاً نحيلة فوق السفوح المتعرجة ، المتقلبة ، بعد تدقيق ، عرفت أنها مياه ناتجة
عن ذوبان الثلوج ، وأنها بدايات الأنهار ، هذه الخيوط النحيلة ستلتقي بنحويط
أخرى ، ستكون خطوطاً اغلظ ، تحفر مجرى أعماق ، ثم يلتقي المجرى بالمجرى ،
ويصب المنبع في المصب ، والمصب في المنبع ، تتوحد البدايات بالنهايات ،
والنهايات بالبدايات ، وهكذا تتدفق الأنهار الكبيرة إلى البحار إلى المحيطات إلى
الأعلى ، من يرى وهن البداية لا يمكنه تصور عنف النهاية ، انتهت إلى الغمامة
تناغيني وتلفت نظري ، دهشت ، وكنت أرى الغمام في الأعلى لأول مرة ، أتجول
بينه وعبره بلا حاجز ، أخطو فوقه ، وأميل عليه ، وكان بإمكانني أن اتكئ لو
أردت ، قالت الغمامة والسماء تلوح منها : أنا أحتوي أليك ، أنا من أليك .

وأليك منى ، تساءلت : كيف ؟ فقالت والريح طيبة تدفعها إلى مستقراً أعلمه ،
أنها فى ذلك الزمن كانت ماء ثم أصبحت بخاراً ، ثم صارت غماما ، وضبابا
وندى ، ثم عادت سيرتها الأولى إلى حين ، فى إحدى مرات التحول والتقلب
والتغير كانت جزءاً من مياه ترعة تحترق قرية أبى ، ترعة تمتلئ دائماً بمد الفيضان
الذى كان يفرق تلك النواحي ، قالت الغمامة إنها لامست جسد أبى ، تساءلت :
كيف جرى ذلك ؟ قالت : كان أبوك يهيم على وجهه ، ويخشى الظهور فى دروب
القرية ، لم يكن يمتلك إلا جلباباً وطاقية وسروالاً ، الجلباب تهرأ ، تمزق ، كان
أحياناً يغسله ، ينشره فى الشمس ليجف ، وإذا مر إنسان يسترنفسه بالماء ، هكذا
نزل إلى الترعة ليحجب عريه أثناء مرور أربعة من الحجلة يسوقون جهالهم المحملة
بالقش والحطب والجريد ، قضى وقتاً ليس بالهين لأن ثلاثة جاءوا ، توقفوا ،
قرفصوا ، وبدأوا الكلام ، وزادوا وعادوا فيه ، عندما ذهبوا خرج متعباً ، وكنت
أنا قطرات أبلل جسده ومسامه ، طرح نفسه فى الشمس ، وكان ذلك أوان تحولى
وتغيرى ، فارقت جسد أليك بخاراً غير مرئى إلى الأعلى ، لكننى أودعته أثراً لم
يظهر إلا عندما أوغل فى العمر وتقدم ، قلت : هذا صحيح يا غمامة لا أعرف
مرساها أو مجريها ؟ حدثتها عن آلام عاودت أبى فى الأيام الديسمبرية ، إذ يظهر
يخطو متثاقلاً ، يكر على أسنانه ، يلفظ الآهة المكثومة ، تلتوى ملامحه ، يكتم
الشكوى ، يطلع السلم درجة درجة بصعوبة ، قلت لم يذهب أبى إلى أطباء من
تلقاء نفسه ، فى الليالى الشتوية يتمكن منه السعال ، يهتر جسده تطلب أمى منه أن
يذهب إلى طبيب ، فيقول بعد أن يهدأ قليلاً أنه سيذهب غداً إلى قصر العيني ،
ويجيء الغد .. ولا يذهب ، يعود أحياناً بأوراق شجر الجواقة ، يغليها فى الماء ،
يقول إن ذلك المشروب يشفى السعال ، يطلب منى صحيفة قديمة ، يطبقها ،
يضعها على صدره ، لكن السعال لا يخف ، يتكرر فى ليالى الشتاء ، يعقب النوبة

بآمة .. آه يابوى ، لم يذهب إلى طيب ، لو أنه :.
صحيح ، لكل شيء قدر ، صحيح ، للأعمار حدود ، حدود ، لكن
الدنيا أسباب متقابلة ، متعارفة ، متداخلة ، لو ذهب إلى طيب ! .

ابديت الحسرة القصوى ، غير أن الغامة قالت : أنت تحدثني عن أشياء
أجهلها ، ما أعرفه ميلاد ذلك الألم ، الذى سرى ثم قضى ، بداية توغله من
العصعص ، قلت : هذا موضع لم نخط به خيراً ، قالت : أنت تنسى أو
تناسى .

جزعت لقولها ، فرأيت أبى مستنداً إلى كتفى وعمرى بين الثالثة عشرة
والرابعة عشرة ، نقف داخل مستشفى عام ، طيب شاب يرتدى معطفاً أبيض
يقول لطيب آخر : إزمان فى العمود الفقرى ، وسعال مزمن . بدا أبى
مستسلماً ، صامتا ، كأنه لا يبالى بما يقال ، بما يجرى حوله ، تلك ملاحظته التى
اعتدتها اثناء المرض ، تقبل سكوفى ، انسانى ، وجلد ، رأيت رجلاً ينصحه
بالذهاب إلى اعرابى فى صحراء الهرم يقوم بعمليات الكى لكنه لم يذهب ، لم
يذهب أبداً ! اخبرتنى الغامة انها طافت فضاءات لا نهاية لها ولا مست صخورا
لم يرها بشر ، وانها أسرت زمنا فى مناطق الجليد حتى حررها دفء عابر نادر ،
التصقت بقضبان حديدية لنوافذ بيوت هاجعة ، وقضبان زنازين عالية ،
وكوات فى جدران دور عبادة ، تمددت فوق ألواح زجاجية ، وحطت فوق
مداخل باردة ، وأسلاك ، وعلقت فى فضاءات صباحية ، وغروبية ، وليلية ،
حتى فرقتها أشعة شمس فطفت إلى ذرى عالية ، خفت المناجاة الغامية ، نأت
عنى ، وأدركت اننى راحل فى الآماد التى لا يعدها بصر ولا تقع فى نطاق
عينين ، عرفت اننى أدنو من منزل الأصوات الباقية ، حيث كل ما لفظ حتى لم
يفن ، ولجته فسمعت جملا قلت فى جلسات مسائية هادئة ، آمنة ، فيها

وصل ، ونجوى ، وكلمات مصاحبة للإيماءات ، ولحظات الإدراك المفاجئ ،
وجعلت قلت عند بدايات الطرق المؤدية ، الشروع فى سطر ، وخشية من غيبة ،
واستفسار عن وصول ، وتقدير لمسافات ، وتحيات عابرة ، اجهدت سمعى أثناء
مروقى ، سمعت صيحات حراس حدودية ، ونداءات ليلية تطلب الافصح ،
وسلاماً تعزفه آلات نفخ نحاسية ، ارتعشت تأثراً ، هذا منى ، نوبة رجوع تعقبها
نوبة صحيان ، كيف أضل أو أنسى هذه الاعتبارات الطقوسية ، لحظة مواراة
جثمان صاحبي بثيابه العسكرية عدا الحذاء الذى خلع عنه وأعقب ذلك تمده
هامدا ، صرخة جندى من رجاله : انظروا انه راض ، هادئ ، زعقة حانية
ملوعة من ضابط عرقه وحارب معه : سلم لى على أخى . أمانة لاتس ، سمعت
صوت أبى ، وقف شعرى ، واقشعر جلدى ، صوت أبى ، صوت أبى الذى
يشحب فى ذاكرة مسمعى ، ابى يرد عنى ، متى .. لم أعرف ، كان توقى
مستحيلا ، كنت محكوماً بالمضى والسريان الدائم ، أما محاولتى الاستراحة ، فغير
ممكنة ، وورغبتى بالبقاء هنا أو هناك لاتلبى فى كل الأحوال ، سمعت حفيف
الموج . الموجة إذ تدرك الموجة ، ثم تصفيق ، تصفيق ، هتاف ، عبد الناصر
يخطب ، تعجبت ، هل وقع التوحد ؟ الصوت لأبى وادراكى انه لعبد
الناصر ، والكلمات نطقها عبد الناصر من قبل ، يؤم القناة ، يحكى التاريخ
الطويل ، سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل ، من فوق منبر الأزهر يخطب ، يقول
إنه لن يغادر مصر ، إنه باق وإن أولاده فى مصر ، لم يرحلوا إلى أى جهة ،
الصوت نضر كأنه يخرج لتوه ، عندما لفظ ما سمعت كنت أتففس هواء الدنيا ،
وأعنى ظهور شمسها وتعاقب لياليها ومجىء الأعياد وحلول الحزن ونزول الأسى
بالنفس ، وكان أبى يمشى فى الأرض ، يضمنا بيت واحد ، ويظلنا سقف
واحد ، وأسمع صوته فى الصباح وعند بدايات الليل ، استعدت بعينى عقلى
ظاهرة تلك الجمعة ، ميدان مسجد الحسين والزمن خريفى نوقبرى فيه بدايات

شتاء مقرب ، صفوف من متطوعي المقاومة الشعبية ، يسكون البنادق ، صوت جماعي يتصاعد ، لا يروح من بالى رجل يرتدى جلبابا وجاكتة قصيرة .. بما كانت جلدية .. ربما .

عناوين الصحف تعلن أن بور سعيد دفعت ضريبة الدم ، مشيت وعندى حماس ، ورغبة مجهولة فى المشاركة ، ابتسمت عندما سمعت صوتى فى المدرسة ، أخبر زملائى - كنت أكذب - أن أحد اقاربنا الأقربين يحارب الآن فى سيناء ، سمعت صوتى فى الحارة ، اناذى أخنى الأصغر ، أخبره أننى رأيت طائرة معادية تحترق - كنت أكذب - تلك أيام راحت ، أصواتها باقية ، لكنها شذر ، لا نسمع بترتيب وقوعها ، أصوات هائمة ، يجد بعضها طريقه إلى السمع فأفهم ، والباقي يتبدد ويضيع ، فلا قدرة لى عليه ، أصوات تعيد بعض المذاق ، غير واهن ، لكن الأيام نفسها تظل بمنأى عنى ، ضائعة ، خطر لى ان ما ضاع لا يمكن استعادته ، ولكن طردت المخاطر عنى ، لماذا أسمى إذن .. وكيف يرد مولاي على ؟ أصوات تلك الأيام ، فى الصالة الضيقة نجلس ، صفارة الخطر المتقطعة ، صفارة الأمان المتصلة ، وانفجارات بعيدة ، صوت من عرض الطريق ينادى بجزم ، بلهجة أمر ، مطالبا شخصاً ما أن يطفى النور ، سمعت صوت أبى ، لكن كنت أعى أنه لعبد الناصر ، عبد الناصر يتكلم بصوت أبى ، حوار الهامس عندما زار قرى الإسماعيلية الأمامية ، والخطر فى بور سعيد على مرمى ، اصغى إلى رياح ، أعرف أنها رياح ذلك اليوم بعينه ، سمعت صوت أبى مرة أخرى لكن المتكلم ليس أبى ، يتحدث إلى جندى فى آخر زيارة ميدانية ، يسأل عن وجبات الطعام ، أتكنفى ؟ عن مرات الاستحمام ؟ عن مدى الأسلحة البرية ؟ يتردد الصوت فى غرفة مغلقة ، اجتماع يحضره عدد من قادة كتاب الصواريخ . ما امكانية اسقاط الطائرات الإسرائيلية المغيرة العريدة بواسطة كائن متقنة ؟ ما الوسيلة وحائط الصواريخ لم يستكمل بعد ؟ ثم سمعت

صوت أبي من أبي ، يدعو لي ولإخوتي ، يدعو لي ولزوجتي وابني الذي لن يعي صورته ولن يذكر ملامح جده ، كان عمره عند رحيل أبي ثلاثة أعوام وخمسة شهور ونصف ، خُطى أبي تطوف ضريح الحسين ، سمعت صوته يقول لي متعباً وكان ذلك قبل ثلاث سنوات من سفره الأبدي ، من ارتفاعه الضوء وضياعه بين النجوم الداريات : أنا خلاص يا جبال .. أنا في النازل . اهتف : لا تنقل ذلك يا أبي .. عمرك مديد بإذن الله . لكن خاب فألى وذوى أمل ، اسمع أنات رجل قدم من الريف إلى المدينة في الزمن المملوكي ولسبب ما قبض عليه وصلب .. يتردد سؤال ، لماذا الموت ظلماً ، لماذا الاجهاز على العمر قبل الألوان ؟ اسمع هنا ، الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، يميني صوت إمامي في زمن سحيق البعد : أنا ترجان الخائفين ، أنا صوت من لا صوت له ، إني لم أخرج مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن رد عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين ، سمعت أمية يقهقه ساخراً عندما بلغه موت الحسن بعد أن دس له السم ، أمية بن هند ماضفة كبد حمزة عم الرسول ، يقول : لله جنود من عسل ! سمعت مهممة ، غمغمة ، مصمصة أسي ، ومهممة دهشة ، امرأة تستنجد ، امرأة يتعثر طلقها ، امرأة ترجو شخصاً ما ألا يتركها وحيدة في الدنيا ! لم أدر من أي عصر ؟ سمعت ترانيل جنازية بلغة غامضة ، مندثرة ، لا تفصح عن معانيها ، ولا رموزها ، غير أنها أورثني حزناً ثاقباً قريباً ، سمعت تدفق ماء في منطقة صخرية ، سمعت شلالاً يهدر ، سمعت موجة ترتد عن الشاطئ ، سمعت خرير صنبور غير محكم الاغلاق ، قطرات مطر متوالية تصطدم بأرض صلبة ، بأرض رخوة بأرض تغليها الحشائش ، بأوراق نبات كثيف ، بزجاج مقهى عريض ، سمعت الماء يملأ كني أبي عند الوضوء صباح يوم الجمعة ، صوت طائر حط لتوه

على شاطئى بعد رحلة طويلة لا يدري إنسان مقدارها ، سمعت نداءات طيور تتجمع فى سماء شمالية أسراباً ، مع سريان البرد الحريفى ، تستعد للانجاء إلى الجنوب ، سمعت كرواناً ليلاً يبرق ، طيور مقرضة هائلة الحجم ، حمامة قرية تقف فوق ابريال قديم مثبت إلى سور السطح ، الوقت ظهيرة ولعبى توقف ، انتظر خطى أبى فوق السلم ، عودته اليومية ، مرتديا حلتة الصفراء ، ممسكا بالطعام أو قرطاس الفاكهة ، صمت ظهيرة ، حارة ، هديل القمرية مستمر ، منقطع ، شجى ، يشى بإيقاع الزمن الخفى ، الثانى ، القصى جداً ، اصغى ، لكن صوت عودة أبى لم يبدأ بعد ، صوت جميل يرتل ، يولى قبل ان يفصح ، مطلع نشيد يشيد بأيام كفاحية ، لم أشهدها ولم أعرفها ، نفير بحامى ، مناجاة انثوية ، حيرة ، فتاة تقول أنها لاتدري ما يجب ان تفعل ، امرأة تتحدث عن هجر قاس ، صرخة منبئة من لحظة المتعة الأولى ، صوت حنون ضام رقيق ، يقول ماذا تريد منى ؟ أوشكت أن أجيب ، تلك عبارة قيلت لى ، وأجبت عليها ، لكنها ولت كل ما فى منزل الأصوات ترديد ، ورجع قديم ، اصطكاك ركبتيين ، صلصلة ، همس ، أبى يتحدث إلى أمى والليل يتقدم ، يتحدثها عن هدايا سيأخذها معه عند سفره إلى البلدة ، أرز ، صابون ، قماش ، موسيقى حانية ، اختلاط اصوات فى مطعم صغير ، اللغة غريبة ، الملاحق تحتك بالأطباق ، صوت تلاقى حافة كأس زجاجية بحافة كأس أخرى ، كباس موقد الغاز ، يتتابع فى سرعة ، تضطرب النيران قبل انتظامها فى وشيش منتظم ، تلك أمى ، الموقد أمامها ، وطعامنا فوقه ، قوائم الطبلية الخشبية تستقر فوق الأرض ، تتحلق حولها ، أبى وأمى واخوتى ، يوزع أبى « مناب » كل منا ، خاصة اللحم ، صوته يرشف الشاى ، اعملوا لى كباية شاى ، صغير غامض ، متصل ، منقطع ، أصوات سحيقة البعد ، وقع اخفاف الجمال على رمال صحراء ، صوت ذرات الرمال المتناثرة المتخلفة عن الخطى ، رواحل

الحسين ؟ . ربما صوت امتداد جذور شجيرات في أراض صحراوية ، أصوات ليلية ، صدى طلقة طائشة ، تميز أذنى بين انفجار وآخر هذا مكتوم ، إذن .. اصاب الهدف . من ؟ أين ؟ كم الخسائر ؟ انفجار يعقبه رنين وصدى ، اذن .. طاش التصويب ، انفجار .. هذا المدفع ، وذاك لدبابة ، هذا صاروخي وذاك لنغم أرضى ، أقف بين من سيعبرون ، أظهر أقصى الود تجاههم ، بعد لحظات سيمضون إلى قدر ، إلى خطر ، إلى عدو انقلب فيما بعد إلى صديق - كما قالوا ، كما زعموا - سمعت أصوات مرافقتي لهم أول مرة ، الحركة الحذرة ، التزول إلى القوارب ، سمعت ايقاع نبضى ، علامات خوفى ، لا أكذب ولن أزعم ولا أدعى غير ما جرى لى على الرغم من مرور الحول أثر الحول ، خفت لكننى حرصت على أن أبدو جلدا ، أستجيب لتظرات صاحبي الهادئة ، النفاذة ، الباحثة في أغوارى ، سمعت تمايل قارب المطاط عندما نزلت إليه ، سمعت الأبحار معهم عبر الماء والنجوم فوقنا والليل يغشانا ، ابتعادنا عن مواقفنا ، في البحر ، في الوحدة ، مع الاتجاه إلى العدو يتزايد القرب الإنسانى ، نزل داخلى أمن ، سمعت اشارات لاسلكية ، وخطواً حذراً ، وخطواً متهوراً ، وخطواً بين .. بين ، سمعت خطى ثابتة ، وخطى مترنحة ، خطى أولى حذرة ، مستكشفة ، واهنة ، غضة ، وخطى أخيرة مرتجفة ضعيفة ، طلاقات مباغتة ، صرخات الهجوم وصرخات الدفاع حيث يسترد الإنسان زمنه الوحشى ، سمعت صوت المفاجأة في أصل جوهره ، مصدره ومنبعه قبل أن يتفرق ويتجزأ ، سمعت الصدى ، التردد الكوفى ، الاشارات مجهولة المنبع ، سمعت شجيرات جافة تهيب في أن أقف ، أن أصغى إليها . طلبت ذلك فوقعت الاستجابة ، تساءلت الشجيرات بصوت قادم من متزل التساؤلات ، لماذا الموت في الحرب وقد جرى ما جرى ؟ لماذا إذا كانت النتائج معكوسة ؟ لماذا وقتلتنا يتجولون الآن مزهوين في المدن التى كانت مستعصية ؟ ألم ترهم في الأحياء القديمة التى لازمها

أبيك وأودع عمره في كل جزء منها ؟ هم هناك يستمعون ، يستصغنون .. لماذا ؟
وهنا أدركت أنني أقارق منزل الأصوات ، واتي قد أعبره لكن لا أدرى متى ؟
أو كيف ؟ رأيت مساحة من الأرض ، نطقت فقالت : وطأني صاحبك الذي
تحمله في غدوك ورواحك . هل تذكر زيارتك لزوجته ومعايشتك لنمو الإنسان ،
وضياع الوجود الإنساني ؟ أو ماتت ، قالت بقعة الأرض : وطأني أخيراً ثلاثة ،
أحدهم هو الذي صوب مدفع البرج الرئيسي ، هو ضاغط زناد الطلقة التي
تأثرت إلى شظايا ، إحدى الشظايا اخترقت جانب القلب الأيمن واستقرت ،
هنا منى ضرر غريب فتساءلت : هل جاء قاتل صاحبي إلى هنا ؟ ، بدا لي
صديق الذي كان ! رأيته يمشي واقفاً ويقف ماشياً ، جرحه طرى يترف ،
ما زال يترف ، دمه يبيل القميص الكاكي ، بالضبط عند موقع القلب ،
حدثني فقال إنه يشكرني لأنني استجبت له عندما جأني في الحلم وطلب مني
زيارة أسرته التي كان رياً لها . بدا مهموماً ، متقلماً في القضي ، وهذا مالم
أعهده منه في حياته ، في لحظة بدا لي ما تأخرت في اكتشافه ، وجهه وجهه ،
أما ملاحه فلعبد الناصر ، وعندما تكلم سمعت أبي ، قال : تسأل عن قاتلي ، إنه
أول من زاركم ، أجبت وعندي حدة وعتاب : لم يزرني أحدهم يا إبراهيم .
كرر متجاهلاً نطقي باسمه : إنه أول من زاركم . قلت وحتى يتمكن مني : مالي
أناو.. ؟ قاطعني بهدوء بتركاسلويه في المباغثة : أول من زاركم انتم الأحياء ،
بدا حزينا ، سمعته يقول بصوت أبي : لم تكن حياتي كلها إلا حلا . حزنت
ونفقت روحي وضررت كلي غصة ، حرت ، هل أرد على أبي ، أو أحاور
صاحبي الشهيد ؟ أو أحملني إلى عبد الناصر ، اعتصمت بالسكينة ، قال : ماذا
جري .. أهو السبات الذي يطول ؟ أم أنه الحاق يبدأ ؟ أم إنه النسيان ؟ ذهب
عني ، أو ذهبوا ، نزل بي ضيق وكدر ، رددت حائراً ، لماذا رحلوا .. وما
الجدوى ؟ انتهت إلى ملاذي الأعظم يرمقني بما يشبه الاستكثار لما أقول ،

صحت اعذرني يا سيد الشهداء ، ترى ما حل بنا ؟ لم يجبى قلت متهدجا ،
اشفق على ضريحك الذى أودعته أمان طفولتى وعمرى الأول ، وعطر أبى ،
وجعلته سدره المنتهى لبلواى فى دنيائى ، أنت تعرف ما أجهله ، لم أتأكد من
تبدد عبوسه . قلت : أنت ركنى الشديد . يلتفت إلى حانياً ، اهتف مطمئنا :
الآن حق لى الخوف !..

آية

« . الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل
من بعد قوة ضعفا وشيبة » .

صدق الله العظيم

حقيقة

« .. النفوس الإنسانية جبلت على الجزع والخشية فى أصل نشأتها ، الجزع فى
الإنسان أقوى منه فى الحيوانات ، أما الشجاعة فأمر عرضى ، ألا ترى الطفل ابن
الشهر أو الشهرين يتنفذ مفزوعا ، مرتجفا ، من الصوت المفاجئ... »

تعاقب الرؤى

رأيت مولاى الحسين فى زمنه الأصلى ، عصره الأول ، دهره الخاص ،
يجلس داخل بيته وحمله ليس بهين ، يستشعر ديبب المقبل ، بداية تغير
الأحوال ، تبدلها ، وان ما يبصره لقطيع ، لا تلوح علاماته جلية ، تخفى فلا
افصاح ، لكنه يبصر ويرى منذ أن دس السم لشقيقه الأكبر وثمة حزن

لا يغيب ، يكسو بحياه الجميل ، ينكت التراب بأصبعه ، أو ترحل نظراته إلى ما لا يراه غيره ، إنه يأخذ جانب الحذر ، محتاط لنفسه ولن حوله ، معاوية يستهدفه ، يرسل إلى المدينة عيون وأرصاده ، صباح كل يوم يرسل إلى المدينة تقريراً إلى دمشق ، به حركات الحسين ، معاوية لا يكتفى بذلك ، بل يوفد واحداً من عتاة شرطته السريين ، يستقصى خروج الحسين ودخوله ، تردده على المسجد ، مجاورته لقبر جده المصطفى ، توقفه في الطرقات ، حديثه إلى الناس ، عطفه على الفقراء ، والغرباء ، شرطياً سرياً آخر أصله رومى ، وشرطياً سرياً ثالثاً ، ورابعاً وخامساً ، كل منهم يجهل الآخر ، لا يدري ان هناك من يقوم بنفس عمله في اللحظة ذاتها ، في دمشق يطلع معاوية ، ويقارن ، رأيت الحسين هادئ الملامح ، أسيان الحيا ، لا يجاهر بعدائه لمعاوية ، لا ينقص العهد الذى أخذه على نفسه ، اقتربت منه ، والظروف حوله جامعة ، اثرياء القوم يلتفون حول معاوية ، الاثرياء القدامى ، والاثرياء الجدد ، المصالح تتوطد وتنمو ، ومصالح تتولد ، والمناصب تتعدد ، والتطلع في ازدياد ، تتسع الفتوحات ، وتمتد الأمصار ، وتواكبها الاطماع ، بذل الوعود ، وتتعاظم أساليب الترهيب تنوع ، رأيت أيام حبيبي المتزه ، تنقلت فيها ، تنوعت وتكاثرت ، هادئ قصر معاوية في الشام ، ودهشت بل فزعت لمظاهر الغنى ، هذا الذهب وتلك الفضة ، الخبز والديباج ، ثياب معاوية ، تأنقه ، عطره ، رأيت ذكاهه وخبثه ، وتلون في المجلس الواحد مرات وقدرته الفائقة على اظهار خلاف ما يبطن ، ولم تكن أيام المصطفى بنائية ، لم يمض على هجرته إلا ثلاثة أو أربعة أو خمسة وأربعون عاماً . من عرفوه وشاهدوه وخابطوه وقعدوا معه وحاربوا خلفه ما زالوا أحياء ، أما تواضع أبو بكر وزهد عمر فالعهد بهما أقرب . سمعت بأذنى ما قاله معاوية لندمائه في ليلة صفا فيها

الزمن وراق له : لن يتبقى تأثير لأهل البيت ، النيل علنا من سيد الخلق صعب والخوض في ذلك وعمر ، لكن من يمتون إليه .. سمعت ما هو أشنع ، لم أطق ذلك ولم احتمله فأنصرفت ، ثم سلكت طريق في شرطة معاوية ، رأيت اهتمامه بالشرطة السرية ، وبث اعداد لاحصر لها بين الخلق ، خاصة عجائز النساء اللواتي يتغلذن إلى أديق الحبايا ، يستمعون ، يلونون ، يلصقون السم لهذا ، أو يكيدون لذلك ، يوزعون الأقاويل ، والاشاعات ، رأيت قادة النواحي ، والولاة ، والساعين إلى البلاط وطلاب الرضا ، والساعين من أجل الترقى والكتب في الدواوين ، رأيت الشعراء والقصاصين ، ومصيفي الأمثال ، يحشدون الناس عن أفضال معاوية ، وحلمه وتقواه ، وكرمه ثم كرمه ، ثم يرجون بقول السوء إلى الإمام الحسن والحسين وكل من والاها ، رأيت ما أكد لي - عبر زمان غير زمني - ان ما يتصوره العقل مستحيل الوقوع ، يمكن حدوثه ، كل شيء يتغير ، لن أنسى ، استمر سفرى في زمن حبيبي الأوفى عبر منزل الرؤى ، مررت بمحطات غريبة ، رأيت أبي واقفاً ينظر برقة وطمأنينة ، هممت بالتداء عليه ، أخبره أنه في المدينة المنورة ، على مقربة من قبر الحبيب المصطفى الذي تمتى طوال عمره الحج إليه وزيارة قبره ، وغاب عنا قبل تحقق أمنيته ، قبل أن نحققها له بعد أن أصبحتا قادرين ، آه .. لم تفعل ، رأيته في زمن الحسين شايا ، حرت ، صحت به ، لكنني كنت مبتعدا عنه كراحلة تنأى بسرعة بالغة عن منطلقها ، راح يتضاءل حجمه ، حتى صار نقطة ، ثم معنى ، وعندئذ رأيت صاحبي الشهيد ، وقفته التي أعرفها ، رأيت دمه طريا في موضع جرحه ، جاء إلى زمن الحسين يترف ، لمحني ، هممت بالتداء ، لكنه ولى عني أو استمر ابتعادي ، ثم لمحت جندا كفيفا ، في جسد كل منهم جرح طرى غير مضموم ، غير ملتئم ، قصائهم

كأكية ، والحوذ رمادية ، والأحذية متربة ، بعضها مبلول بمياه القناة ، كنت قادراً على عد الشعيرات البيض فى رأس أو صدر أى منهم مع سرعة مروق ، يتأهبون للصباح ، قبل أن يصل صوتهم إلى مسمعى بعدت ، رأيت أبى ، رأيت نحيلا ، ضامر العود ، متعب الخطى ، الشيب يكلل رأسه كله وهذا لم يحدث فى دنياه ، رحل والشيب غير متمكن منه ، أى زمن هذا ؟ ضمنى حنين وانهكنى شجن ، تمتت التوقف ، لكن سريانى دام عبر منزل الرؤى ، حمت فى المحاق ، وقطعت اليباب الشاسع حتى رسوت عند مولاى الأبنى وفى حلقى غصبة ، كنت استعيد ملامح أبى المتعبة ، أعى أنه قريب وانه بعيد ، وانه لم يعيش هذا الدهر القصى ، كنت أجهل جذره ولا أقف على جده الثانى ، برغم ذلك حملت أيامه الصعبة معى فبكيت منها قبل شروق شمسها ورثيت له منها قبل أن تلوح نجومها ، أو تنبغ أقارها ، وتهب رياحها ، قبل بردها ، قبل حرها ، ندبتها وهى بعد بعيدة لا تزال فى رحم الغيب ، تأملت منها وهى مستقبل لم يأت بعد ، تقدمت فى تلك الأيام الدوارس ، توقفت عند الحبيب ، فاجأتنى رائحة ضريحه فى قاهرى القديمة ، العبير الخفى ، البخور وبقايا المسك والعطور المتبددة وماء الورد والسجاد القديم وخشب الصندل العبق وبرودة الرخام وكساء النجف الأحمر المعلق ، والخزف المنقوش ، والعاج الراقد فى خشب المنبر ، وأوراق المصاحف العتيقة ، وتلؤلؤ المشكاوات ، وعبير الأشواق وتضرعات المكولمين ، وليت بوجهى تجاهه ، لم أره ، فدهمتى وحشة ، مع انه انبأنى عند ولوجى إلى الديوان أنه سيصحبنى جل الوقت وليس كله ، لفتنى وحدة ، واغرورقت نفسى باليتم ، والفقد ، وخفت حتى كدت أبكى ، لم يطل ذلى ، تجلى لى فى زمنه الدنيوى ، رأيت يجلس والدار غير آمنة ، معاوية مات ، يزيد ابنه يضيق عليه ليأخذ البيعة ، ما يجرى حول مولاى عجيب ، تنقلب الأوضاع ، تستقل من النقيض إلى النقيض ، ما يجرى عجيب ، يبايع الناس

يزيد ، الدنانير ، المناصب ، الترهيب ، الترغيب ، تحول الخلافة إلى ملكية تورث ، رأيته يفكر في التقلب ، التحول ، التغير ، مداراة النفوس لما تبطنه النفوس ، النأى عن موضوع الرسالة ، شراء ما يفنى بما يبقى ، يتكدس الجهد في خزائن القلة ، ويتحول إلى قلائد من ذهب وفضة وأحجار كريمة ، وغير كريمة ، يتجسد السوء في يزيد ، الفاسق ، شارب الخمر ، عظيم الجثة ، مجذور الوجه ، قبيح الظاهر ، قبيح الباطن ، ها هو في أعز موقع ، في أمنع مكانة ، خليفة محمد رسول الله ، يستدير الزمان والعيون ترقب ، أفئدة تلاحظ ، أفئدة زائغة ، وأخرى بين بين ، الحق ساطع والحقائق جلية ، البرهان مستقيم ، لكن ما من إنسان يحاهر ، ما من أصبح تشير وتفصح ، الوفود تتوالى على قصر يزيد في دمشق ، تتولد أركان دولة الظلم ، تمتد دعائم القهر ، تبدل المعاني وتقلب القيم ، الاستثناء قاعدة الوقت ، ماذا يجري للناس والمجرة لم يمس عليها ستون ؟ كيف تظهر الوجوه خلاف ما تبطنه النفوس ؟ كيف تنطق الألسنة بما يخالف الألسنة والضمائر ؟ كيف تعبر الملامح عما يخالف محتوى الباطن ؟ كيف تتغير الحقائق وتهتز الثوابت ؟ في الدواوين وأوكار الشرطة السرية ومقارها العلنية تبدى الاقتراحات بقتل الحسين إن لم يبايع ؟ يقول الكثيرون بإهدار دمه ، هو التقي ، النقي ، يعاتب أحدهم والى المدينة ، لماذا لم يقتل الحسين في داره عندما رفض البيعة ليزيد ؟ ، تجلّى لى الحسين مهموما ، يفكر في فقراء الدنيا ، الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم ، وهُم كثر ، وهم في كل زمان غير زمانه ، يفكر في المستقبل الآتى ، الرحمة ، انعدام الخوف والضيق ، التقوى وخوف الحساب ، لا يعنيه أمره هو ، بل إنه لم يفكر في شخصه أبداً ، لا يتوجه إلى الخلق باعتباره ابن بنت رسول الله ، ولكن لما يمثله جده من معنى ورسالة ، يطرق جميل الحيا حزينا ، يتذكر جماعة من فقراء المدينة ، يتقدمهم رجل شرطة مستتر ، يهتفون ليزيد ، ما يؤله أن يتحمس

هؤلاء والضركله لاحق بهم ، وهم لا يعلمون خبايا الغد ، ازدادت اقتراباً منه ،
وحنوا عليه ، لم يحدثنى عما أرى وأطالع ، إنما أثر صحبتي إلى أيامه الشداد
'أطالع بعينى وأعرف واستخلص العبر وأعرف المبتدأ من الخبر ، تفرقت حنايا
قلبي ، تقدمت منه ، خاطبته وأنا معزول عنه ، بينى وبينه ستار لا يرى ، ناجيته
وأنا لا أدري ، أيسمعى أم لا يسمعى ؟: مالى أراك بادی الضنى ؟ ثقیل
الحمول ، ما لدموع عينيك متجمدة ؟ ما لانسانى عينيك قلقين ؟ ما لاحزانك
سوافح ؟ ما لأشجانك بلا حد ؟ تطيل التأمل فى الدهر القلب كما أطلت أنا من
بعدك ؟ يؤرقك طمس المثل وتحول القيم كما أرقى ذلك ؟ فى مركز الديوان
شكوت إليك حيرتى وغربتى وها أنا أواجه حيرتك ، ليتنى عشت دنيائى فى
دنياك ، ليتنى قضيت أيامى فى أيامك لأهون عليك ، لأذب عنك السوء ، هنا
شعرت بوجوده إلى جوارى ، التفت ، ولم يعد الاشرار عنى ببعيد ، رأيته إلى
جوارى ، وفى نفس الوقت رأيته أمامى ، رأيته هو ينظر إلى هو ، لم أدري من
أتوجه بحديثي ؟ مولاى الذى يصحبني يرق لى ، ومولاى الذى أمامى يتأهب
لمواجهة البلايا ، يستعد لزمان مدلهم ، مقبل ، قلت مندفعاً ، حسن النية ،
أبيض السريرة ، ان ما يحيره سوف يحيرى ، وما يؤرقه سوف يؤرقنى . فى زمنه
تحولوا وتبدلوا وتغيروا ، وفى زمنى سينقلبون ويتقلبون ، الفروق قاذحة ، فأين
زمنى من زمنه . قلت وأنا أحاوره ..

علمتنى يا شفيعى أن الأشياء تتبدل حتى ما نظن أنه يستعصى على التغيير .
قال وهو يحاورنى .

تذكر أن الأسوأ يتغير إلى الأحسن ، كما يتبدل الأفضل إلى الأردأ ، وإلا
لما كان التغير والتبدل فى الأصل ..
قلت وأنا أحاوره ..

عشت يا إمامي زمنك الردىء قرب نهاية عمرك الدنيوى ، أما عمرى
فيمضى من خيىث إلى أخبىث ، اسمح لى ، دعى أقص عليك بعضا من
زمنى ..

يهز مولاى رأسه ، أقول والصوت منى جريح .
تعرف يا أخضر القلب ، يا طاهر النفس ، أننى شبيت وكان أول
ما وعيته ، ما أدركته أن وطننا بأكمله انتزع من بينه ، وأنهم قاسوا هجاجا
وشتاتا .

أوما فتدفقت الشجاعة فى عروقى .. قلت أحدثه ..
تحرير فلسطين . دارت الدروس حول هذا الهدف والمعنى ، كذا ترددت
الأغانى ، وضعت الكتب والمؤلفات والمحاضرات ، سجلت الرسائل العلمية ،
قدمت الأفلام والمسرحيات ، وتم اختيار نوعيات السلاح ، ومشت الطوابير
فى القبط والحر . فوق الأراضى ذات التتوات ، وفوق الأراضى السهلة ،
الخضرة والصفرة ، ودفعت الكائنات الليلية ، الالهة ثم الأهم ان دماء نزفت ،
وأرواحا أزهقت ، اعزاء راحوا ، مع الزمن أسر الموضع الذى أسرى منه
جندك المصطفى ، زعقوا ، فلسطين الجريحة ، فلسطين نارى ، فلسطين عارى ،
العودة إلى حدود ١٩٤٨ ، العودة إلى حدود ١٩٦٧ ، ثم العودة إلى حدود
١٩٧٣ ، لكنهم جاءوا يا إمامى إلى عقر دارى ، أنا الذى عشت الحرب ،
سمعت هدير طائراتهم فى الأعلى ، تبدو كنقاط بيضاء محومة آتية من ناحية
الشمس ، ثم تفجر الأرض ، رأيت الشظايا لحظة اختراق الأجسام ، رأيت
بعينى موت الأحباب ، ورأيت هجرة الأهل لبيوتهم . فى ساحة قرب البحر
بمدينة بور سعيد انحنى رجل يرتلى ملابس صفراء ، عامل حكومى فيما
أظن ، ركع ، قبل الأرض ، حيث منبع الأصول ومستقر الفروع ،

لا أعرفه ، لكن وجهه عالق بذهنى ، لا أدري ان كان عاد مع العائدين ، أم أصبح نسيا منسيا ، رأيت الأشجار تتوقف عن الطرح والاحصاء بعد أن أفزعها الشظايا ، وتكالبت الجروح عليها ، فالأشجار تفرع كما يفرع الإنسان ..
قال امامى :

أعرف ذلك ..

قلت وقلبي ينبض وسفرى يشتد :

رأيت وضع الخطط وتكدس الجهود ، واستنفار القديم المنسى ..

قلت بعد وقفة هينة :

كنا نحارب ولم نكن بخائفين .. فكيف .. كيف بعد أن صرنا قادرين ؟ في ليلة تغير هذا ، رفرف علمنا بجوار علمهم ، تلقت اذاعاتنا المرئية والمسموعة البث المباشر منهم ، رأيت الزى العسكري المعادى ، ارتفعت أسلحتهم في نحية ، وروى الوصفون ، المنافقون ، الخانعون ، السباقون إلى الموائد في كل النواحي اللقاءات الحارة ، المؤثرة ، وارتفعت اللافئات ، وخرجت حشود محشودة ، صفقوا ، وهم لا يعون ، ولا يرون الضرر الآتى والضرر اللاحق ، ثم أصبحت اعلامهم جزءاً من الواقع اليومي ، ماكان مستحيلا تصوره وقع .

أوماً إجماعة ، قلت ..

ثم تدفقوا إلى شوارعنا القديمة ومناطقنا العتيقة ، تغامزوا وتندروا ، ترفعوا وتفحصوا ، لا يطيب لهم الجلوس إلا قرب ضريحك ومرقد رأسك ..

قال مولاي وهو يحاورنى :

جمال .. ما من حادث مخلوق من عين وأثر وخبر ، من نجم وشجر ، من رسم وظلل وحكم وعلل . إلا .. ويلحقه التغيير .

خفف عني حديثه ، وخفف عني انه ناداني باسمي ، أى أنه خصني داخل
تخصيصه لي بمصاحبته لي ، وهنا رأيت جمال عبد الناصر واقفاً ، مستغرقاً لكنه
شاخص إلى ، بدا بعيداً ودانياً ، ثم رأيت أبي يقف عند موضع مغيب
الشمس ، تمنيت أن أصل إليه ، رأيتته وحيداً ، كان شديد البعد عني ، لكن
بصرى ميز تعبيراً ، رأيتته على وجهه ، تعبيراً ومعنى أعرفها ، لحظة عودته إلى
البيت حاملاً بين يديه افطارنا أو غذاءنا أو كسوة العيد ، رأيتته ينظر إلى الطرف
القصى من الكون ، التفت فرأيت مسلم بن عقيل في زمنه الخاص ، يصغى ،
الحسين يطلب منه أن يمضى إلى الكوفة ، إلى أهلها الذين كاتبوه ، طلبوا منه أن
يقدم ، أن يسرع ليقم العدل ، ليقوم الزمن المعوج ، أن يحو الظلم ويرسي
العدل ، سمعت مسلم يقول له إن هذا البلد مشثوم ، فيه قتل أخوك ، وجرح
أبوك ، لكن الحسين يصر ، جاءتته الرسل ، يلحس إلى هناك ليجلو الأمر ،
فالسكوت على الجور جور ، يمضى مسلم ، مولاي يزو إلى ، عبد الناصر ،
أبي ، رأيت أمي في الزمن الذي كنا فيه معاً ، رأيت أشقائي ، وزوجتي وأبنائي
وأحفادي من بعدى وأصحابي ، أصحابي الذين اختلفت معهم ، وأصحابي
الذين رافقتهم ، رأيت من أحييت ، من خفق لمن قلبي ، رأيت كل من
جاورت ، في السكن ، في الطريق ، في السفر ، رأيت كل من رأيت ، كل
من وقعت عليه عيناي يوماً ، وكل من اقتنى أثرهم بصرى ، كنت أراهم كلهم
في آن واحد معاً . فرضى قلبي ، وأقبل أُملى ..

دقيقة ..

الثام الجمع سرور وغبطة ، وحلول الفرقة فكاك وهلاك ، معها تبدأ
الحيرة المذمومة التي لا راحة بعدها ثم يقع الضعف الذى لا يليه قوة ، ليت

الجمع يدوم حتى تتحقق الأحلام البسيطة الإنسانية ..

رقية

تجلد ، فإن في الغيب ما شهدته ، وغاب عنك ..

ما كان ، ما سيكون ..

.. ودعت مسلم بن عقيل ، ابن عم مولاي الحسين عند خروجه من مكة ، تجليت له على صورة صاحب له ، رافقته مقداراً من الطريق الوعر غير الممهّد ، وعر المسالك ، ثم حاشني مولاي عن الاستمرار . عرفت فيما بعد ، عرفت بعد أكثر من ألف وثلاثمائة عام أن دليله مانا من عطش وحر ، وأنه أبدى التشاؤم لكن قرة عيني ومفرج كربي طلب منه الاستمرار وكنت الرسول الذي حمل إليه الأمر بالاستمرار ، ذهبت إليه في صورة رجل من صحب الحسين ، ابليته أمر مولاي ثم تركته في سفره هذا ، عدت إلى مكة ، عند مشارفها حام حولى ثلاثة من شرطة يزيد ، أخذنى خوف ، وحذر ، نأيت بخطى حثيثة عنهم فرحلت إلى زمن أبي ، أدركته في لحظة افتقاد مرة وعراً على تحمل ثقلها ، وصلت إليه وهو صبي عند أهل أمه لا يقيم في بيت واحد ، وليس له فراش ثابت ، ولا يظله سقف واحد ، ولا يأكل من ماعون بعينه ، بدا لي هادئاً ، غريباً ، واليتيم غريب كما عرفت بعد مدى طويل ، عندما أصبحت يتيماً بلا أب ، رأيت لا يسعى إلى التحرش بإنسان يماثل عمره أو يكبره ، هادئاً ، صامتاً دائماً . يقلقه المأوى ، واللقمة ، لا يخالط الصبية الذين يماثلونه عمراً . بنأى عنهم ، داخله شعور بتفوق ، وأمل بزمن غامض يتنظره ، زمن سيصبح فيه ذا شأن ، يفكر في الدنيا الفسيحة ، تلك المدن البعيدة ، وهذه الطرق المؤدية ، وامتداداتها ، في الموضع الذي تغرب فيه

الشمس ، فى الأزهر حيث أسرار العلم وأسرار الحرف ، لو أن اليتيم لم يلحقه ، لكنه يغمض عينيه ويرى لحظة يمكنه فيها قراءة المکتوب وكتابة المقروء ، ليس ذلك عليه ببعيد ، رأيته ينام تحت سقف بيت رجل سقاء ، حدثنى قطعة جلد قديمة . أصلها موضع من بطن ماعز ، أما الآن فجزء من دلو جلدى معلق إلى بر عتيقة قل عليها اقبال الشارين ، قالت إنها لامست ظهر أوى عندما كانت جزءاً من قرية تمتلئ بالماء للظالمين ، كان ينقل الماء إلى بيوت عديدة ، رأيته يمشى متثاقلاً ، يمسك فم القرية بيده الصغيرة ، يلهث عند صعوده أراضي تميل إلى ارتفاع ، يطرُق باب بيت كبير ، يدخل ، يفرغ الماء فى الزير ، لا ينظر حوله ، هكذا يجب أن يكون السقاء حتى لو كان صبياً صغيراً ، يخفف عرقه ، درت حوله ، رأيت الحلتين ، يود أن ينام ، اقتربت منه ، وقفت على مقربة حتى شممت رائحة ثيابه وشعر رأسه وبالعجبى ، إنها نفس الرائحة التى نفذت إلى أنفى فى طفولتى ، كنت انتظر عودته فى الظهيرة ، أجرى ، اتعلق بعنقه ، يحيط بيديه لو كانتا فارغتين وينحن لى لو أنه يحمل قرطاساً به طعمية ساخنة ، أو أرغفة ، أو خضاراً ، أو لحماً ، أو .. فاكهة ، لم يردنى ، ولم يكسفى ، كنت أشم رائحته التى تختلط برائحة حلتى الصفراء الكاكية ، نفس الرائحة التى وهنت مع الزمن فيما بعد لقلّة عناقنا وتدرته وتباعدا ، هى ، هى ، أشمها ، رائحة أبى الخاصة ، تلك ولت ، افلنت منى إلى الأبد ، لم يعد لها مصدر ، ولا أثر عندى ، ربما تبقى شذاها فى ثيابه التى أغلقت عليها حفية ولا يساندنى قلبى لأفتحها حتى الآن ، أدركت أنه من رضا مولائى وحنوه علىّ اتاحته الفرصة لى كى استعيد ذلك العبير الأبوى حتى تمنيت لو أن ذلك لم يته ، تشاغلتن عن وقفته ، وعندما عدت إليه لقبته نائماً ، متعباً . فتمنيت لو أوى حملت قرية الماء عنه ، لو ساعدته ، لكننى أدركت عيب ذلك ، وقلة جدواه فولجت أحلامه ، رأتى أقف على رصيف قطار ، أنا مسافر وهو مودعى ، قال لى :

راققتك السلامة .

ثم يقترب مني ، يسألني ..

لكن أنت من ؟ .

قلت :

أنا ابنك الذي سيكون ..

تهلل وجهه فرأيته شاباً مليحاً ، قال ..

بك تتقني غربي ..

أومات ، لكن تهله ينقطع فجأة ، يقول وكأنه يحدث نفسه ..

لكنني سأعود كما بدأت ، غريباً ، مقطوعاً .

وهنا بدا متعباً ، عجزاً ، نحيلاً كما بدا في أيامه الأخيرة ، رفع إليّ

عينيه ، قال ..

ستمع بي وتذكرني ، وتطليني فلا تجد ..

جزعت ، صرخت والقطار يتحرك :

سامحني يا أبي ..

يقف فوق الرصيف ، يده مبسوطتان إلى أسفل . أسرع القطار فبدأ البعد

ولاح القفر ، استيقظ أبي ، خرجت من حلمه العابر ، رأته في بيت رجل

آخر من أقاربه ، لم أعرف درجة قرابته ، ولم أر لحظة انتقاله من بيت السماء ،

هذا الرجل تخصص في جني ثمار النخيل ، رأيت أبي يربط خصره بحبل ،

يتسلق الجذوع ، يقطف البلح ، في الليل يرقد فوق فراش من القش ، في الليل

يخص ، في الليل يقلب ، يتذكر أمه قلدع عيناه خفية ، يكره أن يراه مخلوق

باكياً . وبرغم ضيقه وجوعه وتلطمه كان يشعر أن هذا كله عارض ، مؤقت ،

وأن أياماً أخرى في انتظاره ، وأنها ليست ببعيدة ، في بيت الرجل لم يشعر أبي

براحة ، كان للرجل أولاد عديدون لم يتركوا أبى فى حاله ، جلس أصغرهم فوق المصطبة ، يطلب منه أن يتاوله السطل ليشرب فيناوله أبى ، تطلب منه المرأة أن يحضر لها بعض اقراص الحلة الجافة من فوق السطح فيحضرها أبى . تطلب منه أن يوقد الفرن فيوقده أبى . ثم رأته يعمل فى ماكينة الطحين ، يعبئ الأجرة بالدقيق ، الذرات الناعمة تغطى وجهه وذراعيه ، رأته يلتقط دودة القطن والشمس شديدة الوطأة ، رأته يسوق قطع ماعز يقوده بالنجاء الترة ، يصبح به أحدهم فيشمر ثيابه ، يحمل عترة صغيرة ، يخوض بها الماء الرمادى ، رأته يعبر الماء يحمل صبيا يصغره بعدة أعوام ، اسمه عبد اللطيف ، رأته يجدل سعف النخيل الأنحصر فى أشكال هندسية صغيرة ، يجمع التبن ذا الرائحة العسلى ، يرص أجولة قمح ، يربط أعواد البوص الجافة ، يحمل طاوولات العجين ، يصنى إلى أحاديث رجال متقدمين فى العمر يفتشون الرحبة الفسيحة ، من معارفى عنه أنه لم يكن ينسى اسم سمعه ، أولقبا ، أو حوارا ، أو وجهاً رآه ، أو منحى طريق ، يعرف كل من فى البلدة ، الأنساب والصلات والجسور غير المروية بين الأرحام ، يستقصى ويستفسر ليعرف ، يحذر عمه ، يستقصى أخباره ، إذا عرف بمفارقة القرية إلى سفر قصير ، أو تعوده لمرض فإن حمولة تخف ، ويتجول فى مدى أوسع وأرحب ، رأته يجلس خلف جدار من لبن ، بمفرده ، يستريح ، يفكر ، يدبر ، رأته وحيدا فقوى حزنى وعصف لى ماض بعيد قاس ، أصبح الضوء غريباً ، تقطعت سبل وتراحمت استفساراتى ، وحننت إلى صوت لم يبق منه صدى أو أثر ، كذا الملامح المهمة ، والنفمة الغامضة ، تابعت أبى يمشى فى درب مجهول لى على جانبيه بيوت غريبة ، موصدة ، سعيت وراءه ، أسرع فأسرعت ، ناديته ، لم يلتفت ، دنوت منه ، مددت يدى ، انتهت إلى ملابسه التى لم أعهد لها ، التفت إلى ، تعجبت ، توقفت ، رأيت أمامى مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى أهالى الكوفة ، لم أر

ملاح أبي ، كنت في زمن غير زمنه وغير زمني ..

لطيفة شعرية

حين قرى الهوى وقلنا سررنا
وحسبنا من الفراق أمنا
بعث البين رسله في خفاء
فأبادوا من شملنا ما جمعنا

لطيفة شعرية

كنت السواد لقلتي
فبكى عليك الناظر
من شاء بعملك فليمت
فعمليك كنت أحاذر

لطيفة شعرية

واني لاستهدى الرياح نسيمكم
إذا هي أقبلت نحوكم بهبوب
وأسأله حمل السلام إليكم
فإن هي يوماً بلغت فأجيبوا...

سماع ..

لما تيقنت أني لست أبصركم
أغضت عيني فلم أر أحدا

نوى

وكان سراج الوصل أزهر بيننا
فهبت به ريح من الين فأنطفا

تجلى الوصل ..

الوصل تقيض القطع ، الوصل حياة والقطع موت ، الوصل أصل ،
والقطع عارض ، الوجود مبنى على وصل ، الأنفاس المتصلة تغنى استمرار
الحياة فإذا انقطعت الوصلة بين النفسين مات الإنسان ، أما الأجنة فلا
تخلق ، ولا تتكون ، ولا تنضج إلا بعد وصل ..

التقل والترحال

رأيت ملامح أبي في جسم عبد الناصر، يرتدى طربوشاً أحمر وجلباباً
أخضر من الصوف ، هو أبي وهو عبد الناصر ، لكن حضورهما لا يمتد إلى
العالم المألوف ، كنا الحركة والخطو ، رأيت يسعى في طريق ترابه ناعم ،
يتوقف أمام مقهى ريفي يتجمع فيه الذين هم على سفر ، رأيت نفسى أجلس
في ركنه البعيد ، كنت أرى ما بداخله وما بخارجه في آن معاً ، المقهى في
الكوفة ، يا لعجبي ، مقهى في زمن لم يوجد فيه مشروب القهوة بعد ، وفي
الكوفة .. كيف ؟ يتوقف أبي ، يسأل بصوت عبد الناصر ..

جمال ابني هنا ؟

يسكت الرواد والزبائن ، لماذا لا أجيء ؟ لماذا الصمت ؟ همت فثقل
لساني ، جمد صوتي وتعثرت الكلمات في حلقى ، لماذا لا أقوم ؟ لماذا لا

أصبحه ؟ جاوبني صوت أجهل صاحبه ..

أوانك لم يمن بعد ..

انصرف أبي متبعداً ، وحيداً ، مستوحشاً ، الخطى منه ، وميل القامة عند المشى لعبد الناصر ، قام رجل قصير يرتدى زى أهل الكوفة زمن الحسين همس ..

من يرتدى الأخضر والأحمر .. أهو أبوك ؟ ..

قلت . نعم ..

قال .. هذا لباس النعم ..

ثم وهن صوته عندما قال ..

لا يزعجك ما ستره ..

كدت أسأله عم يعني ؟ لكنني نظرت المقي خالياً من رواده ، استطالت جدرانها وضائق فراغه وشحب هواؤه ، رأيت مقعدين بلا مساند ، يفصلهما مقدار مترين ، يتوسط المسافة مكتب بلا أدراج ، متسخ ، عليه بقع حبر جفت وخطوط وبصمات غامضة ، تلك زرة ، داخل سجن ، والسجن من سجون ابن زياد والى الكوفة ، يدخل ضابط مرتدياً الثياب المدنية ، ثياباً من عصري ، يخفف عرقه بمنديل ورق معطر ، ملامحه ليست غريبة عني .. لكن متى .. أين ؟ ، لم أحط علماً حتى ذلك الوقت ، ينظر إلى طرف حائله ، يحركه مرات ، تبعث جلبة ، خطى ، صفع ، بصى ، ركل ، أراهم يدفعون عبد الناصر ، محسوب العينين ، موثق اليدين ، يرتدى الثياب التي رأته فيها عند ظهوره أول مرة ، القميص الفضفاض ، والبنطلون الواسع ، أوقفه أمام الجدار ، ويدنا لي حريصاً على رفع رأسه ، أراه هو والضابط أمامي . اثنين لا ثالث لهما ، لا أرى من يدفعون به ، لكنني اسمع احتكاك أحذيتهم ،

أصوات وجودهم وحركتهم ، عرفت أنهم من رجال الشرطة السرية قساة
القلوب ، عرفت أنهم أول ثلاثة وصلوا إلى الكوفة ليخوفوا الناس من الوقوف
إلى جوار الحسين ومناصرته ، في هذه اللحظة برق خاطري فأدركت شخص
الضابط ، هو من ضربني وصفغني ولكمني وهددني وسب أمي وأبي ، هو
الذي أهدى لي الرقة واللبن ثم انقض على يروم فقأ عيني ، عندما اعتقلت في
أكتوبر عام ستة وستين وتسعمائة وألف ، كان عبد الناصر وقتئذ ملء العيون ،
مهابةً قوياً ، جليلاً ، قاسياً على من ابغضوه ، وعلى بعض من أحبه ، وكان
هذا الضابط شاباً مختلاً مزهواً برتبة رائد واسمه منير ، ألم بي غشيان ، وضيق
لزج ، ركزت نظراتي على يديه اللتين صفعتا وجهي ، وقبضتني اللتين سددا
اللحكات إلى صدري ، واستعدت ما ملأ على خاطري بعد خروجي من
المعتقل . أن أرى من صفغني ، من سبني ، تزايد ضيق وتمتت مفارقة هذه
الزنازة . في هذه اللحظات ترددت على مقربة من أنفاس خفاف ، لطاف ،
التفت ، إبتل قلبي بالسكينة ، شفيعى يقف على مقربة ، أنست روحي ،
وعمرت جسور الرضا والوثام فرحلت لتوى إلى مدينة الكوفة ذاتها ، تجلى لي
مسلم بن عقيل في درجة من النور الأحمراني مستمدة من مكونات الديوان
الشعشعانية ، نظرت إلى قرة عيني ، إلى الحسين ، وجهه مضوع بالحنين ،
ماوى ومرقد للطف الجميل ، انجذبت إلى عياه الرقراق فشفت قلبي وتمتت لو
دام على وقت النظر إليه ، عرفت أن الشوق الإنسانى القديم يملأ عليه كيانه
وهو يواجه ابن عمه ومبعوثه ، هاهو مسلم ، تجلى لي في لحظة تضام تشاؤمه
الذى رافقه منذ موت دليبه ، بايعه أربعون ألفاً من أهل الكوفة ، يكتب إلى
الحسين ، « أقبل فإن الخلق معك » ، رجال الشرطة يرفعون الأمر إلى حاكم
الكوفة ، ينهونه إلى خطورة ما يحرى ، يتجه الحاكم إلى المسجد ، يصعد إلى

المنبر، بحمد الله وبنى عليه ، يطلب من القوم ألا يسارعوا إلى الفتنة
والتفرقة ، يصبح فيه أحد رجال يزيد .
هذا رأى المستضعفين ..
يقول ..

لأن أكون من المستضعفين وأنا في طاعة الله أحب إلي من أن أكون قوياً
في معصية الله . رأيت التقارير تدبج بالحبر السرى في مقر الشرطة ومأوى
العيون الخفية الموثوقة ، يراجعها ويضيف إليها هذا الضابط الذى لا يغيب عنى
بملاحمه ، تخرج التقارير إلى دمشق ، تنبه وتحذر من أمير الكوفة النعمان ، تحذر
من تقواه ، من نظافة يده ، والأدهى تعاطفه مع الحسين ، الضابط لم ير
يزيداً أبداً ، لكنه يدرك المطلوب تماماً ، ينصح بتغيير أمير الكوفة بآخر يقدر
على الامساك بزمام الوقت ، إنه يضم غرضاً خفياً ، أن يسند إليه منصب
أعلى ، ربما في دمشق نفسها ، منصب يمكنه من جمع قدر لا بأس به من
الثروة ، والحوطة على مساحة أرض ، هناك الأقل منه ، استولوا على الضياع
واشتروا الجوارى الحسان ، إنه يتخيل نفسه سارحاً في البرية ، أو سائحاً في
المدن ، يلتقى صدقة بالحسين ، يمسك به ، يقطعنه ، يحتر رأسه ، يذهب إلى
يزيد ، يقول له ، قتل من ادعى أنه أحق منك ، قتل من جرؤ فامتنع عن
مبايعتك ، ثم يتأهب لتلقى العطايا والمنح ، تجلى لى يزيد في دمشق ، وعندما
بدت لى ملاحمه دهشت ، تلك ملامح أعرفها ، طالعنى وضقت بها ، رأيتها
ونفرت منها ، أبصرتها عن قرب واحتقرت صاحبها ، كيف جاء إلى هنا ؟ لم
أشأ إلا استرسال في الدهشة فكتمت وحجبت ، تجلى لى وأمر الحسين بقلقه ،
ما يتحدث به الحسين ولى زمنه ، حديث زهاد لم يعد له محل ، قيم مندثرة ،
إنه يسعى إلى أردأ الخلق فيوليه ، وإلى أحطهم فيعينهم ، لا يتق أبداً بن

ثبت صلاحه ، لا يقرب من عرف بورعه وتقواه ، إنه مقدم على لحظات تغير وتحول ، وتلك لا تحتاج إلى من يمسك العصا من الوسط ، المهم الآن ، من يوليه اشارة الكوفة ؟ من ؟ إنه يستعرض التقارير ، يصنى إلى هذا وذلك ، يتأمل الأوصاف والسمات ، لا يستغرق وقتاً طويلاً ، يهتدى إليه ، إنه فاجر ، قاس ، لم يعرف صلة الرحم ، ولم يرق يوماً لمسكين ، غشوم ، غليظ العبارة على من لا يستحق ، إنه عبيد الله بن زيادة أمير البصرة ، الوقت لا يحتمل ، يصدر الأمر بتولية ابن زياد ، أن يتوجه فوراً إلى الكوفة ، تجلى لى عبيد الله بن زياد ، قيل خروجه من البصرة تباح له الفرصة كى يبدى الولاء ويعلم ، عندما بلغوه أنهم قبضوا على رسول الحسين إلى البصرة أمر بإحضاره إلى الميدان الكبير ، اسل سيفه وضرب عنقه ، هكنا رأيت مقتل أول رسول فى الإسلام ، اغمد ابن زياد سيفه بدون أن يسمح ما علق به من دم ، خطب فى الناس ، قال إن يزيد ولاء الكوفة ، وأنه عزم على المسير إليها ، وأنه استخلف أخاه عثمان بن زياد ، حنرهم ، هددهم ، خوفهم ، أقسم أن يأخذ الأدنى بالأقصى ، والبرىء ، بالملذنب ، رأيته يستدعى هذا الضابط ، يطلب منه أن يرسل عيونه الخفية إلى الكوفة ، ليتلمسوا ، ليتحدثوا عن بطشه وقسوة قلبه ، وسخائه على من يتبعه ، ثم سأل الضابط ابن زنى عن الحسين ، عن زيه ، وعن عاداته ، فى صحوه ، فى نومه ، ولوازم عباداته ، وصفة مجلسه ، وطعامه ، ومواعيد تناوله ، وساعات نومه ، وعده الضابط أن يقدم إليه تقارير تقي بكل ما يطلب ، فى نهاية نهار خرج من البصرة وعليه رداء أبيض وعمامة سوداء ، تلثم فى منتصف الطريق ، الأخبار عنده تقول إن الكوفة ملتفة حول مسلم بن عقيل ، وأن أكثر من أربعين ألفاً بايعوا الحسين ، إذن .. التحوط ضرورة ، والحذر واجب شديد ، رأيت ابن زياد

يعبر أسوار الكوفة متخفياً في لباس الحسين ، بعض الناس يرونه فيظنون أنه الإمام قد جاء ، يقولون ..

مرحباً يا ابن بنت رسول الله .. قدمت خير مقدم ..

وهنا سافرت وأنا واقف ، عدت إلى تلك الزنانة ، رأيت هذا الضابط بعينه ، بملاحه ، بقامته المثلثة ، لكنه يرتدى الثياب التي رأيت فيها أول مرة ، يدور حول المكتب ، يقف أمام عبد الناصر معصوب العينين ، يسأل بصوت مغاير لصوته ..

لماذا قدمت إلينا ؟

تمر دقيقة .

ترتفع يد الضابط مفردة الأصابع ، تهوى على الوجه الذي طالما أطل وأشرق وحنأ ، يتوقف الضابط ليرى تأثير الصفحة الأولى ، تماماً كما جرى معي . العجيب أنني تأملت وتوجعت كأن المضروب أنا ، كأن المعذب أنا ، تمضي دقيقتان كاملتان ، ترتفع اليد مرة أخرى ، الصفحة أثر الصفحة ، لم أسمع آهة ، ولم تصدر أنة ، أحمر جلد الوجنتين ، وأحمرت راحة يد الضابط ، خفت أن تصدر عني صرخة فزع ، كنت موصولاً به ، في سعي إليه ، خفق قلبي خفقة ذات مدلول ومعنى ، أمامي عبد الناصر ، والحضور لأبي ، الرائحة له ، رائحة ثيابه عند عودته اليومية ، الرائحة التي لا يمكن لي أن أخطئها أبداً والرائحة التي لن يتكرر مذاقها أبداً ، عبير زماني الآمن ، وعطري المتبدد ، تعاقبت أيام وليالي مكتملة الأهلة ، صحوه سماواتها ، رائحة ظلالها ، عذب نداها ، ساعاتها مدنتي بالمنى وشوقتي إلى ما أهوى وما أحب ، حتى إذا اتصلت بأسبابي نفست على به الدنيا واستكثرت عليّ ، فسعت بالتشيت إلى الألفة ، وبالفرقة إلى الالتئام ، وبالمر إلى المسرة ، وبالتقص إلى الجمع ،

فكسفت بهجتي ، وأرهقت نضرتي بالفراق ، ويبست جذع وصلبي ،
واجذبت اخضراري ، تشبثنا في الآفاق بعد أن ضمنا وقت واحد ، وجمعتنا
أرض واحدة ، وأظلمت سماء واحدة ، ولتنا ليالٍ فقيرة مادتها ، غنى محتواها ،
وانفعلنا بكبرياء ضد عدو استهدف ذلنا ، تمزقنا .. وقد كنا كالأعضاء ،
المؤتلفة ، اللدنة ، المنعطفة وهما هو أبي يهان ، ويصفع ، فتتهدد أيامي ،
ويتبدد معنای ، وتذوى الرائحة الغالية ، يترمد قلبي ، لا أقص رؤياي على
أحد ، ألوذ بالنظر إلى ونسي وعاصمي ، يبدو شجيا ، بوجهه يعيش حزن
قديم كبقايا الدمع في المآقي ، لم يخطئ بصرى ، ولم يكل ، ولم يحنى فهمي
وادراكي .

يزعق الضابط فجأة بعد تراجعه ثلاث خطوات ..

كيف تضربونه ؟

روع ، زلزلت زلزالا ، اللغة غريبة ، لم أتعلم مخارجها في طفولتي ولم أتج
حروفها ، يقشعر بدني ، لغتي العربية غير متداولة ، محظور النطق بها أو
الحوار ، التحية ، والنداء على الحبيب أو القريب ، وترجمة المشاعر ، والبوح
بعبارات الحب ، واللفظ ، والأنس ، والنكته اللاذعة ، محظور التخاطب
بها عبر الدواوين ، أو تلقيها للأطفال الذين تفتح عيونهم على دنيا غريبة ،
في أي زمن أسود رسوت ، وفي أي وقت أغبر استقر سفرى ؟ تذكرتك قلبي
الموهن . يتزعج الضابط العصابة عن عيني عبد الناصر ، يفلك قيد يديه ، يشير
إلى المقعد القصير بلا مسند ، يجلس إلى المكتب ، يبرز علبة سجائر خضراء .
نفس العلبة التي مدها إليّ واعتذرت لأنني غير مدخن ، يمز عبد الناصر
رأسه ، أكاد أثب ، إنها نفس هزة رأس أبي ، لا يمكن أن أتوه عنها ، هزة

دماغه ، عندما يكظم ضيقا ، أو يخفى غيظا ، يفتعل الضابط الود والرغبة في القربى ، يقول ..

« تعرف أننى أدركت أيامك ، أننى انتمى إلى جيل يطلق عليه اسمك ، رأيتك مرارا ولكن ليس عن قرب ، فلم يكن لئلى أن يحلم بلقائك ، تأثرت بكلماتك وطربت للأغاني التى ذكرتك ، أنت ياق ، وإن تكن هنا فهذا سوء فهم . أنت لم يقبض عليك مختلسا وإن حاولوا اتهامك بعد موتك ، لم يقبض عليك مرتشيا وإن صرحوا بما يشوه سيرتك .. نحن لم نصدقهم ، صحيح أنك الآن أمامى ، لكن اعدنى ليس الأمر يبدى ، أننى أؤدى واجبات وظيفتى ، لا تنس أننى حلت بينهم وبينك .. الذين ضربوك لم يسمعوا عنك ، اسمك لم يذكر منذ زمن بعيد ، صورك لم تنشر ، تماثيلك هدمت ، كنت مصدرا للتهديد وأنت فى قبرك ، لا تنس أننى حشتم عنك ، لا تنس أنك فى زمن غير زمانك .. عبد الناصر ، لماذا قلمت ؟ لماذا ؟ .

اسمع مهمة ، أسافر إلى ابن زياد مرة أخرى .

مرحبا .. مرحبا .. قلمت خير مقدم ..

لا يكلم الناس الذين ظنوه الإمام الحسين ، لا يلتفت بمنة أو يسرة ، يصل إلى القصر ، يبرز المراسيم ، يستدعى الضابط ، يأمره بإخراج جميع الغرباء من المدينة ، يأمره بحشد جمع من حثالة الاعراب ، وبذل الوعود لهم ، تستصرف لهم مكابيل الشعر إذا مشوا فى طرقات الكوفة هاتفين ليزيد ، وسبوا الحسين ، يأمره بأن يرتدى رجال الشرطة ملابس عامة الناس ، وأن يتولوا هم الصباح ، والعتاف حتى لا تغفل الأمور ، يأمر بتفتيش المدينة بحثا عن مسلم بن عقيل رسول الحسين وإمساكه حيا أو ميتا ، تلك مهمة عاجلة ، يأمر بضرب أعناق عدد من عابرى السيل على مرأى أكبر عدد من الناس ،

والمناداة عليهم ، انهم من رجال الحسين ، يبدي الضابط حماساً زائداً ، وعد بما يثلج صدر ابن زياد ، يقول ابن زياد إنه يريد رسماً وافياً دقيقاً لكافة مخارج الكوفة ، ومداخلها ، ودروبها ، وتعداداً وافياً دقيقاً لبيوتها ، وحصرها لأصحابها ، يريد مسحاً شاملاً لجميع الطرق المطروقة والمهجورة حتى مسافة ثلاث ليالى سفر ، كذلك المواضع التى يسهل عندها الاقتراب من الفرات لأخذ المياه ، والمواضع التى يخف فيها النخيل والنبات ، والتى يغزر فيها ، والقرى ، والمحلات ، يطلب بث العيون فى كل منها ، وإذا كان بعضها مهجوراً فليمض عدد من الشرطة المتخفين للإقامة فيها ، يصغى الضابط ، تلك اطرقته التى أعرفها ، ملاحه التى سبقت حملته إلى وسبه أمى وأبى فجأة ، ملاحه التى تواجه عبد الناصر فى موضع آخر من سفرى هذا ، يخرج من القصر ، اسمه يخفى النفس بسماع مديح ، لعل أخباره تبلغ يزيداً فى الشام ، لعل اسمه يذكر هناك فيصدر مرسوماً بترقيته ، لعل ما تشتهيه النفس يتحقق ، لعل وعسى ، ينبث ضباطه وعسسه ، كل يبدي الهمة ، كل طامح فى رضاء قائد الشرطة عليه ، كل يخشى عيونا مدسوسة لا يدري بها ، بعضهم طافوا بالطرقات زاعقين ، يسبون الحسين أضفوا حماساً على أصواتهم ، شدوا من ملاحهم شأن من يصطنع أمراً فيظهر الانفعال الزائد ظناً منه أن هذا يقنع الآخرين . رأيت الجند يسكون ثلاثة غرباء ، ثلاثة من عابرى السبيل ، لم يثبت عليهم ذنب ، لم يعرف لواحد منهم اسم . ضربت أعناقهم أمام القصر بغية تخويف وترهيب ، أمسكت بلحظة تغير نادرة ، لحظة رجحان كفة على كفة ، لحظة تبدل المواقف ، سمعت قولاً يتردد : ما لنا وما للحسين ؟ ، توقفت عند طريق النطق ، النبض الخفى للحروف ، الصيغة يتردد هذا كله من لغة إلى لغة ، من لهجة أخرى ، من زمن إلى زمن ، عندما تتعامى البصائر ، كثيرون لم

يتظنوا ، جاهروا بجهلهم ليزيد ، لابن زياد ، انقلبوا ولفظوا نقيض ما قالوا ، قعلبوا الحواجب ، زموا الشفاه ، كأنهم كانوا فى غى ثم أدركوا ، درت بعينى ، بنظرى حولى ، أين مسلم بن عقيل ، أين ؟ رأيت الضابط عابساً يواجه عبد الناصر ، يلقي السؤال تلو السؤال

لماذا ظهرت ؟ لماذا جئت ؟ إلى من تحدثت فى ميدان الدق ، هل دفعتك دولة أجنبية ؟ هل تقف وراءك جهة ما ؟.

ينطق اسئلته بإيقاع سريع ، كأنه يعتمد المباشرة ، والارباك ، أدركت أن الأساليب لم تبدل وإن اختلفت الحقب ، هكذا سألتى الضابط ، أنظر إلى صمت عبد الناصر ، إلى عينيه الواسعتين ، لم تفقدا بعد قدرتهما على النفاذ ، بغض الضابط بصره خفية لثوان معدودات ، يقلت من نطاقها لحظات ، يبدو السكوت مقلقا ، يسأل ..

لماذا تجمع الناس حولك .. لماذا أحاطوا بك ، من أخبرهم بظهورك ؟ . يستمر الصمت والامتناع ، تتوتر لهجة التساؤل ، يشير بيده ، يدخل إلى الزنزانة ثلاثة ، لا يراهم عبد الناصر إنما يشعر بهم غير أنه لم يهتز ، لم يبدر منه ما بدر منى عندما دخل اثنان من المخبرين السريين المخصصين فى الحلد واستنطاق المتهمين ، وقوفهم إلى الخلف يحدث قلقا ويث اضطرابا فى النفس ، تصبح الضربة متوقعة فى أى لحظة ، والضربة غير المرتبة تؤلم أشد . ألفت فنهائى الضابط ، بسرعة رأيت ملامح شاب أسمر اللون ، نحيف ، يرتدى قميصاً وبنطلوناً . قميصاً أبيض مخططاً ، وبنطلوناً رمادياً قميصاً قصير الأكمام وبنطلوناً واسعاً ، كان يمسك بمخيزرانة ، لم أعرف اسمه ، ولم أسمع مخلوقاً يتأديه ، نهرفى الضابط وسينى ، عرفت أنهم يحرسون حرصاً شديداً على ألا يتعرف الضحية إلى معذبه ، إلى جلاده ، لهذا يتخذون أسماء غير

اسمائهم ، ويمشون بين الناس حذرين ، في تلك اللحظة اضطربت ، كنت موزعا بين مواجهة الضابط والإجابة على أسئلته وبين انتظار الضربة . وآلتي انتظار الضرب أشد من وقعه على جسمي عندما بدأ . عبد الناصر لم يلتفت ، لم ترف جفونه ، هذا عجيب ، ولم يتفق لإنسان ممن جلسوا أمام الضابط طوال مدة خدمته أن يحتفظ بثباته هكذا .

لماذا هاجمت أصحابنا ، لماذا حرصت على تنكيس أعلامهم ؟.

عبد الناصر لا ينبغي تعجبه ، لكنه لا يديه نطقا ، على مهل يستدير بوجهه ، تستقر نظراته باتجاه مولاى .. هل يراه ؟ هل يراى ؟ تتعلق عيناه بالجهة التى يتصوع منها عبير الحسين . تطوف بهما مناجاة استعصى على فهمها ، أو النفاذ إلى مكنونها ، وتلك حيرة ألت بي مراراً فى مواجهة عيني أبي الهادئين ، الاسيائتين ، عندما يطول صمته وتعمق وحدته وينظر إلى ناسجاً التأويل والاستفسارات والشروح العvisة ، وكان آخر عهدى بذلك فى شرفة البيت قبل سفرى عندما حدى إلى وأغدى تخنانه على وكف لسانه عن التعبير حتى أنى استسلمت لنظراته ، ولكنى لم أفهم ، لم أعرف أن المتبق من عمره وقتئذ أحد عشر يوماً لن يزيد ولن تنقص . ليتنى رحت فى الطوفة بطوفة ، ليتنى قابلت النظرة بالنظرة والحنين بالحنين ، والشوق بالشوق ، ليتنى ا ، هل كان يتزود من ملاهى قبل سفره الطويل ؟ ليتنى أدرى ا ، لا يمكنى أن أجزم ، غير أن لنظراته هذه مقاماً ، وموقفاً ، لا أقدر على التطرق إليها الآن فلم أتأهل بعد ، وذلك لعظم ما بهما ، واستغلاقه على ، ها هو مسلم ابن عقيل يقول لهانئ بن عروة ..

اتيتك لتضيفنى وتجيرنى .

يقول هانئ .

لقد كلفنى شططا ، لولا دخولك دارى وثقتك لى لأحببت أن تنصرف
لشأنك غير أنه لزمى من ذلك زمام .. أدخل .. أدخل ..

رأيت ابن زياد يقصد بيت هانى ، يتجه بقصد زيارته أثناء توعكه ،
هذا فى الظاهر ، ويستميله فى الواقع ، هانى ذو عزوة ، وقوة ، رأيت
الخادم يخبر هانى أن ابن زياد بالباب ، هانى يستدعى مسلما ، يدفع إليه
بسيف ، يطلب منه أن يقف خلف الستار ، سيرتب جلوس ابن زياد بحيث
يولى ظهره إلى الستائر ، وعندما يخلع عمامته فليعتبر مسلم هذه الحركة بمثابة
إشارة لكى ينقض ، ليجتث شره ، يقف مسلم مخفيا ، يدخل ابن زياد
يصحبه حاجبه ، مسلم فى مخبئه ، وجهه منقبض ، حذقت بالبصر المتين
فلمحت وجنتى أبى ، وضمة فمه ، وتجميدة جبهته ، وموقع عينيه فوق
العينين ، وقلق عينيه عندما تصبح الحيرة شارته إذ يفكر أو يشرع أو يقدم على
شيء تأباه نفسه وتكرهه روحه ، رأيت «هانى» يرفع عمامته ، لكن مسلم
لا يتحرك ، لا يقدم ، بدا لى أنه لن يفعل ، دهشت ، خفت لا .. بل ذعرت
وغضبت ، هانى يرفع عمامته للمرة الثانية .. يضيق نفسى ، ماذا جرى لابن
عقيل ؟ وهنا تجلى له صوتى ، سمعنى ولم يرى ، سمعنى ولم يسمعنى غيره .. قلت
له حاثا ..

أقدم ..

يلتفت ، وجهه عذب ، تأسره حيرة .. يقول ..

هل اقتل مسلما غيلة ؟

يتملك صوتى حتى ، أقول ..

ابن زياد قاتل ، سقتل مجرما ، ابن زياد سيقنلك ، سيمثل بك ، سيلبى
برأسك من فوق سور القصر ، سيمنع الماء عن مولاى الحسين ، سيأمر بقتله

وحز رأسه ، سيشهره فى شوارع الكوفة ، سيسبى نساء الحسين ، سيوشك على قتل ابنه ، اقتله ، ربما غير قتله الأسوأ إلى الأحسن ، إلى الأفضل .. أقدم .. يقول :

لا إيمان لمن قتل مسلماً ، هكذا سمعت رسول الله يقول .. لن أقتله غدراً أبداً ..

لمحت ابن زياد يتأهب للانصراف ، اندلعت خواطرى وجن فكرى ، تبعثرت فى شواردى ، مددت يدى أبغى اختطاف السيف لكن يدى غاصت فى المقبض ، كأنى أمسك بالهواء ، أو أقبض على ضباب ، خوى داخلى ، سمع ابن عقيل صوقى متعباً ، واهناً ..

لماذا ؟ لماذا لن تمضى ساعات إلا ويقتل هانىء الذى يستضيفك ويخفيك ، سيرسل ابن زياد ضابطاً من عتاة ضباطه ، سيتخفى ويبحث عنك ويتبع الحيلة حتى يصل إليك ، ضابط غير معروف لك ، ولا لأهل الكوفة ، لكننى أعرفه ، وأحفظ ملامحه لماذا ؟ لماذا ؟ كان من الممكن أن يتبدل الزمان ، يسأل ابن عقيل متعجباً ..

ولكن صوت من أنت ؟.

نوديت من ركن خفى ..

جبال .. هذا ليس لك ، وأنت ليس له ..

خرجت أقتنى أثر ابن زياد ، ما يشغله ، أين يخفى مسلم ؟ لو قبض عليه ومثل به علناً سينهى هذا تردد الخائفين من الجهر بعداوة الحسين ، أما المتذبذبون فسيحسمون دخائلهم ، وهؤلاء كثرة يجب أن يوجه إليهم جل جهده الآن ، لكن قبل هذا كله أين مسلم بن عقيل ؟ رأيت هذا الضابط يرتدى زى ذلك الزمان ، دقت النظر إليه يتقن دوره حتى كدت أصدقه وأنا الذى رأيت منه ما

رأيت ، عندما أخبره أحدهم أنه سيأخذه إلى ابن عقيل زعقت مخفراً لكن صوتي لم ينفذ عبر الحجب ، لم يقدر على قطع المسافة من زمني الذي أحاطني في هذه اللحظة كما تحيط المشيمة بالجنين . رأيت ابن زياد يستدعي « هاني » ، يواجهه ، اقتربت تحضرت ، يرد هاني :

والله لا أجيئك به أبداً ، أنا أجيئك بضيق لقتله .

يرفع ابن زياد قصيبه ، يضربه على وجهه ، لا يتردد لحظة أمام مكانة هاني وشيخوخته ، يدرك ابن زياد أن أخطر ما يواجهه الآن جملة تلفظ وقد تتردد . تلك أخطر من جند كثيف ، خرجت من القصر فزعا أعلو في شوارع الكوفة ، يتردد صوتي صارخاً فيسمعه البعض ولا يسمعه آخرون ، ولم أعرف سر ذلك ، واستغل الأمر عليّ ، وإن اضمرت الاستفسار ، صرخت منبهاً بمقتل هاني ، فكت أنا من أفضى إلى أهالي الكوفة بالنبا ، علوت إلى مسلم لأخذه ، في الطريق ابن عقيل يشهر سيفه فحملت الله وأثيت عليه ، حوله جمع وحشد ، إنه في عدة وعدد ، كم رأيت ، ربما ثلاثة أو أربعة آلاف ، يمضون إلى القصر ، ينسحب رجال الشرطة ، يجلون الطرقات والميادين والنواصي ، يتردد الضابط ، ماذا لو دارت الدائرة ماذا لو انقلبت الآية ؟ اذن ليتوارى مؤقتاً . أو ليتشاغل بأمر ما حتى يتضح رياح العلة قادمة من أي جانب ؟ يحاصر ابن زياد . معه في القصر ثلاثون من العسس ، وعشرون من الوجهاء ، يأمر ابن زياد العسس بالتسلل إلى الخارج ، يتدسون . يخوفون الناس مغبة القتال ، رأيت الضوء الأحمراني يضمم بيوت الكوفة وشواشي نخيلها ، العسس ، العسس ، كل منهم موعود بمكافأة سخية ، دراهم ، وقح ، وشعير ، ومنصب ، ولقمة سنية ، يتدسون ، يتشرون ، يعمسون ، يرغبون ، يجلدون ، يجلدون الناس ، يمنون أهل الطاعة ، يذكون الطمع ، كنت أقرب

انتشارهم وهمسهم في الآذان حيناً وجهرهم بالقول ، رأيت الضابط يهمس ويوسوس ، كنت فرداً ، والعسس جمعا ، صوقى غير مأذون له بالوصول إلا في أوقات لا أعلمها ، كنت عاجزاً وهم قادرون ، ألقى عظيم لعجز القدرة عن مواجهة القدرة . عندما يواجه الإنسان عصراً بأكمله ، وزمناً رديئاً مقبلاً ، وبما يزيد في وعورة المقام ، وصعوبة الحال ، رؤية الخلق يتحمسون لما هو ضدهم ، ويتصايحون من أجل ما يضرهم ، وهذا مقام وعر ، والكلام فيه خطر ، وقد عشته في زماني الدنيوى عندما رأيت بعضاً من قومي وناسي يهتفون ويهللون للصلح مع الأعداء ، يهتفون لصلح ما هو بصلح ، ويرفون الأيدي تحية لقاتليهم ، إلى هذا أُلحْتُ ، وذلك ما عنيت عندما قلت عجب لِقومي يتصرون عندما يهزمون ، وهزمون عندما يتصرون ، لكن هناك معاني أخرى ومقامات وعرة ، سأخوضها عندما يؤذن لى بذلك . ذلك تقدير العزيز العليم ، أما الآن فأغلق ذلك الباب خشية وتقية ، رأيت الخذلان ، وديب الوهن إلى أعضاء الرجال ، سمعت الرجل يقول للرجل : انصرف فإن الخطر شديد . سمعت شاباً عفياً يهمس : يا روح ما بعدك روح . سمعت امرأة تقول لرجلها : غدا يأتيك أهل الشام فماذا ستفعل في الحرب ؟ دم لعيالك . رأيت رجلاً ينسحب ، رأيت رجلين . رأيت جمعا ينفصل . تغلق البيوت على أصحابها ، يتحول الخذلان إلى انفضاض ، إلى نكوص ، إلى هروب ، بأقل النهار ، ابن عقيل يحاصر القصر ومعه ألف . يتبهِ إلى قلة العدة والعدد ، يتراجع إلى وسط المدينة ، ابن عقيل الآن في خمسمائة ، يخترق شارعاً جانبياً ، يخرج منه ومعه ثلاثمائة . يدخل إلى المسجد في مائة . يحين وقت الصلاة ، يصطف وراءه ثلاثون . يسلم ميمناً ، يسلم يساراً ، إنه بمفرده تماماً الآن ، ما من رجل حوله ، ما من صاحب ، ما من نصير ، يخرج إلى الليل المكتمل ، إلى اقفر الطرق ، رأيت الضابط في ناحية من الكوفة ومعه عسس ، يظهر الهمة ، ابن عقيل غريب ، ما من يدله على

بيت يأويه ، أو شخص يحيره ، يمضى ، يتعد عن المسجد ، يعمق السكون عندما يختفى الخلق ويعز النصير . ويتأى الرقيق ويقع الرجال خلف جدران البيت ، ابن عقيل يمضى من درب إلى درب . إنه مكولم وخائف ، حزين لخلدانه ، وخائف على إمامه الحسين ، كيف يبلغه بما جرى ؟ كيف ينثنه عن الهوى ؟ كيف يتصل به الآن ؟ من يحمل الرسالة وأين المطايا أين ؟ إن ضنا ثقيلًا يحل به . كيف يتم التحول ؟ كيف ، يتراجع الجمع ، يتستر الخذلان بالخلدان ؟ يلتفت ، لكنه واهم ، ما من صوت خلفه ، ما من ديب ، لم يكن باستطاعته رؤيتي أو سماع خطوي لكنه شعري . فى نفسه جزع ، لكن ما يحيره السهولة التي تبدد بها الجمع ، تبدو الدنيا غامضة والنفوس مستعصية ، التفت إلى الحسين ، وددت لو أرجوه تمكينى من التخفيف على ابن عقيل ، أجمنى مقدار ما يفيض على وجهه من حنو وتأثر ، عدت إلى ابن عقيل ، سميت ، وددت لو أحذره من اللجوء إلى بيت المرأة ، تمنيت لو أخبره عن ابنها الذى سيرشد جند ابن زياد إليه . كيف أعرف ولا انطق ؟ لكن الديوان لم يأذن لى ، لم يرفع الحجب بيني وبينه ، غير أن طبيعتي الإنسانية تغلبت على فاندفعت أجرى زاعقاً ..

يا ابن عقيل احذر ..

لم يلتفت .

يا ابن عقيل انتبه .

توقفت ، بدأ يستدير إلى ليتخذ وضعاً يواجهنى به ، وما لبث أمرى أن اضطرب ، وقنفت بى فى منزل الدهشة والروع ، أمامى أبى ، رأيته متعباً ، غريباً ، عليه ثقل الأيام ، معفر الثياب ، وكان وجهه على مثال وجهه فى العام الذى لم أدر فى جنبه أنه الأخير ، العام الذى تضاعف فيه جسده ، وشحب

حجمه ، وضائق حلقنا عينيه ، ووهنت ضحكته ، وتباطأت حركته ، وقوى
سعاله ، قلت بعد أن خفت دهشتي ..

ماذا تفعل في الكوفة يا أبي ؟

لم يحيني ، رددت .

أبي ، أنت في أرض لم تطلها أبداً ، أنت غريب مثل .

يلدوم صمته عني ، تدهمني وحشة ، يبرد داخلي ، أصير في غم ، رأيت
نفسى بعين نفسى ، رأيتني في بلد غريب اتزله والعصر مقبض ، بلد لا أعرف
فيه أحداً ، لا يستظرنى أحد ، ولا أقصد انساناً ، لا أدري أين مبيتى ؟
لا أعرف مأواى ؟ الكل يسرع حولي ، والتوافد مغلقة ، وضوء المصابيح يلوح
من خلف زجاج بعضها فيشئ يجلسة ليلية ، ودفع ورائحة طعام ، فيتضاعف
حرمانى ، وتعمق وحلتي ، رأيت أبي والحمام متكأكة عليه ، هذا وجهه
عندما شكالى وحطته ، وأن لا أحد يكلمه ، وكل مشغول بنفسه ، قلت :
ضيعت زمني معك ، دعني اصحبك الآن ..

يعد يده باسطقاً أصابعه ، يمتننى .. اذن .. هو يسمعننى ، متى أسمع ومتى
لا أسمع ؟ متى تتزل الحجب ومتى ترتفع ؟ لا أدري ، عندما يحين الأوان
سأسأل الديوان ، أبي يشير إليّ ، اشارته على رأس القرب ، ورأس البعد
حامية ، لم أحاول ، رأيت مصدر الشفق بالقرب منه ، منبعه الذى يصدر
منه ويفيض مؤذناً بلحظات الغروب ، في الجهة المقابلة رأيت صفهى ، عرفت
أنه في شغل عني ، ليلي دامس ، لكننى كنت قادراً على التخاذ فيه بنظري
وكانه نهار ساطع مشمس ، أرى السواقى والأبراج والجسور المؤدية ،
والأراضى التى تتر بللاء ، وجردان الجحور والنخيل ، اهتزاز شوارب صراصير
الليل في سعيها ، كان بمقدورى احضاء خيوط بيوت العنكبوت ، كنت أرى

ما أمامي وما ورائي ، لا تحول دونى حواجز ، كنت أرى شيتين مختلفين من
زمنين متباعدين ، اصغيت فسمعت أنين التراب ، وضيق جذور النبات بترية
مستعصية ، ثم رأيت ظلا يعدو ، رأيت بيوت الكوفة مطلة على دروب
جهينة قريتي ، أما النخيل الكثيف ، فنخيل البصرة ، والهواء الجاف من
الحجاز ، والنجوم البادية من سماء بحر عدن ، والرائحة من مداخل طولكرم ،
تدفق مياه القنوات وسرعتها من فاس المغربية أما المياه ذاتها فن عيون اليمن ،
يطالغني أبي ، إنه صبي مفزوع ، أنفاسه عجلي ، وقلبه مهرول ، رأيت عمه
يعدو وراءه . رأيتها معاً ، مع أن كلاً منهما لا يرى الآخر ، طريق ملتو
يفصلها ، عمه يجرى بعد أن لمح ، ينبغي خفته ، الخلاص منه والانفراد
بالبيت والأرض والنخلات ، أبي يجرى ، ما من مغيث ، ما من منقذ ،
صرخت انبته بمكان عمي ، لم أدر .. هل وصله صوتي أم لا؟ . لكنني رأيتها
يقفز سور جرن قديم ، يحفر لنفسه في كوم تبن ، اسمع صوتا يخاطبني فيه
ثبوتية ، وديمومة ، إنه ضوء النجم القصي . قال إن ما رأيته وما تراه سيحفر
علامة داخل أيلك . سيعاوده ذلك في صحوه ونومه ، وسيعاوده في آخر
ساعة قضاها نائماً قبل رحيله . سألت ..

أهى الصورة الأخيرة التي ستلوح له من الدنيا؟

لم يخبني النجم القصي . سألت ..

أى تاريخ هذا ، ما موقع اللحظة من الزمن المعلوم؟

لكن الحوار انقطع .

سمعت شجوا وأنيئا ، يبعد عم أبي أو من هو في مقام جدى ، رأيت أبي
يرتجف كفرخ مبلول ، مع قدوم الفجر يدخل رجل ، يشعر بوجود أبي ،
يتساءل : من .. إنس أم جن ؟ يقل خوف أبي ، يتحدث إلى الرجل بما

جرى ، يصحبه إلى داخل البيت ، يضع أمامه صحناً فيه لبن ساخن ورغيف وقطعة جبن . يقول أبى بصوته كما بدا فى السنوات الأخيرة ..
والله لم أذق لقمة منذ يومين .
يرت الرجل على كتفه ، يؤلمنى جوعه ، وخوفه ، وحزنه ، وضيقه ،
فأبسط يدى أمام عيني ، أقول متأسياً ، حسبي ا .

إيضاح ..

.. حدثنى خالى فى الزمن الذى خلا من أبى ، وغودر فيه قلبى ، قال إنه يذكر رجلاً اسمه عبد الكريم زيدان ، كان المرحوم يوده كثيراً ، فى كل زيارة إلى البلدة لا ينساه ، يحضر له شيئاً ، فاش جلباب ، فى مرة أخرى شمسية ، أو سبحة من خشب الصندل عطر الرائحة يحرص على شرائها من جوار ضريح الحسين ، علبة حلوى طحينية ، أو شالاً قطنياً من الغورية ، قبل أن يموت عبد الكريم زيدان بشهرين جاء أبى إلى البلدة وزاره ، حمل إليه صندوقاً صغيراً ، فيه سكر ، وشاى ، وخمسة قطع من الصابون المعطر ..

تجلى سريانى ..

رجلى دثوب وشفيعى يؤنسنى ، لا تفزعنى البوادي ، ولا تصرفنى
الهاجم ، ألبس كل ماأنا مؤهل له ، من رداء شوق ، وقيص هوى ،
وصدار وجد ، وسترة حنين ، تتكشف لى الزواهر ، وتبرق لى نجومى
الطوالع ، تبصر عيناى ما لا يبصر ، تناولى شاسع وادراكى فسيح ، أما
شجنى فرهيف ، يتغير حالى مع أنفاسى ، يدوم سفرى ، ويستحيل

استيطاني ، أسافر في وقوفى ، وأقف في سفرى ، لا تأخذنى سنة ولا نوم ، ولا ترهقنى مشقة أو غفلة ، ولا تمس ذاكرتى علة ، ولا تهددنى عزلة برفقة حبيبى ، لا تلحقنى آفة ، فطوفة بطوفة ، ونظرة بنظرة ، وحنين بحنين ، وشوق بشوق .. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟..

رقيقة ..

أحبكم مادمت حيا فإن مت يحبكم عظمى فى التراب رميم

وصل فى وصل

. يدوم صمت عبد الناصر فلا رد ، يومئ الضابط ، تحتك أحذية الحراس الثلاثة ، تشى بالقسوة التى تدنو ، أشعر بحضور عبد الناصر الجليل ، الوعر ، هيكله الفاره الذى يفوق وجوده المادى ، ومشيب فوديه ، وتلك الألفة المرفقة ، رأيت مواكبه عندما كان مكتملا غير منقوص ، لم يمل بعد إلى محاق ، كان لحناً لم يتم ، وإطلالة فى إشراقات الأعياد ، وانتظار لطلاته ، كان وكنت وكان أبى ، وكنا شملا ملتئما ، والزمان فى ظاهره نضر ينحى ولا يعلن ، يبطن ولا يظهر ، لا ييوح ، لا يشى بما هو آت ، بغوامض الغيب ، يستعصى على الأبصار المحدقة ، رأيت بأسى تهدل جلده ، وانكساره ظهره ، وتعبه فى مواجهة هذا الضابط القادم من منازل الضر والبلوى ، إنه حليق الذقن ، مدبوغ الجلد ، نفس الراشحة التى وخزت شعيرات أنفى وأنا معصوب العينين ، لا حول لى ولا قوة ، رأيت صغره فى مواجهة الكبر المدفون ، والضلالة فى مواجهة الشمول ، والتقييد يقابل الحركة ، الماء الآسن والماء

الآجن ، الماء العطن والماء المزهرة السلسيل ، يتنفض الضابط ، لا يخفى
هياجه ، يخالف الأصول التي تعلمها .

لا ترد إذن .. أنت لا تعرف ماذا ينتظرك؟..

يقف الضابط فجأة ، ينظر إلى مدخل زنزانه التحقيق ، أرى وجوها
مطلية ، وجوها اسرائيلية ، وأخرى أمريكية ، ممثلين عن الموساد ،
والاستخبارات العسكرية ، ومدير المخابرات المركزية . يخفى الضابط من مجال
بصرى ، تمتطى ظلال ، وتتردد الأصوات متعاقبة ..

أنت متهم بمعاداة أصحاب النهى والأمر .. فى العالم .
أنت بنيت السد ..

عاديت الأسياد فى البيت الأبيض ، والبيتاجون والسينيت .
انخرت إلى الفقير وعاديت الغنى .
تطلعت إلى المستقبل ..

تتكاثر الأصوات ، تختلط ، بصعوبة أميزه عندما كان فتياً غفياً وأيامه
واعدة ، يعلن تأميم القناة ، الناس يصفقون ، يزأرون ، أين ذهبوا ، أين
راحوا ؟ اسمه يعلن التحدى ، يستعيد مجد الأيام القصية ، يث العزيمة ، لم
يكن لدينا جهاز راديو . خرجت من غرفتنا فوق السطح ، شتبت على
قدمى ، وأمسكت بيدى حافة السور فالتصق بجلدى طلاء مقشور بللته
الرطوبة ، صوته قادم من الطابق الأرضى ، عبر المنور ، يتصاعد ، والليل فى
أوله ، وإذا أرفع رأسى ، أرى لوحة اعلاية نضىء فى الأفق البعيد بالأحمر
والأزرق ، فوق السطح جلست ، أرتدى جلباباً بنى اللون ، أبى يقف فى
الركن بجوار عصا الايرىال الخشبى لراديو الجيران ، نهملق فى السماء ، ثلاث
طائرات على ارتفاع منخفض تعقبها ثلاث أخرى ، تصعد إلينا الست

روحية ، يسألها أبى عما جرى فى البلد فتقول انه الجيش ، وأن الملك انتهى ،
والناس يقولون إن الجيش سيرخص الحاجة ، ويحمل ركوب المواصلات مجاناً ،
صباح اليوم التالى تزلت . قطعت الطريق من مدخل حارتنا ، مررت بذلك
الباجورى ، ومحمد الخضرى ، وجلال الطعمجى ، وتوقفت عند عم محمد
بائع الصحف ، اشترت الأهرام ، الصفحة الأولى ، صورة كبيرة لقائد الثورة
تتوسط الصفحة ، وصورة أقل حجماً له ، ينظر نظرة جانبية ، نحيل ، أنه
كبير ، بهى الطلعة ، صور أخرى متساوية الحجم ، فوق السطح تمدد فوق
ظهره ، يستند رأسه إلى الجدار ، رحت أقرأ له الأسماء ، لم نتوقف عنده
بالذات . صحبنى أبى وصحب أخى إذ كان يحرص على صحبتنا . ذهب بنا إلى
ملعب فى خلاء الدراسة ، مدرجات خشبية ، ومدعوون بحلل وجلابيب
ولافئات من تجار الحى ترحب بالقادة الأحرار ، سمعت أن الشرطة ستقدم
عرضاً ، رأيت بالونات متفخخة فى أرض الملعب المفروشة برمل أصفر غامق ،
من أقصى الملعب تتطلق خيول يركبها فرسان بثياب مزركشة ، يعدون ،
يركضون ، يفجرون بالونات ، يعلو تصفيق ، ثم تمر طوابير كشافة ، رأيت
المناديل الخضراء حول أعناقهم والحبال البيضاء التى تنتهى بالصفارات ،
وأحزمة جلدية تتدلى منها خناجر ، يلتفتون ناحية موضع من المنصة ، يرفعون
أيديهم ، فى هذا الموضع كان هو ، لم أره . لكننى سمعت صوته . وكان
مجلجلاً ، تتخلله وقفات . تلك أول مرة أسمع ، انصرفنا ، وسقانا أبى عصير
القصب ، سمعت صوته بعد توالى السنين مهموما يعلن الانكسار وضياح
الجند ، وتلك بداية المحاق ، وأول اشارات الغروب الذى أثقلنا واعم نشأتنا ،
وأجهز على ما أجهز غير أنه لم يلحق الضرر بالعصر الذى سمعته فيه أول مرة ، ولا
بخطو أبى عند صحبتنا له ، ومشيه معنا ، لم يلحق الضرر وان لى هذا كله فلا
انكفى لأراه إلا داخل رحلى هذا ، أما فى عالم الحس فإدراكه وعرواحه ،

وإن كنت أودعت اللحظات مقدارا من وجودى ، ومسافة من زمنى ، سمعت
ركلا ، ثم صفعا ، لكننى لم أسمع اثينا أو صراخاً أو استجداء مرحمة مع أنه
تجاوز الخمسين وآخر عهدنا به كان مثقلا بالأوجاع وداء السكر وعطب القلب ،
احتد الأمر ، تداخلت الأصوات ، استطعت تمييز ضيق الأنفاس وتفتق الجرح
وانين العصب ، تتكاثر على الأصوات والرؤى ، تتطاير حول شظايا زمنى ،
الذى هو بعض زمنه ، أود لو أطلب التفسيرات . تأخذنى هزات الشجى ،
يشملنى أسى ، يضمئنى جرح ، يثقل على فأهرع موليا ، أسمع بكاء قديماً .
أنظروا ليتنى ما نظرت ، مسلم ابن عقيل محطم الأسنان ، مدلى الفك ، عطشه
شديد ، عيناه تدمعان بعد وقوعه فى الأسر ، إنه عاجز ، محاط ، مسلوب
السيف بعد أن صال وجال ، يقول أحد الواقفين : إن من يطلب مثل الذى
تطلب إذا نزل به مثل الذى نزل بك لم يبك . يقول ابن عقيل : والله ما لنفسى
أبكى ، ولا لها من القتل أرثى ، لكننى أبكى لأهلى المقبلين أبكى للحسين ،
وآل الحسين . اسمع رجفة ، ألتفت ، أرى مولاي يأسو ويحزن ، أرى جبينه
الوضاء يتغضن ، أمسكت نفسى عن نفسى ، صمت عن النظر ، كففت عن
الفضول ، توجعت ، أمثل محبوبى يتألم ولو للحظة ؟ نسيت أنه كان بشراً
سويّاً ، لكن لم يدم ذلك ، إذ وهنت على مهل شمسى ، واصفر كوني ، ودنا
ليلى ، وبدت فى أفق أول نجومى الداريات ، امتلأت حاسة شمعى برائحة تراب
بلدتنا ، ورائحة البئر القديمة التى غطيت جدرانها بالطحالب الخضراء ، ورائحة
قواديس الساقية ، وهذا كله عبر الفراغات إلى رثى أبى ، وطرق مناماته ،
رأيت أضواء البيوت فى الكوفة ، ورأيت نملة سوداء تدب فى ليل أليل على
صخرة صماء ، تواصل سعى وكنت غير مكتمل بعد وإذا اكتمل الإنسان
يرحل كالناقلة إذ تم حملتها تبحر أو تقلع أو تتحرك وثمة عودة . لكن الإنسان
هو الوحيد الذى يكتمل فيمضى ولكن بلا رجعة .. فالنجا ، النجا ..

خاطرة ..

.. الموت موتان ، موت أعظم وموت أصغر ، أما الموت الأعظم فيتمثل في السكوت على الجور ، والتغاضي عن الزيف ، وإخفاء الضمائر ، وغض البصر عن الحق المهضوم والتشاغل عنه بطلب المنصب الزائل ، والمال المكتنز ، كذا الرضا بالأمر الواقع والنأي عن محاولة تغييره والتقاعس عن الجهاد ، أما الموت الأصغر فهو بطلان الحواس ، وتوقف الأنفاس ، وهجوع القلب ، وبرودة الجسد عند مفارقة الروح وبيوسة الأطراف ...

الخرجات

.. تلك لحظة شرقية ولا شروق ، حمرة وصفرة وزرقة بعيدة وشفافية غامضة ، في النور الرقيق الحنون رئيسة الديوان ، سنا الطاهرة زينب ، سنية ، عذبة ، مطمئنة ، ودالة ، تملأ الجهات الأربع ، هذا مولانا الحسن متولياً على النواحي الواقعة إلى يمين الموجودات ، أما ذاك قلب الضياء ومبدد العتمة ، سيد الشهداء وشفيعي ودليلي وأمانى في خوفي . لم أدر موضعي أو في أى جانب أنا ؟ انقلب الضياء عن قرية مبانيها متجاوزة ومتباعدة ، طرقاتها رملية ، تلك لحظة الحسين من مكة ، يصحبه أهله وصحبه ، تتهادى رحله ، والدرب وعرة ، أما المقصد فالكوفة ، قيل له أن يسلك طريقاً جانبية لكنه أبى ، إنه يمشى فوق الأرض التي مهدتها أقدام المسافرين ، لا يخشى عيون يزيد المدسوسة ، قلبه منقبض ، والشواهد عكرة ، لكن الانقباض قد يعقبه بسط ، والضيق ربما تلاه فرج ، أما السكوت عن الضيم فهو الهلاك المبين ، قبل خروجه طاف بمكة ، تذكر المواضع الأول . تلك التي تمهل عندها ،

والتي آوى إليها ، والتي هزه الحنين في ظلالها ، تلك التي شهدت أيامه الأولى عندما كان أبوه غضباً وغصنه مورقاً وكان جده الكريم يملأ الدنيا ، استعداد للحظات الآمنة ، أيام طفولته في المدينة ، واللعب ، وهذه الرى ، وتمنى لو ألقى نظرة ربما تكون الأخيرة ، تذكرت هذه النسبات التي تتسلل عبر قبط الصحراء ، لثم بعينه الكعبة ، شرب ماء زمزم ، طاف بالزوايا والأركان ، تلك التي أودع عند كل منها مقداراً من الأيام الرواحل ، خاطر ييب على روحه قاسياً في رفته ، حاداً في رهافته ، ينبثه أنه لن يرى هذا كله ، يحاول اقصاءه ، بمضى إلى تفرقة ما فاض عن حاجته على الفقراء والمرضى ، في لحظة خاطفة استنكان وجهه لتعبير غريب لازمه ولم يفارقه ، يودع مكة ، يخرج ، على الطريق المؤدية يلتقى الفرزدق ، يسأل عن حال القوم ، يقول الفرزدق حزناً إن قلوبهم معه ، وسيوفهم عليه . إذن .. الأمر كما حدثه قلبه ، يستمر رحيله ، خروج ولا دخول ، المصير المنتظر يتكشف له عند كل خطوة ، يستدير الزمن ، ينهل من متزل الضر والبلوى ، بعد مرحلة أخرى يقابله رسول ابن عقيل ، يفضي إليه بالأنباء الموجهة ، بالأخبار الجسام .. إذن ، لم يعد المصير مجهولاً ، هذا هو الحسين في ركبته .. وضاء ، عازم ، مرقق الفؤاد ، صادق النوايا ، ليواجه بعمره من يريدون شد حياة الخلق إلى الورا ، إلى عصور الجاهلية الأولى ، إلى ما يثقل الوجود الإنساني المحدود بالشقاء ، في ركن قصي من قلبه المكلوم أمل بمواجهة القوم ، بمجادلتهم ، محاولة ثنيهم عن تقاعسهم ، وخوفهم من السلطان الزائل ، لكن الخواطر تنبث بما سيجرى وما سيكون من سفح دمه .. فليكن عمره محدوداً ، ولكن ما سيحدثه قتله على أيديهم سيتأجج بعد أن يبدأ مجرد جذوة ، إنه يوشك أن يرى بعينه ما سيجرى . هنا نظرت إلى مركز الديوان ، أعضاؤه وأوتاده وأركانه يرقبون

ويصفون ، حسيني ينظر إلى نفسه بنفسه ، في خاطري تكأكات الأفكار والقول ، ما من مجال للحديث إليهم ، ليس بوسعي إلا التلقى ، كنت هادئاً غير مستوحش ، يخرج الحسين إلى كربلاء ، رأيته ، واستعاد الديوان معي اللحظات الجسام ، رأيته ، ورأيت بعده خروج الندى والطل ، رأيت خروج الزهر من الأكمام ، وخروج الموجة من رحم الموجة ، خروج اللحظة من اللحظة ، رأيت خروج النظرة إلى المنظور ، ولحظة خروج الهار من الليل ، وخروج النجم من باطن الكون ، خروج الدمعة ، رأيت ما أحدثه خروج عبد الناصر في ذلك الزمان الغريب ، الناس يتحدثون عن ظهوره ، يؤكد الذين شاهدوا الواقعة في ميدان الدق أنه هو . الملامح ملاحه ، والقسمات نفس القسمات التي تحملها الصور القديمة . والقسمات نفس القسمات التي تحملها الصور القديمة . يؤكد رجل متعب أنه لا يمكن أن يخطئ وجهه أبداً ، تقسم فتاة شابة لم تعش زمنه الدنيوى أن صوته الزاعق هو نفس الصوت الذي اصغت إليه طويلاً خلال التسجيل المتداول سراً ، يقول فلاح في البرارى القضية إن عبد الناصر جاء مليئاً نداء الذين لا حول لهم ولا سند . وأنه جاء لأن هذا البلد محمى بآل البيت ، فيه الحسين ، والسيدة زينب رئيسة الديوان ، وسيدى زين العابدين ، والسيدة فاطمة النبوية ، والسيدة سكيئة ، والسيدة رقية ، والسيدة نفيسة ، رحمهم الله أجمعين ، يؤكد صحنى شاب أن عبد الناصر هرب من سجنه ، وأنه خرج ، خرج مضطرب الجبين ، به عرج خفيف ، وأنه شوهذ في عربة أجرة بصحبة ثلاثة لا يعرفهم ، وأن تهريبه تم بعد تدبير عظيم ، رأيت الحيطه والحذر ، جنوداً غرباء يقفون عند المفارق ، يشهرون الأسلحة العجيبة ، يدققون في المارة ، يتفرون في الملامح ، والهويات ، وأوراق اثبات الشخصية ، رأيت رجال المخبرات المركزية يوقفون

القطارات ، والسيارات ، ويقلبون الحمولات ، ويمسكون بالنافذ ، أيقنت أن ثمة أمراً يجرى لكننى لم أقف عليه ، كدت أسأل ، لكنى رحلت إلى لحظة ماضية فرأيت عبد الناصر مرتدياً زيه العسكرية ، لحظة خروجه معلناً الثورة ، ثم تبدلت الرؤيا فإذا به فى صحراء نائية يدبر أمراً ، وكان فى قلة وعرفت أنه سيكون من أمره ما يكون ، رأيت الحففة تخرج من الحففة ، والدم يصبغه القلب فيتدفق ويسعى ، ليس للإنسان إلا ما سعى ، سبحانه ! ، تتبدل أنفاسى فأرى خروج أبى من البلدة ، من قريته ، من موضعه الأول وأيامه الأولى ، يمشى مع مثيل له فى العمر اسمه عمر ، يسعيان باتجاه الجسر ، يولى أبى ظهره للبيوت ، يودع دنيا ويستقبل دنيا ، الأولى معروفة والثانية مجهولة ، يتوقف ، يستدير ، البيوت يداربها التخيل والدوم والسنط واللبخ ، عيناه تدمعان ، لا يهون عليه فراق البلدة إلى أرض لم يرها ولم يطأها ، لا تهون عليه جهينة مع أنه شرب المرفها ، سقاه عمه التوتياء والمر والحنظل ، صبغ أيامه بالنيلة ، أو شك على الفتك به ، أو ثقه ذات ليلة وانجه به إلى التربة قاصداً اثقاله بالحجارة واغراقه لولا الصدقة التى دفعت إلى طريقه برجل طيب ، باشجاويش النقطة واسمه أحمد حسين ، ولولا ضابط النقطة واسمه أبو حشيش ، ولكل منها مواقف ومقامات وأحوال سترد فى موضعها عندما يحين الحين ويأذن الكريم ، ويسمح لى أركان الديوان ، جعلنى الله من الساعين إليهم دائماً ، ومن الطوافين حولهم ، والمتمسحين بأعتابهم وأطراف مقاماتهم وأطراف ظهورهم . رأيت أبى يدمع عند الجسر ، عند اختفاء البيوت التى لم يعرفها إلا دائماً على اعتابها ، رأيت يدمع لأنه يعرف أن ما كان لن يكون ، إنه عندما يعود إلى البلدة يوماً ، قرب أو بعد ، سيجد أن كل ما يعرفه قد نأى عنه بدرجة أو أخرى ، هذا ما أدركه أبى وهو غض العمر ، وهو معنى لم

أصل أنا إليه إلا بعد أن نالت السهام منى وكثرت جراحاتى ، استغرق أبى
عامين يعد نفسه للخروج بعد أن صار عيشه صعباً ، فى ليلة طقت الفكرة فى
رأسه فخشيا وأرجف خيفة منها ، شجعه وقوى قلبه رجل طيب اسمه محمد
على ، استفسر أبى عن مصر ، عن الحياة فيها ، عن شكل بيوتها ، عن سبل
الرزق ، والمسمى ، والمأوى ، وعناوين الأقارب ، حفظها وتلاها مرات بينه
وبين نفسه ، عزم ثم انقضى ثم عزم ، استدار الزمن الأكرى ، فرأيت أبى الذى
أعرفه عند شروعه فى سفر لزيارة ولى من أولياء الله أو لزيارة أحمد حسين
رجل البوليس الذى انقلده ، رأيته عندما يروح ويحىء يسأل عن مواعيد
القطارات ، السريع منها والبطيء . ثم شرائه الهدايا ، احضاره القفة الفارغة
المجدولة من الخوص ، يرتب اللقافات ثم يفرغها ، يخرج ما وضعه ، يحاذر أن
يضع الشاى بجوار الصابون ، يلف الأكياس بورق جريدة قديمة ، يرتب
الأشياء من جديد ، فى الليل يتقلب ، وإلى المحطة يصل قبل ميعاد القطار
بساعات ، هذا قلقه كما عرفته مع أن سفراته تلك موقوتة ، سفرات لها
رجعات ، أى حيرة ؟ أى أسى ؟ أى شجى ؟ أى ليال ثقال مرت عليه قبل أن
تحين لحظة خروجه من البلدة ، لا يحمل إلا لفافة بها جلباب جديد ،
وصديرى داخلى ، سروالين من الدمور ، إلى صدره يضم عشرة جنبيات ،
ما ادخره عبر سنوات من عائد الفدان ونصف الفدان ، نظرت إلى مولائى
وقبلت قلبى وحنينى .. الحسين . أدرك ما جال بخاطرى ، جاعنى الجواب ،
عرفت أن أبى ضاق بالدنيا حتى بدت له أحيانا أضيق من ثقب ابرة ، لكن
كان لديه فضول ، وعنده أمل ، سيعطى هذه الجنبيات العشرة لأحد المعارف
فى مصر ، سيرجوه أن يلحقه مجاوراً بالأزهر ، سيتعلم ، سيعرف الحرف من
الحرف ، سيفسر الكلم ، وسيقرأ القرآن ، والأحاديث ، والتفاسير ، سيتلو .

ويكتب . ويتفقه ، سيعرف الدنيا فالجهل عماء ، سيحاول أن يعرف مواقع النجوم ، ودورات الشمس والقمر ، وأسماء الأزهار ، وتواريخ العظماء والسير ، كان أبي مولعاً بتتبع الانساب ، كل بلدة ومن انجبت ؟ والوقوف على أعمال الناس في الأزمنة المحيية ، كان حاد الذاكرة فإذا سمع اسماً لا ينساه أبداً ، وإذا مر يوم شتوى غائم فلا يروح بدرجات ضوءه الرمادية من وعيه أبداً ، وإذا جلس في جمع فإنه يذكر ترتيب جلوسهم ولون أردبتهم بعد انقضاء عشرات السنين ، كان يذكر أسماء الأيام التي غزر فيها المطر أو اشتد الحر على غير عادته في عام بعيد ، تلك ذاكرة لم تحب أبداً حتى ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر ، الليلة التي كنت فيها نائماً عنه . أتابع الخطى التي بتواليها يكتمل خروجه إلى مصر ، مصر ضروعها كثيرة ولن يعدم مورد رزق يعينه حتى يتعلم ، حتى يقرأ ويكتب ، حتى يعرف ما لا ترويه الألسنة شفاهة ، ها هو يقطع جزءاً طويلاً من الطريق المؤدى إلى طهطا ، أول المدن في طريقه ، وهنا وقع لي ما كنت أرجوه ، أذن لي الديوان كله بالظهور لأبي ، تجليت له على الطريق ، كنت شاباً في العشرين ، ارتدى جلباباً أبيض وطاقية من الصوف وأقبض على عصا من الخيزران ، ولم أدر.. ملاعبي أهي ملاعبي أم ملاعج أخرى ؟ يتقدم مني أبي ، أرقبه يمشي والعالم خلو مني بعد ! يتجاوزني ، يعود إلى ، يسألني عن المسافة المتبقية إلى طهطا . يسألني ورفيق رحلته بعيد عنا ، والنهار مليح حان ، تسنح لي الفرصة فأتملى من وجهه ، أرصد مواطن الحزن والحنين حول عينيه ، وفه ، يتصل الشجو الغامض مني إليه ، ومنه إليّ ، أصف له الطريق ، أذكر له منحني بين النخيل ، ومصرف لابد من عبوره عند قرية الطليحات وجزء مبتل ، طيني ، عليه أن يتجنبه ، ومنزل لثرى حوله كلاب ، فليحذرهما ، وشمس ربما تشتد ظهراً ، إذن فلا

يخوض فى حقول الذرة والممرات التى تتخللها ، ليلزم الطريق ستظله أشجارها ، يشكرنى ، ويدعو لى بالستر ، يكاد يسألنى ، من أنا ؟ لكنه ينجل ، يستدير فأصبح عليه ، يلتفت ودهشة تحتويه «أتعرفنى يا ابن الناس» ؟ ، يبتسم له فى ، تمتد يدى بالحيزرانه ، أقول «رافقتك السلامة .. يبدو أن سفرك طويل ، خذ هذه لتمنع الكلاب عنك ..» ، يدعو لى مرة أخرى ، يستدير ممسكاً بالعصا ، وتلك عصا احتفظ بها طوال عمره ، حتى فى أيام غضبه وهجره البيت كان يصحبها معه ، عصا لم أدر مصدرها إلا فى أسفارى ، أما منشؤها ومنبتها فهذا ما لم أحط به خبراً ، من تركاً عليها ، وأى مآرب كانت فيها ؟ وعلى أى الأغنام أو الحيوانات هشت ، وإلى أى الصور تحولت ؟؟ فهذا ما لم أحط به خبراً . ها هو ينصرف عنى ، يمد الخطو ليلحق بصاحبه ، يحاوره ، تمنيت له السلامة ، توجهت إلى رئيسة الديوان أن تحيطه برعايتها فى خروجه هذا ، ينقصنى وجردى الذى تم قبل أن أبدأ ، اتفرق قبل أن أتجمع . أسأل عن السنة ، تجيئى الإجابة هذه المرة . إنه العام الثالث والعشرون بعد التسعمائة والألف التالية على ميلاد السيد المسيح ، لكن لم يقض إلى باليوم أو الشهر ، وإن تجملت لى معارف تعجبت منها ، لحظة مفارقتة حدود البلدة ، حطت يمامة مهاجرة فوق بقعة مجاورة لمقابر قديمة جنوب الفسطاط ، وسطعت شمس فوق رمال صحراوية تقع شرق العباسية ، أحصى رجل اسمه الرمالى مقداراً من المال ، وتلقى طالب حقوق اسمه محمد خلف هدية من نابولى ، علبة حلوى محشوة باللوز ، كان ما بين خروجه ولحظة خروجه الأبدى من الدنيا سبع وخمسون سنة ، ولحظة ميلاد أمى يومان اثنان . ولحظة ميلادى اثنان وعشرون عاماً ، وزواجه من أمى ست عشرة سنة ، وكان بين خروجه وخروج الحسين إلى كربلاء ألف ومائتان وثلاث وأربعون سنة ميلادية ، وبين

خروجه وخروج عبد الناصر من الدنيا سبعة وأربعين سنة ، وبين خروجه وبجيء
الاسرائيليين إلى مصر أربع وخمسون سنة ، وكان بين مجيئهم ورحيله عنا ثلاث
سنوات ، وكانت مدة إقامته في الدنيا ثمانين عاماً - كما قالت أمي - وتسعين -
كما قالت عمتي - وأكثر من مائة - كما أكد أحد أقاربه المعمرين . أما السجلات
الرسمية فقالت ، اثنان وستون ، عبتاً حاولت أن أعرف الحقيقة من مولاى ،
من سيدتنا الطاهرة ، امتنع عني ذلك ، عدت إلى أبي . هففت حوله وهو
يركب مع صاحبه عربة بضاعة في قطار بطيء يتجه إلى مصر . تهاديت ببحوار
ركب الحسين السارى إلى الكوفة ، تأكد لى هرب عبد الناصر من سجنه ،
تنقلت وتتابعت حركتى ، تشتد رآى ، يعود الحسين إلى جوارى .. آسف ..
أعود أنا إليه ، يططبب على ، يتحنن على ، يقوى عضدى ، يثبت قلبى .
أقول ..

غربتى في ازدياد بعد كل ما تجلى لى ..
يقول ..

كل ما خلق لا بد أن يرجع إلى ما كان عليه ، هذا مقطوع به .
الحنين في عيى أبى يعاودنى ، قلبى مثقل ، ملامح عبد الناصر في مواجهة
الضابط ، آلام ابن عقيل ، أقول ..
أخشى ما ينتظرنى ..

يقول :

ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى ..
أقول ..

زدنى ..

يقول

ألا تؤمن ؟ .

قلت :

بلى . ولكن ليطمئن قلبي ..

وهنا رأيته في موضع قصي من الديوان . وجلت ، فلم استطع كتمان

ما بي ، تساءلت ..

في أى اصقاع نساقر ؟ في أى رحم ينبت النسيان ؟ أى ميثمة ثقيلة تحتوى

الذكرى ؟ أى مثنوى يخفى الأيام . والليالى ..

رأيت الحسين غاضباً ، يواجهنى .

ألم أقل لك ..

انكسرت ، وانكسر خاطرى ، وصار لعابى مرأ ، لم ألفظ ، قال :

ألم أحذرك . ثمة شئ واحد لا تسأل عنه أبداً ..

ركضت دقائق قلبي تأسفا وحسرة ..

راح من أمامى ، رأيته في موضعه من الديوان ، لم أدر إن كنت عدت

إلى ما بدأت منه ، أم أنتى فى موضعى الصحيح ؟

توجع وأنين ..

لقد لاقيت من أسفارى هذه تعباً ونصباً ..

المواقف

موقف

التأهب

هى الشمس إلا أن للشمس غيبة
وهذا الذى نعينه ليس يغيب

.. أوقفنى فى موقف التأهب ، ثم فارقنى ، هجرنى ونأى عنى فصرت إلى
غربة وقفر بعد أنس وألفة ، صرت إلى جفوة بعد وصل ومودة ورحمة ،
صرت بمفردى ، غرباً فى غربتى ، نائياً فى نأى ، بعيداً فى بعدى ، لكننى
أشبه بمن يستجمع كافة قواه تأهباً لانطلاق عظيم ، كنت قادراً على رؤية
ما أمامى وما ورائى ، فوق وتحته بدون حركة من عيني أو رأسى ، صرت
بصراً كلى ، كأنى الناظر والمنظور إليه كأنى الراى والمرى ، رأيت طائراً عجيباً
لا عهد لى بمثله فى طيور الدنيا . قد من ضوء وطيف ، ريشه مجمع لألوان
الدنيا ، أما رأسه فأرأس بشرية ، وجهه آدمى ، حدثنى قلبى أننى أعرف
الملاحم لكننى لم أتمكن من تدقيق بصرى لشدة الألق فعرفت أن أوان معرفتى
له لم يحن بعد ، رأيتة يحوم فى سماء الديوان ، ولأنها محيطة بالديوان إحاطة
بياض البيضة بصغارها ، بدا لى الطائر العجيب محلقاً إلى أعلى وإلى أسفل ،
صعوده هبوط .. ونزوله طلوع ، وإذا به ينطق ، فيأمرنى بالتأهب ،
فخضعت واستجبت ، لم أتفوه بحرف وإن اضمرت الدهشة لأن مولائى

فارقتي وهو الصاحب والرفيق والدليل الذي به اهتدى ، سكت ، وإن عرفت
أن كل ما يرد على عقلى من خواطر ، وكل ما يرعش قلبى من أحاسيس
معروف مدرك لسادة الديوان سادى ، عند نقطة بعينها رأيت رجلين يقفان فيما
يشبه الضباب ، وخطر لقلبي أن شدا أيامها شديد القرب منى ، أخبرانى
بالصمت أنهما تلقياً أمراً كالذى تلقيته ، ثم أوضحا لى مقصدنا ، ونهاية
وجهتنا ، كربلاء ونقطة قصية من الزمن ، ولينا وجهتنا صوب كربلاء ،
وعرفت أننى فى بداية الموقف ، وهذا موقف هين ، له من الألوان الرمادى ،
ومن الأيام الأحد ، ومن ساعات النهار ما قبل شروق الشمس ، ومن الحرارة
بداية شدتها ، ومن حالات العيون لحظة ما قبل خروج الدمع ، ومن القلب
خففته الوحى عند سماع النذير الثقيل . بدأ سفرنا وتبدلت علينا الألوان ، مررنا
بسواد حالك كالرخام الأسود أو القطيفة الليلية ، وزرقة صافية كلون الفيروز
عند نشأته ، ثم رأينا ضوءاً ثاقباً نحياً يخترق الديوان من أقصاه إلى أدناه ، ثم
تعددت أجسام غريبة تشبه المذنبات ، أو النيازك أو الشهب ، وأخرى
لا ندرى عن طبيعتها أو هويتها شيئاً ، تقبل علينا فيظن المبصر لها أنها
ستخترقنا ، ستغرقنا ، لكنها تعبرنا ، أو نعبها فلا يلحقنا أذى أبداً ، تداخلت
كواكب قديمة ، وأخرى حديثة ، كما يتداخل شرر النار ، تعاملت ،
وتجمعت فى خط مستقيم ، ثم سعت فى أثر بعضها ، لكنها لم تتصادم ، كل
فى فلك يسبحون ، وتعاقت المراثيات علينا بسرعة تغير الخواطر ، فقلت
لا يكون هذا إلا لأمر جلل ، توالى الألوان على ، ألوان جديدة لا عهد لى
بها ، وليس لها مقابل فى عالم الأسماء والأوصاف ، ومن حين إلى حين يمرق
ظل طائر الضوء المشع الذى أمرنى فعرفت أنه رفيق سفرنا هذا ، لم أفكر فى
صاحبى لشدة ما تعاقب علينا لكننى أدركت أن أوان الدنو يقترب ، ولاحظت

أننى كلما اقتربت ابتعدا عني ، حتى اختفيا عني عندما انتهى رحيلي ، وأوشك على الانجلاء ليلي . هنا انغرس الخاطر السديد فأرجف وعيني ، كيف لم أعرفها ، كيف لم أدرك الملامح المهمة في جملتها وتفصيلها ، كيف وقد طالعتها عمراً . أنى عن قرب ، وعبد الناصر عن بعد ممزوج بقرى ، كيف لم أخاطب كلا منها باسمه ، كيف أرحل بصحبة أبي وتداخلني غربة ، كيف لم أقرب منه حتى وإن شاغلني الأفلاك والرؤى . غاص سؤال في وجداني . أهى بداية النسيان ..

تذكرت صديقاً قديماً يكبرني سنّاً ، وكنت ملوعاً مغموساً في حزن طرى كالقار الساخن السائل ، قال صاحبي : أنت في حاجة إلى عام كامل كي تنسى ، لم أرد ، استنكرت ما سمعت ، تساءلت بيني وبين نفسي ، كيف يخطر له أننى سأنسى ذات يوم حتى وإن بدا بعيداً ، وكأنه انتبه وخمن ما جال بخاطري فقال مواسياً ، كل الأشياء تولد صغيرة وتكبر ، عدا الحزن فإنه يولد كبيراً ثم يصغر . ضقت بقوله هذا ، وضقت بتذكرى له في موقفي ، لكن عسمة الصبح البعيد عن زمني الدنيوى ، وتنفسى هذا النهار الذى لم أعشه أبداً أخلنى ، وجدت نفسى بمنأى عن عصرى ، في كربلاء ، أمامى معسكر مولاي الحسين ، خيامه مضروبة ، لم يتبق معه إلا أهله ، وأقرب الأقربين ، أما اليوم فهو الثالث من أيام عطش الحسين ، حيل بينه وبين الماء ، في المواجهة جند يزيد ، إنه العام الخامس والستون المتقضى على هجرة شفيعنا المصطفى محمد رسول الله ، إنه العاشر من محرم ، إنه الجمعة ، ضمنت مولاي بنظرانى ، ولففت صغيره الرضيع القاسم في غرارة قلبي ، وتوقف فجأة عن الطواف ببصرى ، رأيت صاحبى اللذين رحلا معى عبر موقف التأهب ، رأيتها أو هكذا شبه لى ، أبى وعبد الناصر ، يرتديان زى العصر ، ويمسكان أسلحة العصر ، ويقفان بين صحب الحسين الذين بقوا معه ولم يفارقوه

وتأهبوا للظماً وانقطاع المدد ، بقيا معه ، مع خاصة خاصته ، أخذنى العجب ، فأنطويت تحت لواء الحبيب الأوفى ، الحبيب المتزه ، مرآة الحق ، وبحلى الغموض ، عين القدر وعطر أيامى التى لم تأت بعد ، كنت أرى ولا يرانى أحد ، وعندما جف حلقى ، واشتد عطشى عرفت أننى أكابد ما عاناه القوم ، عرفت أن موقف التأهب ولى ، عرفت أن القدر سابق ، والقضاء لاحق ..

موقف الظماً

« بل هم فى لبس من خلق جديد »

صدق الله العظيم

.. صرت بين أهل الحسين وصحبه ، حصارهم حصارى ، وتعبهم تعبى ، وظلمهم ظمئى ، غير أنى خصصت دون الكل بقدرتى على التنقل بين موضعهم المحاصر ومواقع من يحولون بينهم وبين ماء الفرات البارد الرطب ، لم أكن أدري إلام سينتهى أمرى ؟ وهل سأقضى أم لا ؟ وإذا قبضت هنا فهل سيتلاشى خبرى ، وينقطع جذرى ، ثم لا أوجد فى المستقبل البعيد الذى اتيت منه ، أقصيت التساؤلات التى محورها ذاتى وتملكنى شوق إلى السعى فى أثر أنى ، أبى الذى رحل عنى بالموت وصار قدرى أن أقضى نصيبى الباقى لى فى الدنيا بدون طلعاته ، بدون أن أصغى إلى نوبات سعاله الليلية فى الأيام الشتوية ، أو قدميه عند صعوده السريع والذى أبطأ مع تقدم عمره ، ودبيب الوهن إليه ، بدون أن أنتظر دقائق يديه على باب بيتنا وقد كان هو تعريشة سقفه ، وأمنه الليلى من الطوارق الغريبة ، والمفاجآت الداهية ، كان ضوءه

النهر ، صرت أقضى ما تبقى لى من عمر بدون شعورى أنه هناك . فى مكان ما ، وأنه باستطاعنى السعى إليه فأراه ، وأصافحه ، وأجلس إليه ، أضمه بالنظر وقد أشيح عنه أخاطبه بالنطق فيستجيب ، ما تبقى من زمنى يخلو الآن من توقع مقابلته فجأة فى طريق ما ، ما اسم ذلك اليوم البعيد ؟ كنت أركب القطار القادم من الضواحي ، عندما رأيته يقف منتظراً عبور المزلقان ، لا بد أنه شتاء ما إذ كان أبى يرتدى المعطف القديم الوحيد عنده ، ما اسم ذلك اليوم ، ما اسمه ؟ تلفت حولى وأنا فى أرض غريبة ، أرض غير أرضى وزمن غير زمنى ، رمال جافة وشمس حارقة والماء بعيد ، وأفواه ظمأى بين فاهى ، وأمل واه فى النجاة ، هذا ابن مولاي الحسين القاسم ، الرضيع ، مذبح من رقبته بسهم ، لم يوار الثرى ، يخرج أبوه ، يحمله بين يديه ، يشهد السماء على ما يجرى لأحفاد رسوله الكريم وعترته وآله ، عاينت ذلك بعينى ، وبصرى ، ولم أكن محارباً ، ولم أرم بسهم أبداً . لم أقذف رمحاً . غير أنى وددت لو مكنت من هذا كله ثم وجهته إلى القتلة ، أعرف أننى أواجه قلوباً قست ، ونفوساً تعامت ، وأنه ما من فؤاد سريق أو يحنو ، وعهدى بالقلوب إذا ألفها حال القسوة فلن ينقص ذلك من قسوتها شيئاً ، أرى مولاي مكروباً لكنه لا يخاف الدنو من نهاية محتومة إنما يؤله ويحز فى روحه ذلك الظمأ البادى على أقرب الأقربين ، لم أدر ما أفعل ، غير أننى رأيت أبى يسعى باتجاه النهر ، هذا خطوه الذى أعرف ، عدوت فى أثره والرمال تتناثر عند عقبى .

أبى ..

ولم يلتفت إلى ، زدت من ركضى حتى جاورته ، ثم سبقتة وملت بوجهى لأرى وجهه ، لأتملى وأتحقق ..
تعال إلى النهر ..

هكذا . بالصمت أمرنى ، سررت لأنه عرفنى ، ولأننى تمليت من وجهه ، من ملاحظه ، قدرت أنه فى الخمسين أو الستين ، وإذا شئت الدقة فإنه أبى كما كان يطالعنى وجهه أثناء دراسى الإعدادية ، عند مدخل شبابى وفتونى ، عندما كان عفاً يستيقظ فى أيام الشتاء الباردة ، ويسمع صوت قبقابه الخشبى فى البيت يضرب البلاط ، ثم يفتح الباب ، يغلغه اغلاقاً هيناً رقيقاً ، ثم يتزل السلم ، أسمع خطواته فى البداية قريبة ، قوية ، ثم تتضاءل فوق بلاط الحارة المرصوفة بالحجارة المضلعة حتى تتلاشى فتذوب يقطتى وأروح فى نوم عميق ، يتعد أبى ، وآه من البعد ، ها هو بجوارى فى أرض لم يحدثنى عنها أبداً ، يسرع فى اتجاه النهر ممسكاً بقربة جلدية بنية اللون ، مقددة الجلد ، فند وقت طويل لم تتفخ بالمياه ولم تقطر قطرة منها ، عرفت أنها القربة التى كان يحملها فوق ظهره ، أو بمعنى أدق وأوفى ، القربة التى سيحملها فى صباه الآتى عندما سيعمل سقاء ينقل الماء إلى من سيأوونه زمناً ، ما أراه يمت إلى دهر بعيد لم يأت أوانه بعد ولم يحن حينه ، ولم تولد بعد الحيوانات التى ستسلخ جلودها وتصنع منها تلك القربة التى أراها الآن ، وهنا سر غامض ، والاستفسار عنه مؤجل الآن ، الموقف وعز ، والقلب طافح بالشمعون ، بما يكون ولن يكون ، فالأمر عجيب ! ، لو تجرأت وسألت ، ربما تجلب جرائى الضيق بى ، والضيق بى يؤدى إلى السخط على ، والسخط يعقبه البعاد ، والبعاد يقصبنى عن الديوان ، وإقصاى يعنى حرمانى . لذا لزمتم الصمت ، انتهت إلى أن صوت أبى ليس صوته ، الصوت لعبد الناصر ، وسرعة جريه لمازن ، واطراقته لإبراهيم الرفاعى ، توحد بهم وتوحدوا به فاحتواهم واحتووه ، صار مجمع الحبين الذين رحلوا قبل الأوان ، أحبيت عديدين على القرب والبعاد وهم الآن واحد ، أبى مضاف والآخرون مضافون

إليه ، وقد يتبدل الحال ، فيتفرق أبى بينهم ، ذلك قدر لا أعلمه ، دونى
ودون إدراكه سراييل مدلهات وصعاب وأى صعاب ؟. استمر ركضى إلى
جواره ، أنا الذى لم أركض إلى جواره فى حياتى الدنيوية ، لم أركض فى
صغرى لأنه كان يحنو علىّ ويأخذ بيدى ولم أركض بعد نضجى لتباعد
المسافات بيننا ، وفى هذا الموقف أقر بذنبى فأنا المسئول عن الجفوة لذا حقت
علىّ الشقوة ، هذا يقين مدرك ، ثابت ، كلما خطوط خطوة تزايد عطشى ،
عانيت ظمأ أهل الحسين وصحبه ، وظمأ أبى ومن توحدوا به ، وزاد علىّ
ظمأ غريب ، ظمأ غير مدرك بالحواس الخمس ، موجع ، مقلق للراحات ،
يقلق ويقض مضجعى ، ويرض كبلى ، ظمأ جهم ، لا أدرى مصدره ،
ولا ترويه أنهار الدنيا وأمطارها ، وهذا أصعب أنواع الظمأ وأوعرها ، نما
وتدبب فصار ذا ثلاث شعب تنوء فيها الخطى ويفضل القطا لشعاب يؤدى إلى
أبى ، وآخر يفضى إلى مولاي ، وثالث ينتهى عند من أحببتهم ، فى يوم
عاشوراء هذا ، الماء منعدم عن أحببى ، واليبوسة فى ازدياد ، والمدد منقطع ،
آلمنى سلوك الشعاب الوعرة إلى أبى فعظم ظمئى إلى أيامنى الأولى ، إلى لحظات
لا ولن أعياها ، إلى وجهه وما ارتسم عليه من تعبيرات عندما ضمنى أول
مرة ، وكنت بعد لحماً طرياً لا يعى إلا جوعه أو بوله أو برازه دون أن
يسميه ، يرتدى جلباباً من قماش الكستور فى الشتاء والزفير أو البوليين فى
الصيف وجاكتة وهبها له أحدهم ، فى مرات زيارته القليلة لبيتى بعد زواجى
كان يحببى ولا يطيل المكوث وهذه الزيارات مقام آخر سيجىء عندما يأذن
الديوان بذلك ويسمح التجلى ، ولكن أعى فى خضم لحمتى جلوسه الهادئ
المستكين الحجول ، ونظره إلى محمد ولدى ، ومداعبته له بحذر خشية أن يبدو
منه خطأ ما . هكذا أظن وأعى ، سألته ، هل يشبهنى محمد فى طفولتى ؟

فأولاً برأسه المثقل بهوم الوحدة ، رأسه الذى تضاعف حجمه فى آخر سننى
عمرى ، قال : نعم يشبهك ، ثم صار يردد ذلك فى كل مرة يزورنا فيها ،
عندما يحىء محمد مندفعاً ، يقف أمامه لحظات ، فيحتضنه أبى لحظة لا تدوم
ثم ينظر إلى ، كأنه يتذكر سؤالى ، وكأن السؤال ما زال عالقاً بلا إجابة . كأنه
يرضىنى ، وكأنه يبدد الصمت فيقول : إنه يشبهك عندما كنت طفلاً . لم
يعش أبى مشاعر الجلد كما يجب أن تعاش ، لم يشبع من حفيده ، ابن ابنه
الوحيد الذى رآه ، من ذرية من أنجبهم فقد جاءت ابنتى الصغرى بعد رحيله
عنا بسبعة شهور إلا عشرة أيام ، وعن أبى وحفيده الذى هو ابنى حديث يطول
لا يناسبه هذا الموقف لما يتضمنه من دقائق مؤلمة ، توجعنى ، تقض مضجعى
وتجرح أيا مئى المتبقية ولو فتحت الباب فيه الآن فكأنى اسدد سهام جيش يزيد
إلى كيس قلبى ، هذا ما لا طاقة لى به ، ترايد ظمئى إلى رائحته التى كنت أشمها
فى سنينى الأولى ولهذا السنين مقام خاص هو مقام الأمان . فبذ أن ولت
وابتعدت ولئى أئنى وضمرت أمانى ، وصرت مطارداً فى حياتى ، وتلك
عوامل يطول شرحها لكن بالامكان أن أفتح طاقة صغيرة على هذا المقام
الجميل فأرى منها أبى وعودته عند الظهر ، وخطوه النشيط ، وبين يديه
طعامنا وقوتنا ، وتردد أنفاسه الليلية ، وإمساكى ليدى فى طريق مزدحم ثم
تلك الرائحة ، رائحته هو ، صدى ظمئى وظماً الحسين وأهله ، ما من أحد
يرق لهم ، وما من قوة ترق لى . أو تقربنى من هذه اللحظة القديمة التى ستندثر
معى ، ولن يتبقى منها إلا شظايا وأصداء فى منزل الرؤى الباقية ، ولو قصصت
فحواها على أى إنسان لسخر منى وهزأ بى ، فما الذى تعنيه عودة أبى عند
الظهر فى يوم من أيام طفولتى عند الآخرين ؟ ما الذى تعنيه كل هذه
اللحظات يا أحبى لكم . ومن سيدرك حقيقة ظمئى هذا ؟ أقدم ما أعيه من

ذاكرتى التى تنص الآن بالناس والمدن والشوارع البعيدة والنواصى والمقاهى
والجبال والوديان التى لا أعرفها والغض والحب والحنين ، والتجليات
والأخيلة ، ازيح هذا كله وأصل إلى لحظة نائية من أيام الحرب ، كان عمرى
ثلاث سنوات ، نساكن فى غرفة وحيدة فوق سطح بيت من خمسة طوابق ،
سقفها مرتفع ، تحمله سبع عشرة دعامة خشبية ، كثيراً ما رقد أبى فوق ظهره
فى لحظات راحته أو انسه أو اطمئنانه إلى الغد الآتى ، يبدأ فى احصائها
بصوت مرتفع ، ثم يتذكر أياماً بعينها فيقرن كلا منها بدعامة ، ويتذكر
شخصيات عرفها فيطلق على كل دعامة اسماً ، فى تلك الأيام التى عشتها
بوجودى الحسى والمعنوى ، واجترتها بأعضالى كافة ودقات قلبى وتوالى أنفاسى
ودفق دمى ، انطلقت صفارات الانذار عاوية ، واخترقت سماء القاهرة حزم
ضوئية حادة منبعثة من الأرض إلى السماء تبحث عن الطائرات الحومة ، وفى
السماء يتفجر الظلام للحظات بأضواء الفوانيس التى تلقى الطائرات المغيرة
لتكشف المدينة المستورة بليل كثيف . فى هذه الليلة اشتد القصف فقال أبى :
سنزل عند الست وجيدة فى الطابق الأرضى . من الحارة صاح البعض
مطالبين ساكنى الطوابق العليا بالنزول إلى الأدوار السفلى ، واطفاء الأضواء
تماماً . أمى حامل ، وفى رحمها يتكون شقيق الذى أصبح فيما بعد اسمه
اسماعيل ، نزلنا عند الست وجيدة وانقسمنا ، أمى ذهبت إلى حجرة تجمع
فيها نساء البيت كله ، بقيت فى الصلاة ، تحدث الرجال عن الشظايا التى
تقطع المسافات وتمزق الرقاب ، تكلموا عن شعراوى ابن الباشجاويش أبو
أحمد ساكن الطابق الثالث ، تطوع للقتال مع الفدائيين ، حكى أبوه عن
دبابة اسمها النمر عند العدو ، مصفحة ، لكنهم قصفوها بطلقة من نوع خاص
قسمتها إلى نصفين ، أصغيت ، ازدادت التصاقاً بأبى ، لذت بجانبه عندما

كان جانبه يؤمنني ويبدد خوفي ، ويدود عني الكروب ، من بعيد انفجارات متلاحقة ، قال قاتل منهم ، الضرب ناحية العباسية ، استمر صمت للحظات ، قال أحدهم ، أطف يالطيف ، انتهت الغارة ، واضيئت الأنوار بعد صفارة الأمان ، صعدت أمي السلم متمهلة ، في هذه الليلة نمت قريباً من أبي ، من حين إلى حين كنت استيقظ لأطمئن أنه بقرنى . وفي هذه الليلة بدأ حصار عبد الناصر في القالوجة ، وضيق العدو خناقه عليهم ، ونزفت دماء في مواقع أخرى ، وفي كربلاء اشتد الرمي على مضارب الحسين ، وكان بإمكانى الرؤية من سائر جهاتى واستيعاب ما أراه بحيث لا يؤثر ما أراه أمامى على ما أراه خلقى ، وكنت ملهوفاً على رى ظمئى الحسى وظمئى المعنوى ، الماء يدنو منا ونحن ندنو منه ، ماء الفرات الرمادى المختلط بلون أحمر باهت ، متدفق من منابع بعيدة إلى مصب لا نراه . رأيت الحر الذى جاء لقتال الحسين ثم اختار جانبه ، سمعته يصيح بجند يزيد ، «دعوتموه حتى إذا أتاكم اسلمتموه وزعمتم انكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه ، لتقتلوه ، أمسكتم بنفسه وأحطتم به ، منعمتموه من التوجه في بلاد الله العريضة فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع عنها ضرراً ومنعمتموه ومن معه عن ماء الفرات الجارى ، تتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه وها هو وأهله قد صرعهم العطش ، بشس ما خلفتم محمداً في ذريته لاسقاكم الله يوم الظمأ العظيم ، لم تتوبوا وتترحوا عما أنتم عليه ، لاسقاكم الله يوم الظمأ » ، رأيت عمر بن سعد يقرم ويأخذ سهماً فيرمى به ، يقول : اشهدوا لى أنى أول من رمى . فرعقت صارخاً ، أى شهادة تطلبها يا أحمق ؟ تاه صوتي ويتدد ، لم تصغ اذان القوم ولم نسمع ، يبدأ هجومهم على أهل الحسين وصحبته ، هوقلة وهم في عدد وعدة ، يدنو أبى من ماء الفرات ، يعاودنى الظمأ القاسى ، يشرذمنى

ويبددنى ، ظمئت إلى لحظة أخرى ، تكنى في البداية ، حننت إليها حنين الغريب ،
المحاصر ، المقطوع عن النصير والمدد ، لحظة تائهة في رحم الأيام التي خرجت
إليها وحيداً ، دليلي وإمامي هو الحسين ، ولادليل لي غيره ، حتى رسوت في
هذا اليوم الحزين لأشهد ماأشهد ، خرجت إلى ترحالي هذا ولاحيلة لي ، وقد
تركت ما بيدي ، ولم أسند أُمري إلا إليه لأُي لم استشر انساناً ، اما قادتني إلى
الدِيوان عذاباتي ، ونبيى عني ، خرجت عن أيامي إلى أيامي خروج الميت عن
أهله وماله ، ولم أكن أدري ، أن ظمئي سيقرن بالحنين إلى بدايتي ، إلى لحظات
لن يتذكرها غيري ، تقع في كثر مكنوناتي الدفينة ، حجرتنا الوحيدة بعد انتهاء
بياضها ذات يوم أجهل الآن اسمه وموقعه ، أمي ترتدى جلباباً أبيض ، عفية ،
شابة ، لم تتل منها الأيام بعد ، تساعد أُمي في نصب سرير حديدى أسود
القوائم ، كل قائم ينتهى بجلية نحاسية صفراء . في ركن الحجرة ، فوق قطعة
فماش ملون ، يرقد اسماعيل أخى ، ابن شهرور وربما ابن أسابع .. لا أعرف
الآن ، لكننى أرى وجهه الأبيض المستدير ، وعيني المحدثتين إلى السقف ،
تبحثان عن شيء غامض يطول بحث الصغار عنه ، ملفوف في جلباب أسود .
بعد ولادته جاءت إلى أمي امرأة قاسم التاجر ، وبعد انصرافها ، ارتفعت حرارة
اسماعيل أخى ، أدركته الرعشة ، جاءت أمي بقطعة شبة وألقته فوق صفيحة
ساخنة ، تشكلت القطعة بوجوه عديدة ثم استقرت على وجه شديد الشبه بالست
فتحية ، ثم جاءت أمي بعروس ورقية وراحت تنقبها بإبرة ، وتردد ، في عينك
يا فتحية . وحدث أن شفى أخى ، راحت عنه الرجفة وزالت الرعشة . وقررت
أمي أن ترتدى السواد . وأن تحجبه عن العيون . أصبح عطشى جارفاً إلى تلك
اللحظة القصية ، لحظة تائهة ، ضائعة ، تقع في النصف الثانى من يوم مجهول
الهوية لي ، رأيتها وأنا بأرض كربلاء قبل أوانها بمئات الأعوام ، العطش ينال
منى والسهم تلى السهم في اتجاه مولاي ، يعقبني أبى إلى أدنى نقطة تنحدر

صوب النهر ، هذا خطو أبى ، هذا إطار وجوده الجسمانى عندما تأخذه اللهفة
لقضاء حاجة ، يميل ، يغطس بالقربة كلها فتمتلئ مرة واحدة ، يتمتع من
النهر ، فإذا بها منتفخة تشر ماء ، المرتقى وعمر ، لكنه يجاهد ثقل حمله ، بينما
أميل إلى النهر لأملأ الكيس الذى يخصنى وألقى به بين يدى ، ولما لامستى برودة
المياه تعاظم ظمئى ، وحننت إلى ظل ظليل يغطى خضرة حديقة تنتظر فيها عودة
أبى إلينا بعد انتهائه من عمله ، اعتاد أن يصحبنا من حين إلى حين ، نزور
المتحف الزراعى المجاور للوزارة ، يدخل من بابه الفسيح القديم ونحن فى إثره ،
يمحى من يقفون بالباب ، فيردون التحية بأحسن منها ، يقول أحدهم ،
« أهلاً .. عم أحمد » ، ويقول آخر أهلاً يا أحمد ، يتقدمنا إلى داخل المبنى ،
وفى قلبى الصغير شعور بالفخر والاعتزاز ، أبى معروف هنا ، لا يدع ثمن
التذاكر ، يعرف كل من فى المكان ، الموظفين ، وزملاء الساعة ، نظوف
بالتقارين الزجاجية التى تحوى الحبوب وأنواعها ، والخبز وأشكاله ، وآلات
الزرع والحراث ، ولوحات مطابقة لرسم قديمة فوق جدران المعابد الفرعونية ،
ثم نطيل الوقوف أمام تماثيل من شمع أو جيس ، يشير أبى إلى تمثال شيخ البلد
قائلاً لأمى : ألا يشبه الشيخ هريدى ؟ ، ثم نعجب بالهودج المحمول فوق
جملين ، بداخله عروس جميلة ، لا يتعجلنا أبى ، إنما يدعونا أن ننظر ونتأمل ،
يختار لنا مكاناً ، ظليلاً فى الحديقة الكبيرة ، ثم يقول لنا إنه سيذهب إلى
الوزارة ، سيتسلم البوستة ويوزعها ، ظل هذا عمله لسنوات عديدة ، يفارقنا
فلا تغادر أماكنا ولا نبرح مواضعنا حتى يرجع إلينا ، كنا ننظر رجوعه ونرنو إليه
ونشتاق إلى طلعته ، وكان تأخره عنا يثير خوفنا واضطرابنا وتوجسنا ، غير أن
ذلك لم يدم معنا ، فقد مات هذا الإحساس مع تقدمنا فى العمر وتفرقنا عن
بعض ، وكان ذلك أول غروب أبى . يبدو قادماً نحونا خطواته مسرعة ،
متأيلة ، نفس الحطى التى يهرع بها إلى الحسين وأهله الآن ، ملت على

الفرات ، شرعت فى بل ريقى ، فى تناول جرعة أروى بها عطشى المقدد ،
لكننى تذكرت أن أبى ملأ قريته ولم يذق الماء أبداً ، فأخذنى الخجل مما شرعت
فيه ، حملت كيسى وقلت : عسانى أَرْضَى بذلك أبى ، أَرْضِيه بعد فوات
الأوان وقد اغضبته مرات بلا حصر ، وكأنه أدرك ما جال عندى ، وما ضاعف
كلومى وأحزانى ، فصاح ينبئى إلى الموقف الذى أنا فيه ..

ظماً الأحباب وعمر ..

سمعت فى أثره ، ارتقيت المنحدر ، رأيت المكان كله كأنى أراه من نقطة
معلقة فى الفراغ ، كأنى أحوم محلقاً . أقرب ما يجرى فتحى ، كنت أرى الكل
حتى نفسى ، كمن يرى نفسه فى الحلم . كلنا كنت قادراً على الشعور بما يجرى
داخلى ، وزاد علىّ فى هذا الموقف أمر خصصت به ، ولم أعهد مثله من
قبل ، لا عندى ، ولا عند الآخرين ممن سلوكوا طرقات مشابهة لطريقى ، ومن
ذلك قدرتى على الشعور بما يطوف بأبى من مشاعر ، كأنى هو ، وكأنه أنا ،
ثم زاد ذلك ، فأصبحت قادراً على التألم لحظة انبعاث الألم فى كيان مولائى
ومرشدى الحسين ، ثم اتسع ذلك ، فشعرت بآلام زين العابدين ، وأخيه
القاسم ، وأبناء مسلم بن عقيل ، ثم قاض ما خصنى ، فلم يعد مقصوراً على
الآلام الجسدية ، إنما تعلت ذلك إلى ما يحول بالنفوس والخواطر ، وكل
ما جرى فى هذا الموقف مؤلم فظيع ، وأيسره شجى ، ومن ذلك ما توالى على
نفس الحربن يزيد بدءاً من لحظة تردده ، حتى انضمامه إلى الحسين ، صرت
أنا الحربن يزيد ، عمل .. جندى من جنود ابن زياد والى الكوفة ، مقصدى ،
محاربة الحسين ، والحيلولة دون وروده ماء الفرات ، كان عزمه عزمى ،
ومقصده مقصدى ، ثم صارت هواجسه هواجسى ، وتردده ترددى ، ثم
أخلى ألمه الذى هو ألى ، ماذا سأفعل ، وكيف سأواجه ربى يوم الحساب ،

خاف وخفت ، خشي وخشيت ، ندم وندمت ، اختار واخترت . الوقوف إلى جانب مولاى . ثم صرت إلى ما صرت إليه ، فما من رمية سهم تصيب واحداً من أهل الحسين إلا وتحدث نفس التأثير عندى ، فى نفس الموضع المصاب ، صرت مجمعاً لكل آلام ذلك اليوم الجلل ، منذ مشرق الشمس وحتى اللحظة التى اجث فيها رأس الحسين ، نزت دماى بمقدار مائزفه الكل ، عرفت فرع الإنسان إذ تلطمه حجارة المقالع ، وألمه عندما تنغرس فيه السهام المدبية ، وعطش الطفل الرضيع ، وجزع المرأة التى يرى أحبابها يصرعون بين يديها ، وهلعها خشية الانتهاك قسراً ، وفى حلقى اشتد الظمأ فكدت اتضعضع ، ولم يكن وقوفى هذا الموقف ممكناً إلا لأمر جلال ، ولعقاب شديد أستحقه ، أو لحكمة خفية تضيق مفاهيمى عن إدراكها ، وبرغم كل عذاباتى ، بقى أبى محور وعى ، وبؤرته ، وبؤثر عيى ، أما مولاى الحسين فقبلتى ، ومهجرتى ، يزعم أبى ..

آه يا بوى يا أنا .. آه يا قتيلهم .

أرجفت زعقته كيانى ، أنها أقصى مراتب الألم الرجولى فى صعيد بلدتنا النائية عن كربلاء بالزمان والمكان ، عندما يصرخ الرجل هكذا ، يعنى ذلك نزول المصيبة ، وقلة الحيلة ، وطلب الغوث ، فالرجل لا يصرخ عندنا إلا لمصيبة تقصر عنها الحروف المنطوقة ، ولا تستوعبها كافة أشكال المخاطبة ، تطلعت من سائر جهاتى فرأيت المياه التى نجح أبى فى ملء القربة بها مسكوبة ، متسربة بين ذرات الرمال ، اخترقها سهم ، فى نفس اللحظة انسكبت مياه كيسى ، رأيت انتفاضة أبى ، رأيت ألمه المروع وأدركنى ، رأيت أبى الذى عاش عمره كله ولم يتشاجر مع إنسان ، ولم يصفع وجنة ، ولم يسدد قبضته إلى مخلوق ، لم يصفع شخصاً ، أبى الذى يكره المراك

ويمقته ، ها هو يشهر حساماً يمانياً مصقولاً ، ويسعى بخطاه المألوفة لبصرى ،
أدركت أن من كان محتويهم انفصلوا عنه ، أحلق نظرى بهم ، كأنى أراهم
من خلال ضباب ، أعرف أن هذا عبد الناصر ، وأن هذا إبراهيم ، وأن ذاك
مازن ، وثمة آخر لا أعرفه أبداً ، لكننى لا أرى ملامح وجوههم ، أو لون
أرديتهم ، يقف أبى بين يدى مولاي ، يقول أبى بصوته وهو صوته ..
مولاي أتأذن لى بالقتال ؟

كان حال أبى حالى ، فترقرت روحى ، وتشفشفت ، وتسبست وصار
الكيان بما يحتويه اريحاً مزهراً ، يذوب أبى وأذوب معه ، يتشجن بالشجن ،
أبى الذى لم يعرف من الحسين إلا الطواف بضريح رأسه ، وتقيل أعتابه ،
واللوذ به عند الشدة ، ها هو يقف أمامه قبل أن يوجد أو يولد ، يراه وجهاً
لوجه ، تتردد أنفاسه فى مواجهة أنفاس الحبيب ، ولو تحقق الفن لتلقى عنه
لظى الشمس ، وعطش بدلاً منه ، وتألم نيابة عنه ، عاتبت فى خاطرى
المؤرخين الذين سيجيئون ، عاتبت أبا مخنف ، وابن كثير ، والدينورى ،
والطبرى ، والرواة المجهولين ، عاتبتهم لأنهم لم ولن يذكروا أبى وصحبه ،
ومجيبهم إلى كربلاء .

مولاي .. أتأذن لى بالقتال ؟

يكبر أبى بينا يرنو إليه الشفيع ، العذب ، النورانى ، ولم أدر الإجابة ..

من أسرار هذا الموقف

.. اعلم وفقك الله وبصرك بما بصرت به ، أنا الذى كنت ضالاً فهدانى ،
ونائياً فقربنى ، وأدنانى ، وتائهاً فدلنى ، وغياً فعقلنى ، ومعذباً فخفف جروحانى ،
اعلم أيها الفطن اللبيب أن الحزن لا يكون إلا على ماضٍ ، وأن الظلم لا يكون

إلا إلى مفقود . وأن الشوق لا يكون إلا إلى غائب كذا الحنين ، اعلم أن الظماً نوعان ، حسبي ونوعى ، فالأول يقع لافتقاد الماء ، وإن كان ذلك ليس شرطاً بالضرورة ، فرمما يغيب الإنسان الماء غيباً ، ويتعاطم ظمؤه ، هذا معروف في بعض حالات المرض ، وربما يواجه البحر أو يبحر فيه ، البحر ملآن لكن ما فيه لن يسعف الظامئ أما الظماً المعنوى فغير متناهٍ ، منه الحنين إلى المفقود ، إلى الزمن الذى ليس في المتناول ، إلى رؤية محبوب غائب ولم يعد في إمكاننا إدراك طلاسه وطلعاته ، إلى لحظة نائية لم تبق سواها من سنين عديدة ، إلى رائحة عبرت حواسنا في زمن قصي ، إلى وقفة عند ناصية منسية لم تدم غير ثوان إلى صغير قاطرة تمضى ، لا نعرف إلى أين أو بمن لكنها تحرك الأسى وترجعنا إلى ذكرى الأحباب البعيدة ، إلى حفيف فستان ، إلى مذاق طعام ألفنا طاهيه ، اعتدناه ثم رحل عنا ، إلى ممشى في حديقة ، إلى ظل مثذنة ، إلى رائحة بساط عتيق ، وربما إلى جلسة ود انتهى وما عاد . قد يكون الظماً لمعرفة الحقيقة والكنه الغامض ، للاطلاع على سر الأشياء وغوامض الموجودات ، إلى ما ينقضى ، ما يفلت منها ، ما يتسرب بين أيدينا ، الظماً حال ، ومعنى ، تتعدد فيه الأوجه ، معرفته لا تتطلب الوعي به لأنه ملازم للنشأة الإنسانية ، يبكى المولود إذ يظماً ، قلنا إن الحنين درجة من درجاته ، كذا الشوق ، والالتياح ، كل منهم تشتد وطأته بغياب المفقود ، كل أنواع الظماً تسكن باللقاء ، ييب القلب ، يهفو إلى غائب فإذا ورد سكن ، تماماً كما يرد الظامئ جداول المياه ، والحنين والشوق لا يصبح تعلقها بحاضر ، إنما متعلقها دائماً بغائب ، هذا ما استقرت عليه الأحوال ، وما أدركته العقول وما عبرت عنه المهج . لكن ما جرى لى في كربلاء غريب ، رأيت أبى ، وكان ممكناً لاشتياقي أن يهدأ ، أن أعبر جسر الفقد ، لكن ما جرى لى

عجيب ! كلما أهدقت البصر اشتقت أكثر ، وفي كل نظرة تجمعني بمن أحب ، ألقى الفقد ، وزاد على الأمر ، فكنت أعي أن ما أراه خيالا وإن كان حقيقة ، أننى متفرج ، أننى أحلم ، وهذا من قلة النعم على ، ولم أكن بحاجة إلى طول تأمل كي أعي أنه قد زج بي إلى عذاب غريب ، لم أنبأ به ولم يخطر لبشر ، وأن هذا قدرى فى المواقف كلها ، وأننى كلما قاربت على الرى ، تبدل أمرى فتجدد ظمئى ، أمر الله تعالى نبيه أن يقول : ربى زدنى علماً ، ومن طلب الزيادة يظل ظامئاً أبداً لا يعرف حداً ولا منتهى . صار شوقى إلى أحبائى دائماً أبداً ، صرت كشارب البحر كلما ازدادت شرباً ازدادت عطشاً وأضمرت النية أن أسأل ، فهذا أمر جديد على ، منذ أن بدأت رحلتى بصحبة مولاي ، فلم أدر بالضبط ماذا جنيت ، وهنا نظر بطول ، ومعانٍ تتعدد ، أخشى التصريح بها لذا أقصر ... فسامحونى !

موقف الحنين

.. عظم الحنين فاكتمل ، صار موقفاً عظيم القدر ، منه يلوح الماضى ، يقترن بالحزن ، جوهره جلال ، وعبرته مفاجئة ، فالحنين يأسدنى أول درجات النسيان ، والحنين لا يرد بنفس القوة فى كل مرة يهب فيها ، يكون فى أوله عفيفاً قوياً ، ثم ينقص ، ثم يضعف ، ثم يهن ، يأتى النسيان الذى يلفه ويطويه ، الحنين كالدهر لا يرى ، له من النهار ساعة الأصيل ، ومن الليل أوله ، ومن الفصول نذر الخريف ، ومن أحوال الحرارة رطوبتها ، ومن الأوقات لحظة توارى الشمس خلف الغمام فى يوم شتوى ، ومن مكنون الذكريات أحلامها وأغلاها ، ومن أحوال القلب الخفق المتعب ، ومن الورود

بقايا راعتها ، ومن العلوم علم ماكان ، أوقفني في ركن قصي من أرض كربلاء
فحيل بيني وبين القتال ، لم يعد لي إلا الفرجة ، فرأيت أبي ومن جاءوا معه ،
يقاتلون بين الحسين ، وكنت واجفاً ، فالقلة تواجه الكثرة وقدماً قال لي
أبي . الكثرة غلبت الشجاعة ، حوصرت بالحنين وحنيني هنا عجب ، كنت
أحن إلى ماض ومستقبل معاً ، هذا حالي وأنا في زمن قبل زمني ، أرى
ميلادي قبل حمل أمي بي ، أرى ذهابي قبل مجيئي ، وفقدى قبل وجودي ،
وغياي قبل حضوري ، وأمسي قبل يومي وغدى ، حننت إلى لحظات ولت
وكنت أعي أنها لم تأت بعد ، كنت أرى ما سيجري فيها ، وأنتى مدركها ،
وأنتى سابكها بعد فوات الأوان ، ولن يذكرها أحد غيري فعمرها مقدر
بعمري ، ولن يعرفها إنسان ولن يسعى من أجلها إلى الديوان ، أنها في موضع
مامنه ، وشاء مولاي ، وشاءت رئيسة الديوان أن أراها من زمن سابق على
زمني ، من موقف أرى فيه أبي مقاتلاً بين يدى مولاي ، في أول الموقف
اكتسحني الحنين فذراتي ، هفا قلبي إلى صباحات شديدة النأي ، أيام
الجمع ، عطلة أبي الأسبوعية لن يرتدى حلة العمل الصفراء ويخرج إلى
الوزارة ، إنما يمضي إلى ضريح الحسين ومسجده ، يصلي الفجر ، ويعود مع
ضوء النهار الأول إلينا ، في يده اليمنى طبق مليء بالفول ، وفي اليمنى كوب
زجاجي كبير مليء باللبن ، الفول من رجل مشهور حلبي الأصل ، لا يبيع إلا
قبل شروق الشمس ، ولأحباب الحسين فقط ، وعند ظهور الشمس يتوقف
وينصرف ، مذاق حبات الفول في فمي ، مع أن عصوراً آتية تفصلني عنه ،
وسنوات مولية تبعده عني ، كذا اللبن الدسم ، يأتي أبي بصحيفة ، « المصري » ،
كتب اسمها فوق راية خضراء مرفوفة عليها هلال أبيض وثلاثة نجوم ، تشعل
أمي الموقد ، تدفع الكباس مرات ، تضع الاناء النحاسي وبداخله قطعة

السمن ، وعندما تنصهر تماماً ، تفرد العجينة ، وتنتظر اصفرار الفطيرة ، ثم تخرجه على مهل ، ترشه بالسكر ، بعد الشبع ، يجلس أبى مسنداً ظهره إلى الجدار ، يشير بأصبعه إلى الحروف ، اقبع إلى جواره ، أتابع أصابعه في حركتها البطيئة ، ومنه أعرف القراءة قبل دخولي المدارس ، حفظت شكل الحروف ، منه هو الذى لم يتلق تعليماً ، هو من خبت أحلامه القديمة ، وصار لا يدخل الأزهر إلا مصلياً ، بعد أن كان يأمل دخوله طالباً للعلم والسر ، ربما تتابته نشوة أو روح مريح ، يبدأ في قراءة خبر لا وجود له ، يتحدث عن مقابلاته مع دولة رئيس الوزراء ، والمستولين وخبر عن تقديم استقالته إلى وزير الزراعة ، لأن صحته لا تسمح له بمواصلة العمل ، وخبر عن عدم قبول استقالته . يتقدم نهار الجمعة ، يوم العطلة ، بطيء الحركة ، يتوضأ ، ثم يصحبنا إلى ضريح الحسين ، أنا وأخى ، يضيق المسجد بالمصلين ، يفتشون الحصر والصحف فوق الأرضفة المحيطة ، تنتهى الصلاة وفي جبهتي أثر السجود ، وفي أنفي رائحة الايسطة العتيقة أو الحصر القديم . ومن قبل ومن بعد رائحة المسجد الظليل والتي لن تتبدد من أعماق حسى حتى أقضى ، ويدخلون بجثمانى إلى مسجد سيدى وحبيى ودليلي الحسين ، للصلاة على ، تلك وصيى ، تماماً كما كان مسجد الشفيح آخر مكان دخله جثمان أبى ثم خرج منه خروجاً لا دخول بعده ، وملفوفاً بغطاء لا سفور يليه ، تلك وصيى يا أحبابى ، ويحافظ نسيم ودى ، لبالله لا تنسوا .

كنت أتعلق بيد أبى اليمنى ، وأخى بيده اليسرى ، نطوف بالضريح ، نمسك قضبان المقصورة الفضية ، نحتوى بالرهبة العامة الخضراء التى تعلق الشاهد ، ويتصارع فى أنوفنا مزيج من روائح ، للظلال الدائمة رائحة ، لبقايا العطور ، لأنفاس القابعين فى الأركان ، للرخام رائحة ، لأغطية النجف

المصنوعة من قماش أحمر ، للزجاج الملون الذى تنفذ منه الشمس ، زرقاء ،
خضراء ، برتقالية ، للفراغ داخل الضريح رائحة ، للمصاحف القديمة ، للركع
السجود ، نخرج والنهار منتصف والضوء منكسر ، نقف أمام دكان صغير ،
صغير جداً ، يشتري لنا أبى الخروب ، يقدمه البائع فى طاسات نحاسية ، تمهل
فى تذوقه ، الطعم مسكر عذب ، أورتثنى هذه الوقفة عشقاً لمشروب الخروب ،
صار له عندى أثر حسى وأثر لا يدرك أبداً . ولو قصدت الافاضة فيه فلن
يكفني تسويد صفحات طوال غير أنى أخشى الاطئاب وثقل الاسهاب فأتساءل
فقط ، أين المذاق القديم ، أين ؟ لم أدر أن عيبير المشروب غامق اللون
سيصحبني إلى نهاية عمرى المقدر ، وأن عبيره الرطب سيرعش أغشية قلبي ،
ويرقرق قوادى ، ويقويني على الحنين المرهف ، نمضي إلى فندق قديم مجاور
لضريح الحبيب ، إليه يحىء ناس البلدة ، يجلس إليهم أبى ، يستفسر منهم عن
أحوال الأهل ، الحى والميت ، تجول عيناى بالمكان ، مطبعة فى نهاية الفناء
الفسيح .. الفسيح ؟ ماله الآن لم يعد فسيحاً ، ماله ضاق وانكشف بعد أن اشتد
عودى وتعددت سنينى ، ماله يبدو لى محدوداً ، كثيباً ، وقد كان مرتع
طفولتى ، والمكان الذى ينشرح فيه قلبي ؟ ، يحىء الشاى فى أكواب صغيرة
تضيق عند منتصفها ، تتغير وجوه وتتبدل ملامح ، لكن فى كل مرة نرى الحاج
عبد مدير الفندق ، نوبى الأصل ، يرتدى الجلباب البلدى والطربوش
التركى . وعبد المقصود أفندى كاتب الفندق ، بدين ، يرتدى بدلة ذات
صديري أفرنجي من الصوف ، صيفاً وشتاء لا يغيرها ولا يبدلها ، يجلس فى
مقصورة زجاجية ، يرد على التليفون . يسجل الطلبات التى تخرج من البوفيه إلى
الحجرات ، يرفع يده محيياً من حين إلى حين . فى صدر الصالون الداخلى ،
فوق أريكة جلدية يجلس رجل مغربي ملتحفاً بعباءة من الصوف الأبيض ،
عظيم اللحية ، أخضر العينين . أتطلع إليه من بعيد . يقول لأبى إنه خرج من

بلاد البعيدة ماشيا على قدميه ، وأنه عبر البحار والصحارى ، وصل إلى الهند ، قضى عمره كله يبحث عن موضع يمكنه الرقاد فيه بهدوء بال وطمانينة ، وأنه بعد أن لف ودار وتزوج عدة مرات أثناء رحيله وطوافه ، لم يجد مثل هذا المكان القريب من ضريح الحسين القاهرى ، سكن الفندق ، ومنذ مجيئه البعيد لم يفارقه أبداً إلا للصلاة فى المسجد والطواف بمشوى الرأس الشريف ، فندق الكلوب العصرى القديم ، والخادم عمر الأسود بعينه الفسيحتين ومشيه الصامت ، ونحيته الموجزة لأبى ، الباب الحديدى المؤدى إلى الفناء ، حننت إلى مكان آخر ، دكان ترزى بلدى ، مكانه مريضيق فى مواجهة مسجد الحبيب ، أرضية الدكان ترتفع عن الطريق مقدار نصف المتر ، مكسوة بنخشب ، الجدران الثلاثة مغطاة بفتارين زجاجية بداخلها قطع قماش ، يخلع أبى الخذاء ، يتربع فى مواجهة الحاج الصاوى الذى يرتدى نظارة طبية ذات اطار معدنى تتزلق حتى طرف أنفه ، ويغطفى أصبعه الوسطى من يده اليمنى بكستان يحميها من وخز الابرة ، يفرد القماش على ركبتيه ، قماش القفاطين والجلايب والعباءات ، حننت إلى وجهه ، وطاقيته ، وحافة الصديرى الذى يبدو من تحت قفطانه ، إلى البساط الأفغانى القديم ، رأيت هذا البساط ، لكننى لم أميز ألوانه كما كنت أراها فى الزمن القديم ، ظلال مبهمة طمست نفوشه عنى ، كذا جلباب أبى هلع قلبى عندما نظرت إليه ، كنت أعى بالنظر والحنين والشعور أن الجالس هو أبى ، أدرك حدود جسده ، وهيته إذ يجلس مطرقاً ، غير أن ما دهانى وفرانى أن ملامح وجهه فى هذه السن ، فى ذلك العمر غابت عنى ، راحت منى ، لم يسعفى البصر الكليل ، وقسا على الحنين إلى الملامح ، كيف كانت ، كيف ضحكته واطراقته ، ولحظة بدئه الحديث ، كيف اشارة يده ، كيف .. كيف ؟ تاهت منى ملاحمه ، كأنه يسعى فى ليل

غميق ، أو تحول بيني وبينه غيوم ، أو اشتد على قصر نظرى ، روعت
فصرخت ...

مولاي وإمامي .. هذا أول النسيان ..
لم يحبنى ، فتجسد لي اليتيم الذى بدأ مع رحيل أبى ، لكننى أدركت أن من
يهيمن على الديوان بمعنى ، تمنيت لو قربنى منه ، لكنه لم يحن على ، قلت
ودمعى يسبق قولى ..

أنى وجل ..
ومرّ صمت ، ثم أثنى صوت الطاهرة رئيسة الديوان ..
لا تكن من القانطين .
عاودت النظر ، وعاودنى الحنين فرأيت أبى ولم أر ملامح وجهه ، أراه
ولا أراه .. قلت : ما زاغ البصر وما طفى .

قالت :
أو لم نعلمكم ، ما يتذكر فيه من تذكر .

قلت :
البصر يغر ..

قالت :

اصبر .. لقد وصلت إلى زمن لم تكن بالغه إلا بشق الأنفس ..
آسنى الصوت الذى صيغ من عبر المني ، وجوهر الحنين ، والألفاظ
العتيقة الياقوتية ، من سر النظر ، غير أن الحنين غمرنى ممتزجاً بوحشة ، فقلت
بعبارات منهبة كأنى انقلبت طفلاً ..

تلك بداية النسيان ..
جاءنى صوت خافت غامض كقوس قزح ..

لقد نسيت ، واليوم تُنسى ..
قلت دامعاً ، مخلخل القلب ..
تلك بداية النسيان ..

.. صمتوا كلهم عنى انقطعت رئيسة الديوان عنى ، ولم يطل مولاي
على ، كدت أسأل ، لماذا أمر بما لم أعهده ؟ لماذا أرى أبى الآن ، وأشم
عبيره ، وأعى لون الضوء فى النهار البعيد ، ولافتات الدكاكين ، وملامح
بعض المارة ولون معطف تاجر المويليا القديمة الذى اعتاد أبى أن يحببه ، لماذا
أرى هذا كله ولا أرى ملامحه ؟ لماذا ينجيل إلى أن حرقة الفراق أخف ؟ لماذا
أدرك أنه راحل من قديم ، مع أنه أمامى ، لماذا لم أعهد ذلك فى أسفار
الغربة عندما رافقنى مولاي ، ولم يتخل عنى ، كدت انطلق الاستفسار ، لكن
الهاتف الحقى حذرنى ..

ليس لك ان تسأل عما لم تخط به علماً .. ألم يخبرك الإمام الحسين
بذلك ..

أمسكت على أنفاسى ، وعدت أصدق إلى أبى ، إلى هذه اللحظة التى
تشبثت بها ، وهذا من عجائب موقف الحنين ، تبينت أنه بإمكانى أن أمسك
وجدى أو شعورى ، فإذا رأيت أو حننت إلى لحظة نائية كان ممكناً لى أن
أثبتها إلى حين ، ولو كنت أمر بمحزن غامر ثم جاعنى من لا أرغب فى إظهاره
له ، أوقف حزنى ، أو أسأى ، أو فرحى ، فإذا خلوت بنفسى أرسلته من
جديد واسترسلت فيه ، عاودت النظر ، لكننى أيقنت من فقدى ملامح أبى
فى هذه اللحظة ، هذا ما تأكدت منه ، تكاثفت على الظلال ، ولم أدر ،
أهى ظلال معنوية ، أم ظلال حسية ، ولما اشتد على حالى وعظم وجلى ،
تحولت ، تغيرت ، تبدلت كلى ، أصبحت ذلك الحياط ، أصبحت أنا

صاحب الدكان ، أتربع بعد صلاة الجمعة ، على مهل أسرج الحيط ، وأقص القماش بالمقص الكبير المتين القديم الذى لا يوجد مثله الآن ، أحمد - ربى الذى أعطانى القدرة فى هذا العمر على ايلاج الحيط فى ثقب الإبرة ، وحفظ مقاسات زبائنى فى دماغى ، أحمدته لأنه أبقى حبال ودى متصلة بزبائنى وجلهم من كرام الناس المستورين ، مشايخ أزهر ، وتجار خان ، وأبناء أصول من بلاد بعيدة ، ورحم الله الشيخ هاشم الكبير الذى كان يحىء إلى مصر مرتين فى السنة من قرنته جهينة فى أقصى الصعيد ، يتزل فى فندق البرلمان بالعتبة ، كان يحىء لغرضين اثنين لا ثالث لهما ، الأول تأدية فرائض الصلاة الخمس فى مسجد مولانا وحيينا ، والثانى لتفصيل ملابسه عندى ، كان مهيباً ، من رجال الزمن الحلو القديم ، الزمن الذى كنت اترك فيه ذكائى مفتوحاً ، أقضى حاجتى وأرجع لأجد كل شىء كما فارقت ، حتى صبي المقهى لا يمرؤ على استرداد فنجانته وكوبه الفارغين إلا بعد عودتى ، رحم الله الزمن الجميل ، ينظر إلى أحمد الغيطانى ، ينتظر مجىء خلف بك الذى كان سيياً فى جريان رزقه ، ثم زواجه ، وانجابه ولديه ، يجلسان صامتين ، متأدين ، ربما يشعران بضيق ، ربما يرغبان فى الجرى ، فى اللعب ، لا يمشى أحمد بدونهما منذ أن عرف جمال المشى ، كذا الثانى ، أحمد من بقايا الناس الطيبين ، لم يكن يفارق الشيخ هاشم الكبير ، يصحبه من الفندق إلى المسجد ، إلى آل البيت ، فى الصباح الباكر قبل فهايه إلى الوزارة يمر به ، بعد غياب الشيخ هاشم رحمه الله لم ينقطع أحمد عنى ، دائماً يتقصى عن القادمين من جهينة ، يصحبهم ، يلهم ، ينفق وقته معهم ، لو شاء لأصبح تاجراً كبيراً ، زميله الذى خرج معه ، عمر الماخوت ، من أثرياء سوق العتبة الآن ، يحىء إلى الحسين فى عربة حنطور يجرها جوادان مطهان ، تاجر سمك كبير ، عرفى

أحمد به عندما أشار إليه ذات عصر وأسرع إليه ودعاه إلى كوب شاي عندى ولكن الماخوت اعتذر بضيق وقته ، قال أحمد مشيراً إلى العربية ذات الجرس : هل تصدق ، خرجنا من البلدة معاً وجئنا إلى مصر فى عربة موتى ! . قلت له : لو شئت لأصبحث مثله ، قال لى : الدنيا حظوظ .. المهم أن أرى أولادى الآن وأجنهم ما عرفته من غُلب ، من شقاء أحمد يقضى عمره فى الصحبة ، فى ود الآخرين ، فى الرفقة ، فى أداء الواجب . عزاء هنا ، وفرح هناك ، إلى زيارة مريض ، لو دنا أجلى وحانت ساعتى ، سيكون من أول الساعين فى جنازتى ، ممن يحملون نعشى ، وسيكون ممن يترحمون علىّ ، ويتذكرون كلما مر بدكانى ، وربما يحىء إلى قبرى فى الأعياد والمواسم ، يجلس صامتاً ، خجولاً ، ولو تكلم فإن حكاياته لن تنتهى ، نبيه ، يتذكر أدق التفاصيل ، مطلع على الأنساب والأصول ، مسكين ، ولو أنه التحق بالأزهر ، ولو تلقى تعليماً ، لصار له شأن ، جازى الله أولاد الحرام ، لكن الله عوضه ذرية صالحة ، يقول لى دائماً إنه لو تسول بجوار مقام الحسين سيفعل حتى يتم ولداه تعليمهما ، لكنه يتبع قوله بالدعاء : ربى لا تحوجنى إلى مخلوق . تكل يدى ، لم تعد الصحة هى الصحة ، لكن الدكان أحسن لى من القعدة ، أتمنى لو يسردنى الله مكانى ، أخشى رقدة قد تطول ، هنا انتظر أصحابى الذى أأتس بهم . يبحثون ، يعدون ، لا تتبادل كلاماً كثيراً ، لكن معهم تنصل الونسة ، منذ خمسين سنة لم تتبدل جلسى ، يتغير الزبائن ، ويتوافد الأغراب علىّ ويمر آلاف المارة بين حذقتى عبنى ، لكن الدكان على حاله ، أما الأيام البعيدة فلا نملك ازاءها إلا الحنين ، أما الأيام الحالية من الصحبة فصعبة ، لا يكون الأنس إلا بالكثرة ، والفرقة أول الوحشة والانكسار ، أول الغياب .

آه يا أحمد .. يا غيطاني يا ابن الناس الطيبين ..
انظر إليه ، كأنه فهم عني ، ملت إليه كى أراه ، كأنه بعيد عني ، قربت
عويناتي ، لكنني لم أر ملامحه ، ناديت ..
يا غيطاني ..

شعرت بصوته لكنني لم اسمعه ، عجباً ، عجباً ، رجعت إلى أصلي
فأصبحت أنا جمال مرة أخرى ، عدت لاهث الأنفاس ، كأنني ارتقيت
منحدراً وعراً بقلب عليل . وعندما اكتمل ابصاري غرب عني أبي ، كذا
الدكان ، وشق على أن أفارقه قبل رؤية ملامحه ، لكن الهاتف الخفى أهاب
ني ، لا فائدة ، ما من أمل يرجى ، وعرفت أن ملامح الإنسان تتبدل في كل
لحظة ، وأن الوجه الواحد يحتوي وجوهاً بلا حصر ، وأنه ما من ملامح ثابتة
أبدأ ، فالتغير يقع مع الموضع والضوء والبرد والحر ، والحزن والفرح ،
والضيق والانشراح ، والشroud والتركيز ، وأتأنا نقضي الأوقات الطويلة نطالع
وجه الحبيب القريب ، ونتملى منه ، ونحفظ عنه ، ونهتر له ، ولا ندرى أبداً
أن ما نراه الآن ليس ما سنطالعه بعد لحظات أو في الغد ، ونحجب عنا الغفلة
الإنسانية حقيقة فحواها ومضمونها ، أن تلك الملامح التي نتطلع إليها الآن ،
والتي نخيل إليها أنها لن تمحى أبداً من أذهاننا وذاكراتنا المثقلة وأنها لن تغرب
أبداً ، هذه الملامح ستهت يوماً مع الفراق ، مع البعاد ، ولن يخطر لنا أبداً
أنا سنجهد يوماً في استعادة ملامح أقرب الأقرين ولكن عبثاً ، تهت ذكرى
الشيء الذي لم نتخيل يوماً أنه سيهت أبداً ، آه ، كل من عليها فان ويبقى
وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، ما من أمل يرجى في استعادة ملامح أبي
عند هذه اللحظة بذاتها ، لا .. بل كل اللحظات ، بل إنني عندما أتذكره أو
أتخيله إنما استرجع أو أتخيل شيئاً مختلفاً ، علامة باهتة تقول ، هنا كان أبي ،

إشارة بعيدة ، أما الواقع فقد ولى ، انطوى ، هتف بي الهاتف أننى رأيت من أبى أقصى ما يمكن لى أن أراه من خلال عيني الحاج الصاوى ، صاحب الدكان الذى ولى ، الدكان الذى اندثرت معالته تماماً فى زمانى الدنيوى ، أصبح بوتيكاً يبيع معاجين الأسنان الأجنبية ، والألبان ، والحلوى ، وأدوات الخلاقة ، والمجوهرات الصناعية ، تبدل كل ما رآه أبى ، وما انطبع فى حذوقه ، تبدل كما تبدلت ملامحه عندى ، ولأن وهن الذكرى وضعفها بين القلب فقد قوى على الحنين واشتد حتى لم أكن بقادر على الراحة فى أى وضع ، وقوف أو جلوس ، أما الحرب فى النوم فلا محل له فى الديوان ، هب على الحنين كراثة مكان مهجور مغلق ظل المسك مقبوراً فيه سبعة آلاف عام من عمر دنياى ، عرفت أن الحنين جالب للمودة والرحمة ، ولكن يا أسفى ، فى غير أوانها ، فى غير موضعها ، فى غير مقامها يغديان الحنين ، والحنين عابر يهب كالحواطر ، والحواطر أيضاً عابرة ، وليست مقيمة ، لا تبق فى القلب إلا مقدار هبوبها ، لكنها تورث ألماً غير منظور ، وأشد الأوجاع ما كان خفياً ، هل سمع إنسان بخاطرة انقذت من قلب سكنا ، لا تقيم الحواطر بالقلوب إلا زمن مرورها وهذا زمن لا يمكن قياسه بحساباتنا الإنسانية ، قال شيخى الأكبر محيى الدين إن لله سفراء إلى قلب عبده يسمون الحواطر ، لا إقامة لهم فى قلب العبد إلا زمن مرورهم عليه ، فيؤدون ما أرسلوا به إليه من غير إقامة لأن الله خلقهم على صورة رسالة ما أرسلوا به ، فكل خاطر عينه ، وعرفت أنا أن هبوب الحنين سيكون بمقدار ما أرى . والأهم بمقدار ما بقى حيا فى أعماق من الأيام البعيدة ، حننت إلى صحبة مولاي الحسين ، شرفت به . إلى ظهوره ، إلى أخذه بيدي ، إلى عطفه على ، إلى الأنس بى ، ضريح

رأسه مقصدي ، أسافر فأطوف به قبل رحيلي . ثم يصبح بؤرة حنيني إلى وطني ، وأثر عودتي أهرج إليه فكأنني أجدد إقامتي في داري ، عندما سعت إليه في الديوان تركت كل ما بيدي ، لم أسند أمرى إلى أحد ، لم استشر إنساناً ، ولم أفكر في مولود أو ولد ، جئت إلى الديوان متجرداً ، خرجت من واقعي إليه كخروج الميت عن أهله وماله ، لهذا حق لي الآن الرغبة في رؤيته وشرع لي الأمل في اطلالة منه على ، ولكنه لم يهلّ ، لم يلح ، لم يبد ، فلفني الخذلان والهجر ، ثم هذا الحنين من جديد فرأيت طريقاً مزدحماً ، دقت النظر ، رأيت أبي ، يصحني أنا وأخي إلى زيارة ضابط بوليس سابق اسمه أبو حشيش ، يقصد بنا عمارة تقع في موضع ما بالقرب من ميدان الجيش ، أجهل موقعها الآن ، ولا أعرفها على الرغم من أنني أذكر طلائها الأصفر ، وسلاسلها المرتفعة ، وخشب الباب بني اللون والممر الطويل المؤدى إليه ، رأيت أبي ورأيت أخي ورأيت نفسي ، كنت أمشي خلفهم ، لا أنخطاهم ولا أتجاوزهم ، في حجرة الاستقبال وقفت في ركن قصي ، يدخل رجل ، إنه أبو حشيش ، لا أرى ملامحه ، أشعر بفرحة أبي وهو يشير إلينا : جمال ابني الأكبر وهذا إسماعيل الأصغر .

لم أكن أعرف وقتئذ أنه الضابط الذي أنقذ أبي ، هذا ما عرفته بعد رحيله عنا ، كان خالي يتحدث عن طفولة أبي عندما ذكر اسم الضابط الذي آوى أبي في النقطة ، ها هو أبي ينظر إليه ، كأنه يقول ، لولا أنك نجيتني من أهلي وناسي ، لولا أنك أخذت العهد والميثاق على عمي بعدم التعرض لي لما انجبتها ، ولما سعت ، رأيت أبي يصحبنا إلى بيت خلف بك ، البيت القديم في الظاهر ، فسيح ، متعدد الحجرات ، صالة متسعة ، وسجاد ثمين معلق إلى الجدار ، ودولاب كبير من خشب ثمين مزدحم بمجلدات قانون ، اللغات

عربية ، وأجنبية ، أود النظر عن قرب ، غير أنى أخشى الخطأ غير المقصود فاحجم ، رأيت الابن الأكبر لخلق بك يلعب باتومويل صغير ، يدفعه فيجرى ، ونحن ننظر إليه ولا نشاركه ، رأيت أبى يصحبنا إلى متاجر شارع الموسيقى ، يشتري لى عربة اطفال ، ولإسماعيل تراماً بداخله رجال ونساء وكمسارى يعلق حقيبة جلدية ، تلك عادة لم تنقطع إلا مع تقدم الزمن بنا ، فى العيد الصغير والعيد الكبير لعبة لكل منها ، وثوب جديد ، رأيت أبى يتمدد فى الغرفة الوحيدة ، يقول إنه سيأتى لكل منا بطائر يمكنه الطيران فى فراغ الحجرة ، من حين إلى آخر أسأله عن هذا الطائر العجيب ، لكننا لم نره مطلقاً رأيت يصحبنا إلى سينما أولمبيا فى شارع عبد العزيز ، ومنظر فى فيلم لا أذكر اسمه ، قارب فى بحر ، وشكوكو يغنى ، رأيت المدخل الخلقى لصالة السينما الامامية ، طلاء الجدران الجيرى أصفر ، ومعدات اطفال حمراء اللون معلقة ، ورائحة عتيقة ، ربما للرطوبة المنبعثة من المر الذى لا تطوله الشمس أبداً . رأيت سوق الخضار الكبير ، ودكان الحاج عمر الماخوت تاجر السمك الكبير ، مجرى صغير أمام الدكان تصب فيه مياه الغسيل القادمة من داخله ، من جلستنا نرى غطاء التلاجة الخشبي الثقيل ، العمال يرصون قطع الثلج فوق السمك ، مناخذ نحاسية متستديرة قوائمها معدنية ، مزدحمة بأكواب الشرابات ، والشاى ، وكوب صغير تطل منه أعواد النعناع الأخضر ، الحاج عمر غارق فى الظلال يرتدى الجلباب البلدى والطربوش الأحمر ، وعلى مقربة تقف عربته الخاصة ، مربوط إليها جوادان أسودان ، عليهما سرجان يلمعان ، أمام كل منهما جوال ملهى بالتبن أو الشعير لست أدري ، وفوق منضدة مرتفعة عند مدخل الدكان فونغراف ذو بوق كبير ، عاد الحاج عمر الماخوت من الحجاز بعد أن حج للمرة الرابعة ، يصغى أبى ، ينظر مشوقاً إلى

حديث عن زمزم وزحام الحجاج في منى، ويوم الوقوف بعرفات، يصفى أبى، ولم أكن أدري أنه يتمنى ويتمنى ! أرى لوكاندة البرلمان القديمة المطلة على ميدان العتبة، الطلاء الرمادى، الأقواس التى تحد المر الذى يقع أمامها، مدخلها ونوافذها المستطيلة، وحجراتها الفسيحة مرتفعة الأسقف، والحاج محمود أحمد من بلدتنا، يرتاح بعد أن أجريت له عملية جراحية، يزوره أبى مرتين يومياً، يصحبنا إليه، ينظر إلينا، يقول: ما شاء الله يا أحمد.. أولادك كبروا.. بجوار السرير سلة فيها فطيرة، وإلى جوارها بطيخة كبيرة الحجم، يطلب من أبى أن يقطع من الفطيرة، من البطيخة، أبدى تمنعاً، بينما يسيل لعابى داخل فمى، يشجنى الحاج محمود: خذ يا جمال، أبوك رجل كريم ولا يقول لأبداً. رأيت أبى فى مكتب سكرتير مدرسة عبد الرحمن كتحدا الابتدائية، ابراهيم أفندى، أرى وجهه، ونقطة مستديرة من وشم أخضر تتصدر جبهته، يقول أبى إنه سيدفع أول الشهر، السبت القادم، يقول ابراهيم أفندى: بإمكانك ألا تدفع لو قدمت شهادة فقر، يقول أبى: هذا فال سيسى، أنها أول مصاريف أدفعها للولد. رأيت ميدان العتبة الخضراء، أبى يصحبنى إلى الوزارة، موقف العربات يتوسط ميدان العتبة، عربات شركة الثورن كروفت بطلائها الأخضر والأبيض، أطل عبر النافذة الخلفية، كوبرى قصر النيل، ثم يقطع ما أرى لحظة نزولنا. بالقرب من الميدان الفسيح دكان كواء، تنزل إليه ثلاث درجات تهبط به عن مستوى الشارع، يحمل أبى ياقات بيضاء تخص خلف بك، أرى أبى يصحبنى إلى محطة مصر، ينتظر خالى القادم من البلدة، يشير إلى القضبان الحديدية قائلاً، أنه خط الصعيد، لا انتبه إلى صوته المضمخ بالحنين فى لحظتها أما اعيه بعد ذلك بسنوات طوال، كذا رقاده فى ساعات راحته، وتحيله لحركة

القطارات المسافرة ، يقول : الآن يتحرك قطار الثامنة ، يقف بالمركز ، أما قطار الثانية عشرة فيقف بالمديريات فقط لأنه سريع . الآن يوشك قطار الصحافة على دخول طهطا . الآن يقوم قطار الرابعة والنصف من أسبوط . أرى رصيف المحطة مرة أخرى ، يمسك أبي ييدي ، يصبح : يا محمد علي ، يا محمد علي ، يطل خالي من نافذة القطار ، يناول أبي الفقة التي تحوى «الزيارة» . في صالة البيت الصغير تمزق أمي القماش الذي يغطيها ، فوق الحيز الشمسى والبلح المخفف تتمدد أوزة مذبوحة وحام ، يقول خالي : أسلقهم حتى لا يتعفنوا . ينشط أبي . يخرج ، يهيم ، يهيمس لأمي ، راجياً منها ألا تشكو لشقيقتها وأن تدع أيام إقامته في مصر تمضي بهدوء ، وأنه سيلبي كل ما تطلبه ، ولن يزق أبداً . يصحب خالي في الليلة الأولى إلى مقهى أحمد عفيفي ليدخن المعسل ، وفي اليوم التالي إلى الأضرحة التي تضم مراقد آل البيت ، إلى سيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة نفيسة ، والسيدة رقية . إلى سيدى زين العابدين ، يبدو خالي ضجراً ، أصفر الوجه ، مزوم التقاطيع ، ويفهم أبى ، يتزل إلى فئلق الكلوب العصرى ، يتجه إليه وجلاً ، خائفاً ، يكره ويخاف ما سيقدم عليه ، لكنه يريد أن يرضى نسييه ، يهيمس في أذن عمر الخادم ، يرجوه أن يوفر له فص أفيون ، وصل نسييه من البلدة ، ثم يكرر عليه : إنها ليست له ، والله العظيم ليست له ولن تخصه ، في البيت يقول لأمي همساً ، هل أنت راضية .. لقد أحضرت ما أراحه من أجلك ، ونجيب أمى بهزة من رأسها ، إنها راضية . رأيت أبى يصحبني إلى مقبرة رجل لا أدرى اسمه ، بناؤها حجري ، بابها حديدى ، حوض رخامى ملئ بالنبات ، بالريحان ، الوقت عصر ، لهذا ظلت رائحة الريحان تعنى عندى دائماً الموت ، رأيت سطح بيتنا القديم ، نخرج من الغرفة ، يحملني أبى فوق

ذراعيه ، ينظر إلى الأفق الملتهب بنيران صفراء ، بالسنة هب ، يقول أبي ،
هذه النيران ناحية غمرة ، وتلك ناحية قصر النيل ، يخفق قلبي ، هذا يوم
يمكنني تحديده ، السادس والعشرون من يناير عام ألف وتسعمائة وخمسين
وليس لذا كرتي أدنى فضل في معرفته أو الإشارة إليه ، إنه يوم معروف دونته
كتب التاريخ التي تسمى الأحداث الجسام . ها أنا أجلس فوق السطح ،
يتحدث عن شاب من بلدتنا ضبطوه في البيت يحلب نفسه ، يقول إن من
يفعل ذلك يخن أو يموت ، فوق السطح يحكي أبي عن رجل اسمه العياط
موظف في الوزارة ، ضايقه ، في صوته ألم وشكوى . أقف بين طرفي الملاءة
المنشورة فوق حبال الغسيل ، أدعو على هذا العياط ، يدرك قلبي هم أبي
وكرهه ، غير أنه يقول لي ، لا تتمنى الأذى لمخلوق ، يأتي أن ادعو على
الرجل لأن دعوات الأطفال تستجيب لها السماء بسرعة ، أدرك تعبته وأنه
يفضفض عن نفسه لأمي ، أراه يمسك مقشة يقتل بها ثعباناً وجده يزحف
بجوار دورة المياه ، يقول لأمي : هاتي جازاً لنشعل فيه النيران ، لا بد أن
تضيق رائحته تماماً لأن وليفته ستسعى وراءه بجثاً عنه ، أمتي تخاف الثعابين
والأبراص ، إذ يظهر أحدهما يتقدم هو منه ، لو طرق الباب طارق على غير
انتظار يفتح هو ، إذا مشينا في الشارع نكون فوق الرصيف ويمشي هو ناحية
عرض الطريق ، نأكل فينال هو نصيبه آخرنا ، تجلس أمتي الباب ، ترتدى
جلباباً أبيض ، تعصب رأسها بمنديل ملون ، ننتظر سماع خطاه فوق السلم ،
لوقع خطاه صوت لم يصدر قط إلا عنه ، كذا طرقاته المتتابعة للباب ،
ها نحن ننتظره في صالة البيت الضيقة ، ننتظر خطاه ، في صالة بيت الدرب
الأصفر الذي انتقلنا إليه زمناً ، أرى نفسي بعد عودتي من عملي ، أجلس في
غرفتي بعد أن صارت لي غرفة تخصني ، يرن الجرس ، أسمع صوت أبي في

الصلاة ، ربما أقوم إليه ، وربما أبقى مكاني حتى يفتح هو الباب ، وربما لا يفتحه ، أرى نفسي أثناء زيارتي إلى البيت بعد أن صار لي بيت وأسرة ، اسمع صوته في الصلاة يقول : لقد جئت مبكراً كي أرى «جمال» ، ها هو بيتي ، يرن الجرس رنات متعاقبة ، وهذه رنات لم تتردد أبداً بعد سفره الأبدى ، يدخل إلى الصالون ، يجلس ، في نفس المقعد ، تطول فترات الصمت . يدعو لي بالستر والنعمة ، فأدرك أنه أوشك على الذهاب ، يقوم ، يقول إنه سيمضي ، فأطلب أن يبق ، يقول إنه سيزور شخصاً يقيم في مكان قريب ، أقول : لكن مشوار عودتك طويل ، ستأخر ، يقول إنه سيرجع مبكراً ، قبل أن يفتح الباب يقول إنه سيدعولي ولزوجتي ولابني عند مقام الحسين ، يرفع يديه ، يطلب من العلي القدير أن يهبنا الصحة ، والعافية ، وأن يحوش عنا أولاد الحرام ، وأن يتمتعنا بنعمه ، أقف عند بداية السلم . في هذه اللحظات الأخيرة ، أظهر الود ، أردد ، مع السلامة ، خذ بالك من نفسك ، يخبثني صوته : الله يسلمك يا بني ، ادخل ، ادخل من البرد . أدخل متعباً ، وعندما أمسد رأسي إلى الوسادة أحن إليه وألوم نفسي ، كان يجب أن استبقيه ، كان يجب أن يقضي ليلته عندي ، لا يجب أن أدعه ينصرف بسرعة . أقول لنفسي ، في المرة القادمة لن أدعه يذهب هكذا ، في المرة القادمة ... ، لكن هذه المرة لم تأت قط ، ولم يعرفها عني قط ، مرة أخرى أصغى إلى خطواته القديمة ، قدومه وذهابه ، اقترابه وابتعاده ، ثم تغيب عني ، اتلفت حائراً حولي ، لو اسعى إلى أرجاء الديوان ، إلى منزل الأصوات الباقية ، افتش عن هذه الخطي ، انقب عن أصداؤها ، لكن كيف واين ؟ عند هذا الحد تزايد هجري ، وعظم خوالي ، وتزايد فقر روحي المدقع ، الأصوات لا تستجيب للذاكرتي الغاصة ، لا تبلي التني ، أما الحنين فيريك عند اضطرامه ، ويجلب

النسيان الذى لاراد له ، والنسيان يأتى بالجفوة ، والجفوة موت ، كذا سأنسى يوماً ، لقد نسيت واليوم أنسى ، انقسم عمرى إلى عمرين متباعدين ، عمر سمعت فيه خطو أبى ، بشرى الألفة والأمان ، وعمر جف منها ، حننت إلى الانتظار القديم ، لم أسمع صوتاً ، لم يقع صدى ، أدركت أننى على شفا حفرة من موقف الخذلان والندم ، وأن مقامى سيمتد ، سيطول ، وعذابى متدرج ، توسلت وتضرعت ، رجوت سيدى ودليل أن يرجئ دنوى منه لأن قلبى مثقل ، وضميرى دام ، وعطرودى منقطع ، وحنينى فى تكاثف كثيف ، آه يا مولائى ، إن لم تأخذ يدي فإلى من أكل أمرى ، وعلى من أعرض وفائى وغدرى ؟ ولن أبدى حججى واعذارى ؟ بمساعدتك رأيت وعرفت ، فهل سمعت حنينى ورجائى ، هل ترحم قلة حيلتى إزاء الحنين الوعر ، ذكرت ما سطره شيخ من شيوخى الاجلاء . ذكرته والحنين متمكن منى ، سلام على نسيم كان يصل من الحبيب إلى قلب كل عنه كل طيب ، نعم ! وسلام على روح كان يهدى لعلامة القبول والرضا . صار كرباً بحسرة على مافات وما مضى بل سلام على ليل كان يلتقى طرفاه بأنس ، يفتن عليه الجن والإنس ، بل سلام على لحظ كان يتتبع به العائر ، ويتجدد بنوره الدائر ، بل سلام على حرم كان لا يدب فيه واش ولا رقيب ، ولا يحل به ظنين ولا قريب ، بل سلام على رسائل كانت ترد بعتب يحترق به القلب ، ولطف يحيا به الروح ، بل سلام على علامات كلما طرق خيالها هاجت البلايل ، وتقطعت السلاسل ، بل سلام على مصافحة كانت الكبد بها تلدوب ، وعلى معانقة كانت الأمانى بها تثوب ، بل سلام على مجلس ، كان ممتلئاً بحديث حلو جرى مع الحبيب ، ليس لأحد من الخلق فى تعريضه وتصريحه نصيب ، بل سلام على يقظة كانت مقصورة على

الشوق إليه والوجد به ، بل سلام على رقاد كان الحلم يعرضه ويخلوه بأكثر مما كانت النفوس تتمناه وتهواه .

نؤمل عيشاً في حياة زهيدة
أضرت بأبدان لنا وقلب
وما خير عيش لا يزال مفزعا
بفوت نعيم أو بموت حبيب

هكذا مدت ميذا ، وصار الرسو أبعد الأمور عني ، الحنين إلى الحنين
يدهمني ، حنين إلى ما عشت وعرفت ، وحنين إلى حنيني ، صرت موزعاً
متفرقاً ، ولأني ، لأنني ، حق على العقاب ، وهنا خفف الله عني ففتح عليّ
بتجلى ..

تجلى عابر

.. هذا تجلى عابر ، بمثابة نقطة بين مرحلتين ، ولحظة تلتقط فيها الأنفاس بين
عذابين ، بدأت أطفو إلى أعلى عليين ، ولم يساورني الخوف أن أرد أسفل
سافلين ، ثبت أمرى عند نقطة مرتفعة ، حدثت بالبصر الحديد ، رأيت عالماً
الأرضى كله ، مستديراً ، جميلاً ، مهراً ، رأيت داخل شكله الاكوى
الأشكال كافة من طول وعرض واستقامة وعوج وتربيع وتثليث ، رأيت
القارات كلها في تفصيلها وفي جملةا . رأيت البحار وما تحوى والجبال وما
تحمل والشهب ومقاصدها ، والغمام ، رأيت المدن وحركتها ، والقرى ،
والمدايق والشوارع ، والمنحنيات كلها ، ثم طاوعني بصرى ، فأصبحت أرى
ما أشاء ، ما أتمناه أرغبه ، دون أن يغيب عني الكل ، كأنى أرى الدنيا كلها

وفى نفس اللحظة أرى علامة مرور صغيرة عند ناصية مجهولة ، أرى المدينة ، وأرى زهوراً ملونة مطلة من سلة معدنية بيضاء معلقة إلى نافذة من طابقين فى إحدى بناياتها . أو منمنمات خشبية تنصدر باب بيت قديم ، بل امكننى قراءة عناوين الكتب فى واجهات المكتبات ، حام بصرى وحط كفرخ حام متعب على المواضع التى عرفتها طفلاً ، وصيباً ، وشاباً ، ثم رجلاً مكتملاً ، وهنا أفيض على بقدرة حصنى دون غيرى ممن سبقونى فى التجلى ، وهى قدرتى على رؤية المكان فى زمانين أو عدة أزمنة ، كل ذلك فى نظرة واحدة ، وأول من رأيت أبى ، ها هو يسى فى صباح باكر والندى يقطر ، ها هو يمشى فى ظهيرة مزدحمة ، رأيته على طريق مهجور بين قريتين ، ثم رأيته يصحبنى ها هو متجه إلى عمله ، إلى المصلى الذى يقع فى الطابق التحتى من مبنى الوزارة ، إلى الحديقة المجاورة حيث يتمدد عندما يدركه التعب ، ها هو فى شارع قصر الشوق ، صباح شتوى ، لا يرتدى إلا جلباباً ، ثم يقف فى الطريق ، وقد أصبح وجوده علامة على الحيرة التى هى فى أصل النشأة الإنسانية ، الدكاكين مغلقة عدا دكان السنى بائع الخبز والدقيق ، يطيل النظر ، يعقد يديه خلف ظهره ، رجل يمسك الأرغفة الساخنة التى وصلت من الفرن لئوها ، ينتظر أبى انصرافه ، ثم يتقدم ، يلقى السلام بصوت خفيض ، وهذا صوت لم أعهده فى رحلى الطويل هذا إلا بعد زواجه وانجابه لى ، لنا ، يطلب ستة أرغفة ، ثم يقول للرجل الملتحى : ويكتمل لك بهذا ثلاثون قرشاً ، يقول : لم يتبق الكثير على بداية الشهر ، يقول الملتحى : ولا يهلك يا أحمد ، كان الله فى العون . عندئذ يشجع أبى فيطلب خمسة قروش ، ويكتمل المبلغ بذلك خمسة وثلاثين . أدق النظر حتى أرى الشعيرات النامية على يده وعند مفصل أصبعه ، كذلك التصاوير على الورقة المالية الصغيرة . أراه فى نفس الوقت ،

يمد يده بالطبق الفارغ إلى سيد بائع الفول ، ها هو راجع إلى البيت ، لقد
جاءنا بإفطار اليوم ، أراه يدخل مقهى ، يتوقف عند مدخله ، يقول السلام
عليكم ، فيرد عليه كل الجالسين : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، كنت
أرى هنا كله في آن واحد معاً ولم يكن يغيب عن بصرى في ذات الوقت رحيل
السحب ، وتكون التلوج ، ودوران الأرض حول محورها . ويرد الزلازل ،
وهبوب الأعاصير ، وهذا أمر يطول شرحه ، ويقصر عنه أدق الوصف ، رأيت
يتقدم من عربة لنقل الموتى ، تقف في شارع جانبي بمدينة طهطا ، ابتهجت ،
هذا هو أبى الذى رأيت راحلاً عن البلدة كما رأيت في أسفار الغربة ، يقترب أبى
من العربة ، يسأل سائقها ..

من الميت ؟

رجل من بها ..

وهل سيدفن في طنطا ؟

لا .. في بنا . سأصافره الليلة ..

يقول أبى :

هل تصحبنى معك ؟

ينظر إليه السائق العجوز ، المرهق بالوحدة ..

إلى أين ؟

نسى إلى مصر .. إلى لقمة العيش ..

يقول الرجل ، وقد مال قلبه إلى أبى وعطف .

تعالى يا بنى .. الطريق طويل وستسلى بعضنا ..

يتقدم عمر الماخوت ، يسأل ..

ستأخذ مناكم ؟؟ .

يتسم السائق القديم ..

تكفى الصحبة الطيبة ..

يعود الماخوت إلى أبي ، يبدى ضيقاً ، هل يسعيان إلى مصر في عربة لنقل المولى ؟ هذا شؤم ، يقول أبي إن الأعمار بيد الله ، ولكل أجل كتاب ، وأنه شاء أن نرحل إلى مصر راكبين ، هذه العربة ، فهل نخالف مشيئته ؟ ، تابعتها بنظري ، تابعتها وأنا مفاجأ ، في دهشة ، تلك هي المرة الأولى التي أحاط بالوسيلة التي جاء بها أبي إلى مصر ، عربة مولى ، عندئذ سمعت صوتاً معاتباً .
وهل اهتممت بالاستفسار يوماً ؟

.. آه . مولاى الحسين يطالغنى بوجهه النوراني بعد طول غيبة ، يحدق إلى بعينين رأيتها في كربلاء لحظة اصابته بالجرح الحادى عشر ، اختلط على الفرح بالشفقة لمحجوبى ومولاى فخرت من حائق صعبا !!! .

موقف

اللقاء ، والتلقى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أفقت يا أحبابى الكرام من صغى وغشيتى فإذا بى فى ميدان باب الحديد ، سنة مجهولة ، وشهر لا يمكننى تسميته ، ويوم مجهول الاسم ، لم اعن بالسؤال ، وفيما يبدو أن هذا من نذر اليأس ، واليأس خطوة تجاه النسيان ، أدركت أنه يوقفنى فى موقف اللقاء والتلقى ، حيث درجة أخرى من العذاب المتزلزى والذي ألتقاه صاعراً ، هذا موقف له علوم جمّة ، منها علم الجمع والكثرة ، وعلم الفرقة ، وعلم الطول والعرض ، وعلم الأصل والظل ، وعلم الزمان ، وعلم الظن ، وعلم الحشية ،

وعلم الجهل بما ساقى . له من لحظات النهار لحظة انبلاج الصباح ، ومن الرياح ربيع المبوب ، ومن درجات روائح الأزهار الرائحة الولود ، وله من الوضع الإنسانى التحديق ، ومن حركات اليد السلام والمصافحة ، وله من الأحوال الدهشة والحذر معاً ، والمزلزلة المقابل له فى الديوان منزل ما كان وما سيكون ، علمت من الإلقاء فى معارفى اننى فى زمن لم أولد فيه بعد ، واننى ما زلت مشتتاً بين العناصر ، ولا وجود حسيّاً لى ، إنما أنا هنا بوعىي القديم ، وإننى أنتظر أبى ، وإننى سأصير ضامماً ، ومضموماً ، وقبل أى فرصة للاستفسار تطلعت إلى مدخل الميدان من الناحية القبلىة ، عربة نقل الموتى ، تتوقف ، يفتح بابها اليمين ، منه يتزل أبى ، عند وقوع بصرى عليه اصبحت أنا هو ، صرت أنا أبى ، صرت المصباح والمشكاة والفتيل والزجاجة واللهب معاً ، أشعر بتعب الطريق وغباره وخوف من الأرض التى لم تطأها قدمائى من قبل وشوق لزيارة ضريح الحبيب الحسين ، وآل البيت وتساؤل عما سيحدث لى واين أكون فى مثل هذه الساعة عندما يحىء الغد ، ومن يمر الآن ، بالضبط الآن فوق الجسر المؤدى إلى المنحنى فى البلدة التى صارت بعيدة ، نائية ، وحذر من أهل السوء المتريصين بالغرباء ، وقبل هذا ويعدده ود عميق تجاه السائق العجوز الذى اقتسم طعامه المصروع فى متدليل أحمر كبير معنا ، وطوال الطريق كان يفسح لنا مكاناً إلى جواره فىلملم جسده ليتسع المقعد المستطيل لى وللماخوت صاحبي ، وكلمنا مررنا ببلدة أو مدينة كبيرة عرفنا بها وحكى لنا عنها ، وقص علينا بعضاً مما جرى له فيها ، توقف بنا أمام المقاهى الصغيرة التى تقع خارج المدن ، ودعانا للترول ، وأقسم ألا ندفع مليماً واحداً مقابل الشاى وشورية العدس الساخنة ، يقول لنا : أنتما مقبلان على غربة ، والغربة تحتاج إلى كل ملهم خرجتما به من البلدة ، كان فرحاً بنا ، وطوال الطريق الطويل ، لم يتوقف إلا أمام دكاكين

الخانوتية الذين يعرفهم واحداً ، واحداً ، يبادلهم السلام والمودة ، ويسألهم عن الحال والأولاد ، يقدمنا إليهم وكأننا أعز الناس عنده ، قال لنا إنهم الوحيدون الذين يمكن له التوقف عندهم ، وأن يأتس بهم في سفره الطويل ورفقته للموتى حيث لا يقبل أحد على مشاركته فيه بعكسنا نحن ، كان يشير إلينا ويقول ، إخوانى فى الطريق ، رجل طيب ساقته العناية إلينا ، خفف عنى الضيق ، وهون بداية غربى فى بلدنى التى لم تسعنى وغلقت ضبات أبوابها فى وجهى ، وسقتنى المروءة على أقرب القلوب . يفتح باب السيارة الأيمن ، يقول : ربنا يجعل البركة فى سكتكم ويسوق إلى طريقكم أولاد الحلال ، قلت : يهون علينا فراقك يا شيخ لكن هكنا حال الدنيا ، ثم لاحظت أن الماخوت صامت فخفت أن يظن الرجل الطيب الجفوة منه ، قلت : يعنى لو نزلت انا وعمر صاحبى إلى بنا كيف نستدل إليك ؟ يضحك ، فى بنا حانوتى واحد ، اسال عنه ، ستجلى ، قلت : والله يا عم لو فتح الله على ورزقى باللحمة الحلال سأجىء إليك وأزورك. يضافتنا ، تهتر عندما يديرها ، ألمح من الطاقة الضيقة طرف النعش المثبت إلى الأرضية ، يشير إلينا بذرعه ، .. السلامة ، استدير إلى الميدان الفسيح ، وزحمة الخلق من كل جنس ، آه .. كبيرة ، واسعة والله يا مصر ، سككك لا أول لها ولا آخر ، ربنا يقسم لى اللقمة الحلال فىك ، ويغنىنى عن سؤال الناس ، ولا يجوزنى إلى أحد ، ضرورك كثيرة ، والرزق فىك ، والأزهر ، والعلم ، ساعدنى يارب على أن احفظ كتابك ، وأفهمه ، وأكون من قرائه ، وغطى بالستر ، مبنى كبير حوله سور من الحديد ، المباني عالية ، والشوارع صلبة الأرضية ، والناس كثيرون ، أسأل واحداً منهم ..

.. وهنا أصبحت أنا أبى ، وأصبحت كذلك الرجل الذى سأله أبى ، كنت

كاتبًا عمومياً في طريق إلى المحكمة الشرعية لأقعد في نفس المكان الذى لم أغيره منذ عشرين سنة ، حافظتى تحت ابطى ، أوراق التفتة الرسمية ، والورق الأبيض ، وعلبة صغيرة في جيبى ، فيها الختامة ، وقطعة ورق صغيرة ، لتجفيف المداد ، تقدم منى قروى صعيدى في عمر الشباب . سألتى عن مبنى محطة مصر ، أشرت إليه بسرعة ، فقال : أكثر الله خيرك . بعد أن تجاوزته التفت ورائى ، ورأيته يتحدث إلى زميل له ، فقلت لنفسى ، ربما يتزلان مصر أول مرة ..

تطلعت بعينى أبى ، ولاحظت أن الماخوت قلق ، لا يستقر على حال ، شارد بفكره فنويت أن أسأله ، خشيت أن يكون شيء ما قد ضايقه منى ، أردت أن أخفف عنه فسألته ، هل تخاف المدينة ؟ أم تعمل ألف حساب وحساب لأيام ما زالت طى الغيب ؟ أم يفكر فى الأهل الذين فارقهم فى البلدة ، رجوته ألا يعول الهم ، قلت له إن اللقمة لو عزت فسأحرمها على فى وأعطيها لك ، وأن الهدمة لو ضاقت سأخلعها عن جسمى وأعطيك بها ، قلت له إن من خلقنا لن ينسانا ، يا رجل كن خلى البال .. ، قاطعنى فجأة .. اسمع يا ولد خوى ..

نطقت بلسان الماخوت ، وهكذا اطلعت على النية المضمرة ، والرغبة المؤجلة ، قلت بلسانه مؤجلاً الافصاح عن حقيقة ما فى باطنى .. تعال يا أحمد ، نفطر فى أى مطعم ونشرب شاي مصر .. قلت بلسان أبى : قروشنا قليلة ياماخوت ..

يحدثنى قلبى - قلب أبى - بأن الماخوت يخفى شيئاً عنى .. دخلنا إلى معظم فول وفلافل ، أول لقمة تقسم لى فى مصر ، بسم الله

الرحمن الرحيم ، اللهم اجعلها مباركة ، من مكاننا نرى الراح والغادى ومبى محطة مصر ، منه تقوم القطارات وإليه تصل ، لا أعرف اليوم الذى سأقف داخلها وانتظر القطار إلى طهطا ، إلى جهينة ، قلت ..
والله لم يكن هناك «داعى» ..

نظرت بعينى الماخوت ، وصار فكره فكري .

« .. بعد أن تنتهى من الأكل سادف الحساب ، لن أطلب منه مليا ، عندما ألقى نفسى فى لحظة مناسبة أقول له ، مع السلامة ، لكل منا طريق ، لم ولن أصارحه بعنوان المعلم هريدى فى حلقة-السملك ، أنا لا أعرف هذه الحلقة ، ولكننى سأسأل ، ومن يسأل لا يفضل . المعلم قريبي وميساعدنى ، ويمكنه أن يلمنى فى الأيام الأولى ، يستضيفنى ، حتى أن لم يتسع لى بيته أنام فى دكانه ، وثقل واحد ليس كمثل اثنين ، لو ذهبت إليه مع أحمد ، ربما قال : لم يكتف بنفسه ، إنما جاء معه بشخص آخر ، وهذه عيوب أهل البلدة ومتاعبهم وبلاويهم ، بعد خروجنا من المطعم يبدو أحمد راضيا ، لكن قبل أن ينسى العزومة ، وقبل ضياع اثرها ، أقول ..
شوف يا ابو خاله ..

اصغيت بأذنى أبى ، وسمعه وقلبه الذى بدأ يدرك ويفهم ، مثل هذه اللهجة تنذر بحسم ، بقول فصل ، اصغيت إلى الماخوت ، يقول إنه يجب أن يفارقنى هنا ، وأنه سيقوم بمشوار ربما كان فيه سبب لرزق كلينا ، شعرت أننى شقى ، سأحرم من الصبحة ، وسأقابل مصر وحيدا ، الماخوت يكذب على أنا من قرصتنى الأيام ونالت منى ، أفهم ذلك ، لقد رتب أموره من جهينة ، بيت النية لكنه لم يفضض لى ، ولم أشأ أن اثقل عليه ، ولا أن أمنعه ولا أن أحوش عنه رزقه .

ربنا يسهل لك ، فرقتك صعبة لأننا مشيناها معاً ، لكن رح شوف نفسك ..

سمعت الماخوت بأذنى ابى .

يوم أو يومين وأجىء إليك ..

يكنب على ، اين سيجيئنى ؟ أنا الذى لا سقف يغطيه ، ولا عنوان لى ، ولا وجهة ، يصعب على أن يتركنى ، يتجعد حلقى ويتمرر ريقى لكنى صافحته ، وتمنيت له السلامة ، وأوصيته بنفسه خيراً وأنا بحاجة إلى من يوصينى بنفسى ، ورجوت الكريم الحليم أن يبعد عنه أولاد الحرام ، يهز رأسه ، يعطينى ظهره ، ويسرع كأنه يتمنى لو غاب عنى بسرعة ، نسى حتى أن يصفافحنى ، إلى من الآن؟؟ إلى أين؟؟ سأمسك نفسى ، وأسأل عن الطريق إلى مقام الحسين ، أزوره ، وأطلب منه الحماية ، وأن يتببه إلى فى غربتى ، وأن يبعد عنى أولاد الحرام ، فأنا بلا أم ، بلا أب ، ولا أحد يعنيه أن يسأل عنى أو يستقصى أحوالى ، ولو ضربنى ، لو صدمنى هذا الترام ، أو تلك العربى ، فسأروح على نفسى ، وينتهى خبرى ، مقطوع من شجرة ، وأنا لا أعرف المكتوب لى فيك يا مصر .

وهنا صرت فراشاً يعمل فى متجر أقشة ، ومنيفاتورة ، أمضى إلى البوستة لأشترى عدة طوايع ، عندما اعترضنى قروى ، صعيدى ، تفوح منه رائحة البلدة طازجة ،

- أين الطريق إلى الحسين يا عم ؟

يبدو حائراً ، ولولا أنى فى عجلة ، لضحكت منه ، وسليت نفسى ، قلت له ..

- يظهر أنك صعيدى بشوكك ..

ينظر إلىّ ، كأنه لم يفهم ، بسرعة أشرت بيدي إلى اتجاه ميدان العتبة المؤدى إلى مقام الحسين ..

.. وللحظة عابرة عجبت ، وحزنت لأننى خاطبت أبى بمثل هذا اللسان المعوج ، ولأننى ضايقته وإن لم يبد عليه ذلك ، ضقت وإن كان لسانى لسان غيرى ، لكن ما الحيلة ، وهذا ما جرى ، وهذا ما قدر لى أن أمر به فى هذا الموقف الغريب ، أصبحت أبى مرة أخرى ، تتبعت الرجل بنظرى ، لا بد أن أسأل شخصاً آخر ، لكن بعد أن يمتحنى هذا عن نظرى ، ربما يفضلنى ، ألم يضحك منى؟ آه منكم يا ناس مصر. مثلى الآن كعود ذرة فى غيط كمون ، لا أحد ينتبه إلىّ ، والشوارع تضيق بمن فيها ولكنهم بعاد عني بعداً نافرماً ، الغريب فى جهيته إذا ظهر عند الجسر يلتف الناس حوله ، ويدلونّه ، ويستضيفونه إذا اقترب الليل ، ويطعمونه إذا كانت ساعة الطعام ، لكن كل من أراهم حولى غرباء عن بعضهم ، ياه ، الميدان فسيح ، عريض ، سأسأل أى أفندى ، لكن قبل السؤال لأملأ عيني ، فهذا أول ما أراه من مصر ، مصر التى لا أعرف المقسوم لى فيها .

« .. هنا وقع لى أمر عجيب ، وهو من أسرار هذا الموقف ، أنا أبى ، اعتدت هذا وأنا أعرف كل ما عاناه . لكننى صرت أبصاً كل ما وقع عليه نظره أول مرة ، فكنت ولم أكن ، انطق فى سكوتى ، واسكت فى نطقى ، امشى فى وقوفى ، واقف فى مشى ، صرت صبيّاً حافى القدمين ، ممزق الجلباب ، يمسك علبه من الصفيح ، وكنت قلب أبى الذى اشفق عليه ، صرت حلالاً عجوزاً ، هرمّاً ، فوق ظهره جوال ثقيل ، يحكم توازنه فوق ظهره ، وصرت سائق حنطور يجلس منتظراً ، وعندما نظرت إلى هذا الصبيدى الحائر لم أعن بالتوقف عنده ، فنظره لا يدل على أنه سيركب ، إنه واحد من هؤلاء الذين يظهرون كل

يوم في الميدان ، وبعد فترة تطول أو تقصر ، ربما يطوف بالمقاهى حاملاً سلة فيها السميطة والجبن والبيض ، وربما يطوف حاملاً حقبة بها قمصان ، وملابس داخلية ، وجوارب قطنية ، وأمشاط ، وربما يصادفه الحظ فيصير معلماً له صولة وتطل من فمه أسنان ذهبية ، ويمتطي في المساء «كاريتا» يجرها زوج من الخيول المدللة غير التي يمتطيها في الصباح ، حظوظ وأرزاق ، صرت السؤال الذي جال بخاطر أبي. ترى كم يأخذ مني لو أوصلني إلى مقام الحسين؟ وكنت الاجابة أيضاً : لا داعي يا أحمد ، ادخر قروشك للأيام القادمة ، لا أحد يعرف ما ينتظرك. صرت نشالاً يتأهب لركوب الترام ، وصرت بصاصاً يرتدى معطفاً وجلباباً ، وصرت جندياً نوياً من المهجانة ، وكنت خاطرة في فؤاد أبي ، هل يوجد المهجانة في مصر أيضاً؟ ، وكنت الصورة التي تداعت إلى ذهنه ، عشرات الجنود السود يركبون الجمال ، يهاجمون القرية ، يصرخون ، ينادون الرجال بصيغة الأنثى ، خشى بيتك ، خشى بيتك ! صرت امرأة ترتدى خلخالاً ، صرت بائع ترمس يرص قراطيس الورق في صفوف طويلة فوق عربة اليد الخشبية وكنت المشتري ، صرت فاكهياً ، وصرت بواباً لفندق عتيق من طابقين ، وكنت السؤال : بكم اقضى الليلة فيه إذا ضاق بي الحال ؟ صرت بقالاً ، وزبوناً وحيداً في مطعم ، وجندياً للمرور ، وسائقاً لعربة كبيرة وسائقاً لمركبة صغيرة ، وراكباً للدراجة ، وسائقاً لزام يرتلى الطربوش والحلة الصفراء يضع منديلاً حول عنقه ، صرت سائقاً لقطار يعبر الطريق متجهاً إلى محطة مصر ، وفتاة صغيرة تدحرج طوقاً ، وشيخاً عجوزاً يسمى ليؤم المصلين ، وبائع مخطوطات قديمة وتلميذاً يشوط حجراً صغيراً ، وبائعاً لحلوى غزل البنات ، وكودية زار ، وموسيقياً يحمل عوداً مغطى بقماش أخضر يتجه إلى مقهى لينتظر أصحاب الأفراح والحفلات ، لعل وعسى . صرت مدخناً لرجيلة يجلس أمام

دكان يبيع علب القطيفة الفارغة ، وصباغ أقشة ، وجندياً من قوة المطافئ ،
ومستشاراً يمشى فى تودة ، وامرأة شابة جاءت هاربة من قرينها بالوجه
البحرى ، تحاول ان تبدو ثابتة غير وجلة حتى لا يطمع الطامعون ، ولا تلفت
النظر ، صرت عاملاً فى البلدية يشعل مصابيح الغاز عند الغروب ويطفئها بعد
انبلاج الضوء ، وباشا بدينا يرتدى الطربوش وبدلة التشريفة يركب عربة
مكشوفة ، كنت نسمة هواء رطبة تخفف تعب أبى ، كنت حدقتيه المتسعين .
لكل ما يراه بدهشة بكر ، كنت الدهشة نفسها ، والسؤال الحائر ، والالاجبة
المبهمة ، والأحاسيس الغامضة ، والخوف الغض ، كنت خطاه المسرعة إذ
يعبر الطرقات ، وخطاه المتمهلة أمام كل جديد يراه ، وخطاه الساعية ، كنت
مواطئ قدميه ومدرجة جسره ، والأرصفة التى مشى عليها ، ومداخل البيوت
التي مربها ، وجدران البيوت التى تطلع إليها ، وحشائش حديقة الأزبكية التى
استراح فوقها ، كنت حجراً ، ونباتاً ، ولافتة منسية ، كنت انحناءة ، ولفنة ،
وإيماءة وجلى ، وانطباعة أولى ، وخاطرة ، وحيرة ، وتساؤلاً ، أى تصرف
يجب أن يفعله ، وأى حديث ينبغى التفوه به ، كنت الحففة المباغتة التى تعقب
الحشية ، والإدراك بأن قسماً من العمر ولى ، ولن يرجع ، وكنت الحسرة التى
تعقب ذلك ، كنت للرغبة من غد آت ، وكنت وهن الساقين ، والظلمة ،
والتضيق الصامت إلى مرقد الإمام الحسين الذى سيصل إليه أول مرة بعد قليل ،
كنت كل ما عاناه أبى فى هذه اللحظات الأولى ، وهذا عذابى فى ذلك الموقف .

موقف كان وسيكون ..

رأيت المشرق والمغرب معاً وانكأت على الموضع الذى تغرب فيه الشمس

.. وهذا موقف تتنوع فيه الأسباب ، تبدو واضحة أحياناً ، وتدق مرات أخرى فنحنى ، البعض تكون راحته فى لقاء محبوبه ، والبعض تكون راحته فى قهر عدوه ، ومنهم من تكون راحته فى القوت ، وأنا جميع هؤلاء ، أحطت علماً قبل الوقوف اتنى سألنى حبيبين ، وسيظل الحبيبان واحداً ، واننى سأنعم بالقرى بقدر ما سأشقى بها ، لأن كل ما رأيته وسأراه زائل ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، سبحان من ألقى بى فى ذلك الموقف الغريب ، فيه اتخذت صورة غير صورتى ، وهيئة مغايرة لميشتى ، ثم دفع بى إلى زمن غير زمنى ، لكنه زمن عجيب تتجاوز فيه الأزمنة ، فتمة ما أراه من عصر مضى ، وشىء آخر أراه لكنه من زمن لم يحن حينه بعد ، والزمانان متجاوران ، وأنا بين البينين ، لا يمكننى إدراك فى أى زمن منها أعيش ، وحتى لا يقع اضطراب ، ولا يحدث شتات ، فأنا حريص عليك أيها المطلع الليب ، أذن لى إمام المجاهدين ، بشرح موجز بسيط ، فمن ذلك أقول ، إننى جئت زمن أبى القديم ، جئت وأنا رجل تجاوز الخامسة والاربعين ، وهذا عمر لم أبلغه عند بدء تدوينى لتلك التجليات ، سواء فى التدوين الأول الذى مزقته ، أو التدوين الثانى الذى لم يته بعد ، كما أنى لا أدرى هل سأطيل إلى هذه السن ، أن ينقطع حبلى قبل ذلك الحين ، ذلك أن ما عشته كان صعباً ، كما أن عصرى

كان قهراً ، تراكم على وعلى زمنى سوء الحظ فخبنا ، وتمكن من ربوع وطنى
الدينس والانكسار ، فيه بارت بضاعتى وكسدت سوقى ، كتمت صراخى ،
وتجنبنت انتهاكى ، وهدد اللثام عرضى ، دار قومى مع الأخف الأسهل ، ونأوا
عن كنف التزاهة ، وظنوا فى ابتعادهم عن طوارق الحداث راحة وأماناً ،
استكانوا إلى مواقف الحزى والاذلال ، وقنعوا بالمتيسر من الحال ، ونجاهلوا
الحكمة ، ونأى الأنس ، وانتفت المودة ، أما المحاسن فقد فرت ، والفضائل
كسيحة ، والآمال عائرة ، والمستقبل مسدود ، اعذرني أيها المطلع اللبيب إذ
كنت أفيض وأسهب ، فتلك مراسم حالى فى زمنى الأعوج ، وهذا حديث
يطول ، ويعلنى عن مقصدى ، فاسمح لى بالعودة إلى ما كنت على وشك قصه
وروايته ..

كان وسيكون

.. وهكذا وجلت نفسى فى الخامسة والأربعين ، وأنا لم أولد بعد ، كنت
مشرفاً على قرن كبير من أفران الحاج الرمالى عندما جامعنى رجل من نواحي بلدنى
يصحب شاباً حياً ، حديث عهد بمصر ، قال لى إنه يرجونى مساعدة أحمد
هذا فى الالتحاق بعمل ، أى عمل يأكل منه « عيش » ، يقيه حاجة السؤال ،
ويبعده عن أولاد الحرام ، أحد أقاربه ضحك عليه وسلبه الجنيئات التى ادخرها
وجاء بها من البلدة يضمها إلى صدره بعد أن خيط عليها بالابرة والفتلة ، وعده
هذا القريب الجانى أن يساعده فى الانضمام إلى طلبة الأزهر ، ثم راوغه ،
وماطله ، حتى كاد أحمد ان يمد يده إلى الناس ، لكنه لم يفعل فهو عزيز النفس ،
تقلب فى أعمال مضنية ، قاسية ، إذ عمل حمالاً يفرغ الأحجار من المراكب فى

مرسى روض الفرج ، وعمل فى ذكان عصير قصب ، يكسر الزعازيع ويقشر
العيدان ، وعمل فى مصبغة خيوط ، لكنها أعمال لم تدم ، كلها مؤقتة ، قصيرة
الأجل ، كما أنه طامح إلى بدء تعليمه فلعل وعسى ان يجد فسحة من وقت ،
حدثت ببصرى ، وكان بصرى يسمع عنى ويرى ، فكنت أرى أبى فى مخزن
القصب عندما يذكر الرجل ذلك ، ويحل بى تعبته ، وأرى ساقيه ترتعشان فوق
السقالة الممتدة من شاطئ النيل إلى المركب ، فأنوء بثقل الحجارة ، وتزكم أننى
رائحة النيل فى المصبغة ، حدثت إلى أبى ، وكتمت حنى كما يدرأ الغريب عنه
هجمات الحنين إلى وطنه ، سألت أبى الذى لم يصبح بعد أبى ، أى تعليم
يقصد ؟ فقال إن الله لو أذن له فسيتعلم القراءة والكتابة ثم يرجع إلى البلدة
فقياً ، وأن إقامته فى مصر مؤقتة ، مصر بلد كبير ، والغريب يضع فيها ، وهو
لم يخلق للعيش هنا ، إنما غايته العودة إلى جهينة ، وهنا وقع لى كشف
خاطف ، فاطلعت على قبس من خبايا أبى التى لم أقف عليها قط فى حياته ،
رأيت كيف أنه عاش منذ يوم وصوله إلى مصر ، وحتى يوم رحيله الأخرى وهو
يعتبر أن إقامته فى مصر مؤقتة ، نفلت إلى ترددات صوته الخفى ، فسمعت فى
حقب متتالية ..

سأتعلم وأرجع ..

بعد عملى فى الوزارة سأطلب نقلى إلى البلدة ..

بعد أن يتعلم الأولاد فى مصر سأرجع إلى البلدة ..

بعد تخرج جمال .

بعد تخرج إسماعيل ، بعد أن أطمئن على نوال ، والصغير على ..

بعد انتهاء خدمتى لا مقام لى فى مصر ، الأولاد كبروا وتشاغلوا عنى ..

سأسافر لأموت هناك ، فى الأرض التى خرجت منها ، فلا أكلف أولادى

عناء دفتى وجنازتى ، وأرحل خفيفاً لملاقاة ربى ..
ولم يتحقق ذلك قط ..

عرفت من هذا الكشف ان أبى عاش فى مصر أربعين أو خمسين سنة ، وان هذا العمر الكامل كان موقتاً عنده ، لهذا لم يختلط بناس مصر ، ولم يتزوج من مصر ، وصان لهجته الرفية ، وسعى دائماً إلى أهل بلده فى مصر ..

وهنا انتهى الكشف الوامض ، الحاطف ، عدت إلى أبى ملوماً ، محسوراً ، منشفقاً ، لكننى لم أبد ذلك ، قلت له إنه سيركب فى كل يوم عربة يجرها حصان ، عربة خضراء مغلقة ، لها بابان خلفيان يغلقان ، برتاج حديدى ، داخلها أرفف فوقها أقفاص الخبز ، خبز مستدير ، طازج يجب ان يصل إلى البيوت ساخناً ، وهذا يقتضى السرعة ، والخفة ، والأمانة ، هذه عربة الرواتب ، أما البيوت فلناس من علية القوم ، لهم مقام وجاه ، ستمضى إليهم ثلاث مرات يومياً ، خبز الافطار ، والغداء ، والعشاء ، جولة طويلة ، ينتهى اليوم فيرجع إلى القرن متعباً ، مرهقاً ، ينتحى ركناً قصياً اذنت له بالنوم فيه عندما علمت أنه لم يتخذ مسكناً بعد ، قبلت على وعد منه ان يبحث عن غرفة ارتحت ، ثم وثقت فيه عندما علمت بجده فى البحث عن مأوى . ثم تبدل خاطرى . نظرت إليه باعتباره أبى الذى سيكون ، فترقرت حناناً ، غير أنى لم أكن قادراً على اخباره من أكون . لم يُسمع لى بذلك ، وعندما تشدد رغبى ، وتقوى ، حتى انى أشرع فى ذلك على الرغم من عدم الأذن لى ، وأتأهب لإخباره بحقيقتى وبما هو آت ، يثقل عندئذ لسانى ، ويضيع منى الكلام ، فيتملكنى الهت ، وتقوم الحجب أمامى ، فانقطع عن المستقبل ، وتعمى رؤيتى ، وتتعثر أفكارى . ثم تبدلت هيئتى ، وتغير الموقف علىّ ، أصبحت أنا السائق ، أمسك الأعنة ، واسوط الجوادين ، أتوقف أمام البيوت حتى ينزل

أحمد - الذى هو أبى - يفتح الباب الخلفى ، ويتناول الراتب المخصص ، كنت أقرب همته وأراه يغض البصر حياء عند الوقوف أمام الأبواب المفتوحة ، مع أنها أبواب خارجية تؤدى إلى حدائق أو أفنية فسيحة ، لكن مما لفت نظرى وشد انتباهى سؤاله عن أصحاب البيوت ، من باشوات ، ومشايخ ، ورجال علم ، وتجار كبار ، عن عائلاتهم ، وأصهارهم ، عن حوادث كبيرة اشتركوا فيها ، يبدولى دائماً وكأنه يضمراً مراً ينوى التعبير عنه لتوه لكنه لا يفعل ، يشرق وجهه ويصفو عندما تقترب من ميدان الحسين ، فى كل مرة يقول ..
شاء الله يا حسين ..

إنه يستجير به ليحميه ، ويدراً عنه الضيق ، ويعد عنه أولاد الحرام ، كنت اصغى إلى حكاياته العديدة ، عن رجال من جهة ، وأصحاب بيوت كبيرة ملأوا الدنيا هبة ، اختالوا وزهوا وأفاضوا بكرمهم ، وسخائهم وانحنت لهم الجباه ثم رحلوا ، بعضهم لم يخلف أثراً يذكر ، وبعضهم خلف ذرية فاسدة ، بعد جولتنا اليومية نعود معاً ، يصحبنى إلى الأسطبل ، يحل الحصانين ، ندفع معاً العربة إلى ركنها ، ثم نمشى معاً ، يعود بمفرده إلى الفرن . إنه متعب ، مرهق ، يأكل عشاءه البسيط ، الذى لا يتغير إلا فى أحوال عابرة عند ذهابه لزيارة شيخ جاء من جهة ، أو إلى فرح ، إذا دعى إلى العشاء يتناول عندئذ المرق ، واللحم ، والفطير ، أما عشاؤه اليومي ، فرغيف من خبز الفرن ، وقطعة جبن ، وقرن فلفل ، أو شريحة خيار مخلل ، يدخل الفرن ، يمتلئ فراغها برائحة الوقود والدخان ، والعجين المتخمر ونشارة الحشب ، يصعد فوق طاولات العجين يقرب الطاولة الأخيرة حتى لا تلتصق بقايا العجين وذرات الدقيق بمجسده وثيابه وهنا وقع لى كشف بطنى ، متأن ، لكنه ثاقب ، نافذ ، له عندى تأثير عظيم ، وبمقتضاه اطلعت على بعض من خواطره الليلية ،

والأصوات التي اعتاد سماعها ، ومنها ديب فتران ، وصرصار ليل ، وصفير غامض يتردد في ساعة معينة ، وخطوات تقترب ثم تبتعد ، وباب يفتح ثم يغلق في مكان ما ، ونداء مجهول ، وخطوات جندى الدورية ، يتأكد من مائة أقفال الدكاكين ، وآهة مكتومة ، وصفير قطار يعبر الخلاء البعيد ، صوت الحنين ، وأذان الفجر من المسجد القديم ، عسمة الليل ، وأصواته المبهمة التي ربما يبعث بعضها من أعماق الكون السحيق ، وتنفس الصباح ، عندئذ يقوم متحمساً طريقه في عتمة القرن ، متجنباً التعثر في الأواني والطاولات والحواجز إلى حوض المياه ، كان محظوراً عليه إشعال عود تقاب ، أو أى ضوء خوفاً من الحريق ، ولم يكن قادراً على مغادرة القرن لسببين خشية من اللصوص ، ولأن الباب مغلق برتاج خارجي ، كان أشبه بالحبس ، أما الخواطر الليلية ، والتي تبدأ عقب تمدد جسده المنهك ، وإغماضه عينيه ، وتلاوته الفاتحة ليعبد عنه الشياطين ، مرت أمامي خواطره خلال هذا الكشف ، وكنت أراها كما تراءت لخيلة أبي ، تماماً ، تثير عندي ما أثارت عنده هو لحظة ورودها عليه وفراقها له ، فإذا كان التأثير حزناً حزنت حزنه ، وإذا كان حنيناً - وهذا هو الغالب - حننت حنينه ، وإذا كان مرحاً وبهجة ابتهجت مثله ، وإذا نفّس عن ضيقه بنطقه فجأة : يا كريم ، يا حلیم ، مدد يا حسين . أو غنى فجأة ، أو ضرب ركبته بقبضة يده ، كنت أفعل مثله ، أما عن خواطره فعرفت منها حنينه إلى الجسر ، وأيام الدميرة ، ورائحة التين العسلى ، ومذاق البلح الناضج المتساقط تحت النخيل ، وتخييله لنخلاته التي اغترب عنها ، وأوان نفضجها ، وجمعه السويطات وزهابه بها إلى الرجل الطيب الباشجاويش أحمد حسين الذي انقذه من الموت ، وعلى يديه كتب له عمر جديد ، اين هم الآن ؟ كذا امرأته الطيبة ، انعم الله عليها بالخلفة ، كل ما يتمنيانه أن ينجبا طفلاً أو طفلة ، والله

سيدعو لها عند مقام الحسين بعد صلاة الجمعة القادمة ، وعندما تسمح الظروف ، ويرضى عنه الحال ، ويسافر إلى جبهة ، وسيعرج في الطريق إلى بلدة الحاج قنديل شرق النيل ، سيشتري صابوناً ، وأرزاً وقماش جلباب للمرأة الطيبة التي حنت عليه كأم ، وقدمت إليه اللبن والخروطة في الصباح ، سينزل من القطار في دير مواس ، ويعبر النيل إلى الحاج قنديل ، سير الرجل لرؤيته ، وعندما يحىء ناس البلدة لتحيته يقول أمامهم ، ان عمراً جديداً أكسب له على يد عمه أحمد حسين ، سيجلس متأدياً بحضرته ، ولن يضع ساقاً فوق الأخرى أمامه أبداً إذا جلس على ذكة ، ولن يمشي أمامه ، وعند فراقه سيقبل يده كما يقبل الابن يد أبيه ، وعندما يركب القارب يقول له بصوت عال ، ادع لى . ثم يبحر القارب ، ويلف الشاطئ غام ، وتناهى ملامح الطيبين ، ومن الملامح يبدو وجه السائق الطيب الذى اصططحبه من طهطا إلى مصر ، لو مر بينها سيميل إليه ، بها قرية من مصر ، قد لا يذكره الرجل ، يقول له ، أنا من ركبت معك ، كان معى صاحبي . ترى ما حال المانخوت الآن ؟ لم يره منذ زمن ، لكنه سمع بأخباره ، يرددها ناس جبهة الذين يلتقون بعد صلاة الجمعة في مقهى العجم أمام مسجد سيدنا الحسين ، بعد أن عمل أياماً معلودات مع هريدى تاجر السمك ، سمع يوماً قائلاً يقول إنه ذاهب إلى معسكرات الجيش الإنجليزى فى العباسية ، فسأله ، أتصحى معك ؟ ، أوماً الرجل ، ذهباً إلى هناك حيث أقيم مزاد لبيع أشياء قديمة ، هياكل عربات ، وصناديق ، وملابس ، قروش المانخوت قليلة ، فى نهاية المزاد بقى صندوق زجاجى تطل منه اسلاك وأنابيب قصيرة ، وقال آخرون إنه جسم غير معروف من حديد وزجاج ، اشتراه المانخوت بجنينه وثلاثين قرشاً ، ربما أعجبه منظره ، ربما هذه الروح الغريبة لديه ، عند باب المعسكر نزل رجل بدين من عربة ملاكى ، دخل ثم عاد

مسرعاً ، لحق الماخوت عند مفارق الطرق ، سأل : بكم اشترت هذه ؟ قال
 الماخوت كذباً - هكذا يقولون - عشرة جنيهات ، قال البدين ، خذ .. هذه
 عشرين ، أعرض الماخوت عنه وأولاه ظهره ، قال البدين ملهوفاً ، هذه
 أربعين ، خطا الماخوت مبتعداً عنه ، من هنا إلى هناك اخرج البدين ثلاثمائة
 جنيه وأقسم أيماناً مغلفة انه لا يمتلك الآن مليماً فوقها ، عندئذ استدار إليه
 الماخوت وبل طرف اصبعه ، عد الثلاثمائة ورقة ، ورقة ، ورقة ، ثم سلم الرجل
 هذا الجسم الغريب ، يوشك الآن أن يصبح أكبر من المعلم هريدى نفسه ،
 يقولون إنه اتفق مع فندق كبير على توريد كميات من السمك ، دنيا !
 حظوظ ، ربنا يسهل له ، يبدو قطار قبلى ، القاطرة السوداء تنفث البخار
 والدخان ، يتوالى الهدير المتتابع فى بداية تحركها ، وصفارة غامقة ، منذرة ببداية
 الغربة ، أو العودة ، رصيف المحطة ، كثيراً ما ذهب وتوقف وتابع بعينه رحيل
 القطارات و يودعها بعينه ، حتى تختفى العربة الأخيرة عند المنحنى ، ثم يسود
 الرصيف ذلك الفراغ الذى يعقب رحيل القطارات وانصراف المودعين
 والحمالين ، وموظفى المصلحة ، يخلف هذا غصة وحزن عنده . يعود إلى
 الأزهر ، صحن المسجد المحاط بالأروقة ، وظلال الأعمدة ساعة العصارى ،
 وعصافير تطير إلى أعلى المآذن ، ولملمس رخام الأرضية ، درس العصر ،
 الشيخ صالح الجعفرى ، مهيب الهيبة ، يسند ظهره إلى أحد الأعمدة فى الباحة
 المغطاة ، مهيب الهيبة ، يحيطه المريدون ، رجل صالح وله بركة
 وكرامات ، جاء من السودان ، ولم يفارق الأزهر إلا للصلاة فى مسجد الحبيب
 الحسين ، سيجىء يوم يمكنه الانتظام ، متابعة الدروس ، فهم كل ما يقال ،
 لكن قبل هذا كله يجب فك الخط ، واتقان القراءة ، لعن الله الحظ العاثر ، لو
 أن لديه فائضاً من الوقت ، على أية حال هذا عمل مؤقت ، سيدخر من القروش

الأربعة قرشاً كل يوم ، حتى يمكنه أن يتفق على نفسه ، سيعيش بأقل القليل ، والحمد لله ، لا أحد وراءه ، ولا أحد أمامه ، ما من مسئولية تثقل عاتقه إلا مسئولية نفسه ، تختلط الشوارع المؤدية إلى الأزهر ، إلى الحسين ، إلى جهينة البعيدة ، تتداخل المقاهى ودكاكين المانيفاتورة ، والسجاد ، والنحاس ، والفضة المصقولة ، والفلاحات الجالسات على الرصيف ، أمامهن اقفاص الفراخ ، وأواني الجبن القريش ، وقرب مملوءة باللبن الرائب ، وأكوام البصل الأخضر ، وأقراص الحلوى ، والملاعق اللف ، الأرداف واضحة المعالم ، البراقع ، اليشمك الذهبي ، وجه مستدير وعينان مكحولتان ، نساء مصر ، أه منهن ، يوماً ما سيكون له بيت ، وامرأة تنتظر عودته ، واطفال يتהלلون عندما يرونه ، يتعلقون به ، يمتطون ظهره ، يحبو بهم ، يصحبهم إلى الحدائق ، إلى الحسين ، إلى مقهى العجم ، إلى المتحف ، إلى المعارف والأحباب ، أطفال لا يعرفون الشقاء الذى عرفه ، ولا الغلب الذى ذاقه ، إذا طلبوا منه ورغبوا اتي إليهم بما يطلبون وبما يرغبون ..

عند هذا الحد انتهى الكشف ، أغمض أبى عينيه نائماً ، ولم يكن من اسرار هذا الكشف الولوج إلى احلامه ، أو الاطلاع على مكوناتها ، انتهى الكشف وعندى ألم عظيم ، آخر صور ترد عليه قبل نومه ، قبل انحلال بقلته ، رؤى قوامها بيت ، فيه امرأة ، وأطفال ، وباب يغلق عليهم معه ، ورائحة طعام تنتظره بعد رجوعه من عمل لم يتضح له .. صرت فى وجد غريب ، معذب لى ، قاس برقته على ، وبعد انتهاء الكشف ذهمنى فوق هذا خوف عجيب ، خاصة واننى لم أدر الخطوة التالية من ذلك الموقف . تعاظم خوفي وتسربت البرودة الثلجية إلى أحماق ، تخلخل عضدى ، واضطرب داخلى ، فكأنى اقف عند نهاية الدنيا وأوشك على الفقد الذى لا اراد بعده ، وعند هذا الحد الذى

كدت أتهاوى معه ، نوديت بصوت هو صوت محبوبة قديمة لى تأنيساً لى ،
فحنت إلى ذلك وتعجبت من سماع هذا اللسان فى ذلك الموقف ، ولم أدر المراد
بى ، هدأت ، ولكن لم يخف عذابى ، ولم تن وحلق ، بعد حين لم أدر
مقداره بان لى عبد الناصر ، وعرفت أنه فى هجاج مروع ، وانه يقاسى
محنأ جمة ، وانه مطلوب ، وانهم جادون فى اثره. وانه يسعى إلى الاختفاء وما
من معين . انه مهجور من صحبه ، من العصر الذى صال فيه وجال ، وقف
وشمخ ، أقام وشيد ، حدثت ، فرأيت يمشى فى الشارع المؤدى إلى القرن ، إلى
حيث يعمل أبى ، وعرفت أن لعبد الناصر فى هذا الموقف وجودين ، فوجود
طبيعى ، من حيث انه طالب فى مدرسة ثانوية بالإسكندرية ، يرتدى الطربوش
والبدلة ، نحيف ، طويل القامة ، كبير الأنف ، إذن .. استطيع تحديد العلامة
الزمنية ، النصف الأول من الثلاثينيات ، لكننى رددت خائباً عندما تذكرت
ان لكل موجود فى هذا الموقف زمانه ، وان الأزمنة متجاوزة ، متداخلة ، فلا
حد ، ولا غد ولا أمس ، ولا فصل ، لا قبل ولا بعد لا علامة ، ولا ظاهرة
طبيعية ، ولا حدث بعينه يمكن اتخاذه علامة ، لهذا لم أعرف ابدا كم مضى
على أبى فى مصر مع أنى رأيت لحظة وصوله ، وعانيت كل ما عاناه جملة وليس
تفصيلاً ، ولا شك ان ذلك لحكمة تحق على ولأمر يصعب وصولى إلى كنهه .
أما الوجود الآخر لعبد الناصر، فوجوده فى تلك التجليات وهذا ملتقى ملئ
بالأسرار ، رأيت يتوقف أمام القرن والوقت غروبى ، والسماء البادية فوق
البيوت حمراء اللون ، والليل متأهب ، قريب ، ويخرج إليه أبى ، إنه يعرفه ،
وآية ذلك انه هتش له ، وصافحه ، ثم سأل ..
جائع ٩.

ها هو يهز رأسه ، يمشى أبى إلى جواره ، اتبين فى هذه اللحظة حفرة طويلة

ممتدة اسفل الجدران يحرق فيها ماء صاف لانتشويه شائبة ، يطلب أبي منه ان ينتظره تحت عمود ينتهى بمصباح غازى لم يضاً بعد ، يتجه أبى إلى دكان يبيع الفول والطعمية ، انه يعرف البائع ويناديه باسمه غير أبى لم أسمعه ، يطلب منه أبى أن يتوصى به لأن ضيفاً عزيزاً نزل عليه من البلدة ، لم يشأ أبى أن يفصح عن اسم ضيفه ، أو درجة قرابته أو معرفته به ، إذن .. يعرف أبى ما أعرفه ، يعرف أنه مطارد ، وان أثره مقتنى ، وان فى صحبته خطراً ، وبالرغم من أن حظى عند هذه النقطة من الموقف كان المراقبة ، والرؤية لا غير ، فقد أتيح لى استعادة بعض مما عرفته ، كان أبى يتأثر ويحزن كلما سمع عن شخص كان عزيزاً ونال الزمن منه ، أو تبدل عليه الحال ، فنسبه قومه ، وهجره الذين التوا حوله يوماً ، استعدت أسفه عندما جاء وزير سابق - نسيت اسمه الذى أخبرنى به - كان يقف بمدخل مكتب الاستعلامات متعباً بشيخوخته ، متكئاً إلى عصاه ، يطلبون منه إبراز بطاقته ، تصادف دخول أبى ، رآه فعرفه ، كان أبى بعد تقدمه فى العمر ، ينادونه : ياعم أحمد ، ولا يستندون إليه عملاً بعينه ، صار يقضى وقته كله فى المصلى ، إما مصلياً ، أو متمدداً فوق الأرض ، راحلاً بعينه عبر السقف إلى مجهول بعيد وكان بعض الموظفين القدامى يطلبون منه أن يقرأ لهم الفاتحة عند مقام الحسين ، عرف عنه فى تلك السنين التى كانت اخيرة بأنه من أحباب الحسين ، يقول أبى لموظفى الاستعلامات : ألا تعرفون معالى الوزير .. تفضل .. تفضل ياباشا ، ينظر إليه الرجل متسائلاً ، وهل تعرفنى يابنى ؟. يخاطب أبى قائلاً : يابنى ، مع انه يتجاوز عمره ، لكن هذا شأن بعض من تولوا المسؤولية زمناً مديداً ، يقول أبى بصوت مرتفع ، صورتك معلقة فوق فى مكتب الوزير .. من لا يعرف معاليك ؟ ، كان أبى يقول لى عند نهاية روايته متأسفاً : تصور .. لم يعرفه أحد ، دنيا ! ، كان يبدو عليه الأسف بعد عودته

من الذكرى السنوية لوفاة زعيم سياسى قديم من الصعيد ، يقول لى : تصور .. إن الذكرى لا يحضرها إلا ثلاثة أشخاص ، حتى أولاده لا يحضرون ، وبعد أن تموت زوجته فلن تقام أبداً . ها هو أبى يستدير حاملاً أرغفة ساخنة ، وجبنا ، وحلوى طحينية ، يتجه إلى عبد الناصر ، يمشیان فى الظل ، يقول أبى لنفسه - وقد وقفت على حديثه الصامت - إنه كان مهدداً دائماً بالفصل ، كان باستطاعة أى مدير أن يفصله لأنفه سبب ، أن يحرمه من رزقه ، ورزق عياله ، لكن بعد أن جاء عبد الناصر انتهى ذلك ، يقول لنفسه كما قال لى مراراً بنفس الألفاظ نفس الإيقاع ، لقد انصف عبد الناصر الضعيف من القوى والفقير من الغنى ، ولولم يفعل ذلك لكفاه ، انه يمشی الآن ، عنده تأثير عظيم ، فعبد الناصر الذى لن يراه الا من خلال زحام الموكب ، مخدول ، مطارد ، الزمن الذى أراه زمن الثلاثينيات ، هذا مؤكد ، فأبى وحيد ، لم يتزوج بعد ، وهو يعمل فى القرن ، وراتبه اليومى أربعة قروش لا تريد وإنما قد تنقص إذا أخطأ . أما عبد الناصر فيمت إلى زمن بعيد سياتى ، يستدعى أبى ما تم فى المستقبل كأنه ماض ، فيصير كل ما سيحدث قد حدث ، وهذا غريب على ، وخارج طاقة مفاهيمى المحدودة . ومداركى الإنسانية ، ولم أفهم أبدا ، كيف يمت كل منها إلى زمن مختلف ، ويمشیان معاً ، يتحدثان ، ويأكلان ، وينظر كل منهما إلى الآخر ، ولأن خطاهما تتابع ، فلم يعد بوسعى إلا تأجيل التساؤلات ، وتراكم الدهشة والروع ، ها هو يصحب عبد الناصر إلى حجرة صغيرة تقع فى بيت قديم فناؤه فسيح . تقف فيه عربة قديمة مهملة تغطيها شبكة صيد عريضة يتخلل اطرافها قواقع بحرية . تضىء المدخل لمبة صغيرة ، يتراقص فتيلها المشتعل عند أول هبة هواء ، دخلاً إلى البيت ، تراجعت إلى مدخل الحارة ، حارة الانشاء ، اتيج لى ان اطلع على اسم الحارة ، أما متى سكن أبى هذه الحجرة؟ كيف استأجرها؟

فهذا ما لم أقف له على أجوبة ، ولو شاء سادق وأسيادى فى الديوان اطلاعى لأطلعونى ، وهنا استعدت أمراً حيرنى ، فبعد رحيل أبى عن دنيانا تلك ، اقتضى الأمر استخراج أوراق عديدة حتى يتم صرف المعاش الحكومى ، وقام أخى إسماعيل بذلك كله لغياي وسفرى المشنوم ، وكانت إحدى البطاقات القديمة تحمل عنواناً لم نطلع عليه من قبل ، ولم ينم إلى علمنا أن والدى أقام به ، حارة الانشاء بمنطقة السيدة زينب ، حرنا ، متى آوى أبى إلى ذلك المكان الذى لم يذكره لنا قط ، متى رقد فوق هذا الموضع ، ومتى رآه بعينه اللتين أدركها الآن البلى وصارا فوهتين مظلمتين ، هو لم يذكر لنا ذلك ، ولم يطلعنا على تلك الأيام التى قضاها فى حارة الانشاء ، وكان بعض من تقصيرنا اننا لم نسأله ، حاولت تفسير الأمر لحاطرى فقلت إنه ربما عنوان أحد أقاربه أو معارفه ، كتبه أبى فى بطاقته القديمة تلك عندما كان بلا عنوان ، بلا سكن يخصه ، بلا باب يحمل مفتاح رتاجه ويغلقه على نفسه ، ويرقد خلفه . لكن ها هو إمامى فى نفس ذلك العنوان ، نفس الحجرة ، كنت بمغزل عنها ، أراهما ولا يريانى ، اسمعهما ولا يسمعان تردد أنفاسى ، ولا يشمان رائحتى ، انتهت إلى اننى أجلس بينهما ، غير أن وضعى عجيب ، فأنا لا ألامس الأرض بمقعدى ، إنما أتربع فى الهواء ، فى الفراغ ، وأنكى على لا شىء ، تبدو الحجرة كابية لخلوها من الأثاث تماماً . دق أبى فى الجدار ثلاثة مسامير إلى الجدار ، علق إليها جلباباً وصديرياً وسروالاً طويلاً ، فوق الأرض فرش سجادة منسوجة من بقايا قماش قديم ، عند طرفها الأيمن اسند حذاءه ، كان يسند إليه رأسه كوسادة ، يبدو خجلاً من شحوب المكان وضيقه وعتمته ، لكن عبد الناصر يبدو راضياً ، يتخاطب مع أبى بالنظر ، فلا صوت يسمع لها ، ولا تهتر شفاهما لخارج الحروف ، وكنت افهم عنهما ، عبد الناصر يقول إن الغربة انهكته ، لم يتخيل

يوماً أنه سيقامى الغربة بأرض تقع على ضفتي النيل ، يحاويه أبي بالنظر ،
يطمئنه بدون نطق ، يقول عبد الناصر إن الشدة التي يقاسمها الآن فاقت كل
ما عرفه ، لم يتصور أبداً أن تقع عيناه يوماً على هذا العلم في فضاء مصر ، ويقرأ
في صحيفة مصرية ، يومية ، إعلاناً يدعو ناس مصر إلى قضاء العطلة الصيفية
في دولة إسرائيل ، قرب الميدان الذي مازال اسمه التحرير توقف أمام شركة
سياحية ، ينطق اسمها بالإنجليزية ، ويكتب بالحروف العربية ، قرأ لافتة معلقة
على الواجهة الزجاجية ، أسعار الرحلات للفرد وللوفود الجماعية . مواعيد قيام
الأوتوبيسات المكيفة ، والطائرات ، من تل أبيب إلى القاهرة ومن القاهرة إلى
تل أبيب . يشير أبي إلى الطعام حتى لا يتوقف ضيفه ، بينما يعطى من المضغ ،
يأكل القليل خشية ألا تكفيها الكمية ، كما أنه لن ينهى طعامه إلا إذا اكفى
الضيف . من الممكن أن يتحمل قلة الشيع ، أن ينام بمجموعه ، ولكن الضيف
يجب أن يشبع ، يتابع عبد الناصر التعبير عن مكنون نفسه بالنظر فيقول إنه
عندما جاء إلى ذلك الزمان وجد الناس في دهشة ، وبعد دخوله السجن ،
وهروبه منه وتجوله بين الحلق رصد شحوب هذه الدهشة ، بل إن الكثيرين
اعتادوا تلك الأخبار عن سفرهم ، وعن وجودهم ، وقراءة ومشاهدة بعض
المسؤولين هنا يشيدون بالعلاقات الودية ، قلت عندئذ من موضعي وبالنطق :
بعض هؤلاء أنت تعرفهم ، كانوا على مقربة منك . لاحظت ان صوتي لم يصل
إليها فلزمت السكوت وان لاحظت إطراره أبي ، وخيل لي أنه يود لو قال ما
قلته لكنه آثر ألا يؤلم الرجل في محنته ، ولما فهمت ذلك لمت رعوتي . يقول عبد
الناصر : لم يتبعني إلا قلة . يقول أبي : القلة أول حد الكثرة . يقول عبد
الناصر : الناس عابسة وجوههم ، الملامح تغيرت . يقول أبي : هذا زمن
صعب ، يقول عبد الناصر : في جولاني القديمة كنت أرقب أقدام المارة ،

أراهم يرتدون الأحذية ، الحفاء قليل ، فينشر صدورى وأنا مرتاحاً ، أعرف
اننى على الطريق السليم وان تعاظمت الصعاب . يقول أبى : حقاً .. لقد
انصفت أهل الفقر من أهل الغنى . يقول عبد الناصر : اليوم عندما كنت فى
الطريق إليك رأيت امرأة ترتدى جلباباً أسود ، تحمل رضيعاً ، وتمسك بيد
طفل صغير ربما فى الخامسة ، ربما فى السادسة ، والطفل حافى القدمين بينما
الشمس متقدة ، والأرض ملتهبة .. تردى الحال ، أبى غريب هاهنا . يسط
أبى يده ملامساً موضع قلبه : وأنا غريب مثلك ، ولكن الغريب للغريب
نسيب ، وبالغريب والغريب معاً تتنقى الغربة . يتهدد عبد الناصر بالأنفاس ،
يتساءل : كيف جرى هذا كله ؟. عندئذ لم استطع أن امنع نفسى عن النطق
فقلت : تركت لنا خليفة السوء ، انت الذى اخترته ، خليفتك هو الذى قوض
عهديك ، كررت : انت الذى اخترته ، لم يسمعى ، واضمرت السؤال ، حتى
إذا مازالت الحجب بينى وبينه واجهته به ، وطلبت الاجابة ، رحت أتابع أبى
عندما قام لينفض التراب عن السجادة ، يفردها ، يرجوه بالنظر أن يتمدد ،
يسأل عبد الناصر : وأنت .. اين ستنام ؟، يقول أبى إنه أعتاد الشقاء طوال
عمره ، ولا شىء يريحه مثل الأرض . يقول عبد الناصر : نم إلى جوارى . لكن
أبى يرجوه أن ينام فغدا يتظرهم سفر عظيم . عظيم ، هكذا وصف أبى ذلك
الرحيل ، ولم أقف على سر ، ولم أدركه الطريق . ولم أعلم الوجهة ، وإن
داخلى خوف من هجوم مفاجئ ، يقول أبى : إذا قلقك ليلاً أو احتجت أى
شىء أيقظنى ولا تتردد ، لايجب إنما يتمدد صامتاً ، متأثراً بما يديه أبى
تجاهه ، لايزال فى العالم خير : هذا رجل فقير لم يكن باستطاعته مد يده للملأمة
يدى . كان نائياً عني وكنت بمعزل عنه . وها هو يعرض نفسه لخطر جسم غير
مبال ، يوفر لى اللقمة والمأوى ، أما الذين عرفونى ، وسعوا للقرب منى ،

واقفوا خطاي ، فيستقصون اخباري ، ويقتنون أثرى ، يريدون اقتلاع عودتي
ونفهي عن عصر راق لهم ، يتمدد عبد الناصر ، تبدو قامته أطول في رقده مما
تبدو في وقوفه ، نام ونام أبي ، ولم أنم ، ولم يطرق الوسن جفني وهنا فائدة لا
بد من ابرازها ، فنذ رضاء الديوان عني ، والسماح لي ، فقد انتفت عني بعض
الصفات الجسمية المصاحبة للطبيعة الإنسانية ومن ذلك دوام يقطعي وانتفاء
النوم عني ، فلا نوم ولا اغفائه انما يقظة دائمة يتوهج خلالها وعي كأنه ضوء
ساطع ، وهذا مالم يعاناه بشر ومالم يعرفه أنس من قبل ، ربما يشجب هذا
الضوء وبين لكنه لا ينقطع ، أما التقلات ففاجئة . وهنا يجب ان أفصح قليلاً
أيها القارئ الكريم والولي الحميم ، فالحواجز كلها مرفوعة أمامي منذ ولوجي
الديوان . فلا زمان ، ولا مكان ، ولا حاجز حسياً ، ولا حاجز شعورياً ، ولا
حاجز أرضياً ولا فلكياً ، ومن ذلك انتقالى يسر مع أنفاسي ، من حال إلى حال
ومن زمن إلى زمن ومن حيز إلى حيز مع تغير أنفاسي ، فمع شهيقى انتقل إلى عصر
قادم ، وعند زفيرى أصير إلى زمن مضى ، أو أكون طفلاً ثم أصبح شيخاً ،
وسبحان من هو كل يوم في شأن ، سنفرغ لكم أيها الثقلان . لكن يجب التنويه
والإشارة إلى أن رغبتي أو قدرتي ليستا المحرك لانتقالى أو مشاهدتي ، إنما كنت
مستسلماً لمن شاء ربى ان تكون مقاديرى بيده ، فحيناً يعذبني ، وحيناً ينعمني ،
ولكن أبيع لي كل ما يباح للخواطر والمشاعر الإنسانية ، ومن ذلك التساؤل ،
والندم ، والدهشة ، والخوف ، والحزن ، والحنين ، والروع ، والفرع ، والألم
الحسي ، والمعنوي ، كذا الفضول ، والضيق ، والسخط ، وسائر الأحوال التي
تعرفها الطبيعة البشرية ، وهكذا لم أعرف النوم في تلك الليلة لأن النوم غريب
عني في رحلي الدائم هذا . بقيت جالساً معلقاً في الفراغ مشرفاً على رقاد
جسديهما مطلقاً عليهما ، أحصى أنفاسهما ، واصنئ إلى الليل ، صرت بمثابة

الحارس لنومها من كل طارق مفاجئ ، أوكابوس مفزع . أو حلم ثقيل ، أو ألم يقض مضجعها . كان أخشى ما أخشاه هجمة مباغته ، فأنهبها قبل فوات الأوان ، غير أن سهرى عليها ولى ، كذا حرصى ، كما ينتهى كل شيء ، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، شقق الفجر وتنفس ، وهاهو الصبح يعسمس ، يقوم أبى محاذراً إيقاظ ضيفه ، يخرج ، ثم يرجع حاملاً علة من الصفيح مملوءة باللبن الساخن ، يسكب محتوياتها فى كوبين زجاجيين ، يرقق يهز كتف عبد الناصر ، يخرجان معاً قبل أن يكثر المارة فى الطرقات ، ويتعاضم السعى والخطر ، تبعتهما ، ونالت منى الدهشة عندما خطوا وخطوت خلفهما ، خرجا وخرجت وراءهما ، زالت حارة الانشاء ، اختفت البيوت ، تبدلت الأرض غير الأرض ، والعصر بغير العصر ، تلك أرض مجدية مؤدية إلى كربلاء ، إلى الكوفة ، وعندما حاذيتهما لأتملى من ملاحظهما ، رأيتهما مصبوغة بلامح هذا الزمن البعيد ، فلكل عصر قسمايت بشرية ، عرفت ان هذا الموقف آذن بانهاء ، والسلام ..

موقف

النلم

فلا يخوضن غمرات هذا الجهاد
إلا موفق سعيد يمشى
على الأرض حياً وهو شهيد

.. عندما وصل أبى بصحبة عبد الناصر إلى زمن الكوفة القديم كان مفصولاً من عمله ، فاقلداً لمورد رزقه الوحيد ، وسبب ذلك خطاب وصل

إليه من أحد أقاربه في البلدة ، كتب على المظروف هذا العنوان : إلى حضرة
المحترم الرمالى بك صاحب أفران الرمالى ، ومنه إلى المحترم أحمد القبطانى .
تسألك البك بدهشة : من يكون هذا ؟ قليل له إنه عامل بفرن الخبز
البلدى ، فنضب غضباً عظيماً ، وتعجب من تلك الوقاحة ، كيف يجزؤ
عامل فقير أن يجعل منه وسيطاً ، يتلقى رسائله عن طريقه ، ثم طلب من المعلم
أن يسوى حساب القبطانى هذا ، وأن يحل سبيله . قال أبى لعبد الناصر
ويوت الكوفة تلوح من بعد ، والنخيل حولها ياسق ، والله ياسيدى لم أعط
عنواى لأى إنسان . ولكنه تدبير من عمى لأخسر على وأقعد رزقى . قال
لعبد الناصر : أحسن سنينى تلك التى قضيتها بالقرن ، قال عبد الناصر : كل
ماض يدو لمن عاشه جيلاً حتى وإن امتلأ بالصعاب . يدو أبى حزناً ،
يقول عبد الناصر محققاً : ولكن لولا الوظيفة لما تزوجت ، ولما أتجبت ذريتك
التي عاش منها أربعة . لاحت الحسرة في صوت أبى : أربعة .. ماذا فعل لى
أولادى الأربعة ؟ قال عبد الناصر : أنت ربيتهم أحسن تربية . وعلمتهم ،
لا تنأسف يا أحمد على ما فات واغفر لهم وسامحهم . قال أبى متداركاً : لا
أقامل ولكنى أعاتب ، وقبل خروجى من الدنيا ، قلت لهم سامحونى .
فسامحونى ، ومن أسنى أن أنقاسى لم تسغفى ، كنا ونحن قلبى ، فلم انطق
بغفرائى لهم ، ولم يسمعوا الكلمة منى ، ويعلم ربى انى حافظ حتى الآن
ودهم ، ومن حين إلى حين أرجو الذهاب إليهم فأطوف بهم ، أراهم ولا
يروثنى ، وأسمع منهم ولا يسمعونى لم يكن ابنى جمال الأكبر حاضراً لحظة
فراقى الدنيا ، وكنت مستوحشاً ذلك الرجل الذى لا أدرى إلى أين يؤدى
بى . وعند مفارقة روحى لجسدى زعقت زعقة أيقظته من رقاده في هذا البلد
الغريب ، البعيد . غير أنى هدمت روحه كما كنت أهمله صغيراً .

طمأنته ، فعاد إلى سباته . يتنهد أبي : الأولاد .. والله وحشوني الأولاد . وهنا جريت حتى حاذيته . أوليته وجهي . صحت : انظر .. انى بجانبك . غير أنه لم يسمعنى ولم يرى . فأطل دمعى ، وعدت أسمى فى أثرهما وألقى فى معارفى أن من أسرار هذا الموقف ذلك الحاجز بينى وبينها . أراهما واسمعهما ، ولكنها لا يشعران بى ، وان حالى هو كونى تابعاً . لا أتقدمها أبداً ، وان كل ما أراه سيضاهى بتلك الدرجة من النور الواهن ، الشاحب خفيف الحمرة والذي يتخلل السحب العالية أثر مغيب الشمس مباشرة . وان الرائحة المصاحبة لى فى ذلك الموقف ، رائحة المطر العتيق الذى مضى على نزوله زمن وجمعت قطراته فى شقوق رخوة أو حنايا نبات ، وتلك رائحة مؤلة للشجون ، مثيرة لما مضى ، وان كل ما أسمعته يمت إلى مقام الصبا ، أما علوم هذا الموقف فكلها مندثرة ، ملغزة ، ولا مقابل لها فى عالم الأسماء المعهود لنا ، يقول عبد الناصر : اننى حزين مثلك ، حزين لأن من استأتمته خاتنى ، ومن وثقت به نقض عهودى . وهنا يقول أبى بجزم عجيب : أتيت لنا بخليفة السوء . يصمت عبد الناصر ثم يقول : ابتعدنا كثيراً . يقول أبى الذى هو ثانى اثنين يلجان ليل الكوفة : لا تحزن ان الله معنا . ومنذ هذه اللحظة ، وعلى أثر هذا القول افترقا . مضى كل منهما فى درب غير الدرب الذى مضى فيه الآخر ، كذا انقطع نظرى عنها ، وغابت اخبارهما ، عدت غريباً ، فقلت لأتدبر ما مررت به ، ولأتمعن فيما سطرته ولأسترجع فيما ذكرته ، ولأناخلى عبدة من البصر لبصيرتى ، ومن سرى لسريرتى ، فقد استشعرت ديب الهن ، وزمن الكدورات ، فإن اهتديت فقد عرفت ، وان تعاميت بعدما رأيت ما رأيت فقد وهيت . ملكتنى الزفرات الحرى شوقاً إليها ، كما اختنق حلقى بغصة عندما رأيتها أول مرة خوف الفراق ، ترايد شحوبى ، وغزائى ضيق سرمدى ،

وتساءلت : هل ميسعى ابني أو أحد احفادي في اثرى ، ويلج الديوان بحثاً عن ذكرى بعد أن أكون قد صرت نسياً منسياً . ودهرى كله قد ولى ، وكأنه لم يك شيئاً ؟. تبدل وضعى ، فصرت جالساً فى مسجد قديم من مساجد الكوفة ، أرضه مغطاة بالحصير ، وسقفه من جذوع النخيل ، أصبحت قاعدةً بين القاعدين ، فى مواجهة أبى ، واجهته بعنى وكيانى . وعند هذا الحد من ذلك الموقف سمح لى بأن أراه بحواسى كافة ، وكان يبدو فى عمر لم أعرفه فيه ، فلا هو شبابه ، ولا هو شيخوخته ، يتحدث إلى القوم مذكراً إياهم بتخالفهم عن نصرة الحسين ، مثيراً فيهم التلاوم ، موقداً جذوة الندم . ثم تبدل موقعى فصرت مراقباً لجلسة داخل بيت فسيح لوجيه من وجهاء الكوفة ، انه سليمان بن صرد الخزاعى ، وهو رجل كان له صحبة مع النبى عليه الصلاة والسلام ، عرفه ، وجلس إليه ، وسمع منه مباشرة أما بقية القوم فهم ، المسيب بن نجبة الفزارى ، وكان من أصحاب على وخيارهم ، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي ، وعبد الله بن وائل التميمي ، ورفاعة بن شداد البجلي . يتحدث إليهم بعربية فصحة لم أسمع لسانه ينطق بها ، أبى الذى عاش ما يقرب من نصف قرن فى مصر لم يغير لهجته الصعيدية أبداً ، ولم يتكلم تلك اللهجة القاهرية ، حتى انى كنت أخجل من التحدث بها فى حضرته ، أو فى حضوره أسمى ، فيقلب لسانى ، وأتكلم كما يتكلم هو وكما سمعته منذ أن وعيت ، وحتى فراقى له ظهر يوم الجمعة قبل سفرى المشثوم . عندما نظر إلى وأطال النظر ، يتحدث أبى إلى وجهاء القوم : لقد ابتليت بطول العمر ، والتعرض لطول الفتى فارغبوا إلى ربكم ألا يجعلكم ممن يقول لهم غداً « أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » ، قال أمير المؤمنين على أن العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة ، وليس

فيكم رجل إلا وقد بلغه ، لقد بلغتكم كتب الحسين ، وقدمت عليكم
رسله ، وأعذر إليكم يسألكم نصره عوداً وبدماً وعلاية وسراً ، فبخلتم عنه
بأنفسكم حتى قتل إلى جانبكم . لا أنتم نصرتموه بأيديكم ، ولا جادلتم عنه
بالستكم . ولا قويتموه بأولادكم وأموالكم ، فما عذرکم إلى ربكم ، وعند
لقاء نبيكم وقد قتل فيكم ولده وحبيبه ، وذريته ونسله ، لا .. والله ، لا
عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك .. ثم تبدل
موقفي فأصبحت مصغياً مع مصغين آخرين إلى أبي ، المكان سوق الكوفة
داخل خيمة منسوجة من شعر الجمل ، يقول : إني والله لخائف ألا يكون
آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه العيشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل
فيه الجور أولى الفضل . كنتم تمدون اعناقكم إلى قدوم آل نبينا ونمنهم بالنصر
وتحثونهم على القدوم ، فلما قدموا توانيتم ، وعجزتم وتربصتم ، وانتظرت ما يكون
حتى قتل فيكم ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه ، إذ جعل
يستصرخ فلا يصرخ ، ويسأل النصف فلا يعطاه ، اتخذ الفاسقون غرضاً
للنيل ودرية للرماح حتى قتلوه ، عدوا عليه فسلبوه ، وما أن فرغ أبي ، حتى
وقف أحد القوم واسمه خالد بن سعد بن نفيل فقال : أما أنا فوالله لو أعلم أن
قتل نفسي يخرجني من ذنبي ، ويرضى ربها لقتلتها . ولكن هذا أمر به قوم كانوا
قبلنا ونبينا عنه ، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين ان كل ما أصبحت أملكه
سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى صدقة على المسلمين ، أقويهم به على قتال
القاسطين . يقوم رجل اسمه المعتمر حنش بن ربيعة الكنانى ، يقول : وأنا
أشهدكم على مثل ذلك .

ثم يقف رجل لا يكشف لى اسمه فيقول : وأنا .
ويقول آخر أسود الوجه مثل ذلك ، يقول آخرون ما قاله الأولون ، ينزل

صمت ، ويقوى الضوء الشفق ، ولما عاودت النظر كان أبى قد ذهب ، فانفجرت فجوة فى صدرى ، كذا فى صدور القوم ، يذرفون دموعاً سخية ، يندمون ، وتقول الأفئدة الموجوعة : ليتنا وقفنا إلى جانب الحسين . ليتنا متنا معه . وتلدور عيناي بحثاً عن أثر أبى بينما يقول فكرى لهم . لماذا الحسرة وقد فات الأوان ؟ كان بمرمى النظر منكم ، ولما مضى ، لما انقضت تحركت الضمائر واستيقظت المشاعر ، خلق الإنسان من الندم ، درت بعيني غير أننى لم ألقه ، تضسبت مواطئ خطاى ، وأوغلت فى دروب الغربة ، واضطربت أحوالى ، فلا جلوس يريحنى ولا نوم يأتينى ، ولا وقوف يشغلنى ولا مشى يلهينى ، ولا السعى إليه يوصلنى ، اشتد على الندم فأثخننى عناصره من كل صوب ، رزحت تحت وطأة العكارة . وتركز كيانى حول لحظة فائتة مرت بى ، وموتها يوم الأربعاء السابق على سفرى ، لم أكن أدرى يوم الأربعاء أنه بقى لأبى ثلاثة عشر يوماً ، ولم أكن أعلم يوم سفرى أنه قد بقى له عشرة أيام ، تبدو الأيام التى تسبق اليوم المعين عادية ، تكررهما بكل ما تحفل به ، لا تبدو نذر ولا تلوح علامات وإن كان الأمر يختلف بالنسبة للإنسان الموشك على الرحيل ، فتمة شيء غامض يتحرك عنده وينذره باقتراب الموت ، ولا يحدده ، بل يوحى به ويشى بخطاه الحقية ، بأنه مقترب من جهة ما غير محددة ، انه قريب ، وانه سيطبق بعد حين لم يطل ، وقد عرفت فيما بعد شواهد جمة أكدت لى ان أبى استشعر دنو يومه قبل وقت أبعد مما ظننت ، وسأذكرها فى موضعها ان شاء ربى الكريم وأمد فى أجلى حتى أدون ذلك ، لاتدرى نفس بأى أرض تموت ، وفى لأسأل نفسى مرة أخرى عن تلك البقعة من الأرض التى سأسند إليها رأسى ، وأغمض عيني تاهباً لرحلى ، أين هى ، وفى أى حيز تقع ؟ كل ما يربنا فى تلك الأيام القليلة التى تسبق الموت

لا يلفت النظر ولا يستوقفه ، فإذا ما وقعت الواقعة ، استعدنا ذلك ، وسرعان ما نستعيد الحوارات ، نتذكر أدق التفاصيل ، والإيماءات وحركات الأبدى ، تبدو كل جملة لفظت أو كل نظرة ذات دلالة ، منبئة بما سيلي ذلك ، تماماً كالمرّة الأولى التي يطالعنا فيها وجه الحبيب ، فالمرّة الأخيرة التي لن يتكرر بعدها لقاء . من عمر التواصل ، من مرّات الأنس والبشرى والمفاجأة والخلاف والنشوة نذكر دائماً البداية والنهاية . في يوم الأربعاء المنقضى هذا ، كنت في زيارة لصديق انجز عملاً ، وكان مكان زيارتي على مسيرة ربع ساعة من مكان عمل أبي ، كانت الساعة تتجاوز الواحدة ظهراً عندما انصرفت ومشيت عدة خطوات ، وهنا خطر لي خاطر ، ان أعرج على الوزارة ، في مثل هذا الوقت يعود أبي إلى القسم الذي يعمل فيه ليوقع في دفتر الانصراف ، ابهجني الخاطر ، فعندما يراني سيسر كثيراً ، سيرتّب قليلاً لفرط بهجته في البداية . سيطلب مني أن أمكث قليلاً حتى اشرب شيئاً أو قهوة ، وقد يطلب مني أن أصحبه لأصافح بعض الموظفين القدامى ، يقدم ابنه الأكبر إلى من عرفوه منذ عشرات السنين يتحمل الضيق ويقاسى الشدائد ليربي أولاده . قلت لنفسي : كان يصحبنا إلى كل مكان في طفولتنا ، في الطريق يلبي رغباتنا ، فلما شببنا واشتدت سواعدنا واستقلت عواملنا واتسعت مداركنا ، وتعددت علاقاتنا ، وهجرناه ولم نعد نصحبه ، ولم نعد ندرى شيئاً عن رفاق طريقه ، وأناس وحدته ، سررت لما جال بخاطري ، ومشيت في طريق إلى مبنى الوزارة ، توقفت عند مفترق ريثما أعبر الطريق ، نظرت حولي خوفاً ، من العربات المسرعة ، لمحت عربة خالية قادمة ، انحنيت قليلاً ، ولحظة مرورها بمحاذاة صحت « باب اللوق ياريس » ، لم أتوقع وقوفه ، خاصة أن الطرق المؤدية إلى باب اللوق مزدحمة وسائق عربات الأجرة

يرفضون الاستجابة ، غير أن السائق توقف ، أوما لى ، « تفضل » . كررت « باب اللوق » ، أوما مجيباً ، يبدو أنه خارج إلى يوم عمله لتوه ، وبعض من السائقين يتجنبون الامتناع في بداية يومهم خشية تعثر الرزق ومفاجآت الطريق ، مررت بسرعة أمام مبنى الوزارة الذى كان يضم أبى وقتئذ في موضع ما منه ، أما الآن فقد خلا منه إلى الأبد ، ولم يعد أى أثر لإمكانية توقى رؤيته صدفة يعبر الميدان المؤدى إلى المدخل ، نظرت إلى المبنى ، لم يخرج مشروعى عن كونه خاطرة وفكرة لم تتحقق ورغبة لم تتجسد ، قلت لنفسى : سأزوره في فرصة أخرى . هكذا ضنت عليه بمفاجأة كانت ستسره ، بددت فرحة كانت ستواثيه في اليوم الثالث عشر المتبقى له ، لو أعرف ، لبنى فعلت ، كنت في مدينة الكوفة ، وفي زمن يئأى عن زمنى مئات الأعوام عندما دهمنى النوم المروع فبكيت ولكن بكألى لم يخفف مابى . كيف ضيعت ما ضيعت وقد كان ذلك في متناول يدى وملك يمينى ؟ إلى هذا الحد تشاغللت عنه أو شغلتنى الدنيا . عصرت قبضتى يدى ، عضضت التواجد ، تعاظم ألمى ، وعند هذا الحد من شروع هلاكى وبله محوى شعرت بيد حانية تمس رأسى ، تطلعت فرأيت سيدنا شيخ العارفين ، مولاى محبى الدين ، نظرت إليه ، أذن لى ، فقمعت من كبوتى مشى فتبعته ، كان مهيباً في نظرى ، ذقنه من شعر أسود عميق ، طال صمته وحرث في مغزى ظهوره لى عند هذا الحد من ذلك الموقف ، والعجيب اننى مع التركيز فيه ، ومع ترديدى .. نعمت بالصاحب والصحبة بعد معاناتى ، جعلنى الله ممن اقتفوا أثره ومشوا على مدرجته حتى التحق بدرجته ، آمين . غير أن ندمى لم يخف ولم يبل . بل زاد على ما هو أدعى وأمر ، فقد زال عنى الظل والنعى ، صرت في قبط لاهب ، فجأة نطق سيدنا فقال : ..

عندك شيء ؟

جهزت على الفور بمكنونى ..

توسط لى ياشيخ العارفين عند الديوان ، عند رئيسه الطاهرة ، عند
عضوية النورانيين ، عند حبيبي ورفيق هجراني ودليل أسفاري والغائب عنى
منذ حين وليس لمن كان مثلى أن يسأل عن ..
يستمر شيخي فى النظر إلى ..

عندك شيء ؟

أصبح :

أريد أن تبدل هذه اللحظة تبديلاً ، أن أتذكرها فأتذكر اننى مررت بأبي
وزرته ، أن استعيدها فأراه يستقبلنى ويتהלل لرؤيتى ومجلسنى إلى جواره ..
قال شيخ العارفين ..
هذا أمر صعب المرتقى ..
أقول .

ولكن ليس شيء على الله ببعيد ..
قال الإمام الأكبر :
بالأمس نسيت ، واليوم تُنسى ..
ثم قال ..

إن كنت ذا فطنة فقد أومأنا إليك بما هو الأمر عليك ، بل صرحنا بذلك
وتحملنا فى ذلك ما ينسب إلينا ..
قلت :

لكننى اليوم وحيد ..
غاب عنى فصرخت :

أمثلوني بين يدي مولاي الشهيد ..

عندئذ امطرنى الندم بوابله ، وبلغ من شدته أنه صرعى وبعد حين لم أدر
مقداره أفقت ، ولكن ندمى بدأ من جديد .. من نفس اللحظة التى أدركت
فيها خطئى وجرمى وتقصيرى . ثم يتزايد حتى أقعد وعيى ، وأفيق لأعانيه من
جديد ، يولد مرة أخرى داخل عفاً مرة إثر مرة إثر أخرى ، كنت عاجزاً عن
الخلاص منه أو التخفيف من وقعه ، لأنه داخل ، وكيف أخرج منى ؟ وكلما
بلى تبدل ندماً عفاً ، وأنا لا أستطيع فكاً ، وتلك الشواظ تلهبى ،
صرخت ..

أليس فى مقدوركم التخفيف عني ؟

لم يجبنى أحد . ولم يرد صوت . وعند حد مقدر ظهر شيخنا مرة أخرى ،
اقترب منى فى دوامة عذابى حتى وقف وأنا ملق صريع . رأسى بجذء قدميه ،
انتظرت ، ولما سمعته يقول ..
أمازلت عند مطلبك ..

قلت

ليس ذلك بأمر بعيد ..

عندئذ أخرج من ثنايا جيبته نصلاً أبيض حامياً ، أمسك بشعر رأسى ،
أشهر النصل ، ثم هوى به ، ففصل رأسى عن جسدى . اقتلعه وأمسكه
بيده ، فصرت أنظر إلى جثة نفسى بلا رأس بينما يقطر الدم من رقبتي ،
ويتدفق من عروقي المجروزة ، شعرت يده تراخى عن شعري ، وللحظة خيل
إلى أنه يمسك رأسى ، لكننى انتهت إلى أننى طاف ، معلق ، لقد صرت فى
خلق جديد ..

* * *

موقف النجم

« .. لا أقسم بمواقع النجوم
وإنه تقسم لو تعلمون عظيم .. »
صدق الله العظيم

.. صرت رأساً بلا بدن ، وبدناً بلا رأس ، ولكم صعب علىّ حالي
ورثيت نفسي ، وأشفت علىّ عندما رأيت بعيني رأسي جثتي بلا رأس أول
مرة ، واطلعت بعيني حواسي على رأسي الطافي المنقطع عن جذره ، عرفت
ان جمال الجسم البشري وكماله في اتصاله ، انه قائم على بعضه ، لو عزل عضو
عن سائر الجسد لبدأ بلا معنى ، غريباً في وجوده ، ضعيفاً في مظهره ، واهناً
في جوهره . مثيراً للرثاء ، للشجن ، أصبح لي ظلال بعد ان كان لي ظل
واحد ، اتبعه ويتبعني ، أطويه وأسطه وأحياناً يلفني ، لكن بدت ذراعي
غريبة عني ، خاصة يدي ، وأصابعي التي طالما ضممتها وفردتها وأمسكت بها
القرطاس والقلم ، في عزلة اعضائي تجسد ضعف النشأة الإنسانية المحبولة على
الكل والجمع والوحدة ، رثيت لقدمي ، لصدري ، لقضبي الذي عبث به
في صغري وكبري ، وأولجته في فروج شتي ، أنه بمنأى عني ، لا يطاوعني ،
ولا يستجيب ، يدي لا تقدر على مداعبته ، أو الاحاطة به أو هدهدته ، لا
يتقدمني ولا يعبر عوالم انثوية ، لكم بدا رخواً وكأنه قد من خرقه بالية ،
رثيت لنفسي ، صار لكل عضو توجه مغاير ، هكذا ارتفع رأسي بعد أن
ألقيت نظرة التبايع على بقية جسمي ، سبحت في سماء مدينة الكوفة ، رأيت

من عل عال المدينة مضمومة ، ملمومة مضمدة بالنخيل والشجر ، ثم تزايد ارتفاعى فرأيت الكوفة وكربلاء معاً ، استعدت بأسمى أحوالى فى موقف الظلم . ورؤيتى الحبيبى ومولائى الحسين وهو محاصر ، ممنوع من ماء الفرات . حدثت ببصرى الجديد فرأيت ذلك الموضع الذى اجتثت عنده رأس مولائى الطاهر ، وهذا موقع لا يعلمه الآن من البشر الفانين غيرى ، ولا يمكن لأدمى تعيينه سوى ، لكننى لا أستطيع البوح به فى تدوينى هذا ، لقد خصصت بذلك أثناء محنتى ، وما خصنى لا يمكننى نشره إلا بإذن ، والاذن لم يقع ، لذا أسكت ، كنت غير قادر على التزول بذلك الموضع والوقوف به ، وابتداء الحزن على ما جرى ، كما كنت غير قادر على التزول إلى كربلاء ، والوقوف عند مرقد سيدى وسيد ساداتى ، كيف أنزل وأنا بلا قدمين اسعى بهما ، كيف أطرق باباً من بيوتها وما من يد تأتمر بأمرى ، فأصافح من أشاء ، وأشير إلى من أشير . يستمر تخليق فى لحظات غروبية كايية ، ولم أكن أدرى ما أفعله عندما يجمى الليل ، هل سأحط على الأرض خطأ ، أو آوى إلى قمة جبل يعصمنى من الأذى المجهول ، أو أركن إلى موقع لا يلحق ما تبقى منى ضيق أو مضايقة . كنت لا أدرى كيف سيكون مرقدى وهل سيكون لى استيقاظ ونام ، اضطجاع وركوع ، كنت محكوماً بتخليقى الدنيوية ، لا قدرة لى على تصور ما سيلحق لى . قلت بلسانى : فلاصبر على ما أصابنى ، يطول تخليق ، أسبح فى غمام ، أعبره ويعبرنى . وعندما بدأ الشفق يغمق ، بدأت أعرف جوعاً غريباً ، مريباً ، جديداً على أحوالى ، جوعاً شاحباً ، لكنه ثقيل ، لم أعهده أبداً ، لا يحركه خواء معدة ، ولا انقطاع زمن عن طعام ، ولا شهوة ، ولأننى مازلت قادراً على التشبيه والاستعارة حاولت أن أعثر له على مثل . وجدت صعوبة جمّة ، غير أن أقرب الأحوال امتلاء مثانة بالبول

والعجز عن اطلاقه ، ربما يشبه مقدمات الاغماء ، غير انه ظل جوعاً لم أعرفه قط . وعند حد معين لم أدر طبيعته الزمانية أو المكانية ، نوديت ..
باجال ..

نظرت إلى نقطة من السماء بعيدة ، لأنه لارقة عندى ، فقد حركت جفنى وعينى ، كالعاجز ، الراقد ، ينظر حوله ولا يتغير موضعه ، ولا جسده ، رأيت نقطة خضراء ، درجة ليست بزمردية ، ولا زرقية ، ولا ربيعة ، أو خريفية ، لا تقترب من الصفرة ، ولا من الزرقة ، ومن المعروف ان اللون الأخضر ينشأ من اختلاط اللونين الأساسيين الأصفر والأزرق ، وبقدر غلبة أحدهما على الآخر ، تتحدد درجة الخضرة ، أعلم ان من علوم هذا الموقف علم الألوان ، واسرارها ، غير ان لون النقطة الأخضر لم تقع عينائى على مثله ، مشع ، براق ، وهادئ أيضاً ، واضح كزرقة البحر فى المواضع العميقة ، وفضية القمر فى الليالى الصافية ، وضوء الصبح ، حدثت بعينى ، تقترب النقطة الخضراء منى ، أستكين فلا أرحل ، إذا بها طائر لكننى لم أتبين ملامحه ، قادم من سمت القبلة ، يتيامن ثم يشرق ، ثم يطير إلى الجنوب ، ثم يبعد تجاه الشمال ، كل هذا وهو فى دنو مستمر منى ، حتى صار فى مواجهتى فإذا به ضياء خالص ، ونور صرف ، ومن ذلك تتشكل الملامح الإنسانية التى تعلقت بها غير مصدق ، وعندما اكتمل وجه الطائر الآدمى ، زعقت ..
أنت .. أنت .

لم أعرفه إلا فى صور المحاكمة المطبوعة والمرئية . مدثراً بالبياض ، يلف قضبان القفص الحديدى ، كذا صور الهجوم ، يندفع فى قلب النهار ، عبر مركز الضوء ، معه صحبة صدورهم عارية داخل مرمى الخطر كله ، يقتحم المنصة ليلخص زمناً ، وينقذ أمه ، عرفته فى الصور المرئية التى التقطت على

عجل ، ينزل من عربة النقل ، يلتقي القنبلة ، ثم يعود في ثوان لمسك المدفع ،
عرفته بخيالي وها هو أمامي . حراً من كل قيد ، مكشوقاً من كافة الحجب ،
طائراً أخضر من ضوء . هاهو يبث جناحية حتى يستمر معلقاً في الفراغ ،
أقول بحنان عظيم ..

خالد ، تكلمت أنا وفعلت أنت ، تمنيت أنا ، وتغنى غيري ، وأديت
أنت ..

ييز رأسه الذي دقت ملامحه وصار في هيئة وحجم رأس طائر ، لم
يبحني ، إنما قرب فيه من في ، وكنت غير قادر على عناقته لأنني بلا ذراعين لا
أقدر على الدنو منه لأنني مسير ، محكوم بمن يوجهني ، فإذا شاء تقدمت ،
وان رغب ارتفعت ، وان اراد ابتعدت ، ليس بأمرى شيء ، ثبت وضعي
في مواجهته ، فلم أضمه إلا بعيني ، ولم أحطه إلا بنظرائي ، كان عندي
شجن مديد أود لو بحت به . لكن في تطلع إلى فيه كما يتطلع الطفل إلى ثدي
أمه قبل الرضاعة ، عندئذ قطر في في ثلاث قطرات من شراب طيب حلو
يشبه عسل النحل المصنعي ، لكنه ليس بالعسل ، تذوقت واستحسنيت ،
عرفت أنه اطعمني ما يشبه المن والسلوى ، فتحت عيني والشبح يملأني ،
والجوع قصي عني ، نسيت مذاق أي طعام تناولته طيلة عمري . يرتفع
خالد ، يثبت عند نقطة مرتفعة متطلعاً إلى رأسي وكأنه يطمئن عليّ ، عندئذ
رأيت فجوة حمراء في مقدمة صدره ، بقعة ضوء قانٍ تقطر دماً حقيقياً وكأن
للضوء عروقاً ، بالضبط في موضع القلب ، صحت ..
هل تأملت ؟.

جاءني صوته من موضع شروق الشمس ..
أعطاني الله من هذه القوة لكن الله قواني عليا ..

رأيت قطرات الدم تندمج بالفضاء الكوني ، تدور مع الأفلاك ، تولد مع
 جديدها ولا تندثر مع قديمها الذى حان أوان فثاته . رأيتها تمد الحمرة
 المصاحبة لبزوغ الفجر على ضفتى النيل ، تصبغ اطراف النخيل ، وشواشى
 الأشجار الفارحة . وفى عتمة الليل تستقر قطرة على هيئة نجم فى السماء ، نجم
 صغير بين النجوم التى ترحم السماء ، لكنه ينفرد عن غيره بأمر جمعة ،
 وخصائص دقيقة . منها ما يظهر ، ومنها ما يخفى ، من ذلك انه لا يرى إلا فى
 سماء وادى النيل ، ولا يمكن رصده إلا من فوق تلال الوادى ، وجبل
 المقطم ، وجبل عتاقة ، وجبل الجلالة ، وجبل موسى ، ومن ذرى كثبان
 الصحراء الغربية ، لا يخفى طوال فصلى الربيع والخريف وينأى قليلاً . قليلاً
 فى فصلى الصيف والشتاء . يلمع عند تمام نضج المحاصيل ، واكتمال خضرة
 الشجر ، ولعان عروق المناجم فى ضوء النجوم ، وبخلاف النجوم كلها ،
 يمكنك تحديد موضعه وضوئه القانى عبر السماء الغاصة بالأفلاك ، وهنا
 أحاول أن آتيكم بقبس مما يختص به هذا النجم العجيب بين النجوم ، فى
 الطعام مثلاً يختص نجم الثريا بالحلاوة ، والذب القطبى بالمرارة ، والسها
 بالحرافة ، والشعرى اليمانية بالدسومة . ولنجم خالد المذاق الطيب . وفى
 الألوان ينسب السواد الخالك إلى السها ، واليباض المشوب بصفرة إلى الذب
 القطبى ، والشقرة إلى الشعرى اليمانية . وما ينتج عن امتزاج لونين إلى الثريا .
 ولنجم خالد الحمرة القانية ، والزرقة البحرية ، والخضرة الضبابية . وفى
 الأمكنة ، اختص الذب القطبى بالجبال الجرداء ، والصحارى ، والسجون ،
 والشعرى بالأراضى الخشنة ، ومواقع النيران ، والقلاع . وللثريا السهول ،
 والبقاع ، والوهاد غير المأهولة ، وبيوت الملوك والسلطين ، وللسها الرمال ،
 والكثبان والأسواق الدائمة ، والأسواق الموسمية ، والمنازل القائمة على الطرق ،

والتواصي المؤدية إلى البساتين . ولنجم خالد ، كل أرض سهلة ، والمدقات ،
والمكان الندى ، والصفاف . كذا الأبنية العتيقة . وفي الطيور يختص الدب
القطبي بالكراكي ، والبجع . والنعام ، أما الشعرى فبالديوك والقمارى ،
وللثريا طيور المساء ، وطيور الليل ، والسها بالعصافير المهاجرة والأسراب ، أما
نجم خالد فله النسر والعنديل والعقاب . ومن مراحل العمر ينسب إلى الدب
القطبي الشيوخوخة ، والشباب إلى الثريا ، والفتوة إلى الشعرى ، والطفولة إلى
السها ، ولنجم خالد العمر الجميل الذى ولى . وفي الأعضاء ينسب الرأس
للدب ، والصدر والحصر والاليتين للثريا ، والكبد للشعرى اليمانية ،
والذراعين ، وأطراف الأصابع للسها ، كذا الساقين ، ولنجم خالد القلب
والشرابين . وفي الأنساب يختص الدب بالأجداد ، والسها بالأشقاء ، والثريا
بالأمهات ، والشعرى بالآباء ، ولنجم خالد الأولاد وأولاد الأولاد . وفي
الأخلاق الباطنة ينسب للدب اضطراب الرأى ، وللثريا التفكير والتأمل ،
وللشعرى الغضب والحقد ، وللسها الزهو والاستقالة والذكاء ، والفطنة ،
ولنجم خالد الحلم والثورة . وفي الأشجار يختص الدب بالكافور ، والشعرى
بالورد الفارسي ، والسها بالصنوبر والأرز ، والصنل الأبيض ، والثرى
بالأبنوس ، ولنجم خالد النخيل والصفصاف . وفي الأصوات . للدب
الهمهمة ، وللشعرى الحديث بصوت خفيض ، وللسها همس ، وللثريا
الصياح ، ولنجم خالد صرخة المولود الأولى . أيها القارئ الحميم ، هذا جزء
من كل وما أوردته كل من بعض ، فالسر عظيم . ارفع البصر حذق إلى
الشرق ستراه ، لاتمل النظر ، ضوءه الواهن سيلفت انتباهك ، وكلمة اطلت
النظر اتضح لك كنهه واسفر لك عن نتف من سره ، وادكر ان هذا النجم
الوليد قطرة من دماء خالد الذى خلصك وخلصنى ، هذا ما عرفته فى طفوى

ورحلى عبر الفراغات والفضاءات ، وما أود قوله ، أنه سيأتى حين من الدهر
يهتدى به كل من يسى فى البر ، أو يخوض مياه النيل مسافراً ، غير أن
اكتشافه كعلامة ثابتة يحتاج إلى زمن ، وخبرة ، وعلم ، وطول دراية ، ودقة
ملاحظة . بالضبط كما انقضى وقت طويل وسنين لا يعرف مقدارها قبل أن
يكشف الإنسان موقع الدب والسها والثريا والشعرى البمانية وكوكبة العرس
وزحل والمشتري وأطراف المجرة ، ها أنا أنبه وأشير ، لا أضن بمعارفى ، ولا
أبخل بما اطلعت عليه ، وخصصت به فى ذروة محنتى بعد انفصال رأسى عن
جسدى . هأنذا أصرخ ، عسى أن يرى أهل وقومى ما رأيت ، وأن يعرفوا ما
عرفت ، وان يهتدوا إلى موقع ذلك النجم كما اهتديت ، فانتبه يا غافل ! .

* * *

موقف الشدة

﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾

.. يارب خفف جروحائى ، أنت السميع العليم ، تمنيت لو طال الحوار
واتصل ، لكن خالد ارتفع ، خلف عندى الرضا والامتلاء والشيع الغريب .
عرفت ان قدراً من الرحمة لحقنى ، واننى قد لا أخلد فى عذاب الندم الشديد ،
جعلنى الله وجعل القراء والسامعين من أهل الرحمة الخالصة ، آمين . عرفت ان

ما حل بي من نعمة موقوته ترجع أسبابه إلى زمني الدنيوى ، وان لم أقف على تفاصيله ، وان وعدت اننى سأطلع عليها فيما بعد . هذا الحكمة خفية ، ضمنت جهلى فى رأسى ، واستسلمت لطفوى ، تتبدل على الأحوال ، أميل مع كل ريح صرصر ، وأتهدهد مع كل نسمة ، حتى رأيت من على شاهق الزمن السحيق ، فدرت فى الفراغ ، وأوتيت البصر الحديد ، ها هو أبى وعبد الناصر يسعيان فى صحراء قرية من نهر الفرات ، معها جمع لم استطع ان أحصيه ، غير أنه لا يتجاوز العشرات ، أمكن لى تمييز بعض الملامح ، فرأيت صاحبي الذى استشهد ظهر الجمعة ، ورأيت « مازن أبو غزالة » ، وجمعاً من صحبه استشهدوا بعده ، بعضهم طبعت صورته ، وأصبقت على الجدران ، ثم نزعتم فى بلادى عندما أصبح العدو صديقاً وجاءتم وفودهم تترى بغير قتال ، لمحت اصحاب خالد الأريفة ، ألقى فى معارفهم قاموا بمجهود جهيد ، بذروا الندم فى نفوس القوم ، وحركوا الضمائر التى ماتت ولم تتحرك لنجدة الحسين ، وان الندم تحرك وقوى ، قام نفر هنا وهناك يطالب بدم الحسين ، والتأثر له ، لم أدر إلى أين وجهتهم ، هل يقصدون شخصاً بعينه ، أم أنهم يسعون خلف جماعة من قتلة الحسين ، خاصة وان عبد الناصر حدد اسماءهم ، وعين أماكن تواجدهم ، وبث العيون فى أعقابهم ، ورصد مكائهم وحركاتهم وتتبع مواطني أقدامهم ، حتى يسهل الانقضاض على كل من رمى الحبيب بسهم أو صوب إليه مقلاعاً أو أصابه بجرح ، هو وأهله وصحبه ، أما أبى فسعى إلى كل من خذل الحبيب ، أوقد فى الصدور ناراً بطيئاً اشتعالها صعباً إخمادها ، وكان ذلك بداية ندم القوم واحزانهم على خذلانهم الحسين ، وعلى مصرعه حتى يومنا هذا ، وإلى ان يحين الحين . لاحظت بدء نزول الليل ، حمت فى عتمته حولهم ، تعرفت بحاسة شمى إلى رائحة أبى ، فاستعدت من جديد مرات عناقتنا

الناثية ولحظات قربنا ومرات صفائنا ، رأيت يدي اليمنى تسوى وتمهد الأرض
الحشنة لمرقده أما يدي اليسرى فتتش عنه وعن صحبه هوام الليل . وكان ذلك
غريباً مستحدثاً علىّ . أن أرى عضواً من جسدى لا ياتمر بأمرى ، ولا يتحرك
بإشارات خفية منى ، غير موصول بى ، مقطوعاً ما بينه وبينى ، ما بينى
وبينى ، حمت فوقهم أرقب أخطار الليل لعل أحذرهم ، أو أندهرهم ، كيف
يصلهم صوتى ؟ هذا ما لم أعلمه . غير أننى قلت : ربما أنت النوايا بالوسائل .
ولما دنا الصبح وانجلى قام عبد الناصر فحمد الله كثيراً واثنى عليه ، وبعد صلاة
الغداة قام خطيباً فى جمعه ، فقال بصوت حزين ، ونبرات ثكلى ، ذكرتني
بظهوره ليلة الثامن من يونيو ، وكانت مساء خميس ، وإعلانه الهزيمة ثم
التنحي ، ها هو يبدأ يقول :

« إن الله أذن فى فراقنا هذا اليوم فعليكم بالصبر واحتمال الشدة .. »
ثم صفهم للحرب ، فكان تعدادهم سبعين ما بين راكب وراجل ، وخيل
إلى أنهم دون ذلك ، جعل مازناً فى الميمنة ، وحُسَيْنَ صاحب خالد فى
الميسرة ، وأعطى رايته لأبى ، ثم أمر بحطب وقصب ان يترك فى موطئ من
الأرض يشبه الخنلق مخافة أن يأتوهم من ورائهم . فنفعهم ذلك . ومن النقطة
التي تعلق بها فى الفراغ حملقت دهشاً ، مشمئزاً ، إذ رأيت من لا أطيع
ذكره ، من خلف عبد الناصر فى حكم مصر - لعنه الله - ، أقبل فبقى فى
الخلف ، جباناً كعهده فى عمره ، يدبر ويدفع بغيره لينفذ ، وفى الوقت الملائم
ينجو بنفسه ، كان فى عدة آلاف من الجنود ، وخدام الاحتكارات الأجنبية ،
جنود يرتدون الحرب فى زمن ابن معاوية قاتل الحسين . وجنود يرتدون الزى
الحقى للموساد ، ومقاتلين من قوة الانتشار السريع الأمريكية ، ومرترقة مجهولى
الهوية ، وأرباب بنوك ، وأصحاب شركات للمياه الغازية ، ومقاولين ،

وسماسة ، وتجار آثار ، وكانوا يرفعون راياتهم ، وعليها اعلانات عن اجهزة
تكيف للساخن والبارد ، وثلاجات ذات بابين ، وسيارات ، وعباءات
حريرية ، وطائرات حربية تستخدم في أربعين جيشاً ، وطلاء جديد للأظافر
النسائية ، وماكينات حلالة كهربائية وراية تعلن عن فوائد مصرفية . رام مازن
أن يرميهم بسهم فمنعه عبد الناصر قائلاً : اكره ان أبدأهم بالرمية الأولى . ولما
نظر إلى جمعهم كالسيل ، إلى سلاحهم ، وإلى لافتات صوتية تطلبهم
بالاستسلام ، وصوت مذياع إسرائيلي يعلن في مكبر صوت يدوى : قف وفكر ،
سلم تسلم ، سنضمن لك جرعة ماء ، وطعاماً ، وأدوية ، رفع عبد الناصر يديه
بالدعاء وقال : اللهم انت ثقتي في كل كرب ، ورجائي عند كل شدة ، كم
رأيت من كرب بين فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ،
ويشمت فيه العدو ، انزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك ، لم أكن أدرى
أن هؤلاء كانوا يجتمعون على النيل مني ويتوحدون على قصد واحد ، وهو
القضاء على ، ومحو أثرى ، وتشويه سيرتى . وقد كنت غافلاً عن ذلك الذى
يقودهم ، أنا من دفعته حتى وقف بجوارى وعيته نائباً لغيبتى وحضورى ،
وأعترف بعد فوات الأوان ان الغشاوة غطت عيني حيناً من الزمن ، وكان الخن
الذى دفعته وسفحته بلادى وامتى باهظاً ..

يسود صمت للحظات ، يزعم بينهم زاعق ، وإذا به ضابط اسرائيلى
يرتدى غطاء الرأس القرمزى الخاص برجال المظلات ..

هل فيكم إبراهيم الرفاعى ؟

يصيح أبى عجياً ..

نعم .. هذا هو ..

ويشير إلى صاحبي الذى استشهد ظهر الجمعة التاسع عشر من أكتوبر ..

يزعق الضابط الاسرائيلي ..

هل فيكم ابراهيم زيدان ؟.

يجيب أبي :

نعم .. هذا هو ..

ويشير إلى صاحبي الذي استشهد فوق التبة رقم سبعة شرق القناة . صباح

الأربعاء العاشر من اكتوبر ..

هل فيكم ابراهيم عبد التواب ؟ .

نعم .. هذا هو ..

يشير أبي إلى صاحبي الذي استشهد يوم الرابع عشر من يناير بعد مائة وأربعة

وثلاثين يوماً من الحصار في موقع كبريت شرق القناة ..

يضحك الضابط الاسرائيلي ، يضحك ، يضحك ..

لماذا حاربتم ؟ لماذا دربتم ، وجاهدتم ، لماذا قُلتم ؟ أعلامنا في فضاء

بلادكم ، وجنودى مروا أمام بيوتكم ، والتقطوا الصور التذكارية عند

قبوركم ، وغازلوا بناتكم ، أما أنتم فقد نسيتم ولن يقوم ذكر لكم .. بل إن

اياماً لم تشهدوها يخشى بنو وطنكم فيها الاشادة بكم ، أو التلميح إليكم .

يزعق أبي ..

سأحرقك حرقاً ..

يردد المذيع الاسرائيلي :

قف وفكر ، سلم تسلم ..

يقول أبي ..

اللهم خذني إلى النار ..

يندفع ضابط المظلات الاسرائيلي راكباً فرساً ، كان بينه وبين أبي أرض

واطئة فعرثر الفرس بحجر فتعلقت قدمه بالركاب ، أخذت الفرس تضرب به كل حجر وشجر حتى مات . فوق ربوة يقف إبراهيم الرفاعي ، أراه مهموماً ، يداه تلامسان خصره تماماً كما عهدته في أيام الحرب الطوال ، غير ان ضيقاً يجعل ملامحه غريبة عني ، هاهو يقترب من أبي ، يسأله ..
أصبح ما ذكره ذلك الضابط الاسرائيلي .

أبي واجم ، تنزل به حيرة ، لا يدري ما يقول ، ينظر الرفاعي إلى جثة الضابط الاسرائيلي وبه غموض . قال ريتشارد آلن ضابط الاستخبارات الأمريكية وكان أحد الذين شهدوا ذلك الموقف : كنت في أول الخيل التي تقدمت لحرب عبد الناصر وصحبه ، وكنت معينا كواحد من الحرس الخاص ، تقدمت لعلى أصيب رأسه فأحظى بعلاوة أو ترقية . فلما رأيت ما جرى لضابط المظلات الاسرائيلي تشاءمت ، وتذكرت الجسارة التي بدت عند منصة العرض بعد ان أكلت لنا التقارير أن قومه وهنت عزائمهم ، وانهم انشغلوا بلقمة الخبز اليومية عن كل ما عداها بعد أن صيرناها عزيزة المنال عندهم ، خف حماسي ، تراجعت ، لن أزج بنفسى حتى لا ألقى ما ألقى .

ورأيت شيخاً جليلاً ، مهيباً ، قاهري المولد ، والنشأة والمات ، وهو أستاذى ، عظيم القدر ، صاحب الشرف ، والقدر ، والهيبة ، هو من نصحنى بالتجلى ، لأن النائم يرى ما لا يراه اليقظان . تقدم ابن ياس من عبد الناصر ، طلب منه الاذن بالكلام ، فأذن له .. يتقدم ، ثم ينادى ..

« .. يامعشر القوم ، انكم تنقادون لأرذل الناس ، وأحطهم شأنًا وقدرًا ، من لم أعرف مثيلاً له بين من عرفت ، لو عنده عشر مقدار ما لدى أجبينكم من الشجاعة فليبرز الآن ، إنه يسمعى . أيها الخلف ، الداعر ، الجاني ، ألم تكن تهرع إلى عبد الناصر جاثياً ، ألم تجبن عن ملاقاته منفرداً ، وعن الاتصال به إلا

من خلال وسيط ؟ هل خاطبته يوماً باسمه مجرداً كما ادعيت ؟ ألم تهلل لكل ما بدر منه ، ولكل ما أسفر عنه ؟ ثم ولاك فاستخلفت فقلبت وتنكرت ، وعاديت الفقراء والمعدومين وكل من كد لأجلهم ؟ حرضت ضده ، وضد مبادئه ، وهو غائب لا يستطيع ردّاً أو دفاعاً ، وفرطت فيما فرطت ، وهذا لم يتفق مثله لخاير بك سلفك الذى سلم مصر المحروسة إلى العثمانيين . لم ترع للعاء هؤلاء حرمة ، ولم تصن لهم ذكرى ، والآن نجىء متخفياً مخبئاً وراء عدد وعدة ، وهم يولون وجوههم تجاه الثار لابن بنت رسول الله ، تمنع عنهم ماء الفرات كما منعه قتلة حبيتنا ومولانا . تحول بين الماء وبين هذا الجمع شريف المقصد ..

هيز الرفاعى رأسه أسى وحسرة ..

إذن ما قاله الضابط الإسرائيلى صحيح .. متنا بلا دية ..

يردد المذبح الصهيونى ..

قف وفكر .. سلم تسلم .

يصيح شبث بن ربعى أحد قتلة الحسين مخاطباً ابن إياس ..

اسكت أيها الشيخ الحرف ، قد أكثرت من الكلام فاكفف عنا ، ألم يكفك ما دونت فى كتبك المهجورة التى لا يقرؤها أحد ، والله ليعطش الجمع كما عطش الذين قبلهم .

يرتفع صوت ابن إياس .

لاسقاكم الله يوم القيامة .. بشس القوم أنتم ..

يأمر الجلف الجافى برميه ، يصيبه سهم فى كفه ، يجرى ابن إياس .

رأيت أبى يصرخ ..

يا أتباع قتلة الحسين ، يا عبيد الأمة ، يا شذاذ الآفاق ، يا عسس ،

يا سماسرة ، يا قتلة أولاد الأنبياء ، والله ان الغدر فيكم لقديم يا أنجب ثمر ..

يسأل ولیم كیزی مدير المخابرات المركزية ..
من هذا ؟

قيل لى انه رجل فقير ، لم تنشر الصحف اسمه ، ولم ير فى حفلات
الاستقبال ، ولم يمش فى جنازته على القوم ، لم يتقدمها مندوب من رئاسة
الجمهورية ، أو باقات زهور ، لم يمك طيلة حياته بالدولار ، كما أنه لم يعرف
التوكيلات السياحية ، ولم ير البحر إلا مرتين عندما سافر إلى مدينة الإسكندرية
فى مهمة رسمية ، ولم يجلس ساعة متصلة فى غرفة مكيفة الهواء ، ولم يرتد إلا
ملابس مصنوعة من قماش محلى .

يقول موشى ديان ضاحكاً .

انحارب جمعاً فيه مثل هذا ؟ ، إنا لمتصرون ..
يردد المذيع ..

سلم تسلم ، أمامك الحياة الهينة فلا تكن من الهالكين ، من دعوكم تخلوا
عنكم ، من وعدوكم بالموازة خذلوكم ، أنتم محاصرون من جميع الجهات ،
ولا أمل يرجى لكم ، أيها المحارب .. قف وفكر .. الق برمحك ، حطم
سيفك .. سلم سهامك ..

يتقدم أبى حاملاً الراية ، يمسكها بيد ، ويشهر سيفاً باليد الأخرى ، انه
أول من برز إلى الحرب ، قاتل قتالاً شديداً حتى قتل نيفاً وأربعين رجلاً ، تكاثر
الجمع عليه ، رأيت نصلاً يصيب ساقه ، وعرفت عندئذ أصل تلك الندبة
الغائرة فى ساقه اليمنى ، والتي تأملتها طفلاً ، وتحسستها عندما كنت أقعد أمامه ،
يلدعبنى وأداعبه ، وتأملتها كبيراً عندما كان جلبابه ينحمر قليلاً ، غير أننى كنت
أحيد ببصرى فلا استفسر ، تلك الندبة لا بد وانها اختفت الآن بعد ان دب
البلى إلى جسمه فى القبر ، وضاعت ضمن ماضع إلى الأبد من ملامحه . طرت

مرتفعاً ، وطرت منخفضاً ، وعندما انجلى الغبار رأيت الراية في يد صاحبي إبراهيم عبد التواب ، لم أقف لأبي على أثر ، شغلت بالبحث عنه ، لكنني لم أره ، وعجبت ، وان كان عجبى الآن أخف عن ذى قبل لكثرة ما رأيت ، وغرابة ما جرى لى ، أقول أيها الملقى الفطن انه ألقى في فهمى اننى سألقى أبا مرات أخرى . وان هذا ليس آخر عهدى به ، وان ما أشهده وما شهدته ليس بالخط الأخير ، فالترحال مازال ممتداً ، وعلم مداه عند ربى ، سبحانه ، لا أشرك به أحداً . طمأننى إدراك ذلك . وعددته من علامات الرحمة لى ، والرفق بحالى ، مع إننى مجتث الرأس من القفا ، لاجسد لى ، دمي يقطر ، فيختلط بالغيوم والشفق ، والضوء الذى يسبق شروق الشمس ، ويندمج بقوس قزح . لم أدر كيف سألقى أبى ، هل سأقابله كما قابله من قبل ، أم أننى سأحوم حوله ، يفصلنا بعد ، ويمتدنا نأى ، وأنا مغموس فى الغربة ، أنظر إلى مايجرى ، فأرى خروج مازن «أبو غزالة» قاتل كالليث حتى قتل . يدعوله عبد الناصر .

اللهم ارحمه ، وادخله الجنة .

يخرج إبراهيم زيدان ، ادقق النظر محاولاً متابعتهم ، غير أننى لم أقدر ، علا التراب ، وسال الدم ، أرى رشق السهام كالطر ، اصغى إلى عبد الناصر يقول لصحبه ...

قوموا رحمكم الله إلى الموت الذى لا بد منه ، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم ..

يخرج القائمقام محمد عبيد ، وقرآن مجهول الاسم قتل فى شارع مراسينة بمنطقة السيدة زينب خلال ثورة العام التاسع عشر بعد الألف والتسعمائة .. يقولان لعبد الناصر ..

السلام عليك يا أبا خالد ، انا جئنا لنقتل بين يديك ، ونرفع عنك ..

يقول ..

يرحمكما الله ..

استدناهما منه ، فدنوا وهما دامعان ، قال ..

ما يبكيكما يا جندىَّ العزيزين ، فوالله إني لأرجو أن تكونا بعد ساعة قريرى العين ، قالوا : جعلنا الله فداء أمتنا ، ما على أنفسنا نبكى ولكن نبكى عليك ، نراك وقد احيط بك ، كل من ادعى الولاء لك وللبادئك يوماً يقف حائلاً بينك وبين الماء ، قال : جزاكم الله خيراً .. قالوا : السلام عليك ورحمة الله يا نصير المهضومين والضعفاء ، قال : السلام عليكما ورحمة الله وبركاته ، فقاتلا بالقرب منه حتى قتلا

وهنا سمعت اربيل شارون يقول للجلف الحافى : أتدرى من نقاتل ؟ إننا نقاتل فرسان العصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين ، لا يبرز إليهم أحد منا إلا قتلوه على قلوبهم وصعوبة احوالهم ، ظننت ان ظهورنا المفاجئ الصاعق سيقضى عليهم ، ظننتهم سيستسلمون .

ثم حمل الجنرال موشى ديان على ميمته عبد الناصر ، فثبتوا له ، وجثوا على الركب ، وشرعوا الرماح ، فلم تقدم الخيل ، ولما استدارت رثقها اصحاب عبد الناصر بالنبل ، فصرعوا جون فوستر دالاس ، موردخاى جور ، والعزير هنرى ، ثم حمل جمع من قوات الانتشار السريع على ميسرة عبد الناصر ، وثار من شدة القتال غبار شديد وما ان انجلي إلا ومصطفى أبو هاشم عامل البترول السويسى المنشأ والمات صريع ، وإلى جواره عويس بائع الفجل السريع الأرزقى ، ومرجان النوى ، ومشى إليهم عبد الناصر ، قال : يرحمكما الله . يدنو الفريق عبد المنعم رياض ، يقول : يعز على مصرعكم ! أدعو الله أن يدخلكم الجنة . قال مصطفى أبو هاشم : بشرك الله بالخير ، قال الفريق عبد

المنعم رياض : لولا أنى أعلم ان فى الأثر من ساعى هذه لأحببت ان توصينى بكل ما أمهلك . فقال له مصطفى : إنى أوصيك بهذه . وأشار إلى راية عبد الناصر ، ثم انشد :

نصروك أحياء وعند مماتهم
يوصى بنصرتك الشفيق شفيقا

ثم حمل جيمى كارتر ، فى جمع من أصحابه على أصحاب عبد الناصر ، فتصدى لهم أحمد عرابى ومعه عشرة ، فكشفوهم وقتلوا منهم الكسندر هيج ، وقتل ثمانية من أصحاب عبد الناصر بينهم أحمد عرابى . كان الرجل بعد الرجل يأتى إليه فيقول : السلام عليكم ورحمة الله يا نصير الفقراء ، ونصير الوطن . فيجيبه عبد الناصر قائلاً : وعليك السلام ، ثم يقرأ : « ومنهم من قضى نحبه ومنه من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » ولم ينقض وقت طويل حتى قتلوا جميعاً فيما عدا سبعة وقتلوا يهودون عن عبد الناصر الهجمات الأخيرة ، سبعة لاغير ، وهم ماسح أحذية ، قتل أثناء قصف مدينة بورسعيد العشوائى ، ودفن تحت الردم ، ولم يسأل عنه أحد ، ولم يستفسر عن غيبته أحد ، ولم يتحر مصيره مخلوق لأنه كان غريباً ، كذا لم يعثر على جثته فى زمنه ، وغلام يرتدى زياً قديماً وعمامة خضراء صغيرة لم أدر إلى أى عصر يتسمى شفيق سدراك ، واحداً ممن عرفت ، ممن استشهدوا يوم السادس عشر من أكتوبر ، كذا رأيت جواد حسنى ، وعصام الدالى . وجندى مجهول الاسم عندى ، ورجل مغربى جاء إلى مصر عابراً وأقام فى زمن بعيد ، سمع بأخطار الفرنجة فخرج مع الخارجين للمغازاة فى سبيل الله . وقاتل حتى قتل . يبرز كل منهم إلى أثر صاحبه حتى لم يتبق إلا الغلام ، فعانق عبد الناصر عناقاً مريئاً ، يتقدم راجلاً ، يعترضه الجنرال رفايل ايتان ، يضربه فيصرعه ، ينادى الغلام ..

يا ابتاه عليك السلام منى ...

تنهر السهام ، والطلقات الحارقة الحارقة حتى يصير درع عبد الناصر
مرشوقاً كالقنفذ ، يبقى مطروحاً على الأرض ملياً ، ولو رغبوا قتله لفعلوا ،
يصبح الجلف الجاني من بعيد ..

ويحكم .. ماذا تنتظرون ... اقتلوه ..

تحاملوا عليه من كل جانب . ضربه الجنرال أربيل شارون على كفه الأيمن ،
وضربه جون فوسر دالاس على كفه الأيسر . وضربه رونالد ريغان على عاتقه
ثم انتزع مناحيم بيغن الرمح قطعته في بواني صدره . ورماه جيرالد فورد بسهم
فوقع في نحره ، وعندئذ اشاروا للجلف الجاني ، أذنوا له ، فتقدم محمياً بهم ،
صدره مغطى بالقميص الواقي ، حول معصمه ساعة تنذره بأى خطر قريب ،
وعصا تحوى فيما تحوى جهازاً يطلق مادة مخدرة لمن يريد الاقتراب منه لإلحاق
الأذى به . وفيما بعد قالت صحيفة الواشنطن بوست إن حمايته كلفت دافع
الضرائب الأمريكى ثلاثة مليارات من الدولارات . هكذا يكون هو أعلى العبد
سعراً منذ أن عرف العبيد ، عندما اقترب من عبد الناصر اعطوه سيفاً ، يغمض
عينيه ، يهوى بالسيف فيحتر الرقبة ، عندئذ بدأ القوم سلبه ، فأخذ قيصره
الجنرال الكسندر هيچ ، واخذ سراويله عثمان أحمد عثمان المفاول ، واخذ درعه
مناحيم بيغن ، واخذ قطيفة له كانت من خبز امرأة الجلف وزوجه لعنهما الله .
وأخذ خاتمه الياهو بن اليسار ، واخذ فردة صندل كان يرتديه ذلك المذبح الذى
قرأ الانذار تلو الانذار .

كنت أحملق مذبحاً من الألم فوق ذبى الفعلى ، ها أنا أسمع وأرى ، ولا
أفعل ، لا أقدر ، هذا حبيب اكتملت دورته ، تجرعت الغصص ، فغمزنى
حال دونى ودون الرسم عندى ، يتأبى ضيق ، يلف ما تبقى منى ، غائب

ستطول غيبته غنى ، فلا وعوده ستتردد فى سمعى ، ولا صوته سيصرف غنى
 ترحاً ، ولا ظهوره سيلوح لى ، وعندما تتردد سيرته ، ستقول ، كان هنا
 يسعى ، وكان هنا يخطب ، وكان هنا يلوح ، وكان يعد .. كان . انتهت إلى
 حالى ، وإذا فى ارتفاع وأعلو ، رأيت ما بين المشرق والمغرب مجللاً بسواد عقيم ،
 دققت ، تحققت ، وعندئذ اطلعت على عجب عجاب ، انهن نساء مصر
 كافة ، من أزمنة متعاقبة ، مختلفة ، من مضارب خيام ، وعشش بوص ،
 وبيوت من الطين ، أزيأهن متنوعة ، كذا أغطية رموسهن ، لكن ما يجمع
 بينهن أنهن متشحات بسواد قديم ، ينحن ، يبكين ، يتضرعن ، يرثين الليث
 المولى ، ويجزعن للمركب الموحولة الجانحة ، رأيت جلدنى كما عرفتها فى طفولتى ،
 نحيلة ، طويلة ، تلتحف بالشقة الصعيدية ، رأيت جلدنى أم أبى عمياء لا ترى ،
 رأيت جدة لى عاشت فى زمن بعيد ، رأيت أمى واختى وجارتنا القديمة وامرائى
 وزميلاتى وكل من وقعت عليهن عينائى صدفة فى طرقات مدينتى والقرى التى
 رحلت إليها ، وبائعات فقيرات يفتشن الأرض بجوار الأضرحة ، والمزارات
 وفساقى الموتى ، رأيت امرأة العزيز ، ورأيت شجرة الدر ، ونساء الأحياء البلدية
 اللواتى خرجن متظاهرات ، رأيت نساء حاسرات ونساء محجبات ، نساء يقرأن
 ويتحدثن بعدة ألسنة ، ونساء لا يميزن الحرف من الحرف ، رأيت نساء خرجن
 من بطون الحوارى فى تلك الليلة المظلمة التى أعلن فيها عبد الناصر التنحى ،
 كن حافيات ، يجهلن وجهتهن فى الظلام ، والمدينة الخائفة ، ارتفعت إلى
 مسافات أعلى فغابت غنى اصواتهن ، عرفت اننى رأيت حشداً لم يتفق ان تجمع
 مثله من قبل فى عالمنا الأرضى ، وانهن لو وقفن صفافاً واحداً لأحطن كوكبنا
 الأرضى سبع مرات عند خط الاستواء ، تمنيت لو جلست بينهن ، لو اصغيت إلى
 لغاتهن ولهجاتهن ، بعضها قديم مندثر لم افهمه ، ومنها الذى لم تولد حروفه بعد ،

غير اننى تأيت ، ابطأ زمنى ، رككت الحسرة فى قوادى ، رددت : صبرا على
النائبات صبرا . فكرت فى ابي ، ابن هو ، اين ؟ عندما كدت اغمض عيني
يامساً ، وإن أولى بعيداً عن وجودى ، لمحت مولاي وسيدى ، فخفضت جفنى
لأننى لا أقدر ان اخفض رأسى ، قلت : هلى يا قوادى وكبر ، مازال أمامى
مقدار ما بين الثرى والثرى . انقلبت اجوالى ، ففرت ذرا الفرح الإنسانى ،
تمنيت لو أجلت لحظة التلاقى حتى لا تنقضى حلاوتها وتصبح ماضياً لا يمكننى
استعادته ، اتجهت إليه على مهل مؤجلاً النعمة ، والصبوة ، شغلنى مرأى وجهه
عن كل ما عرفته من كلوريات ، حمت حوله ، وعندما أذن لى حططت على
كفه الأيمن ، فبللت ثيابه بدمائى ، لأن عنى يتزف ولم يكف ، استكنت ،
وصار من عزائى اننى مذبح القفا مثله ، لم اعن بالسؤال عن مصيرى أو عما
سيجرى ، وهل سيلثم شمل رأسى وبلدى ؟ كنت فرحاً برؤياه . حتى آتى صرت
رقية الوصل بين الحشن واللين . بين الحار والبارد ، بين الحزن والفرح . بين
المظلم والمضىء . كنت فى حركة داخلى حتى وسع رأسى المحزوز العالم كله . فلم
اطق نفسى ، لقد فهمت البشارة . آويت إلى كفه كما يأوى طفل إلى حضن أبيه
الذى عاد بعد زمن بعيد . نظرت فرأيت جثمان عبد الناصر ، عارياً بلا رأس ،
ألقى فى معارفى ان أبى يمشى الآن ، يسعى فى مكان شديد . عدت انعم بالقرب
واستنشق الشوق من اعطاف الحبيب .. قلت :

الغريب من جافاه الحبيب .

اجابنى سيدى ، سيد سادائى ..

بل الغريب من واصله الحبيب ..

قلت : أما والحال هكذا ، فاسمح لى بالبكاء على أحوال احدثت هذه

الجفوة ، شرعت ادمع ، مردداً ، حسبي الله ونعم الوكيل ..

موقف الجمع

لعل انحدار الدمع يعقب راحة
من الوجد أو يشقى نحيى البلبل

.. خالق الأصل والظل وما بينها ، فإن شاء حسر ، وإن شاء أسبع ، فالتق
الحب والنوى ، فإن أراد جمع وإن رغب فرق ، فالتق الرق ، فإن شاء قرب
وأدنى ، وإن شاء أقصى ، مجيب لدعوة الداعى ، فإن شاء أعطى وإن شاء
منع . أوقفنى فى موقف الجمع وأنا ناقص ، وليس لناقص أن يسأل عما ليس
بناقص ، كنت رأساً فقط ، أما الجسد فبعيد ، لا استقرار لى ، ولا جنب
عندى اضطجع عليه ، وأصعب أنواع الرحيل عندما يرحل الإنسان داخل
ذاته ، فتمر به الدنيا ولا يراها ، وهذا من عذاب الدنيا ، أوقفنى وليس لى
ساقان ، أو ذراعان ، هكذا تم انتقالى من موقف الشدة إلى موقف الجمع ،
وهو موقف صعب ، له من أيام الاسبوع يوم الجمعة ، ومن النهار اللحظات
الفاصلة بين الثانية والثانية ، ومن الليل لحظة انتصافه ، أنتمى إلى اليوم الراحل
أو إلى اليوم المقبل ؟ ، ومن الشهور فبراير اقصر الشهور عمراً ، الشهور كلها
تسبقه أو تلحقه ، محيطة به إحاطة الأشقاء الكبار بأخيه الأصغر ، له من
الألوان قوس قزح بدرجاته ، ومن الطبيعة اكتمال أوراق الشجر فى الربيع قبل
فراق الأغصان الحريق ، علومه جمّة ، فنها علم اللقاء ، وعلم إضافة الحرف إلى
الحرف ليكتمل المعنى ، وعلم وقوف الكواكب على خط مستقيم ، واقتزان
الشمس بالقمر ، وظهور النجوم وعلم ارجاع الأشياء إلى أصولها ، وعلم الزوال

والحكمة منه ، وعلم كل من عليها فان ، وعلم لا تدرى نفس بأى أرض تموت
ولا تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وعلم اللحظات القديمة ، وفيه علم الطول
والعرض ، وما ينتج إذا تجاورا ، وعلم نجوى ، وعلم سلوى ، وعلم المولعين
بالوصل ، وعلم لحظة استقرار الشعور بالفراق ، وعلم اللحظة الأخيرة التى لن
نرى بعدها أحباباً نعرفهم أو مكاناً ارتبطنا به ، وقضينا فيه زمناً ، وترديدنا
الصامت : وهل سنرى ما رأيناه مرة أخرى ؟ وهل تكون الرجعى ؟ ، كذا علم
اجترار الزمن القديم ، والأشواق المجهولة وعلم الحشوع المطلق عند المرور بالطلل
الدارس ، والشجر المجتث ، والمياه التى جفت فى القنوات القديمة . والسواقي
العتيقة التى كفت عن الدوران ، والمقاهى التى أغلقت أبوابها وانفض منها السمار
والأغراب والعابرون وعلم انطواء الدهر ، وعلم تلامس الشفاه التلاقى بينه وبين
حبيبته . وأما العلوم التى تخصنى فى هذا الموقف فعديدة ، منها علم ضعفى وقلة
حيلى . اعلم أيها المتلقى الفطن أننى ضعيف . أضعف مما تتصور ، وأرق مما
تتخيل ، وقلبي لا يقوى على استعادة الزمن القديم ، وعشقى الذى لن يعود ،
كألا أقدر على وصل وريقة شجرة بغصنها الذى انفصلت عنه ، ومن علومى
علم الفرق بين نهار اتوقع عند انتهائه رجوع أبى إلى البيت ، أو مجيئه إلى
يبنى- عندما أصبحت رباً لبيت ، وصرت أباً بدورى ، ومرورى بمبنى
الوزارة وأنا أعرف أنه فى مكان ما منه - وبين نهار أعرف أنه سينقضى وأننى لن
أراه أبداً ، ويقينى أننى لن اسمع خطواته فوق السلم ، ولا طرقاته فوق الباب ،
كذا علم نسيان الأصوات ، مذاقها ، وترددها ، تلك الأصوات التى قضينا زمناً
نصغى إليها ، ونحاورها ، وبعد غيابها يخيل إلينا أنها معنا وأنها لن تغيب قط
حتى تجيء اللحظة التى نكتشف فيها فجأة أننا لن نستعيدها أبداً . أننا نسيناها .
أنها غابت إلى الأبد ، وأن ترددها من حين إلى حين فى الذاكرة الإنسانية لن

يدل عليها قط . تذكرت النعمة التي حلت بي عندما مررت بمترى الأصوات
الباقية . لكنها نعمة موقوتة شأن النعم كلها ، هذه علوم جمّة ، لو افضت فيها
وشرحت فساطيل وافصل ، وهذا يرضى ، ويهدئني ، لكنني أخشى عليك
الملل أو الضيق أيها الملتقى عني ، لذا سأتجاوز واحدك عن رحلي في هذا الموقف
إلى زمن لم أولد فيها بعد ، زمن لم استنشق هواءه ، ولم تقع عيناى على
فراغاته ، وفضاءاته ، سبح رأسى في ثلاثينيات قرنتنا العشرين هذا الذى ولدت
فيه ، وربما أموت فيه ، لا تدري نفس بأى أرض تموت ، رأيت رؤيا سررت
بها ، إذ أنها لم تتحقق لغيري ، حلقت في فضاء ميدان الحسين القاهري ،
وكنت أرى ولا يراى أحد ، درت حول المثذنة النحيلة الرشيقة السامقة ،
سدلت بصرى إلى الدكاكين والمقهى القديم ، فرأيتة هو ، رأيت أصلى ،
ورأيت الجذع الذى تفرع منه غصنى ، رأيت أبى ، الحبيب القريب الذى
نأى ، وبذهابه وموته مات جزء من عمرى قد يكون أطول وأغنى وأعمق من
الجزء المتبقى ، مات جزء من تاريخى ، ليس للإنسان إلا ما سعى ، بالأمس
نسيت وغدًا أنسى ، صرت مقطوع الجذر ، والريح يمكنها اقتلاعى ، صرت
متأهبًا لدوران الدائرة على ، وتمكن النابتة منى ، ولم أعد ماكثًا غير بعيد ، رأيت
أبى الذى لن اصغى إلى صوته في حياتى الدنيوية المتبقية ، ولن أحاوره ، إذ ولى
زمن المؤانسة وراحت أوقات الغبطة برؤيته ، خاصة زمن طفولتى ، وقد كنت
أبتهج في بادية سننى ، وأصير قرير العين ، ناعم الأحلام ، مطمئنًا لحيىء
الغد ، عندما أنام إلى جواره ، وافتح عيني في الصباح فألقاه بجوارى ، ويزداد
فرحى عندما أعلم أن اليوم عطلة وأنه باق معنا ، لكن لما يست وشيبت واشتد
عودى ، ولّى زمن القرنى ولم أعد أنام إلى جواره ، ليت العهد يعود ، ليتنى أنعم
بجواره ، بالحديث إليه ، ليته أذن لى بقاء ، أقول ذلك وأنا أراه من موضع

تخليق ، واتباع خطوه أثناء عبور الميدان ، أراه في لحظة يستحيل على غيرى أن يراه فيها ، إنه قادم من موقف الشدة حيث كان يحمل الراية وشهر السيف اليماني ، رأيت الندبة في ساقه لم تلتئم بعد ، حذقت فتيننت غباراً يتخلل شعره ، ذرات رمال من تلك الصحراء التي حوصرفها مع صحبه ، عرفت من أين جاءت هذه الذرات لكنني لم أعرف إلى أين ستمضى بعد مفارقتها لرأسه ، وهنا أوتيت كشفاً مناسباً للموقف فرأيت هذه الذرات وقد توزعت على سبعين موضعاً من الدنيا بعد مفارقتها لرأسه وبعد رحيله الأبدى ، لو ذكرتها كلها ، لو احصيتها للآن لاستوعبت مجلداً يصعب حمله ، احطت برحلة كل منها ، عرفت كيف وصلت كل ذرة إلى الوضع الذي وصلت إليه ، انتهى الكشف وحططت فوق شرفة المثذنة الدائرية ، ومما خصت به قدرتي الاحاطة بعدة أشياء في وقت واحد ، كأن أصغى إلى أحاديث عدة وأميز كلا منها ، أو أرى ما يجري في مكانين متباعدين أو أكثر ، ها هو أبي يقف أمام مقهى العجم ، إنه مقهى قديم اندثر في خمسينيات قرنا العشرين . وموضعه الآن في زمنك أيها الملتقى عني مجموعة من الدكاكين تتغير المعالم ، وتبدل المباني ، لكن الأرض التي عرفت وقع خطاه هي هي ، كم من أما كن تردد عليها ، وكم من أبواب طرقها ، وحشايا استند إليها ، ومقاعد ودكك جلس فوقها ، ثم زالت ، تفككت ، تفرقت أجزاءها ، وددت لو تعقبت أثر كل ما لامسه أبي ، أو وقعت عيناه عليه ، لعل شيئاً ما يحتفظ بأثر غامض منه ، لم تتحقق رغبتي ، لكنني تلقيت وعداً جميلاً باحتمال وقوع ذلك ، عندما يحين الوقت والموضع المناسبان ، ها هو يتردد ، لا يدخل المقهى ، لو جلس بمفرده سيطلب كوب شاي أو فنجان قهوة ، سيكلفه ذلك خمس مليات ، وهو في حاجة إلى المليم الواحد ، فنذ أمد وهو بلا عمل ، منذ أن فارقت يدها راية عبد الناصر ، منذ أن رحل عن

تلك الموقعة بطريقة ما ، وقع عليه الاختيار ليقى ، وليقص ما جرى على أجيال متعاقبة ، وفى أزمته متباعدة ، حتى لا يضيع ما جرى كما ضاعت أمور جمّة ، غير أنه الآن بلا مورد رزق ، منقطع ، وحيد ، ومدخره القديم ينفد ، والأمانى الكبار تخف ظلالها ، والعمر يحرق ، ها هو يلمح أحد أقاربه ، إبراهيم ، وإبراهيم هذا عرفته فى صغرى ، وفى كبرى ، يمت إليه بصلة قرابة ، كان آخر من زاره أبى ليلة الثلاثاء ، ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر ، بتشجع أبى فيدخل المقهى ، يصفحه إبراهيم ، يسأله عن أحواله ، يقول أبى إن الدنيا كلها مغلقة فى وجهه ، يقول إبراهيم إن الفرج قريب ، يقول إن خلف بك سيأتى ، ها هو خلف بك يصغى إلى أبى ، أبى مطرق ، وإطراقه هذه واحدة من اطراقات عديدة أدت إلى تغيير بعض مما تصور أنه لن يتغير ، وإلى وهن ما تصور أنه لن يهن أبداً ، اطراقات متفرقة ، كل منها وقعت فى زمن ، شعر ببعضها ، ولم يشعر بالأخرى ، لم يلحظ ترابطها ، وتتابعها ، وتأثير كل منها بحيث أدت إلى وضع لم يتوقعه ، وتراجع عن نوايا لم يتصوره . إنها تلك اللحظات التى تمر بنا ، ولا ننتبه ، لكن بعد حين طال أو قصر يحدث التغير ، يصبح الإنسان ليس هو ، مع أنه هو هو ، لم يتغير ولم يتبدل ، ها هو يدارى خوفه وقلقه بينا باطنه يأمل وتلك أحاسيس شتى جهلناها ولم نطلع على مكنونها ، ولم نقف على أسرارها ، كذلك هذه اللحظة بعينها ، وقد عاودت أبى مراراً ، وكانت آخر مرات استرجاعها يوم الأحد الموافق للسادس والعشرين من شهر أكتوبر . ومن الأمور العجيبة التى وقفت عليها أنه استعدادها فى حضورى مراراً . لكننى لم ألحظ ذلك ولم أنتبه ، وأتئى لى أن أقف على سر العلاقة بين تغير ملاحظه الذى يكاد لا يرى أو يرصد ، وبين ما يحول فى خاطره ، وهذا علم قائم بذاته ، غامض ، وأسراره بلا حصر ، والعجيب الغريب أن أبى

أثناء استعادته لهذه اللحظة كان دائماً يخشى ألا تنتهى به إلى النتيجة التى انتهت إليها فى ذلك الزمان البعيد . وقد عرفت يا أجبائى مثل هذا الشعور مع فارق فى الموقف . حدث أثناء سهري عند صديق حميم ، دعانا ذات ليلة إلى العشاء ، ثم جاء بجهاز العرض ، رأينا ستة أفلام متعاقبة ، رأينا العربة التى تجر المدفع عيار ١٣٠ مليمترا ، تتوقف فى مواجهة المنصة ، ونزول خالد منها ، وعودته الخاطفة ليتناول مدفعه ثم تقدمه الجسور ليفنى الزمن الحسيس ، ليقضى على الجلف الجافى ، ليثار مما جرى ويحمرى ، وما وقع منه فى موقف الشدة عندما منع الماء عن الداعين إلى الثأر من مقتل مولانا وسيدنا ، وفى كل مرة نرى فيلماً جديداً ، وتتوقف العربة ، أخشى ألا تنتهى الملاحظات إلى ما انتهت إليه ، أخشى أن يعاق خالد ، ألا يتم ما بدأه ، وكأنى أعيش وقوع الحدث نفسه بدون معرفة نتيجته . ها هو خلف بك يصغى بوجه جاد الملامح شأن من يقبض بيده على سلطة ، ومن يقدر على تقرير أمر ، بعد أن اصغى طلب - بدون النظر إلى أبى - أن يكتب طلباً ، وأن يأتى به ، لعل وعسى ، يرفع أبى صوته بالدعاء ، ينصرف ، أراه فى مكان قريب يمسك ورقة بيضاء . إنه حائر ، لابد أن يلحق بخلف بك قبل ذهابه ، تلك فرصة قد لا تسنح مرة أخرى . لكن من يكتب الطلب ؟ لو . لو أنه تلقى قدرًا من التعليم . لو التحق بالازهر ، ليس من اللائق أن يطلب من خلف بك كتابة الطلب له ، عند هذا الحد وقع عجب ، ومع أن العجائب تواردت علىّ حتى لم أعد أعجب لشيء ، إلا أن ما جرى لذهلنى وأنا رأس مقطوع بلا جسد ، لكننى رأيت جسدى يمضى أمامى ، أمام أبى ، يتصل برأس ليس هو رأسى ، ويحمل وجهًا ليس وجهى ، وعندما دقت النظر تخالفت لعينى ملامح عبد الناصر ، لكننى لم أثق أنه هو ، غير أننى تأكدت من جسدى ، إذ كنت أشعر به وأنا فى مرقلى على حافة الشرفة الدائرية لمسجد

الحبيب المتزه ، والشفيع الأوفى ، تلك يدي ، وهذا صدرى ، هذه أصابعى ،
أدركنى شوق نادر ، شوق من نفس إلى نفس ، لفتنى وحشة ، وحن رأسى إلى
جذعى ، ورقت هامتى لجذرى ، وهذا شعور خصصت به ولم يتفق وقوعه
لأحد من بنى البشر ، حتى لمشايخى الأجلاء ، إذ أن أحداً منهم لم يقف مثل
موقى ، ها هى قدمائى تخطوان على مقربة من أبى ، يسعى نجاهى ، يطلب
السماح بلحظات قليلة من الوقت الغالى ومساعدته على كتابة هذا الطلب من-
سطور قليلة ، عندئذ امتدت يدي إلى جيب تلك الثياب التى كانت تستر
جسدى تناولت قلماً ، نزعت غطاءه ، وفوق منضدة مستديرة من نحاس أمام
دكان يبيع الحزى الملون ، والحزف العتيق ، بدأت يدي اليمنى تكعب الطلب
الذى أخبر أبى عن مضمونه شفاهة ، فخطت يدي التى بم عزل عنى ، ما-
نصه .

السيد صاحب العزة والمعالى وكيل وزارة الزراعة .

نحية طيبة ، .

أتقدم إلى معاليكم ، راجياً مساعدتى فى الحصول على عمل باليومية
كعتال ، حيث أنى رجل فقير وأعول أسرة كبيرة .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مقدمه لجنابكم

.. تمتد يدي بالقلم ، يتناوله أبى ، على مهل يوقع ...

أحمد الغيطاتى

تأثرت بالصيغة البسيطة والكلمات القليلة ، كما أنى فوجئت بشيء لم أعرفه

أبداً ، وما أكثر الأشياء التي لا أعرفها عن أبي ، آه يا أسنى ، ولم أكن أيها المثلقي الفطن جاحداً به ، لا والله العظيم ، لكنه زمني القبيح ، وغفلة الطبيعة الإنسانية ، عرفت أن أبي تقدم للعمل كعتال ، وأنه قضى زمناً يحمل أجولة بذور القطن في قسم البذرة . وقد كنت أعرف دائماً أنه ساع يحمل الخطابات ويفرقها ، هذا واقع حقيقى لكنه لم يبدأ ولم يتحقق إلا بعد عمله أربع سنوات في قسم البذرة ، وهذه الحقيقة موقعها علم تواضع الآمال ، وهو علم يخصنا كلنا ، أما ما يخص أبي منه فكثير ، وقد تواضعت آماله بعد التحاقه ، وبعد زواجه ، صار انتقاله من عمله كعتال يحمل الأجولة إلى ساع يفرق البريد أمراً يستحق الجاهدة ، وأشد أهمية من التحاقه بالأزهر . أمنيته الأولى ، وهنا معانٍ عديدة يتضمنها هذا العلم وقفت على بعضها ، فمن ذلك أنه ليس كل من مد يده نال ما يطلب ولا كل من نام حلم بما يريد ، ولا كل من ادعى سلم له بدعواه ، ولا كل من دعا اجيب ، ولا كل من وصل ود ، ولا كل من بكى أرضى ، ولا كل من منع خاب ، ولا كل من سبغ غرق ، ولا كل من خُوف ارتعد ، ولا كل من أومن اطمأن ، وفي موقعى هذا استعدت أمراً جرى قبل أن يجرى ، وتم قبل أن يبدأ ، إذ جال برأى عندما ذهبت إلى الوزارة ، وصعدت مع شقيق الأصغر إلى قسم التحقيقات القانونية ، مررت بالطريقة التي كان يجلس فيها ، دخلت لأنها أجرات صرف المعاش لأمى ولشقيقتى التي لم تتزوج بعد ، جلست إلى مكتب أحد الموظفين ، والحق أنهم قابلوني بالرحمة ، وغضوا البصر عندما ذرفت دمع الحزن ، بعد أن رأيت جدولاً يضم أسماء عاملين استحقوا مكافأة ، كان اسم أبى مدرجاً ، إلا أن خطأ طويلاً بالمداد الأحمر انطلق امامه يسد جميع الخانات ، وينتهى بعبارة تقول إنه توفى في ٢٨/١٠/١٩٨٠ ، قلبت الأوراق في ملف الخدمة ، طلبت إجازة ،

وكشوف ، وتوقعات أبي ، وقعها في أيام شتوية باردة ، وأيام صيفية ، في أيام ممطرة ، وأيام صافية ، في الصباح وعند الظهر ، وعند المساء ، وهو حزين ، وهو فرح ، وهو يفكر فينا ، وهو خلى البال ، وقلبت الأوراق ، حتى وقعت عيناي على أول ورقة بالملف ، استوقفتني ، إنه خطي ، الطلب الذي كتبته يدي أثناء انفصال رأسي ، وتفرق جسدي ، تأثرت بالصيغة البسيطة ، رأيت لحظة من لحظات أبي ، هذا الطلب البسيط إحدى المقدمات التي أدت إلى وجودي الدنيوي ، قرأت ما عليه من تأشيرات ، توقفت عند تأشيرة بقلم أحمر انيق الخط ، « يعين بأجريومي قدره خمسة قروش » ، خمسة قروش صاغ ، عدت إلى موقعي هذا ، استدعيت ما لم يقع بعد ، رأيت الطلب بعد رحيل أبي . ولون الحبر القديم ، والورقة البيضاء التي اصفر لون اطرافها ، تستقر الآن في موقع مجهول لي ، خزانة حكومية عتيقة ، أو مخزن في طابق أرضي ، رأيت أبي في الوزارة ، أيام عمله الأولى ، ها هو يستجمع همته ، وقواه ، رأيت ساقيه ترتجفان تحت ثقل الاجولة ، تتوتر عروقها ، يزداد باطنهما التصاقاً وقرناً من الأرض ، وكان بمقدوري تحديد وتمييز هذه المواضع التي توقف عندها لحظات عابرة ليحكم وضع حملة الثقل على ظهره . كان يضع طرف جلبابه الإمامي بين أستانه ويرفع يديه إلى الخلف بينما يرقد الجوال المليء بالبذرة فوق ظهره المنحني ، عند حد معلوم تبدلت ساقا أبي بساقى أنا ، كذا تبدلت سلسلة ظهره بدءاً من فقرات العنق السبع وحتى العصعص ، صار ثقله ثقل ، وأنيبه أنيني ، وأله المكتوم ألمي ، وارتجافه ارتجافي ، وقد وجدت ذلك عظيمًا خاصة وأن آهة واحدة لم تصدر عنه ، حتى لا يظنونهم ضعيفاً ، غير قادر على التحمل ، ارهقني ثقل الحمل الأول ، والذي كاد أبي يسقط تحته لولا أنه تمالك نفسه والله سلم ! ، كان الفارق بين ظهري وظهر أبي ، وساق وساق أبي أنه غالب المر

زمنًا ، وقاسى الأرجاع دهرًا ، وحمل قرب المياه فى البلدة ، وأغنام أقاربه
وعدى بها مصارف المياه ، أما ظهري أنا وساقاى فلم تتعودا حمل الأثقال لأنه
هو جنبني ذلك بكده ، وحمانى بتعبه ، وعندما اعتقلنى الضابط والخبر وأخذوا
عشرات من كتبي ، حملها أبى فوق ظهره حتى العربة الرمادية التى وقفت تنتظر
عند مدخل الحارة ، خفت أن اخذل أبى فلا يتحمل ظهري ثقل الاجولة ، أن
تلتوى قدماى ، عندئذ يفقد رزقه ، وهذا من الأسباب التى أضيفت إلى جملة
أسباب عذابى ، ثم اشتد الأمر فحمل ظهري فى مرة واحدة مقدار ما حمله أبى
فى يوم واحد ، ثم فى أسبوع واحد ، ثم فى شهر كامل ، ثم فى مدة عمله
كعتال ، وبرغم تعاظم عذابى ، وشدته على جسمى ، فقد كان نيمى فى
بلالى ، ودوائى فى دائى ، وراحنى فى تعبى ، ذلك أنى رأيت قسمًا من جسدى
ملتئمًا بأبى ، إلى درجة أننى حلمت بنعمة لا حرمان بعدها ، ووصل لا هجر
يعقبه ، وأمن لا خوف يدهمه ، كما أنى ملكت الدليل على اتصال أعضائى
المنفصلة عنى برأسى ، فقد عانى رأسى ما تعانىه اعضاءى ، تلقى منها وأخذ عنها ،
فعرفت أن ثمة وصلًا محتملًا ، وخيطًا غير مرئى لم يقطع ، وشملًا لم يتبدد
تمامًا ، رضيت بما حل بى ، ففى هذا عقاب عادل للجفائى ، وعدم اهتمامى
بالسؤال والاستفسار عن غضون غارت فى وجه أبى ، ونظرة أسى لم أعها إلا
بعد اختفائه عنى ، وذهابه الأبدى ، وانعدام امكانية التلقى والرد بيننا ، واليأس
التام من التلاقى ، حمت فوقه عند رجوعه من الوزارة فى الدق إلى سكنه
القريب من الحسين ، أراه ولا يرانى ، يمشى وحيدًا من الدق يعبر الكبارى فوق
النيل ، يقطع الطريق متمهلًا ، يتلفت حوله أحيانًا ، يرتفع صوته بغناه
صعيدى فيه حين إلى المنبت والمنشأ ، يسلى النفس فى غربتها ، ويدفع ويوفر
ثمن تذكرة الترام ، أو الأوتوبس ، رأيتة يستيقظ نشيطًا فى غرفته التى لا تحتوى

إلا على حصيرة قديمة ، نفس الحجرة التي آوى فيها عبد الناصر ليلة قبل ظهورهما معاً في كربلاء ، يتوضأ ، يصلى ، ثم يدعو الله الستر ، أن يغمض عنه عيون أولاد الحرام ، وأن يبارك له في ماله ، ها هو يقطع الطريق من العطوف إلى الدق في صباح باكر مندى ، يصلى قبل أن يصلوا ، و ينتظر ، ثم تبدأ أحماله ، فأعانى كل ما عانى ، وأقاسى كل ما قاسى ، رأيت يوم الجمعة يستيقظ نشيطاً ، فرحاً ، إنه اليوم الذى يمضى فيه الوقت الأطول إلى جوار ضريح الحسين الحبيب ، بعد الصلاة يمضى إلى مقهى العجم ، يلمح خلف بك فيمضى إليه ، يحبه في أدب ، ويقف على مبعده يسيرة لا يقربه لكن في غير ذلة ، خلو من أى إحساس بالضعة ، يحمل تجاهه الود العظيم ، إنه السبب في جريان رزقه ، وكانت تلك الوقفة وهذه الطلة بداية علاقة بينهما تقلبت بها الأحوال ، وأمدتها الظروف بالمد والجزر ، واستمرت حتى ذلك اليوم الذى كنت أجهل موقعه قبل أن يمضى ، الثامن والعشرون من أكتوبر ، ها هو خلف بك يسأل أبى عن أحواله . أبى يحمد الله ، يدعو له بالعمر المديد ، كان أبى يقول أحياناً ، اللهم لا تجعل يومه قبل يومى ، وكنت أنا أخشى رحيل خلف بك فجأة ، لأننى أعرف أن حزن أبى سيكون هائلاً ، ولأن ثمة هاجساً حدثنى دائماً ، أن رباطاً خفياً يشد مصير كل منهما إلى الآخر ، وقد أطال الله عمر خلف بك سنة ونصف سنة بعد رحيل أبى ، ولا تزال البقايا الغالية والتي تحوى ملابسه وأوراقاً شتى ، تضم شالاً حريراً عليه رسم الكعبة أهدها إلى أبى أثر عودته من أرض الحجاز ، كان أبى شديد الاعتزاز بهذا الشال ، يفرده ، ويطبقه بعناية ، ويحفظه من كل سوء ، يعرضه للهواء ، ولا يلفه حول عنقه إلا في المناسبات التى يندر حدوثها ، كذلك احتفظ بورقة من مجلة المصور بها تحقيق عن محكمة الخليفة ، وقاضيه محمد خلف الحسينى ، ويرجع تاريخه إلى أوائل

الخمسينيات ، ولو أنى قلبت فى مجلدات المجلة القديمة لعثرت عليه غير أنى لم أفعل حتى الآن . فى صغرى ، وفى ساعات صفاء أبى ، أجلس إلى جواره طفلاً وأقرأ له هذا التحقيق الصحفى ، يصغى مسروراً ، وعندما كبرت وشيبت وتشعبت طرقنا ، وتعددت سبلنا لم أقرأه له أبداً . أسأل نفسى الآن بلا فائدة ترجى ، لماذا وقد كنت قريباً منه بقلبي ، لماذا لم أنطق ، ولم أعبر ، فما وصله منى شحيح ، شحيح ، هذا ذنب ينوء به ظهرى ، فالنجا ، النجا ، فى يوم الجمعة هذا يقابل أهل البلدة ، القادمين ، أو المقيمين فى مصر ، يرحب بهم ، وينفق ما معه فى دعوة الذين نزلوا مصر أول مرة ، وقد يصير على صحبتهم إلى بيته المتواضع إن عز المأوى للقادم الغرب ، هذا ما فعله مع كثيرين ، وكم من أهالى بلدتنا الذين جاءوا فقراء معدومين ، تمددوا فوق هذه الحصيرة ليلهم الأولى ، ثم مضوا عنه ، ودارت بهم الأيام فأصبحوا من أهل الثراء ، والجاه ، وكنت على وشك أن أذكر العديد من الأسماء التى أعرف ، لولا أننى امتنعت أيها القارئ الفطن ، إذ أعلم أن ذلك لن يرضى أبى فى غيته الأبدية عنى ، وربما اعتبره منى تشهيراً يقوم أسدى إليهم معروفاً ضئيلاً ، والحق إننى لم اسمع منه هو ، بل سمعت بما قام به من أمى وخالى وأعمامى وآخرين ، يرحمنا الله من بعده ، ها هو يسعى ليطل على مريض من أقاربه ، أو معارفه ، أو ليشارك فى فرح ، يقضى واجباً هنا وآخر هناك ، يضحك عندما يحمد نفسه فى رفقة وأنس ، يقص الأحداث القديمة ، والأنساب والقربات ، والدرجات التى شغلها كبار المشهورين قبل أن يصبحوا وزراء ، أو باشوات ، أو زعماء ، كان يقول أحياناً ، أقربهم إلى نفسى عبد الناصر لأنه أنصف الفقير من الغنى ، ولأن والده كان رجلاً بسيطاً مثلى ، انتهت أثناء تهوى كما يتبته الغافل ، رصدت مرور لحظة عبرت بأبى كرفة رمش ، لحظة استقر فيها وهن تسلل إلى رغبته

القديمة ، المؤجلة ، أى الدراسة فى الأزهر. لا أقول انقطاع الرغبة ، أو اندثارها ، عسى أن تعينى الكلمات على التعبير عما رأيته من فضالى الذى اسبح فيه إنها لحظة مارقة لا يرصدها الوعى ، ولا يدركها فى حينها ، ثم تتكرر على فترات متقاربة أو متباعدة ، فتضعف همة ، أو تنفسخ فكرة ، أو تفتر عزيمة ، طرح النوايا القديمة لا يشمر فجأة ، لا يتقرر بغتة ، انما يتولد على مهل ، يتسلل بطيئًا ، ثم يندلع فجأة كلهيب شمع ، يبدو مستقرًا ، مرسلًا ضوءه ، لفترة ، ثم يتوهج لثانية ، ويعود ليخبو ، غير أنى رصدت اللحظة الأولى لانشاء أبى عن مقصده القديم ، وتلك لحظة بدت كخفقة عابرة ، أثناء مروره ما بين شجرتين قائمتين حتى الآن ، بجذاء النيل عند منطقة العجوزة ، غير أن شعورًا لم يفارقه ، ومؤداه أن كل ما يمر من ظروف وعرة عابر ، وأن ثمة وضعًا أفضل ينتظره ، وأن ثمة واقعًا مريحًا سيصل إليه يومًا ، لعلى أكون قد وفقت فى شرحى لما رأيته ، يحوم رأسى ويسبح فى فضاءات مصر ، رحلت مع الاصائل إلى الجنوب ، إلى جهينة ، ها هو أبى يعود لأول مرة بعد خروجه مضطرًا ، وبعد عدد من السنوات لم أدر مقلدها ، لأن مولائى واركبان الديوان لم يطلعونى على تاريخ خروجه أو عودته ، وذلك كعقاب لى على عدم معرفتى منه مباشرة ، رأيته عبنى أبى ، وشوقه ، ولهفته على رؤية كل المواضع ذات المعنى والدلالة ، اصغى إليه يتحدث فى رحبة بين البيوت ، الجالس إليه هو الشيخ عبد اللطيف محمد على ، والشيخ هاشم الكبير ، قال الشيخ عبد اللطيف إن الوقت قد حان ليكمل نصف دينه ، العمر يتقدم به ، ولم يعد صغيرًا ، أم أنه ينتظر حتى تلف عليه امرأة من نساء مصر فتطويه ، لماذا لا يفكر والبلدة أمامه مليئة ، مزدحمة . قال الشيخ هاشم الكبير إن هذا صحيح ، وإذا كان الله قد يسر له الرزق الحلال فلماذا يتأخر؟ ، أطرق أبى وفى النفس حاجات شتى ، لكنه قال إن عمله صعب ،

وعائده قليل . خمسة قروش ، هل تفتح بيتًا ، الزواج مسئولية . دنوت منهم ، كنت موجودًا وغير موجود ، اراهم ولا يرونني ، هذا وجه أبي ، وتلك حيرته التي أعرف ملاحها وترقرقها . لا أدري ، لماذا أدركني الحزن فجأة ، فارتفعت محلقًا في فضاء البلدة ، ذرفت دموعًا تساقطت فوق الدرب الذي يقسم البيوت إلى شقين متواجهين ، ولم يتبه بعد لأن دموعي قليلة ، شاحبة ، ولأن أوان المطر لا يزال بعيدًا ، نظرت إلى البلدة من عل ، فرأيته مضمومة ، محاطة بالنخيل ، والبيوت الصغيرة ، في أحدها ولد أبي ، وفي بيت آخر يجلس الآن ، وكنت أجهل موضع جسدي ، معزولاً عنه ، غريبًا . فلاختلاف سمة زمني ، لا تشابه أحوالي فيه ، ليس في كل حين أخص بالدعة ، ولا في كل وقت أناغي بلحن مطرب ، كنت عرضة لعتاب غامض ليس يقطع ، ويلاء محومًا أدركني ، طرف منه ، أمر ثقيل بدأ بفراق أبي .. لن يرتفع . وضيق وكمد لتواجد عدوى في وطني ، يتنفس الهواء ذاته ، وشوق لرؤية عبد الناصر الذي يبدو لي الآن حلمًا بعيدًا ، لمت نفسي لأنني ضقت به في زمنه ، وهذا قدر الإنسان ، لا يعرف جوهره إلا بعد انقضائه ، ولا يدرك كماله إلا بعد أفوله . فكان ندمي على أحبابي في مقدار ندم الذين تخلوا عن الحسين ، ولم ينصروه ، ولم يفرجوا لنجدته حيًا وانفاسه مترددة وقلبه خافق . وكان وجدى ممزقًا ، مشتتًا ، زمني العجيب يجمع ويفرق ، فإذا اينعت نفسي بالأمنيات ، اختلجت خواطري بالظنون ، وإذا انتعشت آمالي بالتوقع ، تضبيب غاياتي وصعبت ، وإذا تحركت إرادتي هدها الدبول ، آه ، ما من ذكر إلا وادركه نسيان ، وكما نسيت غداً أنسى ، ما من حب إلا شعثه السلو . عواطف ملائتي يومًا ، تهت بها ، واختلت ، وظننت أنها لن تتبدأ أبدًا ، ثم جاء حين من الدهر على عواطفى فأصبحت بدداً ، غربت وأقلت ، جاء زمن بردت فيه نار قلبي ، آه ، ما من

وجد إلا أدركه النقص ، وما من قواد إلا كدر بالرب ، وما من سمع أصغى إلا ويرم ، وما من لسان اسهب إلا كف ، ما من عين بكت أبداً ، وما من خاطر استقر وتمهل ، ما من قريب إلا أصبح بعيداً ، وما من حبيب إلا صار غريباً ، هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً ، ما نحن وكل الموجودات إلا خواطر غير مقيمة في ذاكرة الزمن . لكن .. أى زمن ، ما الزمن ؟ ما الدهر ؟ ما الوقت ؟. صحت في طوافي الليلي وأنا هائم بلا مستقر ، بلا مأوى .

يا حبيبي .. يا مولاي ، يا مجير أبي ..
لم يخبني الحسين ، تمثل لي بشراً سورياً ، وكائناتاً مكتملاً ، لا يدركه نقص إنساني .

قلت بلسان حيرتي ..
إلى أى مجال ارحل ؟ في أى فراغ اتحرك ؟ أى قوة تدفعني ؟ لماذا الأقول ؟
لماذا النسيان ، لماذا لا أختار ميعاد غروبي قبل أى يلوح ضوء شفق ؟ الزمن ، إنه الدهر ، أى شيء هو ؟!

ينظر إلى ، يصمت ! يرتج عندي ، لقد فهمت عنه ، تلك خطيئتي الثانية ، وسوس لي قوادى ، واغرتنى خواطري ، فقلت وتساءلت عما يجب ألا أسأل عنه ، لو سألتها عما لم احط به علماً للمرة الثالثة ، سبيل وجودي ، وأعود إلى سيري الأولى ، ستصير تلك التجليات كلها إلى عدم في عدم ، اسدل جفني ثائلاً ، مستغفراً ، راجياً العفو عني ، اشعر بنأيه الوئيد ، بابتعاد الحبيب ، يعاودني ذلك الجوع الذي لا تحركه معدة ، هذا الحرمان الذي لا تغذيه شهوة . يسقط ظل عليّ ، يخبئني خالد في طيرانه الأبدى ، أهدى الدهشة البرثة ..
هل تعرف أيضاً ذلك الزمان ؟

ويدون أن يلفظ ، بدون أن يخبئ ، تلقيت المعارف والحقائق ، فنذ وقوفه

معصوب العينين فى صباح ذلك الخميس الباكر أمام فرقة الاعدام ، صباح ذلك الخميس المسمى إلى زمنى ، تحرر هو وصحبه من كافة القيود ، فملك هو زمان العبر كله ، وتولى صاحبه الثانى الزمن الآتى ، واختص صاحبه الثالث بالزمن الأقل ، واحاط صاحبه الرابع بالازمنة ذات الشواهد والدلالات ، أما صاحبه الخامس فكان من أصحاب الزمن الحاضر وهم قلة ، تحولوا إلى خمسة طيور من ضوء ، وزهره ، وندى ، وضباب ، وظل ، صبح خالد من ضوء ، وترى عبد الحميد فتوشك أن تهتف ، ما لهذا الطائر وريشه الغريب فإذا دنوت منه وجدت أوراقاً من زهور الدنيا ، أما حسين فصبح من ذلك الضباب الذى يرى عند الفجر . وكان عطا من قطرات الندى ، يدنو من قرص الشمس فلا يتبخر ولا يتلاشى ، ويحوم حول الاحباب فى ذروة الحرارة فيطفئ ويخفف ، أما عبد السلام فله الظل والتجوى ، صار مأواهم الدهر ، وتجوأهم عبر الأبد ، واختص خالد بأمور جمّة ، اذكر منها وقصدي ضرب المثال لا الحصر، أوكل إليه رى كل صنوف النبات فى بر مصر ، فهو الذى يسقى تلك الصفصافات المظلة ، وأشجار النخيل فى أبنيتها ، وغصن الرمان اليتيم الحزين الذى نما بالقرب من قبر أبى ، وهو الذى يحمل بذور اللقاح عبر الفراغات من زهرة إلى زهرة ، وهو الذى ينذر بالخطر إذ يلوح ، زلزلاً كان أو صاعقة كونية ، وأخذ صوته ذلك الهاتف الخفى الذى يصيح بالناس فى أعماق الليل ، والذى نادانى فى بدء تجلياتى ودعانى إلى الرحيل فاستجبت ، كذا فهو الذى أوكلته رئاسة الديوان بإمامى ، رنوت إليه ، اغدقت بعينى عرفانى له ، واعجابى بجرأته ، وشجاعته ، وثأره لنا من الجلف الخافى ، كدت استفسر منه عن الحين المقدر الذى ستبادل فيه الحديث ، متى أسأله فيجيبني ؟ متى أحاوره ومحاورني ؟ لكنه قطر فى فى المن والسلوى ، الرضاب العذب ، أشار بجناحه الأيمن إلى هناك ،

عرفت أنه يشير إلى أبي ، فعدت أنظر إلى أصلي ، رأيت ظهيرة جهينة الحادة ،
وشممت رائحة الخبز ، والأفران الموقدة ، وأجولة الطحين ، وقواديس السواقي
المصنوعة من الجلد والمضمخة بماء الأعماق ، يجلس أبي إلى الشيخ
عبد اللطيف ، الشمس في الزوال ، ونسمة تعبر سعف النخلات البحرية ،
وعجوز يتشاءم في المسجد القريب ، وثلاثة صبية يلعبون السجدة ، وجمل
يركع محملاً بالبوص عند المخزن البحري ، وجدتي عائشة تقول لأمي التي لا تزال
بكراً : اخرجي بهذه الأرجفة إلى جدتك نجمة ، أُمي تلف الخبز الساخن في
طرف طرحتها السوداء ، تخطو خارج البيت ، قبل أن تستدير إلى جهة اليمين
مدت الخطى ، يبدو أنها لمحت الرجلين ، يقعدان في الظل ، وعند الخطوة
السابعة بعد خروجها من باب البيت تقع عينا أبي عليها ، يدركه شعور غامض ،
حيرة ، ونشوة ، وأطياف من عالم المرأة الذي لا يزال مجهولاً عنده ، قبل أن
تختفي عند المنحنى يسأل .

ابنة من هذه ؟

يحييه الشيخ عبد اللطيف ..

ابنة علي باشا .

الشيخ علي باشا المداح ؟؟

يحييه الشيخ عبد اللطيف ..

نعم .. يرحمه الله ، لم يعوضنا الله بصوت يشبه صوته ..

يقول بعد اطراقة قصيرة ..

اسمع يا أحمد . أخطبها لك !
فينظر إليه أبي حائراً ، خجلاً ، لا يجيب .. » .

* * *

السفر الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ولا حول ولا قوة إلا بالله

« .. فاجتمعنا لمعان

وافترقنا لمعان

أما الأمر فظل محصوراً في أربع حقائق

الأول والآخر ، والظاهر والباطن .. »

مدراج

تعبت ، نعم ، أنا الغرب الحائر ، الراحل ، الغائب ، الموزع ، المفرق ، المشتت ، أنا المحكوم عليه بفقدان الاستيطان . أنا محزوز الرأس من القفا ، كحبيبي وصفي ودليلي في غريقي ومرشدي في فقدي وطمأنيني في تيهي ، نور طريق الملهم الموعر ، مولاي الحسين ، الضنين عليّ بما يعلم مع أنّي لم أضن فداخلي مباح ، ومكنوني مفصح عنه ، استغفرك يا من ليس كمثله شيء .
فأين أنا منه ؟ أين أين وما بيننا مثل ما بين الثريا والثرى ، ما بين العلو والسفل ؟ تعبت لما تبددت . وصار وجودي لا يماثله وجود . أحزن وأصبو لعل وعسى . لكن خاب فأني ، ما رأيته لم يرو ظمئي ولم يهدي روعي التي لا أدري مستقرها ومأواها ، رأسي المحوم أم جسدي المنفى عني ؟ تعبت فتوسلت إلى بني الأكرمين ، حتى لا أشك فيما عندي ، خاصة أن قديمي يبهت وموجوداتي تن .

كان يمكننا ألا أبوح بشقاي ، فالكتمان من طبعي لولا أنّي أمرت بالافشاء والعلن ، لذا أشهدكم يا أحبابي واخواني - جنبكم خالقي ما عانيت - أشهدكم أنا الضعيف ، حزين الفؤاد ، في كل لحظة وطرفة ، أنني مؤمن ، موثق ، واثق ، مسلم بأن الفراق حق . وأن اللقاء حق ، وأن الصرخة الأولى حق . كلنا الاطلالة الأخيرة من الحدقتين ، خفقة القلب الوطى حق ،

ودققته التي لا دقة بعدها حق ، أن الوجود حق ، وأن العدم حق ، البداية حق ، والنهاية حق ، والأسى على ما راح حق ، وأن الجمال حق ، والقبح حق ، والكمال حق ، كذا النقص ، أن سماع النداء حق ، والتصمم حق ، النطق ، الصمت ، القدرة ، العجز ، والعلم الأعم ، والجهل الأتم حق ، وأن البعد والقرب والدنو حق ، وأن الفناء والبقاء والاصلاح والعطب والبحر والبر والوسع والضيق والقسمة والسلامة والرجوع وعنصر الحياة وشجر الماء والنحر والعقاب والحق والشفاء والمرض والبكاء والضحك والارتفاع والخفض ومداواة الكلوم ، هذا كله حق . كذا الطي والنشر ، والأسباب الموصلة ، والأنساب المتسلسلة ، والشم الرواسي ، والجذور الموهلة الضارية ، والاتصال ، والانفصال ، والخيال ، والمثال ، أشهدكم أن مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان حق ، أشهدكم أن الحق حق ، فاشهدوا يا حفاظ ودى ، ورعاة نسيى أننى أسلم بهذا تسليما كثيرا . لكننى أذكركم أن خالقى وخالقكم ابتلانا نحن ثمر النشأة الإنسانية ببلاء ما ابتلى به أحدا من خلقه ، إما ليسعدنا أو ليشقينا على حسب توفيقنا إلى استعماله ، فكان البلاء أن خلق فىنا الفكر ، لذا أكاشفكم بأننى لست بغافل أو مستسلم لأحوالى ، حتى لو أيقنت أن ذلك من طبيعة البشر .

أقمت فى ألقى وعيى مراصد أرقب منها الدنو الواهن ، وأستشعر هذا الدبيب الرهيف ذا الكنه الغريب ، أقصد النسيان الذى هو عدو ، فى دنياى الحسية ، تباعدت زيارات أبى ، لم يعد يطرق أحلامى . لم أعد أحاور نفسى بعد استيقاظى فأسأل : هل رأيته ، وكيف بدا لى ؟ وقد كنت أسأل فى الشهور التى تلت رحيله عنا . والرؤى يا أحبابى أمرها عجب ، منها ما نتذكره ونعيش معه فترات طويلة ، ومنها ما نستوحشه ، ومنها ما نتهلله له ونستبشر ،

ومنها ما يبنئنا ، أو هكذا يبدو لنا ، ومنها ما يتبدد عند رجوعنا إلى عالم
الحس ، ومنها ما يعيد إلينا ما تبدد منا ، فنستعيد الشذى والعبق والصوت
المفتقد . بعضها نذكره إثر صحونا ، ومنها ما نستعيده بعد انقضاء ساعات
إذا أثارنا أمر ذا صلة ، وقد اتفق لى هذا وما هو أكثر ، وما سأذكره فى
موضعه ، لكن ما أعيه ناصعا أن أبى لم يزرنى فى منامى منذ أمد ، عندما
اقترب اكتمال عام على رحيله استرجعت مامر ، بذلت الجهد والمحاولة . فى
مثل هذا اليوم رأيته لآخر مرة ، سابع عشر أكتوبر واليوم الجمعة ، بعد سنة
وافق يوم سبت ، وهذا شأن التقويم الميلادى لحركة الأفلاك ، تثبت الأعداد
وتتحرك الأيام ، يتقدم اليوم يوما فيوما حتى يلتحم بموقعه القديم ، يندمج
بنفسه ، أول الدائرة آخرها . نقطة البدء نقطة النهاية ، رأيت دخوله علينا
عائدا من صلاة الجمعة ، متهللا ، باسطا ذراعيه ، « أهلا » ، مع اكتمال
العام الثانى ومجيء السابع عشر يوم أحد ، حاولت أن أتذكر ، أى ثياب كان
يرتدى ؟ ما لونها ؟ لست واثقا ، وقلة اليقين تولد الحيرة ، والله يا اخوانى إن
الأمر حيرة ، إن الأمر حيرة . لكن مما يصنى بعض عكارتى ، اننى أذكر الحوار
الذى جرى فى مضمونه وليس فى نصه ، سألتى : إلى أى البلاد ترحل ؟
قلت : إيطاليا وفرنسا . فبدت عليه دهشة البسطاء الأولى ، وفرحة الأب
الذى أنجب فسوى واكتمل ابنه وصار يرحل بمفرده إلى بلاد لم ولن يطأها
ولن يراها بعينه ، تتم : ماشاء الله ، ماشاء الله ، خرجت إلى الشرفة أدخن
الزرجيلة التى يعدها أخى الأصغر كلما جثت البيت الذى فيه نشأت ، جاء
أبى ، وكان مجيئا هادئا لا تسبقه مقدمات ، أراه الآن مستريح الملامح ،
راضى النظرات ، وكأنى أراه من صغرى عندما كان نشيطا فى خطوه ،
والتجاعيد قصية عنه ، أراه على غير ما كان يبدو فى اللحظة ذاتها ، فكأنه

أعار مخيلتي صورته القديمة لأراه فيها كلما حاولت استعادته ، جلس هادئاً راضياً ، ثم التفت إليّ وأطال كمن يتزود أو ليثبت ملاعبي في ذهنه الذي سينأى ولا ندرى ، ثم أغلق عليّ من نظراته النسيمة ، وتلك لا يمكن النفاذ إلى كنهها لحظة تفرقها ، لكنها تفصح للغافل بعد تمامها ، وبعد انقضاء أوانها ، فسبحان من له الدوام ، وإذا أوقى الإنسان نقاء البصيرة ، وصفاء الرؤية ، وشدة التدقيق ، فرما يسأل نفسه : لماذا يتطلع إليّ هكذا ؟ ، ولا تلوح الإجابة من طي الحجب وربما تشي بفحواها بعد فوات الأوان ، وآه من الفوت ، وعدم القدرة على إدراك الشيء في حينه ، ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى .

أرى نظراته الهادئة الموشاة بالرضا والسكينة والدعة والرغبة في التزود قبل الرحيل ، رضا من اقترب ، وطمأنينة من يدنو من التسليم والاستسلام لما قدر ، رضا من أتم وأوفى فاكتمل وقارب على الرحيل ، هذه النظرات الأصلية الواهنة المشرعة للغروب والحاق ، فهي بين بين ، لاعصر ولا مغرب ، لا صبح ولا ظهر ، نظرات من دنا وتلى فكان قاب قوسين أو أدنى . تطلعو يا أحيائي إلى ذوى القربى منكم ، ربما ترونها وتغرفونها إذا علمتم ، لكن أنى لكم ذلك ؟ أنى لكم ؟ . نفس هذه النظرات أغدقتها أمي عليّ بعد حين مقدر ولم انتبه ولم أعرف ولم أتنبأ حتى ، أنه يعلم السر وما يخفى ، فأنى لي أنا المحدود المقيد العلم بما سيكون ؟ لما طال سكون أبي ، ولم يحول النظر عني واستمر يسلم ويتملى مني وأنا غافل ، ولما انقضى الكنه الغامض أردت إنهاء ذلك الصمت فقلت « تركت مع أمي خمسة جنيات لترسلها إلى عمتي » ، قال لي « وسع الله عليك وبارك لك في ابنك وبيتك » ، بعد أطرافه نحاد خلالها عني قال : « وجنيه لأسرة عبد الرحمن » وأتبع سؤاله بتعبير وهزة رأس مهونا عليّ الطلب ، وعبد الرحمن هذا رجل

فقير كان من خدام الحسين ، يجاور ضريحه القاهري ، ينفض الغبار عن العتبات المؤدية ، أو يزيل شيئا ما علق بالسجاد أو الرخام ، أو يساعد عجوزا خانه الخطو ، يحمل في بعض ساعات النهار أو الليل صندوق الأصباغ ، يمضي إلى مقهى الفيشاوى القريب القديم ، كان نخيلا ، طويلا ، أسمر ، حاد الملامح ، وقد يحلو لبعض الرواد أن يمزح فيناديه « عبد الرحمن .. تعال امسح الحذاء » . إذ يرانى يقبل علىّ ، بصافحني ، يستفسر عن أبي الطيب ابن الطيين ويوصيني به خيرا ، ثم يقطب عينيه « إنه حبيب الحسين » ، وأقول له « هذا أمر لا يحتاج إلى وصية ياعم عبد الرحمن » ، في زمن لا يمكنني تحديده بالدقة المرجوة اختفى ، لم أفكر فيه ، ولم يلفت غيابه نظري ، حتى أخبرني أبي متأثرا برحيله ، وأنه فارق أسرة فيها صغار . سألت : أكان متزوجا ؟ ، قال نعم ، وعائلته في مقابر الخفير يسكنون حوشا قديما ، تأسف أبي عليه لأن الرجل لم يذكره أحد ، ولا يذهب إلى أولاده أحد ، ولم ينتبه إلى غيابه أحد ، صار يمضي إلى عائلته ، يقدم إلى الأولاد بعض ما يفيض عن الحاجة أو يقتصده ، وهذا أدق من حيث المعنى ، لأن أبي عاش جل عمره لا يفيض عن حاجته شيء . كان يطلب مني أو من أخى إسماعيل لقلة ذات يده . بعد عودته إلى صمته سألتني « أجيء لأودعك في المطار » قلت لا تتعب ، اعتلت السفر ، ليثني استجبت ، لرأيته بعد مشاهدتي تلك ، أذكر ضياع الفرصة فأندم ، مع أن اللحظات كلها ولت وصارت إلى عدم ، لست بقادر على تحديد اللحظة التي وقعت عيني عليه آخر مرة ، بعد نزولي إلى الشارع ، بعد وقوفي إلى جوار العربة الصغيرة رفعت رأسي ، بداه متلامستان ، رأيت أمي ، إخوتي ، ولم أر حشيت الخطى الذي هو أقرب إلينا من حبل الوريد ، لا أدري موقع اللحظة من حركة الأفلاك ، اعذروني يا

إخوانى لو أطلت وفصلت ، أعرف أنها لحظة لاتعنى شيئا عندكم ، لكننا بالنسبة لى عمر ومعنى وهوى ، فاحتملوني ولا تملوني لا أراكم خالقي بعضاً مما عانيتيه ، أزعم الآن والسنون تلفنى بكرها والعمر ينطوى كطلى السجل للكتب ، اننى لا أنسى ما وقعت عليه عيني فى مجمله وليس فى تفصيله ، بعد تبدد الثوابت ، بعد تشتتها فى الكون الغريب ، حاولت مطابقة اللحظة باللحظة ، والموقف بالموقف . ومن نبع حنينى أروى أحاسيسى عليها تتكرر ، لكننى أشبه بمن يحاول رى ظامئ من ظل الماء ، أو ينحت من أريج زهرة شمها يوما تمثالا لمن أحب .. فأين القرب ؟ وأين البعد من البعد ؟ رحت أردد بنى وبنى ، منذ عام لم يكن متبقيا له إلا سبعة أيام ، ستة ، أربعة ، يومان ، وعندما طلع صباح الواقعة كان الأربعاء يقابل الثلاثاء ، عقدت الهمة وقصدت زيارة المئوى ، والأربعاء يوم لم يعتد قومى زيارة موتاهم فيه . قطعت الطريق المترب الأصفر ، والشمس لافحة ، والخلق قليل ، والشواهد حجرية ، علامات على حد الأبدية ، لم ألق عم عبده حارس القبور ، بابه مقفل ، دخلت وحدى ، الجزء الذى يرقد فيه أبى لم يحدد بسور بعد ، مكشوف للطريق ، وهذا يضايقنى ، وقد عقدت العزم وأضمرت النية على بناء مقبرة انقل إليها أبى حتى لا يكون ضيفا على آخرين ، حتى لا يكون غريبا فى رقدته كما عاش ، حتى تكون رقدتنا إلى جواره ، عسى أن تساعدنى ظروفى عسى . قعدت فوق حجر عند موضع قدميه ، اصغيت إلى رياح جافة حارة تهب فترتد بين الجدران المتقابلة ، والأبواب المغلقة ، حدثت أبى بكلام كثير بددت به صمتى ، عللت النفس أنه ربما يصغى ، وتساءلت عما جرى للجثمان فى هذا العام المنقضى ، وكيف يبدو الآن ؟ كنت كلما جئت أسأل عم عبده : هل جاور أبى ميت آخر ؟ حتى نهاية العام الثانى بقى أبى وحيدا ، تطلعت إلى

الأرض المنبسطة ، والجدران العتيقة ، والمصاطب والشواهد ، رقود يجهل كل منهم الآخر ، جيران لكن لا يتزاوون . ناجيت أبي : لن أغيب ، لن تباعد المدد بين زيارتي إليك . قت بعد مكث ساعة أو أكثر . بسطت اليدين ، واليدان محل القبض والعطاء ، لذا كان بسطها علامة السؤال والتسليم ورجاء الإجابة ، والسؤال حال افتقار ، وحاجة إلى الإجابة ، وعندما بسطت يدي لمن يراني ولا أراه كنت مفتقرا إلى الكثير ، لي ولأهلي ولن صاحبت ولن أحببت ، لذا سكنت ولم أنطق ، بل توسلت بعيني ورجوت ، وتلوت فاتحة الكتاب ثم ألقيت السلام مودعا ، وتراجعت حتى المنحنى كيلا أولى أبي ظهري ، استدرت مستقبلا الطريق ودمعي نافر وقلبي ساج ، كنت بحاجة إلى من يشرح لي القضية ، فالأمر عسر ، والسر جلل ! ، حل العام الثاني ، وفيه اعتدت القسم برحمة أبي ، وقد قضيت زمنا أنفي فيه أى خاطرة توحى لي أن بصرى لن يقع عليه ، وأن لفظ « أبي » اختفى من قاموس ندائي ، اسمحو لي أن أذكر واقعة ربما حوت علامة اذ حدث بعد رحيله ان ذهبت إلى طبيب اختص بعلم القلوب وجراحاتها ، وأثناء تدوينه بعض الملاحظات عن علتي كبسني بخاطر عجيب ، وإن بدا في لحظة مألوفا معقولا متزنا ، أليس هذا الرجل عالماً بالقلوب ؟ إذن .. ألا يقدر على بث الحياة فيما همد منها وسكن خففة وبطل هفوه وتوقف نبضه ؟ لم أنطق الخاطر المباغت ، وتذكرت زيارتي لصاحب لي ميسور حاله ، ولحظة دخولي حديقة بيته ، رأيت بستانيا عمره يقارب العمر الذى رحل فيه أبي ، حضوره يماثل حضور الراحل الكريم ، فاندفعت تجاهه حتى أتى رأيت في عينيه دهشة مهذبة ، وفي صباح شتوى كنت اجتاز باب بيتي عندما رأيت والد امرأتى ، أم عيالى ، فعانقته عناقا حارا وهفوت نحوه ، وكأنى أرى في كل أب ظلا من ظل أبي ، غير أننى دائما

ارتد ملوما محسورا ، وأوعر الآلام مايقع عند التيقن من استحالة الغرض ،
هذا مقطوع به فانتبهوا ، يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ، جنبكم
خالق - وجنبي - السهو والإهمال ، والغفلة والزلة . فى ذلك العام الثانى ، كم
رأيت من رجال يشبهون أبى ولم أتوقف لأنقب ملامحهم ، بل إننى كففت عن
تأمل أقاربنى الأقربين ومحاولة تلمس الشبه الحفى أتذكرون يا إخوانى - فى
السفر إلى الحق - اكتمال العام الأول على رحيل جمال عبد الناصر؟ ، ميدان
العباسية والطرق المؤدية مزدحة غاصة . الوفود تترى ، والجماعات تتوالى
والخلق كثير ، والمرور بهو المسجد يفيض بالورود فى العام التالى لم يعد الجمع
هو الجمع ، وفى الثالث قل المدد ، وفى الرابع اتسعت المسافات ، وصار
الصريح وجهة المخلصين الأشداء المحبين ، صار مانظنه قريبا بعيدا ، والله
غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . لكننى استأذنكم بإتمام مناجاتى
والانفضاء بمضمونى ، فأقول إننى رأيت غرباء ، فقراء ، لم تنح لهم فرصة
الوقوف بين يديه يوما . لم يعرفهم وعرفوه ، رأيتهم يسعون إليه فرادى ،
يتوقف القادم من الريف أو أحشاء المدن . يطلبون له الرحمة ، والله يا أحبائى
رأيت يوما عجوزا تبكى تقعى أمام الرخام البارد ولا تحشى عيون وأرصاد
الجلف الجاني الذى يدد وضيع آثار صوته ، وصادر من شدا له يوما بالقناء
الجميل ، وشوه السيرة الركية ، استخف قومه فأطاعوه فكانوا من الخاسرين
آه .. كل شىء يجرى إلى أجل مسمى والذكرى تمضى لمستقر لها ..
النسيان ... كيف كان مرور عام على استشهادك يا ابن بنت الحبيب المصطفى؟
من زارك سرا ، ومن ذكرك علانية ، ومن أقسم على الثأر لك؟ ، وهل يستمر
بكاء الحزاني فى كربلاء؟ للذكرى أطوار ومراتب ، فأبى الذى كان يبدلنا
بعد شهر من رحيله ليس هو الذى ذكرناه بعد سنة ، ومولاي الشفيع الذى

أينع في قلوب المحبين النادمين بعد عام ، ليس هو من تبيكه دموع من عاشوا
زمنى . كذا عبد الناصر وسيجيء اليوم الذى لن يذكر فيه إلا في السياق
العابر ، ثم يلوح زمن يبهت فيه هذا كله ، فالغواث يا اخوانى المحبين . كيف
يمكن صون ما كان من حشر الماضى وبعد المستقبل الآئى وصعوبة المسافات ؟
كيف ؟ من أجل هذا خرجت وحاولت . وجاهدت حتى وصلت إلى سادق
فى الديوان وألقيت عندهم بركى وحططت رحلى وفصلت خطى ، وكان من
أمرى ما كان ، ولم أعد أدرى كم انقضى وكم تبقى ؟ ومن مرشدى من بعد
مولائى الحبيب الشهيد ؟ إذا تحركت فإلى من ؟ وإذا اجتمعت فبمن ؟ وإذا
افترقت فبمن ؟ كل ما مررت به كنت منفصلا عنه حتى وان اندججت فيه ،
قصيا عنه وان دنوت ، قال مولائى الحسين : إن اتبعنى فتنة ما يجب ألا
تسأل فيه ، وقد وقع الخطأ منى ، لكننى لم أبلغ بعد الحد الذى تحق علىّ فيه
الجفوة الأتم . مع أنى كتمت ولم أبح ، فى مواضع كثيرة كان لابد أن أسأل
فيها واستفسر عنها فإلى من أحيل شيئا من نصبي وحيرتى ؟ ، هذا كله ثقیل
علىّ ، فأنا وان بدوت ثابتا راسخا ، وأحيانا جهما صعب التقليل ، فإننى أرق
مما يلوح للناظر ، وأشرف مما يخيل للرائى . لا إله إلا هو يعلم السر وما يخفى ،
إنه على كل شىء قدير ، بكيت لأننى فى نأى دائم عنى وعن أحببت ، وكل
ما تعلق به يفلت منى . صرت معلقا فى فراغ عتم ، ما من نجوم بادية ، ولا
يابسة مأمولة ، افتقدت العلامة ، وتاهت الدلالة ، فذكرت قول شيخى
الأكبر سيد العارفين محيى الدين ، ان الهم يولد كبيرا ويصغر كلما دام
واستصحبه الإنسان ، حتى ان المعاقب بالضرب ما يحس به إلا فى أول ما يقع
به مقدارا قليلا ، ثم لما يتخدر موقع الضرب فلا يشعر به ، كذا الأحران .
كثيرا ما أحاول جاهدا استعادة صوت أبى ، وعبثا أحاول ، فالأصوات أول

ما يستسلم للنسيان ، ثم تتبعها العبادات الصغيرة ، كطريقة النظر إلى الموجودات وحركة الأيدي عند الحديث والاضطجاعة ، ولوازم الحديث ، وهيئة الضحك والأطراق عند التفكير وجوهر الحضور . يندغم هذا ، وتبتهت الفواصل ، ثم يتلخص الوجود الذى كان فى لفظ « أبى » ، « أمى » ، « صاحى » ، وددت سماعه لكن لم يتيسر ذلك ، تمنيت الرجعى إلى منزل الأصوات الباقية لكن عبثا التئى . نطقت بعتابى لمولاي وصفى وإمامى الحسين . أفى مثل حالى ينأى الخليل عن خليله ؟ أنصبح قصيا وأنا بحاجة إلى الأنس ، لو بقى الإنسان وحيدا هلك ، سمي إنسانا من الأنس ، خمسة حروف متصلة أول ثلاثة منها أنس ، وهذا عين الحاجة ، فلو انقطع الأنس لامتنت الأسباب ، كنت خائفا فى ترحالى هذا ، لأن وجودى تشتت ، فرأسى هنا واطرافى موزعة ، لقد جتتمونا كما خلقناكم أول مرة ، كنت وعبا مكتملا فى كيان مقصوص . بكيت وأنا عاجز عن تخفيف دمعى ، فالصلة مقطوعة بينى وبين يدى ، ناجيت شفيعى أن يمن علىّ ، فالساعة آتية لا ريب فيها ، فاصفح الصفح الجميل ، وهنا هفوت كلى إذ رأيت الطائر الأخضر مألوف الوجه لى ، محبوبه عندى ، مطعمى ، رفرف خالد حولى ، وتأهبت لأفتح فاهى مستقبلا زادى فأشبع بعد جوع ، وأطمئن بعد خوف ، وأستريح بعد كد ومشقة ، لكنه لم يفعل كما عودنى . اقترب مادام جناحيه الضوئين ، كفكف دمعى ، ونزح من هوى ، فدعوت خالقي أن يطمئنه فى أبديته ، وألا يفضيه أبدا ، وأن يعوضه شبابه الذى لم يتمه ، تبعته صاغرا مطيعا ، مستكينا هادئا وأنا لا أعلم المراد بى . مررنا بفضاءات وفراغات لا مقابل لها فى العالم الإنسانى . لكن انشغالى بمقصدا جذبنى عن تأملها . إلى أى محط ستنهى ؟ وأبغض الحيرة الجهل بالوجهة . عند حد معين مقدر اتخذ

خالد سبيله فى المجهول سرياً فعلت وحيداً بدون وحدة ، إذ أنبأنى حسى
الإنسانى أنى مقبل على لحظات عجب ، ثم بدأ إلقاء المعارف فى وعيى فعلت
أننى أدنو من الديوان ، لكن من جهة تخالف الجهة التى جئت منها أول مرة ،
دنوت من سادى ، انتظرت الإذن . علمت أن قديمى ليس كمجئى أول
مرة ، وأننى مستدع ولست ساعياً ، تطلعت وأنا خلو من الدهشة الأولى .
مولاتى وسيلتى الطاهرة فى الموضع نفسه . وفى هذه المرة خيل إلى أن إطرافها
تشى بشبه من إطراقة أمى ، فحتنت وملت ميلاً ، وتلاً الألق الجميل فى
عينى حتى صرت غير قادر على التزود فأغمضت حدقتى . ولت قبله إمامى
الحسين ، وفاض أساى فخاطبته بوجهتى وليس بنطقى ..

– لماذا تركتني يا قرّة أعين ؟

لم يجبنى ، لكننى أعرف أنه يسمع ما تبطنه نفسى ، واجهته بلامح طفل
ضل عن والديه فى قفر ، فهجره الأمن والظماً والمأوى ، ولما ظهر له مرة
أخرى لم يبك ولم يهرع معانقاً ، إنما وقف صامتاً يعاتب ويشكو ، إنها
اللحظات التى تمهد للبكاء المرير ، فيها الخوف من عودة الوقت الوعر
والوحدة والفرحة باجتماع الشمل ، ولما تصارع هذا كله غلب الحرس وغاب
النطق ، تقول رئيسة الديوان ..

– تشكو التعب ؟

أوجز ..

– ما بدأت منه أعود إليه ..

تقول لى :

– اقرأ كتابك كنى بنفسك اليوم عليك حسيا ..

– هذا يقينى ..

تقول لى :

- ومن ضل فإنما يضل عليها ..

- ليس للإنسان إلا ما سعى ..

ثم يتزل صمت ، جاءنى الإذن بالنظر إلى اكسير قلبى وزن بؤبؤ عيني .
عندى طيف عتاب وغمام أمل وعبير رجاء ، فكيف لمن هو مثل أن يعاتبه ؟

- مولاي .. لا أرجو إلا المودة فى القربى ؟.

يقول الشفوق ، نزهة الناظرين ، وموضع الانصاف .

- إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ..

- أولى شوق وآخري تودد إليك .

يقول :

- ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ؟.

أتضع ..

- يا نبع الصفاء يا مشرق المودة ، تعذبني قلة حيلتي ، وصعوبة

الطريق ..

يقول ميراث الوارثين ، ودرة أصداف القرار المكين ..

- إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ..

- يا إمامي . لم يعد حالى حالى ، جئتكم ملوعا بالفقد ، ولما أطلعتنى على

ما أفلت منى .. افتقدته أكثر ..

يقول صاحب الثغر العذب المنكوث بعضا الظالمين ..

- كل شيء بقدر .

استمر فى قولى لعل وعسى ..

- رأيت بعضا مما سمعت إليه ، هذا حق ، شاهدت ما لم يتح لغيرى ،

هذا حق ، صحبتني ، وهذا شرف عظيم لم يحظ به إنسان من العالمين ، لكنني كنت متفرجا ، مبددا . لم أكن فاعلا ..

يقول مراد الطالبين ، ونهاية مقصد الساعين ..

- وجودك محدود وتبغى وجودا غير محدود ..

أهتف :

- أعنّي ..

يحينني :

- أعن نفسك ..

أتوسل :

- تهت الذكريات عندي ..

يقول :

- اسع ..

أفيض :

- يا حبيبي ، يا مغرب الأسرار ، يا لطيف المتن ، يا رفيق الإشارة ، ما أبغيه

لحظة تبقى ولا تفتني ..

يقول :

- كل يوم هو في شأن ..

أشرح :

- مجرد لحظة عابرة ، تقع فيها عيني على من فقدت ، على من ضاع مني ،

على من طواه العدم ..

يقول شفيقي :

- لا يفتني أب له ابن ..

أقول :

- لكننى قصرت ..

تقول سيدتى ذات اللطف النورانى :

- بل ضيعت ما ضيعت ..

أستفسر خجلا :

- ماذا ضيعنى ، وفى أى حيز فقدت ؟

يتسم :

- ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ..

ارتددت إلى صمى ، ضاق اللفظ ، اتسع المعنى ، صعب المراد واستغلق المقصود ، وصار ما أراه قريبا منى ، غير أنى خفت الفقد فنطقت :

- وعزتك عندى ، ستجلى صابرا ولن أعصى لك أمرا ..

وهنا سمعت مولاي الحسن طيب القلب :

- جبال ، أنحنا لك ما رأيت لأنك سقتنا فيما جئنا له ، لكن المتاح مقدر بأول وآخر ، وحتى تفر عينا فإن متناك لم يحن بعد ..

وهنا نطقت رئيسة الديوان :

- أم تظن أنك مقدر بوجود لا يلى وعمر لا يفتى؟؟.

أجيب :

- لا وجلالك عندى .

تقول :

- كل من عليها فان ..

أهمس حزينا الحزن كله ، أسيانا الأسمى المر ..

- عفوك يانقية ، رضاك ياطاهرة ، كان أملى استعادة ما ضيعته فإذا بي أضيع

ماتبقى لى ، ظننت أننى وصلت بينا أنا فى عين الفصل ، ظننت أننى اجتمعت وأنا فى عين الفرق ..

ينطق أمامى :

- لست مهملا ولن تترك سدى ..

يتزل قوله بردا وسلاما علىّ . تقول رئيسة الديوان ..

- أمامك المقامات ، فسلم وافهم واكتم ، دليلك شيخ العارفين محيى

الدين ..

.. وهنا غمرنى خوف ، ألم يحتر رأسى ؟ ألم يفرقنى عن بعضى ؟ ها هو ذا يقف مهيبا ، بالضبط كما رأيته أول مرة . لمحت شها يجمعه بعظيم من عرفتهم أول فتوتى ، وبداية تلمس الطريق ، الشيخ أمين الحولى الذى أنار بصائر عدة . وليس هذا بالمقام المناسب لأفصل معرفتى به ، رأيت شيخى محيى الدين بن عربى يقبض على قلبي فى كفه اليمنى ، يلك المنديل المنسوج من الضوء الغروبى والموشى بظلال النجوم ، يسطر راحة فيفك أسره ، يسمى قلبي ، نعم .. يمشى ، قلبي أنا المتزعزع من وطنه الذى هو صدرى ، ها هو ذا حى ينبض ، هنا خفقه ونبضه ، أتعرف إلى الخفقة المتعبة التى أصغى إليها الأطباء طويلا فى دنيا حسى ، قبل أن يصرحوا لى بتعب قلبي نتيجة علة قديمة ، وكأنه لا ينقصه إلا عطب ماضى مع انه ناء وفاض . ها هو ذا يسمى ، ثم يسجد ، يسجد على مرأى منى أمام الديوان كله ، يستدير تجاه مولائى الحسين ، أصبح قلبي يرى ، فى الصدر أعشى لأن الصدر حجاب عليه ، والآن له رؤيته ، يختار وجهته بمنأى عنى ، فأنا التابع وهو المتبوع ، يتناوله مولائى الحسين بيديه ، يرفعه ، يتأمله ، يهمس إليه بما أجهل ، يسلمه إلى شقيقته الطاهرة النورانية رئيسة الديوان . تتنظر إليه ، تغدق عليه الرحمة ، فيهدأ ميدى ويكف زلزالى ، ليس بوسعى إلا المراقبة فلا أعلم المراد بى أو

بقلبي ، كفاني رضا أن الحبيب أحاطه بأنامله وأصبح عليه العناية ، وبث النفس
 العطري حوله ، رئيسة الديوان تطيل النظر ، تمسك جنبيه ، تباعد ما بينهما فينفلق
 كالثمرة ، ينقسم إلى قسمين موصولين برقيقة واهية ، فينفصل ويتصل ، في دنيا
 حتى خفت اجراء عملية لإصلاح عنتي ، عندما علمت انني أغيب عن وعي ،
 وأن الطبيب المداوى يشق صدرى ويستخرجه ويغرز فيه المشرط والرباط ، كنت
 أجزع ولا يغمض لي جفن كلما تخيلت ذلك ، وها هو ذا قلبي منفصل عني ،
 ولست بفاقد شعوري ، ولا أدري المراد بي وبه ، ها هو ذا قلبي شطران ، يفيض
 ما بداخله ، تتدفق أحزاني ، فيض لا ينقطع وسيل لا ينتهي ، عديدة لاحصر لها .
 حزن على ما ولى واقتصد وهذا أعظمها ، وحزن على أحبابي الراحلين ، وعشقي
 القديم وآمال لم تتحقق ، وحزني على ديار فارقتها ، وأرض أخرى لم أكن بالغها
 إلا بشق الأنفس ، وحزني على أمسيات لطاف ، ولحظات قصار ، اتصل فيها
 الود بين العيون ، وأصغيت فيها إلى الأحبة اصغاء جميلا ، ولحظات ودّعت
 فيها ، حزني على الشفق ، ونزول الغسق ، وحزني على نسمة لن ترجع ، حزني
 الغامض ، مجهول الكنه والأسباب ، وحزني الداهم المفاجئ الغتيت الذي
 يقبضني من كافة جهاتي ، وحزني الساري عندي على مهل فيكدر شري ويعتم
 هواي ، وحزني على أحزاني ، يفيض هذا كله من قلبي ، حتى إنني تعجبت ،
 كيف اتسع حيزي لهذا كله ؟ لاحظت ان سيد عرش قلبي والمتولى على خفقاته
 يرجع الطرف بيني وبين مكثوني ، فرق فؤادي لي وصعب على حالي ، دمت
 دمعتين ، وهنا تناولت رئيسة الديوان قلبي كالوليد وعلى مهل غمسته في وعاء
 الحنين ، ثم غمسته في وعاء الشوق ، ثم الآمال ، ثم الرجاء ، ثم بللته بالرضا
 والصبر الجميل ، ثم جمعت أحزاني التي فاضت ، واستخلصت لها ودسته في
 غرارة كيس قلبي الدفين ، ثم غسلت هذا كله في الشفق الوردى ، وهذا جوهر

وجودى ، وخلاصة سرى الذى لم يطلع عليه مخلوق ، فاحفظوه غنى يا هواة
ودى ، حفظكم خالقى من كل سوء . لما فرغت رئاسة الديوان نظرت إلى ،
فتعاطم عندى الوداد ، ورأيت فيها هيئة أُمى عندما تتأملنى صامته ، تنطق فى
سكوتها بما يعجز اللسان عنه من حنو ورفق وشفقة بى تمد قلبي إلى شيخ
العارفين ، يلتفت إلى ..

- قلبك عندى أمانة ..

أسأل :

- لم ؟

- حتى لا يتحول ..

أولى بوجهى تجاه حبيبى ، أنطق من حزنى وخوفى ..

- أنتفينى عنك ؟

يقول أنور الجبين :

- هذا شيخك فى مقاماتك .. اتبعه ، واخلص ، تكن من الكُمل ..

إذن .. أوصانى تاج قوادى ونبراسى ، فأسلمت أمرى ، وسكن ميدى .
لكن بقى عندى خوفى من شيخى ، خوف التلميذ فى مواجهة أستاذه ، وخشية
المريد إذ يجلو إلى شيخه ، ورهبة الطالب الذى يجد فى أثر مطلوبه ، بقى خوفى
والخوف لا يكون إلا مع الجهل ، فلم أدر ما سيصير إليه أمرى مع شيخى ، خفت
مع أنى لم أخف عندما صحبت مولائى الحسين ، فهو الأمن وإن أخافنى ، وهو
الرضا وإن أسخطنى ، وهو الرحيم بى وإن كدردنى أو عاقبنى ، أما فرعى الأكبر
الآن ، ان يكون هذا آخر عهدى به : فلا تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، ولا
تدرى نفس بأى أرض تموت ، لم أصرح بما عندى وإن أيقنت ما من شئ ينقضى
على سادتى ، غير أننى لم أتأكد ان كان شيخى يحاط علما ؟ فارتحت مركز الديوان

وعندى حنين إلى قلبي ، حنين لا يصحبه خفق ، قلبي مني ، صار لي قانوني الخاص ، وحالي الذي لا حال مثله ، هاهو ذا شيخى الأكبر يسعى ، بخطو مهيبا ، لانتقص المسافة بيني وبينه ، عبرنا منازل الديوان ، والحنين إلى سادنى يشتد ويقوى ، ألم يغسل فيه قلبي ؟ تبدو من بعد سحق شجرة ، أو تكوين يشبه شجرة ازداد اقترابا ، هذا جذع بعيد فى أسفل سافلين ، وفروعها ضاربة فى أعلى عليين ، لا يقدر بصرى على الإحاطة بها ، وكلما اقترنا ازددت يقينا باستحالة وصفى لها ، أو تصويرها لكم ، ولكننى باذل جهدى غير مدخر ما فى وسعى ، وخالق المعين فلا يشبه لها فى الأوصاف التى أعرف :

– تلك شجرة الخلق ..

أخذنى البهت ، وفى اللحظة ذاتها اتنسيت بشيخى ، هو سيد العارفين الذى اهتديت على يديه قبل أن أراه ، وصحبته قبل أن ألقاه ، وحدثنى قبل أن أسمعنه ، وشرح لى قبل أن يعلمنى بعضا مما يعلم ، وزادنى اطمئنانا شبه الغريب بشيخى أمين الخولى – رحمه الله – غير أن ماشاب أمنى وكدر طمأنينتى أنه هو الذى حز عنى ، وهذا أنا ، المحكوم عليه بالأيا من أبدا حتى فى لحظات أنسه ، شيخى الأكبر يحدثنى :

– تلك شجرة لم يرها آدمى قبلك ، فأبشر بالخطوة

لكل مخلوق من أنس وطير وحيوان وجن ورقة .

هنا ، يبدأ برعما مع بدئه فى الحياة الدنيوية .

ثم تنمو مع نموه ، لانتقدمه ولا تتأخره إنما تواريه .

تخضر مع شبابه وتصفر مع شيخوخته ، وعند الأجل .

المسمى يدب إليها الوهن فتسقط عند تمام النضج .

إذا نضج الثمر سقط ، وتلك لحظة مقدرة فى اللوح .

حيث ما كان وما سيكون ..

، ما أطلع عليه لم يره بشر إلا المصطفون من الكُمل ، مع ذلك
ولا لم أفه عنه ولم أصرح به حول اللوح المرصود ، تمتيت لو أقف على
يوم قدر لي . ومصائر إخواني ، لم أبج الآن إذ يسعى شيخى وأسى
أرى الفروع والأوراق في جملتها وليس في تفصيلها ، حيرنى مصدر
، فلم تعهده عيني في دنياى ، سمعت ما يشبه الصراخ أو الاستغاثة
وتبلى خاطرى ، ثم هدأ حالى لما عرفت أن هذا مصاحب لسقوط
الها عن أغصانها وأن آجالا حانت وتمت ، رأيت أوراقا تنهذى وكأن
هيئة حنوننا تحملها قبل ذهابها إلى الهو السحيق . وقع عندى أسى ،
كذا مطلعى ، والخريف يا أحبابى حد بين حدين ، كالفاقر بين الماء
بارد ، وكالصوت بين المخافة والجهر ، وكالتبسم بين الضحك
كالاغفاءة بين النوم واليقظة ، وكالنوم بين الموت والحياة ، مرج
يان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . استوثقت أن
نية ، لذا قدر على الأسى الدائم المصاحب لى حتى فى ذرى بهجتي ،
فى إلى الصمت المفاجئ ، أو الإطراقة المباغتة ، بدون أن يبدو على أو
، وظل هذا مجهولا لأقرب أحنى ، عدا اثنتين ، الأولى أسمى ،
ح لكم باسمها إذ أنها ليست مصاحبة لى فى نشأتى الأولى ، رحم الله
لأحباب الخُلص ، ولو اتسع المجال وتيسرت السبل فسأعقد فصلا
يف ، فالحديث طويل والأمرجال . رأيت أوراقا لم تزل بعد خضراء
تهوى ، واستحال على رؤية المقر . قلت لشيخى الأكبر :

منبتها وكيف غرسها ؟

إن الشجرة المثمرة إنما تنبت بالحبة التى ينمو بها أصلها ، فإذا غرست

تلك الحبة وغذيت وريبت حتى نبتت وفرعت وأورقت واهترت وأثمرت . فإذا نظرت تلك الشجرة رأيته في تلك الحبة التي ببت منها هذه الشجرة ، فالحبة في البداية نطفة حتى أظهرت صورة الشجرة ، والشجرة في النهاية بها ظهرت فأظهرت تلك الحبة ، فهي من الوجود وهي للوجود ..

قلت : لا أفهم ..

قال لي ان مثال ذلك تاجر عمد إلى فراشه ويزه فطواه في خزانة ملكه وعبأه أثوابا بعضها فوق بعض ، فأول ثوب دججه وطواه هو آخر ثوب أظهره وأبداه . ثم قال لي إن كل شيء في الكون الحسى من الحوادث ، كالنقص والزيادة ، والغيب والشهادة . والأعمال والأحوال ، والقول والفعل ، والتوق والذوق ، ولطائف المعارف فن ثمرها ، كذا البعد والقرب ، والمقامات ومناجاة . العارفين ومشاهدات المحبين ، وعالم الصورة والمعنى ..

ثم قال لي : ما أنت إلا ثمرة من ثمارها ، وطرح من طروحاتها .
ثم قال لي : أعرف ماتكرفيه .. لكنك لو أردت الاحاطة بها فأنت في حاجة إلى عمر يماثل عمر الكون ، لكنني آتيك بما تقدر عليه وأقدر قبل أن يرتد إليك طرفك .. انظر .

.. يتأخر عني ، لماذا لم يتقدمني ؟ سبح رأسى حتى نقطة لم أستطع التقدم بعدها ، تطلعت ، لو أن قلبي معى لا تخلفت ضلوعى وتصدعت من خفقه ، أواجه غصنى ، أحلق في وريقتي ، حاولت النظر إلى نقطة التقاء غصنى بفرع الشجرة لكننى لم أقدر ، تمنيت أن أدرك قوته واحتماله واستنتاج المتبقى ، استعصى على ، فالظلال مبهمة والتشابه وعمر ، تلك حياتى ، الأقل منها والمقبل ، كل قديمي وحديثي وما سأصير إليه ، أراها خطوطا نحيلة على الورقة التي لا أدرى متى ستهوى ؟ غشاني الحزن الخريفى الذى أعرف ، الغروبى الذى طالما أوجعنى الوجع

الهن ، كأتى أرى عمرى بعد الختام والقفل . تمتت لو شرعت فى المكوث حتى
أوقن أن ورقى لن تسقط أبدا . أن أثبتها ييدى ، أن أرهاها ، أن أرقها . لكن
أين يدأى ؟ ومن يمكنى ، لو أعرف الآن متى سأقضى وإلام المصير؟
- فى اللوح المرصود ..

تطلعت بعينى المقلتين بكسوف ثقيل إلى شيخى فى الطريق ..
- وما السبيل ؟

- أسأل سادة الديوان .. هذا ليس عندى ..

- أى وسيلة إليهم ، وهل أراهم مرة أخرى ؟ كيف الطريق إلى معرفة الهو
والإثبات ؟ غمزنى شيخى فى مؤخرة رأسى ..
- ارحل .. ولا تكن ممن أقام وحل ..
- إني من الراحلين أبدا ، لكننى أود لو أرى ..

قاططنى :

- انظر .

فأطعت ، رأيت الأشكال كلها من طول وعرض وانحناء واستقامة
واستدارة ، وتثليث وتربيع ، تلك الليالى كلها . الشروق والغروب ، والفجر
ومصادر الكآبة ، والبراعم التى تنبت الحنين ، وغصون الآمال الرطبية ، وجذور
الكدورة ، وتشابك هذا بذاك ، وثمر الانقباض ، طافت بى الخواطر وحمى
حول مصدرها . أوقفت عند البدء فنفذت بالبصر الحديد إلى ليل بعيد ، تلك ذراتى
مشتتة فى دماء أبى وخلاياه . وتلك كامنة عند أمى ، رأيت شطرى من أمى يلتحم
بجزئى من أبى وأنا شىء ولا شىء ، التفت إلى شيخى أى أننى درت برأسى التى
هى كلى . فهم غنى بالصمت ، سمح لى فسددت البصر إلى ورقة أمى ، دهمتنى
فرعة إذ رأيت وهنها وضعفها واصفرارها ، عكنى حزن وفرائى ضيق ، تلك

مصريها إلى انفصال وشيك ، لودارني هذا الخاطر قبل ذهاب أبي لنحت النواح الثاقب ، لوليت فرارا وملكت رعبا ، لكنني تأملت ألما مصيره إلى محو ، بررت ذلك بأن هذا مصري أيضا ، وربما كنت لها من السابقين ، لكنني جاهل لا أدري ، دعوت خالتي أن يذهب عنها الصفرة ، أن يبيد وهنها ، أن يبدله اخضراراً لكن هل رأى أحدكم يا أوليائي ورقة شجر تخضر بعد صفرة ، أو تنبع بعد ذبول ؟ إذا رأى أحدكم مثل هذا فليشدني ، ليدلني ، دلكم خالتي على الطرق الآمنة . والدروب السهلة الموصلة إلى الأمان وجنبكم سكتي المعطشة .. آمين ! .

لكن ماذا جرى عندي ؟ وقد كان مجرد خاطر فراق أبي أو أمي يهمني في مقتل الدمع ؟ مالي أوشك على الخضوع والامتثال لرحيل أبي ؟ وللتعايش مع يقيني بأنني لن أراه أبدا ؟ مالي أستبق فأتمجبل أحيانا أحزاني على اقلاع روح أمي ؟ مالي أحزن لنفسى ؟ حتى أنني لأرثي وجودي وأواني المغرب قبل تمامه ؟ مالي وماذا جرى لي ؟ والله أنا في حيرة مذمومة يا خطاري ، الأمر حيرة ، الأمر حيرة ! ! .

يأمرني شيعي أن أسدد البصر ، أرى تلك اللحظة من هذه الليلة جدران حجرة في بيت قديم ، قريب من الأزهر ، لمبة الغاز مطفأة في الغرفة الوحيدة التي لا تؤدي إلى غرفة أخرى ، مسامير مدقوقة في الجدار ، علقت إلى رموسها البارزة جلايب أبي وفستان أسود لأمي ، وقيص داخل بصلى اللون ، سبحان من أنعم على بالكشف فجعلني أرى اللون في العتمة . والمعنى الغائر في العيون ، في الركن حشبة يتمدد فوقها أخى الذي ظهرت ورقته قبل ، اسمه كمال ، لم أر أخى الأكبر واسمه خلف ، حل به الطوى قبل البسط ، تلممت أيامه القصار وانطوت ، مضت ، لم ينم برعمه ولم يمتد غصنه في شجرة الكون ، أما أخى كمال هذا فقد رأيته ولم أره ، رأيته في العمر الذي ينسى فيه كل شيء ويمحي من الذاكرة الواعية ، إذ غاب عنا وأنا ابن عامين إلا أربعة أيام ، فسبحان من له الدوام ، في

الناحية اليمنى مرتبة محشوة قطناً يتمدد فوقها من هما أصلى وفصلى ، رأيت قفة من
 خوص مجدول بها ثياب وأربعة أرغفة شمسية من خبز قريتنا ، فوق صحيفة
 مطوية وكيس تفوح منه رائحة ملوخية ناشفة ، هذا موقد غاز وتلك حلة من
 نحاس ، وهذا براد شاي من الصاج الأزرق منقط بدوائر بيضاء وأربعة أكواب
 من زجاج . أبى بين النوم واليقظة ضجر ، أرق ، قلق ، يتذكر ما قاله عمر
 النوبى خادم فندق الكلوب العصري ، انه عند الأرق يناغش امرأته ، يطلبها
 فيهمد فينام ، رأيت قضيب أبى مولج فى فرج أمى ، خجلت ، ولا أخفيكم يا
 إخوانى كسوف وحر جى ، فقد كشفت أمرا كان ينبغى أن يُستر ، لكننى مأمور
 بالتصريح ، أدبت الواجب ، فاعذرونى ولا تلومونى ، أنار الله بصائرکم ،
 وخلص من الشبه أدلتکم ، هكذا وقفت على أول مشروعى ، ورأيت أول سعي
 فى الحياة الدنيا عندما سعى شطرى من أبى ليلتحم بجزئى من أمى ، علمت أن
 برعمى فى شجرة الكون مسقى بالضجر والأرق والقلق والضيق والحشية من الغد
 الآتى ، علمت أننى بدأت غريبا وسأعيش غريبا كأبى ، كما بدأنا أول خلق
 نعيده ، سأنهى كما بدأت ، هذا ما لأزمنى وما صاحبنى ، بعد أن رأيت ما رأيت
 خشيت مالا يجوز الحشية منه ، ألا أوجد مع أنى وجدت بالفعل ، ماذا كنت
 سأصير إليه لو أن النوم غلب أبى ؟ لو أن أمى لم تستجب ؟ لو أنه استلقى على الظهر
 واندفق منيه فى حلم ليلى ؟ لو أن الذرات المؤدية إلى تكوينى ضلت طريقها إليه ؟
 ماذا لو أن أمى لم تخرج فى ذلك اليوم ولم تعبر الرحبة ولم يرها أبى ولم يسأل الشيخ
 عبد اللطيف : ابنة من ؟ فيجيبه : أزوجها لك ؟.

– تساؤل طالما راودك ..

بوغت ، شيخى الأكبر يصغى إلى سريرى ، يتسم لى ابتسامة لم ترحنى ،
 يقول لى قبل أن أنطق :

- بل تمنيت ..
- تأملت ، قال بتأن بالغ :
- يلى . وددت أبا غيره ..
- هذا بعيد عني ..
- وكنت تفجّل من التصريح بوظيفته وعمله كساع .
- أسبلت جفني كبديل لإطراقة رأسي .
- كان ذلك في زمن جاهليتي ، قبل هدايتي وانحيازي إلى الفقراء أمثالي ،
- ومحاولتي تبديد الظروف المؤدية بهذا إلى فقر ، وذلك إلى ثراء ..
- هذا حق ، وما ذكرته أنا حق ..
- سيدى .. لم أنخّل الفراق أبدا ، كنت أصغى إلى القرآن الكريم يصف
- يوم الهول الأكبر ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وأحزن لجرّد تصوّر
- أننى سأشغل عنهما يوم الحشر الأعظم ..
- يقول شيخى الأكبر :
- كنت صغيرا ، ضعيفا ، فى حاجة إليهما ..
- أتضرع :
- مولاي ، أنت تقسو علىّ ..
- يا ولدى ، أنا أعلم الناس بما كابدت ، أعلم أن الشفقة ملازمة لسفرنا
- هذا . لكن للحقيقة قيظ مقض موجع ، يابنى ما من سؤال إلا له جواب ،
- فتأهب لتحل بمقام الاغتراب ..
- أبطول مقامى ؟.
- ستلقى ما كنت ستصير إليه لو أن ذراتك المكوّنة لوجودك افترقت وضلت
- وما سعت .

- وأبى ؟.

- أيهما ؟.

- أبى الذى من أجله خرجت ، من أجله جئت إلى الديوان .

يبتسم ، لكنها ابتسامة تقضقض سكينتى ..

- أتذكره ؟.

أتوجع :

- مولاى .. لست بضنين .

يملس شعرى :

- ارحل ..

أدرك أننا ننأى عن شجرة الخلق ، نفارق نموها وطرحها ، كمالها ونقصانها ،
نلج خلاء كله عماء ، أعى أن الظلال التى رأيتها تتخلل الغصون والأوراق
ماهى إلا المصائر البديلة ، انتبه إلى شيخى الأكبر يخاطبني بلا صوت ، بلا
نطق ، تخرج المفاهيم من عنده إلى عندى :

- لما كان الخالق كل يوم هو فى شأن ، كان قلب العالم من حال إلى حال
مع الأنفاس ، فلا يثبت العالم قط على حالة واحدة ، لأن الله خلاق على
الدوام ، ولو بقى العالم على حالة واحدة رمانين لاتصف بالغنى عن الله ، ولكن
الناس فى لبس من خلق جديد ، فسبحان من أعطى أصل الكشف والوجود
التزه فى قلب الأحوال والمشاهدة لمن كل يوم هو فى شأن .. فافهم !

* * *

مقام الاغتراب ..

﴿ .. على أن نُبدِّلَ أمثلكم وننشئكم في ما لا تعلمون ، ولقد عَلِمْتُمُ النشأةَ الأولى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾
صلى الله العظيم

.. أبدأ بالاعتذار ، فالمقام مبهم ، والحال غالب ، وعندما سطرت ما ذقته وعلمته أول مرة كان الأمر سهلاً علىّ ، وبعد تمزيق ما كتبت ، وبعد أن أمرني شيخى الأكبر بإعادة ما دونت ، لقيت العسر والمشقة ، خاصة وأنا لست أنا ، كما أن وجودى ليس وجودى ، وهنا أصمت فلا أبوح ، فثمة سر عظيم أعذكم بالكشف عنه فى المقام الأصح والأوان المواقى نعم .. فلههم وعمر . وعلىّ أن أدرك ما بين الظل والأصل ، والصلة بين الراحة والزهرة ، أن أرى بعينى مادة الفكرة ، أن أسبح من المصب إلى المنبع بلا مدد ، خلواً من المعاونة أو مساعدة مرجوة ، علىّ التشبث بما لا يثبت أبداً ، بما يفلت وينأى دائماً وتعجز القدرة الإنسانية عن ادراكه أو اللحاق به ، ولولا التكليف لما أتممت ، لهذا لو بدا الأمر صعباً فى موضع ، مستغلقاً أحياناً ، أقمس العذر ، لكن صدقونى فى كل ما أسره أو أعلنه . فلم أحرف ، ولم أبدل القول الملقى علىّ ، ولم أموه ، ولم أكذب ، لم أتجاهل ، ولم أجامل ، ولم أدون خلاف ما عرفت أو رأيت ، هذا حق ، وسادنى أركان الديوان ، وشيوخى ، الأفاضل ، وأصحابى فى الطريق ، وكلهم علىّ شهود ، أصرح بهذا عند بداية المقام لأننى واجهت ما استغلق علىّ ، وما لا يمكن التعبير عنه بمفردات النطق والكتابة . من ذلك علىّ سبيل المثال لا الحصر ، أن وجودى الجثمانى المختصر فى رأسى ، امتزج بوعبى ، وصار

بديلا عنه أحيانا ، أى أن وعي أصبح عوضا ، من ذلك ادراكى لحركتى دون قدمين ، وقبضى على المحسوسات دون يدين ، ونظرى إلى المراثيات بلا عينين ، واصغالى دون أذنين . أقول أنا التائه مفتقد المضجع والمقر ، اننى أطعت فتبعت شيخى الأكر حتى انتهى سعينا إلى مدينة غريبة عنى مألوفة عندى ، غريبة لأننى لم أجتر بواباتها ، لم أحط بمطاراتها ، لم أرتد مقاهيها ، ولم أتأمل واجهات بيوتها ، ولم أعبر الجسور المؤدية إليها ، ولم يتبدل هواى فى طرقاتها ، مألوفة لى إذ خالجنى يقين أننى عشت بها رمنا ، وأننى أنفقت من عمرى فيها قدرا ، متى ؟ هذا مالم أقف عليه . كيف ؟ لم أجد الإجابة . وسبحان علام الغيوب ، رأيتها كلها كأنى أقف فى نقطة شاهقة من فضاءها ، أسطح البيوت محدبة ، بعضها مكسو بقرميد أحمر ، أبراج كاتدرائيات ضخمة ، ومثذنة وحيدة مغربية الهيئة ، جدران رمادية ، ونوافذ مستطيلة ، شرفات قليلة مغطاة ، أرصفة عريضة ، وأحواض مستطيلة للزهور ، ومقاعد متباعدة لجلوس المتعبين ، ومراسى قوارب ، وسفن صغيرة ترسو فوق مياه نهريتها ، نهريتها فى اتساع النيل الذى أعرفه ، نيلى العريض المهيب القديم ، النيل غريب الصمت كما وصفه شاعر من صبحي فى زمنى - الأبنودى - وهو يهجو الجلف الجافى حيا ، لعنه الله أبدا ، رأيت جسورا حجرية على جانبيها تماثيل برونزية لآلهة قدامى فى هيئة بشر ، وأعمدة اضاءة استوحى صانعوها الأغصان المورقة ، تنتهى بمصابيح تشبه تلك التى رأيتها فى زمن صباى معلقة إلى جانبي عربات الخطوط التى كانت تصطف عند مدخل شارع الأزهر ، رأيت المطر متجمعا فى وهاد الطريق وعند نهاية الأرصفة المنحدرة . تلتصق قطراته بأوراق الشجر المصفرة والجذوع المجعدة ، وأسوار الحدائق وزجاج مقصورات التليفون العمومية ، والمقاعد الخشبية المتباعدة ، إذ .. جئت فى زمن المطر الشتوى ، يداخلى

انقباض ، لو ان قلبي معي لتسارع خفقه ، لكنه مني عني ، ذلك تقدير العزيز
العليم ، أعرف ضيقى عند نزولى وحيدا إلى مدينة أول مرة ، لا يعرفنى فيها
أحد ، لا ينتظرنى أحد ، عندئذ يدهمنى حنين إلى زمن فارقت ، وأقسى ما
كابדתه فى عمرى الدنيوى الحنين إلى ما ليس فى متناولى ، هذا سر كدورائى ،
ولب عذابى ، فى اللحظات الأولى لا أطيق البقاء ، أتمنى لو بقيت وما
فارقت ، لو أقت وما غادرت ، أتمنى الاستيطان أنا المفطور على الرحيل
الأبدى ، وعند تدوينى ذلك الجزء من هذا المقام تجلت لى أمى فأحاطتنى دهشة
من كافة جهاتى ، تلك المرة الأولى منذ سلوكى الطريق . تواجهنى ، تقف
أمامى ، تغدق علىّ حنانا غريرا ، ومودة ، ورغبة دائمة فى القرى . ورقة ،
وتهدينى سلاما كثيرا ، لم أدر إلى أى مرحلة من عمرها تنتمى ملاعبها؟ إلى شبابها
أم شتاء عمرها ؟ تغطى رأسها طرحة بيضاء ، وترتدى جلبابا أبيض ، والوشم
الأخضر يلمع وكأنه وشى ذقتها بالأمس ، لماذا تتجلى لى ؟ ماذا جرى ؟
تقلقلت ، وتمنيت الرجعى إلى شجرة الكون لأستوثق ثبات ورقتها وبقائها ، بدأ
عندى حزن غامض غريب لم أعهد له أنا الذى ظننت أننى خبرت الأحزان
كلها ، حزن هادئ ممض يدفع بدمعى إلى مشارف المآق ، لكنه لا يسكبه فيظل
حييسا . حزن فاتر بين بين فلا يفنى ولا يزول ، ولا يبلغ حده الأقصى ، يبدأ
عندى القلق الممض الموجد ، قلق الابن البعيد المسافر الغائب ، ينبئه الشعور
الدفين أن أعز الناس عنده لحقه أذى ، يود الاطمئنان ، لكن ما من نبأ يقين ،
بينما تعصف به الهواجس وتغريه الظنون ، وبقدر ما يود أن يهتدى ، غير أنه
يتمنى لو ظل على جهله حتى لا ينجع بالنبأ العظيم ، كلا ستعلمون ، ثم كلا
ستعلمون ، علم اليقين ، وقت أمى الذى تواجهنى به شفق وان لم أدر أهو شفق
ما قبل ، أم ما بعد الغروب ؟ أما زمنى فمختلط أمره علىّ ، وهذا ما أعتمنى ،

أن يكون لها زمن ، وان يكون لى زمنى ، فاحجب غضبك ومقتك عنا يا اعلام الغيوب .

– يا جمال ..

تطلعت بعينى ، أجبته بجي وخضوعى ورغبتى فى الدنو..

– ألم تسمع أن الدنيا لا قرار لها وانها تتقلب ٩٩.

قلت : نعم ..

قالت لى : اجعل فصلا فى ذلك المقام لهذا المعنى ..

انتهى التجلى فقلت ورحلت ، امتثلت لمطلب نى عبنى ، من كان رحمها

أول موطن لى فى هذا الكون ، استخرت الله وبدأت الكتابة ..

فصل

.. جنبكم الله يا أحبابى الغفلة ، وبسط سرائركم ، وخفف الحنين ،

وجنبكم اللوعة والحيرة المذمومة ، والنأى البغيض عن الأحبة ، واليأس التام

من لقائهم ، وقاكم الله لظى الغربة ، وثلوجة الوحدة .

اعلموا أن أصل الأشياء التفرقة ، لا أذاقكم ربي مرارة الفرقة ، يحن

الإنسان إلى بلد أو مكان خلاف ماعرف وألف ، ويبدل الجهد والنفس الوعر

الأشق ظنا منه أن سيلقى الراحة التى يفقد ، ويحقق الأمل الذى عجز عن

الوصول إليه ، ويبلغ المأرب الذى سعى دوما إليه ، حتى إذا سافر أو هاجر أو

انتقل ، وأصبح البعيد قريبا ، والقريب بعيدا ، حن إلى الوطن الأول ،

والموضع الأصلى ، ورأى فيه مالم يره أثناء كونه حاضرا معاشا ، عندئذ يحن

ويهفو ويتذكر فيأسو ، وربما ضاق الإنسان بزمن معين حتى إذا ولى وصار ماضيا

مفتقدا حن إليه ، فالحنين لا يكون إلا لماض أدبر ، وقد قاسيت هذا كله ، حتى أننى أهفو أحيانا إلى لحظات من زمن سجنى وتقيد حريقى ، واستعيدها فأتبسم وأنا فى جمع وصحبة ..

وعند هذا الحد من التقيد الذى بدأته امتثالا لمطلب أمى ، رأيت مولائى وشيخى الأكبر يميل علىّ ، فصرت أخط ما يمليه هو ، وليس لى من الأمر شىء ..

وصل فى فصل

أملى شيخى محبى الدين ما نصه :

.. إنه لا يوجد أحد راضيا بحاله فى الوجود أصلا ، ولذلك علة أصلية وهى أن الحق كل يوم هو فى شأن ، فما تجد أحدا من صالح ولا غير صالح إلا ويطلب الانتقال من حاله ، هذا هو السارى ، ولا ترى أحداً إلا وهو يذم زمانه ويحمد ما مضى وخلا من الأزمان ، وليس زمانه إلا حاله منذ وجدت هذه النشأة ، وأى زمان كان فيه بنو آدم فى وقت آدم نفسه ، حتى ذكر أنه قال فى نظم له بلسانه ما ترجمته :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
فالإنسان يذم يومه ، ويمدح أمسه ، وهو الإنسان عينه لاغيره ، وقد كان
أمس يذم يومه ، ويمدح أمسه ، وهو الإنسان عينه لاغيره ، إن الإنسان مجبول
على القلق من الضيق وطلب الانفساح والانفراج عنه ، ويتخيل أن كل ما هو
خارج عنه فيه الانفساح من هذا الضيق الذى هو فيه ، وذلك أن الإنسان إذا
كان فى حال مامن الأحوال فإنه مقبوض عليه بذلك الحال لإحاطته به ، فيجد

نفسه محصورا ، ويرى ما خرج عن ذلك الحصر انه انفساح وانفراج ، لأن الأمر الخارج عن حاله ما هو واحد بعينه فيضيق عليه الأمر ، فلها يجد السعة فيما عدا حاله الذى هو عليه ، فإذا خرج من ذلك إلى الاتساع المتوهم ، فيجد الانفراج فيما فاته ، والضيق فيما احاطه ، فيطلب الإفراج عنه ، كما طلبه في الحال الأول ، فلا يزال هذا ديدنه والله يخرج من اسم إلى اسم دائما ، أبدا .. انتهى ذلك ..

رُجِعَ إلى ذلك المقام

كلما بدأت غربتى ، تتأبى خشية موت الفجأة ، فلا أرى الأهل والصحب ، غزافى هذا الخوف عند مقدمى هذه المدينة التى لا أعلم ما سيجرى لى فيها ، وأين مأوى ؟ يبدأ دنوى ، أجيء من جانبها الأيمن ، هذا الطريق السريع ، وتلك الأشجار المنمقة ، متجاورة فى خطوط متساوية ، جذوعها نحيلة ، تبدأ غصونها التفرق والتفرع عند المنتصف ، ثم تتجمع فيما يشبه الاكليل ، الحدائق تتخلل البيوت وتحف الحدود الخارجية بما يشبه الاطار الأخضر ، مداخل البيوت منطوية لاتفصح ، الستائر مسدلة ، تنبث أضواء خافتة تشى ولا تشى ، العربات تمرق بسرعة ، لافتات الأرقام صفراء ، قطعت مسافة لا أدرى ان كنت ساجحا أو طافيا ، يصير احساسى بوجودى عجيبا وكأنى أبدأ النشأة الأخرى ، تلك نافورة متعددة الشعب تطلق مياهها إلى علو ، تتخللها الأضواء الناصعة فتتلاها عبر القطرات الماسية ، رأيت نافورة ميدان التحرير فى قاهرى النائية عفى ، كان ذلك أول زمن عبدالناصر، عيد من أعياد الجيش ، أبى يحمل أخى على الأصغر ، أمى تمسك يد أختى وإسماعيل لى

جوارى . فى الحديقة جمع ومارة ونحن كل ملتئم ، نتفرج على الأضواء الملونة الحمراء والصفراء والزرقاء ، وموسيقى تعزف من مكانا ما ، وإعلان ملون يبرق فوق عمارة مرتفعة مطلة على الميدان ، النافورة انشاء حديث ، والسماء نائية ، والزمن آمن ، والليل فى بدايته وأبى يشير يده ناحية النهر يقول لنا إن ثكنات الجيش الإنجليزى كانت عند هذه الناحية . وأمى تطرق صامته ، رأيت نهارا مجهولا نائيا غائبا نقف فى حديقة الحرية التى تتوسط الجزيرة ، نواجه كاميرا تستند إلى ثلاث قوائم خشية ، ورجل عجوز يدس رأسه فى كيس مفتوح من القماش الأسود ويطل ليشير يده حتى نعدل وقفتنا ، وهذه صورة يتيمة وحيدة نجتمع فيها معا : ولو أنها معى لنظرت فيها ولقيت من هذا الزمن المندثر أثرا ، أين هى الآن ؟ أسألو يا اخوانى هذا الضابط الغيت الذى طرق بابنا فى الفجر ، وأرعب أمى وأرجف أبى وأفزع اخوتى مما ترك أثرا غائرا فى شقيقى الأصغر على لم يح حتى كتابتى هذا ، رأيت إخراجة أوراق وكراريسى وصورى ، استولى على هذا كله ، فجردنى من كتر ذكرياتى ، حتى صورى مع زملاء دراسى الابتدائية والاعدادية ، جردنى من كل أثر احتفظت به حتى العام السادس والستين بعد التسعة والألف ، فلم يعد لى من ذلك الزمن المتقضى ما يحتفظ بلامح أحببى ، تلك الصورة راحت فيما راح ، ونافورة ميدان التحرير زالت كذا نسبات العصارى التى هفت وبللت قوادنا ، وتلك النسمة العفية التى تملأت شعر أمى المثل من تحت الطرحة فحركت خصلة منه وبدلت موضعها على الجبين ، راح هذا كله كأنه لم يكن ، فسبحان من له الدوام ! ، رأيت ثلاثة مقاه متجاورة ، مقاعدها مصفوفة وراء حواجز زجاجية ، مظلاتها حمراء ، تقى الجلوس برد النواصى ورذاذ المطر ، أين أنا ؟ لم يكشف لى ذلك ، وعندما تأهبت لألقى نظرة على طريق فسيح يصعد من الميدان إلى مرتفع يتخلله درج

حجرى ، رأيتنى أسعى ، فصحت من روعى ..

- إذن ، أنا فى خلق جديد ..

وأأتى صوت شيخى الأكبر من حيث لا أدرى ..

- بل أنت فى خلق بديل ..

انقطع الصوت فشيخى ليس فى مجال بصرى وإن أدركت أننى فى متناوله ، لم أر ملامحى ، فكنت كمن ينظر فى المرآة فىرى شخصا غيره ، هو هو لكن ليس هو ، أو من يضع رأسه بين وسادتين فيصنعى إلى قلبه ، نبضه آت من داخله ويبدو وكأنه قادم من خارجه . فسبحان من يعلم ما فى الصدور ، هذا ما كنت سأصير إليه إذن لو أأتى لم أنشأ النشأة الأولى ، شاب طويل القامة ، نحيلها ، بنى الشعر ، حواجه كثة ، خطاه مسرعة بعكس خطاى المتسمة بالتمهل والتأنى ، الشوارع خالية ، هذا أنا ، لكن من أكون وإلام بعثت ؟ من أين جئت وإلى أين ؟ كنت كمن يرى نفسه فى حلم . يرى نفسه من الخارج لكنه يفكر ويشعر ويتألم ومحاور الآخرين ، وهنا ألقى فى وعيى بعض أسرار هذا المقام ، ومنها أننى سأعيش خلقى هذا ، غير أن ثمة كرامة خصصت بها وهى احتفاظى بحياتى الأولى فى أصل وعيى ، أما هذا الفتى فلن يعي ، ذلك أن الكرامة نخصت وجودى القديم ، ومن أسرار هذا المقام أيضا أن الأمور كلها لن تتجلى وبعضها يسير هين ، من ذلك اسم هذه المدينة وموقعها ، مضيت أتعقب ظلى وأثرى حتى حلت بى ، فأصبح البصر واحدا ، وإن بقيت أنا أنا وهو هو ، مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ، شعرت بملبس ملابسه على جسده الذى هو جسدى ، وبرودة الهواء تلفح وجهه الذى هو وجهى ، ومسنى حزنه فصار حزنى ، وهنا دخل عليه حنينى إلى موطنى فأبنع حنينه ونما وإن حن إلى أصول أجهلها وأمور لم أعهدا ، إلى بيت قديم يقع فى نفس المدينة التى أحبتها

وضقت بها أحيانا ضيق الحبيب من حبيبه ، قاهرقي ..إذن ، المنبت واحد ،
سبحانك يا فالتى الحب والنوى ، فى هذا البيت جد وجدة ، وخالة ، وأبناء
خالتي تلك ، فتى يماثل عمرى ، وفتاة تصغرني بثلاثة أعوام ، ومكتبة قديمة
مزدحمة بالكتب ، وشرقة تطل على ميدان باب اللوق ، وأضواء مآذن
رمضانية ، وطرفات خالية عند الغروب والافطار بعد صوم يوم طويل ، ورائحة
سمك مقل عند ناصية ، وضجة مقهى ، ورجل يرتدى جلبابا أبيض ويحمل
فوق رأسه سلة ضخمة يبرز منها السميط والكحك وعيدان الجرجير والجبن
الرومى وشطائر الطماطم والخيار يسند السلة فوق صندوق معدنى داخله مفاتيح
كهربائية أمام بار قديم ، لا يظهر الرجل إلا بعد العاشرة مساء ، شاطئ النيل
والقعاد أمام المياه المتدفقة على مهل ، ومما غذى الحنين افتقاد النخيل الكثيف ،
والأيام الطفولية الأولى ، والرحلات المدرسية إلى الأهرام وحلوان والقناطر
الخيرية ، أسرع الخطى فالوقت يتبدد ، والليل موغل والنذر تنبئ بتساقط
الثلوج ، والخطر يكن فى الشوارع ويحلق بالمتجولين فرادى ، والماضين بلا
صحبة وأنا غريب ، صحيح انى أتقن لغتها كواحد من أبنائها ، لكن فى كل
سنة لابد من موافقة لتجديد اقامتنا سنة أخرى ، الأجانب هنا مكروهون حتى لو
قضى كل منهم عمره كله ، ولو هاجمنى أحد أبناء هذه المدينة فلن تتصفنى منه
الشرطة ، بل ستصفه على ، إذن أنا أجنبي ، وهذا أغرب ما صادفنى ، أن
أصير أجنبيا أنا الذى قضيت أصل وجودى أأتنس بالوطن ، « لا أقسم بهذا
البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد » ،
وأى كبد أقسى من أن يكون الإنسان أجنبيا ، دائما تحذرنى أمى ، وتذكرنى
وتنبه على أن أحذر الدخول فى مشاجرة أو أصيب شخصا أثناء لعب عفيف ،
أفضل لى أن أرجع إلى البيت ، هكذا يجب أن أسرع ، هكذا علمت لأول مرة

من خواطره - أى خواطرى - أنتى أعيش هنا كأجنى ، وأنتى أعيش مع أبى ،
وان أمى تعمل فى أحد البنوك ، وان لم أدر طبيعة عملها أو عمل أبى ، تلهفت
لرؤيته ، ماهيته ، كيف يبدو ، كم عمره ؟ لماذا فارق موطنه ، وجاء إلى
هنا ؟ ، وعند هذا الحد نشب داخل حنين إلى أبى أنا ، إلى أمى أنا ، ذكرت أبى
والأسى ينهل منى ، وحلة الحيرة تقطعنى ، أى زمن هنا ؟ هل يسمى أبى
وتسمى أمى الآن أو أنها رحلا منذ زمن ؟ وأين أمى التى بدأ قلقى عليها منذ
تجليها لى ومخاطبتها لى ، ثم طلبها أن اخصص فصلا ، كلما استعدت هيتها
ارتعدت ، فالساح الذى شفى فى عينها كان ررقا حانيا ، كذا الطية ، وهذا
التعبير الغامض فى عينها والذى لا أجدر له وصفا إلا أنه أقرب إلى الإفصاح عن
السلام الهالى ، السلام الذى يعقب آخر الخطى وانعام المرحلة ، هل يخاف
الإنسان من نظرة حب وحنان تصله من عيني أمه ؟ ، نعم ، إذا كان ما بهما يفوق
طاقة البشر ، ويوحى بمجهول ، فالستر والرحمة يا من خلقت آدم بين الماء
والطين ، احمها ، وخفف عنها وخيب ظنونى بحق جاه حبيك المصطفى ،
حننت إلى أصلى عندما ايقنت اننى أوغل فى ذلك المقام حتى وددت مفارقتها ،
ظهور أم أخرى لى بعث التشاؤم عندى ، فالستر ، السترا ، لا أنكر أن فضولا
تملكنى ، غير أن خروجى عن أصلى أرىكنى وأحزنى ، كأننى سأصير بددا ،
ليس لى إلا ما سمعت ، لذا نطقت لأول مرة « يرحمك الله يا أبى » ، وقد
حشت نفسى زمنا ليس امتناعا لكن رفضا لرحيله وانكارا ليقينى أنتى لن أراه
مرة أخرى عندما كان الألم نصلا مغملا فى قلبى لا يقعدنى لا يوقفنى ، لا يربحنى
ولا يرهقنى ولا يذيقنى الوسن ، كان الطيرون الأقربون يقولون لى ، ماذا أنت
فاعل له الآن ؟ ليس بوسعك إلا أن تطلب له الرحمة وأن تقر له الفاتحة . أسمع
هذا فلا أزداد إلا عصيا ، طلبى الرحمة يعنى أنه ميت وهو عندى حى ، كم

استمر ذلك ؟ شهوراً ؟ سنين ؟ لا يمكننى التحديد ، لكننى مع كـر الأوقات الذى لا يمكن رده صرت أقسم « ورحمة أبى » ، ثم لا أنطق إلا صدقا ، ومن يدرى .. ربما أقسم يوما كذبا ، عندئذ يكون النسيان قد اكتمل ، والأساس الحى عندى قد احتضر ، تلك عقباى إذن ؟ القواث يا مرادى الأصنى يامن تأيت عنى ، وضنت علىّ بصحبتك ، يا حسنى ! ربما تعلم ان نسيانى مكتمل ولم تصرح لى شفقة علىّ ، النجا ياشيخى الأكبر ، يا محيى الدين . لم ييجنى صوت ، ولم يرتد الىّ صدى ، استمر سعى ، عبرت طريقا رئيسيا ، رأيت امرأة ترتدى معطفا جلديا تتحدث داخل مقصورة التليفون ، المخازن مغلقة ، الأزياء فى عتمة الفتارين ، الصيدلية ، متجر لبيع اللبن والأجبان ، اعلان عن فيلم ، فتاة طويلة الشعر عارية الصدر تتعلق برجل أشيب ، اعلان عن حقائب سفر ، ميد حشرى ، أسرع إلى الشارع الجانبى ، على الناصية مطعم صغير لبيع الوجبات السريعة والشطائر المحشوة باللحم أو السجق أو الجبن المفروم ، عند مدخل الشارع معرض قديم للسجاد الشرقى ، يعرض فى الفاترينة قطعا صغيرة ، مذنشة من الحرير ، وكأسا عتيقا زجاجيا أزرق ، وعقدا من محار ، يحلولى ويطيب توقى وتأملى النقوش الغامضة حتى عندما يكون المتجر مغلقا والعتمة مستبدة ، إنها المنطقة الراقية من المدينة ومجرد السكنى هنا تدل على التميز الاجتماعى ، لكن قبل المحيى إليها مررنا بمختلف أقسامها ، خاصة ابى الذى نزلها فى البداية وسكن حجرة وحيدة مع خمسة من المهاجرين العرب ، تلك أيامه الأولى هنا القاسية التى يندر حديثه عنها ، منزل رقم (١) ، (٢) ، (٣) ، (٥) ، تلك البوابة الحديدية السوداء ، أخرجت حلقة مفاتيح ، مفتاح مدبب ولجته فى ثقب يتخلل لوحة معدنية معلقة إلى جوار الباب ، يصدر صوت معدنى مختصر ، حجرة الحارسة مغلقة ، بعد الثامنة ليلاً غير مسئولة عن

فتح الباب ، كذا أيام الآجاد ، لمحتها من خلال زجاج النافذة المغطاة بستائر شفافة تجلس إلى منضدة في مواجهة زوجها عامل البناء ، كلاهما صامت ، اعبر الفناء ، مغطى بسجاد أحمر اللون ، قبل أن ألج باب السلم الداخلى استدرت ، الطريق عبر البوابة ، قطرات المطر تلمع فوق سيارة منتظرة ، للبيت رائحة خاصة ، خليط من رائحة القدم والدهان الخشبي والطلاء الراسخ القديم ، وآثار باهتة لعطور يتعطب بها نساء عبرن ، تذكرت أنا - وليس أنا - البيوت التي عشنا فيها معا ، وضمت أيا منا المقرضة المولية بلا رجعى ، بدءا من الحجرة الوحيدة فوق السطح في حارة الطبلأوى التي أول ما فتحت عليها عيى ، وشقة الدرب الأصفر ، وأيام المشقة فيها لارتفاع إيجارها وتجاوزها طاقة أبى ، ثم عودتنا مرة أخرى إلى درب الطبلأوى ، ثم انتقلنا إلى باب الشعيرة ، فالمطرية شهرين لا غير ، حتى استقررنا في مدينة نصر الذى كان سقف مسكننا فيها آخر ما رأى أبى ، وهنا برق عندى في هذا المقام تفسير لأمر رأيت في أسفارى لحظة ميلاد أبى ، عندما وقعت عينائى على منطقة صحراوية مهجورة ممتدة شمال القاهرة ، لا يطررها إنسان ، ولم يخطر ببال أن العمران سيمتد إليها وأن البيوت ستقوم فيها ، مبان متجاورة ، آخر ما شيد للفقراء ورقيق الحال في زمن عبد الناصر . بعدها وبعده لم توضع طوبة فوق طوبة من أجل عامة الناس ، وصار المأوى على القادر صعباً ، فسبحان الذى منحنا المأوى قبل زمن الجلف ، وإلا لنصرنا إلى أروصفة وضياح ، قبل بداية الحرب التي قيل إنها آخر الحروب بشهرين انتقلنا إليها ، لم يكن للعارة باب خارجى يغلق ليلا وحارس ، كذا جميع البيوت التي عشنا فيها وتوزع عمرنا عليها ، وما أبعد الشقة بين ما عشته في أصل وجودى ، ونشأتى البديلة ، أى باب هذا وأين أنا من هذه الاحتياجات ، الباب المكهرب والباب المغلق والباب المانع والباب المؤدى إلى المسكن الذى

أعيش فيه ، كأتى ألج بيتا غربيا أول مرة مع أتى أعيش فيه ، أتوقف ، الباب خشبه عتيق ، تتوسطه يد مضمومة نحاسية ، أمسك حلقة مفاتيحي ، مفتاح قديم الطراز ، تهب رائحة الأماكن المغلقة ، هواء رطب غير متجدد ، ظلال مستقرة لا تتحرك ، وأثاث وآثار تلخين ، تمتد يلى إلى مفتاح الكهرباء الذى أعرف مكانه بوضعى الحديد وأجهله بخلقى الأصلى ، إلى اليسار غرفة الاستقبال والمائدة ، أدت مدفاة الزيت ، البيت قديم ويخلو من التدفئة الشاملة ، أخلع جاكيتى المبطنة بالفرو الصناعى ، ألقيتها فوق المقعد المجاور ، ستهرنى أمى وتذكرنى بضرورة وضع كل شىء فى مكانه ، إنها تعود مرهقة وما ترجوه أن يحقها عنها العبء ، من يأكل فى طبق فليسله ، ليرحماها قليلا ، أنا جائع ، منذ الصباح لم آكل إلا رغيفا بالجن ، أدخل المطبخ الفسيح ، فى الحوض المعدنى كومة من الأطباق المتسخة ، علبة الشاى مفتوحة ، ماذا آكل ؟ تهب البرودة من الثلاجة ، تتجاور علب الجن فوق الرف العلوى ، جبن أصفر ، جبن مطبوخ ، جبن بالصلصة ، أمى تفضل الجن المخلوط بالثوم ، الخبز ، أين الخبز ؟ تضعه أمى فى الدرج التحتى المغلق داخل أكياس من النايلون حتى لا يخب ، سجت الدرج .. خال ، لم يعد أبى خلال النهار ولن يرجع قبل منتصف الليل ، أغادر البيت فى ساعة مبكرة فلا تتاح لنا اللقيا إلا فى أيام الأجازات ، فى الصباح الباكر أمر أمام غرفته على أطراف أصابعى خشية إقلاقه ، لا يصحو قبل التاسعة أما أمى فتكون قد فارت البيت قبل استيقاظى وأحيانا أجد رسالة منها فوق رخام المنضدة الصغيرة بجوار الباب ، تمنى لى يوما طيبا ، وتتهنى إلى موضع طعام الإفطار والغداء ، وقد توصينى بشراء شىء ما عند عودتى ، وفى الأغلب الأعم أنسى ، وهنا رأيت فى وجودى الأصلى حارتنا القديمة فحتت ، تلك رائحة الظهيرة التى طالما استنشقت ، الضيل

المثلل من الشرفات والذي قارب أن يحف ، رائحة ثقيلة بدأت تفوح ، فعودة
 الرجال اقترت ، لم يتأخر أي عنا ، لم تحمل الثالثة عصرا إلا وهو يبيتا ، يظهر
 عند المنحنى حيث فرن الحلاج ناصيف ، أسرع زاعقا ، « بابا جه » ، « بابا
 جه » ، يتقدم عبر الحارة بخطاه السريعة ، يمتد تحرف قليلا مما يجعله يميل إلى
 الأمام قليلا ، وهذا تغير بدأ معه بعد أن أودعته أمه الليل وتركه وحيدا أثر علته
 خوفا من ابدال الجن له ، وقد عاينت ذلك بنفسى فى أسفار الغربة ، سفر
 الابدال ، فسبحان مغير الأحوال ، يرجع ومعه الخبز الساخن والغموس ،
 طعمية ساخنة وباذنجان مقلى ، أو سمك ، وإذا تسر الحال فيرجع مبكرا ،
 يقول إنه استأذن ساعة ، أو أوصى صاحباً له وزمياً أن يوقع له فى دفتر
 الانصراف ، يحىء بالخضار ولقافة ورق مبقعة بدماء لحم الضأن الطازج ، لم
 يتغير ميعاده قط ، وإذا تأخر تتعلق أبصارنا قلقه ، واجفة بالطريق ، ندعو أن
 يحفظه الله من الطريق وشروبه ، من السوء ، من البغضاء ، من أولاد الحرام ،
 ولا نهذاً إلا عندما نراه يعبر المنحنى أو نسمع خطاه وليس لغيره مثلاً ، رأيت
 يعود مبتهجا فى الليالى النائمات ، رأيت يعود مبتهجا مرحا ، ييسط أمامنا البلح
 أو التين ومرة تفاحا أحمر اللون ، لابد أن خالى أرسل إليه إيجار نصف الفدان ،
 رأيت يقطعنا ثمار القشدة الخضراء ، وأبو فروة ، توقد أمى وابور الجاز ،
 فتطلق الحبات بنية اللون فوق قطعة الصفيح الساخنة ، والله يا اخوانى لم أذق
 هذه القشدة كذا أبو فروة منذ ذلك الحين ، منذ أن جلس أبى ضاحكا ،
 يخاطب شخصا لا نراه بصوت مرتفع ثم يقهقه ، يوزع علينا الخمار ولا يتنوق
 هو ، بينا تهلك أمى جادة راضية فى إعداد شاي ، أو تطبيق غسيل ، رأيت
 يصحو مبكرا فجر الجمعة ، نسمع نزول المياه ، يتوضأ ، يمضى إلى ضريح سيدنا
 الحسين ، يصلى ، ومع إطلالة الشمس يعود ، يحىء باللبن ، يطبق الفول ، فى

أيام الجمع لا يشتري القول إلا من رجل قديم اسمه أبو حجر ، يقف بعريته قرب ضريح الإمام الشهيد ، لا يبيع إلا لأحباب الحسين ، ولا يمسك المغرفة إلا بعد انتهاء صلاة الفجر ، حتى إذا ما اقترب بزوغ الشمس ، ألم حاجاته ، وكف عن البيع ، يدفع عريته بسرعة يتوارى في حارة أم الغلام ، لم يتكرر مذاق فوله عندي منذ أن رحل ، ناعم كالزبد ، مغموس في الثوم وزيت الزيتون ، يميل لونه البنى إلى صفرة ، يعود أبى متأبطاً جريدة ، إما الأهرام أو المصرى . أرى الأهرامات الثلاثة وصور الصفحة الأولى لرجال يرتدون الطرايش ، أرى علم مصر الأخضر ذا الهلال الأبيض والنجوم الثلاثة ، يرفرف في مقدمة جريدة المصرى ، يسند أبى دماغه إلى الجدار ، يفتح صفحة الوفيات ، ويقدرته الشاحبة على القراءة يشير بأصبعه إلى الحروف التى تشكل أسماء الراحلين ، حفظت أشكال الحروف من استقامة وانحناء ونزول الميم والنون ، فتعلمت منه أن أقرأ قبل دخولى المدرسة ، فسبحان من علم نبيه الأسمى الأسرار كلها ، رأيت أمى عبر هذه الصباحات البعيدة تقلى الفطائر ، أو الزلاية ، أو تظل مستيقظة بعد ذهابه إلى صلاة الفجر ، تعد المحروطة ، بين النوم واليقظة ، أشم رائحة العجين أثناء طهوه على البخار ، حلة من نحاس يوضع بها الماء المغلى وفوقها مصفاة محزمة بشریط من القماش ، داخلها شرائح العجين الرفيعة ، رائحة انصهار السمن ، الحليب السكرى والوعد بإفطار لا يتكرر كثيراً ، وهذا إفطار أيامى الغروية ، التى اكتملت ولن ترجع ، لم أعرف له شبيهاً أو مثيلاً أو مذاقاً قريباً بعد أن تبددت بين السنين ورحلت عبر بلاد الخلق ، ويكفيه أنه كان إفطاراً مغموراً بالأمن وانتفاء الحشية ، واتمام القرى من أبى وأمى ، أبى وأمى فى وجودى الأصلى ، أما أبى الذى أنتظره الآن ، كذلك أمى فلا أعرف عنها شيئاً بعد ، يضايقتنى جوع وضجر ، وتضمنى وحدة ، تلق ساعة حادة الرنين فى

مكان ناء ، نفس الرنين الليلي ، علامة ، خلعت حذاءي الضخم ، أخشى الخطوبه فوق الأرضية المكسوة بالخشب ، يحدث صريحا يقلق سكان الطابق التحتي ، عندئذ يستدعون البوليس وما أيسر ذلك هنا لهم ، وما أمره وأقساه علينا نحن الأجانب ، سكان البيت لا يخفون ضيقهم من سكاننا ، في الليل أرغب في الاستحمام ، غير أن تدفق المياه من الدش يقلق الجيران ، الراديو لا أسمعه إلا هامسا ، ماذا آكل الآن ؟ شرائح السمك المدخن تحتاج إلى خبز ، كذا اللحم المحفوظ والسلامي ، المرئي تجزع لما نفسى ، الزبدي .. الزبدي بالشمس ، بالليمون ، بالفراولة ، زبدي بالتفاح ، أتناول علبه وملعقة صغيرة ، أرجع إلى الصالون ، لورأتني أمي مستغضب ، كيف آكل هنا ؟ يجب أن أترفق بها هي التي لاتجد الوقت لتهرش شعر رأسها ، يرن التلفزيون ، تقع عيناي على سبعة كعب متوسطة الحجم ، دواوين شعر ، شعر أنثى أبي ، أبي في نشأتي الأخرى شاعر ، وشاعر كبير ، لماذا هو هنا ؟ ما الأمر ؟ ينطق البيت بما لا أفهمه ، وبما لا يريحني ، كذا ملاحي ، ونبراني التي أصغيت إليها عندما أمسكت بالساعة ، إنها أمي ، تسألني .. أين كنت يا ضائع ؟ تقول : اتصلت مرارا ولم يجيني أحد ، أسأل : متى ستعودين ؟ تقول في الحادية عشرة والربع ، أجب باختصار : سأكون نائما ، تقول إن ثمة فطائر محشوة باللحم والشامبينيون في درج الثلاثة التحتي ، ما على إلا تسخينها ، إذن .. لن أراها الليلة ، لو أنها رجعت مبكرة لحاورتها ، وأصغيت إليها وأصغت إلى ، شعرت بلهفتها على ، وشعرت أيضا بمجلتها ، اختلست وقتا لتكلمني ، تمنيت لو اكملت جلستنا الليلية ، كلانا في الثياب المتربة والدفء ، دائما أرى أمي وأبي في ثياب الخروج ، بعد انتهاء المكالمات تضاعف خواتمي ، أفضل انتظار رنين الجرس على انتهاء مكالمات كنت أتوقعها ، خاصة إذا لم يكن عندي ما أقضه ..

الوصل الأول من هذا المقام

.. فى لحظات الكشف عن الحقائق القديمة التى أجهلها ، ما عم منها وما خص ، لا أدرك كل شىء بالضرورة ، فأحيانا أرى فقط ما أرى ، بدون أن أعرف ما أشاهده ، وبعد حين مقدرٌ يلقى فى معارفى التوضيح والتفسير لما أكون قد أبصرته من قبل ، فتكتمل الرؤية ، ليس كل ما يراه الإنسان يدرك كنهه وطبيعته ، ألا ينظر الطفل إلى الأشياء كلها ، لكنه لا يعرف كل ما يرى ، كذلك ، لا يدرك كل ما يقرأ ، وقد تظل الكلمات صماء لا تنشئ بمكنونها للقارئ الغافل ، الذى لم يؤت علما بقدر . عند بداية هذا الوصل رأيت طفلة سمراء ذات جدائل ، تحمل على ظهرها حقيبة جلدية بنية اللون ، تمشى بجوار سيدة ممثلة ترتدى ثوبا أسود اللون ، تدخل الطفلة من باب مدرسة عالية الجدران ، تضم كنيسة حمراء الطلاء ، تقف المرأة وحولها نساء أخريات ، ترقب الطفلة التى وقفت تنظر حولها إلى الصغيرات الأخريات ، لم تبك ، ولم يبد عليها ارتباك وقد سر ذلك المرأة فأبدت ارتياحا ، ثم رأيت فتاة ربما تبلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، تركب دراجة ، تعبر ميدانا فسيحا ، خلفها فوق مقعد الدراجة الخلفى حقيبة بها أقنشة ولفات خيط ، وزراير ، توزع هذه البضاعة المحدودة على البيوت ، عرفت أن أباهما يعيش فى مكان بعيد ، متزوج بأخرى ، وأن أمها أبت الطلاق لأن من سيجىء ليتزوج إحدى البنات سيزرد طويلا عندما يعلم أنها مطلقة ، الأب لا ينفى بحاجة البيت ، الابنة الكبرى تساعد أمها فى توزيع بعض البضاعة ، أمها أصبحت مشهورة كدلالة تباع الأقنشة واللوازم النسائية لعائلات الضاحية التى تجد سيداتها نصبا فى الذهاب إلى سوق العاصمة ومتاجرها ، عندما دارت الفتاة بالدراجة إلى شارع جانبي ، ضيق ، مستقيم ، على جانبيه أشجار ضخمة متباعدة ، وعند نزولها عرفت ان الضاحية

قريبة من قاهرقي ، إذن .. فأنا لست ببعيد ، رأيت الفتاة تعمل في مصنع للنسيج ، يبدو عمرها أكبر ، غير أن ملامحها لم تتغير ، وقفت على بعض من مكنون قلبها ، ضيق بحالها ، وخشية على أسرتها ، وإشفاق على أمها ، وتساؤل يلى التساؤل : لماذا تقلق وتسعى من أجل زاد يومها ؟ ، ويفيض الزاد عن حاجة البعض ، لماذا الكد من نصيبها ، والراحة من نصيب آخرين ؟ رأيت يومها الجهد في تفصيله وجملته ، من عمل في المصنع القريب ، ومواصلة الدرس في ذلك المعهد الليلي ، اطلعت على همها اليومي الكبير ، ان تجد الأم وان يجد اخوتها الزاد في الأطباق عندما تحين مواعيد الوجبات ، إنها هي محور الجري واللهات ، والقلق الذي لاينتهي ، والخوف الدائم مما سيحيى به الغد . وما ستطلع عليه الشمس ، وهل ستجد غدا ما ينى بالحاجة ، قلق ممض ريب فقار قلبها لايفارقه ولا يتزع منه ، رأيت ما يحدثه هذا القلق لحفقاتها من اختلال ، وهزة لا تلحظ ، رأيتها من حيث رقتها ، وحزنها ، وانفرادها بنفسها آخر النهار وقبل النوم ، عند اغماض عينيها ، تجاور شقيقاتها وأخاها الوحيد ، تولى وجهها ناحية الجدار ، لايمكن لإنسان ان يراها ، ولا يقدر مخلوق على ملاحظة ما يتعاقب على وجهها ، تبكى أو تدمع وربما تبسم ، أو مطت شفيتها ، أو نطقت هامسة جملا غير متصلة ، مرة في لغتها العربية التي فطرت عليها ، ومرة في هذه اللغة الأجنبية التي تتقنها إذ بدأت تعلمها منذ سنوات في مدرسة البعثة الأجنبية ، وهنا عرفت أن هذه الطفلة التي رأيتها في أول ذلك الوصل ما هي إلا هذه الفتاة ، وما أبعد الشبه بين ملامح الطفولة واكتمال الأنوثة ، ان قلقها الليلي يتجدد تخشى موت الفجأة ، ان يقع لها حادث مفاجئ يصيبها بمعجز ، لا تدرى ماذا سيجري لأمرها وإخوتها بعد مفارقتهم أو عدم قدرتها على العمل ، رأيتها تبسم ولم أدر لماذا ؟ ، وهنا عرفت الحقيقة المخفاة ، ما هي إلا أُمى في خلق

البديل ، أمى التى تحدثت إليها عبر التلفون فى هذه المدينة الأجنبية . ولم أدر سر العلاقة بين وجودها فى هذه الضاحية ، وحياتها وحياتى فى تلك البلاد البعيدة ، أضمرت الاستفسار ، والأمل فى أن أعرف وأقف ، عند هذه النقطة من ذلك الوصول توجهت بخاطرى إلى شيخى الأكبر ، اتجهت إليه كما يتجه الابن إلى أبيه . وكما ينظر المريد إلى شيخه ، وكما يتعلق التائه بدليله . طلبت العلم بأمر وجودى الأصلى ، وفهم عنى ، إذ أدركنى ما يشبه الغيرة المخالطة للضيقة والكمد ، إذ كيف اطلع على بعض من حياة أمى فى خلقى البديل ولا أرى أم وجودى الأصلى ، كذلك داخلنى حنين إلى أمى فأومأ لى وترفق بى ، رأيت خروج أمى إلى الدنيا من رحم جلى عائشة رحمها الله ، وكان ذلك لحظة وصول أبى القاهرة أول مرة ، وفى البيت ذاته الذى كانت أرضه أول ما لامست رأسى ، فى الغرفة ذاتها ، غير أن موضع نزول أمى يبعد عن موضعى سبعة أسيار كاملة . رأيت جلى عائشة . امرأة سمراء ، طويلة ، نحيلة . يتوسط جبينها وشم أخضر ، وعلى ذقنها وشم دائرى يقارب شكل الزهرة ، النساء يحطن بها ، اللودة ، من تلقتنى عند وصولى إلى هذا الكون الغريب ، هى من تلقت أمى أيضا ، وقد نظرت طويلا إلى المولودة ، إلى عينيها المغمضتين وساقها المشتين وأنفها اللقيق ، وكان بإمكانى أن أرى ملامح أمى التى أعرف فى قسمة الوجه ؟ يتردد فى سمى صوت الهاتف الذى جاعنى عند بداية سعى إلى الديوان .. ليس بوسعى إلا أن أصنى وأن أمثل .

تأمل رقتها الأولى ..

يزعن بعد سكة ..

.. يا غافل ..

ثم غاب الهاتف ، رأسها ملتفت إلى الجهة اليسرى ، غير قادر على

الحركة ، لا يزال لون جسدها محتقنا ، يقع خضراء صغيرة على وجهها ورقبتها ، تقول الدودة إن هذا طيعى بسبب زنقة الولادة ، أهذا البطن الصغير يحتوى رحا سيكون أول أوطاني ، هل سأقلب داخله ثم أفارقه ، وأمشى في الأرض مرحا حيناً وحزيناً حيناً آخر؟ تأمل رقبتها .. لماذا ناداني الهاتف ، لماذا خاطبني هنا ، وظهور صوته في حيز الحس لا يكون إلا لأمر جلل ، أيقنت أن المقصود أمر يصعب علىّ فهمه الآن مها بذلت ، مها حاولت ، فلأتظنر لعل وعسى ، انتقلت من حيرتي إلى راحتي . إذ اكتمل عندي ما لم يتم حتى لشيوعي في الطريق ، ذلك أني رأيت ميلاد أبي وأمي ، فالحمد لله ، وقفت على العلم بها كطفلة تلعب أمام البيت مع بنات يماثلنها سنا وعمرا ، لاحظت تمهلها أثناء اللعب ، وشروها هنيات . ونظرها إلى البعيد ، وقد حاولت الفهم والنفاذ ، لكنني أيقنت انه من المستحيل علىّ أن أعرف في أى الأمور تفكر أو اطلع على خواطرها ، أو الصور التي تعبر ذهنها ، أخبرت ان هذا من الغوامض المستعصية أمامي ومن العقبات التي لا يمكن تحطيتها أو تجاوزها ، كنت كمن يسط كفيه ليقبض على الماء ليليلغ فاه ، وما هو ببالغه ، أرى ميلادها .. نعم ، أراها في هذا العمر .. نعم ، أراها قبل أن تنجبني .. هذا جائز ، بل إنه واقع حدث ، أما أن أعرف ما يحول بخايطرها الآن عند رؤيتي لها أثناء لعبها ، فهذا باب مغلق لا فائدة ترجى من طرقه أو محاولة فتحه حتى مع التوسل والرجاء ، فأيقنت أن ما جال بخوايطرها وما مر بها في مقام العدم . عندي ، فلا فائدة ترجى ، لهذا صمتُ وإن لم ينقطع رجائي ولم يتبدد أملى ، لكنني أضمرت وما نطقنت ، وإن كنت أعلم ان باطني مكشوف لسادتي ، وانهم أقرب إليّ من دمي في عروقي ، كنت ظامئاً إلى أُمي ، وهذا العطش إلى رؤيتها بدأ عندي منذ تجليها لى أول مرة

أثناء سفرى فى بداية هذا المقام المبارك بإذن الله ، رأيتها والليل عاصف ،
ورياح شديدة تهز سعف النخيل وشواشى النبات وأطراف الخطب فوق
البيوت ، أمى فتاة مكتملة ، خمنت أنها فى السادسة عشرة ، إلى جوارها
جدتى التى نخل قوامها ونقص وزنها وتقدد وجهها وتدبب ذقنها ، حتى كأننى
اطالع امرأة أخرى غير التى رأيتها لولا بقايا الزمن القديم فى الملامح ، أمى
ممتلئة قليلا ، تلف وجهها بطرحة سوداء ، شقيقها الذى سيصبح خالى يسند
باب البيت بظهره ، فالزلاج الخشبي يرتج ولا يكفى ، والهواء شديد ، جدتى
تقول ، استر يا كريم ، عندما تهب الرياح عيفة هكذا ، فلا بد أنهم قوم من
الجن يتعاركون ، يتحاربون ، وما هذا المبوب إلا أنفاسهم الغاضبة ، استر
يا كريم ، أتساءل والليل حول عاصف ، أين جدى ؟ أين والد أمى ، وهنا
تقلب فى الزمن كما تتقلب الأنفاس ، فسيبحان الله حين تمسون وحين
تصبحون ، رأيت والد أمى ، ولأنتى لم أشاهده أبدا ، ولم أجلس إليه ، ولم
يداعبنى طفلا ، ولم يلاعبنى صبيا ، ولأنه لم يخلف لى صورة ، أو أثرا يدل
على هيئته ، فلم أعلم به إلا من حيث ما يلقى فى معارفى ، عرفت انه شيخ
موقر موهور الهبة فى البلدة ، له كلمة مسموعة ، وحرمة ، يؤم المصلين ،
يؤذن لأوقات الصلاة الخمسة بصوت جميل ، عذب ، قوى ، يسمع فى
سائر أنحاء البلدة ويتجاوز فضاءها إلى النجوع المجاورة والكفور القريبة ،
بعض مشايخ البلدة ورجالها المعمرين وأصحاب الكلمة فيها يقصدونه ويقفون
على مقربة يصغون إلى أذانه الشجى الورع ، الصاعد إلى السماء كعين ماء
سلسيل ، يتدفق ماؤها من أسفل إلى أعلى ، فسيبحان من بيده الملك وهو على
كل شىء قدير . لكنه اشتهر فى النواحي بمديحه للحبيب المصطفى ، يقبض
عصا من معدن ، بطرفها قطعة دقيقة من حديد ، تلك أنغامه التى ترتل عليها

سيرة مَنْ ظلَّه السحاب ، ولان الحصى تحت قدميه ، من أسرى به ربه ليلا
من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، علمت انه ملجأ للعجزة والمرضى
والمسوسين والعاجزين عن إتيان نسائهم ، يكتب لهم الأحجية والتعاويذ ،
يقرأ في آذان الأطفال الأدعية ، بينما تلمس يده جباههم الملتبة ومواضع
الألم ، وحتى زمن تدويني هذا يذكره المعمرون من أهالي جهينة بلدتنا ،
ويقولون إن جمال صوته لم يعوض حتى الآن ، أمى لاندكره ، لا تبعه ،
رحل مبكرا ، قبل الأوان ، ذات ليلة عاد إلى البيت بعد صلاة العشاء
وتأهب للنوم فوق المصطبة المواجهة لباب البيت ، وبجواره صندوق خشبي
عتيق ملئ بالكتب القديمة التي اصفر لونها ورق ، تحلته الثقوب ، وخطوطات
كتبت بالقلم الغريب ، وقد أدركت في طفولتي بعضا مما تبقى منها ، لا يرتاح
جدى إلا عند رقاده على مقربة من صندوق كتبه هذا ، بعد نفص ما قد
يكون علق به من غبار ، اغلقت جلدتي الباب بالضبة ، وتبأ للرقاد ، إلا أن
طرقا يرتفع ، وصياحا يعلو ، يخرج جدى مستعيذا بالله ، عدد من رجال
البلدة الذين اعتادوا السهر عند دكان حميد البقال ، قال قائل منهم ان جملا
عفيا قد برك عند الجسر ، وبأبى الحركة ، وانه يقطع الطريق على الرايح
والغادى منذ الغروب ، وان صاحبه في حزن عظيم ، يقول إنه اشتراه منذ أيام
بمال كثير ، وان من يستطيع مداواته وعلاجه شخص واحد في هذه البلدة ،
وسمى جدى والد أمى ، وهم يرجون جدى ان يسرع ليداوى الجمل
والجمال ، دخل جدى إلى البيت ، ارتدى جبته وقفطانه وعمامته حتى ان
جلدتي سألته عن ضرورة ذلك والليل مسدل والمسافة قريبة ، غير انه صافحها
مصافحة المحبين ، ودخل الغرفة ، فقرأ الفاتحة في أذن أمى التي ماتزال بعد
طفلة ، وفي أذن شقيقها الذي كان صبيا في الحادية عشرة ، وتمت في اذنيه

عقب فاتحة الكتاب بما لم يسمعه إنسان ، ثم خرج إلى الجماعة وجدنى فى عجب وانقباض ، عند وصولهم إلى الجسر حلق إلى الجمال ، وكان غريب الهيئة ، ليس من أهل النواحي المجاورة ، يعبر الجسر لأول مرة ، لم يره أحد ، ولم يعرفه أحد ، قيل إن الجمال عند وصول جدى سكن وان جدى نظر مرة أخرى إلى الجمال وقال بلهجة الموقن العارف : هل جئت ؟ ، كانت لهجته غريبة ، غير ان كل من صحبه لم يتبه إلى غرابتها إلا فيما بعد ، وذلك شأن كل الأحاديث العادية التى يتبادلها الخلق والتى لا تلفت انتباهها ، ولا يتوقف عندها خاطر ، لكن إذا وقع حدث مفاجئ خارق ، أو حلت مصيبة ، استعاد الكل ما قيل ، فيرون فى العادى غير المألوف ، وما قيل بشكل عابر يتسمى إلى النفيس من الألفاظ ، حمحم الجمال ، طلب جدى من صحبه أن يبتعدوا قليلا فتراجعوا ، اعتلى سنام الجمال المغطى بمقعد مدثر بالصوف ، شب الجمال على قائميه الأماميين ، ثم بدأ الخطو مسلما قياده للرجل الغريب ، وبعد خطوات معدودات خرج من دائرة رؤية الواقفين ، ومنذ هذه اللحظة لم تقع عين على جدى ، ولم يدل على اثره إنسان ، فيما عدا أوهام بدت للبعض بعد ذلك لم يثبت صحتها ، بكت جدى ، وبعد مرور ستة نصحوها بإقامة مأتم وتقبل العزاء فى رجلها ، لكنها أبت ، كان يخالجها شعور غامض أنها ستلقاه يوما ، أما الآن فيجب الانتباه إلى الوديعة المعلقة إلى زقتها ، ابنا وابنتها ، هما من بقيا لها بعد أن مات ثلاثة كلهن إناث أنجبتهن بعد مجيء الأبن الأكبر ، وكانت أمى الرابعة وهى التى عاشت ، لا بد أن تربيها وتحميها وتدفع عنها الأذى ، إذ تسمع من يقرن اسم زوجها بالمرحوم تغضب وتقول إنه لم يمت ، وإنه لى نداء خفيا ، يستعصى فهمه على أهالى النواحي كلها . ويوما ما سيرجع ، فى فجر يوم شتوى بارد قطعت الدودة العجوز الرحبة جريا من بيتها

إلى بيت جدتي ، طرقت الباب ، أيقظت النيام ، كانت ترتجف ، قالت إن باب عشتا طرقة طارق ، ولما قالت من ؟ أجابها صوت : الشيخ على ، فتحت الباب ، رآته يقف إلى جوار جمل أبيض اللون كالحليب ، سألتها عن أحوالها وعن أحوال عائشة امرأته ، وولديه ، وعندما سألته ، لماذا لا يرجع إلى بيته ؟ قال إن الألوان لم يحن ، والكريم لم يأذن بعد ، ثم غرب في الطريق .

قالت إن جسمها كله ينتفض منذ أن فارقها ، بدأ الشك على وجوه النساء اللواتي هرعن مستفسرات ، غير أن جدتي سألتها عن شكله وأحواله ، هل بدأ متعبا ؟ وما حال ثيابه ؟ ، أكدت الدودة انه متورد الوجه ، مستدير كالرغيف ، أما عباته فيبضاء حريرية ، ثم انصرفت ، ولم يرها أحد بعد ذلك إلا ذاهلة .

فيما تلا ذلك من سنوات ترددت أقاويل عن ظهور الجمل الأبيض براكبه ، مرة عند الحد الشرق لزمام البلدة من الأرض المزروعة ، ومرة عند سور الجبانة جهة الغرب ، ومرة عند البئر ، وتصفي جدتي إلى ما تسمعه صامتا ، لم تكن قد تجاوزت السابعة والعشرين عندما ذهب ، بعد سبع سنوات جاءها الحاج هريدى وهو مستور الحال وعنده نخل كثير ، طلبها على سنة الله ورسوله ، قال إنه استفتى شيخا كبيرا فى بندر سواهج فأفتاه أن طلاقها يجوز شرعا ، صدته بحزم صارم ، قالت إنها ماتزال ، على ذمة رجل .

خرجت جدتي إلى الأسواق ، باعت واشترت ، القمح والذرة والشعير والسمسم ، حاورت وجادلت ، وشيئا فشيئا استقرى البلدة ان عائشة وهبت عمرها لولديها فلم تعد ترد على ذهن رجل لا من قرب أو بعيد ، وهذا عرف قديم ، عندما تدفع الظروف بامرأة شابة إلى منازل الحياة وحيدة ، فلا يطمع فيها أحد ، ولا ينظر إليها أحد ، ويحق لها السعى وراء الرزق ، والوقوف في

زحام الأسواق ، معها تعلم الابن - الذى هو خالى - المكيال والاصناف من اين يأتى بها ، كيف يبيعها ؟.

عند هذا الحد من ذلك المقام تمنيت لو أوغل أكثر ، غير أن مشيتى ليست طوعى ، كذلك منحدرى ومرتقاى ، نهى شيخى الأكبر إلى أن ذلك الوصل من هذا المقام قد قارب على الانتهاء ، وانى مها حاولت فلن يتكشف لى أكثر مما هو مقدر ، رجوته أن أرى أمى فيما تبقى لى ، فاستجاب لى ، واطلعت على وجهها لحظة ابلاغ جلتى لها الخبر ، أحمد ولد الغيطانى يطلبها ، تلوح بيدها ، خفت رفضها الزواج من أبى ، ومن ثم لا انشأ الشاة الأولى ، مع أنى نتاج لها ، لكن هذا خوف غامض محير غريب له مقام ومكان عظيم ، لو اطلعت على السير منه لاضطرب حالى ، تقدم إلى أمى من قبل رجل من النجع المجاور ، هو عبده السقاء ، يحمل المياه إلى البيوت ، عنده أكثر من عشر قرب يؤجرها ، كما انه يصنع العديد منها ويرتق التالف منها ، وكافة السقائين يعرفونه ويقصدونه من البلاد المجاورة ، كما انه طيب السيرة ، وهذا طيبى ، فلا يعمل الرجل سقاء إلا بعد ثبوت امره ، ألا يدخل البيوت على النساء والرجال فى الغيبة ؟ ، أبت أمى الزواج منه ، إنما لاتطبق راحة جلود القرب ، فهل ستعيش معها؟.

قالت جلتى : إنه رجل محمود السيرة وسيسترك يا ابنتى . صمتت أمى ، ولم تعاود جلتى الحديث ، لم تسع إلى مضايقة ابنتها أبدا . فقد جاءها جدى فى المنام ، وأوصاها خيرا بابتسه ، فالطفلة وحيدة ، وهو غائب غيبة لا يعلم مداها إلا رازق الطير ومحبي العظام وهى رميم ، كان جدى يقف فوق غمام سابح . ولا أرض تحته ، كتمت جلتى ولم تبج ، ولم يعلم به سوى فى هذا الوصل ، ومن قبل عاينت بنفسى بقاء الأصوات ، وسمعتها بعد فئاتها ، ودخلت إلى أحلام أبى ، لكن أن تبقى مادة الحلم ولا تتبدد ، فهذا مما خصصت به ، وأنخبرنى

شيخى الأكبر أن أحلامى وكل ما رأيت فى منامى منذ اغماضى عيني لأول مرة فى هذه الدنيا فى متناولى ، ويمكننى الاطلاع عليها ، فقط .. عندما يحين الأوان المقدر ، وقال لى ان مثل هذا لم يتفق له ، فشعرت بجعل ، اذ تميزت عليه بأمر حتى وان بدا ضئيلا ، لكنه أليس القائل ان الفروع محل الثمر ، رجعت إلى أمى البكر ، إنها صامئة ، سكوتها الذى ينطق ، هى لم ترأى من قبل ، ومن أين لها أن تعرفه ؟ تسمع عنه منذ طفولتها ، فما جرى لأحمد الغيطانى شائع ، معروف ، فى البلدة ، هو اليتيم الشقى ، اضطهده عمه ، وشرع فى قتله ، لكن الله نجاه وحماه ، ما جعل قلبها يحن ، إنه يعمل فى مصر ، يعنى ستذهب لتعيش هناك ، مصر الفسيحة ، أم الدنيا ، مرقد آل البيت والأولياء الصالحين ، سيدنا الحسين ، سيدتنا الطاهرة زينب ، سيدى زين العابدين ، السيدة عائشة ، وهنا سمعت الهاتف يصبح بى ..

- انتبه ..

فتجلى لى ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، مسجد جميل عربى الزخارف ، منمنم ، مفروش بالحصير ، والهدوء ، والاستكانة ، فطفت به وانتهت كما أمرنى الهاتف ولم أفهم فعلت إلى أمى ، تجلس هادئة متأملة ، ستترك البلدة والرحبة والبنات اللواتى يسألنها دائما ولا يحقن راحة الشimate متى تتزوجين يا بختيته ؟ ، « ألم يتكلم عليك أحد يا بختيته » ، « ألم يحبك أحد يا بختيته ؟ » ، يعرفن أن عمرها تقدم عاما أو عامين عن العمر الذى تعارف الناس هنا على زواج البنت عند بلوغه ، الرابعة أو الخامسة عشرة ، تضيق بغمزاتهن ، تفضل التأى عنهن ، وإذا اضطرت لمجالستن تصمت اتقاء لحبشن وطول ألسنتهن ، رأيت خالى يقضى إلى الشيخ عبد اللطيف محمد على بالرضا والقبول ، ورأيت أبى ، فاتهى هذا الوصل ، والسلام ..

الوصل الثاني من هذا المقام ..

.. فأين الشوق إلى زمن الحياة المنصرم ؟ وأين الأسى على كل نفيس لن يرجع ؟ من أين وإلى أين ؟ أين الأين ؟ هذا أبي في اخضرار فتوته ، قبل غروبه بواحد وأربعين عاما مما تعدون ، يقطع الطريق الطويل عائدا إلى البلدة في أجازة ، يدفع ثمن التذكرة من راتبه الضئيل ، ادخره قرشا قرشا ، يركب قطار الثامنة صباحا المتجه إلى قبلي .

أقول يا سادتي إن سفري إلى جبهة ثاني موطن لي بعد رحم أُمِّي لا يكتمل إلا بركوب هذا القطار الذي يتحرك في الثامنة صباحا منذ سنوات نائية وحتى الآن ، في أيام تدويني هذا ، وإلى أن يتبدل ميعاد قيامه المخطط ونظم الجداول ، فلو جرى ذلك يوما - وحتمًا سيجري - فتذكروا أن قلبين إنسانيين عاشا وتعلقا به ، وحنًا لركوبه ، وأرسل تخيله عندهما الشجو والشجن ، الأول قلب أبي رحمه ربِّي ، والثاني قلبي العليل ، المنتزع من صدرى ، المصروع في منديل ، القائم عليه شيخى الأكبر ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

أقول وهذا ثابت قائم معي حتى يومى ، إنه لا معنى لسفري بدون هذا ، على الرغم من رحلى في قطار السابعة والنصف السريع الفاخر وثير المقاعد ذلك أننا لم نسافر إلا فيه وبه قبل أن تنال يد النقص منا ، قبل تبدل الدنيا أو تبدلنا نحن ، والله لا أدري يا اخوانى .

هذا أبى يعد المحطات ، يتعجل طى الطريق ، إذ يمر بدير مواس ، ينظر جهة الشرق حيث يقيم الرجل الطيب الذى أنقذه من موت . الباشجاويش أحمد حسين ، فى عودته سيزوره ، ويمكث عنده يوما أو يومين ، فى قطار الثامنة يسلى النفس بالنظر من النافذة حينًا ، والحديث إلى جيران الرحلة ، يسافر

في فيض من حنينه وحزنه وفرحه ، فحنينه إلى الأرض التي رآها أول ما لامس ، حتى أيام الشقاء تبدو عزيزة ، لأنها ماضٍ يستعصى نيله ، صحيح أنه ماضٍ عاناه ويحشاها ، لكنه الآن منه بمأمن ، أما حزنه فلاضطراره إلى مفارقة هذه الديار ، وهؤلاء الناس الذين حنوا عليه ورقوا له وفتحوا له بيوتهم ، وأمنوه من جوع ومن خوف ، كذلك فراقه لتلك النخلات ، والمنحنيات ورائحة الماء في قواديس السواقى ، ورائحة الطحين الطازج ورائحة الخبز واشتعال البوص داخل الأفران ، وقعدة الجسر ومذاق بلح النخلات عند تمام نضجه ، والتين العسلى ، والشاي في الأسواق التي تُنصب في أيام معلومة ، وعندما اطلعت على ذلك علمت أن هذا كله صار عندي ، أما فرحه فلرجوعه أياما معدودات ، وهذا يحسد أمله الذى أضمره ولم يهن ، أن يرجع يوما إلى جهينة ، فيستقر وينعم بالعيش ، وقد عرفت هذا الشعور خاصة فرحة عند عودته إلى البلدة عندما سافرت عقب غروب أبى ، وكان سفرى لرؤية عمى ، اخته غير الشقيقة ، عندما وصلت مدينة طهطا واجتزت دروبها وخرجت منها إلى الطريق المؤدى إلى جهينة ، هفهفت على ريح غريب ومسنى وجد ملك على روى ، فخفق قلبي وهو هادئ ، وتجاوز نظرى المدى وهو ثابت ، وعند المدخل المؤدى رأيت النخيل الكثيف فحننت حنين الغريب الغائب إلى أصله ، والمننى إلى موطنه ، والعائد بعد شتات وهجاج ، بداخله خوف ألا يعرفه أهله الأقربون ، حزنت إذ رأيت النخيل ، مامن شيء من الموجودات يقوى على الحنين إلى الماضى كشجر النخيل ، ربما لأنه ثابت قديم ويندر تمايله حتى مع الريح الصرصر ، ربما لأنه راسخ فكأنه أفلت من العدم ، هل رأى أحد منكم شجرة نخيل تسقط محضرة ؟ ، حتى إذا انقطعت المياه وجفت الآبار وكف الهواء عن حمل بذور اللقاح تظل واقفة فيظن الناظر أنها منتصبية مورقة وهى مينة

محتضرة ، كمصا سليمان الحكيم التي ظل مستندا إليها بعد رحيله ومماته فأطاعه
الجن والطير فلما منهم انه يقف حيا ، حتى إذا تمكن السوس من الخشب
انقصفت العصا فهوت وهوى ، سبحان محيي العظام وهى رميم ، فى الطريق
فرحت وخفت أحمالى إذ كنت اقطع ما قطعه أبى ، وأنظر إلى ما نظره إليه ، كأننى
أنوب عنه أو أعيد السيرة ، وهنا اطلعت على لحظة مندثرة موقعها هذا المقام ،
لحظة من عمر تلك الناحية ، جهينة ، إنه العام التاسع والثلاثون بعد الألف
وتسعمائة ، حيث مقدار المدة المتبقية على وصولى إلى هذا الكون الغريب ست
سنوات ، وكان عبد الناصر فى هذه اللحظة بعينها ابن واحد وعشرين ، والزمن
المتبقى على مجيء خالد إلى هذه الدنيا ثلاث وعشرون ، أما وقوفه أمام فريق
ضرب النار فبعد ثلاثة وأربعين ، وقفت على الستة ولم أعرف اليوم ، لاسمه ،
ولا موقعه ، إنه يعلم السر وما يخفى ، وهنا أوضح أمراً طالما حيرنى ، وقد أدركته
بعد صحبة لمولائى وضياء عيني الحسين ، وسيدى ابن عررى شيخى الأكبر ،
فكل ما أهملت الاستفسار عنه لن يكشف لى سره ، خاصة علامات الزمن ،
ومن ذلك عمر أبى الحقيقى ، ومقدار السنين التى عاشها فى هذه الدنيا وأمور
أخرى جمة ، وإدراكى بعض ما حرم على من علامات فهمى لأسرار الطريق ،
جعلنى ربى من المسافرين دائماً به ومعه وإليه ، رأيت لحظة أن أمسكت يد أبى
بيد الرجل الذى سيصبح فيما بعد خالى ، والذى سأعيش فقدان ضياء عينيه ،
وسيقدر لى أن أصحبه إلى الأطباء ، والإصغاء منفردا فى حجرة جانبية إلى
الحقيقة النهائية بفقدان بصره ، بإظلام هاتين العينين المحدثتين الآن إلى أبى ،
لحت شعيرات يد أبى اليمنى ، وتلك مستظل مطلة من جلده إلى ما بعد ولادتى
ومجئى إلى هذا الكون ، ثم تبدل بشعيرات أخرى تصحبه حتى همود يده
وتمددها إلى جواره ، هذا ما ألقى فى معارفى ، وهو من الدقائق التى لا تخطر لى

بيال ، ولم أفكر فيها ، ولم تدر بخلدى أبدا ، رأيت شاهدى العقد ، الشيخ عبد اللطيف ، ورجل آخر أجهله ، كان الأمر يتم فى هدوء ، بلا مظاهر عرس كذلك التى أعرفها وأعهدا ، وقد حدثت فى المآذون طويلا ، ورأيت ملاحه ، وثيابه ، ولفات عمامته وسمك نعليه ، أقول إننى أدركت هذا الرجل بعد رحيل أبى وجلست فى مواجهته وعلى مقربة منه ، كان ذلك فى سفرى الثانى إلى البلدة بعد رحيل من انجبنى وربانى وأحسن تقويمى .

حضرت عرسا لأحد أقاربى فى نهار حار ، قاطئ ، جلسنا فى المضيفة ، وكان ذلك بعد آذان الظهر ، قعدت على دكة مفروشة ببساط قديم ملون بخطوط طويلة حمراء وخضراء ، عتيق ، متهرئ الخواف ، عرفت فى هذا الوصل ان جلوسى كان فى موضع اعتاد أبى ان يشغله كلما جاء إلى هذه المضيفة ، وهو مكان قريب من الطريق يتيح رؤية الرائح والغادى ، فسررت لذلك وارتحت ، نظرت إلى المآذون ، ترسخ يقينى اننى أعرفه وأنتى رأيته رؤية قديمة ، وبعد ان غطى اليدين بالمتدليل الأبيض وتلا عبارات الطلب والقبول ، وقال إن هذا الزواج يتم على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، مال على الشيخ عبد اللطيف ، قال لى : إنه المآذون الذى عقد لأبيك .

أعدت النظر ، ويقينى يتزايد اننى شاهدته من قبل ، مكمل الصحة برغم تقدم العمر ، عفى ، أهو أكبر من أبى ؟ . رحل أبى وبقى هو ، لو أن أبى عرف الراحة ، لو أن شقاه أخف ، وهنا ألقى فى معارفى أسرار جملة أمرت بالآأفشيها أو أفصح عنها أو ألمح ، ولو فعلت لخالفت ، لذا أمسك عنانى مخافة أن يغلبنى الوسواس فأكشف ما حرم على كشفه ، وعند هذا الحد لاحظت نأى شيخى الأكبر عنى ، تمنيت الاقتراب منه والالتئاس به خاصة انه مرشدى الأول ، وعلى يديه تجلت لى علامات الهداية ، ولى به عناية عظيمة ،

ناديته بخواطرى فلم يجبنى ، خفت ، خاصة أننى دائم المقارنة بين صحبتى له ، وصحبتى لمولائى ونورى الأتم سيدى الحسين ، معه كنت كالطفل تجاه أبيه ، يأمن له وإن خافه ، يهرع إليه وإن عاقبه ، يسعى إلى القرب منه وإن جافاه ، أما شيخى فأرهبه ، عندى خشية منه كالتلميذ فى مواجهة أستاذه . خاصة أنه يقبض على قلبي ، ينظر إلى من بعيد نظرة مثقلة باللوم ، فتسنع لى الفرصة ، أخطبه بغير نطق ، لماذا تقسو علىّ يا سيدى وأنا فى كنتك ؟ لماذا وأنا فى حمايتك ؟ لماذا وأنا طوعك ؟ لماذا وقلبي عندك ؟ لماذا وأنا التابع لك ؟ أهذا نصيبى منك ؟ إن كان ذلك كذلك فأنا راض ، قابل ، مطيع ، لم يجبنى ، وشعرت بقلبي يتقلب فى كفه ، لم أدر لماذا صمته عني ؟ غير انه عندما أشار تبت اشارته فرأيت نفسى فى نشأتى الأخرى ، متمددا فوق سريرى ، متطلعا إلى جدران حجرى المغطاة بصور كبيرة لمطربين يصرخون أمام مكبرات الصوت ، وصورة لفتاة ناضجة النهدين ، مُشرعة حلمتيهما ، وصورة عن أطفال جوعى ، متفخى البطون فى مكان فقير من هذه الدنيا ، وصورة بالحجم الطبيعى لأرنستوشى جيفارا ، كنت ممددا بكامل ثيائى فوق السرير ، ولأحظت طول قامتى فى وجودى هذا للمرة الثانية ، وهذا الطول يبدو واضحا أثناء نومى ، وذلك لانحنائى عند مشيى ، رأيت ملامحى متهدلة ، متعبة ، شفى مرتختين ، وعلى وجهى هذا الضعف الإنسانى المصاحب للنوم والمثير أحيانا للشفقة ، ألا يشفق الإنسان على من يجب إذا رآه نائما ، ضعيفا ، وقد ينحنى ليقبله ، فما الأمر وقد رأيت نفسى نائما ، متمددا ، ليس بيدي من الأمر شئ ، حتى ان اشفاق طغى على فضولى ، طفت بى ، ونظرت إلى ملابسى المبعثرة ، ورأيت عدة أحذية ضخمة ، ودهشت إذ رأيت حذاء للترحل ، مع أنه لا محل للدهشة ، ولكن دهشتى تخص نشأتى الأولى ، التى لم أعرف فيها

الترحلق على الجليد ، رأيت صندوقاً للسيجار ممتلئاً بعملات معدنية تنتمي إلى دول شتى ، ورضيت عندما رأيت قطعاً معدنية مصرية ، خمسة ، عشرة قروش ، وعملة فضية صدرت في عيد النصر. رأيت كتباً باللغات الثلاث ، الانجليزية ، والفرنسية ، وقليلاً بالعربية ، كان أحد الكتب مفتوحاً ، لم أتمه بعد ، تلك حجرتي إذن ، لم أعرف هذه الفوضى ولا هذه اللوحات صارخة الألوان ، لكنني عرفت مثل صورة جيفارا هذه ، أهدتني إياها محبوبة قديمة لي عرفتها قدراً من الزمن ، وأحببتها غير أن حبها لم يبق منه شيء عندي ، وقد كدت أهلك فيها ، إن عنايتها كان غراماً ، كانت متعلقة بآخر ، وقبل رجليها إليه في البلد الذي أقام فيه أهدتني صورة جيفارا هذه ، بعد سنوات معدودات جاءت إليّ وكانت رغبة في إحياء وجدى القديم ، وبعد أن نكحتها مرة زال كل ما علق بي يوماً تجاهها ، وهذا له مقام آخر ، ربما فصلت فيه الأمر وأحطتكم به علماً إذا مد الله في أجلى المقدر وثبتني في شجرة الكون وقوى عضدى ، انتهت إلى وجود شيخى الأكبر معي ، في الحجرة ذاتها ، بينما قطرات المطر تساقط في الخارج مصطدمة بسقف معدنى قريب فتحدث أصواتاً متتابعة ضخمة الصمت الليلي ، يبدو اننى اعتدتها فلم تفلق نومى ، شغلنى تطلع شيخى إليّ ، نظرتة غريبة ، لم أدر مكنونها أو مرامها ، وتلك نظرة علفت بي ، وستعودنى في نأيه وعند احتجابه عنى ، وقد عرفت في حياتى الدنيوية مثل ذلك ، نمضى العمر برفقة الأقربين حتى إذا سعى الفراق واكتمل ، تبعه النسيان مها اجتهدنا في قهره ، فما من شيء مخلد ، وأول ما يغطي النسيان فروق ما بين الأيام ، ثم الحوارات ، أما القعدات والرفقة التى كانت فذكراها في مجملها وليس في تفصيلها ، ثم لا نقدر إلا على مشاهدة تنف مارقة منها يُنسى ، أما الأمر الذى يستعصى على النسيان زمناً غير هين فما يتعلق بالنظرة ، كنت ومازلت

أرى عيني من أحببت ، عينا أبي ترمقاني بنظرة معينة طالعتني بها ذات يوم بعيد ، أقوى ما استدعيه إلى ذاكرتي ، طبيعة تلك النظرة ، في تجريدتها وليس في اتصالها بأى شيء ولو فصلت لأفضت ، ولكنني أخشى الاطالة ، وهذا غير مقصور على الحبيب الغالى الذى انجبنى ، ولكن يتصل بكل من عرفت ثم فارقت إن كرها أو عمشيتى فتأمل تفهم ! ، تلك نظرة شيخى التى ستصحبني بعده ، كحضور الحسين المتدفق الذى لا يفارقتى قط ، سمعت خطى مسرعة لامرأة ، دقات الكعبين على خشب الممر المؤدى إلى الغرفة ، تدخل مسرعة ، تتوقف ، تقول ، نمت بدون عشاء يا حبيبي ؟ ، تلك أمى إذن ؟ .

ضقت برؤيتها وحننت إلى أمى ، غير اننى دفعت دفعا للنظر إليها ، سمراء ، رقيقة الشفتين ، وطويلة الأنف ، بيضاوية الذقن ، واسعة العينين ، يبدوان من خلف نظارة طبية ليست سمكة وليست رقيقة ، نحيفة ، طويلة ، قلقة في وجودها المنظور واللامرئى . توحى للمشاهد عند ظهورها أنها لن تستقر طويلا ، وانها ستخرج بعد لحظات قصار من دائرة البصر ، حضورها حى ، لكنه موتر متوتر ، عرفت أنها لن ترانى إلا في نشأتى الأخرى ، أما أنا فكنت أراها مرتين ، مرة من حيث نشأتى الأصلية ومرة من حيث نشأتى الأخرى هى أمى وليست أمى ، وهذا من أغرب ما صادفتى ، وان كنت لا أدري ما يستظرنى وما سأصير إليه . تمنعت بملامحها فتزايد ضيق لوجود أم لى ، وغمرنى فيض من حنين إلى أصل نشأتى الأولى ، غير ان الحال لم يتبدل علىّ ، وبقيت في مواجهة أمى هذه ، ولأحظلت انحسار قيصها عن ظهرها عند ركوعها إلى جوارى وأنا نائم . فتكشفت لى مساحة من ظهرها انحسر عنها الجزء الأسفل من ثوبها المكون من قطعتين ، فداريت النظر خجلا وان لاحظت استدارة ردفها ومثانتها فضقت لتعلق ذلك بوعى ، ولت نفسى وان عللت هذا بأننى أريد اقضاء فكرة ان هذه

أمى غيرة منى على أمى أنا ، رفعت وجهها ولم يكن غريبا عن تلك الفتاة الصغيرة التى رأيتها من قبل تدخل المدرسة ، وتركب الدراجة وتعمل المهم ، تعجبت لتغير المصائر وغرابة وجهتها ، فاذا يربط بين الحال الذى رأيتها عليه فى المشاهدة الأولى ، وما أطلعه الآن ، البلد غير البلد ، والبيت خلاف البيت ، فما أبعد الشقة بين نشأة الجدور والمدى الذى تنتهى إليه آخر الفروع . وما أوسع المسافة بين صلابة الجذع ولين الثمرة ، وما أنأى الفرق بين حدة الشوك ورقة الزهر ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وكل فى فلك يسبحون .

كنت مرة على سفريا إخوانى إلى بلد عربى ، وفى المطار قابلت نبيل وامراته وعياله ، عرفت نبيل هذا فى حارتنا صبييا صغيرا يتجنب اللعب مع الصبية وكان هو الولد الوحيد الذى يرتدى ساعة حقيقة حول معصمه ، وله اخت بيضاء من كل سوء ، جميلة ، اسمها سهير ، أما والداه فقصيران ، ممتلئان ، ممتلئان القامة ، بيض البشرة ، يقال إن أصلها تركى ، يخرجان فى صمت ، يرجعان فى صمت ، لم يسمع أحد صوتاً مرتفعاً يخرج من بينهم ، ولم تشتبك أمه فى مشاجرة مع إحدى نساء الحارة ، قالت أم نبيل مرة ان نكبة عابرة حلت بأسرتهم التركية مما اضطرهم إلى سكنى الحارة ، كانت أمه تظل من النافذة مددا طويلة لاتشير إلى جارة ، ولا تومئ . ولا تتبادل الحديث ، لا يبدو إلا وجهها المستدير كطبق الفضة ، يحاورها أحيانا نبيل هذا ، رأيت نبيل فعرفت وعرفته ، صافحنى وصافحته ، سألتى عن وجهتى فأفصحت ، وسألته فشكا إلى حاله ، وفشله فى العثور على مسكن له ولزوجته وولديه ، ولما صعب عليه السفر إلى بلد نطفى ، قبل عقد العمل فى إحدى البلدان الأفريقية ، وذكر لى بوروندى ، فتساءلت عن موقعها ؟ قال لى انه لا يعلم عنها شيئا ، لكن لابد من الاغتراب

زمننا حتى تتحسن الأحوال ، ثم تصافحنا ، وافترقنا ، كل إلى وجهته ، ولا أدري في أى موضع هو من الأرض الآن ؟.

ومرة أخرى يا إخواني كنت في مدينة باريس الأوروبية وكان حال الوحدة غالبا علىّ ، فشرعت أمشي للفسحة في شارع البيجال ، أنظر متعجبا إلى نساء شبه عاريات في برودة ثلجية يعرضن أجسادهن للراغبين في الإيجار ، ومن خلف واجهة زجاجية لكشك يبيع الشطائر ناداني شخص باسمي ، تعجبت واستريت ، وعبتا حاولت استعادة الملامح ، قال لي : ألا تعرفي ؟ ، ثم قال لي إنه رأي عندما كنت أزور موقعا مطلا على قناة السويس في زمن الحرب ضد إسرائيل ، عندما كنت أنقل الأخبار إلى بني وطني الكرام ، أبديت اعتذارى ، إذ اتنى التقيت بالكثيرين ، وتلك أيام صارت الآن بعيدة بعيدة ، ثم أبديت دهشقي وعجبي ، ما الذي جاء بجندی الاستطلاع هنا ؟ ، ضحك وقال إنها رحلة طويلة ، لكنه ضاق بما صارت إليه الأحوال في الوطن الحبيب القريب ، وبعد انتهاء خدمته العسكرية بدا له طريق الأمل مسدودا ، موصلدا ، فالراتب قليل ، والوضع عسير ، والفساد ضارب ، وأسافل الناس صاروا في الأعلى ، ولا أحد يفكر في الفقراء ، كيف كان سيتزوج ، والأمل معدوم في حصوله على مسكن من حجرة واحدة يأوى إليه ؟ وكل ما يعين على الحياة صار في غير المتناول ؟ كان لابد من الرحيل ، جاء في إثر صاحب له هنا ، عمل بائعا للصحف ، وبائعا للورد عند مداخل محطات المترو ، ثم استقر به الحال هنا يعمل في إعداد السندويشات منذ نزول الليل وحتى انبلاج الصبح ، وهذا عمل وعرا لا يقبل عليه أبناء البلد ، لكنه مضطر ، والمضطر يركب الصعب ، بالغ في ترحيبي وأصر على اكرامى ، وإن مانعته ، فكلانا في غربة حتى وإن كانت غربي موقوتة وغربة دائمة ، فارقت والأسى ينهل

منى ، فهل كان لى أن أصلق عندما رأيته مرتليا خوذته ، ممثقا سلاحه ،
متأهبا لعبور الليل والاختطار إلى قلب خطوط العدو ، أنه بعد عشر سنوات
سيقف فى هذا الموضع من العالم ، واتى سألناه ويلقانى .
ولكن مالى أبعد يا اخوانى ، إبنى محدثكم عن بعض رفاق صديق الذى
استشهد ظهر الجمعة التاسع عشر من أكتوبر . وعند هذا الحد من ذلك المقام
تجلت لى أمى للمرة الثانية ، فى هيئتها الحنون ، الوديعه ، وابتمت لى ، قهلت
بخواطرى ، ما الأمر يا أمى ؟ ماذا جرى لك ؟ ولماذا تبدين بعيدة وانت قريبة ،
وماذا يعنى تجليك هذا ، رأيتها تقف فى أرض قاحلة ، صخرية ، ونحت قلعها
البنى تتبع عين ماء عذب فرات لذة للشاربين ينساب إلى أسفل فى مجرى نخيل
تحدده سلفا أوضاع الصخور وتعرجات القشرة الأرضية ، ما لأمى وهذا النبع ،
هى التى لم تظأ أرضا قاحلة طوال عمرها ؟ لكنها لم تجبى على استفسارات
خواطرى ، إنما أمرتني ألا أسهب ، وأن أوجز ، وان أتبع شيخى الأكبر ، وان
أتم وقوفى على نشأتى الأخرى ، ولم يكن يوسى إلا الطاعة والامتثال ، وان
تعاضم قلقي وارتمى حزنى من نبع جديد ، فالطف ياذا الجلال والإكرام ، إنك
على كل شىء قدير ..

الوصل الثالث من هذا المقام

.. تأكد لى ان ليس كل من رأى ، عرف مارأى ، وان من رأى ليس
كمن علم ، تبعت أمى فى نشأتى الأخرى بعد أن تركنى أعط فى نومى ، تقف
أمام صوان محفور فى الجدار ، تلمس يدها فى الرف العلوى ، لم أعرف ماذا
أمسكت ولكنها رأيت الاطمئنان على وجهها . تتجه إلى المطبخ القسيح ،
تناول علبه كبرت كبيرة وهذا حجم لم أعهده ، صتلوق صغير مقسم إلى

خانات ، تشعل الموقد ، تضع فوق الشعلة المتأججة وعاء به أرز مخلوط بحبات سمراء ، ربما زبيب أو بندق ، تضع إناء آخر فوق الشعلة الأخرى به مرق ولحم ، من الأول غرفت مقدار قبضة ، من الثاني اضافت إلى الأرز قطعة وأربع ملاعق مليئة بالمرق ، تتجه إلى الصالون ، تجلس فوق الأريكة القريبة من المدخل ، تلتهم الطعام بسرعة ، تمضغ بسرعة وتردرد أسرع ، أتابعها بعيني الفضول ، وليس برغبة الابن في معرفة كل شيء عن أمه ، والفرق لا ينجى على الفطن بين الفضول والرغبة في المعرفة ، كما ان نظري إليها يختلف عن نظري على أمي أنا ، أمي التي يتضاعف حنيني وقلقي عليها كلما طال مكثي في هذا المقام ، وتلك مشاعر صعب التصريح بها ، عسر شرحها ، إذ انني خصصت بها ، وانفردت ، هذا مقام ذقته أنا ولم يذقه غيري. فإذا غمض منه جانب ، فالعذر.

كنت أواجهها ولا ترائي ، غير اني لاحظت اختلاج نظراتها ، وتثبيتها البصر تجاه الفراغ المعلق به رأسي ، حتى قوى ظني أنها تشعر بوجودي ، ولم يتفضل شيخى الأكبر القابض على قلبي بالايضاح ، تفرغ من طعامها ، تجمع حبات الأرز المتبقية ، تضع الطبق فوق المنضدة المجاورة ، تلفظ .. آه ، نفس الايقاع الذي طالما لفظ به أبي آهة الأرهاق والضنى ، حتى إني عجبت ، أئمة علاقة ؟ أم هو التعب الإنسانى وحد مخارج الآهة عندها وعنده ؟ ، إلى اليمين مذياع داخل دولاب زجاجي ، يعلوه جهاز للاسطوانات ، وفوقه صورة لعبد الناصر ، يبدو أشيب الفودين ، تنتمى إلى ما قبل زمن الهزيمة والانكسار ، عرفت أنها متعلقة به ، تستعيد ايامه ، وتحفظ ببعض من خطبه ، واغنيات من عصره ، وانها في لحظات الشجو والفراغ من ثقل المشاغل تصفى إليها وقد تبكى ، تنظر إلى الهاتف ، تمسك الساعة ، تفكر في إدارة القرص ، لكنها لاتفعل ، يميل رأسها بطيئا ، تنعس ، أدنو ، أرى شعيرات بيضاء ، شممت

رائحتها ، رائحة ليست جديدة على ، ليست مجهولة لى ، فبينى وبين الروائح
وطيد صلة ، وما من رائحة علقت بأننى اندثرت قط ، وإذا تكررت بعد مدى
تنبعث حية ، كأنها تأتبنى من وقتها ومصدرها الأصلي ، عند انتقالها من اليقظة
إلى النوم ولجت رؤاها ، فقابلتها وقابلتنى ، ودنوت منها ودنت منى . لم تر إلا
رأسى ، لكنها لم تظن أبدا ولم تلحظ أنه غير متصل بجسد . سألتها ، فتطلعت
إلىّ ، وهنا رأيت جمالها الخاص الدفين ، فعلمت بعضا مما أريد أن أعلمه .
ألمت بالوضع من وجهه ، وبقيت جاهلا به من وجوه ، إذ لا يعلم الشيء من
كافة أوجهه إلا الكريم المتعالى ، كنت على وشك أن أطلب منها صحبتى إلى
عملها الصباحى ، وعملها المسائى ، وإن ترينى جهاز الهاتف الذى متصل بى
عبره ، مرة لتطمئن على عودتى من المدرسة ، ومرة للتأكد اننى أكلت . ومرة
للتأكد عما إذا كنت بمفردى أم اننى فى صحبة ؟ ومرة لتكرر على ضرورة الحذر
عند فتح صمام السخان ، ولتذكرنى بموضع الصابون المعطر ، واللوف البلدى
الذى وصلنا أخيرا فى مصر ، اللوف الذى لاشيء مثله يدعك الجلد ، وليس
هذا الاسفنج الصناعى ، كنت على وشك ، لولا أن المفتاح دار فى الباب ،
انتهت رؤاها ، وراحت ترقب الباب قابعة ، فى المدخل ظهر ، إذن .. هذا هو
أبى ، أراه لأول مرة ، من صلبه ينحدر وجودى الآخر ، ومن غصنه ينبت
فرعى البديل ، خيل الىّ اننى قابلته ، ناديته ، وأصغيت إليه ، لكن اين
ومنى ؟ واجهته ، حمت حوله ، يخلع حذاءه وجوريه ويمدد ساقيه فوق منضدة
صغيرة . لم تفتنى نظراتها إلى قعدته ، وهنا لاحظت انكساراً فى عينيه ، كأن
وجهه مهزوما فى معركة لم تبرد نيرانها بعد ، أرهفت أذنى إلى حوارهما الليلى ،
يقول إنه تناول عشاءه ، يقول إن أخبار مصر كماهى ، ان الجلف سيخطب
غدا ، يقول إنه مامن يوم يمر إلا. ويظهر فى التلفزيون ، تقول أمى ،

كابوس ... تمر فترة صمت ، يقول إنه لم يصل أحد من مصر ، تقول أمى :
يقول القادمون مع دخول الشتاء ، لا يحىء إلا للضر ، بعد لحظة تقول : واقه
الوحشة زادت يا مصر ، يتجدد الصمت ، عرفت انها تحدثا عن الجلف
الجافى ، وان الفترة تقع من السنوات التى اشتدت فيها مصائبه ، لم استطع
تحديدها على وجه الدقة وان خمنت أنها تلى الحرب التى استشهد فيها صاحبي ،
عادا إلى الحديث غير ان صوتهما لم يصلنى ، رأيت حركة شفاهما وتعبيرات
وجهيتهما ، قلت لعل ثمة علة لذلك ، بقيت حتى حانت لحظة مفارقتها الفرقة ،
أمى تتقدم أبى ، تتوقف أمام الباب الأول ، تهرأسها فى اللحظة التى يدفع فيها
أبى الباب الثانى ، حجرتان متجاورتان متباعدتان ، أما غرقى أنا فكلت التى فى
نهاية للمرحيـت أرقـد مـددا نائما بكامل ثيابى ، ابقى فى فضاء المر ، أشعر بقرب
أبى منى لكننى لا أراه ، لا أدرى كم مر على ، لا أعلم إن كان ذلك فى الليلة
نفسها أم تلك ليال أخرى متعاقبة ، متداخلة ، فالزمان والمكان لا يقيداننى ،
أحار ، أتبع من ؟ أرقب من ؟ غير ان حيرتى لم تدم ، إذ رأيت أبى وأمى معا ،
كل فى حجرتة ، لكننى أراهما فى وقت واحد ، وألم بهما رغم تباعدهما عن
بعضهما ، وهذا بعض مما خصصت به فى رحلى هذا ، هاهى ذى أمى مرتدية
قيص نوم أصفر ، تندس تحت الغطاء ، عيناها مفتوحتان والظلام حالك ،
ستظل جاثمة أبدا إلى النوم ، تود لو نالت حظها من الراحة ، لو أغمضت
عينها بدون أن تضبط المنبه على السادسة إلا ربعا ، جميع أبناء هذا البلد
يعملون خمسة أيام ، ويزتاحون يومين ، تزدحم بهم الطرقات المؤدية إلى
الريف ، إلى الغابات ، إلى الشواطئ ، لكنها غريبة ، وابنها ، وزوجها ، غريبا
ولاسند ، لاشيء يقيم مخاطر هذه الغربة إلا ملخركاف تكفى فوائده لصمان
الحـد الأدنى إذا ما طردوا يوما ما ، وحتى الآن لم يتوافر السند ، لو تنام ، المبني
هادئ ، ما من أصوات ، فى مصر تضج الشوارع الآن بالحركة ، لكم تود أن

تمشى فى الشارع المؤدى إلى الحديقة اليابانية صباح جمعة ، فى الأجازات تبدو المدينة هنا مهجورة ، تضاعف الخواء ، وتكثف الوحدة ، أيام الجمع والآحاد فى مصر مسترخية ، رضية ، تخلو فيها شوارع القاهرة من ضجيج بقية الأيام ، لكنها لم تعرف الوحشة أبدا ، ولم تبعث على الانقباض قط ، إلا إذا اعتصم القلب المغزون بحزنه ، تتأهب ، يتمدد أبى . اطفأ الأضواء عدا الضوء الأحمر الخافت جدا للساعة الرقبة ، برغم العتمة أراه كأنه فى وهج النهار حتى يمكننى احصاء شعيراته البيضاء ، وملاحظة اختلاجات جفونه ، يستلق على ظهره مفتوح العينين ، يخلق إلى لاشئ ، أعرف ان هذه اللحظات ذرى عذاباته ، تتطوى الأيام والشعر لايزداد إلا نأبا ، ولحظات الوهج القديم تأبى المعاودة ، يسأله بعض ممن يلتقون به عن جديده ، فيقول إنه مشغول فى عمل ملحمى ، حتى ان صحفا كتبت أخباراً ، واتصل به الناشر البيروتى ، أرى أمى فى خلوتها الليلية ، تواجه الجدار بعينين مفتوحتين ، تنسحب تماما إلى داخلها ، لم تسمع أى حركة غير عادية من الغرفة المجاورة ، تدرك أنه مستيقظ وان لم تره ، عندما انتقلوا إلى هذا المسكن ، قالت له ان كل شئ يمكن تربيته كما كان فى مصر ، المكتب فى مواجهة الباب ، والمكتب متراسة على الحائط المقابل ، والسرير الضيق بالقرب من النافذة ، حتى إنه قال مبتهجا ، كأنى لم أقارق بيتنا فى المعادى ، حتى لون السجادة .. من أين جئت بها ؟ ، استبشرت بخيرا ، فالأحوال ليست معسرة ، وهى لاتألوا جهدا حتى لاتكلفه فوق مايطيق ، وحتى تظل مساحة زمنية كافية لایشغله فيها شاغل ، لاتسعه الدنيا من البهجة ، وتبتدد كل متاعها ، وينتهى لهاثها الداخلى ، عندما يخرج بين الحين والحين من مكتبه ، يداعبها ، أو يجلس أمامها صامتا ، نحرص عندئذ أن يكون كل ماتقوم به ردوداً لأفعاله ، ومجاوبة على مايدنو منه ، تعرف انه انجز أو بسيله إلى اتمام أمر بدأ .

فى العتمة ألمح أسمى أسمى هذه ، بل إنها تهز رأسها وتوشك ان تمصص شفقتها ، ليت لو دام ذلك ، لم تردد معه الأيام إلا صعوبة ، أصبح كالولود التى أصابها عقم فصارى عاقرا فجأة ، فلم تعد الدنيا هى الدنيا ، تغير طعم كل شىء ، هاهو ذا أبى ضجر ، متهاو ، يواجه نفسه بالحجة تلو الحجة ، فى البدء عنه مجيء إلى هذه المدينة التى طالما تغنى وحلم بها كان الحال صعبا والاقامة غير إنسانية ، والمرقد خشن ، حتى الحمام كان يضطر إلى قطع مسافة ليستحم مرة فى الأسبوع ، فالحجرة التى سكنها مدة من الزمن كانت خلوا منه ، وهلمأ ما لم يعتده فى مصر .

علل النفس ان كثيرا من كبار المبدعين الذين نزلوا هذه المدينة عرفوا ضنكا أشد مما قاساه ، أما هو فلم يطل به الأمر ، إذ حصل على عمل فى المكتب التتافى لتلك السفارة ، أصبح يكتنه الجلوس على مقهى فترات طويلة ، ودفع ثمن ما يشربه ، هنا لكى تجلس يجب ان تجدد ماتطلبه على فترات زمنية متقاربة ، تذكر بأسمى مقاهى وسط المدينة ومصر الجديدة ، والجيزة ، وتهلل النادل عند ظهوره ، وافساحه المكان له ، ربما يقضى نصف نهار لا يشرب إلا فتجانا من القهوة ، الأمر هنا مختلف ، أمكنه ان يتناول العشاء فى هذه المطاعم التى لم يكن يمرؤ على دخولها ، ان يزور المتاحف فى غير الأيام التى تفتح فيها مجانا لمن لا يقدر . بل دعا فتاة ثم امرأة أخرى إلى العشاء ثم تكرر ذلك ، بل إنه صار يقضى الاجازات كأهالى البلد خارج المدينة وعرف فندقا صغيرا فى المنطقة الشمالية .. لكن الحواطر لم تواتيه . والاشراقات لم تنبعث ، قال إنها فترة الاستيعاب ، فالمتاحف عديدة ، ودور السينما لا يمكن له أن يلم بما تعرضه ولو تفرغ لذلك ، أما المسارح فيحول دونها جهله باللغة ، ألمح أسمى فى رقدتها ، أدرك أنها ليلة أخرى ، إذ أن القميص غير القميص ، كما أنها تلف شعرها حول

اسطوانات صغيرة من البلاستيك ، ما يضايقها حتى الذروة انعكاس التوترات على الولد . نعم .. أنا في نظرها ولد حتى وان خط شاربي ، كانت دائما تمنى ابنة ، تكون هي الأقرب ، ولكن بعد مجيئها هنا حملت الله أنه لم يرزقها ابنة ، كانت متشب وتتمو هنا ، كان قلقها عليها سيصبح مضاعفا ، إنها تخاف على ، وعندما شمت رائحة النيذ جعلتني أقسم لما أنها المرة الأولى والأخيرة ، وحذرتني مراراً من الماريحوانا ، والحبوب ، وهذه الأشياء المنتشرة بين طلبة المدارس هنا ، لكنها بدت مسرورة عندما قلت لها إنني جامعت آن واكتشفت اننى الرجل الأول ، وصارت تفارق البيت عندما نجيء آن وتركتنا معا ، لكن عصية أفى تعلقها ، وزعيقة كثيرا أمامى ولى ، وبعده عنى ، وعلم جلوسه معى ، وعدم اصطحابه لى كما كان الأمر فى مصر ، ربما أدى هذا إلى تضخيم عزلى ، إلى الذهاب مع من هم مثلى كما يحدث كثيرا هنا وتلقى الأسر ذلك كأمر عادى ، يسأل أفى هذا نفسه ، أكان لابد أن يستقل بزوجه وابنه ؟ أكان من الضروري ان يوافق امرأته على رغبتها فى المجيء معه ؟ لكن أليس هو الذى شعر بالوحشة هنا ؟ ألم يعلل النفس بأن الأمور ربما صارت إلى الأفضل بعد مجيئها ؟ خاصة أنه خشى عليها التعرض لمكروه فى مصر بعد مجيئه إلى هنا ، وتكرار ظهور اسمه موقعا على بيانات تدين مايقوم به الجلف الجافى ؟ ، ألم يقل إن امرأته تتقن لغة البلاد ، وانها سترعى شئونه اليومية وتزيج عن كاهله عبثا ؟ ثم ان وجودهما معه سيكشف احساسه بالوطن الذى صار بعيدا عنه بالمسافة المكانية ، جاء ، ولم يكن صعبا عليها ان تلتحق بعمل ، ثم عمل اضافى فى المساء ، بدت قلقة مفتقدة الأمان القديم ، خاصة ان شوطا كبيرا يجب أن يقطعه الولد حتى يسند نفسه ، يجب أن توفر له مدخرا معقولا ، الحق أنها ساعدته أيضا عندما شرع فى تعلم لغة هذه الديار ، أقبل متحمسا ، فى مصر ضايقه ان العديد ممن زاملوه

يتقنون لغة أجنبية ، أما هو فلم يساعده الحظ لظروف دراسته الأزهرية ، حقق تقدما ، وعندما أتم قراءة كتاب بدون ان يرجع إلى القاموس ، مشى في الأرض مرحا ، وانبسط كل البسط لكن الشعر لم يحمي ، كل المحاولات توقفت عند البدايات ، صار مكنونه خاويا وأرضه جديبا ، وفروعه لا تثمر . ها هي ذى أمى تتذكر أول مشادة بينها هنا ، عندما قال لها انه كان من الممكن له ان يشمر لولا الأعباء العائلية ، انفجرت فيه ، عن أية أعباء تحدث ، ولد واحد وزوجة تطحن نفسها ليلا نهارا ، عن أية أعباء يتكلم ؟ هل يدري بمصاريق هذا البيت ؟ إن مرتبه لا يكفي دفع إيجاره ؟ عن أية أعباء ! إنها تتحرق لتوفر له ساعة أو ساعتين ، لكنه لا يشعر ، ولا يرحم ، توقعت أن يكون رده عنيفا ، لكنها فوجئت به يصمت ، وكفاه ترتفعان قليلا ، ورقبته تغوص ، تقصر ، وعينهاه تضيقان ، وحتى ظهر اليوم التالي لم يفتح باب حجرته ، وعند عودتها في المساء قررت ان تكون رقيقة معه ، ان تدعوه إلى عشاء في مطعم يحبه يقع داخل الغابة التي تحيط المدينة ، غير أنه لم يعد إلا بعد استغراقها في النوم ، بدأ يقضى خارج البيت أوقاتا أطول ، خاصة تلك الساعات الليلية التي اعتاد الجلوس فيها إلى المكتب ، هو الذى لم يختل نظامه طوال عشرين سنة عاشاها معا إلا لمرض أو كدر عام أو خاص ، لم يكن صعبا ان تدرك النأى الذى بدأ ، والخرق الذى اتسع ، وبدت لها أيامها في مصر حلما موهلا في البعد ، في غير متناولها ، حتى تمت لو أنهم بقوا معا ، وان أدى ذلك إلى دخوله السجن ، لكن الأمر كان أصعب عليه من السجن ، كان من المستحيل ان يقبل ما أرادوه منه ، مستحيل ، هي التي شجعت وأزرت وقوت عزمه على الخروج إلى حين مقدر حتى تتبدل الأحوال ، كان يقضى إليها بكل بواعث قلقه وضنكه ، ويستلقى بجوارها كطفل ، وتحشى هي على دخائله المرفهة وتدفع عنه بقدر ما تستطيع ، لكنه

الآن لم يعد يفضى ، ولم يعد يتكلم ، وما يدور بداخله أكثر بكثير مما يديه ، ادرك أبى هذا وهو يفكر فى . ما الذى يربطه به ؟ ابنة ؟ ماذا يعنى هذا ؟ امتداده ؟ أى امتداد ؟ له حياته المنفصلة ، سيحمل اسمه بعد موته ؟ وماذا سيعود عليه بعد أن يكون نسيا منسيا ؟ سيفمض عينيه ولن يفتحها ذات يوم ، وميحزن عليه ابنة - الذى هو أنا - يوما أو بعض يوم ، ثم ينساه ، قد لا تطلع عليه شمس باكر ، يصغى إلى قلبه ، يتتبع خوف مباحث ، ان تتوقف الدفقات ، ألا يرى مشرق الشمس ، هذا أمر استجد عليه ، عند تأمله الأيام الرمادية من خلف زجاج المقهى ، ينظر إلى المارة ، إلى اللافئات ، إلى مروق العربات ، إلى حركة الشارع فى ظلال البرد ، فجأة يرى هذا كله بعينى إنسان آخر ، ربما ابنة ، امرأته ، أو شخص يحمله سيعيش بعده ، يجشى الموت فجأة بعيدا عن البيت الذى عاش فيه صباه ، والبيت الذى عاش فيه شبابه ، بدون أن يرى طرقات الضاحية المادئة ، كان كل من يسكنها يعرف الآخر ، قريبهم التليفون قبل استبداله بالتليفون الأوتوماتيكى ، كان إذا أراد أن يتصل بصاحب له من الضاحية ، يطلب من عامل التليفون الرقم ، وأثناء الانتظار قد يصغى إلى متكلم آخر يطلب رقما ، فيتعارفان ، كانت الأيام غير الأيام ، كان ذلك فى مصر قبل ان تتبدل الأحوال . يخاف ان يبلغه يوما خبر موت أمه أو أبيه وهو عنها بعيد ، هل تصور أن هذا ما سيصير إليه حاله هنا فى هذه المدينة التى يتمنى الكثيرون قضاء أسبوع فيها ، وما هو ذا يعيش ، يعمل فيها ، كيف كان يمضى آمنا فى مصر وجيبه خلو إلا من قروش قليلة ، ولا يأمن هنا وعنده ما يكفى ويفيض ؟ كثيرا ما فكر فى العودة ، أن يركب الطائرة ويتزل فى مطار القاهرة ، وليكن ما يكون ، لكنه يتخيل ما ينتظره ويصبح لعبه مرا ، مجىء الخبز اللبلى وييده ورقة الاستدعاء ، وفى المكتب الكتيب يبدأ الحوار المتلوى . والطلب

الذى يقول طالبه انه يسير ، فى البيت يرثى التلفون ، هذه المكالمات الغامضة ،
وفى الطريق لا يخفون انهم فى أثره ، أثناء تجواله هنا تطرقه خواطر الموت ،
يتنازع أمره بينه وبين نفسه ، يشعر بالرتاء لوجوده حتى يوشك أن ييكنى ، ومهما
حاول فلا ينبو من الغم ، وفى هذه اللحظات الليلية تترايد عليه الخواطر
السود ، عندما كان فى عمر ابنه هذا كان اقن العالم مفتوحا ، والغد بلا حد ،
والمعانى فى متناول اليد ، حتى سنوات السجن القديمة لم يين فيها عزمه ، ولم
ينكسر عضده ، ماذا جرى فى السنوات التى سبقت رحيله ؟ تشاغل كل
بنفسه ، واقتضت الحميمة ، وسط الجلف ظلاله على الحياة فررها وسودها ،
أتأمل أنا وجه أبى هذا ، تتعاقب على وجهه تعبيرات شتى ، ها هو يفكر فى مرة
أخرى ، ألا يقصر فى حق ابنه ؟ نعم ... لم يسأله عن أحواله فى المدرسة ،
لا يعرف اسماء أصحابه ، أمه تغلق عليه ، لا ينقصه شىء ، لكن هذا لا يكتفى ،
لا بد أن يقترب منه ، من الغد سيبدأ ، لا بد ... فالديار أجنبية ، والولد دائم
الحنين إلى أصحابه فى مصر ، وإلى أيامه فى مصر ، يتمنى لو سافر ، يخشى ان
يحتجزوه ، ان يمنوا عودته .

أحيانا يقلقه مشيه مع فتیان هذا البلد ، ان تسرى إليه عاداتهم ، عقاير
المخدر ، الشنوذ ، أى شنوذ ؟ يفزعه ذلك ، لا يستفص خوفا إلا إذا تخيل
أمرا محققا بمؤخرة ابنه - التى هى مؤخرى - من المهم أن يقترب منه ،
أن يتخذها صاحبا حتى يسر إليه بكل ما يلقاه ولا يخفى عنه أمرا ، ليبدأ
غدا ، سيسأله عن المدرسة ، لا .. بل سيدعوه إلى مقهى بعيد ، سيتبسط
معه ، سيفضى إليه بعض هم ، سيحدثه عن ضيقه بعمله فى هذه السفارة ،
عن اضطرابه الصمت عند حديثهم عن بلدهم ورجلهم ومنجزاتهم ، عن
صحة كل مواقفهم ، ليس له ان يبدى رأيا ، بل حقه معلوم أصلا ، لا بد

من المسيرة إما صمتاً أو نطقاً ، هو الذى لم يكف أبداً فى مصر عن الجهر والعلن ، يقول لابنه ان هذا من عظيم عناياته ، غدا سيبدأ واقماً جديداً ، غدا سيكف عن الهيام فى الطرقات ، وقضاء الوقت متأملاً المارة من خلف زجاج المقاهى . لو اتصلت به فلن يلبي دعوتها ، غدا سيدخر طاقته ويرجع مبكراً ويبدأ القراءة ، يغمض عينه بينما خواطره الليلية تشحب على مهل ، وافكاره تنقلب إلى رؤى ، علمت ان أبى هذا يغمض عينه متحمساً ، مثقلاً بالنوايا . وإذا يصحو يتبدد منه كل عزم ، ويتعلل بكثرة المشاغل والاضطرار إلى عمل لا يحبه والغربة ، يصبح وفكره فى حيرة ، وعلمه فى شبهة ، رأيت نالماً ، ملاحه مضمومة ، كمن على اذنيه قر ، وعلى رؤاه غشاوة ، وحركت رقدته عندى شفقة ، شفقة الكبير على الصغير ، مع أنه هو الكبير وأنا الصغير ، وتزايد أسأى لما بقيت فى هذا البيت المضمد بالليل والغربة والمهجران ، وقد كنت أحذر فى بداية هذا المقام أى اندماج أو رابطة تنشأ عندى تجاه ما سأجلده وألقاه فى حياتى تلك ، وذلك حرصاً منى وغيره وتأكيدها للذات على ارتباطى بنشأتى الأولى وبقائى معى حتى فى سريانى عبر حياتى البديلة وفى ذرى اغترابى ، لكن أئمة ما يبقى حقاً ؟ ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .. انتهى ذلك الوصل من هذا المقام ..

الوصل الرابع من هذا المقام

.. ل . و . ر ، تلك آيات قلبى العليل الحزين ، المقطوع منى ، المنفصل عنى ، فلما كانت الأزمنة يا أحبابى ثلاثة ، ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، لذا كانت الأحوال ثلاثة ، فالحزن على الماضى ، والفرح فى الحاضر ، والخوف

من المستقبل ، وقد عرفت الثلاثة ، غير أن الكلام غلبت عندي ، فأنا والله
لست بغافل عن الحاضر المنقلب إلى ماض ، ولست بساه عن المستقبل الآتي
اللاحق بالماضي ، أليس كل ماض بعيد ، وكل آت قريب ؟ ، الحزن متمكن
عندي ، مقيم ، مستوطن ، فلا تغفروا إذا ما رأيتموني باسماء أو ضاحكا ، المأتم
منصوب ، دائما في حشاشتي ، أعز من أحبيت ولّى عني ، وأرق من عشقت
راح مني ، ولثقل ما أنوء به شرعت مراراً في الكف عن تدويني ، لولا الأمر
والعبارة ، أما الهدف فلا يزال بعيدا ، والدنو صعب ، وجدتي في زمن لم
أعشه وبلد لم أزره . وجودي غير مدرك بالحواس ، لاتقع عين عليّ ، ولا
تصفي إذن إلى صوتي لو نطقت ، فلا وجود لي مع وجودي ، من غربة إلى
غربة ، فلا تمزج يا فؤادي ولا تدمعي يا عيني ، ولا تتكس يا قلبي القصبى
عني ، وادركني يا صاحب الدم المراق هدرا في هجير كربلاء .

كنت كمن يرى مشهدا في حلم وهو غير مائل فيه ، فيرى ولا عينين ،
ويسمع بلا أذنين ، ويدرك بلا إدراك . وهذا والله عجيب . لكنه ما
عاينت ، فهل اكنم عنكم سرى ؟ كلا ستعلمون ، ثم كلا ستعلمون .

هذه بلاد جبلية ، تغطيها الثلوج ، قراها متباعدة ، ومن مدينة صغيرة
رأيت ركبا يخرج ، وباشا متدثرا بالأغطية يركب الزحافة الوسطى فعرفت أن
الزمن عثماني ، وجهه أبيض ، ملاحه ليست غريبة ، لكن أين ؟ لم أدر ولم
أتذكر ، إنه يفارق المدينة مضضيا عليه ، معزولا بفردان سلطاني ، منفيا ،
رأيته يقطع وديانا وجبالا ، لا يتوقف إلا فيما ندر ، كنت أرى وجهه قريبا
كأنى أو شك أن أعانقه ، وكنت أشم جلد معطفه المبطن بفرو ثمين ، رأيت
دخوله ، مدينة شهباء ، مبانيها بيضاء ، في أقصى إقليم الشام ، رأيت
استقراره في بيت فسيح لا يفارقه قط ، رأيت تعاقب الفصول ، كان الشتاء

يبدأ أمامى وينتهى قبل أن يرتد إلى طرفى ، كذا الريح والصيف والخريف ،
والأشجار تفرس وتنمو وتشيع فى لمح البصر ، والجداول تمتلئ بماء جار
يتجمد ويفيض فى لحظتين متعاقبتين ، وللباقى تقوم وتزول ويدركها
التصدع ، والأضرحة تقوم وتندثر .

رأيت فيما رأيت الباشا تتوالى عليه الشهور والسنون ، ينكح وامراته تحمل
وتلد فى مقدار ثانية مما تعدون ، رأيت خروج الحفيدة التاسعة من رحم أمها
إلى تلك الحياة الدنيا ، كدت أصبح إذ رأيت اللحظة من قبل ، فى أسفار
الميلاد ، وكان مولاي الحسين على مقربة منى - معصرة - بل أنا على مقربة
منه ، فإليه تنسب الموجودات ، قال لى مرشلى الأوفى حيثذ : سيكون لك
شأن معها .

آه يا خير أدلتي ، لم تركننى ؟ لم هجرتنى ؟ أين أنت ؟ أنا حييك المفضل
الرأس مثلك . أنا الباكي عليك ، الموجوع من أجلك ، اغثنى ياوضاء ،
ياسيد أحنى ، تعال ، أقبل ، وأنا أرى مولد هذه البنية ، ثم تقلمها فى
العمر ، تحبو ، تمشى ، تتكلم بلسان متعثر ، ثم بلسان طلق وصوت مليح ،
ينبت نهلاها ، تفارق الشهباء إلى دمشق عاصمة إقليم الشام ، رأيتها تعاقب
شخصا . تتحسس ظهره العارى ، ثم رجليها عن بر الشام كله إلى هذه المدينة
الأوروبية ، ترحل عنها وبها الليالى ، وما هذا إلا عرض لذلك الحقى غير
المنظور ، الظاهر ، الباطن ، واللى نسميه الزمن ، وتلك كنية إنسانية ، بها
من الإشارة ظل ، وليس لها من الإفصاح شىء ، لكن ثمة دلائل بدأت
تلوح ، ولكم حيرتى وسهدتى واقتضى ، غير أننى الآن غير قادر على التنبيه ،
حتى التلميح اعجز عنه ، شغلت بتسيع زمن هذه البنية ، حتى استقر بي
الوصل عند ليلة شتوية باردة .

. الساعة تشير إلى الرابعة ، والغروب مكتمل ، ترحل الشمس مبكرة عن هذه الديار ، في نفس اللحظة تغمر بيوت وشوارع وحوارى قاهرى ، رأيتها في صالة بيت صغير ، تستند إلى منضدة بلا طلاء ، مغطاة بكب لم اتبين أى مضمون تحوى ، لم أقرأ عناوينها ، إذ حجبت عنى بغشاوة ، رأيت أوراقا مرتبة ، وصندوقا يحوى بطاقات بيضاء ، وعلبة خشبية دائرية محلاة بصدف البحر الأعظم ، تطل منها أقلام مختلفة ألوانها وأحجامها ، مقعدها بلا مسند ، وعلى الجدار لوحة ملونة لمسجد متعدد القباب ، باسق المآذن ، يطل على بحر أزرق ، وفوقه سماء فيها غمام ، وخلفه غابة من خضرة ، بهجة للناظرين ، وفي أقصى الركن الأيمن ثلاث حشايا متجاورة فوق الأرض ، فراش ينتهى بوسادة لصق الجدار الذى تتوسطه نافذة مستطيلة تبدأ من أرضية الغرفة حيث يبدأ حاجز حديدى إلى مدى ، فتلك شرفة ولا شرفة ، ستارة شفافة تحجب أنظار المتطفلين ، تؤدى الصالة إلى غرفة النوم ، لكننى لم ألجها ، ولم أقف على ما بداخلها ، انتهى طوافى بالبيت ، عدت أنظر إلى هذه البنية متسائلا ، مالى وما لها ؟ فلم أعرفها ، ولم ألتق بها فى أيامى ، تذكرت صوت سبلهى الحسين وكأنى اسمعه الآن ، ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ، فوجفت وثوقفت . وتعشمت ، خفت .. هل أخطأت وأنا لا أدرى خطئى الثالث ، علمت أن النذر تلوح ، وإن ما يقلقل سكوفى يعمل عمله البطيء ، تركز بصرى على البنية ، تتأهب لخروج ، ترتدى جاكته جلدية بنية اللون عليها زخارف ألوانها سلافية . أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ، مبطنة بفرو أبيض ، تضع فوق رأسها طاقيـة عالية الجوانب ، تمسك حقيبة من صوف قديم مجدول ، تخرج مليـة دعوة صاحبة لها من بلدتها دعت صديقين ، احدهما مصرى ، وهنا ارتفعت فرأيت المدينة كلها بين يدى

كالكرة ، دقت البصر فرأيتها تسمى عبر طريق مضاء بمصاييح عتيقة الطراز ، وبلاط الرصيف يلعب ، المطر الذى كف يبلل اسطح البيوت المحدبة ، وأبراج الارسل الإذاعية القائمة فوق جبل يحده المدينة من الناحية الشمالية ، لافتات الإعلان الضوئية توشحت بضباب ، خضعت المدينة للبرد فلا تسمع إلا همسا وصيحة نائية شاردة هنا أو هناك ، وهنا رأيتنى فى نشأتى الأخرى ، أدخل باب بيت قديم قريب من المنطقة الجامعية ، أتجاهل المصعد فأقفز درج السلم ، فحسدت نفسى لأننى لا أقدر على ذلك ، خاصة بعد تجاوزى الثلاثين واكتشاف أمر العلة فى قلبى القديم ، رأيت مصافحى لشابين من أهل البلاد ، وآخر لم أدر موطنه ، وشابة أخرى ، جلست فوق حشية وأنا ملم بالمناسبة ، احتفال بسيط بمناسبة اجتياز المرحلة الثانية ، لم أدر ما هى تلك المرحلة ، ما موقعها وما موضعها وإلى أى مستوى تودى ؟.

فوق طاولة من خشب أطباق ، باذنجان مفروم ، وحمص مطحون ، وزبادى ، وشرائح لحم ، وطبق عمدة ملىء بأرز متوج بلحم مفروم ، وصلصة حمراء كثيفة متعة للطاعمين ، أحد الجالسين ، يعالج سداة من فلين ، لزجاجة نبيذ وردى ، كانت درجة الحرارة داخل الغرفة تقارب الثلاثين ، ومدفأة الزيت تبث حرارتها بثبات ، فى الخارج ما دون الصفر بعشر درجات ، وثمة منخفض جوى حاد فوق الجزء الغربى من القارة ، والفرصة مهيأة لسقوط ثلوج ، والقمر فى أقرب مدار له إلى الأرض ، وعلى مسافة سحيقة خارج الهجرة يكتمل تكوين نجم عملاق ، وأما المريخ وعطارد والزهرة وزحل والمشتري وسائر التوابع فكل فى فلك يسبحون ، كانت الساعة الخامسة مكتمل أمرها ، وتجاوزتها سبع ثوان عندما دخلت الغرفة هذه البنية ، تطلعت ، فرأيتها تدخل مباشرة إلى المكان ، وإلى ، ليس دخولها كإى دخول

آخر ، لا تخطو وإنما تساب ، لا تمشي وإنما تسرى ، تتخنى إلى الأمام هونا وكأنها توشك أن تحنو ، أو ستهلئ كريبا ، أو ستخفف ضيقا ، أو تهدهد طفلا ، أو ستغضى بيشري ، كأنها تمشي فوق الماء ، وعندما سلمت وقعدت لم يكن وجودها إلا هسا ، ولم يكن حضورها إلا شجوا ، وبعد انقضاء وقت لم يكن دخولها قد انقضى بعد ، والمعروف ، المشهود ، أن الدخول عامة فيه لنة ، لنة الداخل من البرد إلى الدفء والداخل بصحبة تبعه على أمل الخلاص وطرحه خارجا ، ودخول الذكر في الفرج ، ودخول القاتح المتصر ، ودخول الواردات على الأفتلة ، ليس لدخولها مثل ، دخول يحرك المكنون ، يشير الأمل ، يسقط حجبها ، والدخول علامة الحاضر .

كان دخول أبي قريته جهينة من بواعث ومسيبات مسراته ، أما دخوله البيت علينا ونحن لم نزل بعد صغارا فكان يعني اكتمال أماتنا وراحة معناتنا ، أما دخول قرة عيني الحسين إلى الكوفة فلم يتحقق ، وكان دخول صاحبي الشهيد إلى أرض العدو لحظة ذروة وتأهب لقناء .

رب سائل لي : وماذا عن دخول القبر؟ أجيب قائلا إنه دخول عالم نجهله من ناحية ، وخروج أيضا ، خروج عن عالمنا ، لذا أعده خروجاً قبل أن يكون دخولاً ، والخروج جالب للحزن ، والحيرة المنومة ، والخوف للجهل بما سيكون ، والحديث عنه له مقام مغاير ليس هذا أوأانه أو مكانه ، أما الدخول فصاحب للراحة والدعة ، لما استقر دخولها وتمكن ، قلمها لي أحد الجالسين فقال عني : صاحبنا المصري ، وكانت الفرصة لأسد بصري ، فرأيت الوجه الجميل الرقاق ، ولاحظت أنها تشير بيدها اليسرى ، وتتناول الطعام بيدها اليسرى ، وتتكى إلى اليمنى ، بعد دقائق عاودت النظر . بالعجبى كآنى أمام انثى أخرى ، جهالها يزداد عمقا ، شفتاها تمحلتا ونظراتها

أعرق ، صار وجودها مشعاً قويا بعد أن بدأ خافقا ، قال صاحبي يعرقى :
لور .

تذكرت أسفار الميلاد ، عندما اختار لها أبوها اسم لور ، غير أنى من
حيث نشأتى الأخرى ارتحت لوقع الاسم وان بعث عندى خاطراً لم أقف على
كنهه وحرك عندى سرا لم أقدر على حله ، لاحظت أنها لا تتكلم كثيراً ، مقلة ،
ليس عن شح ، إنما عن فيض ، تجيب بالنظر وتشارك بالإيماء ، وإذا حان
الحين تفتح شفتها فترمر كلمة ، ويولد لفظ أو لفظان ، وقد تكتمل جملة ،
كل حرف مصحوب بابتسامة ، وابتسامتها يا إخوانى عجب ، لاحظت من
حيث نشأتها الأولى ذلك الشبه الحقيقى الظاهر بينا وبين جدتها الباشا الذى لم
تره هى ، وربما تجهله ، كما أنى وجدت فى ملامحها شها وقرى بوجه تميت لو
ألقاه فى هذه الدنيا ، ومن حيث نشأتى الأخرى لاحظت جال وجودها
الحسى ، ترتلى بنطلونا من القطيفة السوداء يحد بوضوح جلى
الاستدارات ، وخطوط الالتقاء ونقاط الفرق بين أعضائها المكنونة ، أما
قبص الصوف الأحمر الغامق فلم يخف نهوض صدرها فى غير افراط ، وفى
هذه اللحظة اكمل توهج عينها أو خيل الى ذلك ، ومن وجودى الأصلى
دققت النظر ، وداخلى يقين انى رأيتها من قبل ، لكن متى ؟ ، لم أعرف ،
كيف ؟ لم أدر ، عللت يقينى بأن وجهها هادئ ، مألوف للتأخرين مع أنه لا
مثيل له ، سهل تمتع ، لكن السر الذى تكشف لى فى هذا الوصل ، ان ثمة
جسرا بينى وبينى ، بين نشأتى الأولى ، وخلقى البديل ، ونشؤنى فى كينونات
أخرى ، ساقبض وأفصل إذا سمع اللقام ، أدركت لنوى ان سرا بدأ بعد أن
تكشف لى سر ، تقترح صاحبة لور عليها أن تغنى ، تلقت إلى صاحبها
الأجنيين ، تقول إن ما سيسمعانه مفاجأة وان صوتها لا مثيل له ، وانه أفضل

الدروس لتعلم اللغة العربية التي يكدان لتعلمها ، تبسم لور . عندئذ نظرت إليها نظرا ثابتا وليس عابرا ، أقت بعيني على ملاحظها ولم أتردد مختلسا ، رأيت جمالها في بهاء مستمر وألق ، لا تتردد لور ، لا يبدو عليها خجل ، تعدل من جلستها فتستند إلى مقدمة ركبتيها اليمنى ، وتحيط ركبتيها اليسرى بأصابع يديها ، تبدأ ، تبدأ فأصغى إلى مطلع الموشح القادم من الزمن الأندلسي ، يحن وجهها حينها ضافيا كافيا ، ويفيض حتى يغمرني ، يملأ صدري ويتيسر أمرى ويحل عقدة قولى ، فزحل إليها أنفاسى ، وتسعى إليها دقات قلبى ، وتسافر رحلى بأيامى صوبها ، الفلاة ، الفلاة ، يقوم فى التومهرجاني ، ويبدأ موسمى ، يتنظم فلكى فى دوراته ، يفنى سكوتى ويتبدد صمى ويبدأ صخبى ، وينهر غيى بعد طول جذب ، استحسن ، اصفق ، اتمايل حتى يدهش الجمع ، وتخصنى لور بطرفة نظر ، تقول مضيفتنا : اظهر على حقيقتك ، ولم يدر أحد اننى أزيح الحجب وأدنو من معرفة السبب ، غزافى صوتها السلسيلى ، الزيزفونى ، الأكاسى ، الغروى ، الشروق ، المسائى ، الريمى ، البرى ، البحرى ، الندى . وأثار عندى الحنين والحنان ، وهددنى إلى أيام حلوة مرت عندى ولم أعشها ، وبعث هنيئات جميلة عبرتى ولم أشهدا ، وذكرنى بدفء موطنى القديم فكدت أنوح ، وأنى الى بامى وكدها ، وتعبا ، فوددت لو رأيتها للتو فأضمها وتضمنى ، وقربنى من أمى فى غربته فريث لانكساره البادى ، وانكفاله الدائم على ما يكنه ، واقلعه متسللا دائما من وقته المعهود ونفسه وشعره الذى ما عاد يأتى .

تنهى لور فتستسلم كل قلاعى ، وتمهد كل وديانى ، وتسفر كل أقبقي وتظهر دقاتى . يحين أوان الانصراف ، ابدى الرغبة فى المصاحبة عبر طريق العودة ، فتومئ إيماء دالة مختصرة ، تحذرها صاحبها وصاحبتي ، ان حماسى الزائد والمخالف لطبيعتى ينذر بتغير فى أحوالى ربما ادى إلى خطر . تقول لور

ضاحكة إنها لا تخشى، تبدو جادة فجأة فتتحدد ملامحها وتبدو كأنها رموز دالة على ملامح أخرى لا تُرى ولا تلمح إنما توحى ، تتنى للجميع ليلة طيبة ، وعندما أغلق الباب ، وصرنا إلى الدرج ، بمفردنا ، نزل علىّ بهت فلم اتكلم ، ماذا أقول ؟ لفنى خجل فتعثرت حروف نطقي فكأنى كنت أحنى بالجمع والصحبة لأقول ما أملاه الفيض علىّ حتى إذا انفردنا تعثرت وارتبكت لم أعد ادري ما يقال ، وهنا ادركنى فى نشأى الأولى مشاعر صعب الانصاح عنها ، لكنها تتضمن شفقة على حالى فى نشأى الثانية ، ألا أشبهه ؟ أليست مثله ؟ أطوى ولا أبسط . لكننى لم أشبهنى فى اندفاعه تجاهها ، وان كنت لا أخفى ولا أنكر اننى درت فى فلکها عندما رأيتها ، حتى وددت لو أبدو أمامها فتدركنى من حيث نشأى الأولى لا الثانية ، ظهورها فى هذا المقام وزعنى بين النشأتين وشتنى بين الوجودين . لذا ضقت بصمى هذا ، وارتبكت من حيث الوجود الثانى ، وارتحت إليه من حيث انه يتيح لنشأى الأولى طول النظر والتأمل منها ، غير ان الصمت لم يدم ، إذ اقترحت هى اسراع الخطى حتى نصل مدخل محطة المترو ، تقول إنها تكره النزول إلى هذه الأنفاق خاصة فى الليل ، وصعود السلالم والممرات التى تصل الأرصفة ، أقول : إذن لتركب عربة أجرة ، قلت ما قلته والمطريث رذاذا خفيفا ينبى باستمرار طويل ، أما الرياح فباردة تفاجئنا بهبات حادة خاصة عند النواصي وافتراق الطرقات ، فتضطر إلى انحناء ، أسارع بفتح مظلتى وبسطها فوقها ، ترى حبا مبتسمة حتى تمجى عنى المطر ، أقول همسا « أنا لا يهم » ، تبسم ، فأحب ابتسامتها حبا لذاته حتى أتمنى المعاودة ، وعندما هممنا بالركوب تساءلت عن شارعها ، تلفظ اسمه بأناقة عطرية وإيقاع مزهري ، ودغدغنى نطقها للراء ، إذ أنه وسط بين نطق حرف الغين والراء ، فهى لاتفصح عن

الراء افضلها تاما وفي الوقت عينه توحى بالغين وتشي عنها ، كذلك التماء اللام بالواو عندها ، فكأنه نزول من عل للأخذ بيد سفل ، أما خروج الفاء فهو التحديد عينه ، في الطريق تتوالى الأضواء علينا من مصابيح عتيقة ولافتات اعلانية وصيدليات خافرة ، أسألها عن سنواتها المتقضية هنا فتقول سبعا ، وانها توشك على الانتهاء من رسالتها العلمية ، وأنها تعمل في تدريس اللغة العربية لأبناء العمال المهاجرين . صمت آخر . لماذا لم تعرفي طريقك إلى الإذاعة .. إن صوتك أجمل ؟؟ تضحك فأحب ضحكها حبا ثالثا لذاته ، ضحكة مقتصدة حانية ، إنها لم تفكر في ذلك قط ، كانت تقضي في حفلات المدرسة ثم الجامعة وجلسات الأصحاب ، صمت آخر . عندئذ نطقت بلسان وجودي الأول ، أريد أن أعرف كل شيء عنك ؟ ، ولدشقتي التي لم تنفذ بعد ، فوجئت بلساني في وجودي الثاني ينطق نفس العبارة ، أريد ان أعرف كل شيء عنك ، هكذا أنطقت نفسي بنفسي ، وناب لساني عن لساني ، ولأن التساؤل كان مفاجئا ، فإذا بها تنظر إليّ والعجب لا يحصى ، همس : كل شيء ؟ أومئى وأنا في حيرة من أمرى في وجودي الثاني ، كيف واتنى هذه الجراءة ، وما الذي انطقني ؟ . صمت ، تتوقف العربة أمام بيت تلتقي عنده ثلاثة شوارع ، أقول قبل ذهابها غنى ، هل يمكنني الحديث إليك ؟ تنطق باختصار سبعة أرقام ، لا أملك ورقا ، أخط الأرقام على باطن كفي ، تومئ فأحب إيمانها حبا رابعا لذاته ، أطلب من السائق الانتظار حتى تتوارى داخل البيت ، حتى اسمع صوت المصعد ، هي طالعة الآن وقلبي طالع ، اجتاز الطرق كأتى أراها أول مرة ، أما ولوجي البيت فغاير لكل مرة ، كأتى استوقفت سلامة البنية وصحة النظام بعد ظن خاطئ ، انتظرت عودة أمي ولم أتم ، جاءت متعبة ، قبلتها وعانقتها واشفت عليها لإرهاقتها

البادى ، منذ وقت طويل لم أدخل إليها وهذا غريب ، لم أجلس إلى أبى ولم يجلس إلىّ ، قالت لى باسمه : لابد أننى اخفى عنها امرا ، هل تحققى عن أمك شيئا ، قالت ، أهو حب جديد ؟ ، أو مات .

من ؟ قلت ، حلية من الشام ، قالت ، عرية ؟ قلت نعم ، قالت ، ستعرفى بها ؟ ، قلت نعم .. عندما يحين الأوان ، ومتى يحين الأوان ؟ قلت ؟ لا أدرى ، قالت ، صفها ، قلت ، لاتوصف ، بدت سعيدة ، قالت ، أنت غارق ، قلت ، حتى القاع ، قالت ، زدتنى شوقا لرؤياها ، ثم طلبت منى ان أنام بغيرها الليلة . أو مات ، فقامت نشيطة مبهجة ، إذن .. سنأكل معا ، فى هذا الليل تقاربنا وقالت لى قبل ان ترحل عبر نومها ، لابد أن تعرفى بها ، فقلت مؤكداً . استيقظت والنهار أحد ، لن أذهب إلى المدرسة ، يمكننى النوم كما أشاء ، أو الاستلقاء إلى مدى ، واستعدت من حيث نشأتى الأولى استيقاظى صباح الجمع ، ادراكى فى اللحظات الأولى ان اليوم عطلة ، صوت الموقد الغازى ، رائحة الزلاية التى تقلبها أمى ، أو الأقراص الصغيرة التى تسويها ثم تغرقها بالسمن ، وعودة أبى من صلاة الفجر ، ودورق الحليب الدسم ، واكملنا حول الطبلية قصيرة القوائم ، ادركت اننى غبت عن وجودى الأول ، واننى أكاد أفقد ما خرجت من أجله ، لكن الفضول الإنسانى غلبنى وطنى ، فعدت إلىّ ، رأيت نفسى ، اغسل وجهى ، احلقى ذقنى ، أوجل لحظة شروعى فى الاتصال حتى أعيش متعتها بدلا من انقضائها ، أفضل توقعها بدلا من استعادتها ، والغريب اننى من حيث النشأة الأولى تعجلت سماع صوتها حتى أننى استبطلت الخطى وضعت منى ، على مهل أمد يدى ، وقبل اتمام الرقم أغلق الخط ، ثم أعيد الكرة وأنا ألفظ الأرقام رقما ، رقما ، بصوت مرتفع ، انتظر رنين الجرس ، يجيئنى صوت غير

الصوت ، أجنبي عني ، غريب لم تألفه أذن ، يقول إن الرقم صحيح ، ولكن مثل هذا الاسم لا يوجد هنا ، يتبدل اليوم وتهمر الكدورات ، تتصل أمي ، هل افطرت ؟ هل مستخرج ؟ ثم تتساءل ، مالك ؟ قلت ، لا شيء . قالت ، متى ستري صاحبك ؟ قلت ، لا أدري ، قالت ، حدث شيء ، قلت ، لا ، قالت ، لا .. بل حدث شيء ، قلت ، إذن حدث ، قالت ، ماذا ؟ قلت ، عندما تيجئين ، قالت ، وحياتك أخبرني الآن ، فقلت ، انني أفضل الصمت الآن ، لم أخرج ولم أبدل ثيابي ولم يتغير على الحال ، فقد ثبت كمدى وتمكن قهري مني ، وأحرق بي ضيق ، ولم أقدر على مد يدي إلى الراديو ، عند العصر كنت في خسر ، احتجت سماع الصوت الإنساني ، فأدركت القرص ، لأحدث صاحبي وصاحبة لور ، لعل آتي منها بقبس ، أما حقني الظاهرة فتوجيه شكرى على دعوتي ، جاعني صوتها ، فسلمت وشكرت ، ثم حدثتني عن مظاهرة ستطلق غدا من الميدان الرئيسي احتجاجا ، قالت ، من المهم حضوري إذ يجب ان تبدو المظاهرة مهية المنظر كثيرة العدد أمام الصحافة والاعلام ، كدت استفسر عن لور ، وهل نجى أيضا ، لكنني فوجئت بها تقول لي ان لور خابرتها صباح اليوم وطلبت منها الاتصال بي ، إذ أملتني الرقم الأخير خطأ ، إنه سبعة بدلا من ستة ، سهو تعتذر عنه لور ، ربما سيبه العجلة أو المظهر ، ودعت صاحبي بطيء الأنفاس ، لم أضع الساعة مكانها ، أخاف أن أدير الرقم ، لكنني عزمت وتوكلت ثم أصغيت إلى رنين الجرس الذي لم يستمر طويلا ، رسا عندي صوتها فارتفعت الكآبة وتأجلت الاستقالة ، وانقضت الصفة ، ومن وجودي الأول رنوت مرتاحا إلى وجودي الثاني ، رأيت علامة هذا اليوم الشتوى ، واحطت ببعض ما احاطني ، وكانت أشياء متباعدة لا اتفاق ظاهراً بينها ،

ومن ذلك الرصيف الأيمن المؤدى إلى البيت ، واجهة معرض السجاد ياقوتية
الظل ، والقطع الصغيرة الدقيقة النقش ، تقول اللاتفات إنها صنعت في
قرى نائية بأواسط آسيا ، وصوت المرأة التي تناولني الشطائر عندما تقول لي
شكرا بلغة موطنها ، السلم الكهربائي الذي يستمر في الحركة حتى توقف
القطارات تماما ، وقطرات المطر التي تأتي مفارقة أوراق الأشجار ، أحببت
لونها الأخضر السخي ، حيث يلد اللون من لونين مختلفين لا وجود محسوساً
لأحدهما في اللون الناتج عنها ، أحيانا تكون الغلبة للأصفر ، وأحيانا
للأزرق ، لكن لا يظهر الأصفر ولا الأزرق ، يندمج كل منهما في الآخر
ليتكون الأخضر ، كنا سائر الألوان ، وهكذا حالي مع حالي عند هذا الحد
من ذلك المقام ، إذ تتداخل وجودي في وجودي ، أحيانا تغلب بنشائي
الأولى على نشائي الثانية ، ولكن دون ان تظهر نشائي الأولى في نشائي الثانية ،
وعندما اتجهت فرحا إلى هذه الكنيسة الأثرية الشهيرة ، مقصد الزوار
والسائحين ، كنت أمشي في الأرض مرحا ، أبسطها كل البسط ، ولم أدرأيها
أنا ، فالتحلى لي ، واللهفة لهفتي ، هذا ما خبرته عبر أعوامي الطوال المندثرة
التي لن تعود ، عندما اتجه إلى لقاء محبوبتي لي ، تحفت وجودي ويشف
كياني . وأرغب الحديث إلى كل من يلتفتني أو تقع عليه عيني ، وعندما
رأيت سيدة عجوزاً تمسك سلة من خوص ملون تطل منها وردات ملونة ،
اشترت وردتين ، وقبل الموعد بست دقائق ، قبل ان يستقر العرقب الصغير
على الرقم الرابع ، والكبير على الثاني عشر ، كنت أقف متأملا واجهة
الكنيسة وزخارفها الجصية ، اسأل نفسي ، من أي جهة ستأتي ؟ من أي
ناحية ستظهر ؟ في أي لباس ستبدو ؟ أي كلمات ستقال في اللحظات الأولى ،
وبوجودي الأول أتساءل ، كم من اللقاءات جرت في نفس المكان ؟ وكم

من الأيدي تصافحت ؟ وكم من المصائر التقت ؟ وتفرقت ؟ ، فى السماء غمامات رمادية ، وعلى القنطرة الحجرية مجموعة أجناب متدثرين بالملابس الشتوية ، وفوق الأرض تحط حمامات آمنة ، من مكان بعيد تنبعث موسيقى ، يحينى الصوت فجأة ، مساء الخير ، ألتفت متبللا ، يطالعنى وجهها المخملى الهادئ ، عاد الفتى رتقا ، والفرق جمعا فأبقيت يدها بين يدي مقدار لحظات ، تساءلت ، إلى أين ترغبين ؟ ، قالت : إننى أحب ضفة النهر أيضا ، وائنى جئت إليه مرارا ، أرقب مياهه الرمادية لكن بمفردى . ولكن ألن تشعري بالبرد ؟ ، قالت ، إذا زادت الوطأة لنمض إلى مقهى ، قلت ضاحكا ، ان هذه المدينة لا يوجد فيها إلا المقاهى ، والحدائق ، ثم أضفت .. وصوتك ، ثم قلت ، ان مقاهى القاهرة شئ مختلف تماما ، ثم قلت اننى لم أر الشام للأسف ، لكننى يوما سأذهب إليه ، وائنى اعتبر اقامتى هنا موقوتة مها طالت ، شاء أبى ، شاءت أمى ، أم لا . ثم قلت ان الأشجار تبدو أجمل فى الربيع ، وان الغصون العارية تثير انقباضى ، قلت إننى أحب المطر وأعشق رؤيته من خلف حاجز زجاجى ، لكن الأيام الرمادية تملئنى بكآبة ، وائنى اقتنص مرات ظهور الشمس وأولى وجهى إلى حديقة النباتات ، أخلع قيصى ، وأتمدد عارى الصدر ، أما فى مصر فالشمس مقيمة أبدا ، عندى جوع إلى هذه الشمس . لكن أبى يقول إنهم أفسدوا كل شئ ، وان الأيام غير الأيام ، قلت ضاحكا إننى سأبلغ الثامنة عشرة فى أبريل ، قلت إننى لا أصدق ، وجهها لا يوحى أبدا ، كأنها زميلتى فى الدراسة ، ضحكت وقلت إننى لم أضحك من قلبى منذ زمن بعيد ، ساعات عديدة أقضيها بمفردى هذه الشوارع الخالية من المارة قاسية على الغريب ، وأنا غريب ، سكت لحظة تشاغلته خلالها بالنظر إلى قارب كبير مغطى بزجاج

شفاف ، تبدو صفوف المقاعد خالية ، يركبه الأجانب ليروا معالم المدينة من
النهر ، التفت إليها ، وجودها الهمسى يجعلها صفة لا موصوفة ، كأنها خلقت
في المساحة التي تفصل الضوء عن الظل ، والشذا عن مصدره ، ظل الندى
على الندى ، تسليم الليل على النهار ، تردد أشعة الشمس على الغمام في
الأعلى ، تنظر إلى مياه النهر ، إلى درجات حجرية قديمة محفورة في الشاطئ
المخدر ، على مهل تلتفت إلىّ ..
« ماذا تريد مني ؟ »

اختصار موجز ، وحيرة غاربة ، اتوقف عند مفترق ، واحلق عند
حدين ، أتردد بين إجابة وسؤال ، في وجودي الثاني حيرة ، ما بينها استقر
صمتي ، غير أن ذلك لم يدم ، أقول - ولا أدري بأى اللسانين نطقت ؟ -
« أريدك أنت » ، تولى وجهها شطر النهر ، أمد يدي ، ألس أطراف
أصابعها ، مشارف وجودها الحسى ، احتوى يدها الدقيقة ، الرقيقة بين
يدي ، تلتفت إلىّ ، ما بين شفتيها انفراجة رقيقة لا تلحظ كخط الأفق
الفاصل بين الأرض والسماء ، يُحدّد ولا يُحدّد ، أما عيناها فطاقتان على
عالم أجهله ، تشع بالنظر سؤاها الذي نطقته منذ لحظات ، ماذا تريد مني ؟ ،
يهفو قلبي في صدري ، ويتقلب بين كفى شيخى الأكبر . وهنا رأيت شفتيّ
تنطقان ، لكننى لا أسمع ، رأيت إيماءاتها الصامتة . ولم أدرك جل ما
قلت ، يضايقنى هذا ، مع أنى لم أنطق كلمات كثيرة أو جملا معدودة ،
وعملت ذلك بأن ما يقال في اللقاءات الأولى لا يمكن استعادته كاملا ، بل
يجرى فيه الأمر بمجمله ولا يدرك في تفصيله ، ولأننى اجتزت منزل الأصوات
الباقية ، وانقطع أملى في العودة إليه ، واستحال رجوعى فقد يشت من
قدرتى على معرفة ما قلته ، والغريب العجيب اننى من حين إلى حين أرى

دخولها على أول مرة ، ولحظة خلعها الجاكت المبطن بالفرو ذى النقوش
السلافية ، أعلم أن الإنسان الذى سمى إنسانا من النسيان لا ينسى اللحظة
الأولى ، ولا اللحظة الأخيرة ، أما ما بين القوسين فيندمج ، تطمس معالمه ،
تنطفئ فترات وتبرق أخرى ، ربما ينسى زمن بأكمله ، تختفى تضاريسه ،
لكن لحظة البداية ولحظة النهاية لا تولىان أبدا ، أما التفاصيل الدقاق فن
العبث محاولة استعادتها ، أبدا ، أبدا .

انظر من وجودى الغرب ، أرى نفسى دانيا منها ، محيطا خصرها
بذراعى فتميل إلى صدرى ، وتسبل جفניה العلوين ، أغطي شفيتها بشفتى ،
أزداد قربا حتى أرى الشعيرات التى يسرى عبرها الدم البادية فى جفניה
المسدلين ، فى حضنى تبدو أصغر وأدق ، وعلى صدرى فرشت رائحتها التى لم
أعرف مثيلا لها ، بين ذراعى أدفا ، وكأننى ألملم حمامة طال بها السفر ، تدب
الحرارة فى جسدى ، تسرى الرغبة عندى ، وتتحرك الشهوة فىّ ، ولم أكن
خجلا من التصاقى بها وشعورها بقسوة رغبتى وشدتها ، وتلك جراءة دهشت
ها ، لم تواتى فى هذه السن عندما مررت بها ، أنا الذى لم أعرف امرأة إلا فى
الثانية والعشرين ، لا أكف ، تندس يلى ما بين ثيابها ، فكأنى رأيت لون
بشرتها بيلى ، تزداد ميلا نحوى واستكانة ، يصير وجودها حيننا ومحنة ،
وشفقة ، ورقة ، ومنة ، حرك هذا عندى الرغبة فى القربى ، وتلك رغبة
منقوصة لغياب جسدى عنى ، فلم يعد من نصيبى إلا النظر منى إلىّ ،
والدهشة منى علىّ ، والحسد ، والتمنى لو كنت أنى ، وهذا عجيب ، ولم
يتفق لأحد غيرى ، حتى مشايخى الأجلة ممن مهدوا لى الطريق وعرفونى به ،
وأخذت عنهم فيه وله ، حتى رفاقى وإخوانى الذين اتبعت خطاهم ونور
علمهم عقلى ، هذا خصصت به ، وإن كان مؤلما ، انفردت به وإن كان

معذبا ، مضنيا ، انتهت إلى حركة جسدنا في ابتعاده عني ، بينما تغرق مياه
النهر ويطل الليل عند الحافة ، وتدنو السماء من الأرض ، اكتمل انفصالها
عني ، وأنا متوهج العروق ، طامعٌ في الباقي ، انطلق فأسمع نفسي « حرام
عليك » ، مشيرا إلى توتر حالي ، فأجابتني « وحرام عليك » ، فعرفت أنني
تنبأت لها وأنها تنبأت لي ، وأن ما تمكن مني تمكن منها ، وما سرى عندي
سرى عندها ، فلأت يلى ، واستوثقت أمري ، ورغبت الضم والعناق ،
والاحتواء ، غير أنها اعرضت عني برق ، وحنو ، قالت « امهلني ، إني في
حاجة إلى قرار » ، ثم قالت « إني مضطربة » ، ثم كررت « إني مضطربة » ، ثم
قالت « إني في حاجة إلى قرار » ، لم أعاد الكرة ، هل يصير قريبا إلى بعد ؟ وما
كان بيننا منذ لحظات ، أينقلب إلى ذكرى ؟ اشراقة ثم ولت ؟ ، تساءلت
بصوت خفيض « متى تقررين ؟ » قالت « إني بحاجة إلى فرصة ، إني
مضطربة » ، تساءلت « أيطول الأمر ؟ » ، قالت « لا » ، بدا لي نطقها لحرق
« لا » عجبا ، فيها العمق الأقصى ، والرجع الآتي ، وبشائر الحنين ونسيم
المودة ، وعبق القرب حتى وإن وقع الفراق ، منطوقها لا يشبه منطوق ،
ومخارج حروفها لا مقابل لها ولا مثل ، تنطق كأنها تتذكر زمنا جميلا ، نحن إلى
عمر آمن ، مفقود ، أو تلمح إلى مكان عزيز ، أو غائب عزيز ليس في متناول
البصر ، فن اين لها البحة الأسيانة ، والفيض الشجوني ؟ . رأيت خلق البديل
في البيت ، ولم أعلم أهو اليوم نفسه أم يوم تال . بمفردي ، فأني غائب ، وأمي
لم ترجع بعد ، عبر الهاتف يحنني صوت لور الشفق ، المؤيد السوسني ، تقول لي
أنا « يمكنك ان تجيء وتقضي الليل معي ان شئت » ، أطوى الشوارع طيا ،
ادخل المصعد الضيق ، اضغط المفتاح ، يرتفع محدثا ضجيجا في تلك الهدأة
السكونية ، اقف في الطابق الثالث ، احدث في رقم الشقة ، يرن الجرس مرة

واحدة ، يصنى قلبى الخافق إلى وقع خطاها المقرب ، تفتح الباب ، تقف
بوجودها الأفقى المفتوح أمام وجهى ومقصدى فيلين سعى ، فأخطو إلى
الداخل ، ولأنى رأيت البيت من حيث نشأتى الأولى قبل ان ترانى فلم أركز
البصر على الجدران ، أو صورة المسجد الجميل ، ولأنى ألج المكان أول مرة من
خلال نشأتى الثانية فبدت مترددا ، غير ان تأثير وجودى فى وجودى لم يخف
على ، إذ شعرت شعورا خفيا أننى رأيت المكان من قبل ، متى وأين ؟ هذا ما لم
أعلمه أبدا من خلال وجودى الثانى المحدود ، خلعت حذائى ، وجوربى ،
وجاكتى ، وقعدت عند حافة الحشايا المتجاورة خضراء اللون ، والى تشكل
فراشا بجوار الجدار ، بينما جلست على حافة المقعد ، تدس يديها المبسوطتين
المتجاورتين المتلاحقتين ، براحتيهما بين ركبتيها ، سألتنى « تعشيت » ، أو مات ،
وكنت انظر إلى الطاولة البسيطة المثقلة بالكتب ، والأقلام ، والصناديق
الصغيرة الممتلئة بأوراق البحث ، إنها تجلس هنا إذن ؟ ، تخلع قبصها الأحمر
النبيذى ، يفصح جسدها عن ألقى خمرى مطعم بحمرة ، وكثفين مستديرتين ،
أرى عنقها بأكمله من المنبت ، تمد يدها إلى الخلف ، تفك المشد الأبيض
الشفاف الرهيف ، ينفر نهذاها كالنبا العظيم أو الخوف المفاجئ ، أما الحلمتان
فهمستان ورديتان ، دائريتان ، سحيتان ، دالتان مدلتان مومتان ، نضاحتا
الهوى ، أرى عريها مكتملا فتم أركان الحقائق ، وتنجل المعرفة ، اسعى حوله
بنظرى واطوف فلا تبدى خجلا ولا تدارى ، بل تقبل علىّ ، تساعدنى على
فك قبصى ، تمسح شعرى ، تدللنى ، تهدهدى ، فتعيدنى إلى سيقى الأولى ،
أحيطها وتحيط بى ، اقبلها وتقبلنى ، أرغب فى ان تظللنى أنفاسها من كافة
جهاتى ، وكلما حننت عليها ازداد حنانا على روحى ، أما من جهة وجودى
المنقوص ، حيث أنا رأس بلا جسد يسعى على قدمين ، كنت متفرقا بين مشاعر
شقى ، أرقب سرعة تطور ما يجرى ، فما بين وقوع عيني عليها أول مرة ، وما بين

تقيل لها عند ضفة النهر سبعون ساعة ، وما بين ضمي لها واكتمال عمرنا سبع ساعات زمنية ، وهذا لم يتفق لي مع كل اللواتي هفا إليهن قلبي وحبا ، إني أمام شيء جديد على بحكم وضعي القديم ، حتى أنني ارتبكت ، وسرى اضطرابي هذا إلى وجودي بين أحضانها فلم يتم أمرى بعد أن كنت عفا ، تقول لي « دغني اساعدك » ، غير أن ميراثي الشرق أبي واستكبر ، تقول لي « تعال إلى جوارى ، أرغب أن اكلمك ، اسمعك ، وتسمعني » ، أضحك مداريا خجلى « حدث عطب فني » ، انفصل عنها ، وهكذا حال هذه الحياة الدنيا ، اتصال يعقبه انفصال ، تلاق وتفرق ، فسيحان من له الدوام وحده ، من ناحيتي تحرك أمر غامض في قوادى ، لم أدر كنهه بداية ، لكنني لما أطلت النظر إلى العناق والمهامسة ، أدركت أنني أغار عليهما منى مع أنى أنى ، ولأن الغيرة لاحت واسفرت فقد وعيت عشقي لها وبداية تحركه ، حتى تمت أن أكون أنا هو مع أنى هو ، وهو أنا ، وددت لو أن قلبي معى في صدرى ، فعلامه الهبة خفق القلب ، حرت في أمرى ، فشغلت نفسى بالطواف بها ، تعجبت إذ تبلغ النشأة الإنسانية هذا الحد من الكمال والدقة ، والرقه ، سهرت عليها بعد نومها ، رأيت وجهى متعبا ، غير راض ، لأننى لم أتم ما بدأت . حتى ظننت بنفسي الظنون ، وحرت فيما ستظنه عني ، غير أنى أقول الحق والحقيقة ، فلم تشعروا أبدا بضيق أو حرج ، لم تبد لي ما يحمل المكروه بصيغتي ، تأملتني بالنظر الجميل ، رغبت في توصد ذراعى ، ظنت أننا سنضطجع على السرير في الحجرة الداخلية ، غير أنها لثمت نفس للكان قمدنا فوق الحشية وأحاطنا ليل عقيم من الأصوات ، كنت يحوارها ، وكنت أتمنى وأذوب شوقاً لأرقد على مقربة منها ، اضمهما أو تضمنى ، مع أنى طيلة وجودي البشرى لا أطيق اقتراب انقاس مخلوق منى ، إذ عندما ألج النوم أفضل الوحدة والانكاش والانطواء حتى لتلامس ركبتي صدرى ، طقت بقضاء الحجرة . حططت برأسى في

متناول أنفاسها ، أتلقاها على وجنتي فأنثني واكمل وأنا متقوص ، أنى لى
بذراعين ، وساقين وصدر ادنيه من صدرها ، وقلب أسمعها به خفتى ، أنى لى
ذلك ، شغلت بها النفس عنى فلم أكف عن الطواف حولها ، بدا لى استسلامها
للنوم مزهريا ، وسنيا ، همسيا ، نجوميا فى البعد السحيق ، عند الفجر انتهت
إلى اقتراب شيخى الأكبر منى ، فتأدبت وأنهيت الحملقة ، ولاحظت بطرفى
الكليل أنه يقبض على قلبى المصروع فى منديله بكلتا يديه وليس بيد واحدة ،
وأنا فى مواجهته اخجل من نفسى خجلى الأول من أبى ، لم أتحدث إليه مرة
واحدة فى عمرى عن امرأة عرفتها ، أو عشقتها ، أبدا ، وبعد ان فتحت بيتا ،
وفى زياراته القليلة إلىّ ، وعند انصرافه يدعولى « متعك الله » ، فأشعر بظل من
خجل ، تلك بقايا النشأة الأولى التى اندثر وما عادت ، بل ولت بلا أمل فى
الرجعى ، وكل يوم يمضى لايزيدنى إلا بعدا ونأيا ، لذا حق لى الحزن ليس لأن
كل مفقود نفيس ، وكل مستحيل مرغوب ، وكل عزيز غائب تحن إليه النفس
وتهفو ، بل ، لأنها آمن أيامى ، هذا حق أقرب به وأغيه فى صحوى ومنامى ،
وهذا من لطائف منته على ، قال لى شيخى الأكبر ، نفعنى الله ببركته وغزير
علمه وزاده حرصا على سلامة قلبى القابض عليه . قال لى ..

- ذكر إنما أنت مذكر ..

قلت :

- لست على نفسى بمسيطر ..

قال :

- ارفق ، ولا تنس أنك أنت هو ، وهو أنت ..

مع بدء حديثه صار السكون أعمق ، وانفاسها لا تسمع ، أرى صدرها
يعلو بشهيق وينخفض بزفير ، وكنت قد أغمضت عيني ونمت ، أما عناقنا

فلطيف ، كثيف ، ويبدو أن رقدتنا وبدء هيامى دفعا شيخى الأكبر لى
 التبسط معى ، قال لى - وصوته عبق بالوجد - ان الحقيقة تجلت له فى زمن
 قصى ، وكان مجاورا وقتئذ بمكة ، وكان لشيخ من أصحابه بنت عذراء ،
 طفلة هيفاء ، تقيد النظر ، وتحير المناظر ، تسمى بالنظام ، وتلقب بعين
 الشمس والبا ، من العلامات الزاهدات السابحات ، شيخة الحرمين - ساحرة
 الطرف ، إن أسهت اتعبت ، وإن أوجزت أعجزت ، يتيمة دهرها . عالية
 الهمم ، قال لى إنه نظم فيها بعض خاطر الاشتياق ، فأعرب عن نفس
 تواقه ، ونبه على ما عنده من العلاقة ، اهتماما منه بالأمر القديم . وإثارا
 لجلسها الكريم ، فكل اسم ذكره فعنها كان يكفى ، وكل دار نديها فدارها
 يعنى ، قال لى إنه نظم فيها قصائد رقيقة جميلة ثم اضطر لشرحها ، ذلك ان
 بعض فقهاء حلب انكروا ما فيها من أسرار إلهية ، قال لى ، إن المنكرين لما
 سمعوا شرحه ثابوا إلى الله سبحانه وتعالى ورجعوا ، قال لى شيخى الأكبر بعد
 اطراقة . فتدبر يا جمال فيما تمر به ، إن ما تشهده لم يشهده أحد قبلك ، وما
 تشعر به لم يطرأ على قلب غير قلبك ، ولا تظن أن الأسرار كلها تكشفت
 لك ، فاكل شىء تبصره تفهمه ، سكت ، وكنت فى رضا ، واطمئنان ،
 ورغبة لا تحد فى الافضاء بكل ما عندى وما فى سريرى إليه ، ذلك أنه رفع
 حجاب الكلفة وخاطبني باسمى مجردا ، وراح لى بالهوى القديم ، فوددت
 البوح بمكنونى ، وهذا مخالف لطبيعتى ، ذلك أنى صموت ، كتوم ، اجارى
 من أواجهه وأنا راحل عنه ، أقيم مع من يصاحبنى وأنا بعيد ، ألم أخبركم من
 قبل أحباتى واخوتى فى الطريق أننى راحل أبدا ، فلا استيطان لى أصلا فأنا
 مستوطن بلا وطن ، ومقيم بغير سكن ، غير أن طبعى هذا تبدل ، معى حسنى
 ومع من أحببت ، خاصة هذه البنية ، فخصالى فى نشأتى الأخرى متشابهة إلى

حد بعيد بما أنا عليه في وجودى الأولى ، ومن ذلك قلة حليقي حتى في
افضالى ، واستارى ، حتى ان أمى الثانية كانت تضربنى على يدى وتقول لى
« آه لو أعرف فى أى شىء تفكر؟ ، أو تصيح فجأة ، انطلق ياأخى ، أما
أمى أنا ، أم نشأتى الأولى ، فكانت تفهمنى بالنظر ، وتدركنى بالصمت ،
تواجه ساكنين ضعرف عنى الكثير ، واعرف عنها القليل ، وإذا أودعها عند
سفر أو بدء غيبة ، تفرق ، فلا تتبادل القيل ، لا تتعاق ، ولكن جسر
القلبين سليم ، وبحر الود جار متصل ، كنا حلى مع أبى ، أما أمى الثانية
فتقبلنى فى الغدو والرواح ، تتادبنى بالتليل والتصغير ، وتطلب منى ان
اطمئنها على مكانى ، لأن انقطاع خبرى عنها يربك أحوالها ويرجع قوادها ،
ويشغلها عن عملها ، وتقول لى دائما إن عملها هذا مصدر أماننا فى الديار
الغريبة ، وان أحوال أبى لاتطمئن أبدا ، تريد ادخار شىء للزمن يؤمننى ،
تخشى ان يقلعها مرض ، أو حادث مفاجئ ، ربما يشط أبى شططا ، فنذ
ابتعادنا عن مصر ، وانقطاعه عن الشعر ، تشعر أنه يعيش معنا حياة مؤقتة ،
وأنه قد يهجرتنا يوما ، فهل تدعى أواجه الحياة بمفردى فى الغربة ، لايمكنها
تخيل ذلك ، فما البال لو وقع ؟ ، فى عصر يوم غارب سألتها ، لماذا لا ترجع ؟
قالت لى ، هل ترضى السجن لأليك ؟ ، ثم قالت ، هل تقبل له ان يعمل
معهم ؟ ، ثم قالت ، كيف نرجع وهذا العلم الغريب يرفرف ؟ قلت لها ، لماذا
لا نرجع ونلقى به ؟ قالت لى ، وهل نقدر ؟ ، عندئذ استأنفت صمتى ، وهنا
علمت أن كل ما عرفته عن أمى الثانية كان مادة حلمى وصورة فى رقتى
بجوار لور ، ويبدو ان امرا قتيلا نفذ إلى رؤاى ايقظتى ، وهنا احتجب عنى
شيخى وممسك قلبي ، نظرت إلى نفسى ، اخضع عنى وأثر الرؤيا فى انفاسى ،
حتى اتنى تحتت إلى أمى حنينا قويا ، أتأمل الوجود المجاور لى ، الساكن

الحى ، هدوء نومها المحتوى لحيوية جسدها متالى الاستدارات ، متاسق
النسب ، نحول الخصر ، واكتمال الردفين فى غير افراط ، وانبساط الساقين
ورشاقة أصابعها ، ا تذكر تمثال مدام ريكاميه ، كأنه اتخذ وضع النوم بعد
سريان الحياة فيه ، تنقلب فتولبنى ظهرها ، الأمس مفرق ردفها بجسمى
فتدب عندى حرارة واشتياق عظيم ، برفق اتخلل شعرها بأصابعى ، أقبل
كفها ، تستدير إلى ، على مهل تطفو تجاهى قادمة من أغوار النوم ، تقبلنى
وأقبلها ، آخذها وتأخذنى ، اتجاوزها وتتجاوزنى ، نتحد ، تغمض عينيها
لكننى أبقي عيني مفتوحتين ، ارقب ميلاد النشوة ، وانفراج الشفتين بعد تيسر
الأمر ، أما أنا فى وجودى الأول ، فقد كنت منفصلا مع أنى متحد ، هى
قريبة منى ونائية عنى ، اقتربت منها ومنى ، مررت بينها وبينى ، رأيت متعتها
ومتعتى ، تمنيت لو ألقى مكافئ ، لو احتويتها بدلا منى ، لو اخطتها عنى ، لكن
أنى لى ذلك وأنا ناقص غير مكتمل . تأكد عندى فى لحظة الاندماج القدسية
أننى أهواها ، وأن هواى بدأ عندما رأيتها وحيدة فى حجرتها قبل ذهابها إلى
مسكن صاحبها ، قبل بدء غنائها ، قبل ولوجها قلبى الثانى ، ضقت منى ،
وأحطت نفسى بنظراتى ، ففرغى ذاتى ، ومنافسى هواى ، ومن أخذها عنى
هو أنا ، ومن احتواها شخصى ، احطت وجودى الآخر بنظراتى وأنا كاره
لى ، مستغفر منى ، ولما لاحظت اقترابها من ذروة الأوج ثبت بصرى فسمعت
تأوهها المضموم ، ورأيت انتفاضة جسدها كأنها زلزلت زلزالا ، رأيت نضج
اشتياق وكمال متعتى ، كنت أرى للثق ولا أشعر بها لغياب جسدى عنى ،
وتوزعه وتشتته ، رأيت يديها تسبحان فوق ظهرى ، فذكرتنى اصابعها بترقق
ضوء القمر عبر فجوات الغيوم ، يتم رسوبنا وينتهى سفر كل منا عبر الآخر ،
تتمدد هادئين ، يحتضن كل منا الآخر . ارتاح راحتين ، فراحة من حيث أنى

فرغت واصلحت عطلي ورتقت فتق الذي كان أول الليل ، وراحة أخرى لأن ما أثار غيقي منى قد انتهى ، غير أنى لم تمض دقائق معدودات حتى شرعت اطلبها مرة ثانية ، دهشت ، ضقت ، حام رأسى فى فراغ الغرفة حتى كدت اصطدم بسقفها وقطر دمي ، غير أنى عللت الفرق بينى وبينى ، فوجودى الأول يقترب من الأربعين بقلب معطوب وجسد مشخن بجراح زمن السوء ، أما وجودى الثانى فلا يزال غصبا ، لم يتجاوز العشرين ، دقت النظر فى الفروق بينى وبينى ، قامتى الأولى أقل طولا ، غير ان جبهة رأسى اعرض ، وقضيبى الأول أطول قليلا ، فسرنى ذلك واراخنى ، أما يدي فنبسطة ، واصابعي فنحيلة متناسقة ، ويدي عريضة وأكثر امتلاء ، وكانت بشرى سمراء قحبة ، أما بشرى هذه فيضاء وشعرى بنى غدير ، أما شعرى الأول فأسود خفيف ، تساقط معظمه ، عند بلوغى هذا المقام ، وأوشكت صلمتى ان تكتمل ، امعن النظر وأنا ألج كونها للمرة الرابعة ، كأن وجودها ازداد تركيزا ، اقتربت اطرافها وصارت كلا مدملجا ، تفرغ ، تطلق آهة ، ينكفى رأسها جانبا ، أقول « تعبت ؟ » ، تولى وجهها تجاهى ، « الحب يربحنى » ، كأن التعب أضفى على صوتها وراحتها كثافة ، أصير إلى عقب منها ، اتخلل شعرها مرارا ، التفت فجأة ، تقبلنى ، أنحدر ، اتهدد ، من ناحية أخرى ضقت إلى الذروة بما بينى وبينها ، إذ تعاظم حرمانى وارتوائى معا ، حرمان لأنى أنا لست أنا ، فأنا الفاعل والمحروم من الفعل ، بل أتمناه ، أفرغ من وصلها لحامس مرة ، مهدود ، متعب ، متش ، بينا الفرحة عظيمة ، والرضا أتم ، هى تستلقى ريانة ، مسقية ، ساقية ، متوردة ، تنفرج شفتاها انفراجا خفيفا ، يبدو ما بينهما كاتصال النهر بالبحر ، عند المصب ، أقوم لأتناول منديلا ورقيا اجفف به عرقها قبل عرق ورضاها قبل رضاى ، تنظر

إلى ممتنة ، مكتملة الازدهار ، يطلع الفجر علينا ، ننظره عبر الستارة
المسدلة ، وثنايا متعتنا ، في الضوء العذرى نجلس متواجهين ، عرايا تماما إلا
من صدقنا ، تتطلع إلى ، واتطلع إليها ، ارغب في الاحاطة بكل شيء عنها ،
وفوق كل ذى علم علم ..

فصل في وصل ..

.. تتطلع إلى ، وانظر إليها ، وإذا بي أفاجا في وجودى الأول بأننى أنا
هى ، انظر بعينها إلى ، وأفكر بمنطوقها فى ، أنا في نظرها مضى ، حى ،
أبدو أجمل إذ اتخلص من إطراقتى واكتئابى ، خاصة بعد أن تم الشيع
والرى ، عندما كنت أدفع بنفسى داخلها أميل برأسى ، أتوسد كتفها فتلمسنى
بكفها ، سرها هذا كثيرا ، وسرت أنا أيضا ، فتلك المرة الأولى التى أرى
نفسى بعينى أنثى ، كنت لدهشتى أشعر بلذتها ولذتى ، فأنا هى ، والفاعل
والمفعول واحد ، والمكتون والمكتون فيه واحد ، والمعطى والمتلقى واحد ،
وكثيرا ما سألت نفسى ، كيف متعة الأنثى ؟ اتشبه متعة الرجل ، ذلك أنى
خبرت متعة الذكر ، ورأيت آثار نشوة الإناث على وجوههن ، لكننى فى هذا
الفصل وقفت على مالم يقف عليه غيرى ، واحطت بما لم يحط به قبلى رجل
وامرأة ، إنها تردد كلما اطالت النظر إلى ، لكم هو حنون ، كم هو رقيق ،
اثناء المطر مد مظلمته وترك القطرات تبلله ، لكم يمكن اساءة فهمه ، سررت
لأن هذا خبىء طبعى ، ولكم غائيت يا صحبى من سوء الفهم عند
الآخرين ، غير أن ما حيرنى توقفها المتأنى عند يقينها أننى أخفى أمرا ، وأن ظلا
غير مرئى ورأى ، واننى بقدر ما أبدو مرحا بقدر ما أدارى شجنا يفوق

الشجون ويتخطى مدى عمرى الغض ، ويقدر ما أبدو قتيا بقدر ما أضمر شعورا بالهرم ، وكلمة حدثت الىّ ، ازداد يقينها أننى أصحب ظللا غير مرئى لآخر ، حرت من ناحيتى فى سر ذلك ، لكننى عللته بوجودى الأول المصاحب لوجودى الثانى ، فلا بد ان اطلالتى عليها تلقى ظللا غير مرئى ، ألا يفاجئنا - ونحن بمفردنا - شعور مهمم بأنه ثمة وجودا خفيا يجاورنا أو يصحبنا ، ونحن لا ندرى كنهه أو طبيعته ، تطرق ، تنظر إلى الأرض ، تقول لنفسها إنه يشبه أباه ، فأضطرب الاضطراب الأعظم ، واتساءل ، أى أب تعنى ؟ أنعرف أبى وأنا جهول لا أدرى ، وعند هذا الحد انتهى الفصل ..

عودة إلى الوصل الرابع من هذا المقام

.. أقترح ان نقابل النهار فى الشارع ، ان نتناول إفطارنا فى مقهى قريب تحبه ، تبدى حساسا ، تهفص ، تعبر الصالة ساجدة فى أنوثتها وبهاثها ، قبل خروجنا استفسرت عن مكان نومها ، وجلوسها ، وساعات عودتها ، وبقائها هنا وانصرافها ، وميعاد إغاض عينها للنوم ، والموسيقى التى تعشق سماعها ، والموسيقى التى تحزنها وتشجيا ، والموسيقى التى تهيجها ، والأغنيات التى تصحبها ، وعن الكاتب الذى تأنس إلى عالمه ، وعن زجاجات الدواء التى لحقتها عندما دخلت لأغسل وجهى فوق الرف الزجاجى ، وعن أوقات نزهتها ، والحديقة التى ترتادها ، وعن آخر مرة سافرت فيها إلى موطنها الأصلى ، وعن مرات اتصالها بشقيقتها المقيمة فى أمريكا ، وأمها المصرية على البقاء فى بيروت وتأبى مفارقتها ، وعن الجريدة التى كان يمتلكها أبوها ، وعن المرض الذى ألم بها بعد رحيله ، وعن المستشفى الذى عولجت فيه ، وسألتها

عن طلائع الليل الداجي في عينيها ، وهذا الغمام في نظراتها إذا استفسرت عن والدها ، هل آلتها ؟ قبل خروجنا قبلتها ، فاستكانت إلى ولاصقت برأسها صدرى فرغبت التلاشى هنا ، بين مقام قلبها وقبلة عينيها ، نترل السلم المغطى ببساط أحمر قديم ومثبت إلى الدرجات بقوائم نحاسية ، الشارع رمادي والسماء رمادية والصباح يروى الأشجان الأولى ، المقهى فتح أبوابه ، والمناضد صفت والبخار تصاعد من أوعية غلى القهوة والشاي ، زجاجي الواجهة يشرف على ميدان صغير مبلط بالحجارة القديمة ، من خلاله أرى الشارع الذي تسكنه بأتمة ، شارعاً آخر مجاوراً ضيقاً ، على جانبيه دكاكين لبيع الخضار ، واللحم ، والحلوى ، شرق المظهر لذا حنت إلى أسواق قاهرى القديمة ، وتحرك اشتياق إليها ، تقول لى إنها تحب هذا المقهى في ساعات النهار الأولى ، وتأمل السوق لأنه يذكرها بمدينتها ، يبدو عليها أسى ، تعجبت لتشابه المعانى والخواطر ولم أصرح ، خفت ان تظن في قصدى الجاملة ، كنا نجلس بقرب الباب ، وكلما دخل داخل أو خرج خارج ، تدفقت لفحة هواء بارد غير أنى لم أبال ، فهذا مقعدها الذى تحبه ، ومنه تتابع الطريق ، والمارة ، والمطر ، وندف الثلج ، والمظلات في أيدي المسرعين ، وحاملى باقات الورود ، وأرغفة الخبز ، والحاجات البيتية ، والممسكات بأيدي اطفالهن ، والمتعبين والحيارى من أبناء السبيل ، بعد مدى من إطراقة حزينة اشفقت خلالها عليها ، تقول لى أنا إنها كادت تجن بعد رحيل أبيها ، وأنها هامت أياما طويلة في الشوارع والطرقات ، عندئذ ضغطت بوجودى الأصيل على وجودى البديل وسألت بلسانى عبر لسانى الثانى وهذا مسموح لى به ، « وكم استمر حزنك العنق ؟ » ، تقول « عامان » ، تصمت ، ثم تقول لى إنها خلال الشهور الأولى التى تلت رحيله لم تتخيل يوما

أنها ستمتق وتسافر وتمتع بلون الضوء وبجىء اللغه وتتعري لأشعة الشمس ، لكن الزمن ...، فهمت عنها بوجودى الأول ولم أدرك تماما بوجودى الثانى ، تقول قبل شروعى فى النطق ، إنها كانت تمشى فى الطرقات تبحث عنه بين الوجوه فلا تجد ، وتتوقع ظهوره فجأة عند المنحنيات فلا يبدو ، وتتوهم ان قامة هذا تشبه فتهرع لكنها تتردد خائبة لمرأى الملامح الغريبة عنها ، وعند لحظة معينة لا تدرى متى على وجه التحديد ادركت أنه فارقتها إلى أبد مجهول ، إلى سر دفين لا يمكن الافصاح عنه قط ، صار هذا الخطر يقاها فتتوقف أثناء مشيها ، وتمشى إذا كانت واقفة ، تقوم إذا كانت جالسة ، وتبعد إذا كانت واقفة ، فلا المشى هداها ، ولا الجلوس اراحها ، ولا الاضطجاع خفف عنها ، ولا الرحيل سلاها ، سكنت ، وهنا قوى تعلق بها وازداد من ناحية وجودى الأول ، فكلاهما يتيم الأب ، وهى كأنها تروى عنى ، تقول إن الحساسية بدأت فى رثيها ، اضطرت إلى دخول المستشفى ، التقت بالرجل البولوى ، كان وحيدا فى تلك المدينة ، والبلاد ديار غربة له تماما مثلها ، عندما رأته سعت إليه ، كان قد تجاوز الستين ، كثيرا ما توسلت صدره ، كانت العقاقير المهلثة متمكنة منه ، ولم تكن تطلب منه ما تطلبه الأنثى من الذكر ، لكنه كان يبنى ، وحتى لاتغضبها كانت ترضى ، وتستسلم وتحاول مساعدته ، وفى كل مرة تقول له إنها لاتريد منه هذا ، لاتتشدد إلا الصبحة ، فينهرها ، ثم ييكى متعبا ، ويقول إنها أشبه بامرأة تمتلك مقدارا كبيرا من المال ، وتحتاج إلى شراء القليل ، وهو لا يمتلك شيئا ويتقصه الكثير ، تقول إنه يتصل بها أحيانا ، وانه ييكى ، وسدد بالانتحار ، ثم يرجوها أن تسامحه ، وأن تغض ، أقول والغيرة تنشب مخالبها فى أغوارى ، هذه علاقة ضارة ، بل خطيرة ، نجيبى بلسان غريب ، لغة هذه البلاد التى

أجهلها ، جاوبتها من حيث وجودى الثانى ، ولم أفه قولى بوجودى الأصلى ، فضقت لذلك ، وتمنيت لو تبدلت فحللت محلى وشغلت مكانى ، غير ان ذلك عسير ، تعود إلى الاعتصام بصمتها الذى بدأ يحيرنى وان استعذبت ، فى اطرافها معنى ، وفى تيهها أدلة ، وفى جلسها الصامته تفسير كامل وبرنامج أوفى ، تمنى إلى ابيا وتأسو ، انتبه فى وجودى الأول والأصلى ان غيبى طالت ، واتى منذ مدى ، منذ ان بدأت هذا المقام لم أره ، لم أر أسمى ، والغريب ان حنينى إليهما صار متساويا ، متلازما ، فماذا جرى ياذا الجلال والإكرام ، تقف إلى تجلى أبى لى ، إلى أسمى ، إلى أصلى وفصلى ، لمت نفسى إذ انشغلت بلور ، حتى أخذتني من مقصلى ، وتساءلت ، أهو اكتمال النسيان ، أهو الموت التهاى والأبدى لمن أحبيت ، ولن خرجت إلى تجلياتي من أجله ، تمنيت العودة إليه ، مع أن تعلقى بلور عمق وتأصل وتمكن ، الوحشة ادركتني ، والذنب اقضى ، لكن ألقى فى معارفى ان هذا المقام لم يته بعد . واتى سأنتقل إلى طور جديد ، لن أرى فيه الأمور فى تسلسلها ، إنما سأراها فى تجمعها وتجاورها ، فتأهبت كارها ، وحسبى الله هو نعم الوكيل ..

الوصل الخامس من هذا المقام

.. يقول استاذى أبو حيان ، وهو من شيوخى فى الطريق ، ومن أدق إلى الغاية ، وهو من الأجلاء القدامى الذين اضاءوا لى اللُجى ، يقول - رحمه ربه - إن النفس وان كان متصلا فإنه مرتد ، والزمان وان كان متصلا فإنه منفصل ، والوقت وان كان مساعدا فإنه خاذل ، والكتوم وان كان جلدا فإنه باذل ، رأيت أبا حيان عند انتقالى من الوصل الرابع إلى هذا الوصل

المبارك بإذن الله ، وكل ما حولي عدم محض ، وعندما هممت باللحاق به للحديث إليه والاستفسار منه والأخذ عنه ، انتهنا في آن واحد إلى ظل الشيخ الأكبر فأحجمت وسكنت وذهب عني أبو حيان ، اختفى شيخى القديم كما ظهر ، عدت إلى وحدة وخواء ، حزنت على نفسى . إذ سأغمض عيني يوما ولا افتحها قط ، كما أغمض عينيه أبى ، وجمال عبد الناصر ، ومازن ، وإبراهيم ، وخالد ، وكل صحبى الذين راحوا ، فالنا من شافعين ، ولا صديق حميم ، لكم رجوت واملت ان يتأخر مغيب شمسهم ، وألا تنطوى ظلالهم ، كما أدعو وارنو إلى بقاء شمسى ، ونأى ليلى ، هكنا جثت هذا الوصل بفؤاد كائى ، وفكر حزين ، ودمع على أهبة ، ليس ذلك والله العظيم لأنى ذكرت غيابى ورحلى قبل أوانه فى حين آخر مقدر . فأننا موقن الآن ان الموت هو اكتمال الدائرة الكبرى ، وكلما طويت عاما من عمرى وولجت عاما آخر - لا أدرى ان كنت سأتمه - قل خوفي منه ، وخفت رهيتى ، وشجبت حيرتى ، كمن بلغ من العمر آخره - مع أنى مازلت شابا عفيا لكنه زمن السوء - يودع أحبابه ، ويرثى أصحابه ، فإذا خطر له الموت بدا له فى رحيلهم هم عزاء له ، يقول ، لقد سبقونى ، وهل أنا أفضل حالا ، أو اعز مآلا ، أبدا يا إخوانى ، إنما اكتئابى وغيمتى لأنى ذكرت أحبابى وهم كثر ، وعيت وادركت أننى بمنأى عن الكرام الأقربين ، وان المدى يتسع ، والوقت يطول ، والزمن يساعد على النسيان ، وكما نسيت اليوم تنسى ، فسبحان من له الدوام ، لما حامت هذه الحواطر عندى وأحدثت بترائى ، وبددت اطلالتها بعضا من مدخرى ، لاح انزعاجى ، عند هذا الحد ظهر شيخى الأكبر ، قال لى : لا تحزن ولا تحزن ، ثم قال لى ، ان الهم يولد كبيرا ويصغر كلما دام واستصعبه الإنسان هان عليه ما يجده ، ثم قال لى :

كنت انقطعت في القبور مدة منفردا بنفسى فبلغنى أن شيخنا يوسف بن خليف الكرمى قال فلانا وسمانى ، ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الأموات ، فبعثت إليه ، لوجئتى لرأيت من أجالس ، فصلى الصبحى ، وأقبل إلى وحده ، فطلب على ، فوجدنى بين القبور قاعدا مطرقا وأنا أتكلم على من حضرنى من الأرواح فجلس إلى جانبى بأدب قليلا قليلا فنظرت إليه فرأيت قد تغير لونه وضاق نفسه فكان لا يقدر يرفع رأسه من الثقل الذى نزل عليه ، وأنا أنظر إليه واتبسم لما هو فيه من الكرب ، فلما فرغت من الكلام وصدر الوارد ، خفف عن الشيخ واستراح ورد وجهه إلى قبل بين عيني ، ثم قال لى شيخى الأكبر ، لا تحزن فأنت تدنو. قلت بالنظر ، ممن ؟ ، قال بالنطق : من الأمر. فلم أدر أى أمر ادنومته ، أو أى أمر ابتعد عنه ، تبسم قائلا : ثم إنك شغلت ، فتساءلت بالنظر أيضا ، بمن وعن من ؟ ، فضحك وقال ، الدنيا ! ، ثم رحل عني وأنا فى حيرة وفكر ، وانتبهت إلى وجود لور أمامى ، ثم رأيت لحظات اللقاء كلها ، انتظاري أمام الكنيسة العتيقة ، احرص دائما على التذكير عند ذهابى ، تجمىء فى موعدها تماما حتى أدهش ، كيف تتوافق مع مواعيد المواصلات ؟ تقبل من ناحية النهر مبتسمة ، أباعد ما بين ذراعى ، ألثم وجنتيها ، تقبل خارجة من الكنيسة ، تقول إنها جاءت مبكرة بضع دقائق فشغلت الوقت بالفرجة على القاعة الداخلية ، تقبل من ممرات الحديقة ، تعبر الممر المفروش بأوراق الشجر الأصفر المستوطنة بالخريف ، أراها من الرصيف الآخر ، ألوح فتلوح ، اخالف المحظورات ولا أخشى العواقب ، افقر من الرصيف ، عبر قضبان القطار السوداء الممتدة ، تصبح امرأة عجوز ، إن ما قت به خطير جدا ، تقبل على أمام دار السينما ، تعشق هذا الفن ، تجيشنى أمام المتحف الرئيسى ندى الواجهة الحجرية القائمة المزينة بالمنايل ، تأتى إلى

المقهى ، من وراء الواجهة الزجاجية تعبر الطريق وحققتها القماشية معلقة إلى كنفها الأيسر ، عبر الطريق المؤدى إلى بيتنا ، لم انتبه عند عبورى الطريق أنها تقف على الناحية الأخرى ترقبني ، أصبح ، لور ، تبتسم ، هذا لقاء الصدقة الوحيد بيتنا ، وتحملت حالى لو أننى لا أعرفها وهى لا تعرفنى فنعتبر متجاورين لومضة ، قد لا تلاحظنى ، وقد تلفت نظرى بوجهها وقسماتها ، ثم أمضى ، خفت أن يكون ذلك ، أراها تحمل باقة تضم سبع وردات قرنفلية ، يللم سيقانها النخيلة ورق مفصفض ، ألهمها- من النافذة تقف أمام البيت ، اليوم أحد والحارس لا تفتح الباب لطارق ، وتقطع الكهرباء عن القفل ، اخف حتى أوشك على السقوط فوق الدرج ، أنا بمفردى وقد دعوتها لأول مرة ، لرؤيتها عندى نعيان : فنعم ظاهرى ابرزه بصياحى أو ضرب الجراد من جدار أو سيارة واقفة أو ما شابه بقبضتى ، أو اخلع جاكيتى فى الصقيع ، ونعم باطنى استشره ولا أفهمه ، أدركه فى جملة وليس فى تفصيله ، مهم ، محير ، غامض ، أرق ، أصنى ، وأجمل ، للحظة ظهورها الأولى رجفة ، وراحة فى روحى ، أحرار فيها وكيف تبدوا ، أحرار فى النشاطين ، الأصلية والبديلة ، لكننى أقول ، من رغب منكم يا صبحى فى تحيلها ، فليُنظر أطراف الغصون المائلة إلى مياه النهر ، أو إلى السماء الشفقية فى موطنى الصحو ، فكأن اللحظة الشفقية انتشت صورة جسدية ، أو فليُنظر إلى قطرات البلال والندى على النوافذ المزخرفة الحديدية للمساجد العتيقة فى الأصباح الربيعية ، أو ليوبلى الوجه شطر وميض النجمة الأولى ، طليعة كل الأفلاك الليلية ، وإذا لم يكن فى الامكان النظر فليستعد لحظة حنان نائية ، وإذا تمرر هذا وذاك ، فليحاول بالفهم ادراك مقام الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر ، وتوسيع الضيق ، والكف عن السؤال ، وانتهاء الترقب ، حدث يا إخوانى ان انتظرت

ظهيرة يوم اقبالها علىّ ، كان الموعد بجوار النافورة القديمة ، حيث عروس البحر تصب المياه من يديها على حبيبها الأوفى المستسلم الراضى ، بينا جنيات البحر يقبن ويباركن ، تجاوزنى وقتها المحدد ، وهذا مخالف لطبيعتها وعاداتها ، تطلعت قلقا ولم تكن بين الساعين ، انتظرت ، نصف ساعة ، ساعة ، ساعتين ، وعند اكتمال الثالثة ادرك ساقى خدر ، وملاحي تقطيب ، وغطى فكرى عبوس قطرير ، لم انصرف ، ولما دنت الخامسة وزاغ البصر رأيتها تجرى ، تجرى ، وترتمى بين ذراعى لاهثة تسعل ، فلم انطق ولم تنطق ، وبقينا متعانقين مقداراً لم أدر مداه ، تلك المرة الأولى التى تأخرت على ، ها هي ذى قادمة ، تسألنى أن نمشى على الأقدام إلى المناطق التى ترتاح إليها فى المدينة ، تصحبنى إلى قلب الحى القديم ، إلى شاطئ النهر ، تشير إلى مقعد رخامى تلجأ إليه إذ تمتص بوحلتها ، وتودع نظرها تفرق المياه الهادئة ، تصحبنى إلى الحديقة الملكية ، تستظم الأشجار حول المكان ، تتوزع المقاعد الخشبية ، الممرات مفروشة بالحجارة الملونة ، نافورات صغيرة متباعدة تستظم حول نافورة كبيرة تبت مياهها فى الفراغ العذب ، تحدثنى عن رسالتها العلمية التى قاربت على الانتهاء منها ، الحديقة على مقربة من المكتبة المركزية ، تلجأ إلى ضوئها وهلوئها بعد ساعات تقضيا فى القاعة الرئيسية ، بكل بصرها وتجهد عينها فتريحها هنا ، تقبل علىّ فى نفس ملابسها التى رأيتها فيها أول مرة ، هكذا رغبت ، اطلب منها ان نمضى إلى مطعم تفضله عن غيره ، تتردد خشية أن ترهقنى من امرى عسرا ، ألح ، فقصصدها مطعم قديما ، يقدم أطباق الزمن الآفل ، يستقبلنا عند بابه رجل يرتدى زى فارس من قرن وسيط ، ينحنى للداخلين ، نجلس متجاورين والمتناضد من براميل الخشب المعتى ، والسقف دائرى ، والأرض من حجر ، وعلى الجدران مناظير بحرية ، وخرائط

بالية ، وقبعات ربانة ، ويقايا شباك صيد ، أما النيذ فجيد ، والطعام
فشهى ، والزمن موات ، رأيتها مقبلة وكنت أقف تحت الساعة التى توقفت فى
أعنف غارة جوية شنت على المدينة خلال الحرب الكونية ، وتركت تشير إلى
الواحدة والربع كتذكرة ، هاهى ذى نجيتنى ، ستصحبى لتقدمنى إلى واحدة
من معارفها ، شاب يدرس هنا من بلدها ، نصعد مبنى من ثلاثة طوابق ،
نجتاز ممرا تطل عليه أبواب مغلقة ، فى نهايته باب مطلى بلون قاتم ، نتقدمنى ،
يبدو شاب ذو لحية ، نتصافح وفى القلب هواجس شتى نمت عندما سمعت
حارسها لرؤياه ، ندخل غرفة ، ليست فسيحة غير انها بسيطة ، حوت كل
شئ ، من فراش ، ومنضدة ، وصوان محفور فى الجدار ، وحوض بجوار
المدخل عليه صنبوران ، واحد للماء البارد وآخر للماء الساخن ، وباب
مستطيل يؤدى إلى دورة مياه ، نقعد فوق الأرض ، يجلس هو إلى جوارها ،
يتبادلان المودة ، يمسك بيدها بين يديه ، ولم أفهم كنه العلاقة ، وتساءلت
ببنى وبنى ، كم ساعة قضت هنا ، وهل .. نظرت إلى الفراش ، وضقت
ضيقا عظيما ، رأيتها تدخل مقهى ، وهذا الشاب الملتحي يجلس بصحبة
آخر ، قدمنى هو إليه قائلا : صاحب لور المصرى ، فكلمت عليه ، ثم بدأ
حوارنا حول أهل هذه الديار وطبائعهم وأحوالهم ، وبدت لور راغبة فى قربى
من صاحبها ، استجبت ، وبدأت اتكلم حتى لا أتكلم ، هكذا قدرت من
ملاعى وعرفت ، وتلك طبيعة واحدة فى النشأتين ، والحق اننى لم أعرفها عنى
من قبل ، بل اطلعت عليها فى هذا الوصل ، ومن أصعب الأمور أن يعرف
الإنسان نفسه ، فقد يدرك خبيثة غيره ، ولا يتكشف له ما بين جوانحه ،
فسبحان العليم بما تخفى الصدور ، هكذا أنا .. عندما يفرض العالم على ،
اشاغله عنى بى ، من ذلك إذا ضمنى مجلس وأنا على غير هوى ، أتكلم فى

أمور عديدة ، واستدعى بالفاظى تفاصيل لا حصر لها ، وأنا فى نفس الوقت بعيد ، ادفهم عنى ، واتكلم خييتى ، وقد أدركت لور ذلك مع قصر مدتنا ، فكنت إذا جنحت إلى هذا ، وتحدثت طويلا ، تقول ، لا تشاغل عنى وكلمنى ، هذا ما كان منى فى ذلك المجلس ، غير أن صاحبها الآخر سألنى ، لماذا كف أبوك عن الشعر؟.

وحررت للسؤال المفاجئ ، بدأ صمى ، وإذا به يتبع سؤاله بقوله ، منذ أن فارق مصر لم يكتب شيئا له قيمة ، حاولت لور أن تدفع عنى وجوى ، فدعت الجمع إلى سماع أبيات لأبى ، وانشدتا من الذاكرة ، فدهشت لأنها المرة الأولى التى اصغى فيها إلى ما قاله أبى من فيها ، ولأنها لم تتشأنى شعره من قبل ، وسررت ، رأيت انصرافنا من المقهى عند منتصف الليل ، وأوراق الشجر الأخضر مغموسة فى أضواء النيون السائلة ، ولأن بيت صاحبها قريب من سكنها تأهبت لفراقها ، قرب مدخل محطة المترو إبطأت الخطى لتقرب منى بمنأى عنها ، انبسطت لتراجعها هذه الخطى ، فقد خصتنى ، ولوحت أن ما بينى وبينها يجب اسراره وعدم افشائه امامها .

اراك فى الخامسة ؟ ، نعم ، تقول مبتسمة إنها تعرف أبى ، انظر إليها ، نعم .. معرفة شخصية ، ستحكى لى فيما بعد ، ثم تسرع الخطى فلا يتاح الوقت للانصاح والبيان ، ها هى ذى تصغى إلى وأنا مصرّ على صحبتها إلى بيتى ، احدثها عن أمى ، عن ترحيبها بها ، اسكت لحظات وأقول لها ، ان أبى فى سفر ، فتتظر إلى نظرة مبهمة ، ها هى ذى تدخل ، تلمع الجلاكت ، سلافي الزخرف ، يبدو قيصها الأحمر النيئى ، نجيء أمى مندفعة ، مرحبة ، أرى نشاطها ، وانتقالها من الصالون إلى المطبخ ، لا تدرى ما تفعل ، تروح ونجيء ، تطيل النظر إليها ثم تميل لتقبلها ، أقول لأمى إن لور

ستغنى لنا ، ترجوها أن تغنى آياتا تشدها فيروز :
وفي كل أرض وبكل محلة
أخو غربة منا يكابد مطمعا
كأننا خلقنا للنوى ، وكأننا
حرام على الأيام أن نتجمعا

يتردد صوتها فأنتجه إليها بالنظر والحس وأسى باد علىّ لم أدر مصدره في
نشأتى الأولى ، استعيد الأوقات كلها وأضيف إلى ما تردد في خاطرى عنها ،
فلها من الحركات الاستقامة والانشاء ، في صوتها الامتزاج والمعاني الكوامل ،
وفي حضورها الانفراد ، طبعها الرقة ، وأصلها الحنين ، وعنصرها الأعظم
الرحمة وعنصرها الأقل الجفوة ، من صفاتها الصديق واللفظ والمجاوبة ، ومن
أفعالها ، الوقاية والشدو والصون ، تقوم أُمى الثانية فجأة ، تسرع إلى
الداخل ، تتوقف لور دهشة ، تكف ، اقتنى أثر أُمى ، تجلس على حافة
فراشها ، تبكى بهدوء ، انحنى عليها ، اقبلها ، اجثو على ركبتى أمامها ،
تطالبنى بابتسامة في غير موضعها ، توصينى بلور ، لكم هى رقيقة ، صافية
وجميلة ، توصينى أن أعيشها ، ألا أؤجل ما ارغبه ، ثم غزر دمعها ،
ففهمت بوجودى الأول ما فهمت ، وسأذكر منه ما يشفى الغليل ان ناسب
ذلك المقام ، فقد آذنت لحظات اللقاء بانصرام ، أعود إلى غرفة الاستقبال ،
لا أجد لور ، إنها لحظة غير اللحظة ، لذا أرتقى على الأريكة ساهما ،
مستسلما ، أجزع في وجودى الأول ، ماذا جرى ؟ واين لور ؟ أبدو معما ،
كالشمس إذا غربت تبعها نورها ، وتبقى الأرض مظلمة ، كانت نفسى هنا ،
فماذا جرى ؟ ، رأيت شيخى الأكبر ، يحدثنى وكأن الحديث لم ينقطع ولم
يتوقف ، يقول لى إنه كان يوما بمتزله ببلدة اسمها مرشانة ، ليلة من الليالى ،

فقام ، وبينما هو واقف في مصلاة ، وباب الدار موصل وإذا بشخص يدخل
ويسلم ، ما يدري كيف دخل ؟ فجزع منه ، وأوجز في صلاته ، ولما سلم ،
قال له : يا محبي الدين ، من تأنس بالله لم يحزع ، ثم نفص الثوب الذي كان
تحت يصرى عليه ، وبسط تحت حصرى صغيرا كان عنده ، وقال له ، صل على
هذا ، ثم أخذه وخرج به من الدار ، ثم من البلد ، ومشى به فى أرض لا
يعرفها ، فذكرا الله فى هذه الأماكن كثيرا ، ثم رده إلى بيته ، قال لى شيخى
الأكبر : أما آن لك أن تعود إلى دارك أم أنك نسيت ؟ ، اقول : ما السبب
الذى جمع هذه الأمهات المتنافرة حتى ظهر من امتزاجها مظهر . يقول لى :
هذا سر عجيب ومركب صعب يحرم كشفه ، لأنه لا يطاق حمله لأن العقل لا
يعقله ، فلنسكت عنه ، وربما نشر إليه من بعيد وربما فطن إليه الباحث
اللييب ، اقول وحزنى على لور يفرنى : اطلعتنى على لحظات المقابلة فهل لى
بالخاتمة ؟ ، يقول لى ، لم تعرف البداية إلا بما يليها وإلا لم تكن أصلا ، لكى
يكون وصول لابد أن يكون سفر ، اطلع إليه راجيا ، فيستجيب لى ، أرى
وجودى الثانى ، أركب عربة الأجرة ، تولينى ظهرها بعد أن أملتنى رقم
تليفونها ولوحت لى ، تلك اللحظة الأخيرة من اللقاء الأول . رأيت لور
ترتدى الجاكت السلافى ، وجهها لا يزال محتفظا بازدهار اندماجنا ورضاب
جسدها يبللى لم يحف بعد ، صافحتنى ، ثم ابتعدت ، واختفت عند الناصية
التي يشغلها مقهى لا يقدم إلا مشروب القهوة التركية ، وفى مواجهته علقت
لائحة انتخائية ، أراها بجوارى داخل عربة يقودها شخص أولانى ظهره ، لم
أعرفه ، أهو أبى ؟ لم أدر ، بجواره امرأة ترتدى قبة من الخوص محلاة بزهور
صناعية ، أهى أمى ؟ ربما ، شغلت بلور التي صممت تماما فلم تفه حرفا ، بينما
رحت اطلع إليها محزوننا ، أسأل ، هل ستبقى صورتها هكذا فى مخيلتى ، أم

أنا سلتني ؟ ومتى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ عند أحد القناطر الحجرية الرمادية التي
تصل صفى النهر منذ ثلاثمائة عام توقفت السيارة ، يعرف قائدها اين
سيتوقف ، قالت لور ، سأنزل هنا ، ثم قالت إن هذا المكان أقرب ، وأنها
إذا بدأت المشى فستصل فى موعدها تماما ، خاطبت السائق مودعة بلغة
أجنبية ، ثم حيت السيدة ، ثم نظرت إلى أنا المبهوت المأخوذ وكنا اتفقنا على
ألا تبادل القبل ، وألا نظهر الضعف ، رأيت شيخى الأكبر يقف خارج
العربة ، يحاطبها ..

- انظر .

فأنظر أنا ، وكان بمقدورى ان أرى دقات قلبها ، وان اسمع الهواء عند
زفيرها ، واتضح لى الأمر فإذا بشهيقها هو شهيقى ، التفت مباغتاً إلى شيخى
الأكبر ..

- ضع يلك على شعرها ..

ترتفع يدى متمهلة وتلمس شعرها ، أراها بعينى ، وترانى بعينها فأدرك
صورتي فى نظرى وأدرك صورتي فى نظرها ، فعرفت عندئذ ان القدر قدرناه
منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، ماى إلاى ، صورتي لو خلقت انثى ،
فأيهم أنا ! ، تتطلع واتطلع ، تنأى وأناى ، يحجب الزحام خطاها
وحقيبتها الملونة والجاكت السلافى وينطلون القطيفة الأسود المضلع ، ابتعد
عنى ، وأتوه عنى ، وأغترب ، فيوشك المقام على الاكتمال ، ثم انشأناه خلقا
آخر فتبارك الله أحسن الخالقين .

خاتمة هذا المقام

.. إذن ، فما عشقت إلا صورتي ، وما ابجرت إلا في ذاتي ، وما توحدت
إلا بصفاتي ، وما اتئست إلا بنفسى ، وقد ظننت أنى التأمت ، فما أخيب
ظلك أيها الإنسان ، وما أشقاني ، فمن طرد إلى طرد أنا ، ومن هجر إلى بعد
ومن فراق إلى احتراق ، ومع تمام ادراكى فإننى لم أرعو ولم انتن ، بل لحقت
بى الشقاوة بعد افتراق لور عنى ، واستولى على الحرمان ، وغزاني شؤم
الوحدة ، أليس اغترابى عن نفسى وهذا أشق أنواعه وأقسى صنوفه ، شكوت
عكوفى على اشتياقى إلى شيخى ومرشدى والقابض على قلبى ، نفغى الله به ،
ورقق قواده على ، يبدو لى قويا ، مهيا ، يشير إلى فأتردد مهابة ، يكرر
الإشارة فأخطو تجاهه ، لا أخفيكم إخوانى أنى ما زلت أهابه على الرغم من
طول الصحبة ، واننى فى حضرته أصير وجلا بعكس أحوالى مع إمامى
وشفيعى يوم تضع كل ذات حمل حملها ، سيدى الحسين ، معه كنت بمنزلة
الطفل من أبيه ، أما حالى مع سيدى محيى الدين فكان التلميذ الذى يرهب
أستاذه ، وطالب العلم الذى يخشى الوقوف بين يدى ممتحنه ، ذلك دربى ،
وأنا راض ، وليس لى إلا أن أرضى فأنا مضطر ، والمضطر يرى نفسه كالغريق
فى البحر ، أو الضال فى المأهة يرى نفسه وعنائه بيد سيده وزمامه فى
قبضته ، فهو كالميت بين يدى غاسله ، لذلك علما يأمرنى بالاقتراب اصدع

على خوف وألبي في وجل ، أحوم حتى أثبت أمامه ، أسدل نظري وأسلم
أمرى ، بينا عيناى تحاولان اختلاس نظرة وجلى إلى يده الممسكة بقلبي ، غير
أن ضوءا غريبا شمل يده فغطى قلبي ، فوضت أمرى لصاحب الأمر كله ،
يمد يده اليسرى فيقبض على شعري ، يضع رأسي - وهو كلي - على كتفه ،
أرى جانب وجهه الأيسر ، ولما تكلم جاعنى الصوت من خلخلى مع أنى وراء
فه ، فسبحان من ملك ناصية الأمر كله ، يقول لى : مالك ؟ أجيب : يزداد
اشتياق ، يسألنى : لمن ؟ يطلب منى أن أحدد بالقطع لا بالإشارة ، أقع في
حيرة ملمومة ، ما سألفظه صعب على ، ذلك أن الخطر عندى انقسم إلى
شعبين ، فشعاب يؤدي إلى أبى ، وهذا اشتياق قديم ، وشعاب يؤدي إلى
تلك البنية لور ، وعرفتها أحيانا بالمشاهدة ، وطورا بالاندماج ، مع أنها هي
أنا وأنا هي ، مع هذا فاشتياق ينمو وحنينى يطرد ، ارفض مجرد التفكير في أن
لحظة ستجىء فأذكرها ولا تهتز روحي ، وهنا ألقى في معارفى ان النسيان
لا يخطر بالبال الإنسانى ، إنما يسرى خفية ، وانه يكتمل أولا ، وإذا تم ،
خف حملة ، فإذا وقع وتحقق فكأنه لم يقع ولم يكن ، وهذا أمر فيه لغز لعل
آتى منه بقبس يبل الصدور ويشقى الأفئدة ، من هنا أصل وقوعى في الحيرة ،
والحيرة قرينة التردد ، والتردد لا يكون إلا إذا تجاوز أمران وتناقضا ، كما أنها
تعنى انتفاء الراحة لعدم الاستقرار ، وان الأمر القديم ظهر ما يخالفه وما يشغل
عنه ، كان ذلك يعنى ان ما لم أطق تصويره يلوح على مهل ، حاولت استعادة
احوالى عند صحبتى لها وتعلقى وانشغالى بها ، تساءلت بينى وبينى ، هل
ذكرت أبى معها ؟ أبى الذى رحل عنى والذى نأيت عن موطنى لحسرتى عليه
فحق على الاغتراب ، إذ أن الاغتراب لا يكون إلا مع مفارقة الموطن ، وقد
كان أبى موطنى ، فلما خرج عنى صرت غريبا ، فطلبت المسعى وسعيت وجرى

على ما جرى ، لم أقف على جواب لسؤالى نفسى ، يكرر على شيخى الأكبر ما قاله ، أجيئه بما اتصور أنه الصديق : سيدى .. هذا أمر وفالك أمر . يقول منها لى ما فاتنى : آه .. هذا يطفى على هذا . أحرار فلا أرد ، بينا الشقة تتسع ، يقول لى : ليس على الأعشى حرج ، ولأنى مازلت أبصر خفت أن يكون قوله هذا نذيرا بانتزاع عبنى ، كما انتزع قلبى ، فأفقد نعيم المشاهدة بالنظر بعد غيابه عنى بالقلب ، غير أننى عدت استرجع ما قاله ، واستعيد نطقه الكلمات ، فكل ما يلقى على لا يخلو من إشارة أو علامة من بعيد ، فتذكرت بوعبى المتعب المثقل اننى سمعت مثل هذه العبارة فى لحظة لم أقص عليكم من أمرها شيئا ، إذ لم أشرح لكم ولم أفصل بداية تجلياتى هذه ، لغرابة ما جرى لى ، وتكثما على ما حدث ، لتضمنه أموراً لو أنشيتها ستثير لجاجة وقتنة ، فما كل ما يدري بداع ، فلكل علم أهله ، ولكننى انبث أننى متجه إلى هذه اللحظة من جديد ، لنا لا مفر من الشرح . وهذا لا يعنى اننى أفضيت بكل ما عندى ، ودونت كل ما ينبغي ، فثمة سر عظيم اتكتمه ، لن ألوح إليه ، ولن أنوه عنه إلا بإذن خاص ، أما الآن فأنى محدثكم عما وجب ذكره بداية لأنى منقلب إليه ، إذ حدث يا إخوانى فى الطريق والسفر اننى كنت أقضى اياما معدودات فى المغرب الأقصى بعد رحيل أبى بزمى يسير ، وكنت بمدينة فاس اشارك جمعا من صحبى مناقشة أمور أدبية ، وبعد سهر عدت إلى غرفتى فى الفندق الحديث الكائن خارج المدينة القديمة ، تأهبت للنوم ، وسمعت طرقا ، فلما فتحت الباب رأيت رجلا يرتدى لباسا مغربيا ، يحدق إلى بعينين مألوفتين عندى لكننى لم استطع التحديد والتعيين ، أشار فتبعته صامتا غير قادر على الاستفسار حتى مشى ومشيت خلفه ، الطريق إلى المدينة القديمة ، بوابة أبو الجلود ، تبع ظله الذى لم يتبدل موضعه كظلى

الذى يطول أو يقصر طبقا لمصدر الضوء ، حتى وصلنا إلى زقاق ضيق ، لا يتسع لممر شخصين متجاورين ، توقف أمام دكان عتيق مغلق لا يفتح إلا مرة واحدة في مولد أكرم الخلق أجمعين ، وكنت مررت به نهار اليوم مع صاحبي محمد بنيس الأديب المغربي وروى لي ان أهالي فاس يعتقدون ان الرسول عليه افضل الصلاة والسلام قد زار المدينة ومكث غير قليل في موضع هذا الدكان وانه مغلق لا يفتح إلا يوم ذكرى المولد ، كانت الرجل منقطعة تماما والطريق موحشة ، أشار الرجل الغريب إلى باب ضيق ، دفعه ، ثم أشار إلى أن أدخل بسلام ، عبرنا حديقة مورقة والزمن شتوى ! ، في نهاية الممر تحت سقفا دائريا منمنما يقوم على أربعة أعمدة نحيلة كالخيزران ، تحته يجلس رجل منحنيا على منضلة صغيرة ، يستند إليها شريط من الجلد لم أر بدايته ولم أر نهايته ، يمسك مطرقة صغيرة ، يلق الجلد فتولد دوائر منقوشة مذهبة ، كان مستغرقا تماما ، ومضى وقت لم أدر مقداره وأنا أنظر إلى عمله هذا ، فجأة رفع رأسه فصاحت مبهوتا : إبراهيم ، ولم أدر ماذا أفعل ، وما أقول وأنا أقف بمحضرة صاحبي المقتول بأيدي العدو الذى أصبح صديقا ظهر الجمعة التاسع عشر أكتوبر ، لم اسأل ، كيف جاء ، وما الذى اتى به إلى فاس ؟ ولماذا ينقش هذا الجلد ؟ ، لم أنطق هذا كله. إنما وقفت منتظرا ما يخاطبني به حتى أتى شغل عن الرجل الغريب الذى قادنى ، اصغيت إليه يقول لي باختصار دال وشكوى « نسينى يا جمال » ، فلم أكلب ولم أجب ، قال « لم تعد تذكرنى .. حتى أنت ! » ، قلت « سجلت سيرتك » ، قال متأسفا ، متحسرا « كان يعينى ان تستمر فى ذكرى » ، ثم قال لي « اعلم ان الإنسان بعد الموت يظل مقبلا ، حتى ينسى ، فيكتمل الموت ويتم ، يصير إلى عدم » ، لم تكف يده عن نقش الجلد ، ثم قال لي « اننى باق لأن بعض جندى يذكرون

نسيم ودى ، ، ولاحظت انه لم يأت على ذكر عياله وامراته ، وخجلت من الاستفسار إذ أنى رأيت غصته ، درت حذرا حوله ، رأيت ظهره ميللا بالدم ، جرحه الطرى يصحبه اينما ولّى ، لم يكن مرتديا حذاءه ، وتذكرت انهم دفنوه فى نفس ثيابه القتالية ، لكنهم خلعوا نعليه كما تقضى الأصول ، توقفت على بعد يسير منه ، أمسك الرجل الغريب بذراعى ، فشيت معه كما يسلم الذاهل قياده ، عدنا إلى شوارع فاس الضيقة وأضواء مصابيحها العتيقة تترقق فى فراغ شتوى ناعس ، أوصلنى الرجل الغريب حتى باب الفندق ، ثم غاب عنى ، لكننى لقيته داخل الغرفة ، تمددت فوق سريرى ، غطائى ، ملس يده على شعرى ثم فارقنى ، لم ينطق ولم انطق ، وعند الفجر نادانى الهاتف باسمى ثلاثا ، حتى جاء الصبح ، ومضيت إلى الحلقة النقاشية ، كنت أصغى ولا أتكلم ، وكان النقاش معتداً حول نقطة خلافية ، ومال على صاحبي محمود العالم يسألنى عن حالى ولماذا لا أشارك برأى ، لكننى لم أجبه ، إذ تعلق بصرى بنهاية القاعة ، رأيت الرجل الغريب ، كان يرتدى ثوبا أبيض وغطاء رأس أبيض ، فانتابنى خوف المقدم على أمر يحمله ، وايقنت اننى على شفا أمر عظيم ، انتظرت ان يولى الحاضرون وجوههم شطر الغريب القادم ، وان تبدو على وجوههم الدهشة ، غير ان أحدهم لم يلتفت ولم يتبته عداى ، وعندما أشار لييت بلا حذر أو خشية ، أى اننى وقفت وبقيت قاعدا ، فصار لى هيثان ممثاللتان ، متشابهتان تماما ، صورتان ، فصورة منى بقيت فى مكانى تصغى وتجييب السائل ليس لى من أمرها شىء ، وصورتى التى انجذبت تجاه الرجل الغريب طوعا وجبرا كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس ، والنيزك الضال إلى جاذبية الفلك الدوار ، نظرت إلى المجتمعين واستشعرت ديبب الوحدة والوحشة ، فالتفست يحصل لها الأمان من الكثرة ، أما الانفراد ، والغربة فعها الانقباض ، لم يلحظ أحد من الحضور ما جرى لى ، بل إن أحدهم توجه إلى

صورتى وطلب منى ابداء الرأى ، رأيت نفسى أحرك فى متكلمة غير اننى لم أصغ ولم اسمع فقد تبعت الرجل الغريب ، خرجت من القاعة تاركا صورتى وهيتى ، وهذه الصورة هى التى عرفها من اتصل بى وتعامل معى بدءا من أمى وامرانى وعيالى واشقائى واصحابى ورواد مقهاى الذى اعتدت التردد عليه ، ورجال الجوازات ، ورجال تدقيق الهوية ، ورجال المباحث العامة الذين سعوا ويسعون فى أثرى حتى يومنا هذا ، وعدد من الخلق لا حصر لهم ولا عد ، وسبحان من اخفى علمه عن قوم ، واطلع عليه قوما آخرين ، اعرف ان الكثيرين من أصحاب الرؤى وعلامات الطريق ، الكُمل ، المواصلين ، لم يصلوا إلى ما وصلت إليه ، ولم يختصوا بما خصصت به من الفرصة وصفاء الجلوة ، فن منهم تحول إلى هامة ؟ إلى غمامة ؟ إلى ندى ؟ إلى ظل شمس ؟ إلى جذع نخلة ؟ إلى ثمر على أطراف غُصين ؟ إلى حصى ؟ إلى نجم مارق ؟ إلى اقق مبین ؟ إلى اشارات آتية من بعيد ؟ إلى صوت تائه فى البرية ؟ إلى انثى ؟ إلى أبوه ؟ إلى صاحبه ؟ من منهم تحول مثلى وتقلب ؟ ربما عرف الواحد منهم شيئا من هذا ، لكننى عرفت هذا كله ، وسأفيض وأفصل عندما يلوح الاذن وتبدو البشارة ، تبعت اذن الرجل الغريب ، خرجت معه كما يخرج الميت من أهله وماله ، وخلا خروجى من أى خاطرة عن العودة ، فالسافر يشغله مقصوده عما عداه ، وكانت غربتى معه صحبة ، فالغربة لأنى فارقت من أعرف إلى من لا أعرف ، والصحبة من حيث رفقى له ومشاهدة من لا أعلم كى أعلم ، نزلت الدرج ورائه ، عبرنا ساحة جامعة محمد الخامس حيث اقيمت الندوة النقاشية ، جزنا فى البلدة القديمة ، والزحام على أشده ، وكنا نمر بين اثنين يتأبط كل منهما الآخر بدون ان نباعد أو نفصل بينهما ، وأحيانا كنا نجوز بين عدد من الجالسین حول منضدة فوقها أكواب شای وأطباق خزفية وأوعية للسكر أو الملح ، فلا يهتز ولا يميل أحدها ، مررنا بسوق يبيع الثياب الفاسية النسائية ، وسمعت أغنية قديمة للبللى

مراد فحصل لى أنس وحنين ، توقفنا أمام مسجد القرويين . وتلك المرة الأولى التى اقترب منه . فبالألمس مررت به ولم أدخله ، لاحظت أن الرجل الغريب يتلفت حوله مقدما الحنين على كل شبر فكأنه يحصى خزائن أيامه ، فلما أحس أنى لاحظته هش لى وقال ، انه شهد ضربة المعول الأولى فى أساسات هذا المسجد ، وانه من أحب بيوت الله إليه ، وسبعة مساجد أخرى ، فالعمدة البيت الحرام ، والروضة الشريفة بالمدينة المنورة ، ومسجد الإمام الحسين بكربلاء ، ومسجده بالقاهرة المحروسة ، والمسجد القديم بقرطبة ، ومسجد صغير جميل خزين بناه الباشا حسن فى مدينة ييتش المنغارية ، ومسجد الشيخ أحمد الدردير المتزوى خلف الجامع الأزهر بالقاهرة ، ثم قال لى معاتبا : اتم لانتهمون بمسجد السيد أحمد الدردير ، رحمه الله ، كان من أقرب صحبى . صمت فجأة كما تكلم فجأة ، ولج صحن المسجد ، تبعته وأنا لا أدرى إلى أين سيؤدى الطريق ، فالمدى شامع ، ومازلت عند بداية المدرج ، وقفت فى الرحبة المكشوفة حيث الأرض والسماء متقابلان بلا حواجز ، ورأيت أعمدة الرخام فى القاعة الداخلية المغطاة ، تذكرت الصحن المغطى بالمسجد الأزهر فى قاهرى ، كأنى انظره ، وتذكرت صلاة العيدين وصحبة أبى وانتظارنا الخروج من المسجد لنرى عبد الناصروموكبه ، ذكرت بقلب رقرق سيدى محبى الدين بن عربى ، ومن التقى بهم هنا فى الزمن العتيق من مشايخ أجلاء ، أصحاب الخبرات ، كاشفو الغوامض ، أدلة المسافرين ، السبى ، المربى ، والكتافى رحمة رضى عليهم أجمعين ، تأهبت للطواف بالمسجد ورؤية التفاصيل المعمارية ، لكننى ايقنت أن وقوفى هنا لا عهد لى بوقوف مثله .

تأهبت للطواف بالمكان وتأمل التفاصيل المعمارية ، وكنت كلما نظرت إلى ركن من المسجد أعرف عنه كل مايجب معرفته ، وكأنى طالعت المراجع ودرست ماتبقى ، مع أن جهلى بالمكان ليس موضع شك عندى ، فلا أعرف

عنه إلا القليل ، من هنا علمت ان الرجل الغريب توقف تحت الساعة المائية
وهى من نوادر الآثار المتبقية ، توقف كأنه ينتظر أمرا ، ولم يطل انتظاره
وانتظارى طويلا ، إذ ارتفع صوت شجى بأذان الظهر ، ولم أدر مصدره ،
ومن أى موضع ينبعث أو يأتى ، ولما بدأ مألوفاً لى ، محبياً إلى قلبى ، قريبا إلى
قوادى ، أمنت السمع وأدركت أنه نفس صوت المؤذن الذى طالما شجاني ،
وقلب عيني وسدد نظراتي إلى العلو الأسمى .

عندما أجلس فى ميدان سيدى ومولاي الحسين قبل الغروب أرقب المارة
وسفر النهار وبشائر الليل ، ثم يعلو صوت المؤذن داعيا لصلاة المغرب ، فتخبو
همومى وتشف نفسى ، وأصير إلى حزن حزين ، ولما سمعت الأذان باللهجة
القاهرة فى فاس المغربية أنس قلبى ، وقرب نهاية الأذان رأيت دخول رجال
كُمل ، قادمين من عصور نائية ، متباعدة ، ولم يحدث أن التقي أحدهم
بالآخر إلا فى مجال المطالعة ، أو اقتضاء آثار العباد الصالحين ، رأيت الحلّاج
والشبلى ، وذا النون وابن الفارض ، رأيت سيدى أحمد البدوى يدخل ملثما ،
وسيدى إبراهيم الدسوقي ، وسيدى البسطامى ، والجنيدي ، ورأيت سيدى إبراهيم
ابن أدهم ، وبشر الحافى ، والمحاسبي ، ومعروف الكرخي ، والترمذى ، والإمام
الغزالي ، وابن سينا ، والفارابي ، ثم تتابع دخولهم إلى صحن المسجد حتى
كدت أعجز عن تتبعهم ومعرفة كل منهم ، مع أنى كنت اتعرف إلى كل منهم
بمجرد النظر إليه ، أما الذين لم أعرفهم بأسمائهم ، إنما فى مجموعهم ، فهم
الأئمة ، والأوتاد ، وهم أربعة رجال فى كل زمان يحفظ الله بهم المشرق
والمغرب والشمال والجنوب ، رأيت الابدال السبعة ، وكل منهم قائم على اقليم
من أقاليم الأرض السبعة ، رأيت النقباء الاثنا عشر ، وهم الحافظون المراقبون
لبروج الفلك ، شاهدت نقباء زمنى الذى أقلعت منه ونأيت عنه ، رأيت قطب

عصرى ودهرى ، ثم تدفق الجمع ، رأيت دخول أهل الحقيقة ، وأهل الوداد ، وأهل السلوى والنجوى ، وأهل الصحبة ، وأهل الجهاد ، كلهم من عرفتهم بأسمائهم أو عن قرب ، ممن حملت لهم الإجلال والإكبار بعد رحيلهم ، رأيت الرجال القائمين على عالم الأنفاس ، ورجال الغيب ، ورجال الفتح ، ورجال الامداد ، رأيت الأحياء ، والأخلاء ، والمحدثين والأولياء ، والشهداء ، والسائحين أبدا ، والمسافرين دائما ، انتظموا صفوفًا ، تأهبوا للصلاة ، غص المسجد بهم ، ولم يتبق إلا موضع صفين خاليا عند المقدمة ، أما مكاني فظل في أقصى نقطة من مؤخرة الصفوف ، كنت نائبا ، قصيا ، لا أساوى مثقال حبة من خردل بين هذا الجمع الجليل ، وأين الثرى من الثريا ، وأين الجذب من الغيث ، فسبحان من أكرمني بوقوفى على مقربة منهم ومشاهدتى لهم ، بدا الفراغ غريبا علىّ ، عبق براحة قادمة من عصور قديمة ، كأنى دخلت قاعة مفروشة بالسجاد لم تفتح قط منذ آلاف السنين ، ثقلت أنفاسى ، وسرى هدوء فلا تسمع حتى همسا ولا نفسا ، وعلى الرغم من فضولى أطرقت برأسى تأديبا وحشمة عندما علمت أن الصف الأول قد اكتمل ، لم استطع مغالبة خواطر توقى البشر فوددت لو تطاولت بنظرى لأرى أبانا آدم عليه السلام ، أو لألمح آثار بقاء يونس فى بطن الحوت ، وأسأله عن طوافه ، أو لأرى ماتبقى من آلام الصلب على وجه سيدنا ومخلصنا المسيح عليه السلام ، أو آثار التيه على وجه سيدنا موسى ، أو نوح الذى قارب عمره الألف سنة ، لكننى لم أقدر ولم أجرو ، ثم حلت بى السكينة العظمى والأمان الأوفى ، عندما علمت ان إمام المصلين هو سيد الخلق أجمعين ، من قال إن من رآه فى منام فقد رآه حقيقة ، فالشيطان لا يتمثله أبدا « والسماء ذات الرجوع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل » . جمعت سمى وأحضرت كلى ، وللمت شتات عمرى ، غير أنه فصل بين حواسى ، فباعد ما بين سمى وبصرى ، وما بين

حسى ونفسى ، فأدركت ما هو أشمل من وجودى المحدود ، إذ وجدت اليابسة والبحر والحیوان والنبات والجبال الرواسى وكل ما اقامه الإنسان يسجد معنا ويصل ، « ألم تر أن الله يسبح له مَنْ فى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فى الأرضِ والطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » ، صليت وانتظرت بعد الفراغ منها ، كنت آخر الواقفين ، ولم أذكركم من الوقت استغرق ذهابهم ، انتهى الزمن الذى أعهدده وبدأ زمن جديد لا عهد لى به ، وقفت بعد انصراف الجميع تأديبا ، عندى شجى ، وحنين ، ورغبة فى أن ألتهم مواضعهم ، ورغبة قائمة بذاتها فى أن أدنو من الموضع الذى أمّ منه سيد البرية ، أشرف أبناء ولد آدم صلاتنا ، غير أن الشيخ الغريب عنى أشار لى ، فبجته صاغرا ، مطيعا ، وخرجنا من مسجد القرويين والوقت غير الذى دخلنا فيه ، والسمااء رمادية ورائحة مطر لم أدر متى سقط وهطل ، فلم تنفذ قطرة واحدة منه أثناء صلاتنا عبر الصحن المكشوف للمسجد ، خرجنا من مدينة فاس إلى المرتفع الصخرى المطل عليها ورأيت شقاً فى الغمام ينفذ منه قوس قزح ، ويمتد حتى يلامس الأرض ، تقدمنى الشيخ الغريب حتى وصل إلى بداية قوس قزح ، وفوجئت به يشير إلى توقف هو وامرئى ان أتقدم ، وفى اللحظة الأولى لم أدر إلى أين الإشارة ، غير ان صوتا خفيا ، الهاتف ، صاح فى .. « تقدم » ، فتقدمت ، وعند حد معين ، صافحنى الغريب الذى أخطئنى منى ، ولثم جيبى ، وقال لى :

- « كان والدك صالحين ، لذا لن تهمل ولن تترك سدى » .

ثم قال لى :

- « حدى هنا ، فلا خطوة لى بعده » .

ثم قال لى :

- « كلما قابلت واحدا من بنى الأكرمين أقرئه سلامى بقلبك ، سلم لى على الحسين ، وشيخك محيى الدين . وقل له إن اللقاء وشيك » .

تساعت : .

- سلام ممن ٩٩.

قال لى :

- ستعرف عندما تجربهم ..

تكرر نداء الهاتف :

- أقدم يا جمال ..

رأيت يد الشيخ الغرب تشير إلى بداية قوس قزح التى تكاد تلامس الأرض ، فسلمت سلام المقبل على رحيل طويل ولا يدري من أمره شيئا ، ثم لامست بقدمى بداية ألوان الطيف ، وبسرعة بدأت ارتقى ، وقبل أن يرتد لى طرفى كنت أمضى صعدا فى الفراغ ، أصبحت فى فضاء مدينة فاس ، رأيت الجبل المحيط بها والسهل الأخضر ، رأيت المباني البيضاء والأزقة والشوارع ومبنى جامعة محمد الخامس حيث صورنى فى إحدى قاعاتها تصغى وتدون وتحاور تفعل ما كنت سأفعله ، رأيت الفنلق حيث حاجانى وأوراقى واسمى فى سجلاته ، استبد بى فضول انسانى ، غير أننى كنت اخطو بلا توقف ، حتى تضاءلت المدينة وصارت كقبضة يد ، رأيت المدن المجاورة أفران ومكناس ، ثم رباط الجميل وطنجة وشاطئ البحر والمضيق والمحيط ، رأيت جبال أطلس ، وتلمسان ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومدريد والعيون ، وداكار وقرطاج وباريس وقاهرى ، وحددت موضع الإسكندرية ، رأيت أفريقيا كلها ، وأوروبا وآسيا ، تعرفت إلى القارات الخمس على الرغم من انبعاج الخطوط وتقارب الفواصل . غير ان الشبه بالخرائط كان قويا ، رأيت الليل والنهار معا ، الشروق والغروب ، الشتاء والصيف ، ثم احاطنى غمام وضباب ، خرجت منه لأرى الكوكب الأرضى ، حواف العالم الأكرى ،

المد والجزر والمنخفضات الجوية وبدايات الأعاصير ، كنت أوغل في الفراغ وحيدا ، نائيا النأى كله ، أما قوس قزح فابتعد عني ، أو ابتعدت عنه ، امتد غروبى ، وما فوق فراغ وما تحتي فراغ ، غير اننى شغلت بحركة الأفلاك ، وتزايد البعد وتضاؤل عالمنا الأرضى ، حتى تصورت انه بإمكانى وضعه فوق سبابتى ، أهذا الحيز الضيق أودعه صورتي البشرية ، وعيالى وأهلى وصحفى ، أيمتوى ثرى أبى واجلادى ؟ ، أسافرت فيه ؟ ، طرت وأبحرت ، أحبت وأبغضت ؟ ، سلوت ومللت ؟ ، اجتمعت وافترقت ؟ ، نأيت فيه واقتربت ؟ ، رأيت الشمس على مقربة فى دورانها والتهابها الأبدى ، أدبت لها الثلجة مومثا ، ومن عجب أنها جاوبتنى ، وأشارت إلى أولادها التسعة فامتثلت وسلمت ، فتبسمت لى الزهرة ، وجاوبنى المريخ ، وأشار لى المشتري ، ولوحت لى البقية ، ورنا لى كوكبى الأرضى المحاط بالسحب ، متعدد الألوان ، فهو بين الكواكب الأبهج والأجمل والباعث على المسرة ، حنت إليه فودعنى ، وكان ذلك آخر عهدى ونهاية فترتى ونختم استقالتى ، إذ انجذبت صعدا عبر السنين الضوئية فاجتزت مجرة درب التبانة إلى مجرة إلى مجرة ، عبرت الثقوب السوداء ، ومواضع تكوّن النجوم وأصبح مستحيلا على أن أحدد أو أشير إلى الجهة التى كنت أشغلها فى الكون ، رأيت النجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، ان هو إلا وحى يوحى ، احتضنت الأفلاك مسلما ثم مفارقا ، رأيت أصل الفصول الأربعة متجاورة ، تطلع الى الشتاء بالنظر الكليل الهادئ ، أما الخريف فقد حنت إليه ورجوت الصيف تخفيف حره عني ، فاستجاب ، وهذا سر أصرح به ، إذ أننى لا أشعر أبدا بحرارة القيظ مها احتد ، أما الريح فكنت لا أدري كيف أواجهه ، ويبدو ان عمرى الذى يمكننى التحاور معه قد ولى ، فنظرت إليه كما ينظر الكهل إلى

فتية يتراقصون ويمرحون ، وصدق القائل لى يوما ، إنما أنت كهل فى الثامنة والثلاثين ، فسبحان محيى العظام وهى رميم ، رأيت المشرق والمغرب معا ، فضمتهما ، انتفت الجهات الأربع الأصلية بالنسبة لى ، شمالى صار يمينى ، وتحتى فوق ، كنت انظر إلى الكواكب كأنى أراها من أعلى ومن أسفل ، رأيت ظل الشمس على صفحة الكون السحيق فتح لى التفرد إذ أن ذلك لم يقع لغيرى ، توقفت بعد ملايين الملايين من السنين الضوئية ، توقفت حيث يلتقى الفراغ بالفراغ ، توقفت حيث تولد الأفكار والصور ، والمعانى تشرق حولى كشهب ونيازك ، وتخترقنى فلا يمسنى اذى ، فأردد على مهل . وقد خاب من دسامها ، عرفت اننى خلفت المجرات كلها ورائى ، والسدم ، والثقوب الكونية ، ومصادر الإشعاع الخفية ، أمرت بالنظر فنظرت ، وإذا بى أرى الكون كله ، هذا حده وذاك حده ، الكون بأكمله فى متناول بصرى ، وكان باستطاعتى ان أشير فأعين ، وأحدد ، عرفت اننى بعيد ، واننى البعد نفسه ، سألت ذاتى ، هل بَعْدَ البعد بُعد ؟ . وجاوبت نفسى . ليس للإنسان إلا ما سعى . سألت : أى حيز أجوز فيه وامضى ؟ . فجاءنى الجواب من الهاتف الخفى ، لا تسأل عما لم تحط به علما ، عرفت اننى منذ هذه اللحظة مكشوف ، عار ، كما لم يتمر إنسان أبدا .

قلت : إنى خائف ، جاءنى صوت الهاتف : ليس على الأعمى حرج ، إنه نفس الصوت ، هكذا عدت من جديد إلى نفس موضعى الذى بدأت منه هذا الدخول المبارك لذلك المقام ، رأسى مقطوع فوق كفف شيخى الأكبر محيى الدين ، إلى نفس النقطة التى جثتها قبل بلوغى بحر البداية فى سعى إلى الديوان ، إذن .. فهذا صوت شيخى الذى سمعته أول مرة ، إذن فهو متول على ، قائم بى ، حافظ لى من قديم حتى وان احتر رأسى ، وملك قلبى

بيده ، قال لى :-

- تقدم .

قلت :

- إلى أين ؟.

قال :

- أمامك بقية المقامات ، أنسيت ما خرجت من أجله .

قلت :

- كلا ..

أمرنى :

- اسع .

ففارقت كتفه موكلا أمرى إلى صاحب الأمر كله وجل من لا تأخذه سنة

ولا نوم ..

* * *

مَقَامُ الضَّنَا..
«لَعَدَّ خَلْقُنَا الْإِنْسَانَ فِي كِبَدٍ»

.. جئت هذا المقام وحدى ، إلا من رقيق الحزن ، ودقيق الشجو ، دجا على ليل ، وهبت ريح باردة على نفسى ، واستهم وقتى ، واستولى على الشغل ، ومرجع هذا كله إلى فراق عن فراقها ، استولى على شؤم الحنين ، جئت هذا المقام بحنين إلى لور لم يخفف منه ادراكى أنها ماهى إلا أنا ، بل زاد هذا من توقي ، حنت إلى كل ما تعلق بها ، مع ان الجزئيات كثيرة ، والوقت عزيز ، وعمرى الدنيوى قصير ، جئت بحنين إلى أبى وأمى ، إذ انقطعت عنها أمدًا ليس بالقليل ، وكان شوقى إلى أبى متجاورا لشوقى إلى أمى ، فترايد هاجسى ، واعتم خاطرى ، جئت مثقلا بالقديم ، كل ما فته وفاتنى ، ما أبليت وأبلانى ، حواف أيامى الحلوة حتى الحافل منها بالضييق . فكل ماض يبدو لمن عاشه حلوا ، عذبا ، حتى ما كان يبدو فى لحظته جهما ، ذلك أنه خرج عن المتناول ، وكل بعيد يبدو ثمينا مرغوبا إذا ما كان فى عالم الممكنات ، فما البال بما لا يمكن تناوله أو ادراكه ؟ ، سألت نفسى عما سألقاه فى هذا المقام ؟ والسؤال يا أحمأى حال ذلة وافتهار فيما يُسأل فيه ، سواء كان السؤال عن النفس أو عن الغير ، فلا بد للسائل أن يقف موقف الذلة والحاجة لما هو مفترإليه فيه ، هذا ما أفصح لى عنه شيخى الأكبر ، وأنا مفترإى ما لا يمكن حصره ، أنا الضائع ، المفتقد ، لم تطل وحلق فى ذلك المقام الوعر

صعب المرتقى ، إذ رأيت صبيًا صغيرًا ، ربما في السابعة أو الثامنة ، لا يمكنني التحديد ، ظهر ظهورًا مفاجئًا غير متوقع ، ولو أن قلبي معي لحقق خوفًا ، فالمألوف إذا بدا في غير موضعه أو على غير انتظار أرجف وأرعب ، طفل غريب عني ، لا أذكر أنني رأيته في حياتي الدنيوية ، نظرت إليه ، قلت .. من ؟ قال ، ألا تعرفني ؟ قلت : كلا .

قال لي :- لقد التقطت لي صورة عصر يوم ، ثم رأيت صورة رأسي المخزوز في صحف شتى ، وهنا وقع لي كشف خاطف ألقيت خلاله في معارفي التفسير الوافية ، ذلك أنني اعتدت خلال سفرى الدنيوى ورحلاتي أن ألتقط الصور لشوارع المدن الغريبة عني ، وبعد رجوعي أتأمل ما سجلته ، ما اقتنصته من لحظات عابرة ، أولئك العابرون الغرباء ، هذه الفتاة الملتحفة برداء ملون اثناء عبورها الجسر فوق النهر الأوربي ، هذا المعجوز الذى يهبط السلام العتيقة في الحى السكنى القائم على سفح الجبل المنغارى ، هذه الأم التى تجلس فوق دكة خشبية ترقب طفلها الصغيرين يلعبان ، هؤلاء الفتيحة المبتسمون ، هؤلاء الجلوس الساهون ، من هم وأين الآن ؟ أطيل النظر فلا أصل إلى محط ، ولا انتهى إلى مرمى ، أما هذا الطفل فاسمه حامد ، كنت في زيارة لمدينة بيروت اللبنانية ، عندما توقفت أمام دكاكين متجاورة لقيمت على عجل من الحشب والصفيح ، تحوى بضائع مصنوعة في بلاد أجنبية ، لفت نظرى طفل غصن يحمل الصناديق من عربة واقفة إلى داخل دكان وقف أمامه صاحبه يرقب ويستظر ، كان حامد يسعى إلى رزقه ، استوقفتنى هذا فالتقطت صورته ولم يلحظ هو ولم يلحظ صاحب المتجر ولم يلحظ أحد ، ثم مضيت مطرقة ولم أدر في أى شيء فكرت ، كان حامد يلتقط رزقه من هذا السوق ، ينظف الدكاكين ، يحمل الأتقال ، يجمع النفايات واللب القارعة بعيدا ، ثم يعود

مشيا إلى المخيم حيث جده واخته التي تكبره بثلاثة أعوام ..
حامد هذا رأى صورته مرة أخرى غير انني لم انتبه ولم أتوقف ولم يدر
بخطأى أنه هو الطفل الذى توقفت عنده لحظة عابرة يوما وأنا مغترب عن
موطنى أياما معدودات ، رأيت صورته فى صحيفة أوروبية ، ملقى على
ظهره ، محزوز العنق ، مبتور الذراعين ، هرعت إلى غرفة أولادى ، قلت
لشريكى فى سفرى الدنيوى ، انظرى... يمكن ان يفعلوا هذا بعيالنا !
واستولى عليها خوف وضيق ، فنامت فى هذه الليلة بجوار ولدى وابنتى ،
وكنت أقوم مغزوعا فأهرع لكنى اطمئن على نومهم ، وصورة حامد القليل فى
خيالى ، وأنا لا أدري اننى رأيته ، والتقطت صورته ، جل مدبر الصدف ،
تعالى مرتب المناسبات ، فارق حامد هذا الكون الغريب فى تمام العاشرة
والدقيقة الثالثة عشرة ، كنت وقت ان احتر عنقه جالسا فى بيتى ، وضيقى
صاحب لى اسمه ناصر ، جاءنى من تونس لنقص معا حكاية قوم من قرطبة
الأندلسية نسوا عهود الأجداد فضلوا ، وأضاعوا الموروث والوصايا فحقت
عليهم اللعنة ، فى لحظة معينة كنت أرفع يدى اليمنى وأخفض اليسرى محدثا ،
فى هذه اللحظة اقتحم المسلحون الثلاثة غرفة الصفيح ، أمسك أحدهم بنور
شقيقة حامد ولها من دورات الأفلاك إحدى عشرة ، صغيرة بعد ، عراها ،
وطرحها الثانى أرضا مباعدا ما بين فخذيها الضامرين..، توالوا عليها ، وجدها
وشقيقها بمرأى وعلى مقربة ، اجتز أحدهم حلمتها الخضراروين ، ثم شج
رأسها ببلطة ، فانقطع نسل إنسانى كان من الممكن أن يتكون فى رحم هذه
البنية الغضة ، ما أقساك أيها الإنسان وما أفجعك وما أغيبك عن عقلك
ورشدك إذ تلغ فى القسوة فلا تتوقف ولا ترتدع إن الإنسان لظلم كفار ،
كنت اتحدث إلى صاحبي الناصر عن المخطوط القديم الذى حوى ما جرى

للأجداد قبل خروجهم من قرطبة ، عندما أمروا الجدد العجوز بحمل جثة الفتاة وإلقائها خارج الغرفة ، وكان صاحبي الناصر يتحدثني عن اللعنة التي حلت بالقوم ، إذ يسمع ابنائهم عند عمر محمد نداء خفيا قادما من أعماق الصحراء فيخرج الواحد منهم خروجاً لا عودة تعقبه . عندما أولجوا الخنجر في دبر حامد ، وأمروا جده بحمله إلى خارج الغرفة ، كان ذلك ليلة الرابع عشر من سبتمبر . عام ألف وتسعمائة واثنان وثمانين من زمني الذي طال على ، وقصر بي ، قال لي حامد : قتلوا جدي ، اضمرت السؤال ولم انطقه ، لماذا رضى الجدد بحمل جثمان حفيدته المنتهك . وحفيده ؟ اظن أنهم سيقون عليه ؟ أظن أن الدقائق التي تسبق قتله ستمتد دهراً ؟ أظن أنه ناج ؟ وأى نجاة ، أى بقاء هذا ؟ .. اعلموا يا احبابي انني عرفت الموت في زمني الديوري ، خاصة في زمن الحرب ، عندما تطايرت الشظايا حولى ، وشقت الرصاصات سبلاً شتى ، خبرت تلك اللحظات التي يمكن للإنسان أن يقضى فيها ، عرفت كيف يوقن في الذروة أن الموت لاحق بكل من يحيطه عداة ، وأنه قادر على مراوغة الطلقة ، ودفع الشظية ، مع أن الأمر صدفة كذا الجوهر ، فلو حل هذا مكان ذلك ، لذهب ذاك وبقي هذا ، سبحانك يا من قدرت الموت والحياة ، فلا تدري نفس بأى أرض تموت ، سبحانك ، بعد مواجهتي الموت أول مرة ، وكان ذلك عصر أربعاء خريفى . صرت أكثر جرأة وأقل خوفاً ، اتعرفون لماذا يا إخواني ؟ لأننى كنت أقول لنفسى دائماً كلما استعدت هذه اللحظات ، كاد الموت يلحقنى عصر الأربعاء الماضى ، إذن .. عشت زمناً أطول مما ينبغي لى أن أعيشه وبعد رحيل أبى انجرف حاجز ضخيم بينى وبين الموت ، وبعد أمد زال مانع فصرت أكثر قرباً .. لكننى لماذا أذكر من حملتنى حولاً على حول وكأنها رحلت ؟ ماذا جرى لها ؟ إنى منقطع عن صورتي

البشرية ، فلا أدري ولا أعلم ، لكننى قلق ، مضطرب ، ربما لأنها جاءتني هنا ، هذه التجليات ، لا أدري ، وما من حبيب قريب يطمئن قوادى ، ويهدئ قلبي النائي عنى ، للقلب بين يدي شيخى ، تطلع الصبي حامد ، مبتسما ، ضاحكا ، مدركا لكل ما جال بخاطري ، وعندما لمَح لي دلتى ، فتظرت ، وتطلعت قرأت ما ابتعدت عنه مسافة ، وثابت عنه مقدارا ، رأيت ما خرجت من أجله ، وسعيا إليه ، رأيت أبى ، فهقا قوادى ، ولت نفسى لأنى شغلت عنه بنفسى ، بلور ، وتدمت لأنى لم أضق ضيقا كافيا عندما رأيت شخصا آخر فى مترلة الأب لي ، أقول هذا وثمة فضول عندى فقد قارقت مقام الاغتراب ولم أعرف كل مايجب ان اعرفه عنه ، غيزان ما غلب على شوقى إلى لور ، بعد رؤيتى واندماجى لم يعد بوسعى إلا تذكرها واستعادتها فى الخيالات والصور ، هاهو أبى ذا يجلس إلى رجل اسمه عبده ، يبدو أبى عفيا ، شابا ، يتحدث إلى هذا الرجل بائع الدقيق ، بينها منضدة مستديرة من نحاس ، إنهما فى مقهى العجم ، أبى يرجو الرجل ان يؤجر له تلك الفرقة ، والرجل يسأله عن الزمن الذى سيأتى فيه بامرأته ، فيؤكد أبى أن الأوان لن يطول كثيرا وفى الزيارة القادمة إلى البلدة لن يرجع وحيدا ، لأن السنوات التى انقضت منذ عقد قرانه طالت ، وكلام الخلق كثير والألسن طويلة ، وهو لا يريد من الدنيا إلا السر ، يقول الرجل : ولماذا لا تسافر غدا أو بعد غد؟ ، يقول أبى : الزمن زمن حرب ، والاجازات ممنوعة ، يسأل الرجل : أين تقيم؟؟ .

يقول أبى : عند قريب لى فى حارة الانشاء بالسيدة زينب ، ليس من المعقول ان يأتى بامرأته التى ستكون أما لعياله لتقيم مع غريب ، يقول الرجل ، عندما نجيء بها سأعطيك الحجرة ، لكننى لا أقبل سكن أعزب عندى الآن ياأحمد . يطرق أبى حائرا ، وألحظ تقدما خفيا فى العمر يحيرنى ، فهو أمامى عنى ، لكننى أشعر بشيخوخة خفية أو غروب غير باد ، سألتى المصبي حامد

المقتول ظلماً ؟ ألا تعرف الرجل ؟. لم أحبه إنما عاودت النظر ، إنه السنى ، عبده السنى ، صاحب دكان الدقيق والحبز القريب من حارة درب الطبلابوى التى اقنا فيها زمنا مديدا ، الدكان الذى توقف أبى أمامه مرارا فى أيام الجذب ، رأيته مرارا يتردد حائرا ، يتنظر ابتعاد زبائن الصباح الباكر ليقرب من السنى الذى أصبح عظيم اللحية أشيها ، يطلب أبى خبزا بخمسة قروش تضاف إلى دينه ، ثم يطلب خمسة نقدا ، ليشتري اللبن والفول ، سمعت السنى يقول لأبى ذات صباح شتوى قاس : لكن حسابك ثقل يا أحمد ، فيحار الوالد فى الرد ، فيتدارك السنى قوله ، خذ يا بنى ، ومع الله عليك وقواك على تربية أولادك ، تنيب عنى أصواتها فلا أرى إلا شفاهاها تتحرك ، تختلف هنا رؤيتى عما شهدته فى الأسفار عندما كنت انعم بصحبة مولاي وضياء عيني الحسين عليه أركى السلام وأطيه ، آه يا ابن الأكرمين لو بقيت معك ١. فى الرؤى الأولى كنت أبعث فى الزمان. عينه فكأنى منه وكأنه منى ، أما هنا فالأمر مختلف ، كنت أرى واسمع كمن يرى ويسمع شريطا سينمائيا ، كنت منفصلا وليس متصلا ، ينظر إلى الصبى حامد ، يقول لى ان ذلك لتبدل الحال ، فتساءلت ، أى حال ؟ ، يضحك ضحكة الواعى الذى يدرك ما أنا مدركه ، يقول : لبعد الشقة واتساع المسافة ، يأمرنى أن انتبه ، وإذا بى فى مواجهة اللحظة وما حوت ، وان شتم الدقة كنت فى مواجهة ماحوت ، لم تقع عيني على اللحظة فى شكلها أو جوهرها ، هذا بعيد عنى ادراكه ، وتلك مرتبة لا يصل إليها من هو مثلى ، أعرف الآن ان ما نسميه لحظة أو دقيقة أو ساعة أو نهارا أو ليلا أو شهرا قرىاً أو ميلاديا أو حولا أو دهرأ أو عصرأ ليس إلا اعراضا لما هو أعم وأشمل ، شىء وليس بشىء لأنه لا يدرك ولا يرى ولا جهات له ، هو محيط بنا ، متغلغل فينا ، يؤثر ولا يتأثر ، يخفى ويظهر ، يغير ولا يتغير ، كل ما نراه دلالات عليه ،

واشارات إليه ، وأكف حتى لا أخوض فيما نُهيت عنه ، واحوش نفسى عن الكلام خشيةً وتحسبا ، فعذرا ! رأيت محتوى اللحظة التى كنت اتساءل عن كونها دائما ، التى لم يحددها أبى ، ولم يمك بها ، ولم يقف عليها ، دلنى عليها هذا الصبى للقتول غدرا ، الذى خرج من الدنيا فى غير موعده ، الذى لم ولن يراه أبى ، رأيت اللحظة التى اياها أعنى ، التى وهن فيها عزم أبى ، وهى قصده عن متابعة دراسته ، وتحصيله الدرس ، وفهم سر الحرف ، وإدراك الفرق بين الفروق ، من قبل . رأيت بداياتها ، والآن أتأكد من اكتمالها ، رأيت ضوء الشمس الأصلية ، وأوضاع الأفلاك ، فى هذه اللحظة انكسر عزم أبى ، ثم رأيت اللحظات المتباعدة التى لم يربط بينها ولم يرصدها فى حينه ، عند خروجه من البلدة « فى مصر سأحصل على عمل ، وأتعلم فى الأزهر » .
عند جلوسه فوق مقعد خشبي قريب من كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية التى اندثرت ولم يتبق منها إلا شظايا ، هاهو يجلس وحيدا ، يرتاح إلى الماء الممتد واللون الأخضر .

« ليتنى أحصل على عمل » .

هاهو يعبر مزلقان قطار حلوان القريب من ضريح السيدة الطاهرة زينب عليها السلام رئيسة الديوان ، يمشى متمهلا .

« ليتنى أجد عملا اضافيا ، فالمرتب لاني بحاجة البيت » ،

هاهو ذا على مقربة من مشوى الحبيب الطاهر .

« ليتنى أضمن الغداء للأولاد غدا » ..

أرى نفسى طفلا ابن عامين ، تطلعت إلى بفضلوى ذاته الذى لا تحف حدته كلما واجهت صورتي ، هاهو ذا أبى يغلق نظره الخنون على ، « لو بارك ربى فيه فسأعلمه ، ولن يعرف مرارة الحاجة أبدا » ، وقد صدق أبى فى عزمه ، وأوفى

بما قطعه ، وما وهن عنده من حق نفسه لم يبن قط بالنسبة لى ، ليس لنا فقط وإنما سائر اخوتى ، كد وشقى وتحمل ماتحمل وناء بالمهموم التكال ولم يفرط ، ولم يلن .

قال له قريب لنا اغتنى بعد قمر « لماذا لا تأتى بابنك عندنا يتعلم التجارة ، يقف ويبيع ، ويعرف السوق » ، هب أبى وثار فى وجهه كأن الرجل مس عرضه ، انصرف أبى مقسماً ألا يطاء متجر هذا القريب مادام حيا ، وقد كان ، قال له أحد الموظفين يوما بعد أن أقرضه نصف جنيه ، « عندى دكان ترزى ، أرسل ابنك إلى لأعلمه صنعة » ، اعاد له أبى الخمسين قرشا انصرف عنه غاضبا ، هاهو ذا خلف الحسينى ، السبب فى جريان رزق أبى ، من شعر تجاهه بالدين ، حتى فى أيام غضبها بعد تقدم العمر بها ، اراه شابا ، يد بعضا من قصان أولاده ، « خذ يا أحمد لجال » ، كظم أبى ضيقا ، وان بدا على وجهه ظل من ذلك ، لحلف الحسينى عنده مترلة ومكانة ، يرد القمصان يهدوء ، يقول إن الأولاد ليسوا فى حاجة ، وان الستر موجود . ينصرف حائقا متضايقا ، « إن يلبس أولادى فضلات الآخرين ابدا ، هذا شؤم علىّ وعليهم » . رأيت سعى أبى ، أبى عاش يتما ، وحيدا ، بلا ذى رحم يمن عليه ، كل من عطف عليه غريب عنه ، رحمهم الله رحمة واسعة ان كانوا أمواتا ، وزاد فى رزقهم ان كانوا احياء ، أبى الوحيد ، المعذب ، الذى لم يهدأ ولم يرتح إلا فى هذه الليلة من أكوير ، أبى يا حامد . أيها الصبي اليتيم المقتول غيلة ، أبى لم يفصل حلة واحدة جديدة طيلة حياته ، فقط جلباب بلدى من الصوف أذكر لونه بين ما استعيده من ألوان طفولتى ، وجلباب آخر جثته أنا بقمشه بعد رحلة لى إلى بغداد ، أما قماش الجلابيب القطنية ، كسوة الصيف وكسوة الشتاء ، فأسمى هى التى تذكر وتشترى له بين ما تشتري لنا وإلا فإنه ينسى ، قبل أبى يا حلمد أن

يرتدى مايفيض عن حاجة الأقربين ، ويلذ الغالى والرخيص ليدفع عنا
السخافات واستهانات الآخرين .

أرى خروجنا بصحبته عصر يوم ، نمشى ثلاثتنا ، أنا وأبي وإسماعيل اخي ،
يرتدى كل منا بدلة جديدة ، أول مرة نرتدى حلتين كاملتين ، جاكيت أزرق أما
البنطلون فرمادى ، اشتراهما أبى من متجر يبيع الملابس الجاهزة من قصان
وملابس داخلية وحلل ، وأخذ على نفسه عهدا موقعا بتسديد ثمنها على اثني
عشر شهرا ، وهذا المتجر يقع فى أول شارع السكة الجديدة من ناحية ميدان
الحسين ، وكان أبى يصلى فى مسجد مولانا بصحبة بائع يعمل فيه ، والبائع جار
لنا فى حارة الطلابى ، وكان شقيقه مدرسا لى ، علمنى اللغة العربية ومبادئها
فى مرحلة تعليمى الابتدائى ، غير أننى أذكر دائما هذا البائع الذى كانت تتوسط
جهته علامة السجود ، ويبدو على وجهه الصلاح والتقوى ، يخرج مبكرا ،
ويعود إلى بيته متأخرا ، ولا تراه يسعى إلا مطرقا ، خشية ان تقع عيناه على
جارية ، كان فى حاله ، لا يتحرش بإنسان ، ولم يشترك فى مشاجرة ، لا انساه ،
ليس لارتباط المتجر بارتدائنا الثياب الجديدة ، وترحيه بأبى ، وفتحته بمسنديق
الورق المقوى ، وفرده القمصان ، والملابس الداخلية والمناديل ، والجوارب ،
بينما تنبعث رائحة القطن المنسوج الذى لم يستعمل بعد ، والورق ، وخيوط
الدوبارة ، أذكره لأنه كان أبا لبنية جميلة ، رقيقة ، مشرقة الوجه ، اسمها
سعاد ، وقد احببتها حبا غريبا عجيبا ، سنوات متتالية ، فدائما أفكر فيها ،
وأحاول وضع نفسى فى طريقها ، وإذ أصغى إلى صوتها تنادى صاحبها فى
الصباح الباكر يخفق قلبى ، وقد كان وقتئذ صحيحا ، سليما ، لم تدركه العلة ،
ولم يُتَرَخ منى بعد ، عشقتها ولم أكلمها كلمة ، احببتها ولم أحاورها ، ولو
تصادف ورأيها فى الطريق أظهر اللامبالاة واكتم ما عندى .

استمر ذلك حيناً ، ثم باعدنى الزمن عنها ، وذات يوم كنت أتأهب للعودة إلى موطنى بعد رحلة إلى بلاد الانجليز ، طال بى انتظارى إقلاع الطائرة ، رأيت سعاد فى مواجهتى تقترب من مقعد عريض ، تستند إلى عكازين معدنيين ، ترتدى معطفاً رمادياً وبصحبها رجل ، لم أدر من ؟ أحد الأقارب ؟ زوجها ؟ لم أجد الاجابة ، ولم أسأل ، وقطعت الرحلة كمداً ، اختلس النظر إلى جزء من عمرى وأنا منفصل عنه لا أدرى ما حل به ، ولا أبلد المحاولة لأعرف مع أنه فى المتناول ، أرى سعيماً بجوار أبى عند مسجد الحسين عليه السلام ، نرتدى الخلتين ، لا أدرى مقصدنا ، ولا وجهتنا ، وإن بدا أبى سعيداً ، مرتاحاً لصحبة ولديه فى أجمل صورة ، انظر إلى صاحبي فى هذا المقام ، الصبى حامد ، تلك لحظة من اللحظات الأولى . ما يمر بنا يبدو عادياً فى حينه ، لا شىء يلفت النظر فيه ، ولا موجب للتوقف عنده ، حتى إذا ولّى وانطوى ونأينا فى الطريق وشط بنا السفر ، يلوح لنا ما كان خفياً ، وتوضح المعانى المكنونة ، فتقول : « يا حسرة على ما فات » ، أو « ليتنى أدركت ما فقد منى » .

فيا إخوانى فى الطريق ، يا أحبابى أوصيكم قبل أن يحين زمن الوصايا ، أن تنتهبوا إلى ما يمر بكم ، أن تعوا وألا تؤجلوا أو تفرطوا ، فرب لحظة قد تمرق عابرة تكون هى المحرك للشجن الدائم فيما تبقى لكم من عمر ، وربما تكون استعادتها مصحوبة بالحزن الثقيل الذى لا راد له إذا بددنا ما احتوته من فرص ، أوصيكم فلا تكونوا من الغافلين ، يرت الصبى حامد رأسى ، فكأنى الصغير وهو الكبير ، كأنى الجاهل وهو العالم ، يولى نظرى شطروم بعيد ، أرى خالى قبل أن يصبح خالى ، يبدو مهموماً ، فيما بعد لم أراه إلا مقطباً ، عابساً ، نادر الضحكة عسر الابتسامة ، يقول لجلى الجلوسة أمام

الفرن ، «أعرف نهاية هذه الزيجة ؟» تدفع جلدق أقراص العجين المتخمر في الشمس إلى جوف اللهب ، تعاتبه «أضقت بأخحك يا محمد ؟» ، ييسط يديه علامة الحيرة ، «كلام الناس كثير يا أمى وألستهم طويلة» ، ثم يقول «وعندما يجيء من مصر يدخل ويخرج علينا» ، تقاطعه جلدق ، «أحمد ليس غريبا علينا الآن ، إنه زوج البنت على سنة الله ورسوله» ، يتحدث خالى ، «لكنه لم يدخل بها بعد ، ولا أعرف رأس هذا الموضوع من رجله» ، فى هذه اللحظة تدخل أمى ، تحمل حزمة من البوص الجاف ، ترتدى جلبابا أبيض مقوشا بدوائر زرقاء ، وتعصب رأسها بمنديل أبيض تغطيه بطرحة سوداء ، ثبت نظرى عند ظهورها ، وجاشت فى عواطف شقى ، يسكت خالى ، لكن أمى تلاحظ ، وتفهم ، فتحزن ، وتدخل الفرقة التى سأولد فيها ، تستد فقها إلى ركبتيها ، وتخطط التراب بعود من القش ، هذا عمر لم أر فيه أمى ، وتلك حقبة من الحقب الغوامض ، ها هى ذى ساهمة ، تفكر فى حظها ، وما يتظرها ، وكلام الناس ، ما يضايقها ويؤلمها كلام الأخريات ، يقابلنها عند خروجها بنظرات صامئة تضج بالرتاء المصطنع ، والشماتة الخفية ، البنت صافية تسألما بصوت منغم «متى ستسافرين إلى مصر يا بختية ؟» ، فتقول باختصار قاطع لاسترسال الحديث ، «لما يأذن الكرم» ، استوقفتها البنت خديجة ، فى صباح منقضى ، سألتها «أحمد لم يرسل خطابات ؟» ، تنظر إليها أمى صامئة ، تمصمص خديجة شفتيها ، «يعنى كان لازم تتزوجى واحد فى مصر، والنبي كان أولى بك واحد من أقاربك هنا» ، تصادف مرور اللودة امرأة الغدير التى استقبلت خروجى من رحم أمى ، سمعت غمز ولز البنات وكانت اللودة تحب أمى حبا جما ، وتخشى أن تغيبها ، أو تسكت عن إغصائها ، ألم يخترها الكرم الغائب - والد أمى -

من بين أهل البلدة أجمعين ليبلغها رسالته إلى امرأته ، ويوصيها بابهته ، زعت الدودة في البنات «يا قليلات التربة ، قطع الله ألسنتكن ، والله بخبة مستصبح أحسن منكن ، وظفرها يرقابكن كلكن» ، ترجع أمى إلى البيت ، تتروى في الفرقة ؟ أو فوق سطح البيت ، بعيدا عن الأنظار ، لماذا لا يريد أن يصحبها إلى مصر؟ ، إنها أول بنت من بيت باشا يعقد قرانها ويمضى عامان وزوجها لم يدخل بها بعد ، عندما يحىء من مصر يأتي بقاش جلباب ومنديل وطرحه وعلبة حلوى طحينية وقرصين من السكر ، وعندما يأتي أحد الأقارب يرسل معه ثوبا ، أو قاش طرحه ، في البداية كانت تتباهى بما يرسله ، وعندما تزورها احلى القريبات ، أو تدخل البيت احلى الجارات ترقب أمها راضية وهى تعرض ما بعث به أحمد ، ولما امتد بها الزمن ، وتأخر الموعد ، وتأجلت البداية ، لم تعد الهدايا تثير مباهاتها ، بل أصبحت باعثة على قلقها ، بدأت غربتها بين أهل ، لم يعد مذاق اللقمة نفس المذاق ، ولا الرقاد نفس الرقاد ، إنها في عصمة رجل الآن ، لكن الرجل بعيد ، وهى هنا ضيفة تنتظر الرحيل ، والرحيل طال ترقبه ، والحق أن أمها لم تبد إلا حنانا وعناية ، بل إنها تتعمد أمام الزائرات الفضوليات ، أن تتكلم عن بيت يعله أحمد في مصر ليتزوج فيه ، بيت كبير فيه نوافذ فسيحة وستائر ، ومقاعد مكسوة بالقטיפه ، وحجرة نوم فيها سرير ودولاب ، والسرير عليه ناموسية ، والبيت فيه دورة مياه ومطبخ ، تصفى أمى فيخشى قلبها ويهفو قوادها ، خاصة أنها سمعت الجدة نجمة تقول إن بعضهم رأى أحمد في مصر ، وأن أحواله ضئك ، وأن أموره عسرة ، فتردد أمى لنفسها ، عسرة أو صعبة ، ما يهمنى أن يستغنى من البلدة ليسكت ألسنة النسوة ، حنوا أمها عليها يخفف من ضيقها ، وفي الوقت نفسه يؤلمها ، ترى حظها المائل ، وتتساءل عما فعلته ، هى التى لم تغضب ربها

أبدا ، ماذا فعلت حتى تصبح جرمة ؟.

رأيت أيام أُمى فى جملتها ، كأنى أرى يوما حوى جميع أيام غربتها ، وانتظارها الملىء بالهواجس والظنون ، أشار الصبي حامد إلى موضع من الأرض يجلس فوقه أبى وخالى ، يبدو خالى جها فوق تجهمه ، يخط فى التراب بأصبعه خطوطا متقاطعة ، لحظة فاصلة سيقرر فيها أمر ، يقول خالى «شوف يا ابن الناس ، بناتنا مش لعبة» ، أشفق على أبى وألوم خالى ، قسوة فى غير محلها ، وجفاء أخطأ موضعه ، غير أننى بمنأى ، وليس عندى حيلة فى تبديل ما تم بالفعل ، هذه حقيقة ، وبرغم ذلك داخلنى خاطر بشرى إذ خفت ألا يتم الأمر وأن يفسخ العقد. فلا أجدى ولا ينجبنى والدى مع أننى كائن بالفعل ، مع أنى أتم وأسى ، يصغى أبى ثم يقول ، «فى المرة القادمة سأصحبها معى» ، يقول خالى «لا ترعل من الحق» ، يقول أبى «الحق ما يزعل أبدا» ، يتغير الضوء النهارى ، أرى سبع غوايش ذهبية نحيلة وخاتما يعلوه فص من فيروز ، وقلادة من ذهب كبيرة الحجم ، تتلى منها جنيات ذهبية مستديرة ، ورموسا لأبى الهول ، ومثلثات منمنمة ، وحلقا على هيئة هلال تتخلله أغصان متفرقة متلاقية ، تلك حلى محفوظة فى صندوق خشبى عطر الرائحة ، مبطن بقطيفة حمراء ياقوتية اللون ، والصندوق فوق رف داخلى فى صوان ابنوسى عتيق ، قوامه على هيئة أقدام أسد مفترس ، والصوان فى منزل من طابق واحد تحيطه حديقة مسورة ، والمنزل فى ضاحية من ضواحي مدينة الخرطوم عاصمة بلاد السودان ، هذه الحلى تخص امرأة من أهالى هذه البلاد ، اعتادت زيارة مصر فى شهور الصيف بصحبة زوجها تاجر سن الفيل وريش النعام ، وفى إحدى زياراتها والزمن منتصف الخمسينيات ، رغبت فى زيارة ضريح مولاي الحسين القاهرى ، وبعد الطواف وقراءة الفاتحة عرجا

على سوق الصاغة القريب ، ودخلا متجر السرجاني الذي يعرفه رجلها ويتعامل معه منذ ثلاثين سنة بالتمام ، تفرجت وقلبت وأصعبها مجموعة حلوى مصنوعة طبقا للنظام القديم الذي بطل ولم يعد مثله ، اشتراها زوجها ، تقلبتها وزمت بها حولا واختالت بها ، كانت امرأة بليدة ترتدى الثوب الأبيض ، تكليب وتذلك جلدها بالزيوت العطرية الطيبة ، ولما أزف زمانها ، وتم وقتها في هذه الحياة الدنيا أبي ولدها الوحيد ، تاجر السيوف الفضية أن يبيع شيئا من بقاياها ، فحفظ ثيابها وحليها ، وأغلق على هذه القطع الذهبية صندوقا وأقسم ألا يفتحه مخلوق ما بقى حيا ، هذه الحلوى كانت لأمى يا إخوانى ، ومن قبل خصت جلتى ، وقد وهبتها لابنتها عندما تأهبت للرحيل إلى مصر بصحبة زوجها ، أمى جاءت بها إلى مصر ، تتقلدها في أيام الأعياد ، وعندما تمضى بصحبة أبي لترور أحد الأقارب ، أو أحد الأولياء الصالحين الراقدين في أضرحتهم ، احتفظت بها دائما في علبة فارغة من الصفيح في الأصل كانت لتعبئة الحلوى الطحينية ، واستمر ذلك سبعة عشر عاما ، وفي عصر يوم جمعة رأت أمى وجه أبي مهموما ضنكا ، كان عائدا من الصلاة ولقاء الأقارب والأصحاب في فندق الكلوب المصري ، فقد مستلما ظهره إلى الجدار ، بلنا متقلما في العمر ، مرهقا ، عرفت من موقعي في هذا المقام أن أحلامه القديمة موهودة تماما في هذه اللحظة ، وأن شاغله الأكبر اطعامنا ، وضمان استمرار تعليمنا حتى لا يجرى علينا ما جرى له ، لما نظرت إليه أمى حنت عليه واشفقت ، وكرهت أن تراه هكذا ، قامت متجهة إلى قبة تحت السرير تضع فيها الملابس وأغطية الفراش ، سجت علبة الحلوى القديمة فتحتها وتناولت غويشتين ، قالت ، «خذها يا أحمد» قالت «فك بهما ضيقتك وضيقتنا» ، قالت «فرج عنا وعنك ، لكن لا تقعد هذه

القعدة ، قال أبي « لن أمد يدي إلى حاجتك يا بنت الناس » قال أبي « ها أمانة ، غير أن حزم أمي لم يكن له راد ، فلکم تصمت وتخفي وتبسط وتداري ، لكنها في لحظة بعينها تجرد وتصبر ، فلا ينفع معها مراجعة ، تناو أبي الحلبي ومضى إلى الصاغة ، رهن ما أخذه ولم يبعه ، في هذه الليلة خرطه أمي البصل وسبحت الزيد ، وانتظرنا نفصج اللحم واكتمال دسامة المرق وقد سافر أبي بعد شهر إلى البلدة وعاد بإبحار القدان ونصف وسلة ملء بالبلح ، وأرغفة الخبز وأوزة مذبوحة ، وعلة سمن أرسلتها معه جدي ، ذه إلى الصاغة واسترد الغويشتين المرهونتين ، جاء البيت فرحا ، « أمانتنا يا بختية » ، ولم أسمع أبي يتأذى أمي باسمها إلا ساعات الرضا ، غير أن ضيق الحال عاد ، وكان ذلك مصاحبا لتقدمنا في العمر ، والمدارس ، والدنيا ، يرمي أبي الحلبي ، لكنه باعها ، وانفق منها علينا .

وقد اطلمت في هذا المقام على جهات متفرقة وجزئيات مني ، لم أكنها أو طبيعتها ، ولم أقدر على تحديد مواضعها الأولى في كينونتي ، لكن علمت أنها نمت وتمت بهذه الجنيات حصيلة بيع الذهب ، بيعت الأساور والحاتم ذو الفص الفيروزي ، وعندما بيعت القلادة الذهبية اختلف الوقع رأيت أبي كارها ، ورأيت أمي حزينة واجمة ، فهذا ميراث طويل ، وأء متعاقبة ، وفأل سيئ ، لكن أهناك شيء أغلى وأعز من الفنا ؟ ، وعند رأى البائع في متجر السرجاني أدرك بحاسته وموروثه أن أبي جاء بآ ما عنده ، وأنه ليس بعد القلادة بعد ، عرض الغوايش والحاتم والكردان وبيع جلد ممتد من ماضي أمي ، وقد أخفت ذلك عن شقيقها زمنا طويلا وكلما جاء إلى مصر في زيارة ، واستفسر منها ، أكدت له أن كل حاجاتها حرز أمين ، ثم تطوى الحديث طيا ، أيوجد أغلى من الفنا ؟ ، والفنا نحن

فند مجئى إلى الدنيا ومن قبلى ومن بعدى إحقق ونحن ضنا أبى وتعب أمى ،
وما أنا إلا واحد من سبعة اثقلوا عبء أبى وإن رضى بنا وسعى من أجلنا ،
خلف وكمال ، سبقانى وسبقانى ، فقد جاء قبلى إلى الدنيا ، ورحلا عنها بينا
أسمى أول خطوى فيها ، أما محمد فجاء بعد أخى اسماعيل وقبل أخنى .
والغريب المحير أنك لو سألتنى عنه يا خلى الوفى ، فلا اذكر عنه إلا
المشية ، وطريقة الخطو ، ولون الجلباب الذى ارتداه آخر مرة ، المشية عندما
كنا نعبى البوابة القديمة المؤدية إلى ميدان بيت القاضى ، صباح باكر ،
وشوارع خفت حركتها ، وقبة قلاوون الرمادية ، نهاية مدى الرؤية ، وأتوبيس
يتنظر اكتمال الركاب ليخضى إلى ميدان باب الحديد . وحوض المياه المخصص
لشرب الدواب من خيول وبغال وحمير أمام قسم البوليس لا يقف عنده إلا
حصان واحد مربوط إلى عربة مرتفعة تنقل الرمال ، أبى يتقدمنا حاملا مقطف
الحوص المحتوى على هديتنا إلى جلتى وخالنا ، أقشة جلايب ، وقطع
صابون ، وسكر ، وشاى ، وزجاجة من ماء الورد بركة من سيدنا ومولانا
الحسين ، أمى تمسك يد محمد أصغرنا وأضعفنا ، أما أنا واسماعيل فنخطو
بجوارها متماسكى الأيدي ، جلباب أخى محمد قطنى ، بنى فاتح ، خطوط
بنية غامقة ، يتلصص صندلا أسود ، يمشى مطرقا ، وهذه الأطرقة تضيئ عليه
ذاكرتى عمرا أكبر من عمره بكثير ، راح يجذب يد أمى ، ويتوقف رافضا
المشى ولم يكن ييكى ، كان رفضه صامتا ، لا يقبل على السفر ، حتى إن أبى
التفت طالبا منا أن نسرع وإلا فاتنا القطار ، قطار الثامنة صباحا ، بعد ركوبنا
القطار وتبدل المشاهد ومرورنا بالبلاد ومرورها بنا وتوالى باعة الطعام من سميط
وبيض وجبن ومياه غازية ومنشدو السيرة النبوية ومادجو الأرياء وأهل الجهاد
الكرام والشحاذون لم ييتسم أخى مرة واحدة ، إنما بقى صامتا ، ساهما ،

لا يستجيب للمدابة ، ولا يبدى مجاوبة ، وعلى هذا الحال مضت أيامه في
البلدة ، فهو ملتصق منكمش دائما إلى أمه أو جدته ، لم يخرج من الدار إلا
بصحبتها أو برقة أبي ، وبعد الخطو يلدو كارها ، راغبا في العودة حتى أن
جلتي احتضته ذات ليلة ولمست على ظهره وقرأت الفاتحة أربعين مرة لتطرد
عنه الشياطين ، في اليوم التالي لعودتنا من البلدة سخن أخى ، وارتخت
أعضاؤه ، واتسعت عيناه ، حملته أمى ، وصحبها أبى إلى طيب قريب ،
فكشف وكب الدواء ، غير أن قلب أمى لم يهدأ ، عرجا عند العودة على
الشيخ عطية ، وبعد أن بسمل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وتلا التعاويذ
والأسرار ، قال إنه اطلع على مالا يمكن قوله ، وأن هذا مرض لا ينفع معه
حجاب ، لكن اقرأوا آية الكرسي بعد شروق الشمس سبع مرات ، فإذا
طلعت عليه شمس يوم الجمعة القادم فسينجو ويشفى ويعمر حتى يتجاوز
المائة ، ليلة الجمعة نام أخى اسماعيل ، ونمت أنا ، وغفا أبى بعد منتصف
الليل ، ولم تدق أمى طعم الوسن ، وما أكثر الليالي التي قضتها ساهرة ، وقبل
آذان الفجر، للموعد نفسه الذى توفى عنده أبى ، قبل الأذان خرج أخى محمد
من الدنيا . قال الشيخ الذى صلى عليه ، احمدا الله أن الولد قبض طفلا ،
الأطفال لهم الجنة ، وهى يضاء من كل سوء ، غير أن أمى قالت بأكية ،
متعبة إن الولد شعر ، وأن قلبه الصغير أحس ، كان يشد يدها ويأبى الخطو ،
ليتها لم تسافر ، ليتها لم تسافر ، قال أبى : وحدى الله يا أم جبال ، هذه إرادة
الله . رددت ملانة ، ليتنا لم نقبل على البلدة ، قلبه كان يشعر ، أسألوني أنا من
كنت أمسك يده .

وهنا سمعت صوتا يتحدثنى ، ألفت ، حامد الصبي ، المنبوح مثلى ولكن
بأبدى القساة غلاظ الأكباد ، حامد يكلم نفسه ، « ليتنا لم نسافر... » ،

اطلت ودققت النظر وتعجبت ، تلك ملامح أخى ، ليس حامد الذى نجل
لى ، قصرت قامته ونخل جسده ، رأيت طفلا آخر ابن عامين ، خفت وكان
خوفى هذا خوفا خاصا فى قلب خوفى العام ، من وحلقى ، من الأغوار التى
أضرب فيها على غير معرفة بما سيصير إليه أمرى وما سيتقلب إليه حالى .
أتساءل ..

- « من أنت ؟ » .

يحيى الصبى الصغير بلسان حامد الذى يصحنى فى هذا المقام ..

- « أنا محمد شقيقك ، والرحم الذى أواك أوانى .. »

- « وحامد ؟ ، حامد الذى التقطت صورته صدقة ، ثم رأيته فى الصور

مذبوحا .. » .

قال :

- « هو أنا ، وما أنا إلا شقيقك فى نشأته الأخرى .. » .

- « لكن ؟؟ » .

- « أعرف يا أخى الأكبر ما يحرك ، لكنى جئت إلى الحياة الدنيا مرتين ،
فمرة تلممت جزيئى فكنت محمد الذى يصغرك ، ومرة جئت غريبا عنك ،
نائيا ، وأنت لا تدري .. لكن الأسباب جمعتنا ، إن الإنسان كان
جهولا .. » .

- « أنت هو اذن ؟ » .

- « فى المرة الأولى خفت السفر ، حاولت أن أنبه فلم يتبه أحد ، حاولت
أن أثبتكم فلم تتشوا ، وفى المرة الثانية تم قتل فجأة .. أخذت غدرا .
- بهرنى يا من تصغرنى وتكبرننى .. » .

- « كنت عامرا بالرؤى والمستقبل ، لكن لم يكتمل ذلك فى كلتا النشأتين .. »

قلت راجيا ..

- « بحق من رد المثل إلى المثل وربط الشكل بالشكل وجعل سكون البعض إلى البعض ، بحق من يقف الأدوار ويغير هذه الأطوار ، ويبدل الأحوال غير الأحوال ، امانة ثم إحياء ، بحقه دلتى يا أخى الأصغر ... » .
أشار بيده الصغرى :

- « انظر » .

فتوجهت ببصرى إلى حيث أشار مع أن الجهات منعلمة ، رأيت بقعة من عالمنا الدنيوى ، واضحة بكل ما حوت ، غير أنى لم أدر المراد ، ولم أوفق ، فاثبتت ببصرى ، وإذا بشقيق ناء عنى ، عباراته خرص ، وإشاراته طمس ، استفسرت حائرا ..

- « أى موضع هذا » .

هنا خاطبني الهاتف :

- « هنا ستفارق ، وهذا آخر ما ستراه فى دنياك .. » .

حولت البصر لأدقق واستوثق ، غير أن ما كشف لى تم محوه ، فقدت الفرصة ، وغامت الجلوة ، وكان قلبى غريبا عنى فلم يتقبض ، وصدرى مسترعا منى فلم يضيق ، وكان وعيى بشريا فاغتم ونحسر ولم يفرح بما خصصت به ، بما دلتى أخى عليه ، ذلك أنى يا احبائى رأيت الموضع الذى ستغرب عنده شمسى ، وتأفل فيه نفسى ، وينسدل ليلى ، المكان الذى ستبطل فيه صورتى البشرية ، وهذا كشف لم يقع لمن سبقونى فى الطريق ، أو من ولجوا شتى المقامات ، وعرفوا الأحوال كلها ، فكما تعلمون أن المستحيلات خمسة ، هو جل شأنه وحده عنده علم الساعة ، وموعد نزول الغيث ، وما فى الأرحام ، وما ستكسب الأنفس غدا ، وبأى أرض ستموت . لكننى ضيعت

ماكشف لى بغفلتى ، ولكم قعدت ، غير أن هذا الفقد نفيس ، غال ،
حننت إلى شفيعى ومولائى الحسين ، فكان حالى كما قيل ..

أدبتنى بانصراف قلبك عنى فانظر إلى فقد احسنت تأديبى ..
غير أنه عنى فى بعد بعيد ، وعند هذا الحد من ذلك المقام أدركت بدون
حاجة إلى تنبيه أو اشارة أن المقام قد أوشك ، وأن الأوان قد دنا ، فأخذت
الأهبة لاستكمال القصد ، وسبحانه من إذا أجمل أكمل ، وإذا شفى كفى ،
وإذا وفى أوفى .

* * *

مقام القَرَى

• ثالث المقامات ، أخر حد القلة
وَأول حد الكثرة •

نظرت فرأيت بابا مفتوحا ، يتوسط سورا ممتلئا صيغ من ظلال
فجرية ، حيث تتداخل الألوان منبثة بذهاب ليل وشروق شمس ، كل
بصرى عن رؤية آخره ، ولكم بدوت فى مواجهة لانهايته ضيلا ، فى حاجة
إلى من ييده الملك كله ، الباب بلا حاجب أو بواب ، بدون مغلاق أو
رتاج ، اقتربت منه ، وتوقفت أمامه ، حتى خفت عنى غشاوة نظرتى لشدة
صفاء الضوء ورقته وحلاوته ، لما أنست وكشفت ، رأيت خوخة مغلقة ،
فتمنيت أن اقرعها ، لكن أتى لى ذلك وأنا بلا يدين ، بلا ساعدين ، بلا
أطراف تشير أو تشرع ، بلا حول ، بلا شفيعى سيد قوادى حسينى الوحيد ،
الشفوق على فى مسلكى وغربى ، وشتاقى وهجاجى ، حتى وان قسا على ،
حتى وإن نهزى ، حتى وإن عاقبنى ، فشدته لصلاحى ، واستقامة ما اعوج
منى ، وإتمام افاقى ، واستدراك أمرى ، شرعت لأقرع الخوخة بجبهتى ، غير
أن صوتا خاطبنى لم أدركه ، « لا تفعل ، حتى لو ملكت يمينك وشمالك ،
لن يقرعها إلا من وقى ، وأنت لم توف بعد ، فهى مغلقة فى وجه كل
ناقص .. » قلت محاورا ومجادلا ، لقد كان الإنسان أكثر شىء جدلا . « لكننى
أسلك الطريق .. » .

قبل لى ..

- « ذلك لا يعنى الكمال ، والوصول لا يعنى التمام » .

إذن فببني شاسع ، وبباني واسع ، غير أن عزيمتي لم تفت ، ازدادت قربا ، فانقطاع الأمل عن بلوغ المراد هلاك محقق ، بدأت سعيي حول السور لعل أنفذ ، لعل انخطئ ، دقت البصر المحدود في لبناته لعل الملح فجوة فيما بينها ، لبنات الضوء هذه ، لكم تبدو متراسة متصلة ، بعد مدى لم أدر مقداره لحت موضع لبنة ناقصة فدنوت حتى ملأت فراغها ، ولم أزجر ، فراغ على قدر رأسي ، أصبحت كينونتي غسقية ، أصبحت جزءا من هذا السور ، وكنت أشعر باللبنة المجاورة لي ، والتي فوق ، وتحتي ، تطلعت ، إلى ما وراء السور ، تلك أيام نائية ، اتسع مدى الرؤية ، صرت قادرا على رؤية شيئين في وقت واحد ، والتمييز بين متباعدين بنفس النظر ، أرى ما لا يتسع لاستيعابه ثقب ابرة ، وامييز تفاصيله ، وأرى اليباب الشاسع ، والمساحات والنواصي والسماء كما تبدو من السهول الفسيحة ، وكما تلوح من الأزقة المتعرجة المتداخلة ، وكما تبدو من خلال غمام الأعلى الطافي .

رأيت أمي ، تمشي فوق الجسر ، ملتحفة بالشقة السوداء ، خافقة النبض ، رمادية الحواطر ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، هي التي طال انتظارها لهذه اللحظة ، بجوارها خالي ، وجدتي ، وأبي ، والشيخ عبد اللطيف الذي سعى في زواجها من أبي ، وجمع من الأقارب ، منهم محمد أحمد علي ، شقيق امرأة خالي ، طويل ، مهيب ، دائم الفكر والنظر إلى بعيد ، وقد رأى خروج أبي من الدنيا ، ودعه وخاطبه ، ولكن لا يتسع المجال لذكر ذلك في هذا المقام ، فصبرا جميلا ، ها هي ذى أمي في زمن لم تلتنى فيه ولم تحمل بي بعد ، تقف فوق الجسر ، تجاهد النفس أن تبدو فرحة حتى لا يحزن قلب أمها ، يصعب عليها فراق البيت الذي عرفته وعاشته حتى وإن كانت ماضية

إلى بيتها ، إلى مصر التي يحكون عليها ويضربون بها المثل ، إنها وجلة ، تسأل نفسها ، ماذا كتب لى فيك يا مصر؟ ، بنفس نظرى وعين بصرى أرى يوما من أيامى أنا ، أرى نفسى فأفرح ، وارتاح ، يوم أن سعين إلى وسط المدينة وعدت بعربة نقل قديمة ، صغيرة ، يقودها سائق عجوز ، لأنقل كتي وحاجاتى إلى بيتى الجديد ، ادركت ثقل اللحظة على أمى فحاولت مداراتها وتخفيفها بالحركة ، وشارك أمى معى فى ترتيب الصناديق ، والأوراق ، وتناولت كراسات وبضعة كتب رجوتها أن تحتفظ بها عندها وألا تطلع عليهم أحدا ، مشيرا وملمحا إلى دقة وشدة خصوصية ما بيننا ، وأنها الموضع الأمين حتى وإن توالى الأحوال وتغيرت ، وتنقلت أمى بين الكتب ، تبدى المساعدة ، وتشير إلى مانسيت أن أضعه ، فأقول لها ، « لا .. سأتبقى هذا هنا » ، تتعاون معا فى حمل ثقل اللحظة ، يساعد كل منا الآخر فى انقضائها ، تبدى السرور وتطلب من ربى الكريم السر والتوفيق لى ، تبسم وتخطبني باسمى فى مفتتح كل نداء ، عندما اتهمت نقل الكتب وقبل صعودى إلى مقصورة القيادة تطلعت إلى الشرفة الحجرية العريضة ، تطل أمى ، رأيتنى بعينها ، ترقبى ، تتابع اهتزازات السيارة القديمة حتى يتم تحركها وتقدمها ثم اختفاؤها عند نهاية الطريق ، تبقى واقفة ، تتطلع إلى الجهة التى مضيت إليها ، ترجع إلى الصلاة ، تنظر داخل غرفتى ، الدواليب التى أصبحت فارغة ، بقايا أوراق متناثرة هنا وهناك ، سريرى الذى خلا ولن أقضى فوقه إلا ليلة واحدة ، لم تحل الغرفة من الكتب ، انما من عمر بأكمله ، قطعة منها ، تغالب دمعها ، حتى لا تذرف وعرسى وشيك ، هذا شؤم ، تضم شفيتها ، تصرهما ، حاول جمال أن يخفف عنى ، جمال ابن حلال ، وعروسه طيبة تودنى ، تطرق ، تباعد البصر عن الحجرة التى اتسعت فجأة ، ما ولى لن يرجع قط ، وما كان كان ، والقادم غير الراحل ، هذه حقيقة .

هنا أرى جدتي تقف فوق الجسر ، في نفس الوقت الذي أرقب فيه أمي
تجلس مطرقة صامئة في صالة البيت ، فوق المقعد الذي اعتادت الجلوس
فوقه ، في مواجهة التلفزيون ، تلف رأسها بطرحة بيضاء من قماش خفيف ،
جدتي النحيلة التي قدت من صبر وجلد لا تغيب البسمة عن شفيتها ، حتى لا
تذكرها ابنتها دامعة ، ويا عالم .. متى يلتقي الحى بالحى ، فصر بعيدة ، والسفر
طويل ، وحتى لا يكشفها صمتها ، تميل إلى أمي ، تذكرها بضرورة تسخين
الحمام المذبوح والأوزة بمجرد وصولها ، وأن تفرد الأرغفة حتى لا تعطن ، وأن
تفتح صفيحة السمن على مهل ، إنها ممتلئة ، وتذكرها بالبلح والملوخية الناشفة
في الكيس القماشى ، ثم تحذرها من أولاد الحرام في مصر الذى يخطفون الكحل
من العين ، يجب ألا ترتدى الكردان الذهبى إلا عند زيارة عزيز أو قريب
حميم ، أما الغوايش فلا تنزعها عن معصمها أبدا ، وألا تظهرها أثناء مشيا في
الطريق ، أمي تهز رأسها ، أرى كل ما وقعت عليه عيني أمي منذ ركوبها
«الحلزونة» ، وبجىء القطار ، وتردها الحذر عند خطوها داخل العربة ، ورنين
جرس محطة طهطا ثلاث مرات ، وزفرات القاطرة السوداء البخارية
وضجيجها ثم حركتها بداية في بطء ثم تزايدها وتراجع وجوه الأحباب ،
وخجلها كذا ارتباك أبي عند انفرادها وحتى نزولها ميدان محطة مصر ، نفس
الميدان الذى نزل فيه أبي من عربة نقل الموتى ، لكن شتان ما بين وصول
ووصول ، صحيح أن الوصول واحد لكنه يحوى الوحدة والتعدد فتأمل
ذلك ! .

في هذا الميدان انتظرت أبي وكنت له الدليل والمدرج قبل مجئى إلى
الدنيا ، لكننى الآن انظر إليه وأنا مجرد لينة في سور لا أدري أوله من آخره ،
سمعت ما تتبادلانه من حديث طوال الطريق ، في جملة ومعناه وتفصيله
ومفرداته ، وقد كان أبي حنونا على أمي ، عطوفا ، مراعىا بدء غربتها عن

أهلها ، فنعى صاحب هو والأمين على من رافق ، أحيانا لا يدري ما يجب قوله فى لحظات الصمت التى تمتد بينهما ، تحدث عن البلاد التى يمر بها القطار ، وفصل عند دير مواس حيث بلدة الرجل الذى انقذه من هلاك مبین ، الباشجاويش أحمد حسين ، تسمع أمى به أول مرة ، وفيما تلا ذلك من عمر سمعت عنه مرارا ، وتحدثت عنه أيضا ، وعن امرأته ، ولم ترهما أبدا ، ولم تلتق بهما قط ، فالرجل لم يأت إلى مصر ، وأبى لم يصحبها معه فى زياراته المتباعدة المتفرقة ، تصفى أمى إلى أسماء بلاد لم تسمع بها ، أسوط ملوى ، الفشن ، بيا ، العياط ، البدرشين ، الجيزة .. أخيرا مصر ، إذن .. هذه هى مصر ، مصر التى تضم آل البيت الكرام ، ستورهم كلهم ، أوصتها أمها أن تقرأ الفاتحة ثلاث مرات عند ضريح سيد الشهداء ، الحسين ، مرة حتى يوفقها مع رجلها ويرزقها الله بالذرية الصالحة ، ومرة لأمها - جلتى - حتى يهون عليها ما تلقاه ، ومرة لأبيها الغائب حتى يستره الله فى غرته التى طالت ، وأن يعيده سالما ، ستضرع إلى السيدة الطاهرة ، رئيسة الديوان ليحنن قلب رجلها عليها ، ولتقويها حتى ترضيه . يتوقف القطار ، أشد ما أقلقها نزولها إلى الرصيف ، هذه الفجوة برغم ضآلتها وضيقها بين سلم العربى ورصيف المحطة تريبكها وترجفها ، على مهل تقترب ، تنزل ملاسة الأرض بقدمها اليمنى ، تماما كما ستدخل بيتها بقدمها اليمنى ، يقترب حمال ، يشير إلى القفتين غير أن أبى يهز رأسه ، سيحملها هو ، تتطلع إلى الزحام حذرة وجلة ، دهشة ، حتى أننى أشفقت ورققت لها فتمنيت لو مددت العون ولو بظهرى تأنيسا لها ، لكن آتى لى ذلك وأنا بعيد ، منفصل ، وهى لم تنجبنى بعد ، تخشى أن يتوه عنها أبى ، أو تتوه عنه ، هذه المركبات خارج المحطة وتدافع الحلق ، كلهم اغراب ، كان فى وداعها جمع هو أهل ، لكن

لا أحد في انتظارهما ، تحق ملاحظهما بشد طرحتها ، يطلب منها أبى أن تنتظر حتى يأتى بعربة أجرة ، تقف وحيدة ، ترقبه ، تمنى ألا يغيب عن بصرها ونظرها ، إلى يمينها قفة الملابس وفي طياتها علبة الحلوى ، وإلى يسارها قفة الخبز والأوزة وصفيحة السمن ، وهذا أول انتظار وأول وحدة ، كنت أراها من جهات مختلفة ، عن قرب فأتملى من ملاحظها . وعن بعد فلا ألمح إلا شابة صعيدية تقف وحيدة بجوار اغراضها ، ومن علو فلا أرى إلا ثيابها السوداء ، نقطة في نهر المارين والمتظرين والساعين الراكين والمترجلين ، تلك من ستكون أُمى ، يخفق قلبها إذ تتوقف أمامها عربة الأجرة ذات اللونين الأسود والأبيض ، لكن روعها يهدأ ، ونبضها يتمهل عندما ترى أبى بجوار السائق المعجوز الذى تطلع إليها ، وطلب من أبى أن يسرع فالوقوف هنا ممنوع ، يتناول أبى القفتين ليضعهما فوق العربة ، يقول السائق إنه ليس لديه حبل ولكن الشبكة الحديدية ستحفظها من السقوط ، ثم يتبع قوله بتروله ، يلامس أرض الطريق بقدم واحدة والأخرى داخل العربة يلتقى نظرة ويومئ لأبى ، تتوالى الأضواء الخافتة المنبعثة من المصابيح العلوية بالأزرق ، فالدنيا في حرب ، والأخطار محدقة ، كان أبى يلفت نظرها إلى ما يمران به ، هذا كوبرى قصر النيل ، وهذا كوبرى بديعة ، فى هذه الناحية وزارة الزراعة حيث أعمل ، سررت أنا فى مقامى هذا ، ارتحت وأنا مجرد لبنة مضغوطة فى السور المحيط بهذا المقام ، ذلك أن أُمى ابتهجت وانست للحظات ، فذلك دنيا غير الدنيا التى تعرف ، كما أنها اطمانت ، فأحمد - أبى - يبدو واثقا ، قادرا على التصرف ، لا يهاب أولاد مصر ، وهذه جنينة الحيوانات .

تنظر إلى البيوت المرتفعة ، والشارع العريض ، تتبدل مشاعرها فيقع فى قلبها خواء مفاجئ وحزن ، منذ لحظات ارتفع آذان العشاء ، أين أمها الآن ؟ إنها تسمى بصحبة نساء البيوت المطللة على الرحلة إلى الحاد - أو

الخلاء - القريب من ساقية بيت باشا ، أثناء صلاة العشاء واجتماع الرجال فى المسجد ، يخرجون ، كل منهم تحمل وعاء الماء الساخن ، البيوت لا تحتوى على دورات مياه ، عدا بيت الشيخ صالح العمدة والمبنى من الحجر ، وبيت الشيخ محمود أحمد المدرس بالمعهد الدينى فى بندر سوهاج ، فى هذا الوقت لا يسمى رجل إلى الخلاء وإلا عد ذلك جرما يستحق العقاب والجبرة ، أمها فى الخلاء الآن ، بالأمس كانت تصحبها ، الليلة الماضية ، تلك التى لا تفصلها عنها ليلة أخرى ، أما الآن فإنها بعيدة ، نائية ، مترجع وحيدة ، ستفنى ليلتها فى ناحية وهى فى ناحية ما بينها بلاد وعباد وخلق ، اعتادت النوم إلى جوارها ، فى تناول أنفاسها ، ورائحتها ، شعرها وثيابها ، وقلقها الليلي أحيانا ، إذ تقعد فترات طويلة ، مصغية ، ربما تلتقط أذناها صوتا يشبه صوت زوجها الغائب ، أو علامة على طوافه حولهم أو اقترابه منهم ، يحل بها خواء وحزن رهيف وحنين قاس ، وقد عرفت مثل ما عرفته أمى فى لحظتها هذه ، عندما أرسل إلى صاحبى وأحد أدلى فى الطريق محمد عودة يطلب منى اصطحابه إلى مدينة الإسكندرية ، ترددت ، بل احجمت ، بسبب ضيق ذات يدى وقتئذ ، لكنه قال إن الرحلة لن تكلفنا كثيرا ، وأنها ليلة أو ليلتين ، ثم قال لى ، وعلى أية حال ، لا يهملك الأمر ، نزلنا فندقا مطلا على البحر ، وعندما تطلعت إلى الأفق الأزرق ، حزنت على الرغم من مواقيت الهبة التى تنتظرنى ، ذلك أنى تذكرت أمى ، وسعى أبى ، ونأى أشقائى ، رددت ، أمى لم تر هذا البحر أبدا ، لم تطل عليه ، ولم تنسم هوائه ، ليس ما شعرت به وقتئذ إلا ترديدا لما مر بأمرى عند وقفها أمام هذه العمارة ، فكان وحشة أمى هى الأصل وكل ما مررت به فى لحظات متعاقبة هو الفروع والأطراف ، يبدو أبى وكأنه ينفى شيئا ، لم يطل الوقت ، يقول لها إن الحجرة

التي ميعشان فيها لابد من انتظار أسبوع أو أسبعين حتى تخلو من سكانها
الحالين ، يتوقف فجأة ، يسألها ، هل سمعت عن الشيخ قيصى ؟ ، نومي
أمي ، غير أنها تنطق تساؤلا وحيرة ، « يعني احنا مش رايحين البيت » ، يقول
أبي إن الرجل دعاهما وأقسم بينا بالثلاثة ألا يتزلا عند شخص غيره ، ثم إن
امراته طيبة وتعرف بنات باشا كلهن ، تطرق أمي حائرة ، يشق عليّ حالها ،
لكنها مستسلمة ، ليس يلبها من الأمر شيء ، ثم إن وقوفها في الطريق
ضايقها ، فلكن تبدو الطرقات واسعة ، مؤدية إلى المجهول ، وعمة الحرب ،
والعربات كأنها سفلت فجأة وتتدفع تجاهها ، تطلع السلم ، يتقدمها أبي
حاملا القفتين ، « ما المقدر لي فيك يا مصر ؟ » ، « ماذا يستظرن فيك
يا مصر ؟ » ، يبدى الشيخ قيصى ترحيا ، ونحيب أمراته لتجلس بجوار أمي ،
وتطل فتاة صغيرة من الباب ، تنظر ثم تولى ضاحكة ، ويحى صبي صغير ،
يسلم وينصرف ، يتقل أمي خجل كثيف ، لا تدرى ما يجب قوله ، ولا ترد
إلا بحمد الله . أو تأكيد أن الكل في البلد بخير ، وإذا تلمظ نظرات امرأة
الشيخ قيصى الطويلة الفاحصة ترق ، وتطرق ، ويلق قلبها وتتمنى لو أنها
لم تبح إلى مصر ، على مهل تتسحب إلى داخلها ، تلمم تعبيراتها وإيماءاتها
وكل ما يمكن أن يفصح ويبدى ما في سريرتها ، يقول الشيخ قيصى
لامراته ، قومي اعلمي لنا العشاء لناكل لقمة ، يبدو أبي مبهجا طلقا ،
يتحدث عن أخبار البلدة ، وعن الحرب ، والألمان ، ثم يقول إن الناس في
جهة بعيدون عن كل ما يحير ، تعود الابنة الصغرى ، تحتل النظر إلى
أمي ، تشير إليها ، ترفع الطفلة كنفها الصغرى رافضة ثم تخنق ضاحكة ،
تجلس أمي إلى جوار أبي ، لم تعتد القماد فوق كرسي أثناء تناول الطعام ، لم
تأكل أبدا في جمع غريب ، حتى أبي لا يزال غريبا عنها ، وإن بدأت ألقتها

له ، فبين هؤلاء هو الأقرب ، تمسك الرغبة ، اعرف هذه المسكة ، هذه النظرة ، هذه الاطراقة ، أعرفها ، فقد رأيتها مرارا عند مجيء أمى إلى بيتى بعد زواجى ، تطلعها من يحيط بها ، وهذا الهدوء الصافى ، الرائق فى عينها ، تلك لحظة ميلاد أو بدء هذا الوضع . تكرر امرأة الشيخ قيصى رجاءها لأمى أن تقبل على الطعام بنفس مفتوحة ، تؤكد أمى أنها تأكل ، الحق أن امرأة الرجل تبدو رقيقة ، حريصة على بث الألفة حتى أننى امتننت لها فى أسرى وموضعى هذا ، تتقدمها لترىها الحجرة ، تؤكد فى كل خطوة «البيت بيتك» ، فوق الأرض مرتبة مغطاة بملاء بيضاء ، وسادة عريضة ، لحاف واحد ، وبطانية واحدة ، تربت ظهر أمى «خذى راحتك» ، تصفى أمى إلى صوت أبى ، لم يعرف أبى الهمس أبدا ، وقد أخذت هذا عنه ، حتى أننى كنت أعجب فى نشأتى الدنيوية إذ أرى بعض صحبى يتحدثون فى الهاتف وهم بجوارى فلا أرى إلا حركة شفاههم ، لم أقتن هذا قط . تتطلع ناحية الباب ، كيف تغير ثيابها ، البيت غرب ، استضطجع بجوار أحمد هنا ، على مقربة من هذا الرجل الطيب وامراته ؟ غير أن ما ألمها وضايقتها رغبتها فك حصرها ، منذ الصباح ، منذ خروجها من البيت ، بيت أمها وأبيها - رد الله غربته إن كان حيا يرزق - منذ فراقها جهينة لم تذهب إلى دورة مياه ، متى وكيف ؟ فى القطار لا يمكن ، وهنا لا تعرف الطريق إلى بيت الراحة ، أثناء وقوفها أمام الحوض تغسل يديها وفهما والمرأة الطيبة بجوارها خطر لها أن تسألها لكنها لم تنطق ، فما البال الآن ؟ والباب مغلق عليها ، هل تفتحه ، ثم تعبر الصالة وقد تفضل سكتها إلى حجرة لا يرغبون دخولها إليها ، ولو طلبت من المرأة أن تدها فرما تسبب ازعاجا ، ان الحجل والألم الضاغط يثقلانها ، وهى لا تدري ما يجب أن تفعله ، إلا أن تجلس بجوار الجدار ، فى ملابسها ذاتها ،

تصفى إلى الليل ، والوجع الكامن ، وقد ضاقت عليها الأرض بما رحبت ،
فتمنيت أنا الفرار مدبراً لشدة وقع هذا على ، وقلة حيلتي ، فما أنا إلا لبنة في
سور ضارب حولها ، محقق بها ، ذلك تقدير العزيز العليم .

ماكدت أحول البصر للحظة من زمني حتى وقعت عيناي على أمي في
نشأتي الثانية ، في الوقت عينه لم تنب عني أمي أنا لأنني أرى شيئين في
مكانين متباعدين ، وقد أخبرت بهذا ، لما رأيت أمي هذه ذكرت لور ، أي
تذكرت نفسي ، لكنني أحن إليها حنين العاشق ، واستعيدها بألم المهجور ،
فما أنا إلا منقلب من طرد إلى طرد ، ومن هجر إلى بعد ، ومن فراق إلى
احتراق ، فن لي بشمة من الاشتياق ، ونسمة من المحبة التي ولت ، قوى
على هذا الحنين الغريب المر ، لور ليست بمتناولي ، بعدت مع من ابتعدوا ،
راحت مع من راحوا ، مع أنها ما هي إلاي ، فإذا لم تكن معي فن أنا ؟ من
يحسن إلي ؟ من ينظر إلى برقة ؟ من يرحمني ؟ من يحن علي ؟ من ينثر الدواء
الشافى على جراحاتي ؟ من يهتم بشأني وبمن أسلو ؟

تطاول تأينا يا نور حتى كأن نسجت عليه العنكبوت

يتعاضلم عسرى ، ويصعب يسرى ، وأنا موقن ، أن مع العسريسرا ، أن
مع العسريسرا ، فلعل نهراً قريباً يعقب ليلى ، تلك أمي في نشأتي الثانية ،
حجرتها فسيحة ، مضيئة ، منضدة ييضاوية فوقها أوراق لم أدر فحواها ،
وصحف ، وقواميس ، وكتب دعاية سياحية لا ترتدى نظارتها الطيبة ، رأيت
أثر الاطار على جانبي أنفها ، جلدها في هذا الموضع افتح ، إنها في السادسة
والأربعين ، هي في عملها المسائي الذي تذهب إليه من الخامسة إلى العاشرة
ليلاً ، أرى تعبا كتمعي إذ يخلق بي الحنين ويغزوني ، وعندى جهل أتم بما
اشتاق إليه ، وهذا حال غلب على في نشأتي الثانية ، ورمى ظله على في نشأتي

الأصلية ، لكنه فى أصلى لازمنى ، وصحفى وطنى ، وقوى أثر رحيل أبى ، وبعد انقضاء سنوات على ذهاب جمال عبد الناصر ، وإيغالى فى حب مولائى الحسين ، كذا مع تضضع الآمال ، وضيق الأوضاع ، وزندة أنفاسى ، وإدراك استحالة تحقق الأمنيات ، وتقلصى فى العمر خبىيا ، هذه أسمى الثانية تستدعى إلى ذعننا المكلود هلهو أيام الآحاد ، أهل هذه البلاد لهم يوما عطلة ، السبت والأحد ، مساء السبت تنصر للطاعم ، من الصعب العثور على متصلة خالية ، صباح الأحد يصحون مبكرين ، يخرجون إلى الهواء ، إلى الحلاء ، إلى الغابات المحيطة بالمدينة ، أما هى فتتظر هذا اليوم لتنام ، والحق أنها لا تتأخر فى النوم ، بل تصحو فى الميعاد اليومى ذاته ، وأقصى ما تتاله من راحة ان تبقى راقدة مغمضة عينيا ، ليست مضطرة إلى الاستيقاظ بسرعة ، وارتداء ملابسها مهرولة ، ثم الوقوف على رصيف المترو . ما بين استيقاظها اليومى وركوبها القطار عشرون دقيقة ، لا ترى الشوارع واللافتات والمارة فوق الأرصفة والأشجار إلا من نافذة المترو فى المواضع التى يخرج فيها من النفق الأرضى ، أو من نافذة التاكسى الذى تضطر إلى ركوبه إذا ما تأخرت ثلاث أو أربع دقائق ، تصفى إلى القادمين من مصر ، يقولون لما إن حياتها فى هذه المدينة لا بد وأن تكون رائعة ، ممتعة ، ترى الحسد فى عيونهم ، ولم يكن يدور بخلدكم أنها هى التى تحسدكم ، بعضهم يحىء لأيام قليلة ، لكنه يرى من المدينة أكثر مما رأت ، ويعرف عنها أكثر مما تعرف ، كما أنهم سيتجهون إلى المطار ، يحطون مرة أخرى فى مصر ، بلا قلق ، بلا خوف من محاسبة ، أو احتجاز قد يطول أو يقصر ، تبدو لها أيامها فى مصر حلما على قدر ما تحللها من ضنك وضيق ذات يد ، وليت الأمر توقفت شدته عند الغربة ، والخوف من مرض مفاجئ ، والحشية على الابن

الوحيد من التيه في هذه الأصقاع ، أحوال أبي تتردى ، ولا يزداد عنها إلا بعلا ، يعيش على قديمه ، فما من جديد له ، والشعر عته يمتأى ، لا يطاوعه ولا يواتيه ، لا يتردد في قبول السفر عند تلقيه دعوة إلى ندوة أو مهرجان ، علما مصر التي يخشى نزوله بها ويتمناه ، علما سافر إلى اليمن عبر قضائها في الذهاب والإياب ، لكم حدثها عن حسرتة ، إذ يحلق في قضائها ولا يقدر على ملاسة أرضها ، وعن خوفه أن تضطر الطائرة إلى الهبوط ، عندئذ يتعرض للمساءلة ، ألم تهاجم الجلف الجاني ؟ ألم توقع يانا في يوم كنا ، سيثأرون منه لأنه رفض العمل معهم ، لأن ضغظهم عليه كان الدافع لرحيله وتشرده ، واختياره المني ، ودت لو أن اسفاره خفت عته ، لو أعادت السكينة إلى هياجه الروحي

في آخر رحلة وكانت إلى دمشق عاد مكتبا ، رماديا ، لما ألحت عليه أبي الانفصاح ، وازداد إيغالا في نفسه ، تذكر أيام سجنه في زمن عبد الناصر ، ويعدده القسرى الجسدى عنها ، ايصدقها انسان لو قالت إن ما عاتته وقتل يهون إذا ما قيس بما يمر بها الآن ؟ .

نعم .. أصدقها أنا ، وأفهمها ، وأدرك سر حنينها إلى ذلك الجزء من الدهر ، إذ عرفت ما عرفه زوجها الذي هو أبى في نشأى الأخرى ، ولهذا حديث ذو معنى أقصر عنه الآن فله موضعه ، أرى أمى أنا قابعة في حيز ضيق من غرة محنة ، أحقق وأدقق ، لم أدركم اقضى منذ مجيئها إلى مصر ؟ لكنها في بيت آخر ، ضيفة على امرأة تسمى نادية ، لم أدرك نادية من ، وأى قرابة تربطها بأبى أو أبى ؟ ، وان علمت أن البيت في منطقة روض الفرج شمال قاهرى ، وأن مجيئها إلى هنا لم يمض عليه سوى أيام مطبوعات ، وجهها ينبشني بتعب وضنى وحيرة ، لم أدركم مضى عليها في صمتها هذا ؟ .

لكننى عرفت أنها ملأى بالحنين إلى البلدة ، إلى البيت المكشوف فنأؤه ،
الذى لا يحجبه عن شمس النهار سقف ، إلى خبيز الظهيرية ، وسخونة
الأرغفة ، إلى رائحة الوقود إذ تلتهمه النيران ، إلى رائحة الفخار ، والماء بعد
أن يفرغه السقاء فى الزير ، إلى صومعة القمح ، وفتحها السفلى المغطاة بقرص
دائرى ، يزاح جانباً فتدق منه حبات القمح أو الذرة أو الشعير ، تغمرها
فتملأ يديها مبهجة ، إلى حريرتها فى الحركة ، صعود السلم إلى السطح حيث
عيدان الخطب وأقراص الجلة وأوعية الفخار المليئة بثمار الدوم الجاف ،
والبلح ، إلى اجتيازها الحاجز العلوى إلى بيت الجد أحمد اسماعيل المجاور من
الشرق ، أو بيت الجدة نجمة إلى الغرب ، إلى تنقلها من بيت إلى بيت عبر
السطح نهراً حتى لا تخرج إلى الطريق ويحرجها بالنظر غريب عنها ، إلى
جمىء أمها من السوق ، إلى عودة محمد شقيقها بين يديه منديل اللحم ،
ومنديل آخر به الطماطم والخضار ، إنه يسمى إلى الأسواق ، سوق الاثنين بنزة
وسوق الخميس بالطليحات ، أما سوق السبت فأقرب الأسواق لأنه يقام هنا
فى جهينة ، إذا تسر أمره وانفرج حاله يعود ومعه قع من السكر الأحمر ، أو
منديل ، يقدم إليها هدايا ، وعلى وجهه تجهم جبل عليه ، غير أنه بعد شربه
الشاي ، وتناوله فص الأفيون ، ودسه تحت لسانه ، وبدأ استحلابه على
مهل ، تلين ملامحه ، ويرتاح حاجباه ، وقد تبدو منه ابتسامة ، ويبدو كأنه
على وشك قول ما ، لكن يستمر صمته ، هاهى تغمض عينيها ، لا تبرح
مكانها مع أنها بمفردها فى البيت ، إذا رجعت الست نادية ورأتها فى الصلاة
أثناء عودتها من دورة المياه ، أو فى طريقها إليها ربما ظنت أنها كانت داخل
احدى الغرف ، أو أكلت فى المطبخ . لا تدرى متى سترجع الست نادية ،
من هى الست نادية ياربى ؟ لم يرد ذكرها أمامى ، ولم تحك لى أمى عنها ،

لكن هل سألتها أنا ؟ هل استفسرت منها ؟ اعلموا يا أحبابي الفطنين بمعنى الحروف وجوهر المعاني أن كثيراً من الأمور البسيطة ، التي تبدو للإنسان عادية ، لن تشغل حيزاً ولن تقتضى جهداً ، لا تتحقق ، ذلك أن الإنسان جبل على تأجيل ما يمكنه تحقيقه ويكون على مرأى من بصره وفي متناول يده ، بينما يتشاغل عنه بما ليس في متناوله ، انظروا إلى حالي مع أبي ، إذ كان بإمكانى مد اليد إلى واحد من أجهزة التسجيل التي بحوزتي ، وأن أحدثه ومحدثني ، وهكذا أبقي صوته بحوزتي فلا يضيع مني ، صدقوني إذا قلت لكم إنني شرعت في هذا عندما جاءني مرة زائراً ، يوم أربعاء ، ومعه نصف كيلة فول اشتراها لي من أقاربنا تجار الغلال وحملها هدية إلى بيتي ، خطرت لي وهو جالس أمامي أن أقوم وأن أحضر الجهاز وأن أسأله عما كنت أود أن أعرف ، عمره البعيد في جهينة ، ومجيئه إلى مصر ، عن الأيام الصعاب ، وأقدمت ، فعلاً ، قمت إلى حيث يوجد الجهاز ، غير أنني عدلت عن شروعي ، كنت مثقل الجفنين ، ينقصني نوم الظهيرة ، الذي اعتدت عليه ، ولو بدأت فسوف يستغرق ذلك وقتاً ، عدت إليه متثابراً ، كأنني أوحى إليه برغبتي في النوم ليعجل بانصرافه ، كأنني ... أليس هذا ما كتبه فعلاً ؟ يومها قلت له إنني أنوي تسجيل ساعة أو أكثر معه عن حياته ، قلت سأبدأ معك بعد عودتي من سفرى ، قال لي : والله يا بني أنا طول عمري شقي ، ولم أنتبه ، بل تقاعست ، وتكاسلت ، حتى ولت الفرصة إلى الأزل ، إلى الأبد ، لكنني اعاهدكم وأشهدكم على عزمي وتحقيق نيتي ، أن اتدارك أمرى وأن أشرع في ذلك لتوى مع أمي بمجرد رد قلبي إلى ، وتجمع أعضائي ، وعودتي إلى عالمي الدنيوي ، آه .. ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى . هاهي ذى أمي أنا تود في وحدتها لو بقيت في بيت الشيخ قيصي ، الحق أن امرأته حنون ، ولولا حياة

أمى لما شمرت بالغربة قط ، كانت المرأة تقعد معها وتسألها عن أحوال جهينة وأهلها ، وتوصى أمى بزيارة آل البيت ، ثم تسأل مداعبة ، نفسك فى ولد أو بنت ؟ ، فطرق أمى وتهمس قائلة كل ما يحى به ريتا مقبول ، له الحمد وله الشكر ، ليتنا بقيت هناك فى الحيزة ، لكنها خافت أن تثقل على الأسرة ، فسألت أنى عما تم فى الغرة التى ينوى استجارها ، قال إنه لم يتبق إلا أسبوع أو أسبوعان ، دمت عيناها ، ولم أدر من موصى هذا السبب المباشر الذى طفر بالدمع ، غير أن أنى تسأل مترعجا ، هل ضابقتها أحد ، هل عبس فى وجهها أحد ؟ هل اسمعتها امرأة الشيخ كلاما لا يصح التفره به ، بدا عليها جد أعلمه فقد خبرته مرارا ، قالت ، لا .. أبدا ، السيدة قلبها على ، يتقصها أن تضع لى الأكل يدها فى فمى ، فى يوم تال ، يقول أنى انهم سيتقلون إلى قريب له ، لن تطول اقامتهم عنده ثلاثة أو أربعة أيام حتى يوقع عقد الإيجار ، تبدو أمى مستسلمة ، ليس لها من الأمر شيء ، أراهما فى الطريق ، أنى يحمل قفة الملابس ، أمى تتأخر عنه خطوة ، يتعلق بصرها به ، تخاف أن يغيب أو يتوه عنها فتضيق فى هذا الخضم ومالها من قوة ولا ناصر .

أرى أمى فى نشأى الأخرى ، تختلس وقتا من وقت ، تفكر فى شخص بعيد عنها بالزمان وفى المكان ، تحمل فى حقيبتها خطاباته القديمة إليها والتى اصطحبها معها من مصر ، وأودعتها مكانا أميناً حتى استخرجتها فى الأيام الأخيرة ، تتوقف عند السطور التى بهت لون ملادها ، أمثل هذا خطه حبيب إليها يوما ؟ الحروف ، علامات انتهاء الجمل ، لكم تساءلت فى قديمها عما عناه بتلك الجملة ؟ أو هذه الفقرة ؟ تستعيد بعنوية وصفا ، أو كلمة ذات إيماء خاصة بين السطور ، لكم قالت إنه الوحيد الذى التقط جوهرها ، وادرك كنهها ، لكم توقفت أثناء القراءة لتسائل ، أحقا أنا هكذا ؟ لكم

حدث صمتها وحاورت سكونها ، تستعيد اندفاعاتها ، واسراعها الخطى وتدفق حيويتها ، وضيق الأماكن بها ، لو تعرف الآن مثل هذه النشوة ولو للحظات عابرة لدر نهداها حنيناً ولحفة ، ولأرضعت وسقت وروت ، ماذا لو أن المصائر تبدلت ؟ يعنى لم تكن لتنجبنى ! لا .. لا يمكنها تصور ذلك ، لو انجبت منه طفلاً أكانت ستحبه كما تحبني ؟ تنبض بالذنب لمجرد سماحها لهذه الحادثة أن تواتيها ، تمسك سماعة التليفون ، تدبر القرص الفضي ، أرى صورة نشأتى الأخرى ، يهفو قوادى ، أهذه بشارة بقرب رؤيتي لور ، أيقدر لى أنا اللبنة المضغوطة أن تستعيد ما كان ؟ ، لكن يبدو حالى غريباً ، فالعمر أكبر مما عهدت ورأيت فى مقام الاغتراب ، أجلس بمفردى فى غرفتي ، مرتدياً كامل ملابسى ، قبصى ، وجاكتى وحذائى حتى قبعتى التى لا ارتديها إلا عند المطر ، أسند ظهري إلى وسائد صغيرة ، احملتى فى التليفزيون ، مباراة ، لم أدر اللعبة ، لم أدر أى الصور استدعى ، وأى الأفكار تشغلنى ؟ يرن الجرس ، لا أكلف نفسى عناء النظر إليه ، أو رفع الساعة ، يتواصل الجرس ، سيدرك اليأس الطالب فيكف ، وهذا ما كان ، تمر دقيقتان من الصمت المكتمل ، يعود الرنين لكنه لا يستمر طويلاً ، بل انقطع تماماً ، وكان انقطاعاً يائساً لا ينبئ بمحاولة جديدة . أمى فى نشأتى الأخرى على الطرف الآخر متضايقة ، تتقأننى فى البيت ، لكننى لا أجيب ، تردد «ربنا يستر» ، تخشى علىّ على الرغم من انقضاء شهور تقطن أنها كافية لأنسى لور . لم يبدأ مقتها لأبى إلا مع اصراره وثورته وهياجه على انتهاء العلاقة ، وقتل لم تفهم ، حتى شكت فى أمور لا يصح لها أن تفكر فيها ، حاولت وجادلت لكنه بدا عصياً ، بل وصل الأمر أنه وضع بقاءه معهم فى كفة ، واستمرار علاقة ابنه بهذه البنت فى كفة ، لكم بدت أمى فرحة بهذه البنية صاحبة

الصوت الجميل التي تبدوا دائما كمستغرقة في حلم شفيف ، إذ تأتي إلى البيت قبل أن يراها أبي وتقوم قيامته كانت تفتح لها أبواب السلوى ، وتقبلها ، وتسرع إليها بما لا تحكيه لمخلوق ، ثم تللم حاجاتها وترتدى معطفها وتلوح بيدها منصرفة ، ثم تعود للحظة قبل بلوغها الباب لتذكر بموضع الشاي ، والطعام ، وتتصرف مهولة ، راضية لأنني عندما أحيت أحيت فتاة عربية ، لم تغوى واحدة من بنات هذا البلد ، وهذا عندها يعني أمراً ، لم تكن تدرى ولم أدر أنا أنني أعشق إلا صوري ، ولم أغرم إلا بكينونتي ، ومع ادراكي واقصاح كل شيء ضقت في موضعي هذا ، وشب بين جنبي فضول لأعرف ما أتاه أبي في حتى وحققها ، وسر ثورته وغضبه وأزمته ؟ تذكرت أنني أطلعت على بعض من دخيلة لور ، إنها تعرف أبي ، لكن متى وكيف ، لم أعلم .

.. تقول أمي أنا لأبي إنها يجب أن تغادري هذه السيدة ، يقول أبي إنه لم يتبق إلا يومان أو ثلاثة ، والست نادية .. تقاطعه أمي : يا أحمد أنا غير مستريحة هنا . لم يسألها أبي بل استمر صامتا ، حائرا ، وطال سكوت أمي ، لم تقل له إن هذه السيدة تسخر منها ، تنظر إليها طويلا أثناء الأكل ، ألم تسألها عما إذا كانوا يأكلون في أطباق أم في شيء آخر في جهينة ؟ وضحكت بلا سبب بعد أن أطالت النظر إليها ، ما لم تقله لأبي أبدا أنه بعد نومه وأثناء ارقها الليلي سمعت صوت خطى حذرة خفيفة تقترب من باب الغرفة المغلق عليها ، وأن شخصا ما توقف فترة ليسترق السمع ، لم تدرك أمي المرأة ، أم زوجها ؟ ، كل ما تمناه باب بيت يغلق عليها ، ودورة مياه تخصها لا يشاركها فيها أحد ، يمكنها التردد عليها في أي وقت ، ألا تضطر إلى انتظار ذهاب مضيفها إلى النوم حتى تنام هي ، وفراغهم من الطعام حتى تقوم ، ومضغ الأكل على مرأى منهم ، يخلصون إليها النظر وكأن كل ما ييدر منها لافت عجيب ، لا تبدى ردود فعل

على ملاحظات ونظرات وغمزات الست نادية ، لكن لا تقوتها شاردة ، اقشعرت عندما سألتها أول أمس ، لماذا لم تستحا منذ مجيئكما ؟ ، ثم اقلت ضحكة عالية انتهت بشجرة قصيرة اقلت منها ، غزر عرق أمي حتى ابتلت ملابسها الداخلية ، لم تفارق مكانها الذي تنام فيه حتى مجيء أبي ، بكيت حيننا ونزفت أشواقا بلا حصر إلى البلدة والبيت ، نمت لو ولت الوجه صوب جهينة عائدة ، لكن ماذا سيقول الناس ؟ والبنات اللواتي سيسخرن منها ويهزأن بمن ذهبت إلى مصر ولم تنفع هناك ، سيسمعنها الغمز المستر بالشفقة ، تفكر في أبي ، تعتب عليه أنه جاء بها قبل استئجار الغرفة ، وتشفق عليه لأنها تشعر بحيرته ، لم تنقل ضيقها إلا بعد مجيئها إلى هذا البيت ، وكرهها هذه السيدة ، لكن ماذا تفعل .. إنها في كرب عظيم ! .

هاهي ذى أمي في نشأتي الأخرى، تتردد قبل أن تتصل بصاحب لها في مصر، إن فارق التوقيت يجعل المكالمة الآن غير مستحبة ، سيرن الجرس في أحد بيوت القاهرة التي خلعت منها ، تعرف أن صاحبها يسهر لكن ربما تضيق زوجته بذلك . أحيانا ترد عليها ، تبدى الحماس ، إنها تعرف المرأة وما يمكن أن يخطر لها ، هي التي لم تعد تعباً ولا تهتم بتصرفات أبي ، وعلاقاته العديدة العابرة في هذه البلدة ، أحيانا تباغتها الغيرة ويتحرك الأسمى ، تمنى لو أن ما بينها استمر كما كان قبل مجيئها هنا ، لو أن جسرها لم يين ، ومدرجها لم ييل ، ترقب محاولاته الساذجة إخفاء علاقاته وتأسو وتخزن ، إنها لا تريد احراجها ، تعرف من صوته لهجته إذا كان بمفرده أو بصحبة امرأته ، من انطلاقه أو تحفظه ، من إسهابه أو إيجازه ، ليس بينها وبينه خصوصية ما يكون بين الرجل والمرأة ، تدرك أن العلاقات الإنسانية ذات ظلال عديدة ودرجات لا تخصي ، تستعصى على أطرافها ، فكيف بالقصى عنها ؟ ، تمنى

أن تتحدث الآن إلى من تثق به ، تشعر بوحدها ثقيلة الوطأة تلك الليلة ، هذه المدينة الكبيرة كلها لا يوجد بها من يصغى إليها ، ولأن الإنسان جبل على الرفقة والصحبة والانس لذا كانت الوحدة أشد الأشياء به ضررا ، وأقصى أنواع الوحدة ما كان اكتماله بين جمع وحشد ، ومن اضرار افتقاد الصحبة والرفقة أن تدفع بالإنسان إلى القرب ممن هم غير أهل ، عندئذ يحقق الضرر ، أُمى فى نشأتى الأخرى ، ليس من السهل عليها ثلاثة ، أن تمنح ثقتها إلا بعد عمر ، وعواطفها إلا هادرة متوهجة ، وجسدها إلا لمن تحب .

أرى أبى أنا يرتدى جلبابا ، يمشى فى حوار ضيقة متطلعا إلى واجهات البيوت ، يتوقف أمام دكان خياط ، أبيض الوجه ، طويل ، يرتدى طاقية صوفية ، ومنظارا طليا وتلك منطقة تقع وراء الجامع الأزهر ، أرى أبى يمشى فى شارع عريض يتوسطه خط حديدى لقطار حلوان ، يقسم بصوت مرتفع أن المدة لن تتجاوز ليلتين وأن امرأة الشيخ يوسف محروس طيبة ، وأنها هى التى طلبت بلسانها استضافتها بعد أن علمت بضائقها ، تبدو أُمى أنا مجتهدة ، أقل وزنا ، وجهها أشحب ، تكتم ما بها ، لا تريد أن تثقل على الرجل الذى لم تر منه مكروها حتى الآن ، إلا هذا التلطم على البيوت ، ما كان يجب أن نجىء مصر قبل أن يكون له بيت ، لكن ماذا بوسعها أن تفعل ؟.

أُمى فى نشأتى الأخرى تصغى إلى رنين الجرس على الطرف المقابل ، تنتظر الإجابة ، دهشت مع أتى عرفت العجب العجاب ، أى شىء قادر على استئارة وذهشة من حز قفاه ، من صر قلبه فى مندبل ، من تحول إلى لبنة فى سور ، ما جعلنى اتعجب رؤيتى لزميل أُمى وصاحبها هذا ، إنه أنا ، أنا ذاتى ، لذا كانت دهشتى أوعر مما مر بي فى مدينة فاس المغربية عندما قت بنفسى من نفسى مليا الإشارة ، لحظة أن رأيت جسدى يفارق جسدى ،

قبل بدء معراجي ، مودعا هذه الدنيا صورتي البشرية تسعى وتجاوز تصني وتقوم بكافة ما قدر لي أن أقوم به لو أن غيبي العظمى لم تبدأ ، فكنت ولم أكن ، ما حيرني أنتي أرى صورتي البشرية لأول مرة تقوم بما لا أعرفه ، وتأتي مالم آت ، حياة أخرى بعيدة عني ، غريبة علي ، رأييني أقوم من نفس غرقي التي أعرفها ، واحفظ مواضع الكتب بها ، بإمكانني سماع حفيف ثوبي ، لكنه ثوب لا أعرف لونه ولا قاشه ، ثوب لم اشتريه أنا ، باستطاعتي رؤية منبت شعيرات لحبي الخليقة تماما ، لم أعرف ما تفكر فيه صورتي البشرية تلك ، فكنت أجهل واعرف ، انظر ولا أرى ، أرى ولا أبصر ، فسبحان من بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

ارفع السماع مسكنا الرنين المتصل علامة المكالمات الخارجية ، الذين يطلبونني من خارج الديار محدودون ، إما صاحبي هذه ، أو شقيقي اسماعيل المقيم في أمريكا ، وزميل صبا يقيم في الحجاز ، وقلة من صحبي أعرف أنهم لا يطلبونني في وقت متأخر هكلنا ، وهنا حرت ، وبدأ يداخلي خوف غامض ، لا أعرف شيئا عن سفر شقيقي هذا ، لم يحدثني عنه ، ولم تكن له بوادر قبل معراجي وبدء تجلياتي ، فإذا يجرى في دنياي ، وماذا يدور وأنا بمعزل ؟ لماذا يقيم أخي هذه المدة كلها ؟ وأمى أنا ماذا عنها ، أمى بمفردها ، أمى مريضة ؟ لماذا سافر شقيقي ؟ لماذا ؟ ، غير متاح لي الاطلاع على ما يحيرني ، أرى مالم يره بشر ، واطلع على مالم يطلع عليه إنس قبلي ، ومع هذا كله لا يتاح لي معرفة ما يخصني ، فسبحان من بيده الأمر كله ، له الملكوت كله وعنده السر كله ، أنا قابل ، راض ، وإن كنت آمل في معرفة ما يحيرني ، لملك تسمح ، لملك تأذن ، عللت جهلي بأنني مها أوتيت ، ومها شاهدت ، ومها أسبغ على ، يظل البصر حسيرا ، فسبحان مدبر أمري ،

الجامع ، المفرد ، وهو على كل شيء قدير ، أرى نفسي أرفع الساعة ،
أجيب ، ابتسم مرحبا ، هل رأيتم يا أحبابي ذلك الغبار اللطيف الذى تكشف
عنه أشعة الشمس إذا ما نفلت إلى غرفة مغلقة ؟ هل يمكنكم الإمساك به ؟
كلنا الأمر الذى شعرت به عندما رأيت صورتي البشرية ، هذا وجهي ،
وتلك سماتي ، هذا أنا كما عهدت ، صوتي المرتفع هو ، انحنائي ، غير أن ثمة
شيئا يحل عن حسي وفهمي ، ويستعصى على ادراكي ، رهيف شفيف ينبثق
أن ثمة اختلافاً بيني وبينى ، ايقنت منه وإن لم أضح حواسي عليه خاصة وأنتى
ناقص ، تقول فى بداية حديثها إن شركة الطيران ستظم رحلات مخفضة ،
محدودة المدة وأنه بإمكانى الحضور ، أرى ابتسامتي ، أعرف أن ما تقوله
مدخل للكلام ، ولأنى لا أطيق شعور إنسان بالحرج عندى ، آثرت ازالة
الأسباب ، قلت إن ظروفى الآن صعبة ثم تساءلت عن أخبارها مع زوجها ،
قالت إن الأمر سوء وأنه لا يكتب حرفا ، بل افتقد القدرة على الجلوس إلى
المكب ، وأنه بعد رحلته الأخيرة إلى دمشق عاد ضنكا ، وأنها احتدت عليه
منذ أسبوع ، قال إن الاعباء العائلية هى التى تعوقه ، وتعطله ، وجعلت اسمه
يهت ويتراجع ، قالت إنها لم تطلق صبرا فصرخت فيه ، عن أية اعباء
تحدث .. أنا المطحونة ليلا ونهارا ، ولولا شقائى وكدرى لما وجدت الوقت
لتسكع على المقاهى ، وتسافر هنا وهناك ، قالت إنها فوجئت برد فعله ، نظر
إليها بشتات ، ثم صمت ، كف عن حوارها ، انكش حتى تضاهل حجمه ،
قالت إنها اشفقت عليه حتى ودت لو تقترب منه ، وتحيطه بذراعيها ، لكن
ما وقع وقع ، وهنا رأيت لحظة مختلفة فى ليلة أخرى ، أقول ما يهدئها ،
أطالها بالصبر ، بالتروى ، بإدراك ما تسببه القرية ، أراها تتحدث إلى فى
وقت نال ، مترعجة ، مضطربة ، إنه لا ينام إلا قليلا ، يحكم اغلاق

الباب ، يطوف بالتوافد ، يسترب في حارسة الباب ، يؤكد أنها تطلعت إليه أطول مما ينبغي ، يؤكد أنهم أرسلوا في أثره ، وأن الأمر بدأ مع ظهور هذه الفتاة في حياة ابنه ، إنهم ينون قتله ، لهم ثأر قديم معه بعد أن عجزوا عن تجنيده ، اسمع صوتي يهدئها ، انصح بالذهاب إلى طيب ، تصيح : ولكنه يرفض .. لا أدري ماذا أفعل ونحن في غربة ، أما الولد فيزداد صمتا على صمت ، ساجن ، ساجن يا جهال .

أرى أمى أنا تمشى بجوار أبي ، يحمل قفة الثياب ، وعلبة ورق مقوى داخلها موقد غاز ماركة برعموس ، بيوت متقاربة ، وشمس قصية ، ورائحة مياه غسيل يبلل الأرض وعجوز اعشى يجلس القرفصاء ، أمامه طاولة عليها بسكويت أحمر على هيئة قراطيس ، أطفال يتطلعون إليها ، يتوقفان أمام بيت رمادى داكن الواجهة ، قديم ، على أية حال وإى وضع سيغلق عليها باب تفتحه وتغلقه وقت أن تشاء ، تدخل الفناء بقدمها اليمنى ، كذا الغرفة المعتمة الوحيدة في الطابق الأرضى ، يضع أبى القفة وعلبة الموقد فوق الأرض ، يشعل لمبة الجاز ، ترى أمى حصيرة ملفوفة في الركن الأيمن ، يفردا أبى ، ولحافاً جديداً حفت أطرافه بقماش وردى كذا الوسادة الوحيدة ، طبقاً من الصباح أبيض منقوشا بدوائر زرقاء ، وطبقاً أبيض من الصينى ، وحلة من نحاس ، وبردأ للشاى ، وأربعة أكواب زجاجية ، يفرد أبى الحصيرة ، يقعد عند طرفها ، يتطلع إلى أمى ..

— شوفى يا بنت الناس .

يشرح لها حاله ، إن تأخيره عنها ، وعلم مجيئه إلى البلدة ليصحبها ، لم يكن عن رغبة ، ولا عن إهمال ، إنما بسبب ضيق حال ، إن مرتبه مائة وخمسون قرشا في الشهر ، لن يحوش منها ملياً لنفسه هو ، ولو عثر في الشارع

على بلحة لجاء بها واقتسمها معها ، كان يتمنى أن يستأجر لها غرفة أوسع ، أن يشتري أثاثاً أفضل ، لكن العين بصيرة واليد قصيرة ، ويبدو أن الله جعل وجهها بشرى خير عليه ، فثمة أخبار تقول إن علاوة قدرها قرش صاغ قادمة في الطريق ، تصغى أمى إليه ، تشعر بالراحة لأن مكانا ينقصها هى احتواها أخيراً ، يقول أبى إنه سيخرج ليشتري جازا وطعاما يأكلانه ، إنه يريد أيضاً أن يتيح لها الفرصة كى تبدل ثيابها ، يتجه أبى إلى الخارج ، عنده فرح داخلى ، إنه يسعى الآن من أجل بيته ، له أسرة ، هو الذى لم يمن عليه أب ، ولم تعطف عليه أم . تقعد أمى بمفردها تجبل البصر حولها ، الرطوبة ، العتمة ، وهذه النافذة قرب السقف ، أين ذلك من البيت الفسيح العامر دائماً بالضوء والشمس والهواء النقي ، تقول لنفسها « الظروف صعبة ، لكن أحمد رجل طيب ، وحنون » ، عاد أبى ، رأيت الليلة فى مجملها ، ورأيت شروق الشمس ، غير أن اشعتها لم تعرف سيلا إلى الغرفة ، ها هى ذى أمى تقعد بمفردها ، وحيدة بعد خروج أبى إلى عمله ، الباب مغلق ، لن تفتحه لطارق ، تسمع صياح الأطفال فى الفناء ، لم أدر أهذا صباحها الأول أم أنه صباح آخر ، وإن خمنت أنه صباح نال ، وسبب ذلك رؤيتى حبلاً فى الغرفة عليه ثياب لأمى وأخرى لأبى ، وطشناً للغسيل لم أحظه فى الليلة الأولى التى رأيت فيها ما رأيت ، سمعت عزمها وقرارها ، سيكون لى بيت فى مصر ، فيه سرير ، ودولاب ، سيذهب أولادى إلى المدارس ، ولن يعرفوا ما عرفه أبوهم ، أو ما ذقته أنا ، لن يشمت فى الشامتون ، إن شاء ربى الكريم .. » اسمعها تخاطبنا ، ليس من هذه اللحظة ، ولكن من لحظة أخرى تتقدم فى الزمن ، تقول لنا :

- « يا أولاد احمدوا ربنا ، تزوجت اباكم ومرتبته اليومى خمسة قروش

عشنا منها في مصر... .

وخيل إلى أنها توجه الكلام لى في وضعى هذا ، فهل تترك أنى لبة في هذا السور؟ هل حلت بهذا المقام الذى دخلته وحيدا ، بعيدا عن شيخى الأكبر ، يخيل إلى أنه على مقربة منى ، لكننى لا أقدر إلا على رؤية ما هو أمامى ، أرى أمى جالسة فى الصلاة التى أعرفها ، فوق نفس المقعد ، أراها كما عرفت فى السنوات التى تلت زواجى ، كما اعتدت خلال زيارتى ، وكان الانتظار أساسيا عندها ، فهى إما تنتظر مجئى فى اليوم الذى حددته من كل أسبوع ، ولم أخطئه أبدا حتى بدلى الطريق والممرج والسفر ، ولا أدرى ما صار إليه حالى فى صورقى البشرية ، وإما أنها تظل من الشقة العريضة تنتظر عودة شقيقى اسماعيل اليومية ، أو وصول أختى بعد انتهاء يومها الجامعى ، أو أختى على العائد من كليته أو مشوار قصير إلى الجمعية أو البقال يقضى حاجة ، أو مطلة ترقب مجئى الذى صار فى السنوات الأخيرة أسبوعيا ، إذ أتأخر لا تفارق مكانها ، تضع لوحين من خشب ، تحف فوقها لتمكن من مد البصر إلى نهاية الطريق ، إذ تلمحنى تنجه إلى الباب ، هى التى تفتح لى ، هى التى ترحب بى ، هى التى تقول لى معاتبة ، تأخرت ! ، كلمة واحدة لا تريد ، لا تبلى لوما ، اتعل بجج معظما كاذب ، أبالغ فى اظهار تعبى حتى ترق لى وتبلى اللهفة على ، أمى قاعدة فى مواجهتى ، أبى يقف على مقربة منها ، يرتدى ملابس احرام غير أنها خضراء اللون ، أعرف أنه راحل ، لكنه يرقها ، وهذا جديد على ، لم أجده إلا فى هذا المقام ، فإذا جرى ، ماذا استجد؟ .

إنى والله قلى ، إنى والله خائف ، انى فى حاجة إلى من يطمئننى ، استر ياكرم ، يا حفيظ ، يا دائم ، استر بركة - ابن بنت حبيك وصفيك -

مولاي الحسين ، أبي راحل عنا فلماذا يقف على مقربة من أمي ، أبي غارب فلماذا القربي ؟ ، أراها مهمومة ، أراها مثقلة بشقاء العمر وضناه كله ، هذا وجهها الذي طالعتة بعد سفر أخي اسماعيل إلى أمريكا ، البيت يضمها مع نوال وعلى ، وعند انفرادها ، ترتب سرير شقيق ، وتنفض الغبار عن مكتبه ، وتفتح النافذة ليدخل الهواء ، كأنه آت بعد قليل ، وإذ يزيد بها الوجد تقبل الثياب وتحوش الدمع فالبكاء شؤم ، أما الحزن المكتوم فشرع لها ، أراها تتحدث بانجهاى مع أنها لا ترائى ، لا تخاطبنى إنما تجلس أمامها جارة لنا ، امرأة طيبة من الصعيد ، شاركتنا الأحزان على الوالد الغالى ، أم محمد ، فياغلبى ويا حزنى ويا خوفى ويا دلى ويا مرارى ويا فقدى ، ماذا يعنى هذا ؟ تقول أم محمد : لا تحزنى ولا تغتمى وخذى بالك من نفسك فانت صاحبة عيا ، وصلى ، وادعى لابنك أن يرجع إليك سالما ، عقبى لنوال ، عقبى لعل .

تقول أمي ، متطلعة بانجهاى - ياربى ألا تخاطبنى أنا ؟ - ألا تحدثنى أنا - تقول أمي التى أعرف قدرتها على اخفاء آلامها وضيقها ، وما لا تريد الافصاح عنه تقول : جمال ابن حلال ، وهو يطل على ، ولا يغيب عنى ولا ينسانى ، لكن المرحوم كان يملأ علينا البيت ، أبوهم كان له حس وانقطع ، تقول أم محمد : اطلبى له الرحمة يا أم جمال ، واقربى له الفاتحة ، وترحمى عليه ، ولا تبكى عليه فإن البكاء يحرق قلب الميت ، تقول أم محمد : هذه هى الدنيا ، وتلك أحوالها فاذكرى ربك . يخفت صوت أمي ، اسمعه عاتبا واهنا حزينا : كنت اغرف الطعام لحمسة ، والآن اغرفه لاثنتين . كان البيت يضيق بنا ، والآن وسع علينا ! ! ينأى الصوت ، تخفى أمي ، أين أيام شملنا ؟ ، يوم كنت اصفى إلى أبي يحدثنا عن يوم القيامة ، يوم يفر المرء من

أبيه ، وأمه وأخيه ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس
سكارى وما هم بسكارى ، كنت أبكى ، أمقول افتراقنا في هذا اليوم
العظيم ؟ ، فيقول أبى ، يا بنى لن يعرف الإنسان أخاه أو ابته لأنه لن يراه ،
العيون ستكون في منتصف الروس ، احزن لأننا ستباعد ، لأن كلا منا
سيتشاغل بنفسه ، لأن أبى لن يرانى ، ولأن أخى سيجهلنى ، وأن أمى ستذهل
عنى ، أتم مناجيا داعيا راجيا ربى أن يجمع شملنا ، ألا يبدد جمعنا ، أن
يحشرنا معا ، أن يحاسبنا معا ، أن يغفر لى ولوالدى ، أن يرحمها كما ربيانى
صغيرا ، غير أننى لم أتم الأربعين بعد فى حياى الدنيوية إلا وتفرقتا ، واجترت
قيامتنا بدون أن أدرى ، وكان رحيل أبى أول منعطف أعظم ، فسبحانك ،
أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل .

* * *

مقام الحُزن

وَمَا مَرَّ يَوْمٌ أَرْتَجِي فِيهِ رَاحَةً
فَأَذْكُرُهُ إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَى نَفْسِي

.. يقترب شيخى منى اذن .. لم أعد وحدى ، يمد يده إلى السور ،
يتزغنى ، بمفارقى اياه يخلو مكافى ، ولا يخلو ، لأننى عندما عاودت النظر لم
أر فى السور موضعاً لأى لبنة ناقصة ، لبناته كلها متضامة ، متجاورة ،
مكتملة ، أما النقص فعندى ، والفقد لى ، عدت رأساً محزوزاً محزوزاً
فسبحان من له الكمال كله ، والدوام كله ، يقبض شيخى شعر رأسى ، آلى
ذلك ، يرفغنى ، فيغيب السور بأكلمه من بصرى ، أقول له :
- « لم تركنى وحيداً فى هذا المقام الذى فارقت يانبراسى فى الطريق ،
وشيوخى الأكبر الذى على يديه اهتديت وعوقبت ؟ » .

لم يجبنى بعد سؤالى مباشرة ، إنما برقت لى رؤية خاطفة ، أمدى أنا تقعد
فوق حشية مكسوة بثوب قديم لأبى ، تغمض عينيها ، يتقل رأسها ، يميل إلى
صدرها ، ترفعه بغتة ، على شفيتها ابتسامة ، تقول لمن يجلس فى مواجهتها
ولا أراه « أنا صاحبة ، لم أنم » ، تلك جلستها فى مواجهتنا عندما كنا نسهر
الليالى لنحفظ الدرس ، تأبى أن تهجع ، أو تنام ، عسى الحاجة تكون إلى
كوب من الشاى المعطر بالنعناع لن تعده إلا هى ، أو لقمة تسد جوعاً لن
تعددها إلا هى ، حتى بعد انتقالنا إلى مسكن فسيح ، صار لى فيه غرفة
بمفردى ، تبقى فى الصالة مستيقظة ، تغالب المزعج إلى أن يتم نعاسى ، وينام

إخوتي وأبي فتأمن وتذوق الوسن ، وإذ افتتح عيني في رقادي ، تصحو هي قبلي ، حتى وإن يفصلني عنها جدار ، وباب مغلق ، لم أراهم نائمة قط ، لم أوقفها طيلة عمري المقدر لي في الحياة الدنيا مرة واحدة ، تنام بعدنا ، وتسعى قبلنا ، هذا ما أدركته عبر هذه الرؤيا الحافظة التي تيسرت لي ، أولى مشاهداتي في هذا المقام الوعر ، صعب المرتقى ، نظرت إلى يد شيخى اليسرى القابضة على قلبي ، فلما رأيته حنتت إلى جزئى الذى وسع كلئى ، ضقت إذ رأيته يتقلب ويتفرط حزنا إثر اطلاعه على هذه المشاهدة . فكل ما أراه بعينى يطلع عليه قلبي ، غير أنى لا أدري مردوده وانفعاله لانفصاله عني ، فلفظا يا خالتي ورحمة . نظرة يا مولاي الحسين ، يا أكرم ولي ، يا نجي ، يا وافي ، يا روضتي ، يا صفحتي الجامعة ، يا بستان القلوب ، يا حديقة المعاني كلها ، لماذا نأيت عني ؟ إن المودة في القرى ؟ لماذا أرى أمي أول ما أرى في مقام الحزن ، والحزن لا يكون إلا على ما مضى أو فائت ، أيعني ذلك أن أمي في الفائت ؟ ، أخشى النطق فصيرني ، أخاف التصريح فدلني ، أنا الغريب ، الحزين ، الثالث .

يجيئني صوت شيخى الأكبر ، القابض على ، المسك بي ، يجيئني على سؤالى الذى طرحته عليه أول هذا المقام ، يقول لي : اعلم اننى دخلت مقام القرى ، مثلك ، في شهر محرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأنا مسافر ببلاد المغرب ، فتهت به فرحا ، ولم أجده فيه أحد ، فاستوحشت من الوحدة ، وتذكرت دخول أبي يزيد بالذلة والافتقار ، فلم يجد فيه أحد ، وهذا المنزل هو موطنى فلم استوحش فيه ، لأن الحنين إلى الأوطان ذاتى لكل موجود ، وأن الوحشة مع القرية ، ولما دخلت هذا المقام وانفردت به ، فبقيت اتبع زواياه ومخادعه ، ولا أدري ما اسمه مع تحققى به ، فبقيت وأنا على تلك الحال

من الاستيحاش بالانفراد ، والأنس إنما يقع بالجنس ، فلقيت رجلا من الرجال بناحية تسمى أنحال ، فصليت العصر وذهبت إلى صاحب لي وكانت بيني وبينه مؤانسة فشكوت إليه ما أنا فيه من انفرادي بمقام أنا مسرور به فيينا هو يؤانسني ، إذ لاح لي ظل شخص قهضت من فراشي إليه عسى أجد عنده فرجا ، فعانقني فتأملت ، فإذا به أبو عبد الرحمن السلمي ، قد تجسدت لي روحه بعثه الله إلى رحمة بي ، ققلت له : أراك في هذا المقام ، فقال فيه قبضت ، وعليه مت فأنا فيه لا أبرح . فذكرت له وحشتي فيه وعدم الأنيس فقال : الغريب مستوحش ، وأنت لم تكن غريبا ، بل شاهدت من أحيت ..

قلت لشيخى الأكبر..

- لكنني لم أكن سوى لينة في جدار ، لم حضور ولي حضوري ..

يقول لي شيخى :

- لكنك ترى ..

أقول راجيا ، متوسلا ..

- يا بحر المعاني ، أعد لي رأسى ..

- ما كلب القواد ما رأى ، وما زاغ البصر وما طفى ..

أقول متحسرا ..

- لماذا تقسو على يا دليلى وأنا في كنفك ؟

لماذا وأنا في حبايتك ؟

لماذا وأنا بمرتلة المريد منك ؟

لماذا وأنا التابع وأنت المتبوع ؟

لماذا وأنا الراجي وأنت المأمول ؟ ..

لماذا ؟؟

يقول لى :

- والعصر.. إن الإنسان لى خسر..

أفهم الإشارة ، أقول ..

- إن كان ذلك كذلك فإنى راض ، متقبل ، مطيع ..

يقربنى ثم يدعى فيبقى رأسى حائما حوله ، يسطر متدبلة الأيضم ، يرتعش قلبى ويتحقق ، يدقق ، لكن بمن ولن ؟ حرت والله ، كلما ظننت نفسى واصلا إلى مستقر لى أجلى نائيا ، فيا أسقى .

ينحنى شيخى باسطا يديه ، أرى عين ماء تتدفق من الأعلى إلى الأسفل ، يضع قلبى فى الجرى ، تختلط دمالى بالماء ، يشير إلى ، أدنو ، يسكه بكلتا يديه ، كما أمسكه رئيسة الديوان ، النقية الطاهرة مولانى السيدة زينب ، يبعد ما بين جزء به فيفتلق إلى نصفين ، متصلين ، مرة ثانية أرى بطيى الأيمن والأيسر ، وشريانى ، الأورطى ، والتاجى ، والتلف الذى عض صمام قلبى الميرالى فى صغرى ، هنا ما ظهر لى ، وما استتر عنى أعظم ! فقد ألمت فى لحظة بمقادير زمنى الدنيوى بما لم أتصور قط أن قلبى قادر على أن يسمه ، وليتنى أستطيع أن أفصل وأن أفسر ، لكننى لم اتلق الاذن ، فصبرا جميلا ! ، أرى حامة يضاء ، دقيقة ، جميلة ، ليس كمثلها طائر فى دنياى ، تحط على حافة قلبى ، لم تترك أطرافها النحيلة الدقيقة أى أثر يثنى بثقلها على قلبى ، فلا وزن يعرف لها ، تميل ، تفتح فاهها ، تقطر فى قلبى الصبر على المكاره ، استبشرت خيرا ، وسجدت بعينى وشكرت بلسانى ، عرفت أنى صرت من القوم ، وأن خطاى تبدأ فى وقت ظننت فيه أننى انتهى واختتم ، وأنا بلا قدمين ، أو ساقين ، فرحت فرحا عظيما ، فرح من اكتشف نفسه من الناجحين بعد يقينه أنه من الراسيين ، وعندما غاب عنى شيخى الأكبر لم أخف كعمهى

كلما تركت وحدى ، أوغلت بالفعل فى هذا المقام ، بعد وقوفى عند حده ومشاركته ، وبدا مدخلى إليه غريبا ، فبعد مشاهدتى أُمى خطفا وبرقا ، رأيت كافة ما مرى من أفراح عن يمينى ، وكل أحزاني عن شمالي ، إن جاز لى التشبيه بالجهات التى لا وجود لها أصلا فى مسعى ، رأيت أفراحي فى قدر السمسة حجا ، فلم أتبينها ولم أتمكن من تدقيقها ، لذا ولت النظر لشر أحزاني ، وفى البداية رأيتها فى جملتها ، وإذا جاز التشبيه ، تبدو كقام رمادى ، ثقيل ، فى يوم خريفى ، لا ينتظر فيه مطر ، وكلما حدثت بانث لى من فى تفاصيلها ، فرأيت اعظمها تحرا لحظة سماعى النبأ العظيم برحيل أبى ، ثم رأيت أحزانا أخرى مضية ، مبهمة ، لم أستطع ادراك كنهها ، أو لبها ، وما تدور حوله ، فلفظا يا خالق ، إن أكثر الناس لا يعلمون ، رأيت لحظات طوافى بضريح مولاى الحسين القاهرى ، وقوفى عند الموضع الكربلائى الذى حز فيه رأسه ، ولحظة رؤيتى نعش جمال عبد الناصر ، كان ذلك فى شارع رمسيس القاهرى الممتد ، الذى فاض وغطى بأهل مصر المحروسة ، وقفت فى شرفة بيت صاحب لى ، تجمعنا عنده لى الموكب الأخير ، وعندما اقتربت الخيول السود ، كانت الأيدي قد سحبت العلم الملفوف فيه ، فبدا خشب النعش الأصفر الذى يحتوى الهامة والقامة التى طالما هلت وأطلت ، صريخ نساء وبكاء رجال ، وتلويع أيدى وغيمة حزن كثيف ، فى الطريق تعدوا امرأة شابة حافية القدمين ، تمسك طرفى طرحتها السوداء وتحركها بمنة ويسرة ، افتقدتها نظرى فى الزحام ، غير أن ما يضيغ أحيانا يبق ، وعندما ولت عربة المدفع واحتواها الجمع الكثيف ، غاب عصر ، وفيت حقبة ، واندثرت أمان غالية ، وراحت علامات فسبحان من له الدوام .

وقفت فى هذا المقام على سر عزيز ، ذلك أن أبى قضى الليل كله عند غمرة فى بيت خلف بك الحسينى رحمة الله عليه وعلينا أجمعين ، ليرى

ويودع ويذرف الحزن على الرجل الذى أنصف أهل الفقر من أهل الغنى ،
الذى أمن رزقه وجعله لا يخشى فضلا ، أو اهانة من كبير تلحق به الأذى ،
وهذا ما لم يقله أبى لى ، ما لم يصرح به أيضا لى ولا لغيرى ، إنه اعتاد زيارة
الفقيد الغالى والترحم عليه ، ولم ينقطع حتى فى سنوات المحنة والشدة التى
تمكن فيها الجلف من مقدرات هذا البلد الأمين ، هذا لم يقله أبى لى ، بورك
الوفى حافظ الجميل ، رأيت حزنى يوم فارقت أبى وأمى وإخوتى أول مرة ،
كنت منقولا من عملى إثر قرار مفاجئ ، لا مجال الآن كى أفصل أسبابه ،
وسيحين ذلك بإذن الواحد الأحد ، تقرر نقلى إلى مدينة المنيا الصعيدية ، ها
أنا ذا جالس فوق مقعد القطار ، قطار الثامنة صباحا ، لكننى غير مبتهج ،
إنى حزين ، إنى متقبض ، أبى صامت ناطق ، يودعنى بالنظر ، هذا أول
اغترابى عن أهلى وأقساه ، ساكت لكنه يتكلم وأنا مثله ، وقد ادرك ذلك
صاحب محبوبتى لور فى نشأتى الأخرى ، عندما جلسنا يوما فى مقهى قديم
ناكل الفطائر ونحشى الشاى ، وكنت مبهورا بالنظر إلى انعكاس ضوء المصباح
العتيق على قبة شجرة باسقة أمام كنيسة أثرية ، كنت أتكلم ، أتكلم ، عندما
قال صاحبها هذا ، أنت تتكلم لتسكت ، وفيما بعد قالت لور ، أنت ناطق فى
صمتك ، لهذا أنا لا أضيق به ويا أجبالى الكرام ، ما أطول المدد التى قضاهما
الوالد بيتنا مطبق الشفتين ، فأى أمور أفصح عنها فى صمته ؟ وماذا أفضى به
إلينا ولم نسمع ؟ ضرب على آذاننا سدا ، وعلى أعيننا غشاوة ، وعلى أفهامنا ،
وقر ، رن الجرس مرة ثم مرتين ، تحرك القطار بطيئا فى البداية ، يمشى أبى ،
كأنه يود اللحاق بى ، زادت السرعة فولى ثم وليت وجهى شطر الغربة ،
رأيت حزنى المنبعث عن غريقى ، والحزن والغربة صنوان ، وأمران متلازمان ،
وحزن الغربة يا صحبى الكرام لا يلازم الرحيل ومفارقة الأهل والأوطان ،

بالضرورة ، فقد يغترب الإنسان وهو ملازم لمكانه ، قائم بين ناسه ، مصاحب لأحبابه ، قال شيخى الأكبر القابض على قلبى بيده ، إن الغربة يراد بها مفارقة الوطن فى طلب المقصود ، ويراد بها اغتراب الحال ، فيقولون فى الغربة الاغتراب عن الحال من النفوذ فيه ، والغربة عن الحق غربة عن الدهش ، أما غربتهم عن الأوطان بمفارقتهم أياها فهو لما عندهم من الركون إلى المألوفات فيحجبهم ذلك عن مقصودهم الذى طلبوه بالتوبة ، وأقول أنا ، لما كان الإنسان فى سفر دائم ، لذا كان فى غربة دائمة ، ولما تقدم بى العمر ، عرفت أن أصعب أنواع الغربة ما كان غربة فى الإقامة والحزن ، كما أوضحت وجهها من وجوه الغربة ، لذا كان الحزن ملازما للنشأة الإنسانية ، أسألونى يا صحبى ، لماذا يبكى المولود فى اللحظة الأولى التالية لخروجه من الرحم ؟ ، لماذا ؟ ، لأن فراق الرحم أول غربة عرفناها ، يبكى الطفل عند ذهابه إلى المدرسة أول يوم ، تذرف الدموع عند سفر الحبيب ، وعند مغادرة الأوطان لطلب الارتزاق أو طلب المعاش ، تمضى الحياة الإنسانية من غربة إلى غربة ، حتى تقع الغربة العظمى الكبرى ، الموت ، وإن كان هناك حال من الغربة لا نعرفه ، عندما يتفرق الحضور الجسدى الإنسانى فى الكون ، أما غربتى فى هذه التجليات فلم تتفق لغيرى ، ولا لشيخ من شيوخى ، ذلك أننى عرفت أنواعا من الغربة لم تتفق لإنسان قبلى ، منها غربتى عنى ، وغربة رأسى عن بقية جسدى ، وغربة وجودى عن وجودى ، وغربة صورتى البشرية الباقية فى العالم الدنيوى بعدى ، وهذا حديث أبقيه حتى يحين حينه ، ومن أصعب الأمور خوضى فيه الآن ، فعذرة ! .

رأيت حزنى لحظة نزولى بلداً غربياً لا أقصد فيه صحبا ولا ولدا ، بلدا لم أكن بالغة إلا بشق الأنفس ، أما مأواى فأجهله ، لا تدري نفس ماذا

تكسب غدا ، رأيت حزنى فى سنوات عمرى الأولى ، تقعد أُمى فى الشمس ، عند الظهيرة تستقر ملاعبها مع رسوخ الصمت والسكينة ونأى الأصوات عنا ، نجىء يمامة وحيدة ، الأحمر الغامق هو اللون الغالب على ريشها ، يختلط بزرقة قرب العنق ، تمشى ، تهز رأسها إلى الإمام ، إلى الخلف هذا سريعا متواليا ، ثم تستقر عند نهاية السطح ، يتتابع هديلها الغامق ، فيضئ على النهار بعدا وغموضا ومعنى ، تتابعها أُمى صامتا ، ترى أى الأفكار ، أى الصور ، أى الأحاسيس أثارها عندها هذا الهديل ، فيمامة مهاجرة من ثلج موطنك إلى دفء موطنى وشمسه لك منى السلام ، لك الذكرى العطرة ، فقد مكنت من وعي لحظة كان من الممكن أن تغنى ، ولونت بصوتك ظهيرة آمنة كان ممكنا أن تنسى ، يمامة قادمة من بعد سحيق لك السلام ، والأمان ، هديلك فى غرارة فؤادى وصندوق قلبى ، فلو حططت يوما على مقربة من الحبيبة أُمى مثل الزمن القديم فأبلغنيها أنني مغترب ، وأنتى ملاهيها حتما فصبر جميل ، ويا حزنى على هذا الهديل ليس كمثلك حزن ! ، يا اخوانى إن أوعر الأحران ما كان رهيفا ، رقيقا ، كحد الموسى ، كلما رقى ازداد قدرة على القطع ، رأيت حزنى الذى يصحومنى فى بعض الأيام ، هذا الجزن غير المبرر ، مجهول المنبع ، يحل بى فلا يفارقنى طيلة يومى ، رأيت حزنى على عمرى الغارب ، وهذا حزن خاص أورثنى كهولة فى غير أوانها ، إني - ياسادق - راحل دائما بين لحظتين ، لحظة ماضية لن استعيذنها قط ، وأخرى آتية قد لا أصلها ابدا ، رأيت حزنى عندما أواجه البحر الممتد ، وأوغل فى الصحراء ، وارتقى الجبل ، واسلك البوادر ، عندما أرقب الشمس الغاربة ، عندما انتظر شروقها ، عندما أرنو إلى النجمة الأولى ، أودع الأخيرة ، وعندما تهب النسمة النادرة ، وحزنى على أصحاب

رحلوا قبل الأوان ، وحزنى على الذى ذوى ، رأيت حزنى عند مرورى بالمنحنيات والنواصى المألوفة ، رأيت درجات حزنى كلها ، شجنى ، وأسأى ، وسقى ، وعوى ، ونوحى ، وحنى ، رأيت شيخا مهيب الطلعة ، عظيم اللحية ، واحد من سادق الذين سلكوا الطريق ، وعبروا اليباب ، كان يرفع سبابته ، وفوقها كل ما ذرفت وما ساذرف من دموع ، رأيت دموعى التى سفحتها غزارا ، وارجفت كينونتى ، ورأيت دموعى التى سفحتها على مهل ، وهذه دموعى التى لم تتجاوز مآتى ، رأيت دموع دموعى ، عند هذا الحد بلغ فى التأثير حدا ثقيلا فالتفت إلى يمينى ، هذه افراحي كلها ، تجمعت فى دائرة مقدارها كهذه الدائرة التى تتوسط زهرة شقائق النعمان ، ولكم تمنيت يارعاة ذكرى أن أهديكم طرفا من افراحي الإنسانية ، لكننى قليل البصر ، واهى النظر ، وأفراحي يا أحبابي أدق من أن ترى ، رب سائل من المطلعين على مكنونى ، يسألنى ، ألم تفرح عند سماع خطى أليك العائد من عمله ؟ أقول ، بلى ، وسبحان من يولج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، ألم تفرح عند سماع إعجاب القوم بما خطته يدك ؟. أقول بلى ، وسبحان محي العظام وهى رميم . هذا حق لا أنفيه ، لكن معذرة فأكدرى كثيرة .

عند هذا الحد تيقنت أننى متمكن من هذا المقام ، وأننى قطعت فيه مدى ، رأيت أبى أنا ، الذى كان رحيله بمثابة الختم على ما فاتنى ، والمفتتح لما أمر به ، هاهو ذا يصحب أمى ، يمشیان عبر حارة الوطاويط المفضية إلى مشهد إمامى الحسين ، فى هذا الزمن كانت زيارات أمى لثوى رأسه الشريف ، وإلى ضريح شقيقته رئيسة الديوان ، مما يسر عليها ، ويخفف عنها ، ويفرج كربها ، ويفض ضيقها ، ويطل وحدتها ، لم تكن تخرج من غرفتها إلا مصاحبة لأبى ، ولو ابتعدت أمتارا قليلة عن البيت لتاهت وضلت

وما عرفت طريق العودة ، بل إننى وقفت على حيرة عظمتى مرت بها أمى ،
فى أول أيامها القاهرية ، قبل خروج أبى المبكر إلى عمله ، اعطاها قرش
صاغ ، وأوصاها أن تشتري فولا ورغيفين من البائع عند مروره أمام البيت
وسماعها ندائه ، أصغت أمى عندما صاح الرجل « يا لوز مقشر يا فول » ،
قطعت الفناء بخطى مضطربة مترددة ، حتى وقفت أمام باب البيت ، ها هى
ذى تنظر من وراء خمارها الأسود ، لا تدرى ما يجب قوله ، وبأى كلمات
يكون الشراء ، كيف تمدا اليد إلى غريب لا تعرفه ، كيف تخاطبه وتناديه ؟ فى
جهيئة كان بعض الباعة يبرون ، يحملون قففا صغيرة بها بضاعتهم ، أساور
ملونة ، أكواب زجاجية ، أقفاص سكر أحمر ، كانوا يقايضون على ما معهم ،
فيأخذ البائع ملء قدح من القمح أو الذرة أو الشعير فى مقابل كوين زجاجيين ،
أو رطل من السكر أو علبه ملبن ، لم تتعامل معهم بالنقد ، تطول حيرة
أمى ، ويبدو أن وقوفها الصامت ، ويدها المسكة بالطبق لفت نظر جارة
تسكن فى الطابق العلوى تصادف مرورها ، امرأة طيبة اسمها أم هدهد ،
تقول لأمى : أتريدين حاجة يا ابنتى ؟ ، تنظر أمى إليها ، تجيب : بقرش فول
ورغيفين ، تنطق ما قاله لها أبى ، تقول المرأة ، هات الطبق والقرش ، تعود
به ممتلئا ، سطحه مغطى بزيت ، تتناثر عليه ذرات الكون والشطة ، وزاد
على ما أرادته أمى بصلة خضراء غليظة ، تقول أم هدهد : خذى يا شابة ،
تأكلين بالهناء والشفاء ، تتمم أمى ، أكثر الله من خيرك ، ترجع إلى
حجرتها ، تغلق الباب بالرتاج ، لن تفتحه كما أوصاها أبى ، هذا صباح اليوم
التاسع من أبريل عام ألف وتسعمائة وأربعين ، بعد اندلاع الحرب الكونية
بسنة ، وقبل مولدى بخمسة أعوام وشهر ، تطوف بشفتى ابتسامة غارية ،
تذكرت لحظات اعرفها عندما سعت أمى فى الأسواق لشترى اللحم والخضار

والملابس ، عرفها محمد الحضري ، وعبد الهادي البقال ، ونصري الجزار ، وزينب الدلالة ، عرفوها حتى باعوا إليها بالأجل ، رأيتها تفاوض الحاج فؤاد تاجر الأثاث المستعمل ، تبصم على الكييلات ، تقص على بعد عودتها ما قامت به وما فعلته ، رأيتها عندما تصحب أخى على إلى الأطباء في سنوات مرضه ، وليس هذا بالمقام الأفضل كى أفيض وأفصل ، لكننى وقفت على الفرق بين حالين ، والمسافة بين طورين ، فسبحان مسير الفلك ، مغير كل شىء ، إنه نعم القدير .

اعود إلى أبى وأمى القاصدين مشهد الحسين ، بعينى أمى أرى باعة السبح ، والطواق والشيلان والطرح والمصوغات المعدنية من أساور وخواتم وسلاسل وعقود ، وكتب الأدعية المنجية ، ونسخ القرآن الكريم ، وقصة الاسراء والمعراج وما جرى لصريع كربلاء يوم عاشوراء ، ومناقب والده الكريم ، اسد الله الغالب ، على بن أبى طالب ، تلك لوحة ملونة يبدو فيها جالسا ، عن يمينه الحسن وإلى يساره الحسين ، وتلك لوحة فيها البراق ، من حمل أكرم الخلق أجمعين عند بدء المعراج ، وسبحان من أسرى بعبد ليله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وتلك لوحة واحدة من أجل سادق ، الشيخ أحمد البدوى ، ملثم الوجه ، ممسكاً بيده سيفاً ، ولوحة لأبى زيد الهلالي سلامة يشهر رماحاً ، عند كل زيارة يتوقف أبى ، يحكى لها ما تقوله كل لوحة ، غير أنه هذه المرة صامت ، أرى تفرق ملامح أمى عند اقترابها من مدخل المسجد الحلقى المخصص لدخول النساء ، قبل عبورها العتبة الحشبية يوقفها أبى ، يمسك ذراعها ، تولى وجهها ناحيته ، أصغى أنا مشفقاً ، يقول أبى : شوفى يابنت الناس ، ربنا قسم لنا أن نعيش معا ، وكما رأيت أنا لا أبخل عليك ، ولا أخفى عنك ما يرزقنى به ربى ، حلفتك بالله وبنيه وابن

بنه الكريم القاصدين زيارته ، ألا تفضحنى فى جهينة ، كلام الناس
 كثير!! رأيت وجه أُمى ، ألحظ شحوبها وضموورها ، تغيرت ، نخلت ،
 كأنها فقدت نصف وزنها ، أرى التأثر فى عينيها ، ليس هنا عليها أن ترى أبى
 هكذا ، يرجوها ، تترقق دموعها ، يسقط أبى يديه موليا وجهه شطر مثنى
 الرأس الطاهر ، يقول : القاتحة لآين بنت رسول الله ، هنا تغيم الرؤيا فأولى
 البصر بعيدا ، صرت من التأثر فى حال ، تلك لحظة تفرق بين أبى وأُمى ،
 يعجز كل منهما عن احتوائها بالألفاظ فيعبران عنها بالصمت ، أو يلوذان به ،
 أبى أهدأ الآن ، بعد غد سيسافران إلى البلدة ، أول عودة لأُمى بعد مجيئها إلى
 مصر ، يقطعان الشارع صامتين ، راضيين ، أرى ليالينا الآمنة ، عندما تفرغ
 أُمى من الطبخ ، تنتهى من عشاتنا ، تتمدد تحت الأغطية ، اصغى وأنا على
 حافة النوم إلى حوار أُمى وأبى ، يتدبران أمور الغد الآتى ، أو يتحدثان عن
 جهينة ، أخبار الناس هناك ، من جاء ، من سافر ، من مات ، من ولد ،
 من تزوج ، ومن أنجب ، ومن فتح الله عليه ، يتخلل حديثها الصمت ،
 فأسمع من الكلام فيه أكثر مما اسمع فى حوارهما ، يسرى إلى اطمئنان ، وانام
 ملء جفونى ، هادئ البال ، راضى الخاطر ، فأين ولى ذلك يا قوم ؟ وأين
 راح ما كان منى وكنت منه ؟ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه
 ترجعون . عند هذا الحد كدت أدرف دمعاً غير أن عيني لم تجودا به ، وأوعر
 الدمع ما احتبس وامتنع ، تردد هليل يمامة الظهيرة النالى فى سمى ، وكان
 سادق رقوا لحالى . واشفقوا على من خيبتى المكتونة فأسمعونى تزا يسير مما
 حننت إليه ، اصغيت راضيا واجبا ، فكان حالى كما قيل فى المعنى ..
 رب ورقاء هتوف بالضحى ذات شجو صرخت فى قن
 ذكرت إلغا ودعرا صالحا وبكت شوقا فهاجت حزنى

فبكائي ربما أرقها وبكائها ربما أرقني
 ولقد تشكو فافهمها ولقد أشكو فافهمني
 غير أنني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني
 وأنا مصغ ، جاءني الأمر بالنظر مع انقطاع هديلها عني ، فنظرت صاغرا ،
 وإذا بي أرى أبي في نشأتي الأخرى ، ماله مهموم هكذا ؟ ماله تائه النظرة ؟ ،
 إنه ينتظر أمي الأخرى ، نجيء هذه الليلة عقب قطيعة استمرت عامين لم يقرها
 فيها ، غير أن ظروفها أدت إلى هذه الخلوة المرتقبة ، منها تعب أمي وارهاقها
 الدائم بين عملها الصباحي ، وعملها المسائي ، غير أنها اليوم وقعت عقدا
 يضمن حقوقها في وظيفتها المسائية هذه ، أضفى عليها ذلك أمنا وطمأنينة ،
 عملها الصباحي يمكن أن ينتهي في أية لحظة ، مجرد هذا الخطار ارجفها رعبا ،
 إنهم غرباء ، ضاعفها هنا ، ماذا سيفعل ابنها - الذي هو أنا - إذا ما تعطلت
 فجأة ، واضطر والده إلى ترك عمله في هذه السفارة ؟ مجرد التفكير يصيبها
 بالوهن ، فإذا لم تحقق ذلك ، لا تطيق يوما يأتي يطلب ابنها شيئا ولا يمكنها أن
 تلبيه ، كأن يرغب في السفر إلى مصر خلال أجازته ، أو ليشجع إحدى هواياته
 التي تبدأ فجأة وينفق في سبيلها ما ينفق ، ثم يهجر كل شيء بلا مقدمات ، لم
 أعرف شيئا عن هذه الهوايات ، ولم أدر شيئا عن نشاطاتي في نشأتي تلك ، وإن
 أدركت أن أمي هذه تغدق علي ، فعندى حجرة تخصني ، بها جهاز عرض
 تليفزيوني ، ومكتبة أفلام ، وجهاز لاستماع الموسيقى ومذياع متقدم يلتقط
 الموجات السارية بين النجوم ، وعدة ساعات ، وقصصان ، وآخر صيحات
 الأزياء ، وكثيرا ما يدس أصحابي من أبناء هذا البلد بعضا مما لدى في
 جيوبهم ، ولا أبالي ، كنت بحاجة إلى بقائهم معي ، والحديث إليهم ، والخروج
 معهم ، خاصة بعد ابتعاد لور عني أو ابتعادى عنها ، وكنت في دهشة من
 أمرى ، فبعض من زميلاتي يحنن إلى ، وأنسى أمي ، فتخبرني ، يحرصان على

تركى منفردا معهن ، بل يبدو السرور على أمى ، وقد يداعبنى أبى بما لا استجيب له ، ومع ذلك لم يطق علاقتى بلور ، عند هذا الحد من ذلك المقام كرهت متابعة نشأتى الأخرى ، شحب فضولى ، وضاعف هذا حنينى إلى أبى وأمى ، تمنيت أن يثبتنى شيخى الأكبر عند هذه اللحظة التى اجلس فيها إلى أمى فوق سطح البيت القديم فى الشمس الشتوية ، والهديل المخلى الغامق فى مسمى ، غير أننى سمعت صوتا يشبه صوت شيخى الأكبر ..

- «ألم تمن يوما أبأ غير أيلك ؟» .

- «اعترفت بذلك فالساح ..» .

- «ألم تحجل من فقرك ؟» .

- «قلت إن ذلك كان فى زمن جاهليق ..» .

- انظر اذن ولا تحيد ...» .

ها هو ذا أبى فى نشأتى تلك يتتظريعىء أمى ، اليوم مشى فى الصباح الباكر أمام مكتب الشركة المصرية للطيران ، تأمل نموذج الطائرة ، وصورة الأهرامات ، والكرنك ، واعلان يشجع الزائرين ، لو أنه بقى ، لو أنه لم يسافر ، يستعيد وجه هذا الضابط الممتلئ قليلا ، كان يرتدى جاكيت من الصوف الأزرق القاتم ، إن ضابطا فى سترة رسمية ونجوم مذهبة على كتفيه لا يخيفه بقدر الجلوس مرغما إلى من يعرف أنه مقدم أو عقيد ويرتدى ثيابا مدنية ، بعد الحديث عن سفره لماذا سافر ، وفى أى مؤتمر أدبى شارك ، ومن رأى ، ومن صاحب ؟ ، افصح عن غرضه ، وطلب منه ان يراه كثيرا ، وأن ينقل إليه ما يسمع خاصة من الشبان الجدد ، أراد أن يكون الرفض مهذبا ، غير أن الضابط ضحك قائلا ، اتظن أنك ستفلى منّا ؟ ، اعتاد رؤيتهم أمام البيت ، احدهم همس إلى البواب عند مروره ، رنين الهاتف فى الخامسة صباحا ، سماعه من ينادى باسمه فى الطريق ، يلتفت ، لا أحد ، رنين الجرس

في الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلا ، يقف الخبر مبتسما بتحد ، بوقاحة ، حاملا الاستعداد ، امتلأت الشوارع يجمع منهم ، وزاحمه من يتسنى إليهم ، وتهددته الأخطار ، قال لنفسه ، الفرار - عند عدم الطاقة - غير مذموم عند كل أحد ، ولما صارح أمي ، قالت له ، على ألا تكون في ناحية وأنا وابني في ناحية ، سنأني معك ، حتى جاءت الفرصة وحانت ، فخرج خروجاً لانية للرجوع معه ، والغريب العجيب أنهم لم يعطلوا لحاق امرأته وابنه به ، فكأنهم ما ارادوا إلا دفعه دفعا إلى الهجرة ، والابتعاد ، وكأنه بسفره حقق لهم ما ابتغوا ، فحققت عليه الشقوة ، تجيء الأخبار بدخول صحبه السجن ، فيحسداهم على فقدان حريتهم ، هو الذي يستقل كيفما شاء ، ويرى من البلدان ما لم يحلم برؤيته يوما ، لكن شتان ما بين رؤية ومشاهدة ، وأمام الخلق بير ، فما الابتعاد إلا للحفاظ على الذات ، وما الإقامة هنا إلا للخدمة من هم هناك ، لكنه يعي ويعرف ، أنه في الترحال اضاع ما أضاع ، ولم يعد لديه ذخرا للأيام الباردة القادمة ، وكان الشعر أول من امتطى الفلاة وغرب ، فالفرار أبدا ، والفرار دائما ، وما من ملجأ يرتجى ، وما من مثنوى ، أراه بمفرده في صالة البيت والليل موغل ، أمي هذه في حجرتها عارية تبكي ، تعض وساداتها حتى لا يرتفع تشيجها ، يبدو أن مسعاها خاب ، والسبل التي ابتغت منها الوصل انقطعت ، أتي في نشأني الأخرى يطلب الوحدة والانفراد ، هذا حاله ، حتى إذا ماتم له ذلك حن إلى الأنس والألفة ، فتمضي أوقاته ثقيلة غائمة ، جذباء من كل فعل مجد ، يقول للسامعين السائلين إنه مشغول في عمل كبير ، إذ يحاول ، يبدأ في تهيئة الجو ، يعد لنفسه الشاي ، يرتب الغرفة ، ينفذ غبارا لا وجود له ، يسمح عروبته مرات ، يدخن بتأن ، يقول : سأبدأ بعد فراغي من التدخين ، نسي الموسيقى ، يدبر الجهاز ، لا يطول استقراره في مقعده ، الصوت أعلى مما ينبغي ، يرتب الأوراق ، الأقلام ، يترل داخله ثقل ، ما من

شاردة استقرت ، ولا واردة أتت ، وأعظم العذاب يا اخواني عدم التمكن من الغرض ، لكنه يقول ، ربما جاء الغد بالأفضل ، يخرج إلى الطريق وعنده راحة وبه تعب ، راحة لأنه انتهى وقت العجز والحيرة ، وتعب لأنه لم يتم ما شرع فيه ، يمشي معاهدًا النفس على ألا يضيع الزمن الآتي ، في السفارة يتحدث إلى صجبه عن دراسة سيتمها ، أثر الغربة على الإنسان العربي ، وإذ يلمح لا مبالاتهم وقلة اكتراثهم ، يقول ما معناه إن هذا البحث سينطلق من الخط الفكري لهذا البلد ، يواجهونه بالصمت ، كأنهم يقولون ، نحن نعرف ما تقصده ، عندئذ يطلب بعض المؤلفات المطبوعة في هذا البلد ويخص بالذكر كتابا أو كتابين لقائد البلد وزعيمه الملهم ، عندئذ يجيب المستشار الثقافي بإيماءة ، إذ أنه لا يقدر على مواجهة طلب مؤلفات الزعيم بالصمت ، يقول إنه سيرسل في طلبها ، بعد انتهاء عمله يخرج إلى الطريق ، يفيض الخجل منه ، يلجأ إلى مقهى بعيد ، يحتسى النبيذ حتى تخف اثقاله ، فيلعب الغربة ، والضعف الملازم لها ، واضطراره إلى معاشة من لا يقدر على البوح برأيه فيهم ، أحيانا يسبهم بصوت مرتفع ، ثم يتلفت حوله حذرا ، صحيح أن المقهى بعيد ، لا يرتاده عرب ، لكن الحيلة واجبة ، إنه غريب ، مضطر ، والمضطر يرى نفسه كالغريق في البحر أو القفال في متاهة ، وهو يرى عثانه بين يدي سيده وزمائه في قبضته ، فهو كالميت بين يدي غاسله ، ولا يرى لنفسه استحقاقا لنجاة ، لاعتقاده في قرارة روحه أنه من أهل السخط ، لا يقرأ اسمه إلا في ديوان الشقاوة ، اعلمو يا احبابي انني رأيت من أحوال أبي في نشأتي الأخرى أموراً جسيمة ، مؤلمة ، حزينة ، ذكرت بعضها منها فقط ، فافهموا ما أشرت إليه في هذا الارتباط ، فإنه منبئ عن أمور شتى ، ان لم تتحققوا زلت بكم القدم في مهواة التلف ، واكتفى بالدعاء على الظالمين الذين شتوا أبناء الوطن ، وإن كنت لا أتردد وأنا قصي بعيد عنكم البعد السحيق ، خارج الأكوان كلها ،

فأنصح بعدم مفارقة الديار إذا حل بها ظلم أو عهر ، حتى وإن أدى الأمر إلى سبيل الاستشهاد ، وخذوا العبرة من سيرة الحبيب الوفي سيدنا وإمامنا الحسين ، وعند هذا الحد عرفت أن أبي هذا له نشأة أخرى ، لكنني لم أقف عليها ولم أطلع ، ويبدو أنه غير مسموح لي بذلك ، فأمرى إلى صاحب الأمر ، فإنه يرجع الأمر كله ، عليه توكلت وإليه أنيب ، غاب ما أراه عني ، وتلا شيخي الأكبر في أذني ومسامعي .. « فإذا فرغت فانصب .. » .

التفت إلى شالي فأرى أُمى ، أم نشأتى الأصلية ، من هـى . فصلى وأصلى ، وأول منازلى ، لمت نفسى لأننى نأيت عنها ، مع أن أمرى ليس يبدى ، فإلى ربك الرجعى ، أراها حبلى ، وهى لا تعرف أذكرا أم انثى فى رحمها؟ ، أما أنا الذى لم يوجد بعد عندها فأدرى ، فى رحمها ولد ، سيصبح اسمه خلف ، سيطلب فى رسالة يكتبها من مصر أن يطلقوا عليه اسم الرجل الذى تسبب فى جريان رزقه ، مع أن البون بينها وقتئذ شاسع ، لكن قلب أبى وسع الجميل وحفظه ، والحفظ حنو من الحافظ على المحفوظ وحرص ، لها الرحمة الكبرى يوم التناد ، وحسن العقبى يوم يجمعنا ليوم الجمع ، أرى أبى وأُمى ينزلان من « الجلزونة » ، الأنويس ذى الطلاء الأخضر ، عند ترعة البئر ، النقطة الوحيدة التى تتوقف عندها العربة التى تمر بناحيتنا ، فوق الجسر ، يقف المنتظرون ، جمع من الأقارب : جدتى وخالى ، والشيخ عبد اللطيف ، وأبو الغيط ، ومحمد أحمد وأخوه يونس ، وهما من رأيا أبى عند خروجه من ديار هذا الكون ، وودعاه ، ودخلا عليه فى رقدته الأبدية ، وأقسما للناس أن أحمد الغيطانى كان متبسما ، ضاحكا فى موته ، وأن جسده كسى لونا من ألوان النعيم ، وعند اسراى من مدينة فاس كانا يسعيان فى الحياة الدنيا ، فهما ممن يرد على خاطرهما أبى الآن . ولا أدرى

فى أى صورة يستعبدانه ، ولا فى أى موقف يتذكرانه ، أمد خالقى عمرهما ،
رأيت محمد أحمد مديد القامة ، يتطلع إلى أبى وأمى ، ثبت البصر على هزال
الوالدة الكريمة ، وضمورها ، وشحوب لونها ، حتى بطنها لا يتناسب حجمه
ابدا مع شهرها الثامن ، هاله ضعفها ، كذلك الأمر مع المنتظرين ،
الترقبين ، تتم محمد أحمد.. «عملتها يا ولد الغيطانى» ، يقصد أن أبى لم يحافظ
على الأمانة ، وانه بهدل البنية فى مصر ، ضقت أنا بنواطر القوم ، كرهت
تعاملهم على أبى ، لكن آتى لى التدخل وأنا بمزول قصى ، احاطوا بها ،
النساء يرمقنها بإشفاق باطنه الشماتة ، والرجال يرددون النظر بينها وبين أبى
كأنهم يقولون ، انظروا ماذا فعل بها؟. تتوالى اسئلة النسوة بصوت مرتفع ،
متعمدات ، قاصدات اسماع أبى ..

- مالك ؟ عيانة ؟ ياكبدى لونك مخطوف ؟.

تمصص امرأة اسمها عائشة تمت إلى أمى بقراءة . تتمم وكأنها تحدث
نفسها ..

- يا عقلى جرى لك ايه فى مصر ؟.

غير أن أمى لا تستجيب للعطف البادى ولا تتأثر ، تتوقف عن الخطو ،
تتطلع إلى الخلف ، تنادى بالنظر أبى الذى يمشى متعترا خجلا ، وعد هذا جرة
منها ، إذ ليس من عرف هذا الزمان أن تنادى الانثى رجلها على مرأى
ومسمع ، أبى يدرك العلامة ، يمد الخطى ، يلحق بها ، تقول له : القفة
ثقيلة عليك ؟ ، يتبدد ضنكه ، تختلج مشاعره حتى أنه لا يجاوب ، غير أنه
يلزم جانبها فلا يجيد ، يتم الوصول إلى بيت خالى الذى ولدت فيه ، هاهى ذى
منفردة يجلقى وخالى يستجوبانها عن أحوالها ، فتقول إنها فى أحسن حال ،
وأن أحمد ابن حلال ، يأخذ باله منها ، لا يغيب عنها إلا زمن شغله ،

فيقول خالى غاضبا : لكنك نزلت النص ؟ تقول إنه الجو ، يتساءل حانقا :
 أى جو ؟ يشير بيده ، مقلصا ملامحه ، تمد أُمى الكف : اسكت يا محمد ،
 أحمد لا يستحق هذا ، ينظر إلى جلدق ، شوقى البنت ؟ ، أرى توافد النساء
 عليها للسلام والمعاينة ، يسألنها عن أحوالها ، لماذا تبدو شاحبة ؟ هل تأكل
 جيدا ؟ هل بيتها فى مصر فسيح ، فيه هواء ؟ تدخله شمس ؟ لماذا تبدو ذابلة
 إذن ؟ لماذا تبدو هزيلة ؟ ، لا تطيق أُمى لهجتين التى تصطنع الشفقة ، هذا
 التقصى ، هذا التفرس ، يعاودن السؤال تلو السؤال ، صحيح عندك
 سرير ؟ ، يعنى تركت نوم الأرض ؟ ، لكن مالك ، لونك مخطوف ،
 وعظامك ظاهرة ، تقول إحداهن مظهارة بترير حالتها ، يمكن صحتها لم
 توافق هواء مصر ، تصدهن أُمى بلطف ، تنفى ظنونهن ، ثم تنهرن ، عيب
 تخبوا سيرة أحمد أمامى ، تمصص إحداهن شفيتها ، والله يا بغيته بقى لك .
 رجل تدافعين عنه ! تقول جلدق التى ظلت صامته ، عيب يا ناعسة ، أُمى
 تكره مقابلتهن ، تود لو انطوت الأيام وعادت إلى مصر ، لا يدعنها أبدا ،
 حتى عند عبورها الرحبة أو وقوفها أمام البيت ، يتغامزن بالنظر ، إحداهن
 قالت صباح اليوم ، من يوم جاءت بغيته إلى البلد وزادت وتمحنت ، فى الليل
 تتخلو جلدق إلى نفسها ، تقوم لتأمل أُمى الراقدة ، تجزع غير أنها لا تبدى ،
 تفهم لكنها لا تصرح ، فيما بعد ، بدأت ترسل مع كل مسافرة فيها أرغفة ،
 وحام مذبوح وبطة أو أوزة ، وسمن ، ودوم أو بلح ، وملوخية جافة ، رأيت
 ميلاد أخى خلف فى البلدة ، رأيت ميلاد أخى كمال فى مصر ، فى هذه الغرفة
 الضيقة ، الرطبة ، ها هى ذى تتمدد فوق المرتبة ، متورمة الجفنين ، هزيلة ،
 حتى أننى جزعت وخفت ، أم هدهد تدخل وتخرج عليها ، أما أبى فيسعى ،
 إنه لا يقدر على الانقطاع عن عمله ، فالأجازات ممنوعة بسبب الحرب ،

قلق ، خائف ، مشفق على أمى ، شددت عليه ألا يكتب حرفا إلى البلدة ،
ستترجع أمها وقد يترك أخوها حاله وماله ويحىء إلى مصر ، لن يجد مكانا
ينام فيه ، لأم هدهد الجارة ابنة تعمل ممرضة بأحد المستشفيات ، عندما رأت
أمى قالت إن بقاءها هنا مستحيل ، الرطوبة والعنمة وقلة الهواء تسبب فى
حمى النفاس هذه ، أم هدهد ضربت يدها بصدرها ، وأين تذهب البنية ،
ما من قريب يتردد عليها ، إنها وحيدة ، فردانية ، والنبي أوصى على سابع
جار ، وأمة المسلمين بخير ، والله لن تقم إلا عندها ، رأيتها تمدد حشية ،
وغطاء بيتها ، تستقبل أمى المريضة وطفليها ، خلف الصغير ، وكال الأصغر
الرضيع ، إذ تغضض أمى عينها تنهر ابتيتها عن اتيان أية حركة ، أو احداث
ضجة توقظ النساء الوحيدة ، إذا بكى كمال تحملها ، ترضعه من زجاجة
اللبن ، كمال هو الوحيد من بيننا الذى لم يرضع من صدر أمنا ، وإذا عاط
خلف تهدهه ، تهدهه ، تسخن الماء ، تسقى الأقراص التى اتت بها الابنة من
عند حكيم المستشفى ، إذ يدخل أبى معلنا عن مجيئه بقوله «يا ساتر» ، حاملا
البيض أو الخضار أو لحم الضأن ، نحتاج أم هدهد ، البيت فيه ما يكفى ،
لماذا التعب ، لماذا يكلف نفسه ؟ ، لكن أمى تشير إليها من مرقدها ، وأثناء
خلوتها بأبى قالت له إن الجماعة حالهم عسير ، وإن المرأة تعول يتيمتين من
دخل يسير يأتيا من ميراث قدره ربع بيت فى حارة الكحكيين ، لم يدخل
أبى طوال رقاد أمى ويده خالية قط ، عرفت لأول مرة فى هذا المقام الوعر
أن رقاد أمى دام أربعين يوما بلياليا ، وأنها عاشت ممتة للمرأة التى كانت لها
أقرب من ذوى الرحم ، وبها أرقق ، جاءت الابنة المريضة تزور أمى فى
حجرتها ، قالت إن هذا السكن ضار ولا بد من تغييره ، وأنها هى ستسعى
بنفسها ، عرفت أمى الطريق إلى شقة أم هدهد ، وعرفت أم هدهد سكتها

إلى الغرفة ، إذا طبخت أُمى لحما ومرقا تغرف مقدار طبق وتصعد به ، وإذا
قَلَّتْ أُم هدهد زلاية ، أو سوت كشرى ، أو طيخا تجىء إلى أُمى بطبق .
جاءت الابنة الممرضة بغرفة وصالة في العطوف ، غير أن أبى قال إن إيجارها
وقدره سبعون قرشا لا يتحملة ، ثم جاءت بغرفة أخرى في حارة درب
الطبلاوى بقصر الشوق ، لها دورة مياه مستقلة ، وأمامها سطح فسيح يخص
قاطن الحجرة ، لا تفارقها الشمس طيلة النهار ، صحية ، هواؤها نقي ، أرى
يوم فراق أُمى لهذه الغرفة التى أجهل موضعها الآن بحارة حوش آدم ، ليتنى
صحبتها يوما لترينى إياها ، إذ ارجع ، بعد انتهاء سريانى هذا ، إذا قدر لى
الرجوع ، سأشرع ، سأصبحها لترينى هذه الحجرة التى فارقتها وهى حامل
بى ، لكم عانقت أُم هدهد ، لكم أوصتها بالزيارة ، استأجر أبى عربة يد
صغيرة ، فالمتاع قليل ، مرتبة ، ولحاف ، ومخدة ، وقفة ثياب ، وحلتان من
النحاس للطبخ ، وبراد الشاى ، وأربعة أكواب زجاجية ، وسكين ،
ومصفاة للطاطم ، ولفة حبال لنشر الغسيل ، هاهى ذى تقعد أمام غرفة
فسيحة ، على حجرها كمال ، وأمامها خلف ، وفى رحمها أنا ، الهواء
والشمس ، والسقف المرتفع .يسنده سبعة عشر عمودا خشبيا ، السطح
فسيح ، فى أقصى ركنه الأيمن ، وأقصى الأيسر ، عامودان خشبيان ، يمتد
بينهما سلك ، يتزل منحدرًا عبر المنور ، انه هواى المذيع الوحيد فى البيت ،
بالطابق الأرضى عند أحمد عمر التاجر زوج الست وجيدة ذات الأصل
التركى ، تلك أول غرفة وعيت على جدرانها وحمانى سقفها ، وهذا السطح
المتسع ، كل دنياى فى صباى ، وعلى حواف سورہ مشت تلك العجامة ، آه ..
يا هديلاً ولى ، أيام الهوى ذهبت كاللحم ، أرى ميدان مولاي الحسين ، هذا
يوم لا أذكره ، فالضوء غريب ، والزمن مجهول ، أما المباني المطلة على الميدان

فواجهاتها متشابهة ، لم أرها أنا ابن هذه المنطقة ، من أودعتها ثلاثين من
عمرى ، هذا أبى وتلك أُمى ، أنا بصحبتهما ، يتقدمنا الوالد بمقدار ثلاث
خطى لا تريد أو تنقص ، إننا نبحث عن مطعم رخيص نأكل فيه ، لكننا
لا نجد ، كل الدكاكين مغلقة ، والمقاهى ، وباب مسجد عتيق ، أرى نفسى
متقدما فى العمر ، ارتدى قيصا أخضر ، اجلس إلى صاحب لى هو مقيم فى
بلاد الانجليز ، نحن فى صالة بيته بإحدى ضواحي لندن ، يكب شيئا ما فى
ورقة ، أقول له إننى فى الحريف القادم سوف أسافر إلى بلاد الانجليز مع أنى أرى
نفسى فى بلادهم ، غير أننى اتحدث وكأننى فى مصر ، ولم أدر سر ذلك ! ،
أرى أبى أمام مبنى غريب ، قصر ومسجد معا ، الماء يسيل من حوافه ، يمسك
دلو من رخام ، يومئ إلى ، لكننى لا ألبى ، فيولى ظهره ، ويدخل مع
الداخلين ، ابقى وحدى ، ثم رأيت شابا مقبلا نحوى ، رأيتة باسمها فاطمأن
داخلى ، اشار إلى فتقدمت ، تبعته ، حتى رأيت صاحبي الشهيد يجلس إلى
منضدة مستديرة ، نفس الهيئة التى تركته عليها فى مدينة فاس ، ينقش الجلد
بالمطرقة ذاتها ، كأنى انظره فى عالمه الأرضى ، كأنى لم أفارق ، ولم أعرج ، ولم
أعرف لحظات البعاد الأولى ، وما أمرها وما أكثرها وما أطولها رغم قصرها ،
يتطلع إلى بعينين صافيتين ، يقول لى :

خلاص ؟

أقول بسرعة :

- لا ..

يقول لى :

- لا تنس أن الموت الحقيقى يبدأ مع اكتمال النسيان ..

يرتجف فزادى ، ولو أن قلبى معى لا اضطرب ومال ، يستمر صاحبي

الشهيد ..

- لا تنس ، إذا استمر ذكر الإنسان ، أو اللفظ باسمه بعد موته ، أو اجتزار سيرته مع من أحبوه أو عرفوه ، فإنه يصبح في اعتبار الحى ، لكن إذا تم النسيان .. يكون الموت ..

كدت ادرك ما وراء قوله ، وتذكرت شيخى الأكبر إذ يقول ، لولا الخيال لأصبحنا فى عدم ، كتمت رد فعل ، وامسكت على أنفاسى ، بينما يستمر فى دق الجلد بالمطرقة ، لا يكف عن النقش ، اشم رائحة جلد مدبوغ نفاذة ، أرى حقيبة بنية اللون اشتراها لى أبى فى أول سنى عمرى ، لأضع فيها أولى كراساتى وأقلامى ، علمنى كيف افتح القفل ، وكيف أغلقه ، بدا مرحا ، بل إنه غنى ، وفى هذا المقام ادركت لأول مرة فرحه ، إنها المرة الأولى التى يشتري فيها حقيبة مدرسية ، إنها الحقيبة التى ود أن يحملها يوما .. عاودت النظر إلى صاحبي الشهيد وأنا مفرق العبرات ..

- «ولماذا يكون الهاق ؟» .

يقول :

- «لكى تولد الأهلة والشموس ...» .

أعاتبه :

- «وتلومنى ...» .

يلوح بيده الخالية ، وكأن ما يطلبه هين ، بينما يده الأخرى لا تكف ..

- «مع الزمن يقل عدد الذاكرين ، فيقطع الراحل فى اطالة امده ...» .

لحت الشاب الذى دلتى ..

- «من هذا ؟» .

يقول صاحبي مبتسما ..

- «من هذا ؟ إنه مازن أبو غزالة ...» .

اسدد البصر مرة أخرى فلا أراه ، صاحبي الشهيد يجلس موليا ظهره

ناحيتي ، أناديه فلا يلتفت ، يصمت فلا يحاورني ، يتردد في سمعي هديل
الجمامة ، والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ،
وما هو بالهزل ، عرفت أن هذا آخر العهد بصاحبي الشهيد ، فالرحمة ،
الرحمة ، من بعيد ، دان ، وافهموا شجني وشجوي يا أحبابي واخواني ،
فهني الله واياكم سرائركلمه ، وهدأ خواطرننا المكلومة ، آه يا عظيم السلطان ،
يا واسع الرحمة ، يا عظيم الإحسان ..

* * *

سريان بين مقامين
إن المكنات لا تتناهى
فما بآلكم بالأمكنات؟

.. إني على سفر عظيم ، رحيل في رحيل ، فإلام المصير ؟ ، عند ولوجي
هذا المقام كنت أشبه بمن .سيشرع إلى محلة لن يبلغها إلا بشق الأنفس ،
لا يعرف ما سيجده إذا ما بلغ ، وعند الوصول لا يدري إن كان سيقف على
ما فارقه أم سيتقطع عنه إلى الأبد ؟ ، وهذا عين حالي أنا المسافر دائما ،
المغريب أبدا ، فأنا قاعد في قيامي ، قائم في قعودي ، والتفكير في السفر أو
البلد فيه باعث للأحزان ، لأن فيه فراق الأوطان والأحباب ، وهذا حال
حيرتي وكدر صفوي ، ذلك أنني كنت في أيامي مع أهلي وصحبي أحن إلى
رؤية ما تقع عيني عليه أول مرة ، أتوق وأصبر ، وأسعى ، وأبذل الجهد ،
حتى إذا تم مرادى انقلب على أمري ، وذلك لفراق الأحباب ، وفراق
الأوطان ، وعند وصولي إلى أرض غريبة ، يعكني ألم وضيق ، وأنوح بلا
دمع ، إذ أكره مواجهة من يجهلني وأنا من المستضعفين ، أما أشد السفر قسوة
ما يجبر عليه الإنسان ويعرف هذا عند الجماعة بالننى ، وقد خبرت هذا كله ،
فإذا فعل أنا المجهول على الشوق دائما ، أنا خير من يعلم أن من اشتاق سافر ،
ومن سافر ابتعد ، ومن نأى غرب ، ومن اغترب ضاع وفقد ، ومن ضاع
لا يرجع ، ماذا يبدي أنا المجلوب لى الشوق كلما تنفس شاك أو تألم ذو وجد ؟
أنا من يروم الجوى دائما ، واثقل ما عانته عيني إذا بان أحباب وعز إياب ،

إذا استعصت لحظة عابرة على الاستعادة ، قد تبدو في أنظار الآخرين غير ذات معنى ، لكنها عندى المقال كله ، ماذا أفعل ؟ ليتنى أفهم اغترابى ، وأصل إلى لب برهانى ، ليتنى قادر على إطلاق لسانى ، وسبر اغوار جناتى ، فياكل غناى . ومدى سوى ، وغاية رغبى ، وموضع آمالى ، ومكنون اضمارى ، لماذا أزعج فى سفر داخل سفرى ، لم أدر أننى مقبل على السريان فيما لم يعرفه بشر .

يتقلمنى شيخى الأكبر محيى الدين ، افهم عنه أن كل ما سافكر فيه سأراه ، فلن توجد المراثيات لأراها ، بل مستجسد لأننى أريد رؤيتها ، وهذا عظيم جلال ، لم يعرفه كرم من سبقونى ، كل ما أطلبه أشاهده عدا المحظور الذى طال التنبيه عليه ، رأيت الآتى فى الماضى ، والأزمنة الثلاثة ، والأحوال الثلاثة ، طلبت السريان فى الأصول ، رأيت الذرات سابجة فى السدم الجبارة ، بعينى الانسانيتين ، شاهدت الذرات التى لا يمكن للبصر ادراكها ، إنها أصل نشأتى ، هذا تفرقها ، وتجمعها ، ثم تشتتها ، ثم تلاقيها ، اتحادها لإخراج صورتى ، ثم توزعها ، بعد فئالى ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع ، رأيت جدا بعيدا ، من جهة أبى ، طويل الشعر ، يمسك جذعا غليظا ، يمشى فى فلاة قاصدا جمعا من الإخوان ، رأيت جدا لأمى فى زمن سحيق ، يطل عبر كوة ضيقة إلى بسطة من أرض غريبة الألوان والتكوين ، حاولت الاستواء فى مواجهته غير أن ذلك لم يدم ، إنما رأيت مستقبلا قادمًا ، لن أبلغه قط ، هذا رجل نحيل ، يغطى رأسه بنخوة معدنية لا أعلم لأى غرض ، أما لباسه فغريب ، لاصق بجسمه ، هذا يمت إلى بصلة ، إنه من نسل ، لى فيه باع ومقدار ، لا يعرف شيئا عنى ، ولا عن أبى وأمى ، وجلدى وجدودى ، هذا زمن شديد النأى

عن عصري ، بل إن زمني لا وجود له ، ولا ذكر في هذا البعيد الآتي ،
يشيرون إليه قائلين ، الحقبة المجهولة ، ادقق في ملامح حفيد أحفادي ،
اتعجب واسلو ، ثمة شبه بينه وبين جدى الذى رأيت في تجليات الأسفار ،
الذى خرج إلى هجاج عظيم ، باحثا ، منقبا عن السر والجواب الذى حيره
وأقضى مضجعه ، النعامة ، أطير هي أم حيوان ؟ ، أعاود النظر لأتملى واستزيد
لكننى اسرى على الفور ، رأيت الحدود كلها ، ولولا الحدود لما ظهرت
الفروق ، مرج البحرين يلتقيان ، رأيت زمنا آتيا ليس يبعد ، ما من حى فيه
يذكر أبى أو يستدعيه بصور الخيلة ، وتذكرت بوعى البشرى خواطرى بعد
خلو الدنيا من تردد أنفاس الوالد الكريم ، إذ أحاول أن احصى من عرفوه ،
وصاحبوه ، وكان لهم معه رفقة ، أقول إنه لا بد يرد على خواطرمهم وإن في
صور خاطفة عابرة ، أو يبرق في أحلامهم التى تنسى بعد البقطة ، كنت إذ
اسمع بموت واحد من أحبائه أو اصحابه أحزن ، وأودع جزءا اتوهم أنه كان
متبقيا ، حتى أشهدت في سريانى هذا ذلك الزمن حيث لا يوجد إنسان
واحد بمن سمعوه ، أو رأوه ، أو وقعت أعينهم صدفة عليه ، فارتوى اسأى
بقطر جديد ، حتى مأواه الأبدى لا أثر له ، وقد سبق أن رأيت عبر هذه
التجليات مبنى معدنيا في موضعه ، لم أدر محتواه ، لكننى في هذا السريان
أرى حديقة مغطاة بجشائش لم أرها ولا أعرفها في دنياى وعبر كل تجوالى
وأسفارى ، لمن الحديقة ؟ لمن الزهور ؟ لمن هذه المقاعد ؟ من يتردد عليها ؟
أين مستقر عظام أبى ؟ ، أين عظام أمى ؟ لكن لماذا أسأل عن أمى ؟ ، أليس
هذا بزمان بعيد قادم ؟ اتظن يا عليل الخاطر أنها ستبلغه ؟ ، نعم .. أعرف أنها
لن تصل إليه ، لكننى مرجف ، مببل ، عندى القلق كله ، وعدم القدرة على
التحقيق ، فالرحمة يا قدامح ظنى ، والهوينا يا قوى رجائى ، فلا تسألن عن

شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ، صدق ربى العظيم ، وانى قابل بما تقضى به ،
هذا تصرىحى وعين حالى .

سريت إلى بعد سحيق لا يمكن للعقول أن تدركه ، تلك مجرة تضمحل ،
تفنى ، اعرف بالتلقى أنها تحوى بعضا من ذرات وجزيئات انتمت يوما إلى
حضور أمى الدينوى ، رأيت ناصية طريق مرصوف بحجارة قديمة ، على
جانبيه حشائش وعند نهايته كنيسة صغيرة ، مهدمة الواجهة ، رأيت سلما
ضيقا ، تصعده فتاة بهرنى طولها ، طول غير مفرط ، قامة سامقة ، رشيقة ،
متناسقة ، فسبحان من سوى مثل هذا الجذع الإنسانى الجميل وجعله يدب
ويسعى ، يسعد ويشقى .

رأيت شجرة ضخمة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، رأيت مصباحا
خزفيا أزرق اللون ، رأيت محاراً غريب الهيئة على شاطئ بحر ، رأيت خلقا
متباعدين كثيرين ، وفى هذا كله تفرقت ذرات من والدى ، لم استطلع
التوقف للتملى والتمكن ، كمن يحاول قراءة لافتة عبر نافذة قطار يمرق مروقا ،
هذا غمام كثيف ، تلك قم مغطاة بالثلوج ، يضاء من كل سوء ، وديان لم
يطأها بشر ، تراب ناعم كالدهيق لم تحركه نسمة أو رياح من العصور الأولى ،
رأيت الرموز والأمور الملتغزة ، رأيت الجمع فى التفرقة ، والوصل فى الفصل ،
والمستقبل التالى ، حيث الصلاح فى الخلل ، وظهور للدعوى ، حيث يهود
الأغنياء على الفقراء بما فى أيديهم ، ويهود الفقراء على الأغنياء بالقبول ،
وإذا بالكل راض ، فلا فقير ولا غنى ، لا صحيح وسقيم ، إنما الجميع فى
الصحة والعافية مقيمون ، رأيت زمن العدل ، الخلق كلهم يطوفون ببعضهم
كأنهم ولدان مخلدون ، فى أيديهم أباريق وعلى ثغورهم ابتسامات الرضا ،
وأمامهم كؤوس من معين ، رأيت نغمات الإحسان وأصوات الألحان ، وحنين

الغيب إلى المعلوم ، فسمعت فطبت فتحرّكت فوجدت فحمدت فحصلت لطائف الأسرار كلها ، هذه لور ، أنا من أحببت ومن أحببت أنا ، تقبل كما عرفتها ، تحنو كما حنت ، كان حنينها علىّ دائماً متصلاً ، هذا الحنين الذي يتركز في اللحظات التي تسبق الفراق ، ولكنها اسبغته على في كل حين ، لور .. من لي بطلّة من عينيك ، بشمة من شعر رأسك ، من الاشتياق ، من لي بنسمة من المحبة ، يا شفاء قلبي لما به من لطف المواجهيد ، يا صفة غير موصوفة ، يا رقيقة الندى ، يا متواجدة أبداً فيما بين الضوء والظل ، في نقطة انفراج الفرع عن الجذع ، من لي بك يا كاملة ، يا رقيقة ، يا حنون ، يا من عنصرها الأعظم الرقة والرحمة ، وعنصرها للنعدم ، الجفوة ، يا من لها غاية الطريق ، اسمك في الصفات المقتدرة ، وفي الأفعال المحيية ، أما حضورك فن عالم الغيب ، لأنفاسك-الانفراد ، والصوت ، والمضى الأتني ، يا من هي أنا ، وأنا هي ، ترتفع الأنوار والليل والظلم ، والشمس والغسق والليل وما وسق ، فتسطع سباحات العدل ، ينتنى المرض ، وما يعود إلا الصديق ، ويفنى الهم ، يسرى أمامى شيخى. الأكبر ، اسمعه. يخاطبني ، يقول لي : قال واحد من تلاميذى في الطريق ، قال الشيخ الجيلاني ما يناسب رؤياك عند هذا الحد من ذلك المقام ، أعلم ان الارادة لها تسعة مظاهر في المخلوقات ، الأول هو الميل أى انجذاب القلب إلى مطلوبه ، فإذا قوى سمي ولعا وهو المظهر الثانى ، وإذا اشتد سمي صباية ، فالقلب إذا استرسل فيمن يجب فكأنه انصباب الماء إذا أفرغ لامر من انصبابه ، وإذا تفرغ له بالكلية ، سمي شغفا وهو المظهر الرابع للارادة ، وإذا استحكم في القواد ، سمي هوى. وهو المظهر الخامس ، فإذا استوفى حكمه على الجسد سمي غراما ، وهذا أشد العذاب ، قال جل شأنه في جهنم « ان عذابها كان غراما » ثم إذا نما وزالت العلل

الموجبة للميل سمي حبا وهو المظهر السابع ، ثم إذا هاج حتى يفنى الهب عن نفسه سمي ودا وهو المظهر الثامن للإرادة ، ثم إذا طفق حتى أفنى الحب والمحجوب سمي عشقا وهنا يرى العاشق معشوقه فلا يعرفه ، كما روى عن مجنون ليلي . مرت به ذات يوم فدعته إليها لتحدثه فقال لها دعيني فإني مشغول بليلى عنك ، وهذا آخر مقامات الوصول والقرب ، حيث لا عاشق ولا معشوق ، ولا يبقى إلا العشق وحده الذي لا يدخل تحت رسم أو اسم ولا نعت ولا وصف ، وحيث لا عاشق أو معشوق ، يقول شبنم الأكبر ، وقد ظفرت بما ظفر به غيرك من أهل المجاهدة والمعاناة الحقة ، فأنتم سعيك ، واقصد سبيلك . يغيب صوته عنى ، يتوالى سرياني في الأشياء ، أو سريان الأشياء في ، أرى الحديد فوق الماء ، والزهرة تلدغ الحية ، والشجر يأكل الجراد ، السمك يسبح في البر ، ويموت في البحر ، أرى الزمن يمضي معكوسا ، فيولد الإنسان شيخا ، ثم يكبر فيصير شابا ، ثم ينضج فيصير مراهقا ، ثم يصل إلى الحكمة طفلا ، ثم توافيه النية جنيئا ، ويلفونه في مشيمة الرحم ، ويشيعونه عبر فرج الأم إلى مثواه الأخير بالبكاء والنواح والويل الطويل ، يخنق ، يتحول إلى نطفة ثم علقه ، يرتد إلى ما بين الصلب والترائب ، رأيت القمر بالنهار ، والشمس تشرق عند نزول الليل ، والحلال فيه الاكتمال ، وفي البدر التقصان والمحاق ، هذا طور مختلف من سرياني ، إني متقلب وأنتم متقلبون ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ، فرحت إذ رأيت جمال عبد الناصر ، يسمى بين الخلق ، يحكم بالعدل والحسن ، يمشى بلا حرس ، بلا بصاحين ، الكل يقول له : طالت الغيبة ، حسنت الرجى ، لم أدر أى زمن هذا ، رأيت نفسى مقتريا منه ، دانيا ، أقول له :

— وأما من فرصة لى معك ؟ .

يقول لى :

- «هل عرفت ؟» .

أقول : «لم يصح الكمال وأريده أن يصح» .

يقول : «اثبت» .

أقول : «لم تركت بيتك يخرب ؟» .

يتبسم قائلا : «لما استطلت عليه أيدي الأعدى حين أخليته فأفنيته ثم افنيته ، ثم خلفت الجلف الجافي في قومي فهد لتخريبه ، فلما هد من قواعده ما هد رددت إليه بعد الفناء فأشرفت عليه فدارت الدورة دورتها ، وهذا أنا وهذا أنتم !» .

أقول : «وأيّن أنا ؟» .

يقول لي ابن عبد الناصر ، حبيب المظلومين ، نصير الضعفاء :

- «أنت ساكن» .

أقول له بخنو :

- «والساكن ارتحل» .

يقول لي :

- «الحق عندك ، وهذا غاية وسعى» .

اتركه متشيا ، ليس لأنّي فهمت ، وإنما لرؤيتي له وإدراكي رجعه ، أرى الخلق يبحرون في البر ، ويشقون الطرق في البحر ، أرى الحرين يزيد الرياحي ، استبشر قرب حبيبي الحسين ، أقبله ، يرحب بي ، يسهل لي أمري ، أقول له :

- «متى عهدك بك ؟» .

يقول لي :

- «منذ توسطت هذه اللجة ، وانحزت إلى جانب حسيني وحسينك» .

أقبله ، أودعه ، أرى كل شيء في كل شيء . الفناء قبل الخلق ،
أقول ، هذه حكيمته . وهذا شأنه ، وهذا قضاؤه ، له الأمر ولنا الطاعة ، له
التدبير . ولنا الامتثال ، أرى ما لم أكن أعلم ، أرى صاحباً لي ، ابراهيم
زيدان ، واحداً ممن راحوا في الحرب المغدورة ، أقول له :
- « يا شاباً لم تزل ، ارفع الهمة » .

يخبرني :

- « مضى زمان رفع الهمم » .

أقول :

- « انسيت ما نهيتني عليه » .

يقول :

- « بل أنتم الذين نسيتم ، ونسيتمونا » .

أقول :

- « بوركت من مقاتل ورجل » .

أقبله ويقبلني ، يلوح لي زاعقاً ..

- « جملوا بالكم من الوطن قبل أن تضيع الفريسة » .

سريت عنه ، اعبر ضباباً غريباً مرجاني اللون ، أمر مرور الكرام بعصور
أجهلها ، أراها في مجملها ودقاتها ، أسمع أنغاماً يطرب لها القلب ، غير أن
قلبي ليس معي ، ليس طوعى ، تحت مقرنصات زمني الأول ، أرى الميبدان
الذى يحمل اسم شفيعى ، أبى يعبره متمهلاً مرتدياً جلباباً من الكستور المخطط
واللون بنى ، فأينعت أشواقى ، آه لو اظلل هذه اللحظة برموشى وظلال
نظراتى ، لو اضمهما بين يدى . لكن يداى ليستا طوعى ، منفيتان عنى ، أود
لو آتيكم منها بقبس ، رب خاطر يحول بأفئدتكم يا اخوانى ، وماذا فى لحظة

عابرة ، ما الذى يعنيه مرور هذا الأب فى ميدان الحسين ؟ اعرف أنه لا شىء بالنسبة إليكم ، ولكنه عندى تراثى وحفظى وصوفى ، ولا يمتنعنى هذا من تكرار الوصية ، قرب لحظة تنقضى لا يتوقف البال عندها ، وربما تكون باعثا للعذاب كله أو السلوى بعينها ، فلا تهملوا النظر ، وامنعوا الفكر فيما حولكم ، أشد ما آلتى فى سريانى هذا تلك العصور التى سيمحى فيها اسمه واسمى ، رسمه ورسمى ، لن يعيش فيها من يذكرنا ، أرى وجوها صغيرة متضامة تنظر تجاهى ، اتشاغل بها حيناً ، هذه أمى الحبيبة ، المشغول فى غربتى بها ، القلق عليها ، إنها تركب قارباً ، والنهر من ألوان ، أخضر وأحمر وأزرق كالسماء فى صفائها ، النهر ممتد وعند نقطة سينحى ، وثمة جنود يقفون فوق قنطرة حجرية ، يتوسطهم ضابط يرتدى ثياباً معدنية ، أمى تلتفت ناحيتى ، تصبح . تتادبنى ، انزل يا جمال ، انزل ، انزل ، وأنا متشبث ، لا ألبى ، وعند حد معين تقفز أمى من القارب ، يلتقفها أبى الذى ظهر فجأة ماذا يديه ، يديران ظهرهما للجند المدججين ، يسرعان ، يذويان فى اللون الأخضر الغميق ، بينا يولى القارب فى النهر وأنا ألعن الفراق . أرى احتفالاً إسرائيلياً ، جند منهم يصطفون فى فناء مدرستى القديمة ، ظهر منهم ثلاثة يرتدون لباس مقاتلى البحر ، ثم تكاثر جمعهم ، أحدهم يشبه البحار الملتحى الذى رأيت صورته على علب السجائر ، تحلقوا حول شىء لم أتبينه بداية ، وأن علمت أن بحهم طال عنه ، أعرف أن ملقى فى المدرسة ، فيه درجائى ، وشهادائى حتى هذا الحين ، يشعلون ناراً ، يصرخون ، يرفعون الأيدي مهددين ، أرى نفسى جالسا فى خلاء اتفرج على شريط سينمائى وحدى ، فى البداية أرى تمثالاً لواحد من آلهة الاغريق ، ذكره بادى ، ظاهر ، ثم يتبدل موضعى ، أصبح فى قاع بئر معتمة سوداء ، وثمة فتحة دائرية يبدو منها ضوء السماء

البعيدة ، ادرك أن عرض الشريط مازال مستمرا ، يخاطبني هاتف خفي
قائلا ، سترى اباك ، أبدا الانتظار ، اسمع خطاه ، ومع كل خطوة ارتفع
مقدارا ، حتى شارفت على الضوء وبقيت في مركزه ، ألمح أبي بخطو متايلا ،
طريقة المشي ذاتها ، يرتدى ثيابا جديدة لم أعهدا. عنده .

«أبي .. أبي» ..

يلتفت ، اتجه نحوه ملهوبا عليه ، يبدو وكأنه ينتظر لقاء بمن يعرف ،
اصافحه ، انتبه إلى أنني دخلت الشريط السينمائي ، أنا جزء منه ، حواسي
كلها تلتقط ملمس يده .

- «أبي .. كيف حالك ؟» .

- «أنا بخير» .

- «أوحشتنا» .

يبدى تمللا ، يسحب يده ، يستدير على مهل ، وإذا بي أرى أمي إلى
جواره ، اهفو ، كيف لم أنتبه ، كيف لم ألحظ ، أية غفلة ؟ انادى ، غير
انهما لا يجيبان ، يستأنفان تزهتهما في فناء الكون ، يبدو أمامي رجل غامض .

- «أبي متوفى ، راحل ، فلماذا يصحب أمي ؟»

يلتفت ناحيتها ، لكنه لا يجيبني .

- «ألا تخبرني بما جرى لها في غيبي ؟» .

لا يلفظ حرفا ، بأى لسان اخاطبه ؟ ، فجأة أقول :

- «ألا يمكنني أن أحصل على صورة لها هنا ؟» .

يغمزني رجل آخر في ظهري ، يقول :

- ما دام قد وعلك فسيفعل ، لا تكن لوحا ، وامض .

فأنصرف مطرقا وأنا منقلب البصر حسير ، أرى نفسي متجها إلى مجمع

هائل من المساكن الشعبية ، آخر ما بناه عبد الناصر للفقراء ، اتوقف عند باب شقة ، تبدو أوى حزينة ، عاتبة ، لا تتكلم ، أقول لها :
- « لا تضيقى ولا تحزنى ، لقد بدد الزمن شملنا ، وتلك مشيئة الدهر » .

.. كنا نتأهب للانتقال من هذه الشقة إلى مسكن آخر ، لكن ليس كلنا ، ولم أدر من سيفارق ، ومن سيبقى؟ ، يستمر سريانى ، يغيب عني ماأراه ، لا أتحقق من شيء ، تتوالى على أمور وأقف على أشياء لا يسعني ذكرها لعموض معانيها ، ومثل ذلك يحرم على كشفه إلا لمن قطعوا فى الطريق شوطا لما يؤدى إليه من التشوش ، فالحمد لله على ما منحه ، وما سمح به ، وإن فهمتم ما أشرت إليه قل تشغيكم وربما زال كله ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما أحضرت ، عندئذ التفت شيخى الأكبر محبى الدين الى ، بدا منه ما طمأننى وأراحنى ، إذ تبسم لى ، قال :

- « لا تدخل دارا لا تعرفها ، فما من دار إلا فيها مهاو ومهالك ، فن دخل دارا لا يعرفها فما أسرع ما يهلك ، لا يعرف الدار إلا بانيها » .
أقول :

- « إني مسكين ، يُضرب لى المثل بعد المثل ، ولا أفكر فى تحبب الظلمة ، بل احسب أننى فى النور » .

يقول لى بلهجة حنو لم اعرفها منه :

- « يا مجاهدنا لم يزل ، امض إلى يوم عشته ولم تره » .

أفهم ما يرمى إليه ، فيهب على نسيم الشوق ، يأخذنى عنى ، ويمجذبى منى ، يذيب جواى ، ويمتحن-كائى ويائى ، اسمع صوتا يهدر :

- «لمن الملك اليوم؟» .

يحييه شيخى الأكبر محي الدين :

- «فه الواحد القهار...» .

* * *

مقام الجوى
فَكشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ
فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ

.. كأتى اعود إلى دنياى ، إذ رأيت الكون كله ، غير أننى أرحل بالبصر
والبصيرة ، باق حيثما أنا ، أعبر حوافه ، واجتاز المجرات والسدم والتقوب
السوداء ، اقطع المسافات التى تفنى دهورا ، يلوح لى كوكبنا الشمسى ، أرى
توابعه متعامدة عليه ، أميز زحل بحلقاته. الغبارية ، والزهرة لسطوعها ،
وعطارد الملتب ، ودرة المجموعة ، أرضنا التى منها جئنا وإليها سنرجع ،
تواجه الشمس. بنصفها الذى فيه قارتنا الافريقية ، وبحرنا الأبيض ،
والأحمر ، والقارة الأوروبية ، اشعتها توشك على ملامسة أرض مصر بينا
تهب ريع شمالية ، ونيزك هائل قادم من بعد سحق يتفتت على حافة غلاف
أمننا الأرض الجوى ، عرفت ها هنا أن ألفا وثلاثمائة وستين عاما قد انقضت
على استشهاد من قطر حبه فى نخاعى ، مولاي الحسين ، وأن عشر سنوات
وشهراً واحداً ، قد انقضت على رحيل من صارت أيامه حلما ، جمال عبد
الناصر ، فى هذا اليوم بقى للشمس مرات شروق توازى المشارق التى تمت ،
أى انتصف عمر كوكبنا تماما ، هذا ما ألقى فى معارفى ولا تسألونى الشرح أو
الزيادة فاللم صعب ، والخطب وعمر ، هذا يوم تعارفنا على تسميته بالاثنتين ،
الثانى من السبعة ، يوافق السابع والعشرين من أكتوبر ، ألف وتسعمائة وثمانين
طبقا للتقويم الميلادى ، إذن .. هذا ما كان خبيثا فى غينا ، وما تدرى نفس

ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، اعبر شوارع القاهرة ، أصل إلى هذه المنطقة من الحى السكنى الجديد الذى شيده عبد الناصر للمعسرين ، وكان ذلك آخر ما شرع فيه لنا نحن رقيقو الحال ، رحم الله نصير المهضومين ، ولعن ربى الظالم ، الوضع ، الذى اعقبه ، وساحك الله يا جهال لأنك اخترته وسلمته الأمانة فخانها . وحفظت عنده الوديعة قنهما ، وبددها ، وأعسر مصائر الكثرة ، ساحك الله ، وليس هذا بمقام مناسب لأفضى إليك عتابي .

دخلت شقتنا ، أنفاس النيام تلقتها ، ولجت الحجرة التى تقع فى مواجهة المدخل ، هذا أبى . يفتح عينيه بعد نوم دام سبعا وسبعين دقيقة منذ أن صلى الفجر واغنى ، هذا وجهه ذو الغربة والتعب ، لكم بدا لى نحيفا ، لكم ثقل على المقام هاهنا ، مع أن ما اطالعه ذروة الكرم الذى اسبغه سادنى على ، فلا تمرق وتفرق . اعضاءى ويقالى فى الوقت نفسه حيا ، ولا سربانى عبر الحجرات وخروجى من الكون كله ، ولا نفاذى عبر الحجب الزمنية ، ولا تواجد صورتين ، أصلية تسعى فيما لم يره بشر ، وصورة باقية بينكم تقوم بكل ما كان مفروضا أن أؤديه وأتمه حتى سقوط ورقى من شجرة الكون ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، فى وجه أبى الذى أطلعه عند آخر شروق عليه ، رأيت ما مضى من عمرى ، وجه لمولاي الحسين فقد كانت أول صورة وردت على خاطره الرأس الشريف ، المقصورة الفضية ، وزخارف الخشب ، والممر القصير المؤدى إلى حجرة المخلفات النبوية ، والثريا الضخمة الكريستالية المغطاة نهارا بقماس أحمر ، تلك صور تبعث حيننا فى القلب الهرم ، أرى وهنه وخفقه ، لو أن الإقامة دامت على مقربة من الحبيب ،. لصلى الفجر كل ليلة هناك . لكن المسافة الآن بعيدة ، من مدينة نصر إلى

الحسين ، يتيسر خاطره ، في أوائل الحرب ، عام أربعين أو واحد وأربعين ، لا يذكر تماماً قال له الحاج عبيد مدير فندق الكلوب المصرى ، ادفع جنبها يا أحمد واشتر ألف متر من أرض الدراسة ، ضحك يومها ، قال : اهذا معقول ، حتى لو مى جنبه أرميه فى الجبل ، ثم لماذا ابتعد عن الحسين هذا البعد كله ؟ ، كانت الدراسة آخر حد العمار بينها وبين الضريح الغالى مسيرة خمس دقائق فقط ، لم يدر أن الزمن سينأى به بعيدا ، بعيدا ، حتى يكون فى حاجة إلى ساعة ونصف ركوبا ليصل إلى المسجد ، لم يكن يعلم ، « يوم يتذكر الإنسان ما سعى » ، اتابع شروق الشمس والمقام يتقل على ، اعرف أن شمس اليوم التالى ستطلع على أبى ممتددا فوق السرير هذا ، لكنه سيكون جسدا هامدا ساكنا فى انتظار المواراة ، لكم اثقل على لأننى فى هذا المقام بين بين وليس بين ، فقد جتته والوعى مكتمل ، عالم بما سيكون ، ملم بما سيقع ، علم الإنسان ما لم يعلم ، وهذا لم يتفق لإنسان مخلوق غبرى ، إذ جمعت زمانين متباعدين ، فأنا معه ولست معه ، أتى لى أن انبئه ؟ أن أخبره ؟ أتى لى ومشيتى ليست بيدى ، نشاء ویشاء ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، يبدو وكأنه يشعر باقتراب النبأ العظيم ، الذى نحن فيه مختلفون ، كأن قلبه الصابر ، الجلد ، لم يضمن عليه ، فأنبأه بالإشارة إلى ما سيتم ؟ ، ليس عند هذا الشروق وحده ، لكن من وقت ليس بقرب ، وإلا فماذا تعنى زيارته للبلدة ، وطوافه بالمواضع الأثيرة كلها ، ومصافحته لمن بقوا من الزمن العتيق ، والابناء الذين يضطر إلى الاستئسار عنهم ، من هم ومن آباؤهم ؟ حتى الحرم دخل عليهن وسلم ، وزيارته الموتى الراقدين فى الصحراء خارج زمام البلدة ، وقرائاته الفاتحة عند قبر أبيه وأمه ، تلك زيارة لم نجبرنا بها ، ولم يطلعنا عليها ، إنما علمت بها فى حياقي الدنيوية عندما ذهبت إلى جهينة أول مرة بعد

سفره الأبدى ، اخبرونى بطوافه وسلامه على الناس ، وجلسه عند الجسر وحيدا ، أية صور وردت على خاطره ؟ ، وأية احاميس ارجفت عينيه المقطبتين ؟ ، هذا من أجلّ أسرار ذلك المقام ، هذا ما لن أعرفه قط ، لا أنا ولا غيرى ، قد ولى أبدا ، «يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى» .

اخبرتني امرأة خالى : جاء أبوك وقعد معنا واطال النظر إلينا ، وعندما انصرف كان يحذف فى مشيه إلى الوراء ، قلت لحالك فى الليل وحالك يشهد ، هذا رجل موشك على الرحيل ، أحمد الغيطاني لن يتم هذه السنة ، فلما أخبرتني بذلك استعدت نظراته الهادئة تجاهى عند انفرادنا فى الشقة ، باسم الحضور ، وديع الوجود ، طالب القرب ممن أحب قبل بدء البعاد ، أما عيناه فشفتا عن حزن اسيان ، وبعثت فى نفسى ما تبعته هذه الأيام الوادعة بطيئة المضى من رقة مرهفة وحنين وأسى ، «فبأى آلاء ربكما تكذبان ، سفرغ لكم أيها الثقلان» ، اخبرتني عمى ، أخت أبى غير الشقيقة ، أنه جاءها وقضى عندها ليلة ، رأت هدمه متسخة ، ففلسلتها له ، وقال لها : نفسى أموت فى جهينة فلا أسبب تعباً لأولادى ، من اجراءات دفتى ، ومصاريف جنازتى ، فقالت له ، تف ما قلته يا شيخ ، فأل الله ولا فألك ، ثم قالت عمى : ما انقطع توصلوه أنتم ، بارك ربى فيكم ، «لا يسأم الإنسان من دعاء الخير» ، ها هو أبى يقوم فيمشى من الغرفة إلى دورة المياه ، إذ يفتح الصنبور ، يتدفق الماء محدثاً صوتاً مرتفعاً ، يخفف اندفاعه حتى لا يزعج اخوتى النائمين ، كذا أمى ، غير أن أمى التى تفتح عينها عند استيقاظ أحدنا ، كانت تمضى إلى المطبخ ، أحمد يجب شرب كوب من الشاى الساخن قبل نزوله اليومى ، كانت تردد فى تلك الأيام : الرجل كبر والمشوار بعيد ، صعب عليه ، يخفف أبى رذاذ الماء ، يرتدى جلباباً من الكستور ومعطفاً خفيفاً وجورياً بنيا ، وحذاء قديماً لكنه

متأسك الهيثة ، إنها الملابس التي سيرقد فيها عند عودته المتأخرة ، لن يخلعها بنفسه ، بل سيعزونها عنه ، وسيتمدد عاريا في انتظار الكفن ، لكن مالى اتعجل ؟ « وكان الإنسان عجولا » .

أرقب خطاه التي وهن العمر منها ، عند منعطف السلم قرب الطابق الأول ترد صورتي على خاطره ، « ياترى أنت فين يا جمال يا ولدى ؟ » يدعو الله أن يرجعنى بالسلامة ، لما اطلعت على حنينه هذا ارتاح قوادى ، وتمنيت لو هدا قلبي ، لكن أنى لى قلبي ؟ ليس معى ، ربما تلك نعمة على ، فلو معى لا نفطر ، « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، يأياها الإنسان ما غرك بربك الكريم » ، يبدأ سعى أبى الأخير ، لم تعد أُمى إلى مرقدِها على غير عاداتها ، تفتح باب الشرفة حذرة حتى لا توقظ اخوتى فى هذه الساعة المبكرة ، تطل ، يمضى وقت حتى يخرج أبى من باب البيت ، يمشى ممبلا إلى الإمام ، يعقد يديه إلى الخلف ، أراه من نقطة مرتفعة ، أعلى من كل البيوت ولم أدر الغرض من ذلك ، عند نهاية الطريق يتوقف لحظات ، يحول بالبصر حوله ، يحدق فى الطريق المقابل كأنه ينتظر ظهور شخص ما ، يواصل سعيه ، لم ينتظر طويلا ، تجىء مركبة النقل العام ، يجلس فى المقاعد الخلفية ، هكذا اعتاد مع أن أجرة الركوب موحدة ، والركاب قليلون فالوقت مبكر ، كانوا ستة رجال ، وامرأة عجوزاً ، عاملا فى مصنع نسيج يدوى اسمه رزق ، ومفتش قطارات اسمه ابراهيم ، وثالثا اسمه رجب لم أحط بمهنته علما ، ورابعا يعمل فراشا فى مدرسة خاصة لم اعلم عن اسمه شيئا ، وخامسا اسمه مسعد عامل تجليد ، وسادسا قصيراً ممثلاً ، أما المرأة فاسمها سعدية ، تمضى إلى زيارة ابنتها المتروجة والتي ستسافر بعد يومين مع زوجها المنقول إلى الصعيد ، سائق العربة شاب حديث العهد بالعمل ، انهى خدمته العسكرية ، أما المحصل فقديم ، ومن قبل كان يعمل

بائعا لأدوات الكتابة أمام مبنى محكمة عابدين .

هؤلاء هم من رأوا أبي في مطلع هذا النهار ، سابع وعشرين أكتوبر ، يرتاح لخط سير هذه المركبة ، تمر بالأزهر ، تتوقف ، يمكنه من نافلتها رؤية مسجد إمامه الحسين ، وقراءة الفاتحة ، ينظر فيرى المئذنة السامقة ، وإياما نائبات ، ومقاهى مزدحمة بعد صلاة الجمعة ، واكتال صحبه - ورائحة شأى معطر بالنعناع ، يحن إلى ابنه الأول خلف ، والثاني كمال الذى لم يكن يفارقه أينما ذهب ، يحن إلى ابنه الذى عاش وهذا أنا ، يقرن حينه إلى شقيقىِّ الراحلين بحنينه إلى ، ذلك أننى راحل أيضا ، ألت مسافرا ، بنظراته دعا أبى بالرحمة لمن رحلوا وبالسلمة للغائب ، وبالستر للجميع ، والرضا ، وراحة البال ، يتمم بشفتيه ، بسم الله الرحمن الرحيم « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد ، وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » آمين . تهتد المركبة وهو راض ، فقد ألقى السلام على من ضحى بنفسه شهيدا من أجل أمثاله ، هو الفقير ، اليتيم ، والأمر العجيب ، الذى حيرنى ، أن أبى كان ينظر إلى المراثيات بعينى انسان آخر سيعيش فى دنيا خلت منه ، مع أنه مؤمن بأن لكل أجل كتاب ، راض بما سيم به الأمر ، وقد كان أجله شقيا ، وأمره مرهقا ، والراحات انأى الأمور عنه ، غير أن تعب الدنيا يعقبه راحة الآخرة ، وفيما أوكل إليه لم يقصر ، وما قام به لم يهمل ، وما وصل إلى يده جاد به ، ولو ضن يوما فإنما على نفسه ، « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، أراه منحنيا ، متطلعا إلى الأرض ، وكلما دنت النهاية يزداد الإنسان اقترابا من الأرض « كما بدأكم تعودون » ، فيطول سجوده ، وتنحنى قامته ، تقترب من التراب أكثر ، غريب أنه يفكر فى موته ، كيف سيتلقى من يعرفه خبر رحيله ، من فى البلدة ، خلف بك الحسينى الراقد منذ عام فى

هذه العلة ، نصحنى التصح الجميل أن ألبأ إلى طيب يداوى النفوس ، وقد كنت فيما مضى من زمنى الجميل اسخر فى سريرى من يذهبون إلى مثل هؤلاء ، وارى فى ذلك عين الميوعة ، ونقص الرجولة ، لكننى سعت بقدمى إلى صاحب لى منهم ، وبعد أن قصصت ما مر لى ، قال ما هذا إلا اكتاب عظيم ، فيما تلا ذلك من أيام كنت أسعى بين القوم ، أرى الموجودات بعين من سيعيشون بعدى ، أرى أصحابى وكأننى مدرك أنها المرة الأخيرة ، وانحيل من سترحم على ، فأرتى نفسى وأنا حى أرزق ، وأنعى وجودى وأنا شديد أسعى ، «كل من عليها فان» ، غير أن الفرق بينى وبين أبى ، أنه كلما فكر فى ذلك صاحبه سكية ودعة ورضاء بالمقدر ، أما أنا فعانيت الاضطرب والحزن على الدنيا وكنت ما عندى وأنا كظلم .

عند هذا الحد من ذلك المقام ، انتهت إلى شرودى عن أبى .. انظر ، فإذا به يبحث الخطى فى عمر طويل بمبنى الوزارة ، انشغلت عنه بنفسى فضيحت مقداراً غير هين من الفرصة السانحة ، ولم أدر متى فارق العربة ، وأى الأشياء رآها ،

انشغلت عنه مع وعى بأن كل ما يمر بى نفيس ، يقطن الإنسان أنه فى الحاصل وهو فى الفئات ، فلما تعظم ندمى خفت ان يلهينى عما تبقى لى فأجلته ، ان زمن الندم قادم ، يقف أبى عند المصعد الجانبى ، يتذكر أول يوم جاء فيه ، كأنه الأمس القريب ، «وتلك أيام نداولها بين الناس» ، جاء مشياً من عند الحسين ، كانت المنطقة المحيطة بوزارة الزراعة ارضاً مزروعة والبيوت قليلة .

كان يمشى صامتا يحنى الكلام خوفاً من خطأ غير مقصود قد يقطع رزقه ، يحى كل موظف يمر به ، ولا يتظر رد التحية ، سنوات طويلة يكظم

فراشه ، تختلط عليه الرؤى ، وتتداخل عنده الأماكن ، وتضطرب الأزمنة ، لا يعود من معارفه القدامى إلا أنى ، الذى صان نسيم الود ، وحفظ جميل العهد ، لابد أن الرجل سيتألم لفراقه ، يفكر فى ابنه المسافر - أنا - ويود لو رآنى ، غريب أن ترد عليه مثل هذه الخواطر ، لكننى لماذا اتعجب وقد عرفت مثل ذلك ، ذلك أننى فى عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين الميلادى ، مررت بأشام أيامى بعد ذهاب الجلف الجافى إلى ديار العدو منبطحا للصلح ، الجلف الذى تحكم فى مقادير هذه الديار غير يسير من الزمن ، ديارنا المحروسة بآل البيت الكرام ، الباسطين عليها رعايتهم ، وحمايتهم ، ولولا سيدى الحسين وأخته زينب والكرام الكاتبين والحفظة ، وأبناء السبيل ، والفقراء المجاهدين ، لولا الأطفال الرضع ، والشيوخ الركع لصب علينا البلاء صبا ، لجرى لنا من النوازل ما يشيب له الجنين فى بطن أمه ، فى هذا العام اقلنى وجوده ، وكان من اشق الأمور على أن يضمنى بلد واحد مع من كان مثله ، ومن افطع الدواهى على النفس البشرية أن تعيش فى ظل وضع يبدو من الصعب تبديله ، وهذا ما سأفصله تفصيلا إن مد خالقى فى أجل صورتي البشرية ، فى ليلة من ليالى هذا العام ، وأنا على شفا النوم ، انتهت بغتة ، فزعت لاهث الأنفاس ، مرتبك القلب ، تلين حولى الموجودات ، أما وجودى المادى فيهوى فى قرار سحيق ، تلفت ، اليقين عندى أننى راحل بعد ثوان ، الموت سيتم فى اللحظات التالية ، سأغمض عيني ولن افتحها قط ، ماض إلى مجهول ، هرعت إلى الشرفة ، كدت اقفز موليا من هلاك مبین ، من لحظتى الآتية لا ريب فيها ، «إن الإنسان خلق هلوعا» ، ايقنت أننى مدرك حتى لو لجأت إلى حصون مستعصية أو بروج مشيدة ، ولولا امرأتى التى حاشتني لكنت نسيا منسيا ، مرت على الليلة بغيضة الوطأة وأنا هائم فى جلوسى ، منتظر حتى ، وفى صباح اليوم التالى قال الطبيب لى ، إن القلب ليس به إلا العطب القديم ، لكنه ليس سبب

ضيقه ، ولا يقدر على رد ملاحظة قاسية ، حتى جاء عبد الناصر ، وأبعد عن أمثاله تهديد انقطاع الرزق في أى لحظة ، والطرء إلى عرض الطريق لأى سبب واه ، لم يكن على نفسه يخشى ، إذ انه عرف الشقاء وقاسى البلايا ، لكن هذه العائلة التى تعلق بعنقه ، جبال عبد الناصر أمته من خوف ، وجعله لا يخشى رد اهانة ظالمة ، فله الرحمة ، ولذكراه البقاء ، حق له حب المستضعفين فى الأرض ، ومن قست عليهم تلك الحياة الدنيا ، له حسن العاقبة ، « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد » ، ما أسرع مضى العمر ، سنينه توزعت على هذا الممر الذى تصطف على جانبيه دواليب الأوراق ، وخزائن الملفات البالية ، يصل إلى حجرة السكرتارية الخاصة بقسم الشئون القانونية ، يسلم ، تحيته عند من يعرفونه سلام ، وسلامه عند من عاشروه عمرا تحية ، ينحنى على دفتر الحضور والانصراف ، على مهل يوقع اسمه ، يبدأ بالحاء ، يرجع إلى الألف ، يتم بقية الحروف ، تلك ساعة وقفت عليها ، الثانية وسبع دقائق من ظهيرة الاثنين ، هكذا سد أى الخانة ، أوضح بيانه ، أوفى تمامه ، ثم صافح وسلم ، خاصة ان كل الجالسين فى هذه الحجرة من الزملاء القدامى ، طول الرفقة اذاب الفارق ، فلا ينادونه إلا ، ياعم أحمد ، بينهم موظف اسمه عبد الرحمن ، اشترك معه فى قرض من البنك ، ضمن كل منهما صاحبه ، أربعون جنيها قبضها أبى فى هذا اليوم ، لم أدر متى ؟ لم أر ذلك ، قبل خروجه من الوزارة ، دسها فى طيات ثيابه خوفا من النشل والنشالين ، هاهو يمر بالمكاتب المجاورة ، بعض الموظفين يللم أوراقه ، والبعض انصرف مبكرا ، يصافح ويطلق النظر ، حتى ظنه أحدهم واسمه مهدي أنه ينوى السفر فقال مستفسرا ، أنت على سفر ياعم أحمد ؟ فقال الوالد : السلام فى كل

وقت يابنى ، يمر بالمقدر ، المكان الذى قضى معظم أوقاته هنا فيه ، لو أعرف
أى شىء فكر فيه أبى خلال هذه اللحظة بالذات ، لكن ذلك استغلق على ،
إن الإنسان كان جهولا ، كذا ألمت بالفترة الواقعة بين لحظتى توقيعه الحضور
والانصراف فى جملتها وليس فى تفصيلها ، عرفت أنه جلس ، وشرب كوبا
من الشاى ، وسأل بعض زملائه عما إذا كانوا يريدون إبلاغ رحيم أفندى
شيئا ، ينوى زيارته ، الرجل مريض منذ ستة شهور ، والزمن وعمر ، لا يسأل
فيه إنسان على آخر إلا لمصلحة أو حاجة ، ولو ان رحيم أفندى بيده قدرة لما
انقطع العواد عنه ، قبض أبى السلفة من الخزانة ، وصلى الظهر فى مسجد
الوزارة ، وبقى بعد انصراف المصلين ، فرأى مارأى ، وجال بخاطره ما
جال ، وتذكر صورا شتى ، « فذكر إنما أنت مذكر » ، اتابع نزوله السلم ،
الوئيد ، المتمهل ، واخشى ما أخشاه ان يفلت منى ذلك الحضور ، أغالب
كمدى ، وأحوش دمعى ، فأنا أعلم ان هذا الدرج الذى يظاه أبى لن يلمسه
مرة أخرى ، وان الوضع الذى تمسه يده من الحاجز الخشبي لن يلمسه ثانية ،
وان ما يراه لن ينعكس مرة ثانية فى مآقيه ، فالوداع ، الوداع ، والسلام ،
السلام ، « ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فلاقية » ، إن ما يمر بى
فادح عنى ، باهظ تحمله على ، مر على فؤادى ، لكننى أنا الذى سعيت ، أنا
من طلبت . وقد عرفت الجهل فلم يرحنى ، وعرفت العلم فلم يرحمنى ،
« مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » ، يخرج أبى من باب المبنى ،
عربة الوزير تنتظر ، الساعة الثانية والنصف وخمس دقائق ، والشمس فى
برج العقرب ، يتوقف قليلا كأنه ينتظر أمرا ، يتراجع ، يستدير ، ينظر إلى
المبنى ، إلى الباب الذى خرج منه ولن يعود إليه ، إلى الحديقة المجاورة التى
تمدد فوق حشائشها واغنى ، « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن

شيئا؟ يعود يمشى ، ينظر الوجوه العابرة ، الواقفين على المحطة ، هذه بوابة المتحف الزراعى ، على وجهه ظل ابتسامة هادئة ، مسترجعة ، ابتسامة من أدرك فولى ، من اطلع على الحقيقة ، من أحس أنه أشرف أو كاد يصل ، وما عليه إلا البلاغ المبين ، يلمح امرأة شابة ، تمسك بيدها طفلة صغيرة ، يتسم لذكري الأيام الرواحل ، عندما كان يصحب جبال وإسماعيل ، ثم نوال وعلى ، وامهم ، يتظنون عودته داخل المتحف ، إذ ينتهى من توزيع الخطابات على أقسام الوزارة يسرع إليهم ، فيقابلون اللهفة باللهفة ، غير أن الزمن تبدل ، ولت الألفة وحلت الغربة ، وما من وقت يجمع ، كبر الأولاد وانشغلوا ، وما هو ذا جبال يرحل من بلد إلى بلد ، يا أياما ولت ليتك تعودى ، يتلى من المتحف ، وهذا الميدان المسكون بالذكريات ، فهل يدري؟ هل ظن انه الفراق ؟ هل حان التفاف الساق بالساق ، وانه لا مفر ، إلى ريك يومئذ المساق ، تحيى العربة المتجهة إلى الهرم ، مزدحمة ، الواقفون أكثر من القاعدتين ، لا أمل عنده فى الجلوس ، الدنيا تغيرت ، فلا أحد يرحم شيخوخة ، وما من قاعد يقوم لامرأة حامل ، تغيرت الدنيا ، تغير الخلق ، كل شيء بديل تبديلا ، الزمن زمن قسوة ، وجفوة ، وكل يقول ، نفسى أولا .

عندما نزل كان مرهقا ، يتحسس نقود السلفة بين طيات ثيابه ، من الخطر ان يمشى بمبلغ كهذا ، لكنه عزم ونوى زيارة رحيم افندى منذ أيام ، وما من داع للتأجيل ، ما من إنسان ضمن هذه الدنيا ، المبلغ سليم ، فهيئته لا تغرى التثايل ، ولكنهم نالوا منه منذ عام ، عندما اغنى داخل مسجد الإمام الحسين ، سرقوا حافظته ، لم يحزن على الجنيئات الخمسة ، ما آله قدان ثلاث ورقات لم تفارق هذا الموضع القريب من قلبه ، شهادات

ميلاد ، خلف أول نصيبه فى الدنيا من الذرية ، وكال ، ومحمد ، رحمهم الله ، ذهبوا إليه أطهارا بررة ، يخطو متمهلا ، فوق حجر ملقى يملس ، يود لو ينفو ، بينا أنا فى دهش ، لم أكن أعلم ان أبى يحتفظ هذا العمر كله بشهادات ميلاد اشقائى الغارين ، لم يجبرنا بذلك ، ولم يخطر ببالنا أن نستفسر ، حزن حزنا بليغا ، وعد فقدانه هذه الأوراق نذير شؤم ، العصر يمضى ، والنهار يغمق ، وضبابة تلف الرؤى ، أم ان العينين وهتا ، والنظر كل ، عصر خرفى بارد ، واللحظة التى تمضى به الآن لا مقابل لها فى الغد ، « والعصر إن الإنسان لئى خسر » ، المغرب يدنو ، والليل يقبل ، « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يملك يتما فآوى » ، إن البيت بعيد ، والرجوع إليه رحلة طويلة ، لكم ود البقاء بجوار الحسين ، لو ان الأولاد انتقلوا إلى المسكن الأوسع وتركوه فى الشقة القديمة ، ايجارها زهيد ، لم يكن سيكلفه من أمره عسرا ، لكن هكنا شاء الحظ ، والظروف جبرت ، « ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » ، أرى خطاه ، ولا أعرف الطريق الذى قطعه ، فلم أقدر على تحديد المكان بالدقة ، ولم احط به علما ، إنه يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، أرى جلوسه إلى زميله المريض الذى لم يعد أحد من الوزارة إلا أبى ، يتمدد فوق سرير قديم ، بينا الوالد يحكى ، ويقص ، ويضرب الأمثال ويستدعى العبر ، يبدو نشيطا ، يفيض حيوية ، يشير بأصبعه ، عند لحظة معينة يتوقف ليشير قائلا « شوف يا أستاذ... » هذا ما عرفته من حركة شففيه ، ولم أفهم كنه الباقى ، صوته لا يصلنى ، يفارق البيت والليل فى بدايته ، وآخر شمس عمره غربت منذ

الحاطر ، سددت البصر كرتين فانقلب إلى خاسئا وهو حسير .
 هاهو ذا في العباسية ، يتوقف أمام مصعد ، يدخل ، يخلق به بصرى في
 هذا المكان الضيق ، لكم هو متعب ، لكم تثير عيناه حزنى ، عينه اليمنى
 تطرف ، شفتاه تتلامسان شأن من آمن وسلم تسليما ، فهل يشعر ، هل أنبئ
 بشيء من الغيب ؟ ، ايلدرى في أى موضع ستكون رقده غدا ، يلق باب
 إبراهيم أبو الفضل ، قريه الذى لم يتقطع عنه طوال عمره ، هو من وجهاء
 جهينة وعضو عنها بالجلس النيابى ، يفتح الباب رجل غريب ، السائق الذى
 عينوه له بعد ان أصبح عضوا ، أبى يسأل : « إبراهيم موجود ؟ » ، يقول
 السائق « من انت » ، يخطو أبى مجتازا الباب ، « اوع يا أخى ، هذا ما
 ينقص » ، يقف إبراهيم عند مدخل إحدى الحجرات ، يخاطب السائق
 مبتسما ، « هذا بركتنا » ، يجلس أبى في المقعد الذى اعتاده عند مجيئه ، يقول
 إنه يعرف بميعاد سفره إلى جهينة بعد غد ، يومئ إبراهيم ، نعم ، هذا
 حقيقى ، يقول أبى إنه يود لو صاحبه لكنه لا يستطيع الحصول على اجازة من
 العمل ، يقول إبراهيم ان من يسمع ذلك يظن ان العمل سيتوقف لو غبت
 عنه ، يضحك أبى ، يتوقف فجأة ، يسعل مرة واحدة ، انه سعاله الأول ،
 يظل كفه الأيمن مبسوطا حتى يصبح قادرا على مواصلة حديثه ، إذ يسترد قواه
 يقول إنه يتعنى لو طلب نقله إلى البلدة ، ان يقضى فيها مائتى ، يتسائل
 إبراهيم ، ولم لا ؟ يقول أبى : أنا وأولادى على خلاف ، يقول إبراهيم ، والله
 معهم حتى ، ماذا تبقى لك في البلدة يا أحمد ؟ حتى الذين كنت تعرفهم
 ماتوا ! ، يسكت أبى ، يرفع النظر مقدار لحظة ، كأنه يرى مالا يراه غيره ،
 هل يبدو له قبس من النبأ الأعظم ؟ ، يهر رأسه ، يقول : صحيح لم يعد لى
 شيء في جهينة ، أرضى بعثا ونخلاتى ، لكننى ربيت رجالا ، يعود إلى

أربعين دقيقة ، والشمس القادمة لن تطلع عليه حيا ، الشفق في الأفق ذوى ، والحلقة نزلت ، والنجم إذا هوى ، « ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتأرونه على ما يرى » ، « ما زاغ البصر وما طغى » ، « وإن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » ، إذن دخل الليل ، كأنى كنت غافلا فانتبهت ، وناسيا فتذكرت ، وغيا فعقلت ، الليل يبدأ ، ليل أليل ليس كمثله ليل ، عندما يذهب في بطيات الندى الفجرى سيكون أبى قد اكتمل ، وعندما يحى ليل الغد سيكون هذا الحبيب الساعى أمامى ملفوفاً ، كفته ، موسداً في حفرة لم يطأها قط بقدميه ، ولم يمز بها أبداً ، مهجوراً من كل الأحياء ، فبأى الحدين يا حبيبي يا أبى سيبدأ الليل ؟ ، وهذه النوبة في ساقك اليمنى ، أستولى إلى أبد الآبدين ؟ ، هذا نذير من النذر الأولى ، « أزفت الآزفة » ، ليس لها من دون الله كاشفة ، أفن هذا الحديث تعجبون ؟ ، هاهو ذا يسمع ويرى وينوى ويخطو ويشرع ، الثانية تعدو في أثر الثانية ، والدقيقة تجري وراء الدقيقة ، والساعة تقفو أثر الساعة ، ولا راد ، لا مانع ، فهل يكون هذا ؟ هل يكون هذا ؟ كلا ثم كلا ، وماذا يبدي أن أفضل ؟ أنا مقطوع اليدين والقلمين ومسترع القلب ، المعزول عن كل حى ، لكننى يا هذا الكنه الغامض لن استسلم لك ، يا من تثبت وتحصد ، تبنى وتهدم ، يا من تضحك وتبكي ، يا من تبعث اللون الأخضر وترسل إليه الذبول ، يا من تبذل ، يا من تغير ، إني مدرك جوهرك ، إني ساع إلى منازلتك . وأنا عاجز حسير ، لم أكن أدري أن هذا عين الكفر بما أنا فيه ، إن الإنسان لربه لكنود ، وما بين غلى وضيق وما بين حنى وعظيم ألى وقرى من التصريح بما حجبه ضاع منى أثر أبى ، فلما انتهت مرهق الفؤاد ، موجوع

صمته ، يسعل ، إنها المرة الثانية ، يقول : يكفى ان كلا منهم ينفع نفسه ، أنا عملت ما على ، وإنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، يتدفق عندى حزن ، تلك آية يرددها إذ نحىء سيرتنا ، كما ان ظلال العتاب الحزين لم تحف على ، يقول إبراهيم : الحمد لله ، أولادك كبروا وسيرتهم طيبة ، يرفع أبى يديه : والله دعوت لهم الليلة عند سيدنا الحسين ، إذن .. عرج أبى لزيارة الحبيب فى طريقه من الحرم إلى العباسية ، شرد منى ذلك ، ولكم اتمنى لو اننى شاهدت هذا اللقاء ، ووقفت عليه ، يمد أبى يده اليمنى بورقة نقدية ، يقول : اعطها لطريقة ، إنها أخت أبى غير الشقيقة ، والحديث عنها يطول ، يقول إبراهيم : خمسة ؟ يا أحمد الدنيا غلاء ، خليا عشرة ، يقول أبى : والله لن ارد لك كلمة ، عشرة ، عشرة ، كان معى خمسة جنيهات لشراء جلباب شتوى ، خذها ، وربنا يعوضنى ، يقول إبراهيم : اختك وحيدة ومالها أحد غيرك ، ويبدو أن الحديث آذن بانتهاء ، نظرات أبى متعبة ، إنى تواقى إلى الراحة ، إلى اغفاءة ، ودفع الغرفة يضاعف حاجته إلى الرقاد ، مازال الطريق طويلا حتى البيت ، إبراهيم لم يحول عينيه عن أبى ، لأول مرة يلحظ تضاؤل حجمه وضهور عينيه ، يقف أبى ضاماً شفتيه ، يدعو الله أن يوصل إبراهيم بالسلامة ، وعند انتهاء دعائه سعل مرات ثلاثاً ، « هذا نذير من النذر الأولى ، أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة » ، لو عندى القدرة فأحول بينه وبين الخروج من هذا البيت ، كأتى لو ابقيته هنا وحلت بينه وبين الموضع الذى قضى فيه فلن يقضى ! كأن مجرد تغيير المكان سيؤجل اللحظة المقدرة ، « أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » ، عند هذا الحد من ذلك المقام وقع لى كشف ، فرأيت نفسى فى اللحظة عينها التى يخرج فيها من باب

العمارة ، أنا ألج باب الجراج الفسيح القائم تحت العمارة الضخمة التي يقطعها
صحبي . جراج متشعب كالمناخة ، أخاف دخوله وحيدا ، لو هاجمنى
احدهم أنا الغريب ها هنا فلن املك لنفسى ضرا ولا نفعا ، هذه ليلتى الثانية
فى باريس الأوروبية ، لم أبال بمتابعة حالى ، ألا يكفى انى فى حياتى الدنيوية
لم اكن على قرب منه وهو يتأهب للرحيل ، فأناى عنه فى هذا المقام ، ألم
اطلب من سادتى فى الديوان ان يطلعونى على ما لم أراه واعاينه ، حتى إذا
ما تحققت لى هذا انصرف عنه ، فلا تحذرا ، ها هو ذا أبى يوشك أن يتم الدورة ،
بدء الغيبة عنا ، فى لحظة كهذه يدب اليقين بلا جدوى رد المسافرين عن
قصده ، ينادى الراحلون : « ألم نكن معكم ، قالوا بلى ، ولكنكم فتنتم
أنفسكم وتريصتم واربتتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرکم بالله
الغرور » ، أبى يصعد السلم متمهلا ، يتوقف عند الطابق الأول ، يستأنف
صعوده ، إنه متعب ، هذا لا ريب فيه ، حلقى ياعينى ، وتمكن يا بصرى ،
فتلك مرثيات لم اطلع عليها ولن .. يطرق أبى الباب براحة يده ، لم يكن
يضغط الجرس إلا عند قدومه لزيارتى بعد زواجى ، كان يضغطة ضغطا
متواليا سريعا فأعرف أنه هو ، تفتح أمى ، تنظر إليه فى عينها تعب ونعاس ،
أمى تجهل ما سيجى به الليل الأليل هذا ، كذلك اشقائى ، كلهم لا يعرفون
عداى مع أبى الجاهل الأثم ، يحتاز أبى الباب ، إنها المرة الأخيرة التى يخطو
فيها عبره بقدميه ، لن يمضى إلا أقل القليل من الزمن الدنيوى ويحتازه إلى
الخارج ، لكن على غير ما اعتدناه على غير ما ألفنا ، أبى ، لا يدخل إلى
الحجرة مباشرة ، يجلس فوق نفس المقعد الذى قعدت فوقه يوم ان جثت
مسلمًا ومصافحا قبل سفرى ، يستريح ، إني الآن قادر على رؤيته من جميع
جهاتة ، لم أعد مقيدا بمدى أوجد ، إني أرى وجهه وصنقه فى آن واحد ،

« كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » ، يحيى إسماعيل أخى ، يسلم عليه ، يلحظ إرهاب آية البادى ، غير ان هذا الضنى كان من سمات اعتدناها ، يسأله ، تعشيت ؟ ، يقول أبى : لا .. لكن نفسى مسدودة عن الأكل ، ينظر إسماعيل إلى أمى : هات مع الشاى جاتوه لأبى ، إسماعيل اشترى قبل عودته المسائية حلوى افرنجية من حى مصر الجديدة القريب ، يحتسى أبى من كوب الشاى ، يقضم قطعة .. هذا آخر مازل إلى معدته من طعام الدنيا ، « كل نفس ذائقة الموت » ، لم أدركم من الوقت بقى فى الصلاة ، إذ جرى لى فى هذا المقام ما ترددت طويلا قبل تلوينه ، لكننى عزمت أبرى وتوكلت على الله ، إذ تخللت وجود أبى المادى ، ولجت عروقه وسريت فى شرايته وشعيراته الدقيقة ، واجترت مسام الجلد الذى تلقى الشمس والبرد ، وأفرز العرق ، والكدد ، سبحت فى اللماء الناهبة إلى القلب ، واللماء الآتية منه ، جث القلب الطيب الذى حنا على ورق لى من ناحية البطين الأيسر ، فسكنت غرفه ، وعشت آخر نبضه ، ورأيت الجهة التى ستبدأ منها العلة المفاجئة ، واشهدت دفقة الدم التى ستكون آخر الدم العابر للقلب الذى خفق من أجل ويسبى وأنا غى لا أدرى ، سحت داخل الأوصال والنفضات السياحة الكبرى ، زرت المكان القصصى الدفين الذى كمنت فيه قبل ان يشيعنى أبى إلى رحم أمى ، مكنت مقدارا بين الصلب والترائب ، وعندما خرجت مع النظرة الواهنة التى انفرجت عنها جفون أبى ، كان يرقد فوق أرض الغرفة ، إنها البقعة عينها التى أربتها لحظة ميلاد أبى ، كانت وتنتد صحراء خاوية شمال القاهرة ، لم ادر عندئذ المغزى ، « يومئذ يتذكر الإنسان وأتى له الذكرى » ، لم ادر اننى أرى الموضع الأول ، والموضع الأخير ، الأرض التى شهدت الوصول ، والأرض التى سيتم منها

الاياب ، ولكل منا موضعان ، أو بقعتان ، أو مكانان ، يحصران المضمون ،
 ويحددان أول وآخر ، وبداية ومنتهى ، الأرض الأولى معلومة ، والثانية
 مجهولة ، « وما تدري نفس بأي أرض تموت » ، ما بين الاثنين يتحدد مدى
 السفر ، ومقدار الرحلة ، وبعد المدى ، يفتح أبي عينيه فأخرج ، أصبح من
 الناظرين ، الهواء عنده شحيح ، على صدره ثقل ، يحملق إلى السقف ، لم
 أعرف ما يراه ، لم أدر ما يحول بخاطره ، وبدما من هذه اللحظة وحتى اكتمال
 الواقعة التي ليس لها من دون الله كاشفة ، لن أعرف أبدا ما فكر فيه ، هنا
 سر لن أصل إليه وأمر عليه حجاب لن ينكشف لي ابدا ، أما ما فاتني فقد
 أملت ببعضه ، إذ أن عينيه غفنا هونا من الوقت ، ثم استيقظ على سعال
 عظيم ، حاول جهده أن يكتمه ، حاول أن يوقه ، كان مشفقا على أخى
 إسماعيل المضطر إلى الذهاب مبكرا إلى عمله في الجيش ، خشى أن يقلقه ،
 لكنه كلما حاول ، وجاهد في خفضه أو تخفيفه ، تزايد ، حتى أن أمي اصغت
 قلقة ، ولما اتصل ، قامت إليه ، وازعجها مرأى الوجه الهادئ ، المحتضن ،
 المستسلم ، الطيب ، الساكن ، « أثنا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » ،
 ازعجها مرأى ملامحه المنبثة بالوصول ، بتعب الرحيل الذي كان ، بإتمام
 الأمر ، ما أخافها ، هذا الاستسلام ، هذا الألم ، أبي الذي عاش عمره
 جلودا على المرض ، لم يذهب إلى الأطباء إلا قسرا ، نغم كل التعبيرات فيها علنا
 الانفصاح بالانتهاء ، « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي
 أنقض ظهرك ، ورفضنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر
 يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » ، تسارع أنفاس أمي ،
 تعد كويا من الحلبة الساخنة عله يهدئ آلام الصدر ، هذا السعال القريب ، لكم
 لكم سعل أبي ، لكم وضع أوراق الصحف القديمة على صدره ، لكم

غلت له أوراق الجواقة ، لكن سعاله لم يكن يسفر إلا في أيام البرد الشديد ،
وعقب النوبة يقول : آه ياأنا يابوى ، لكنه الليلة لاينطق عن الهوى ، فالستر
واللطف والرحمة يامن ستحيي العظام وهى رميم ، أى سعال هذا ؟ يغيب ،
يهدأ ، يخفت ، يتحول إلى حشرة منقطعة ، تصفى أمى ، اصفى أنا فى
غربتى ، غير قادر على المواجهة ، تلك الحشرة ما يخيف ويرعب ، تسرع
حاملة كوب الحلبة الساخن ..

.. - قم يا أحمد .. ستخفف هذه عنك ..

.. غير أنه ينظر من بعد سحيق وهو قريب ، ييز الرأس منه ..

.. - لا يا أم جبال .. خلاص ..

ادنو واقترب ، انظر لعل وعسى ، لا اتحقق إلا من المغادرة ، من
الفوت ، من الاقلاع ، فإذا التفت الساق بالساق ، وكان إلى ربك المساق ،
لم اسمع إلا النفس الأخير فى تمدده ، فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر
الإنسان ما سعى ، لا يرفع أى يدا ، لا يشير بأصبع ، حان ليديه ان تتمددا ،
ولقديه أن تُضمّا ، وللاستسلام ان يرسو فى الحلقتين ، والخوف الإنسانى من
رحلة مجهولة متبدأ ، لم ينبىئ إنسان قط بمراحلها ، ودروبها ، ومحطاتها ،
فإل ربك الرجعى ، هذه لحظة لم اقف عليها قط ، محتواها مجهول ، فلا بوح
ولا نطق ، ولا تصريح ولا تلويح ، ولا رمز ولا افساح ولا اشارة ولا
كشف ، ولا عبارة ولا لفظ ، ولا حرف ولا كرامة من تلك الكرامات ..
آخر ماتسمع أمى ..

.. - خلاص ..

يسقط الكوب الساخن من يد أمى . يقول أبى واهن القوى :

.. - سامحونى بقى ..

أجبر في منقاي ..

- أبويا ، على أى شيء نساحك ، سامعنا أنت ، اغفر لنا أنت ..

وكان جيمرى بمثابة ادراك الحاصل في القاتل ، لم أدر أنني تقيت فراغ المسافات ، فأبقت نفسي من رقلتي في باريس الأوروبية ، فجري لي حال يصعب وصفه أو إirاده أو تفصيله أو بسطه أو الحديث عنه أو نقله ، عرفت سريقتي الهلبي ، وانكراش نفسي وفزعة روحى ، أنا من أبقت أنا ، وأنا من أبقت أنا في اللحظة عنها التي يخرج فيها أبى من الكون المعروف لنا ، « والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » ، فيا دهر ارحم ، يادهر لاتعجل ، إني اعرفك ، إني مدركك أنت من نهوتى عن الاستفسار عنك ، وأواجه أبى برأسى المقطوع فعيناي بعينه ، وقى بقمه ، وخلقاته بخلقاني ، لكنه ماض وأنا باقى ، عيناه ناحيتى ، كأنه يغالب شيئا مجهولا ، لا يراه إلا هو ، لا يلحمه إلا هو ، فهل أدرك وضعى ، هل تداخل زمنه بزمنى ، هل رآنى ؟ ما من جواب قط ، « بجم يتساءلون؟ عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون » ، كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون ، يتفحص رأسه مرة ، ثم مرة ، انتفاضة واهنة مركزها اللقن . هنا يخرج أبى خروجا لا دخول بعده ، يتمدد جسده مطيعا لكل من يشاء ان يقلبه ، اسمع صوته من بعيد كما جاعنى في بداية تجلياتى :- « لاتحف ولا تحزن ، كان موقى مريحا ، انتهى كل شيء فى سبع دقائق » .

غير اننى عند هذا الحد من ذلك المقام كنت انزف ، ومن بين ترقى يقينى بالحقائق الأزلية ، كنت على شفا حفرة ، أمى توقف . أخى ..

- قم ، يا إجماعيل الحقنى ، أبوك خلصان ..

يهرع ، ينظر ، يحس النبض ، القدم العارية التى سعت وكدت ، برودة لم يعرفها قط ، أما الجسد الذى احتوانا فقد تقلص حجمه وتضائل ، انكش أمام الهول الأكبر ، والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق .

يجرى إسماعيل باتجاه الجهات الأربع ، الأصلية والفرعية ، إلى نقطة الاسعاف القريبة ، يحمى رجل غريب لم ير أبى أبدا ، لا يعرف عنه شيئا ، فحص واصفى ونظر ، أنظر معه ، أتساءل فى متفأى عن لحظات أبى الأولى هذه ، أول اقلاعه صوب الأزل ، اين موقعها من اللحظات التالية ، أئمة فارق بينها وبين لحظات متجىء بعد عام ، بعد عامين ، بعد مائة عام من زمننا الدنيوى ؟ ، لن تمضى ساعات إلا ويبدأ البلى ، اليدان اللتان اشارتا وطبطبتا وحتتا على ، والقم والقلب والعينان ، أيزول هذا كله ؟ ابفى كأنه لم يكن ؟ ايفلق الدرب ، ايتثر الفلك ، هل يث زمانه بئا حتى يصير كالعهن المتفوش ، فيا دهر ارحم ، يادهر غير ما عرفناه ، يادهر ما أنت ؟ ، ها هو ذا أنخى بحار ، إلى من ؟ إلى الطابق الأعلى حيث جيراننا الطيبون ، إلى البيت المجاور حيث يسكن صاحبى فى الطريق يوسف القعيد ، إلى بيت قريب حيث يقيم ابن من أبناء بلدتنا اسمه مدحت عاصم ، إلى إبراهيم أبو الفضل فى العباسية .

- أهذا معقول ؟ كان عندى أول الليل ..

إلى مصر القديمة ، إلى اقاربنا وأهالى بلدتنا ، من أوصاهم أبى أن يدفن فى مقبرتهم ، ليس لنا مدفن ، وكما افصحت ليس عن اهمال ، لكن عن قلة حيلة ، وضيق ذات يد ، يحمى الحاج عوض ، الحاج يونس ، أخوه محمد أحمد على ، عبد العال ، وجمع أحبوا أبى وأحبهم ، يدخلون ، أولهم محمد أحمد ، يكشف وجه الحبيب :

- السلام عليكم يا أحمد ..

يخاطبه باللسان البشرى :

- لا تخف يا أحمد لا تخف أبدا ، أهلك جاءوا إليك ، كلهم معك وحولك .

يلتفت إلى الواقفين :

- بصوا ، إنه يضحك ، طول عمره كان يقالب المم بالضحك ، وهو الآن يضحك ، أمثل هذا يخشى عليه ؟ .

.. أرى زملاء أخى إسماعيل ، جاءوا فى الزى العسكرى ، كلهم لم يلتق بهم أبى ، لم يعرفهم ، يحملونه ، يتبادلونه ، ما أنا إلا مجرد ناظر إليه ، غير قادر على المشاركة ، على حمل أبى ، فأى ضيق يمكن أن يتزل فى أكثر من ذلك ؟ ، وكما تزل مصر أول مرة وكان مقصده ضريح سيدنا الحسين ، مضوا به إليه ليكون آخر مكان يبلغ فراغه قبل الرقدة العظمى ، وضعوا الصندوق الذى يحوى ما يحوى ، ولوا الوجوه تجاه المسجد الحرام ، بسطوا الأيدي ، واطرقوا بالنظر الخاشع ، يقول المصلى على الميت ، « هذه ايدينا قد رفعناها إليك فى كل حال ، ليس فيها شيء ولا تملك شيئا » ، احلق فى فضاء المسجد غير قادر على السجود ، فأعضائى نائية عنى ، اسجد بفؤادى ورموشى ، اسمع شيخى الأكبر يهمس لى :

- « الجسم خلق من تراب ، وعاد بالموت إلى أصله ، فلا فرق بينه ، فى حال انفصاله وبروزه ، كونه على وجه الأرض أو حصوله تحت التراب ، فهو منها » .

أراه يقف فى المسافة التى تفصل المصلين عن النعش ، هم لا يرونه ، أشهد جمعا يحيط به ، يرتدون الثياب البيض التى لم تعرفها ابرة خياط ، اعرف منهم

جمال عبد الناصر ، والحر الرياحى من قاتل مع سيدى الحسين ، أما الآخرون فأجهلهم الجهل الأتم ، وهذه مسألة دقيقة عظيمة فى طريق أهل الله ، ماتحصل إلا لأفراد يعز وجودهم ، كلهم اطارقوا خاشعين ، « والصحى والليل إذا سجي ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى » ، لما فرغوا من الصلاة رأيت غرباء من دنياى لا يعرفون اسمه حتى ، أنا الوحيد المنقى ، أنا الوحيد بمزل ، الوحيد بمنأى ، جمال عبد الناصر فى ثوبه الأبيض ييكى ، أطوف حول دلى وشيخى الأكبر ، بشارك فى حمل أبى ولا يراه أحد ، لما واجهته ، لما رأى ملاعى ، نهزى بالنظر ، لم أخش ، لم أهرب ، صرخت : - « امض بى إلى الزمن ، اصحنى إلى الدهر » .

يدو شيخى فرعا لا دهشا ، ألمح القوم يخرجون بأبى من المسجد ، اهنم باللاحاق به ، غير أنه قذف بى إلى حجب سحيقة ، تأيت التأى الأعظم ، فـ « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد ، أئحسب أن لن يقدر عليه أحد » . أقفت من غشيق ، فإذا بى مائل فى الديوان ، بلا دليل ، منبوذ فأنا سقيم .



منتهى ..

الذين ضلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ يَخِشُّونَ أَنَّهُمْ يُخْسِنُونَ صُغَاءَ

.. جىء بى إلى الديوان ، لم أدر ، هل أنا راجع أم ماض قدما فى الطريق
نقول إن الشمس عادت إلى الشروق ، وماعندها رجوع ، بل ساعية فى
طريق ، غير ان الدنيا التى تواجهها ليست دنيا الأمس ، كل يوم فى شأن ،
أمثل بين أيدى سادق والحيرة قد زعزعت سوارى اليقين ، على بصرى غشاوة ،
وفى فكرى اضطراب ، وفى علمى جمرة شبة ، جثت مثقلا بالتساؤلات ،
وليس مجرد سؤال ثالث تبقى لى ، ونهيت عنه ، هذا التبدل والتغير والقوت
الموجع ، أتى قاب قوسين أو أدنى من المعنى ، لم أخش البوح حتى وان خالفت
تحذير مولاي ..

- « يا جمال ، ألم أنك ؟ » .

أشخص بكلى ، اسمع ولا أرى ، إذن ، ضُربَ حجاب ، أقول :

- « بلى » .

- « لماذا تطرقت إلى مايجب الحذر منه ؟ » .

كدت أهم بالجواب ، غير اننى اسمع مولاي الحسن ..

- « ألم تطلب رؤية مالم تره ؟ » .

أقول :

- « بلى »

تسألني الطاهرة رئيسة الديوان :

- « ألم تر؟ »

أجيب :

- « نعم » .

ثم قلت :

- « أفضتم علىّ ، واسبغتم فازددت حيرة » .

ثم أقول :

- « لماذا الذهاب والفوت ، لماذا النسيان ، ومن يحو الأيام الغالية منا ؟ ،

من يسط ظلاله فيبت ما ظننا انه لن يبت أبدا ؟ » .

تقول سيدتي التورانية :

- « بدأت بالتساؤل ، وكذا تنتهى .. » .

لا استطع الكتمان فأصرخ :

- « انه الدهر ، الأزل ، إنه الوقت ، إنه الزمن ، إنها اللحظة ، تعددت

الأسماء والمسمى واحد .. » .

يقول سيدى الحسين :

- « يا مسكين ، ادركت العرض ولم تدرك الجوهر .. »

اسمع رئيسة الديوان تنطق الكلم الموجه :

- « يا جمال ، هذا فراق بيننا وبينك .. » .

يقع الهت فلم انطق ، وان رددت فى خاطرى « والله إننى ليحزننى ذلك » ،

لم أدر ما أنا صائر إليه ، فزادت على الحيرة المذمومة ، أزعبنى ذلك ، سمعت

الهاتف الذى نادانى أول مرة :

- « اصغ » .

رئيسة الديوان تخاطبني ، صوتها بعيد ، لكنني لا أخطئ الشبه بينه وبين صوت أمي :

« بستانمي فراقا جديدا ، لن تعود إلى علمك الأرضي الذي ولدت فيه ونشأت ومنه جئت ، لقد صرت سقيما ، وبعد تصريحك وتلوحيك لن تصلح للاقامة هناك ، ستحل مكانك صورتك البشرية ، جوهرك ومعناك سيمضي إلى الجهة التي قدمت منها هذه الصورة ، ستصبح حارما أبديا من حراس اللوح المرصود ، أما وجودك الحسي فسيتفرق بددا . »

إذن ، وقع الحكم ، وحسم القضاء ، وددت لو احظى بطلقة من أحبابي الذين استوطنوا قلبي ، مولاي وسيدى الحسين ، أبي ، أمي ، عيالي ، عبد الناصر وصحبه ، رفاق الذين بقوا على عهدى ، غير أن سادتي شاءوا أن اتبدد غريبا ، وحيدا ، نائيا عن الكون كله ، ولما انتهت مخاطبة رئيسة الديوان ، حننت إلى أمي الحزين كله ، فتوجهت بصمقي إلى مولاي ضياء قلبي ليطمئنني قبل أفول .. وقبل أن يرتد إلى طرفي سمعته يبتنى :

« .. اعلم يا جمال أن والدتك فارقت الحياة الدنيا ، وأنتك ودعتها بصورتك البشرية ، وصلت عليها في ضريح السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها ، لهذا تجلي لك الضريح في مقام الاغتراب وحاولنا تنبيئك ، وإنما شئت أن اخبرك لأنك صدقت وإن اخطأت .. »

لم تتح الفرصة لأبدي رد فعل ازاء النيا العظيم ، ولا لتسديد أسئلتي ، متى ، وكيف ، لم اعلم أبدا ، في التوألم لسانى ، رأيت سائر أعضائى. التي تفرقت عنى تسعى أمامى ، فذراعى اليمنى تودع اليسرى ، وقدمى تلامس قدمى ، وقلبي يسلم على كبلى ، وكبدى تنظر إلى كليتي النظرة الأخيرة ، كذا رثائى وعروقي ومسام جلدى ، وشعرى ، كل شعرة تودع الأخرى ، فارق

لسانى خلقى ، ثم بدأ كل شىء يعود إلى صورته الأولى ، يتجزأ إلى ذرات تتفرق ، تتباعد ، تتوزع إلى أرجاء الكون فلا تجتمع منى ذرتان فى مكان واحد ، لم تعد لى كينونة مادية ، فلا أنا شرقى ، ولا أنا غربى ، ولا أنا بحرى ، ولا أنا قبلى ، ولا أنا من العنصر الأرضى ، ولا الطبيعة ، ولا أسكن فلكا ، لم أعد من تراب ، ولا من ماء مهين ، ولا من هواء ، ولا من مارج من نار ، لا فصلى ولا كلى ، أما جوهرى اللامرى بالنظر فيبدأ الرحيل إلى مستقره ومأواه حارسا على اللوح المحفوظ المرصود ، المدون به كل ما كان وسيكون ، محل صورى البشرية الساعية فى الحياة الدنيا حتى سقوط ورقى من شجرة الخلق ، ويمحى اسمى من اللوح الذى سأصير رسدا من أرصاده ، القاممين عليه ، فأين أنا يا أحبابى ؟ ، لا أنا حى ، ولا أنا ميت ، لا أنا قريب ولا أنا بعيد ، لا أنا راحل ولا أنا ماكث ، وهذا سر عظيم اكشف عنه وأجهر ، فسبحان من له الدوام .

جئت الديوان مكتملا وأفارقه بددا ، موزعا على الكون كله ، ما يدرك منه ومالا يدرك

عند هذا الحد اضطر إلى الكتان ، وأنهى السفر الثانى من كتاب التجليات ، دونه الفقير إلى أحبابه ، الغريب الخائر فى دنياه ، المنفى إليها ، صورة جمال بن أحمد الغيطانى ، غفر خالقي لصاحبها الذنب والتقصير ، والأفعال التى لن يشفع لها إلا الجهل وحسن النوايا ، وسامحونى يا طلاب نسمى لو كنت أطلت ، أو أوجزت وما فصلت ، فالأمر ليس بيدي منه شىء ، وارقنوا أصلى الذى هو صاحب هذه التجليات السلام ، لو كان حيا بوعيه ، أو اطلبوا الرحمة وهدوء المستقر والمأوى لذراته الموزعة فى الكون بددا ، وسلام عليه يوم ولد ، ورحمة له يوم تسقط ورقته ويمحى اسمه ورسمه ، وشفاعة له يوم

يبحث حيا ، كان الفراغ من هذا السفر المبارك يوم الأحد ، تاسع عشر ربيع
الثاني ، عام الف وأربعمائة وأربعة هجرى ، الموافق الثاني والعشرين من يناير
عام الف وتسعمائة وأربعة وثمانين ميلادى ، ويعقبه سفر ثالث ، بإذن الواحد ،
الأحد ، الذى كل يوم هو فى شأن .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

السفر الثالث

« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ »

(قرآن کریم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

* * إنه مفتحي * *

أما وقد بحث بقبس من مكتسى ، فإني على شفا المكاشفة بجل ما أخفيته ،
إذ جاء الإذن عند هذا التقييد ، فسبحان من فسر لي دلالات أسماي ، وبين لي
من سأكونه ، وفي أي حيز ستم الكينونة ، البدء والتمام ، النقص والأفول ، لن
أداري أبدا ما أمرت بفضه والتصريح به ، حتى الدقائق التي سترجف قلبي أو
تبه غوافل قواذي ، من صريح عبارة أو غامض إشارة أو ثنايا لحظة مارقة ،
ومالا أعرف كنهه .

سأفضي ، سأصرح ، إلا إذا ورد التنبيه بخلاف ذلك ، ما أنا إلا غريب ،
والغريب عابر غير مقيم ، هذا الكون متفاني ودار هجرتي يا صبحي ، مقامى لم
يعد به منذ أمد سحيق ، أوفيت ملتي فأنا عتيق ، سعي وعمر ، على ناء ،
ماجئت إلا امتثالا لأمر ، لم يكن بوسعي إلا الإذعان بعد تكاثف غيوم حظي
وسوء بنحى ، إنما أنا غريب ، مستوحش من الإلف ، والألفة في غير الوطن
وحشة : وما هذه الدنيا بديارى .

جىء بي إليها فأنا وديعة ، ويوما لا بد أن ترد ، وكثرت أسفارى فأنا
راحل ، وطال خروجي .. فأنا مهاجر ، زهلت فلم أملك ، وجفت ضلوعي
المضاجع فأنا أرق .

لم تلهنى تجارة ولا بيع ، فأنا زاهد ، ظاهري مغبوط .. أما داخلي فمشوش ،
عندى شغل قلب ، ذوارتقاب لما سيحل بي عند كل خطوة ، أصبح إلى شخص
أجهله ، وهذا لب اغترابي وعين افتراق عني ، ذلك أننى شغلت أعز موضع ،
إذ كنت من الخافين ، المهومين ، المحيطين باللوح المحفوظ ، واللوح أمره جلل ،
لا يمكن إدراكه بالخيلة ، أو تعيينه بوصف ، فن الاستحالات وصف مقامى
القريب منه ، فظلال المعانى المجردة لا تقال ، لو قلت لدخلت فى المحسوس
فالعبارات من المواد ، عندئذ تتنقى صفات المعانى .

المحاولة عسيرة ، إذن .. فلا أقصر خشية العجز والتطويل ، اللوح يا صاحب
ليس بوسع كائن النظر فيه ، أنفاس الخلائق محصاة ، معدودة به ، كذا الأسماء
والأفعال ، والإنس ، والطير ، والجماد ، والمجرات ، والسدم ، ومواضع
لا تدرك بالحواس ، وما شجرة الكون التى أطلع عليها من هوأصل فى هذه الدنيا
إلا طرح من طروحاته ، وما الديوان ذاته إلا تفصيل من مجمله ، ذلك أن
الديوان اختص بالعالم الأرضى ، أما اللوح فوسعه ما كان ، وما سيكون وما هو
كائن ، مبسوط لمن بيده الأمر ، من يبدأ ويعيد وينهى ، من ينشر ويطوى ،
من يبدل الحال ، له الدوام كله ، أعاننى وأيدنى على ما ابتليت به ، عسانى بهذا
الإفصاح ألا أكون قد تجاوزت ما قدر لى وما حدد ، وما قدومى إلا عقاب .
لن أفيض عن وجودى الأول النالى ، ما يمكننى قوله إننى كنت قديما من
أهل الجهاد ، ناشرا للبارق ، حسبي وكفى ! الخوض هنا خطر ، لو فتحت فيه
ستور فتن فعدرا ..

أقول يا بنى الأكرمين إننى قضيت حولا لا يمكننى تعيين مقداره ، يطوئنى
زمان وما من زمان ، أقطع المراحل ولا مكان ، وإنى مطلعكم على حكاية شائعة
بين القوم ، من فهم باطنها أدرك ما أقول ، تنوع الحس وتضاعف السنين فى

الزمن اليسير، وجود الكثير في القليل، إنها حكاية الجوهرى..
يقال إنه خرج بالعجين من بيته إلى الفرن وعليه جنابة، فجاء إلى الشاطئ
يغتسل بماء النيل، فرأى في الماء مثلاً يرى النائم، كأنه في بغداد وقد تزوج وأقام
مع امرأته ست سنين وأولدها أولادا، ثم نزل يوما ليستحم في دجلة، وفي الماء
رد إلى نفسه، خرج من نهر النيل، لبس ثيابه قاصدا القرن، أخذ الخبز وجاء
إلى بيته، أخبر أهله بما أبصره، وبعد أشهر جاءت تلك المرأة التي رأى أنه
تزوجها في الواقعة تسأل عن داره، فلما اجتمعت به عرفها، وعرف الأولاد وما
أنكرهم، قيل لها: متى تزوج؟ قالت: منذ ست سنين، وهؤلاء أولاده
منى..

لعل بذكر هذه الحكاية أكون قد قريت، لكننى، لماذا أشط؟ لماذا
أنأى؟ لكم في معراج المصطفى ما فيه الكفاية في هذا الباب، أعنى بعد
المسافات مع الزمن القليل، لذا يدولى وقى الذى قضيته حافا باللوح المحفوظ
كمروق ظل طائر فزع على ورقة شجر خرفية، إني متقلب إلى من أجهل،
من لا أعرف، من لم أكنه، من عرف في دنياه باسم جمال بن أحمد
الغيطانى، إني هو وما أنا هو، فالطف يامن إليه مسعى، إني ممثل،
مطيع، لكننى مستفسر من حين إلى حين، فلماذا أعاقب على هذه الصورة؟
لماذا أغرب عن ذاتي؟ لماذا تسكن روجى دار غبرى؟ لماذا عوقبت هكذا؟
الآن ثمالة إنسانية لازمتنى في طوافي باللوح المحفوظ حتى حركت عندى
المخاطر: ماذا يحتوى؟ لماذا نبقى في منأى عنه؟ لماذا نطوف بما نجهل؟ بأى لغة
يتم المحو والإثبات؟ أية علامة؟ أعرف المضمون في جملته، ماكان
وماسيكون.. لكن دون التفاصيل سرايل وعوائق.

وقع المخطور مع بدء التساؤل، لم أكنم.. فحق على ماجزى. لم أخف فتزل

بي منازل ، لم أقع فحاق بي ذلك ، بدأ إقصائي ، وكان الديوان المهيمن على العالم الأرضي أول محطى ، مثلت أمامه صاغرا ، لم أبصر رئيسه المباركة ، ولا عضويه النورانيين ، جرت المخاطبة عبر الحجية ، بالصمت .. فلم أنكر ، ولم أجادل ، ولم أطلب الرفق الهين ، تلك أمور لاهل لها ، بان لي أول عقابي ، أن أرجع إلى أصل البشرى ، لكن ليس إلى كينونتي الأولى ، ليس إلى زمني .. فلذلك انقضى ، نزلت بي عقوبة النقي ، والنقي عامة انقطاع قسرى عن الأوطان ، ومحال التكوين ، وديار الألفة ، والإنسان في منفاه ضعيف حتى وإن أحاطته عزوة ولة ، فالألفة في غير الوطن استحاش .

والعجيب أن أصلى ملاق نفس مصيرى بعد أن دنا من إدراك ما يبدأ وينهى ما يجمع ويفرق ، أما نفاذ عقوبتي فلتساوئى وفضولى ، تحيرت فأبصرت ، وأبصرت فتحيرت ، وصلت فانفصلت ، عرفت المراد فضل عنى الفؤاد ، عساى ألا أتبرم ، أظهرنى فأخفانى ! أدنانى فنفانى ! ، والمعرفة لاطول لها ولا عرض ولا مقر ، لافى سنن ولا فى فرض ، راهبها راغبها وراغبها راهبها ، صهرت بغصة ، عوقبت بمفارقة المحل الأسمى إلى الأدنى ، أما عقاب من ساحل محله ، وألبس وجوده وكينونته البشرية ، ففارقة دنياه ومآلوفاته ، تبدد ذراته ، لالتفتى منها ذرتان أبدا . أما أنا فلم أضل الهدى ، أطلعننى على كل ما مرأصلى به ، منذ صرخته الأولى حتى تذريره ، صار موروثه ميراثى ، وسابقه عندى ، ولاحقه لاحق ، حتى تبدده ، إني متقبل ، راض ، أفارق مركز الديوان بعد مثولى وامثالى .

قبل ولوجى الحياة الإنسانية كان لابد من مرورى عبر الحجب . وهنا أكشف عن لطيفة مخفية ، فهناك سبعون ألف حجاب تحول بين دنيا الحس وبين المطلق ، الذى كنت فيه ومنه ، تكتمل الكينونة بالمرور عبر هذه الحجب التى

نصفها نوراني ، ونصفها الخارجي ظلامي ، كلما اجتازت حجابا نورانيا فقدت صفة من صفات المطلق ، وكلما عبرت حجابا ظلاميا اتصفت صفة حسية ، لذا قال بعض الكُمل إن الطفل يولد باكيا لتذكر الروح موطنها القديم ، وعند تمام البقظة والإفاقة ينسى الإنسان بوعيه ما كان عليه ، علما لحظات الحنين الغامض الملتزم المحير يا صاحب ، إنما يسرى متمهلا ، قويا في وهته ، وعندى كلام يطول عن هذا الحنين سأفصله في سفر آخر لنا من هذه التجليات المباركة .

ومذهبي في هذا التدوين هو الاختصار ، والاختصار جهد الطاقة .. فإن الأمر كبير ، والفروع تكاد لا تنحصر ، ليس بوسعي ذكرها أيضا ، لأن النفوس تنكر ما لا تعرفه ، وتدفع ما لم تألفه ، لولا ذلك لفصلت وعددت ولأخبرت .
إني مطلعكم على نصف من ذلك .. فأول حجاب عرفته .. الفوت ، والثاني الندم ، والثالث حجاب ذكر فإنما أنت مذكر ، والرابع حجاب وكما نسبت اليوم تنسى ، أما أشد الحجب علىّ فحجاب العصر إن الإنسان لفي خسر ، ثم جرت حجب السبب والطلب والمطلب والحزن والأسى والصفاء والرفق والصدق والعق والتسويح والترويح والتحنى والعجز والقوة والفوت والإدراك والشهود والوجود والعدم والكد والردّة والامتداد والطوى والامتداد والجمع والانفراد والوصل والقطع والطرّد والحد والانقياد والمراد والحضور والغيبة والإحاطة والتدبير والتحير والتفكير والتصدير والتغير والرعاية والهداية والرفض والبداية والنهاية . وكان آخر ماجزته حجابا وعرا هو الفوت الذى لحقني منه أثر بليغ ، وهو أيضا حجاب من نعمه ننكسه .

هكذا تم تأهبي ، ألقى في معارفي أنني مفارق إلى دنيا الحس التى عرفتها في قديمي قبل تمحولي إلى ظل في الصورة ، وصدى للون من ألوان المنظومة ، عند هذا الحد ، ظهر عندى مهيب راسخ ، أول من أرى وأسمع ، خاطبني بلسان

شفوق ، وهذا جل ما يحتاج إليه من يتزل أول حلة في الغربة فيروده اطمئنان إلى
حين ، قال لي مانصه : « يايتيا قبل أن تولد ، أنت راجع ولست براجع إلى
دنيا تقطعت بك أسبابها ونسيت أهلها ، ياوللى .. اعلم أنك ماض إلى رحيل
دائم ، فما من إقامة أبدا ، امض .. إنما أنت عابر ..
أتساءل .. وهذا أول نطقى ..

أنت من ؟

لم يحبنى ، إنما استمر ..

« اعلم أن دليك مجاهد ممن عاشوا الزمن الوعر ، سيتجلى لك عند استبهام
أمرك ، وانسداد جهاتك ، وانقطاع سبلك ، سيأخذ بيدك ويقيم عثارك ،
اتبعه ، جادله بالتي هي أحسن ، إن وقع الخلف معه ، فهو ممن غرسوا راياتهم
في الحقة .. لكن احذر أن تسميه ، لانفصح عن هويته فيما ستدونه .
ومن أنت ؟

يغيب عني ، مع أني آنتست منه ودا ، حتى تميت لوائي من رفته بقبس
تعتني في أوقات الجفوة ، ألقى في معارفى أن دليلى هذا سيبدو لي عند
الضرورة ، وأن أمره عند القوم عظيم ، منهم المطالب بدمه ، ومنهم الباذل دمه
من أجله ، ولو ظهر في مجال المراثيات لوقع اضطراب ، وقامت هوجات ،
فسبحان من أخفى سره عن قوم ، واطلع عليه آخرين .

عند هذا الحد انتهيت إلى منابع قوس قزح ، مجمع ألوان الطيف كلها ،
قسماؤها ودرجاتها وظلال كل منها على الآخر ، مالا يدرك بالنظر ، مايعجز عن
احتوائه البصر ، أودع ماكان ، أتأهب لاستقبال ما يكون ، حسبي ! سأطلع
شيئا فشيئا على موارد صاحبي ومتابعه وماسيثول إليه ، أرى ماعاشه وأستعيد
بالمشاهدة ما أقل من عمره ، ما انقضى من مدته ، أعيش ماكان ينبغي له أن

يعشه ، إذن .. تكتمل عندى أمور ثلاثة اقترانها وعمر ، القرية والحجبة ودوام الغربة ، فتم أجر الساعين المكدين .

إنى وجل ، إنى خائف ، ألس بقدمى بداية قوس قزح ، عليه سيكون نزولى ومعراجى إلى الدنيا ، من لب مجمع ألوان الكون يبدو لى شيخ صبغ حضوره من الأبيض الأشهب ، والأبيض الساطع والأبيض الكاوى ، ودرجات أخرى لايسنى تعيينها أو تدقيقها لضيق اللفظ والعبارة ، غير أن تباين الدرجات مكنتى من رؤية ملاعه ، يتسم ..

« صحبتك السلامة .. » .

تأخذنى هيته ، أحرار .. كيف أمكن لى إدراك ابتسامته مع أنه ملثم ١٩
« كيف لاقيت بيرقنا فى الجهاد ، علامتنا وصارى سفينة حفظنا ؟ » .
يتكالب الغموض على ..

« ألم تتعرف إليه .. مولانا الإمام على بن أبى طالب » .

تلقى فى معارفى جملة من الشروحات تجعلنى دهشا ، أهو بذاته ؟ .

« نعم .. وسوف تراه أخرى ، لكن قبل خروجك من هذه الدنيا ، عندما يحين ويدنو أجلك البشرى ، ستشهد احتضارا وعرا ولكن قصير الأمد ، سيقطع إماننا ومرشدنا الحجب والمسافات ويحيبك ليساعدك على إتمام دورتك ، وإنهاء مدتك وإسبال جفنيك إلى الأبد » .

يدركنى أسى إنسانى على نهايتى التى لا أدرى متى ستحين ؟ فأرئى ذاتى لحظة ميلادى ، وأبكى على رحيلى قبل بدء سفرى .

« وإنك لخائف ، والخائف مرحوم ، أبدا ، لذا أمرنى إماننا أن أصلى بك صلاة الخوف فتأهب .. » .

أولى وجهى ، أتبعه ، أقتدى بما يفعله ، يؤمنى ، أبدا صلاتى ، خوفى مما

أنا مقدم عليه ، مما أنا مسوق إليه ، خوفي أن أكون غيري ، اكسء ملامح من أجهله ، خوفي مفارقة اللانهاى إلى الموقوت ، المطلق إلى المقيد المعلوم إلى المبهم ، صبح الأزل إلى حيرة الطلب ، الوصول إلى التشتت ، فأى أمر أنا ملاقيه ؟ كنت آمنا لا يروعنى ما أجهله ، لا آسوء على ماضٍ مستحيل استعادته ، لا أخشى داء يداهمنى فجأة ، لا أنوارى من حر ، ولا أتدثر من برد ، لا أعانى الحسد والبغضاء وقساوة القلوب ، وقلة الرحمة ، لا أعانى الطعن واللعن والسعى والغيبة والقيمة ، والزور والبهتان والكذب والرياء ، أحذر تشتت الشمل والبعد عن الأهل وهجرة الإخوان ، وبغض الإلف ، وتشتت الأصحاب والوحدة والوحشة وتحرك أوجاع القلب ومرارة النفس وقنامة الأوقات إذ يدرك الإنسان أنه بمفرده أضعف من أن يبدل وضعا ثقيلا ، أخاف سوء المنقلب واستعصاء الغرض ، أن يمسنى لغوب ، فارحم ، وطمئن يامغير يامبدل ، يامن بيده كل شيء وإليه ينتهى كل شيء ومنه يبدأ كل شيء . تنتهى صلاة الخوف ، يختنى الشيخ عنى فلا أعلم من أمتى ، فاتنى السؤال ، أقف وحيدا عند بداية قوس قزح ، أخطو نجاه واقمى الجديد المحدث ، أولى الوجه إلى دنيا انقطع عهدى بها ، فسبحان محيى العظام وهى رميم .

أجتاز الغمام هابطا بلين ليس فيه مشقة ، أشم المطر والقطر قبل تكونه . من غمام إلى غمام أدنو ، لم يدركنى نصب ، تحرك عندى خفى الأمل ، هل العقوبة موقوتة ، لعل منقلب يوما من حيث جئت ، الرحمة تلفنى ، وكرم يسلمنى إلى كرم ، بالفضبة ليست ماحقة وإنما ماحية ، والحو لايننى ، أما الحق فلا يبقى أثرا أبدا ، هذا معلوم ، أحاذر أن أحيد عن ألوان الطيف ، أجيء إلى الدنيا إثر غيث غزير ، أستعيد بوعى الآفل القديم رائحة المطر وامتزاجه بالتراب ، وبقاء قطرات منه عالقة بالأغصان ، لو أن ذلك باقٍ لم يندثر ! ، أخرج من غمام

مختلف ألوانه ، تتسع حديقى إذ أرى مهبطى .
مدينة فاس ، أرض مخضرة ، وجبل ضام ، وبيوت شهباء ، وطرقات
كالمعانى كل منها مؤد إلى الآخر ، هذا مهبطى إذن ! تشب عندى شهوات
انقطع عهدى بها ، أبدأ بتنسم المكان ، تنطبع روائحه عندى ، وهذا من
خصائصى الخفية ، فكما ألححت عند تدوين معراج أصل - الذى سيبدأ بعد
قليل - أن عندى وثيق صلة بالروائع ، فما من مكان طرقة ، ومامن امرأة
صحبته ، ومامن حدث جرى .. إلا كان ما تخلف من روائع عندى مدخلا
لذكرهم ، انتبه إلى ما أنا فيه ، إنى أقف على جبل صخرى يشرف على فاس ،
أرى شيخا مهيبا ، واثق الحضور ، ملاحمه هرمة وخطاه شابه ..

« مرحبا بك فى الدار التى خرجت منها .. » .

يبدو وكأنه يتدارك أمرا كان يجب البدء به .

« ألم يصحبك السيد ؟ » .

« من ؟ » .

« ألم يأت معك إلى المدينة التى ولد بها ؟ » .

« من ؟ » .

« من ودعك عند بدء قوس قزح ، المجاهد ، صاحب اللثام ، لماذا لم

يصحبك .. أم أن الألوان لم يمن بعد ! »

تغشاني اللحظات الغروية .

« من هو .. ما اسمه ؟ فاتنى السؤال » .

يحيينى معاتبا :

« أجهلت دليلك ؟ ، السيد أحمد البدوى ، كان بودنا الاجتماع به » .

يشير فادنو ، وأنا مأخوذ بضوء مصباح بدأ يلمع فوق بيت يتوسط الجهة

الشمالية من مدينة فاس ، هذه أول خطاى ، هون على يامن لا أول له ولا آخر ..

ليس لك معرفة بما ستراه ، لكنك ستلقى المعرفة لحظة وقوع عينيك على الشيء بنفس القدر الذى كان سلفك لما به ، فإذا كان مطالعا عليه جاز لك العلم ، وإذا كان جاهلا لم يبذل الجهد لمعرفة أو لم تتح له الفرصة فلن تدركه ولن تفهمه إلا إذا أبدت المجاهدة لاكتساب ما كان ممكنا له تحصيله . اعلم أنك ستقف على ماير به أثناء معراجه فتكون كأنك معه وأنت لاتصعبه ، أما هو فلن يقف على ماستشهده أثناء إتمامك مدته فافهم ! .

أصنى هيابا ، أتوق ، ماذا سألاقى ؟ فضولى يبدد بعضا من وجلى ، قرنى من أمور شتى فقدت منى بحكم المدة واتساع النقلة ، من ذلك قدرتى على الصبغة ، والإسرار بالنجوى ، واستعادتى لذة النكاح والنشوة والصبوة ، كذا الحنين ، واكتشافى أرضا أطوها أول مرة ..

« إنه هو ، يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد ... » .

تلى على مارقرقى ، فاحتويت فاس العتيقة بالنظر ، نضابحة بالقديم ، سيالة العبق ، فضفاضة الأريج ، فى المركز مسجد بته العبدة المؤمنة زينب الفهرية ، أما المدينة والمسجد فلم أسمع بهما فى زمنى الأول المندثر ، هذا كون مغاير ، للبداية شدة ، خاصة إذا لم تتحدد المدة ، ولم توطر الفترة ، سأكون من أجهل ، وأناذى باسم من لا أعرف ، أعايش قوما على أنهم جماعى وماهم ناسى ، أنطق بلسانهم ، أجارى وأخفى ، فى الصبر ، ولى السكينة ، ولى الامثال بالأمر ، هذا دركى ، وهذا حظى من انقطاعى عنى وقلدانى مترلقى ، حتى ملاعى لاختيار لى فيها ، لاعلم لى بها .

الآن لا يمكننى الاستدلال على ذاتى ، ربما ظننت أننى أتبع نفسى بينما أقفو أثر غيرى ، ييسط الشيخ المهيب راحته ، يطيب خاطرى بالنظر فأهدأ ، يمس على شعرى ، يرت كفى ، يولبنى ظهره ، أتبعه ، اجتاز واجتريت ، مرق ومرقت ، عبر نائى الصخر وعبرت ، فضاءات البيوت ، والدروب والزفقات والجدران الصماء الملساء التى تتخللها أبواب خشبية ضئيلة المساحة ، ثرية الزخرف ، يتوقف عند مبنى كبير حديث البناء ، معهد لتلقى العلم ، ألحظ الخلق الذين سأسعى بينهم ، وإن علمت أن مقامى ليس هنا ، مازلت محجوبا لا أبين ، كذا شيخى ، صعد سلما وصعدت ، مشى ومشيت ، يقرب ، أقرب ، يلج قاعة فسيحة فأتبعه ، طاولة يفضاوية حولها جمع وصحبة ، ألح بينها شيخا من أدلة أصلى ، كنيته العالم واسمه محمود ، أتجاوزه ببصرى إلى من سأكونه ، من سأسعى بدلا منه ، بمؤخرة رأسه صلح سار ومشيت مبكر ، من عجب أننى شغلت بأمور تبدو ضئيلة ، وتغافلت عن ملات كبرى ، غير أن مابدأت أشرع به غامض ، عسر على شرحه ، صعب توصيله ، كيف أفيض وأسترسل فى شرح مالم يقع إلا عندى ، مالم يتفق إلا لى ، إذن .. لا تقارنوا ، فما من وضع يشبه وضعى ، أما الآن فلا فرار ، سد الباب وبعدت الشقة واستفحل الأمر .. أخطو تجاهى .

امض إلى ، اقرب منى .

يأمرنى الشيخ الجليل بالنظر ، فأقرب لأجوز فى الوجود الحسى للمائل أمامى ، لى ، لمن دعى جمال ، أرتديه كما يرتدى الكساء بينما يطلع عنى ومنى كما يتترع الرداء عن صاحبه ، أرانى فيه ويرانى نائيا عنه وكلانا واحد ، أنا هو وأنا لست هو ، غير أننى كنت أدرك جانبا من أصل القضية ، أما هو فالأمر عنده مهم ، مستغلق عليه بالكلية ، فمن أنا الآن ؟ من أنا من ؟ .

أنا هنا أم هناك ؟ أنا موجود أم معدوم ؟ أنا راحل أم مقيم ؟ أنا شيء أم لاشيء ؟ .

يتم انخلاعه منى في وقت نفاذى فيه ، يرانى فيبته وأراه فأدرك ، ألقاه وأودعه في آن معا ، أنلمج به وأنفصل ، ألقاه وأفترق ، فنعم أجر الساعين ، يبدأ نأيه ، يعبر الصالة مليا نداء الشيخ الجليل ، وانى راغب في تفصيل هذا الحال ، لكن ينعنى خوف إملالكم ، ونفور طبعكم وتعجبكم مما لا قبل لكم به ، فأعطف العنان صوب الاختصار ، غير أن أحوال أصلى في هذه اللحظة فصلناها في موضع آخر ، فليرجع من يشاء لمطالعة خاتمة مقام الاغتراب ، لعل فيه شفاء للخليل ، أما الآن فبينى وبينى بعد بعيد ، يصيح بى الشيخ قبل تواريه عنى ..

« سلم لى على دليلك عندما تلقاه ، بلغه السلام الجميل .. » .
أقول :

« سلام ممن ؟ » .

يلتفت محمود العالم الجالس بجوارى دهشا ، إذن .. صار صوتى مسموعا فلاأحذر ، فلاأزرم السكينة ، فلاأمثل ، غاب عنى أصلى في هذه الحياة الدنيا ، تنبئ خطاه الوداعية بهم ثقيل ، آن لى أن أواجه حضورى ، فكأنى كأنه وكأنه كأتى ، سبحان من يخرج الأشياء من أضدادها ، يخرج الميت من الحى ، ويخرج الحى من الميت ، يخلق من الشجر الأخضر نارا ، ينقى الأمور فى أندادها .
إنى مقبل على رؤية مامضى وماسيجى فى آن واحد ، سأقلب فى الظاهر وأثبت ، سأدخل بلاداً لم أرها وأقاليم لم أفكر يوماً فى طرق بواباتها ، سأضطجع فى مواضع لم تدر بخلدى أبدا سأوزع فى أرجائها مقادير من عمرى لن أستردها أبدا سأسمى وأرتق وأنفق وأفق ، وألقى وأنكح من لا أعرفهن الآن ، وأتوه فى

ديار لم ينظر عندي آنى بالغها أبدا .

سأفرض سر الحرف العربى ، أتبع أصابع أبى إذ تشير فى بطنه إليه فأعرف أشكاله قبل تعلمى الدروس الأولى ، وهنا أمرى عجب ، سأرحل إلى عوالم شتى وأنا مجاور لجدران الأزهر العتيقة النازة بمندثر الأزمنة ، أنكب على السطور ، لا أتبع خطه ، لا يوجهنى دليل ، لا يؤمنى مرشد ، تؤازرنى الشمس بمدد من ضوئها يرشد عيني فى تحولاته المتعاقبة على مهل ، حتى إذا غربت وتم الغسق ، أنتظر مجيء من يشعل فوانيس الغاز ، أتم مابدأته بينا بائع الكتب يغفو ويفيق موجهها نظرى إلى الطريقة المثلث للإمساك بالكتاب حتى لا يبل ، حتى إذا فرغت أعطيه ماتيسر من مليات ، ثم أمضى إلى البيت راحلا فى الوقت ذاته إلى دنى شتى ، سأقرأ فى قاعات متباعدة ، هنا ، هناك ، فى الثبات والحركة ، فى أغوار الفضاء الفسيح ، فى أعماق الموج السحيق إذ يضمنى مركب الغوص لأيام معدودات ، لن يفارق يمينى كتاب أبدا ، طمأنيتى وعين أنسى ، فى إقامتى وغربتى ، لا استثنى إلا أيام السجن ، فترة قهرى ، عندما باعدوا ما بينى وبين ما اعتدت ، مامن كراس سأقف عليه إلا وألزمه ، سير الأولين ، المغازى والمعاناة ، الفروق بين الفرق ، تصانيف المذاهب اللوحات ، المنمنمات ، فى الأغلب الأعم أنهل وأطرح جانباً مما آخذ ، وقد أحصل بينا ينقص منى بعض ما اكتسبت ..

مامن أهل مجاهدة أو كفاح إلا مخالطهم ، أمتح جل ما أستطيع بقدر ماتمنى الطاقة ، حتى إذا استشعرت مالا يلام دخائلى ، مايتناقص مع استمرار أمرى ، أبدى الإشارة ثم أفصح عن المعنى ، عندئذ يختلف القصد ، تتباعد السبل ، غير أنى لم أبغض شيوخي قط ، كنا زملاء الجهاد حتى وإن حادت عن غاياتها الأيام ، إنى أطوى ولا أنشر ، وأردد ، رحم الله من علمنى حرفا ،

ومن وقف إلى جوارى لحظة إطلاق سبها ، أو مصارعتى عادية رمانى بها الدهر ، أو عند فضى مغاليتى عبارة ..

ومن عجب أنى سأسمى بأسماء تخالف ما اختاره لى الوالد الكريم ، فن ذلك كمال ، وخالد ، وفريد ، وابن إياس ، والجهننى ، ومحى الدين ، وغير ذلك كثير ..

كذا سأوسم بصفات شتى ، شاطر وخائب ، مقدّم وفزع ، تلميذ وقارئ وأستاذ ورسام وصانع ، موظف ومسافر ومجاهد ومتقاعد ، خطيب وصامت ، رقيق وجاف ، عالم بدقائق لاحصر لها ، جاهل بأمور جمة بعضها يسير هين ، صاحب وخصم ، قريب بعيد متباعد ، شجاع فى حرب عشتها وشاهدتها حتى أنى لم أهب الموت والردى من أجل أهلى وناسى ، جبان حريص فى حروب أخرى أشهدت جانباً منها نائية عن موطنى ، مخلص بلا حد لمن وفى وجاوب ، منقلب ، صارم على من خان الأمانة وبدد الوديعة ، مانح فى فيض ، ضان فى عسر ، لن يفوتنى شيء خلال السعى والطواف واتخاذ الوجهة إلا استوعبت منه مقدارا ، من ذلك كظمى الغيظ ، وإبدائى الشكوى أو كتمانها ، كذا بوحى وثورنى وغليانى وكتمى فورة أنفاسى ، وهذا أعظم ماضرنى ولحقنى ، لكننى فجأة أصرخ وأجعر عندما يتنى الحل وتنفذ الطاقة وتنه القدرة ، صليت ، ركعت ، تهجدت ، قبلت أيدى مشايخ أجلاء ، وقسّس ، وقامصة ، خطبت على منابر عتيقة ، وفى خلاء فسيح ، أمت جمعا .

حدث أثناء سعى من أجل رزقى وتكسب معاشى أن وصلت قرية صغيرة شرق النيل ، وشرقه قفر ناء فى صعيد مصر المحمية ، حان وقت صلاة الجمعة ، علم الجمع أن الشيخ به مرض ، التفتوا إلىّ ، قالوا .. أنت من أهل العلم .. تفضل ، هكذا قت خطيبا وركعت إماما ، اتخذت موضعا فى صفوف

الكنائس ، تجولت في معابد الأقدمين ، أطرقت رهبة وخشوعا لمن نحتوا
أعمدتها وخطوا الأشكال على جدرانها ولونوا رسومها ، وتسلفت صخرا وعرا
لألقى نظرة إلى بقايا طفل قدموه قربانا في الزمن العتيق ، ولجت معابد يتنى
ناسها إلى ملل شتى ، تحدثت وأفضت وفصلت إلى جموع أجهلها ، تلعثت
مرتبكا في حضرة من أهوى ، أفضيت وناجيت وتأملت وبحت في خلواتي ،
هذا طبع غلب علىّ ، إذ أننى محصور دائما على مافات ، ماتبدد ، نازف أبدا
على ما فقدته ، ماذرته الأيام بلا رجعة ، حتى في أوقات طمأنينتي ولحظات
استكانتي وراحة بالي أصغى إلى ديب خفي لا يبين ، أدركه بقلبي ، لا قبل لي
بمنعه ، بإيقافه ، بتأجيل سريانه ، بتخفيف ماسمليتي به ، وهذا لب
عجزى ، دائما لا أعرف الكنه ولا أفض السر إلا بعد القوت ، أغفو عندما
يتاح لي ، وأهمل عندما يتيسر لي الأمر ، وأدنو من حافة اليأس والجنون إذ
يستعصى علىّ .. وتفصيل ذلك عظيم ..

تصدت لقوى لا قبل لمحيلة بتصور عنفوانها ، وشروها ، وقدرتها على
إلحاق الضم والاذى ، وحلت في الهزيمة في مواجهة لحظة غروبية ، أو عند
هبوب نسمة خفية لاتفصح عن وجهتها في ساعة عصر بالتحديد ، وكدت أجتو
أمام نظرة مخلوق ضعيف لا يمكنه التعبير ، كما يسح دمي لرؤية طاعن في السن
لا يقدر ، أما ما أرجفنى .. فإطراقة امرأة عجوز عابرة مجهولة عندى أحيت لدى
سمى أُمى وكدها .

تشاجرت واشتبكت ، نجوت بالصدفة ، مرقت مراوغا الموت ، عشت زمنا
كان ينبغي أن أفقد فيه ، رأيت بعينى مروق الشظايا عبر أجساد الخلائق ، عبرت
الخلجان ، متفرجا ، مسافرا ، مهاجما عدو بنى قومي في وكره وقصدت
مهاجمته في وكر يتمكن منه ..

ابتسمت من القلب ، ومن وراء حجب ، أوامات صدقا ، وحننت ، ألبت
 وألبت ، نزلت بين الأجلة ، رافقت الجهال ، نلت رفعة وعكنتى ذلة ، ودبر
 فى قتلى غير مرة ، صارعت ، هادنت ، رابطت ، قررت ، حاورت ،
 سلكت ، تقلدت الأوسمة ، عريت ، افترت ، أثريت ، اقترضت ،
 أحبيت ، عشقت ، ثم انقلبت كارها لمن همت به ، كاتبنى قوم من كل فج ،
 أنجزت القليل الأقل ، وعجزت عن الوصول إلى ما أرغب وأنشد فى الكثير..
 الكثير ، رصدت خطواتى ، رفعت بصمات صوتى ، فتحت لى ملفات واضابير
 شتى فى جهات لاحصر لها ، وكتب فى آلاف التقارير ، وارتقى من متابعتى
 المس ، روقت سكانى ، وتويعت حركاتى ، سولت عن أسفارى ، من
 قابلت ؟ من صافحت ؟ من تبادلت معه التجوى ؟ من أفضيت إليه بسرى .
 وطولبت باسترجاع ماتفوته وماقلته ، صفعت على وجهى ، على تقاى ، ألبوا
 أطرافى وهددوني بإدخال العصى فى دبرى ، أقضوا مضجعى وأقلقوا ليلى ،
 سودوا لحظات من زمنى واعتموا بعضا من نهائى التى لن ترجع ، سبني ضابط
 غيت ولن أرى الكريمة التى لم يرها ولم يعرفها ولم تلحق به مهانة ، لم أجه فى
 العلن ، إنما واجهته بنظرانى ، هو مدجج ، وخلقى ثلاثة جلادين ، جاوته
 بعينى الأسير الأعزل بالغل الكظيم ، أن يسب أسر أسيره فإنما ذاته يعنى ،
 ومايقوله يرجع عليه ، لم ولن أنسى ذكره أمدى وسبه لها عصر يوم أجهل ملاحه
 من شهر أكتوبر عام ألف وتسعمائة وستة وستين فى زنزانة التحقيق بسجن
 القلعة ، هذا ثار لايبلى ، إنى والله لمتعبه ، إنى لمقتف أثره حتى آخذ بئارى
 وأنفض ماضيقى أعواما ، هذا ما أثقل كاهل أصلى زمنا مديدا ، وهذا ماورثه
 عنه ، وإنى لمطلعمكم على الغيت يوم القصاص ، لن أصفح الصفح الجميل عن
 الباغى الجهول .

لكم عانى جمال هذا الذى أنا صورته - إني لأشهد له بالمثابرة ، وصون النفس عند الأذى ، فله ولى الرحمة وطيب العقبى ، إني حال عمله ، متقن ما أتقنه ، التأمل والحنين والأسى على مافات وإدراك الألوان وتوليد اللون من اللون والزخرف من الزخرف ، وإبقاء الخط بلا نهاية وملايئته ومسائره ، وهذا وعز ، الخوض فيه غير مأمون .

اهترجواى لمراى ظل لظل ، وامتزاج لون بلون ، كدت أفيض بمالا أدريه عند رؤية ملامح لوحة عتيقة على جدار صالة مخملية ، داخل بناء قديم فى مدينة حدودية ، هلتى التوق إلى وريقات خضر بللها المطر الرذاذى فى ضاحية لم يطل مكثى بها ، ولن أطأها أبدا . هالتى تفرق ضوء على مياه تجرى تحت جسر خشبى ، ويث عندى عزف موسيقى نحاسية - صباح عطلة فى ميدان عتيق صغير مبلط بحجارة - رققة وسلاما ودعة فأنست فأمنت فهدأت ، فتبدد خوفى من المجهول لكن إلى حين وحننت إلى أرض لم أرها ومروج من ضوء لم توجد حقا ، فحق على إغماض عيني والغوص عندى ، أما الهت فترل على لما واجهت نبثا أنخضر شق طريق الوجود عبر صخر أجرد قاس .

غانقت الشفق ، والليل وماوسق ، وخضعت للضحى ، وركضت برجلى لما شقشقى الفجر ودنا - ولاحت ليال عشر .

فارقت المقاهى فى اللحظات الأخيرة لإغلاقها ، توسدت أبسطة المساجد ، افترشت باحاتها لندرة مأوى وفقدان مضجع ، سحت فى البرارى ، أوغلت فى المناجم ، تجاوزت المدى فى الصحارى ، وأغرقتنى النجوم فى ليالى القفر ، نمت فى الخنادق الرطبة ، وعلى مقربة من مياه القناة زمن الحرب ، وفوق قم منخطة بالثلوج الأعوام كلها ، نمت فوق بلاط قصور تنمى من شادوها ، وأسرة وثيرة ، ودعت الصحب والأحبة حتى المقابر ، نأيت عن الموت زمنا ونأى

عنى ، ثم داهمنى ، دنابنى ودنوت منه ، فبدأ زمن احتضارى قبل تمام المدة ، وترددت حشرجتى سنوات طويلة قبل انتهاء الفترة ، جاهدت وأخلصت المحاولة غير أنى لم أدرك الكنه ولم أسبر أغوار اللب ، فلوجدى الصبر والجوهرى السكينة ، ولمكنونى الدفين الحفظ وسلامة الصون واستحالة الفص .

عانيت بغض الإخوان ، والبغى ، وقساوة القلوب علىّ ، وشح الرحمة ، وشدة الغلظة ، والفظاظة ، والطعن واللعن ، كذا الخداع والغدر ، والخيانة والسعى ، والنجمة ، والزور والبهتان ، والكذب والمداينة ، والنفاق والرياء ، وتشتت الشمل ، وتفرق الجمع ، وقطعية الإخوان ، ومفارقة الإلف ، وخراب العمر ، ونأى الديار ، وحزن الوحشة ، وغم الوحدة ، ويؤس الانقطاع عن الغير ، وتنغيص العيش وسوء المنقلب .. إن هذا وربى لكثير ، ان هذا وربى لطام ..

غير أنى ذقت طلاوة النشوة ، ولمست جوهر الجلوة ، تسلفت جبالا كردية ، وتمددت على شواطئ مغربية ، وطئت مواضع كنت أول من يدوسها منذ تكون الكوكب . تمهلت خطاى فى أزقة البوسنة والأناضول والأطراف الآسيوية ، خشعت فى ظلال مآذن استامبول ، أدركت بشارات الأبدية إذ تأملت سعف نخيل الواحات فى ثباته وعدم ميله مع الهوى أو الغرض ، ارتويت من آبار نادرة ، أنفقت جزءا من عمرى فى المدن الآسيوية ، تمهل خطوى فى المدن الأوروبية ، جزت الأحراش الأفريقية ، تحملت برد الأصقاع السيبيرية ، استغرقتى تلخين النرجيلة فى مقاهى البصرة العتيقة ، وهذا المقهى الدمشقى فوق جبل قاسيون ، دثرتى ظلال الأسواق المراكشية ، وانتشيت فى مواجهة العمارة اليمنية ، كدت أهلك حزنا على نسمة ولت ، كوانى شوق إلى صدى آذان سمعته فى صباى ، إلى لحظة ذرفها وقتى ، وصبوت حتى كدت أنوح لسماع رفة

يمامة ، رثيت لتبخر الندى بعد تعلقه يائسا بأطراف الوريقات النباتية ، خشعت
لامتداد الظل .

إني يا كرام راحل ، إني ساع ، مهاجر ، مدبر ، في فقد دائم ، لا يطمئني
وصول ، ولا يسعفني إقلاع ، لا يهدئني حنين مادمت عاجزا عن استعادة شيء
مما راح ، خاصة تلك النسيات التي هبت ولم تعد .

فيا من إليه منتهى ، يامن به ثقتي ، يامن سيقطعني قبل أن أبلغه ، قبل أن
أدركه ، يامن تعلق به رجائي ، يامدى سؤلى ، إني متأهب ، لى المسعى وعندك
المقر والمنتهى ، يادهر أن ليس للإنسان إلا ماسعى ، أما إذا استعصى على فهم
هذا التراث كله ، أو التفريق أو التمييز عند اشتداد التنوع والكثرة ، فعنك المخط
وشرف الغاية ، ومنى تجدد المحاولة .

عند هذا الحد .. انتهى الإشراف الخاطف ، بعد أن أخلنى مما حولي
وسلبني منى ، مع أنى قادم إلى هذا الكون لتوى ، وعلى إخفاء دهشتي مما يرى
أو يعرض لى ، على استئناف ما كان عليه سلفي ، من اكتسيت بجسد يماثل
جسده ، كلنا ملائحه ، حتى أن صاحبها له من أبناء هذه البلاد دنا منى ، مال
على ، لم يلحظ التغير والتبدل ، لم يتبته إلى أنى قادم لتوى إلى هذا الكون ..
قال إن جميع أعضاء الندوة النقاشية مدعوون إلى العشاء عند نائب برلمانى ،
أجيبه بنفس نبرة جمال ، نفس القدر والمعنى ، أعود لأصغى ، أبلى الود
للود ، أنصرف مع جمع أجهل معظمه .

الليل فى أوله ، نجومه قصية ، الملح بيت النائب ، قاعة منمنمة فسيحة
ونقوش توطر الرؤية ، وعقب نبات يننع الفراغ ويلطف الهواء ، أعرفه من زمنى
الأول وعندى منه بقايا عقب لا يروح ، يدخل أربعة رجال أشداء يحملون صينية
فضية مطعمة بعروق ذهبية ، أنظر إلى أغطية رءوسهم الحمراء ، أرى والد

جمال - والدى - يمسك علبة ورقية يحتفظ داخلها بطربوش له به عناية ، يمسح قماشه الخشن ، يسوى الخيوط السوداء الحريرية المتدلية منه ، تلك رؤية عاينها أصلى ، ولحات بقيت معه كان لابد أن يذكرها فى هذا الموضع ، فلما لاحت عندى دقت فى الملامح ، المرة الأولى التى أرى فيها الوالد الراحل ، غير أننى لم ألع إلا الهيئة العامة ، الحدود الخارجية لوجوده الحسى ، رافق ذلك هبوب حزن ثاقب ، يصعب علىّ تحمله ، ليس معه إلا النوم ، والميل ، وضم ذاتى إلى ذاتى ، هذا مقتبل ومفتتحى الكابى ، إنى شجى ، إنى كمد ، إنى مقررر .. إنى ظامئى إلى روح وربحان وجنة نعيم .

يبدأ المنشد المغربى ، هذا شعر ملحن ، الجوقة تردد أنغاما أسيانة ، فيعمق شجوى ، أتمايل ، ليس من طرب كصحبى أولئك ، إنما من تعب وضنى ، يتدفق النغم ، يتقلب ، يستجيب البعض ، يدقون الطارات ، تتمايل قاماتهم فى رقص خشونى ، تتصادم الأصداء ، تتصارع النغمات ، تفرع الطارات ، يهزنى ذلك غير إنى لا أشارك ، أبقى مقعيا ، مسدلا على ملاهى ابتسامة لاجذور لها ولاصدى داخلى ، فحالى كما قيل فى المعنى :

لايؤنسك أن ترائى ضاحكا

كم ضحكة فيها عبوس كامن

مندمج فى الظاهر ، قصى فى الباطن ، حان ، مترقب ، داخل فى قبض ، أمرى فى عزلة ، مغبوط الواجبة ، مشوش الجوهر ، إنى دهش ، أحمل العمر المنقضى لجلال ولم أعشه ، اسمه اسمى وتراثه ترائى ، ومحتته محنتى ، فاتفق النذر ، إذن .. مالى كأتى مبتوت ، منقطع عما قبل ، وحيد وأنا فى جمع وصحبة وغناء وأنس ورجع أندلسى بعيد وشجا .

يدخل أربعة من خدم الدار ، يمدون الشراشف ، يميل صاحب من

طنجة ، ينصحني ألا أشبع من الطبق الأول منها بدا مغريا ، بعدد المفارش ستكون الأطباق ، أحصاها فإذا بها أربعة ، يغمز ، يكرر النصح وهو لا يدري من أمرى شيئا ، لا يعلم أن هذا أول زاد في الحياة الدنيا ، تستمر الموسيقى فتهدد أساى ، تخفف من فزعى ، ورجفتى ، وعند انتقال النغم من مقام إلى مقام يجئنى الأمر كى أولى البصر تجاه باب القاعة المحفوف بنقوش جصية رهيبة تتخللها مربعات صغيرة من خزف لامع ، أصفر وأحمر وأزرق وأخضر ، نعم عمل الصانعين ، لماذا دعانى الداعى ؟ لا يلتفت غيرى إلى الباب ، لا يشخص إلاى ، غير أنها عندما لاحت وبدت ، عندما ظهرت ، عندما تم اجتيازها الفراغ ، شخصوا أجمعين ، لم يتوقع ظهورها إلا أنا ، لم يتأهب لها سوى ، نعم عقبي الدار ، يرون فيها الأنثى المبهرة ، قوية الانبعاث والحضور ، نافذة النظرات ، هكذا نظروا ، هكذا فكروا ، غير أننى لم أبع ، لم أفسر ، لم أفصح المغاليق ، فلن يصدقنى صاحب ، ولجت المكان فنشرت حضورها محتويا كل حضور ، خطت حتى حطت فوق مقعد دائرى صغير بلا مسند فى صدارة القاعة ، لم ألحظه إلا بعد استقرارها واستوائها ، أطلت عبر مشارف وجتها ، مالت إلى الأمام فمال مكنونى ، ليس إلى نقطة محددة تنظر ، ليس إلى شخص بعينه ، ردتنى عينها من مكاني السحيق ، لى فيها حظ وهوى ، محلها الزمن العتيق ، تنظر إلى اللب والجوهر ، إلى الوجود ذاته ، تبسط يديها ، كل أصبع تلامس الأخرى . تدسها بين ركبتيها المسدل عليها حرير أخضر به مس من ذهب وفضة ، تطلعت ثم تولت جهتى ، من شاء فلينظر ، من شاء فليطرق ، أما أنا فلا خيار ، امتثلت ، استسلمت لعينها النضاختين بالهوى والسر ، لونها غير يقينى ، حدقتها مرفأ للكافة ، شفتاها ذواتا ارتقاب ، وجودها واثق ، فى كل لحظة يبدى جديدا كان مستترا ، يفصح عن خبيثة مستعصية ، يتطلع إليها

الجميع حتى وإن تباعدوا عنها ، ينظرون دائماً كما تطلعون أول مرة ، ترحل العيون عنها ثم تعود إليها ، فنها الألفة ، ولها المودة ولى التفرق وشغل قلب ، استوثقت ماخمتته قبل ظهورها ، كدت أنفلت وأتخذ طريق فى الوجود سرىا ، أوشتك على الإفشاء لكننى غالبت فكتمت فكظمت ، هى من زمنى الأول الراحل القافل فلا أمل فى عودة ، جاءت تونس وحشة بدايى ، تذب عنى القفر ، لحظات معدودات تتجلى فيها ، تنبئ بقرها منى ، تدفع برائحة أعطافها إلى حاسة شمى فأنهدهد ، فى الظاهر تحيى الضيوف ، وفى الحقيقة تشد أزرى وتقوى أمرى ، فإن قاتم إنها من هذا العالم صدقتم ، وإن قاتم إنها ليست منه صدقتم ، وإن قاتم إنها تعرفنى صدقتم ، وإن قاتم إنها تجهلنى صدقتم ، وإن قاتم إنها زائلة فأنتم على حق ، هى الأصل والظل معا .. هى نعم ولا ، هى الصوت والصدى ، أما إذا تعذر العلم فاحكموا بغلبة الظن ، غير أنى لن أبوح أبدا ، لو أنقصحت لثارت شواغب لم أتنها بعد للملاقاها ، إنى شاخص وندى الوجد يقطر على . راحل إلى طاقى النور والحياة ، إلى عينيها ، ألثم ماينها ، أطوف بأهدابها وأسعى ، أقبل ماين شعرها وبشرتها ..

تحول البصر إلى ، فأمتثل وأتأهب ..

« أخاف عماء البصيرة » .

نجيبى باللحظ ، بالنظر ..

« أخشى الجهل الأتم » .

تلمح إلى سبل العلم .

« أخاف العجز »

تنبئى إلى القدرة .

« ماذا عن الصمم ؟ » .

تكشف لى الدرب الذى تسلكه الحمسة ، ومستقر الصوت ، ومصير
الصدى ..

- «إنى مقر بخلوى من الجواب» .

تنهى إلى جوهر الخطاب ،

«وماذا عن التيه ؟» .

تشير إلى الدروب المؤدية .

أنا الآن بلا تاريخ أعرفه ، اسمى جمال ، رسمه رسمى ولست هو .. تشير
بتلية العلامة ، بالرحيل ، بعدم الاستيطان ، فالتجدد فى الاغتراب ، عندئذ
يلتئم الشمل ..

وكيف أختار ؟.

تدلى على المعنى ، الاختيار هو الإنسان ..

أصرح بخوفى من العنة ، تنكحنى يرصاب فرجها على ملأ فأطيب فانتشر
فأجوز ، أدرك الهوية ، عندئذ للممت شواردها ، عرفت فيها قبسا من كل أننى
مرت بجمال ومر بها ، إطرافتها المحبوبة قديمة مضت بها السبل ، وميل جسمها
منه فيض أمومى أغدق عليه . من أعز الخلق وأقربين إليه ، أما لحظتها فلنبينة
رقية حنت عليه ورقت له وبعثت فيه نشورا ، غير أن الأسباب باعدت ماينه
وبينها ، ضمة شفتيا فيها ملمح من أننى رآها صدفة فى حديقة ورغيا لكنه لم
ينل ، ما أعظم الرغبة عنده ، وما أقل تحقق الغرض ، أما دعيتها واستقرارها
فلحظة سكونية لطفلة هيفاء رقيقة حركت عنده مشاعر أبوية .

هل أنا ملائها مرة أخرى ؟ لا أعرف حتى اسم صاحب الدار ، إنما أنا
ضيف ضمن ضيوف كثر .

تقوم فجأة .

يقوم معها شهبى ، تنهض فينهض قلبي ، تمهد لنييتها ، لاختفائها من

بجال النظر ، غير أنها رعت الوداد في الوضع الذي حلت به وأينعته ، في وقوفها تحية وإيماءة مع أنها لم تبد علامة . عند مرورها بقربي ، لحظة نفاذ عطرها إلى حواس أنفي ، لحظة إشرافي على ضواحي عبيرها ، تلك لحظة تيقني من الهوية واستقرار حالي ، عند مرورها تسقط في حجري وريقة صغيرة ، مضمومة ، كأنها رمتها في بئر قلبي ، أقبض عليها بيدي ، لم يلحظ أحدهم ، يتم خروجها ، يكتمل خروجي من الجبر إلى الاختيار ، من الحجر إلى السراح ، من الضيق إلى السعة ، فكان انتظام حالي بعد مثولي في حضرة امرأة ، كما كان محل تكوئي رحم امرأة ، وما سبيل ريق مطلع امرأة ، وما سيخفف جهامة أيامي رحيق أنثى ، ومن يحدد دخائلي حضور امرأة ، ومن سيؤرقني امرأة .

يرتفع النغم الأندلسي ارتفاعا وهاجا ، دافقا ، ممهدا للغبية ، كأن لاتصرافها مقاما بعينه خصت به هي ، نعم يدركه هؤلاء العجايز المعمرون ؟ عازف الكمان حاد الملامح ، عازف القانون راسخ المقر ، عازف العود المحنى ، الضام ، الرءوم ، ضابط الإيقاع المتمايل ، الطرب ، أما خامسهم المنشد البدين المسك بطلبة صغيرة ، دقيقة ، مزخرفة بدقيق الصدف الآسيوي والعاج الأفريقي فلا بد أنه عالم بالسر إذ تطلع إلى ، أنامله تلمس حواف الطبلية بحكم العادة لا يستخرج أنغامها ، حسب ذلك وكفى ، أتحرك ، يتقلقل مجلسي حتى أندس بين الصحب الجلوس ، ملاصق لهم غير أني ناء ، وكثيرا مايكون الاغتراب في الاقتراب ، أبسط الورقة والعيون كلها نائية ، أقرأ ماخط بالقلم الكبير ..

« يا بجال قم إلى أوانك ، اسع إلى حيث لا أين ، امض إلى الأحوال ، ستواجه بها في وقت واحد على اختلافها ، فإقامة وسمى إلى أنيتك وإطالة على ماضيك .. اشرع فالمدى واسع والمجاز وعمر .. » .

العجيب أن هذه السطور تقرأ من كل ناحية على السواء ، كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها ، فعلمت أن في الأمر سراجلا ، أمثل على الفور ، أعتذر للإخوان متعللا بقصر وقت نومي ، بتعبى ونصبى ، استجابوا لى ، أسف صاحب الدار إذ أنصرف قبل أن أذوق طعامه ، آثرت الانصراف بمفردى رافضا أى صحبة ، مع أنى مغترب حتى القرار ولا علم لى بالطريق .

عند المنعطف توقفت ، استدرت ، ودعت البيت بينما قلبى يحدثنى أننى لن ألج بابه أبدا . وأننى مادخلته إلا لأراها ، لأتلقى الأمر والبشارة ، أى حيز يشغله وجودها الآن ؟ إلى أى الجهات تسدد البصر؟ منى لها السلام ، لها التفرق والوداد ، ولدهرى العتيق الحنين الممض ، فما كان منه لن يرجع أبدا ، أنا ذؤابته ، المحكوم عليه بالننى ، بالسعى بين خلق لا تربطنى بهم صلة ، إنى قابل ، إنى ماض إلى ماكان ، البرد يتقلنى فالشتاء مكتمل ، أحدى فى الليل ، لم أر ليلة كهذه قط ، أكثر نجومها ذوات أذنان ، كأنها نيران عساكر فى حرب ، حيثما وليت بصرى أراها ممتلئة من ذوات الأذنان تلك ، أكثرها إلى جهة الشرق ، ثم صار الجركله يشتعل فلا يطرف نظرى طرفة إلا يرى عددا لا ينضب ، قلت ماهذا إلا لأمر جليل سيكون ؟.

لم يعد الوجود خاويا ، أما داخل فمتلئى برسوخ صارح حرك على غوامض الأحاسيس ، أنادى من حيث لا أعلم ..

« ادخل .. إن لك فى اليباب سبحا طويلا .. » .

فبدأت !

* * *

حَالُ الْوَدَادِ

«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»

(قرآن کرم)

ما أعز الآثار المندثرة لاسيما عند فقدان الأمل من لقاء ، ومن لم يرحل
والحنين ملء قواده ، لم يدرك كيف تفتت الأكباد ، إني مواجه في حال الوداد
لحظات منقضية لها الخير المحض ، والعطف والرحمة والرحب ولين الجانب
والشفقة والمداومة ، فيه بعض من طفولة أصلى وقبس من شوارده ، عند
ولوجي سأفقد ظلي ، هذا نذير ، يقابله حال الوداع عند أقصى الطرف الآخر في
ترتيب الأحوال ، لن أطلع إلا على مابقى معه هو . فلو أنه نسي موقفا ، أو فنيت
في خزانة حواسه رائحة ، أو تاه إيقاع صوت ، أو بلى سرور لحظة فإني غير
مطلع ، المنعدم عنده مفقود مني ، كنا عرفت أنني سألزم حدا لا أخطاه ، فإذا
شرعت في تجاوزه أفلت مني كل نبا ، فاتفق النذر ، فتول عنهم يوم يدع
الداعي إلى شيء نكر ، أتأهب ، وهنا قرئ في مسامعي ..
معي ..

تأتى الأمور وأنت منتبه لها
وإذا مضت فكأنها أحلام
مازلت أنتظر الإشارة ، ثم ثل في مسامعي مانعه ..

تلقين

إنك ماض إلى الأيام المولية .. إلى بدايتك ، فهل أنت ملم بمعناك كطفل في اللسان العربي الذى ستصوغ منه خواطرك ومعانيك ؟ .
أبلى النقى .

أصغ أذننى ، سترى أصلك طفلا ، وطفل يعنى البنان الرخص ، والطفل هو الصغير من كل شىء ، وهو السحاب الصغار الذى لا يصمد أمام هبوب الرياح ، ويعنى أيضا الحاجة ، ياغريبا لم يزل وسيظل . أعلم أن الطفل كلمة تعنى حالة الشمس عند غروبها ، تعنى أيضا الليل ، يقال طفلت الشمس أى همت بالغروب ، وأتيه طفلا أى ممسيا ، وأتيه طفلا أى بعد طلوع الشمس ، طفل تعنى أيضا دقيق الندى المتكون فى الفجر الباكر على رقيق الأزهار . هل أدركت ؟ .

أومى ...

إذن .. أذكر مايناسب هذا التلقين .

أقول بعضا مما يلقي فى معارفى .

الأول والآخر معا ، البداية هى النهاية ..

دنوت ، لكن هذا ليس بكاف ..

أتلو متمهلا وسكون يهدتى :

« ومن نمره تنكسه فى الخلق أفلا يعقلون ؟ » .

يصيح فى الهاتف :

جز إلى حال الوداد .

رقائق

أول ما أراه ، أول ماتقع عليه عيناي ، أول ماينطبع في مخيلتي ، أول مايتلقاني ، ضريح السيد والمولى ، الحبيب الحسين ، مثواه القاهري ، أراه في أطواره المختلفة منذ بدء تشييده ، أرقب ظلال الغروب على الباب الأخضر في الزمن الفاطمي ، أود لو نفضت كثيف الغبار المتراكم على الأفرز الخارجى للنافذة القبلية في الحقبة الأيوبية . أشفق على البناء من شرخ يسرى خفية في مرحلة مملوكية ، تلك مثذنة سامقة تقوم ، وهذا مظلوم يطوف بالضريح راجيا الإنصاف وحسن الملاذ ، امرأة تقبل العتبة المؤدية ، الأمير المهيب عبد الرحمن كخدا يتقدم جمعا من قوم مهيبين ، يحفرون موضع المقام للتأكد .. فقد وقع خلاف ، أحقا دفن الرأس الشريف هنا ؟ ، أتمنى لو أبلغهم ما أعرف ، غير أنى أردد ، وماذا يعنى التأكد ؟ لكم المعنى وصدق الرمز ، هذا حضور المسجد كما رآه الوالد أول مرة ، مضمخ بعق العشرينيات ، فلكل حقبة أريجها ، وسماتها . ذلك لون الكساء الأخضر كما رأيته في صباى ، رائحة أعرفها ، تنبعث من الحصر ، من الأبسطة الحمراء ، من أخشاب السقف ، من هدوء الضوء المتمهل ، من زوايا ما بين المنبر والجدار المكسو بالرخام ، من آثار السجود والتضرع واللجوء ، رائحة هى مجمع لروائح شتى ، لاتغيب عنى إلا لترجع ، إذ تنبعث عندى يتفرض زمن بآتمه وتتضح قسما ومعالم دنيا وتفاصيل واقع ، حق قول جمال إن عنده بالروائح وثيق صلة .

أقف متطلعا ، رأسى إلى أعلى فما أواجهه شامخ ، ضريح الحبيب هو البوابة والمركز ، منه ينبعث المعنى ، ومن جواره تنشعب الطرقات ، أراه من كافة جهاته في وقت واحد ، أنفذ حتى جذور البناء الضاربة في عمق الأرض ،

أُتيبها ، أتفحصها ، أشفق لما آلت إليه من بلى ، غيرانه باق ، كل ماحوله تهدم
وقام غيره ، إلا هو ، البيوت ناحية الغرب زالت ، وتلك العمارة الحديثة لن
تدوم أبداً ، أما المعنى فلا يفنى ، بعد اكتمال النظرة ودقة المطالعة ، أشد الرحال
إلى الحارة التي احتوت طفولتي ، لم أولد بها ، إنما بها وعيت ، أجيء إليها من
النواحي الأربع ، من كافة المنافذ والشوارع التي يجب اجتيازها ، من شارع أم
الغلام ، من طريق المشهد الحسيني ، من حارة الوطاويط ، من درب قرمز ،
من ميدان بيت القاضي ، هذه الواجهات لطلالما انعكست في بؤبؤ عيني ،
وهذا المقهى لطلالما ملأ سمعي ضجيجيه ، أما دكان « العسال » فكم توهجت
لحظات الصبا بما يعلقه من لعب في الأعياد ، منه أصداء الألوان الزاهية ،
ومذاق الحلوى ، ورائحة السجائر المتبقية في صناديق الورق المقوى ، كان أصلي
يعيد تشكيلها فيخلق منها بيوتا وعربات وأشكالاً شتى . أمر بالمقهى المجاور ،
أبوابه المرتفعة ، ساحته الفسيحة ، مناخذ رخامية ، فناجين قهوة ، نراجيل
فارسية ، مقاعد خشبية محفور على كل منها « عففى » اسم صاحبه ، ونوافذ
عالية للتهوية وجلوس شتى .

هذا ضريح سيدى مرزوق ، أحد تلاميذ المجاهد ، من ولد بمدينة فاس كما
جنتها أول مرة في غربي المقدرة ، من جاور بمكة وتعلم بالعراق ، وصد فتنة
فاطمة بنت برى ، ثم جاهد بمصر حتى قضى بها ، إنه سيدى أحمد البدوى
وأمره ذائع معروف .

عند المنحنى أتمهل ، عند اللافتة الزرقاء ذات الحروف البيضاء أتوقف .

« درب الطبلاوى »

أمضى ، البيوت متجاورة ، هذا قديم وذاك أحدث ، بيت تبرز جدراناه
نوافذ وشرفات واجهاتها من خشب مشغول ، من هذه الواجهات صيغت صور

شقي في وعي أصلي ، وأثار اهتزاز ستارة مسدلة على إحدى نوافذها أخيلة وصورا ، أمام بعضها خفق قلبه وهويلتقي بمحبوبة تعلق بها من تلك الناحية ، عند هذه الخطوة قرر ، وعند هذا التمهّل اثنتي ، وهنا أسرع ، أول مايعبره عند خروجه إلى سفر ، وآخر مايراه بعد إياب ، وذات صباح لم يكتمل نوره ، تساءل لحظة خروجه من السراج إلى القيد محاطا بالعسس ، محروسا بهذا الضابط الغتيت ، مقيدا ، « هل سأراها مرة أخرى » وعندما دنا الحين فارقتها إلى مأوى آخر ، فبدأ معه حين المغرب ، ليس إلى مكان بعينه ، ولكن إلى عمر بأكمله ، وأيام مستحيل كرّها ، وضئى ، جاءها وقتا بعد وقت ، متحسرا ، ليس على أزيمة ولّت وانقضت وانقطعت ، ولكن على أمكنة يعزقصددها ، فلا البيت الذى أقام به يقصده ، ولا الأم التى كانت تهلل لرؤيته متظرة ، ولا الوعد بالراحة بعد عناء يوم طويل ، العودة إلى المكان لا تعنى استرجاع الزمان ، مامن زمان بعينه إلا بالمكان ذاته وبمن أقاموا فيه ، شريطة انعدام التغير ، وهذا عين المستحيل ، لن تختلف المحاولة إلا حشرات .

هنا يتشعب الدرب إلى شعبين ، فواحد إلى حيث أقام حولا بعد حول ، أما الثانى فيؤدى إلى ماعرف بين أبناء الناحية بالخرابة ، مع أن المكان مسكون ، ثمة بيوت قديمة تحيط قصرا مهجورا تتردد حوله أقاويل شتى ، منها أن أحد ملوك المحروسة ولد به ، وأنه ظل عامرا سنوات طويلة بسكنى أمراء صالوا وجالوا وامتطوا صهوات العاديات صبيحا فاللوريات قلدحا ، ثم أحلق بهم الدهر فولوا مدبرين ، عارف بالتاريخ يقول إنه استخدم فى زمن آخر مقرا لضيوف حكام مصر ، من هنا سُمى « المسافرخانه » كما عرف بين القوم ، وإنى لمحدثكم عن هذا كله بما تيسر أن سنحت الفرصة وسمح الأذن . أما الآن فأمرى فى عجلة ، عندى شوق إلى هذه الغرفة التى آوت أصلى زمنا ، فيها صباه الذى ولى بددا ،

آمل الوقوف عليه لأعرفه فأعرف نفسي ، فلعذرة لو اختلط الأمر قدرا يسيرا ، عند هذا الحد ينعطف الشعب الأيمن فجأة ، هذه منازل ثلاثة ، رقم (١) طوابقه خمسة يعرف بيت الشيخ حسين آخر من امتلكه ، هنا تقع رؤية خاطفة ، هذا سلم يحده سور من حديد مفرغ ، فوق الدرجة الأخيرة يقف الشيخ حسين ، قصيرا ، بدينا ، يطالب بأجرة الغرفة المترامية . أما المخاطب فوالد أصلي ، غير أنني لم أره ، كأن السلم معلق في فراغ ، يبدأ من لا مكان ويؤدي إلى لا شيء .

تلك هي الصورة الوحيدة المتبقية في وعي أصلي عن مالك البيت ، أراها معزولة عما قبلها ، عما بعدها ، وما أنرب ماسأطلع عليه ، فكثيرا ما سأرى اللحظات متباعدة . إلى الجهة البحرية بيتان متلاصقان ، لا يعلو أحدهما عن الآخر ، طلاؤهما أصفر ، نوافذهما متشابهة ، المصاريع خضراء ، إلى الشرق سور من طوب لبن ، إنه الحد الخلفي لقناة قديم ، مدخله من ناحية شارع قصر الشوق ، يصل البيت رقم (١) - مرامي وغابتي - بالبيتين الآخرين ، العطفة مغلقة لا تؤدي إلى حارة أخرى طريق مسدود ، أضفى ذلك هدوءا وسكينة ، فالغريب لا يعبرون ولا يدخلون ، لا يبدو في الأغلب الأعم إلا سكانها ومن لهم صلة ، أما الباعة الجائلون فأمرهم معروف ، عم محمد بائع الصحف . وساعي البريد ، ورجل مغربي ، يفتح الكتاب لينبئ بالمجهول يحىء مرة واحدة في السنة قبل خروج الحجيج قاصدين مكة ، أما القادمون من الريف للاحتفال بمولد سيدنا الحسين ، ومولد سيلى مرزوق الذى يعقبه ، فلهم ترتيب ، وأمرهم معروف ، يفتشون أرض الحارة ، يسطون الحُصْر ويرتبون الأمتعة ومواقد الغاز ويصفون الأكواب والترجيلات ، هنا يكشف الغريب بسهولة ، ظهور ملامح غير مألوفة توحى بالاستفسار عن الهوية والمقصد . رقم (١) يقوم

إلى جهة الشرق ، فوق جزء من الموضع الذى أقيم فوقه بيت باجنيد الكبير زمنا ، هنا وقفت على أمور تخص نشأتى الأولى ، إذ أشهدت المكان فى الحقب السحيقة ، قبل ظهور اليايسة والماء والطير والشجر والتراب - ولا يمكن للتراب أن يحيى إلا بعد اكتمال قدم - والأكمة والأحراش ، كذا الإنسان على الدوام ، رأيته بحرا قبل أن يصير يابسة ، فالشئ يحوى ضده ، والشئ ينقلب إلى نقيضه ، فلا يدوم حال أبدا . تعاقبت الرؤى فرأيت الظلال كلها ولم أر أصولها ، رأيت الحشائش التى نمت ثم دبست ثم استقامت ثم ذوت ، رأيت النقاط التى تكسرت عندها الرياح وحادت ، أشهدت ما لا حصر له ، ولأن مذهبي فى هذا التدوين هو الاقتصاد والاختصار ، لذا اكتفى بما عرفته قبل دق أساسات البيت مباشرة .

هذا بيت باجنيد الكبير ، سور محيط ، وأشجار نادرة ، كل منها لا تشبه الأخرى ، ونباتات صبار من بقاع شتى تثير عجب الناظرين ، وأخرى يعد نموها فى هذا المناخ قدرة وابتكارا ، هذا بناء من طابقين يقوم فى عمق الحديقة لا يلوح منه جزء لعابرى الطريق ، مما قيل أن قاطنه لو أغلق الباب دون الخلق لاكتفى سنة كاملة ، فثمة بئر مياه عذبة لذة للشاربين ، وطاحونة ، ومخزن للمؤونة ، قسم من الحديقة يزرع خضرا ، ومقبرة مكللة بالوواح الرخام

هاهوذا باجنيد الكبير ، عجوز ، نحيل ، يرتدى عباءة بنية اللون . منذ وفاة ولديه لا يدخل على أحد ولا يزوره إنسان ، يخرج صباح كل يوم ، يجلس أمام البيت فوق نتوء حجرى ، يستند إلى عصاه ، يمد البصر ، يضيق حدقته عند مرور أى إنسان أمامه ، كان الدرب وقتئذ يفضى إلى ناحية قصر الشوق ، يطيل التدقيق ثم يثنى ، يتم بصوت يمكن سماعه ..

« لا .. ليس هو .. » .

وعندما غاب لم يلحظ أحد فى البداية ، نما الهيش فى أحواض الزهور ،

سكنت الطوايط قم الأشجار ، ترددت صرخاتها القصيرة الثاقبة في الليل ،
مالت شجرة السرو الكبيرة ، قال أهل الدرب إن نقرا من الجن نزلوا فيه ، قبل
اكتمال القرن بعامين ، ظهر غريب راح يدخل ويخرج ، قيل إنه يمت إلى الأسرة
بصلة .. باع الأرض بما عليها من نباتات نادرة ، وأعمدة مرمرية ونقوش
فسيفسائية وأسقف خشبية ملونة ، وأحواض ومرايا ضخمة مذهبة الأطر وأثاث
نادر عميق ، اشترى التجار البيت وماحواه وماتبقى منه ثمن بنحس ، وتوزعت
التحف والأشياء النادرة على جهات شتى ، منها ما استقر خارج البلاد ، وجاء
عمال الهدم فأزالوا ماتبقى ، وردموا قنوات المياه ، فكان الأشواق لم تتردد يوما
بين جنبات هاهنا ، وكأن الأرض لم تدب فوقها قدم ، ولم يودع قوم بعضهم
بعضا عند سفر ، كأن ماكان لم يكن . فكان الحال كما قيل :

أين الذين بنوا فطال بناؤهم وتمتعوا بالأهل والأولاد
فإذا النعم وكل مايلهى به يوما يصير إلى بلى ونفاد
شخص مجهول رجا مصلحة التنظيم إطلاق اسم باجنيد على هذه العطفة
المتوارية المنسية . تردد أنه رشا أحد الموظفين فوكت الاستجابة ، فوق الأرض
قامت البيوت الثلاثة ، وسدت العطفة فلم يعد الطريق سالكا يفضى .

أرى تعاقب السكان ، مجيء وذهاب ، إقامة وبدء اغتراب ، أرى نعشا
مفتوحا يحف به عدد من الناس ، ينتظرون نزول قوم بجثمان ميت لم أعرف هويته
ولم أعرف هؤلاء ، ولم أدر لماذا أشهدت هذه اللحظة ، وماذا يعنى ذلك ؟ ،
أصل إلى هذه الحجرة فوق السطح ، آخر من نزها ، واستظل بسقفها بائع
عطور جوال يطوف يومه حول ضريح سيدنا ومولانا ، بعد ذهابه بقيت زمنا
خالية ، الشيخ حسين أوصى بعض السامرة وأصحاب المقاهى وعلق لائنة عند
دكان العسال ، ولم يحن أحد ، في صباح جمعة باكر جاء إلى الحجرة ، فتح

النافذة والباب ، تلا آيات كريمة ، وأشعل بخورا تيمنا وتقاؤلا ، في صباح الجمعة التالى أخبرته ابنة أم هدهد المرضضة عن نفر صالحين يرغبون فى استئجار المكان ، قبل على الفور واستبشرا خيرا .

هاهى ذى من كانت أما لأصلى ، من حملته وهنا على وهن ، وحنث وقلقت ورعت . تدخل الحجرة بقدمها اليمنى ، هنا سيكون مأواها ومعاشها وستمضى أيامها ، الضوء شرح صدرها ، والهواء يسر أمرها ، أما السماء فقريبة صافية منبسطة ، هذه أمى كما قضى الأمر ، ملاحمها مستكنة ، صبورة ، لاتنبى عما مضى منها وما سيجىء ، اقتربت فلت فحنثت فتمنيت لو باستطاعنى تخفيف هذا الشرود الحزين فى عينها ، حضورها أمومى ، يضى على دعة حتى أنى استدعيت بالخاطر أمى فى زمنى العتيق ، كدت أتملى منه وأتمكن ، غير أنه أقصى عنى ، هذا غير مسموح به ، إنها تتأمل الغرفة راضية ، تتجه إلى النافذة لترى ماستقع عليه عيناها زمنا لا يعلمه إلا رازق الطير . أمامها فراغ ، كل الأسطح منخفضة ، لا يمكن التلصص من قريب أو بعيد . النفس يسرى مرتاحا عندها ، انقضت العتمة ، والرطوبة ، والخوف الليلي عند تأخر أحمد ، غير أنها تذكر أم هدهد فتأسو ، فراقها يعز عليها ويصعب ، جارة طيبة ، رعتها وشالت عنها الهم أيام مرضها ورقادها ، هى الغريبة التى لا يطل عليها من الأقارب أحد ، رعى الله ابتها ، وفقها إلى زوج صالح ، وأبعد عنها أولاد الحرام ، خاصة أنها تخرج إلى العمل . وتخالط القبيح والحسن ، عند خروجها بصحبة أحمد لزيارة مثوى الحبيب شهيد كربلاء ، ستطلب العروج على أم هدهد ، إنها وحيدة ، بمفردها هنا ، بمعزل ، مامن قريب قريب إلا الشيخ قيصى ، امرأته الطيبة ، غير أن بيتها ناء ، هناك أقارب يسكنون قرب القلعة لكنها لاترغب زيارتهم ، للنساء فضول عظيم ، يسألن ، يدققن ، يستفسرن

عن مأكليها ، عن مرقدها ، عن مدخرها ، يبدن الرثاء وفي أعماقهن الشماتة ، لأنها ستزورهن فلا بد من رد الزيارة ، لوجئنا لن نجد مقعدا أو حشية ليجلسن عليها .

إنها تقعد فوق الحصيرة المطوية ، لم تفردهما بعد ، على حجرها كمال شقيق أصلى ، لا أتمكن من رؤيته ، إذ أن جمال لم يحتفظ بملاحمه ، أرى أطفالا كثيرين في وجه واحد ، أرى أخيلة ، ملامح شفقية ، غروية . لاتفصح عن قصبات ، خليطا من رؤى بعيدة وأوصافا ترامت إلى سمعه في مراحل مختلفة من العمر ، رحل كمال عن الدنيا وأصلى دون الثالثة ، يمر الطفل بعامة الأول والثاني والثالث ، بدون أن تعلق بوعيه شاردة ، أو محسوسات تدع أثرا ، ربما بقيت ظلال باهتة ، ربما يترسب عند القاع البعيد ملمح ، أو يخفق نبض واهن مشيرا إلى ذكرى ، قبل عند أهل العلم والدراية إن هذه الفترة تدع آثارا غير هينة ، وأن شأنها جلال ، فيما بعد كان أصلى ينظر إلى ولديه مليا عند مرورهما بتلك السن ، يقول لحاطره ، هذا عمر لن يخلف عندهما شيء ، ربما تبدوا الأطياف في الأحلام أو الهلوسات ، أو عند الغفو وعبور الحد المتميع ، ما بين النوم واليقظة ، لم حدد أصلى الفترة بسنوات ثلاث ؟ ربما لأن أقدم صوره ترجع إلى عمره وقتئذ . إذن .. ما أقدم صوري ومكنوني ؟ إلى أى حقب تمت ؟ هذا مالن أقدر على البوح به ، فإ بين جهلى وقلة حيلتى يتأجج ضيقى وتُسقى غربتى من معين لم يكن فى خطفتى أو حسابانى .

أرى كمال فى جملمته ، ملفوفا بجرق سود ، نخشى الأم عليه شر العين ، أبيض الوجه ، مكتمل الصحة ، مع أنه لم يلق الشمس طويلا ، أما حليب ثديها فكان شاحبا شحيحا ، خاصة عند مرضها ، كان جميلا ، متوردا ، حتى أنها أخبرت القوم أنها رزقت بتنا وسمته اسم أنثى راح منى ، حتى امرأة الخال

وأقرب الأقرين لم يعرفوا أنه ذكر ، كانت خشيتها العظمى أن يغرب كمال ، أن ينطفئ نجمه ، أن تسقط ورقته كما هوت ورقة خلف ، خلف أول فرحة بكر لم تتم ، له الرحمة يوم التناد ، مضى طفلا ، له الجنان والعفو من السؤال والاستفسار عن الذنب ، هاهى ذى تضم كمال ، تقبله ، أحلق وقد شب عندى فضول محوره ، ما الباعث على هذه القبلية بالذات ؟ تلك القبلية المفاجئة ؟ ماموقعها من الزمن ؟ كيف تلقاها كمال ، أهوحنان دافق ، أم خشية مفاجئة ، أم روح وريحان وجنة نعيم ؟.

هذا ما لن ألقى الإجابة عليه ، حتى وإن حرك عندى هفو الوداد ونسيمه ، هنا أنبت أننى لن ألقى أخى كمال إلا فى هذا الحال ، فعظم انتباهى ، هاهى ذى الأم فى زمن متقدم ، بعد أن نال منها طول السفر ، وصعوبة الرحلة ، وتكأ كؤ الظروف ، وسكنها المرض ، تقعد فوق حشية وأصلى متمدد ، مصغ ، هذا حديثها قبل نومه الأصلى ، تقول إن كمال كان بهجة للناظرين ، وأنه كان واعيا ، يردد ما يسمعه بدون تعلثم الصغار ، وأنها خلال صحبتها له لم تشعر أبدا أنها برفقة صغير لم يتجاوز سن الفطام إلا بشهور قليلة ، كثيرا ما حبا واقترب منها فى صمتها وطبطب عليها ، قرب وجهه من وجهها ، كأنه يدرك من شفيف أفكارها وخبىء خواطرها ما يعجز عنه الكبار . بعد غروب أخيه خلف كان يدور بعينه باحثا عنه ، ثم يتطلع إليها صامتا لا ينطق ، مترقق العينين ، انقبض قلبها ، لم يستفسر بلسانه غير أن تساؤله الصامت كان أنفذ ، تستمر الأم فى حديثها الأصلى ، تحدث جمال الذى يغالب الإغفاء ، فيبدو ما أشهده آخر علامات دالة على صبح الوجود ، قبل دنو ليل العدم ..

النكس

حدثت الأم بنبرة باك ، مخفية أوجاعا قديمة ، قالت :
« عاش كمال سنة بصحبتك ، دائما كان يحنو عليك ويتسم في وجهك ، لم يظهر غيرة الصغير من شقيقه أبدا ، حتى أني كنت أخرج إلى السطح تاركة إياكما معا ، مطمئنة ، آمنة ، أرجع ألقاه يهز شخصيخة من الخوص اشتراها أبوك من جوار مقام سيدنا ومولانا .. » .

تصمت لحظات .

« كمال كان وش موت من يومه .. » .

تطول إطرافها حتى ليخفت صوتها ، فيسرى عند جمال قلق ، ينتبه ..
« مالك يا أمي ؟ » .

تحرك رأسها من يمين إلى شمال ، بين بين ، تدع له حديث الفهم ، فإن شاء أدرك ، وإن شاء انتفى ، أما إذا تلاقى ما عنده بما عندها فسيجد للكلام سبلا وطرائق .

« أعندك جوى تكمينه ؟ » .

تطرق ، ثم ترفع عينين مثقلتين ..

« سامح الله من كان السبب .. » .

قالت :

كان أبوه يحبه حبا جما ، فيصحبه حيثما ولى وجهه ، صوب معارفه وأقاربه ، إلى من يحمي من البلدة ، إلى المقهى ، إلى دكان الحاج الصاوى ، للطواف حول ضريح الحسين ، تماما كما حرص على رققتكما وابتها صغار ، وفى يوم اثنين خرج حاملا كمال على باطه ، خرج إلى بيت البك ، قال إنه سيعرج

على جزار في شارع الحسينية ، أوصاه بذلك .

الحق يا جمال أتنى لم أكن أرضى بصحبة أحدكم لأبيكم عند ذهابه إلى هذا البيت ، فالرجل متقلب المزاج ، يبدى الود حيناً ، وينقلب في لحظة ، ولم أحب لأحدكم رؤية أبيه في لحظة هوان لا يقدر فيها على رد الأذى ، لكنني كتيمته ، ليتني أفصيت ، ليتني صرحت ، حدثني أبوكم فقال إنه مشى بصحبة كمال ، يحمله معظم الوقت ، ويشجعه على المشي إلى جواره بعض الوقت ، عند الخرنفش شرب عصير السوييا ، وعند سوق الليمون أشار كمال إلى بائع بطاطا فاشتري له قطعة بليمين رشها البائع بالملح ، وأوقفه عندما هم بنثر الشطة الحمراء ، قال إن الولد صغير لا يحتمل ، وبعد اجتيازهما باب الفتوح تطلع كمال ناحية المقابر لمواجهة لباب النصر ، مد يده الصغرى إلى ذقن أبيه موجها بصره إلى هناك ، ولم ينتبه أحمد إلى ذلك إلا بعد وقوع الواقعة .

قالت الأم :

إن كمال لم يحول وجهه عن الناحية الشرقية إلا بعد قطعها مسافة في حارة الحسينية ، لم يتوقفا طويلا أمام الجزار ، أحمد أخرج منديلا كبيرا لف فيه ورقة اللحم ، ثم رفع كمال ، يحمله فوق ذراعه اليمنى ، ولفافة اللحم في يده اليسرى ، وصلا إلى ميدان الظاهر وصعدا السلم القديم ، البيت عتيق فسيح ، وارتفاع طابق منه يوازي طابقين من البناء الحديث ، إنها ليست المرة الأولى التي يمضى إلى البك بصحبة أحد ولديه ، فكأنه بصحبة ضناه يقول بدون نطق : انظر . لأنك أجريت رزق وتسيبت في معاشي صرت أبا ، وأبا لطفل نجيب ، لم يكن يتجاوز الصلاة ، لو بيده شيء يدخل المطبخ ليضعه فوق منضدة أو داخل صوان ، ولكنه لا يفارق أخاكم وإذا جلس فإن مكانه قرب الباب . لم يكن ممكنا لخلف أو كمال وأنت من بعدهما الحبو فوق بلاط المسكن أو

أبسطته ، كذا المشى ، أما مخالطة أبناء البك فأمر مكروه عندهم ، ولعلك تذكره عندما صحبت أباك وأنت ابن السابعة ورأيت ابن البك الأكبر يلعب بسيارة صغيرة تدور وتلف ، بقيت أنت بمنأى ، تتطلع ولا تقترب ، تنظر ولا تشارك ، أعود إلى هذا اليوم ، الاثنين ، فأقول إن أحمد ضغطت الجرس ، بعد لحظات أصنى إلى خطو يقترب ، إنه البك نفسه ، يسد الباب ، مرتديا الروب ، بدون نظارته ، هل كان متكدرا من أمر لا ذنب لنا فيه ؟ ربما ، هل كان على خلاف مع امرأته ؟ ربما ، هل كان بحاجة إلى النوم ؟ ربما ، أيا كانت الأسباب ياولدى ، فلاحق له أبدا فيما بدر منه ، لاعدل له ، قال بجفوة .. ماذا تريد ؟ .

فقرّب أبوكم كمال من صدره ، ومد يده بمنديل اللحم ، تناوله خلف بك ورماه فأصاب كمال الذى انتفض ثلاثا ، قلّف فى قلبها الرعب خاصة مع تلفظه بـالم ينسه ابني قط .

غر من وشى تضع اللحم فى مندليك ؟

رجع أحمد إلى البيت حسيّرا ، واجبا ، يكابد قهرا هائلا ، عبثا حاولت أن أعرف منه ، أن أفهم ، أن أدرك ، غير أنه صمت عنى مدة ليست قصيرة ، مع أن صميم طبعه الإفضاء والبوح ، أما كمال فبدأ ميل شمس ، وغروب نجمه منذ ذلك اليوم ، لم أدر بما جرى إلا بعد أن بلغت من العمر بأجمال أربع سنوات ، بعد أن استرد خالقنا أخاك بثلاث سنوات ، بدأ مرض كمال ، فى الليل ياكبدى يتفّض ثلاثا ، وخلال رقدته يرتجف ، يزلزل جسده ثلاثا ، وفى ذروة مرضه وذبوله يتصل نومه ساعة ، يقوم مفزوعا ، باكيا ، يدفع يديه مالا أراه ، لم ينفع حجاب الشيخ عطيه ، أو التلاوة فى أذنه ، صارت دمه أغزر . ونكسه تعس مستمر ، ثم ظهرت الحمرة ، جعلت خصيتيه فى لون الطاطم ،

عرفنا الطريق إلى طنبية شابة ابنة أناس طيبين في ميدان بيت القاضي ، قلت لها :
اعمل معروفا ودأويه يا حكيمة ، ياطيبية ماعندى غيره ، كمال هو روحى ،
وأنسى ، فى الليل يصرخ « حوشى يا أمى » ، فلا أعرف أى أمر أحوش ؟ وأى
خطر خفى أدفع ؟ ما يراه هو لا أراه أنا ، تتابعته أيامه حتى جاء الأربعاء ، وقت
آذان الظهر ، أثناء عودتنا إلى البيت ، عند مرورنا أمام فرن الحاج نصيف ،
ثقل رأسه على باطى ومال ، عرفت أن الأجل تم وأن القضاء حسم فسابت
ركبتى ، قعدت فوق حجر غليظ ورقبته كخيط ملوى ، رخو ، وتلك علامات
أعرفها ، عندما أسلم المرحوم خلف الأمانة قبله ، نزلت دمعى على ضناى الغالى ، لم
أطلق البيت بعده ، كنت أهج على رأسى مصطحبة أباك ، أزور أهل البيت ،
وأندر للأولياء كى تبقى لى أنت . لو عاش كمال لكان يكبرك الآن بعامين وشهور..
نصمت ، أرى الوسن مبددا من عبنى أصلى ، يكفكف عنها باللفظ دمعا
لايفصح عن نفسه ولايبين ، ثم يتساءل دهشا :

« لكن أبى ظل يتردد عليه .. » .

تقول متحسرة :

« كان رزقه بيده ، ولم يشأ أن تعيشوا ماعاشه هو .. » .
يوشك أن يصيح « أمى » ، غير أننى أرى لحظة أخرى ، هذا أصلى يجلس
إلى أبيه ، أى أبى ، هذا زمن متقدم ، أى وقت هذا ؟ ربما المرة الأخيرة التى
زار فيها الأب ابنه ، هذا بيت جمال بعد زواجه ، بعد أن صار أبا ، اليوم
أربعاء ، والساعة أصيلية أيضا ، هذا أنا ، عندى ود تجاه الوالد الكريم ، أما
وجهى فلو ارتقاب ، يتحدث الثقة ، الصاحب الأمين فيقول :

« والله يا جمال أنا طول عمرى شقى .. » .

تلك عبارته ، دائما يردددها ، غير أنه يلفظها فى شجى من شفتين مزوموتين

فكانه يصيح بها لأول مرة ، أحاول أن أقف عبثا على مسرى الحديث ، على وجهته ، أحاول التعرف على نقطة بدئه ، لكننى لا أقدر ، فيا أصلى البائس لماذا لم تكن ؟ لماذا لم تحفظ مع أن العهد قريب ، والمزار غير بعيد .
أصغى فقط إلى الوالد ، يقول :

« .. كنا فى محطة مصر ، خلف بك يقف مع أشخاص مسافرين جاء ليودعهم ، كنت بصحبته ، طلب منى أن أجيء فجئت ، وقفت على بعد منهم تأدبا وتحاشيا ، كنت صامتا ، لا يكلمنى أحد ولا أتحدث إلى أحد ، وحيدا ، منتظرا ، فجأة .. لحت إليك يفارق صاحبه متجها نحوى ، مشهرا عصاه ، ظننته يسمى فى إثر شخص ورائى ، وأنه سيتجاوزنى ، التفت لأرى من ؟ لكن العصا نزلت على جسدى ، على جسمى أنا ، سببى ، رفعت اليدين أحوش البلاء عنى ، فوقعت بين المئين ، الضرب وألم المفاجأة ..

يصغى أصلى دهشا ، هاهوذا الوالد يفصح عن مكنون يسير مما عنده ، أمر من مغاليقه ، لم يبيع به أبدا ، ينطقه فى يسر ، كأنه يزججه عن صدره مع دنو الختام ، أليست آخر زيارة يقوم بها إلى بيت ابنه الأكبر وبعدها لن يدخله أبدا ، ولن يسعى إليه قط ، نظره متجه إلى بعيد ، يتجاوز الأطر المكانية ، يتصل بهذه اللحظة المولية ، يقص ماجرى بها ، يتفحصها ، يبدى الأسى والدهشة بعد كرا الأعوام وتبدل الأحوال ، واختلاف العلاقة ، إنه متأهب لقص المزيد ، وربما لاسترجاع لحظة أخرى ، أو لحظات ، غير أن أصلى الغبى ينطق ، يا أصلى الأحقق اسكت يامن قدرى أن أكون أنت ، أن أكونه ، لماذا تكلمت ؟ لماذا استعدته من سريانه ؟ يا أنانى ، يامغلق على نفسه ، يامقطع الوصل ، ياغرب الجسور ، لماذا نطقت ، لماذا تكلمت ؟ ، يتساءل البائس الذى هو أنا :

« بدون سبب ؟ » .

يجيب الوالد متترعا من بعيدة الذى كان ..

« بدون سبب يا ولدى .. »

فى صوته آتة ، وفى نبرة شكوى ، كأن ماجرى وقع منذ لحظات مع أن عشرات الأعوام انقضت ، والبك يرقد عليلا تختلط عليه الأمكنة وتتداخل فى وعيه الأزمنة ، لا يغادر فراشه أبدا وما من صاحب يمضى إليه إلا الوالد ، صار الأمر بينهما صحبة وصلة ، حتى أنه إذا غاب عنه يوما أو يومين ، يرسل من يتصل به ، ويستفسر عنه بل ويعتب عليه ، قبل بدء رقاذه وعجزه كان الوالد يمضى إليه ، مع بدء الليل يبدأ حديث البك ، يذكر أياما نائية ، وجاها كان يرفل فيه ، ومنازل فسيحة ، حداثتها لاتحد جرى فيها ولها ، وهدايا ثمينة تلقاها ، وحلوى خاصة يفضلها كانت تخبئه من نابولى ، البيت القديم بارد ، لفراغه وقع وصدى ، ولأنائه العتاقة ، ولضوء ثرياته النحاسية قدم الزوايا المنسية والنواصى التى لاتؤدى إلى شىء ، أما أصوات الطريق فتجىء كأنها تمت إلى عالم آخر ، يصغى الوالد ، يضيق حلقته ، وفى أيام أخرى يتكلم هو ويصمت البك ، يتحدث عن بلاد نزلها أول الليل فلاقى فيها كرمًا وترحيبًا ، ومقاه صفق روادها عند ظهوره يطلبون له الشاى أو القهوة بدون أن يعرفه أحد ، وطرق مهجورة اضطر إلى اجتيازها حتى لا يتزل الليل عليه فى الفلاة فيخرج له الضبع أو يفرد به الذئب ، يتحدث عن حروب دارت منذ عشرات السنين بين العائلات الكبيرة ، لاتزال آثارها باقية ، عن زمن صال وجال فيه فرسان كرام لم يعرف مثلهم فيما بعد ، يقول ، راح هذا كله ، نعم .. راح ، فى أيام الجمع ، قبل الصلاة بساعتين ، تلك الأيام التى كل فيها بصر البك وخفت نور عينيه ، يمضى إليه الوالد ، فيصحبه مشيا عبر شارع الحسينية ، ثم شارع

المعز ، حتى ضريح المنجب النجيب شهيد كربلاء ، حدث الوالد فقال :
كان يمشى متمهلاً ، لا أراكم الله مكروها ، يسأل عن كل شارع ،
ويستفسر عن بقاء العلامات ، وعن مبان لم تكن قد اكتملت قبل ذهاب
بصره ، أحيانا يتوقف ، ويطلب أن تمضي عبر باب النصر بدلا من باب
الفتوح ، فأقول له ، إنتى أتشاءم من باب النصر ، لقربه من المقابر ، ثم إن
شارع المعز أقرب ، فيأبى ويصر ، وعندئذ أتوقف محتجا ، هنا يصبح أقرب إلى
طفل ، يوشك على النهضة إذ يقول معاتبا ، طيب يا أحمد .. لأنى عميت
تتحكم فى ؟ ، فلا يطاوعنى قلبى وأمضى به كيفما شاء وإن كرهت ذلك ..
هاهوذا الوالد يجلس القرفصاء فى الشرفة ، يلامس رأسه بأطراف يده ،
إنها الأيام التى ضاقت فيها عيناه ، وخف لون سوادهما حتى أصبح رماديا ،
وتباطأ خطوه ، ومال جذعه ، إنها أيام الغروب التى لم تنتبه إلى دنوها يا أصلى
الغيبى ! ، كيف أرضى بترائك ؟ كيف أقبل ما أودعنتى إياه ؟ ولولا أنى مجبور ،
مضطر ، لوليت الوجه ، وأوغلت نأيا عنك وبعدا ، يامتقاعس ، يامتأخر ،
يامن تدع الألوان يفوت ثم تندب نفسك ، عشت لاهيا ، متشاغلا عن أقرب
الأقربين ، تعبت فى خراء أيامك ، ومع ذلك فإنك وثاب ! .

يمد الأب يده بورقة مطوية ، أود لو أقول له ، وفر على نفسك ، لاترجو
جمال زيارة الرجل فى مرضه ، لاتخبره باسم المستشفى أو عنوان الطريق ،
والطابق ورقم الغرفة ، فلن يذهب ، ولن يراعى لك خاطر ، ولن يحامل ،
لكنه بعد اقلاعلك وتمام غيابك يا كرم ، يا مجاهد ، سوف يسعى لزيارة البك ،
فلن يجده واعيا ، سيلقاه بقايا ، وسيكذب عليه ولن يخبره أنك مضيت إلى
الأبد ، لأن الأهل رجوه أن يخفوا عنه النبأ ، فلو علم لصار الأمر عسرا ،
لوقعت صدمة على البك الذى يطوى ماضيه تحته ، إلى جواره سيجلس ،

يصفى إلى الكلمات المتباعدة ، وكلما قال الرجل : أحمد تأخر على ، أحمد لايسأل عني ، صار أصلي في محنة ، وحاش دمعاً ، دمعك متأخر دائماً يا أصلي البائس . وندمك بعد فوات الأوان يا أحمق ، فانتبه إذا جاز لك الانتباه ..
أناهب لإبداء اللوم ، وإظهار النفرة من كتب على أن أكونه ، غير أنني أنهى عن ذلك ، فلا أخوض ، إنما أرجئ ما أبطنه إلى مدى حتى تتم أموري .
يستغرقني الآن وجه الوالد الذي كتم ماجرى أعواماً عديدة ، ثم أفضي إلى ابنه في لحظة أصيلية دانية من الغسق ، وأثناء زيارة قدر لها أن تكون الأخيرة ، كأنما أراد أن يفسر أمراً مبهماً ، أو يخفف عن دخائله حملاً ، هذا تفسيري وفهمي ومقدار إدراكي ، وما من مجال الآن عندي إلا لتساؤل ، لماذا أفضي بما أفضي ؟ لماذا في هذه اللحظة بالذات ؟ لو أن أصلي بذل القليل ، لومد جسر الوصل لحظات لأدرك ولعرفت ، لكنه ترك عندي ما استعصى على .. أسمع صوت الوالد :

« شوف يا ولدي .. الذي أمن الفقير على رزقه ، الذي صان كرامته ، جمال عبد الناصر .. ولو لم يفعل إلا ذلك لكفاه .. » .

تغمي الرؤيا عندي ، تلك مدينة صغيرة لا أعرف كنهها ، لم أطرق دروبها ، أرى الأمر ، الوالد غائب عن البيت ، إحدى مرات غضبه وهجرانه إلى حيث لا ندرى ، مضت فترة والخبر منقطع والأثر مفقود . لكنني ساع في أثره ، أرى بعض الأقارب . الحاج أبو الغيط ، الحاج عوض ، الشيخ عبد اللطيف . وكلما مررت بواحد منهم أبدأ اللوم وأعرض عني .
« لماذا تغضبون أباكم ؟ » .

« هل تعرفون كم شقي بسبيكم ؟ » .

ينقبض قلبي ، أوشك على إبداء العبارة ، مالى أنا بما جفاه غيري ، لماذا

أحاسب على ما لم أرتكبه ، إنما أنا وافد ، عابر ، أنا لم أكنه ، فكيف أحل هذه القضية ؟ غير أنني أكنم أمرى ، أرى الوالد فأكف ، أراه عاريا كما ولدته أمه ، جسده يلعب ، تعلق به قطرات ، أسأله عن أحواله فى غربته الأبدية ، يقول إنه بخير . استفسر ، أهوراض عمن أنجب .. - أقصد - عنا ؟ يومئ ، لا ينطق ، أسأله عن هذه المياه ، فيقول مبتسما :

« أنا ملتحف بالنيل .. ألا ترى ؟ » .

أدرك أنه يتوشح بماء النيل من المنع إلى المصب ، وهذا عجيب ، أتأهب لاستئناف المخاطبة غير أن وجوده بدأ يتميع وصورته تتأى عنى ، عندئذ أسمع صوت الأم :

« اسمع يا جمال ، ماراح من الزمان راح بحاله ، وأورث ما أورث ، وما نحن فيه فتحت سلطانه ، وما لم يأتنا فلا حكم لنا فيه .. » .
يغم ما أراه ، فأمضى فى الحال صعلما .

* * *

لاتحسبونى ، غنيا عن مودتكم
إنى إليكم وإن أيسرت مفتقد

* * *

أرى الأم فى صمتها ، هل ورث أصلى رغبة فى السكوت عنها ؟ لست أدرى ، غير أن هذا الطبع صار طبعى بحكم الوضع وجوهر المهمة ، أنا مثله ولست مثله ، وكان ظاهره غامما وداخله صحو ، لا كسوف عنده ، لا تحجب

رؤاه غامات . تلك أم أصلى تطيل النظر إلى فراغ الغرفة ، ساعة في إثر الأخرى ، تنتظر أحمد ، تستند إلى قفة تحوى الثياب مضمومة ، ملمومة ، منذ قليل جمعت الغسيل ، طبقتة وربتته ، بجوارها موقد غازى ، حالته المستديرة متروعة عنه ، أطلع إلى انتظارها . إلى قعدتها فأحن وأحزن ، أحن من حيث أتى غرب عائد ، منى ، وتلك حالة أمومية ، فكل أم بها أعنى ، والأمومة حنو ، والحنو عطف ، وأنا وحيد ، بمعزل عن دهرى ، منى ، فدائما أطلب الوداد وأسعى ، وأحزن من حيث أتى جمال فتلك لحظات أراها وأطوف بمشارفها وليس لى من الأمر شيء ، بل إني مدرك ابتلاى بالفرقة .

أراها تخرج إلى السطح ، ترى أفق الدنيا ، المباني البعيدة المرتفعة ، الأطراف ، الحدود ، لانهائية الفراغ ، أصوات المدينة المندغمة الغامضة ، في نقطة مأسى أحمد ، يجرى على رزقه ، هذا ألق النهار عند اشتداد القيط ، وحومان أسراب الطير ، ورمادية الأيام الشتوية ، سحب فوقه سحب ، وقوس قزح واضح بعد انتهاء المطر ، وشفق وغسق والليل وماوسق . في النهار ضوء وأنس وعزلة ، تدخل وتخرج من الغرفة ، تنثر ثوبا على حبل الغسيل ، تتوقف فجأة تنظر إلى جهة من هذه الجهات التى لا تبديل ، ترى .. أى منها يؤدي إلى جهينة ؟ ، إلى تجاور النخيل ورسوخ الجذوع ودوران الساقية ، وملمس الطحين ، ورائحة الفرن بعد الخبز ، وملمس اللوم الجاف ، وصوت نزول القمح إذ يتدقق من فتحة الصومعة السفلى ، ومذاق الخبز بعد نضجه وغمسه في اللبن الرائب ، وصوت سعف النخيل ، ودقق النقط الأولى من اللبن في الوعاء الفخارى ، أى جهة أى ؟ .

في هذه اللحظة بعينها ، كيف تتحرك الأم ؟ أين ، إلى أى جهة ؟ ومحمد « شقيقها » في أى سوق يتسبب ؟ ، الإثنين سوق تزة ، الأربعاء سوق جهينة ،

السبت سوق الطليحات ، وهذا أبعد مسافة وأنأى ، فى الأحد ربما يمشى إلى طهطا ، والثلاثاء قد يذهب إلى سوق سوهاج الكبير ، أى جهة تؤدي ؟ فى الليل يوحش السطح ، تغلق الباب وتقعده خلفه لو تأخر أحمد ، تصفى إلى الهمسة ، ومرور الرياح ، وماترى أنه غريب لم تألفه ، عبر النافذة تبدو أضواء المدينة ، حمراء زرقاء ، بعضها يطفأ ويضاء بانتظام ، هذا الضوء الدائرى فوق عمارة غمرة المرتفعة ، قال أحمد إنه قريب من بيت البك ، إلى هذه الجهة ذهب كمال ، منها بدأ نزوله ، بدأ غروب حظه .

فى الليل تتوقع الأذى ، لا تقدر على الخروج وحيدة إلى دورة المياه ، إنها منفصلة ، عندما جاءت كان بابها محطاً ، مباح داخلها للنظر ، ولأن تكاليف باب خشبي جديد لا يقدر عليه أحمد . ولأن الساكن يجب أن يقوم بإصلاح ماتلف ، اكتفى بإسدال جوال سميك من الخيش ليفصل ويحدد ويحوش البصر عن العورة الخروج إليها فى الليل أو عند الفجر فيه محاذير ، ظلام الدورة ، احتمال اختباء دابة مؤذية ، أو تطفل متسلل غريب ، إذ يتأخر أحمد لا يمكنها الخروج ، فى الليل العميق لو اضطرتها الحاجة فإنه يصحبها ، ويقف منتظراً فراغها ، بينما البرد صرصر ، برغم هذا كله يهون ماتلقاه ، فى بيت أم هدهد كانت دورة المياه معتمة فى نهاية الفناء ، منعزلة عن الغرفة ، يمكن لأى عابر غريب أن يندس ، وبرغم خوفها إلا أنها كانت راضية هناك ، فالدورة تخصها ، لم تنأ بعد أيام تلطمها على بيوت الأقارب وأهالى البلدة ، أورثتها مواجع شتى ، ليتها لاترجع ، ليتها لاتعود ، إنها تقعد أمام الحجرة قرب السلم ، الضوء لا يمكننى تحديد انتماؤه ، لا أدري إلى أى وقت من النهار ، ترقب زحف طفل صغير ، يجبو ، يرتدى جلباباً بنى اللون ، يتلى من عنقه خيط يحمل حجاباً يحوى التعاويذ والأدعية المنجية ، من ؟ من الطفل ؟ أهو كمال ؟ أين

أصلى إذن ؟ أقصد .. أين أنا ؟ أيكون هذا أنا ؟ مامن علامة دلت ، الملامح لا ترشدينى ، فستان مابين ملامح تحمل أزمته ، وملامح لم تزل بعد غضة .
الأم وحيدة ، مامن جليس ، مامن محاور ، الأب لم يرجع بعد .. إذن ، الوقت قبل العصر ، ربما تأخر عن مواعده ، لكنها فى انتظار عودته بالغذاء ، مامن طعام فى البيت ، فقط رغيى من بقايا الإفطار وقطعة جبن حالوم وبصلات ، أما آخر ماتبقى من البلح الذى أرسلته والدتها فقد نفذ منذ أيام ، حتى لو امتلأ الماعون بالطعام لا يمكنها أن تأكل قبل رجوعه ، أن تأكل بمفردها فهذا مالم تعتده بعد ، أما إذا عاط صغيرها جوعا فتغلى ماتبقى من شأى الصباح ، تبل فيه كسرة خبز ، إنها منتظرة ، صابرة ، ساهمة ، أى صور تعبر ذهنها فى هذا اللحظة ؟ ، أى شرودها ؟ هذا مالم أحط به علما ، هذا مافات أوانه ، هذا مالن يستفسر عنه أحد ، مالايعنى أحدا . مع أنه من أجل المكنون ، تلفها الوحدة ويتغمد بها الصبر ، الأب حذرهما من الاختلاط ببناء البيت ، ألا تدخل عليهن ويدخلن عليها ، قال إن الاختصار عبادة ، قالت له ، لو زارتها الست نعمة امرأة عبده الخلاق سوف تستضيفها ، وتجلس إليها ، وتقدم واجب الضيف ، إنها صاحبة أم هدهد ، إنها السبب فى سكنهم هنا ، هاهى ذى الأم تمسك قشة نخيلة ، تخط بها خطوطا نخيلة فى تراب يكسو بلاطات السطح ، أنها ترقب ظل الجدار الطويل المواجه للغرفة ، إذ يصل إلى الصف الثالث من البلاط تكون عودة أحمد قد دنت ، إذن .. أمكننى تحديد الوقت ، غير أننى انقلبت خاسئا وأنا حسير ، فما أطلع عليه ليس وقتا بعينه ، إنما وقت فى جوهره ، يحتوى أوقاتا متباعدة ، هنا ألممت بالمرات التى زحف فيها هذا الظل ، منذ تكونه وبدئه أول مرة مع إتمام جدار الغرفة الذى هو سبب ظهور صورته ، رأيت حدوده وحوافه وسرعته صيفا وشتاء ، نفذت إلى لب

صلته بجرم كوكب الشمس ، كذا انمحائه عند زوال الغرفة وتهدمها ، أو تحوله
إلى أشكال أخرى ، عرفت أن بقاء في هذا الكون كبقاء هذا الفيئ ، وأن
معاشي في تلك الدنيا كحلول هذه النسمة التي خفت القيظ عن وجه أمي ،
إنما أنا عابر ، مارق ، دائما في الفائت ، محروم من الحاصل ، وهنا انتهت إلى
أن حال الوداد يأفل ، إلى انه يولي ، وأنتى أسرى على مهل إلى حال الوحدة ،
وأن اغترابي يتصل ، فوددت لودام الحال حتى أنتبه إلى مالم أنتبه إليه ، وحتى
أأخذ مما لم آخذ منه ، وأذوق مالم أتذوقه ، وأعرف ما لم أعرفه ، غير أن الألوان
فات ، والحيز انقضى ، وليس لي إلا السعى .

* * *

حَالُ الضُّوْتِ

«وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً
وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ»

(قرآن کرم)

.. إنه السطح ، أتوقف لأتأمل ، يمتد من المشرق إلى المغرب ، حدوده ثلاثة ، حد جهة طلوع الشمس ، وآخر جهة مغربها ، وثالث شمالي ، أما الرابع فوصول بالغرفة ، لاسقف أو غطاء يحجب عن السماء ، في الركن القصي الأيمن عمود خشبي نحيل ، يواجهه في الركن الأيسر عمود توأم ، يصلها سلك نحيل ينحدر عبر المنور ، إنه هوالى المدياع الوحيد في البيت ، تمتلكه الست وجيدة امرأة عم أحمد عمر التاجر ، أحيانا يصل سمع الأم غناء أو أطياف موسيقى ، أنغام شجية نائية تعمق الوحدة ، تقوى الحنين والتوق ، أدنو منها ، لا ظل لي فوجودي هذا لا ينتمي إلى عالم الحس ، تلك أم أصلي ، الذي تلملمت خللاياه وارتوت منها وعاشت بها ، عرف حنوها ورقتها وخوفها وإشفاقها كأمر مفروغ منه ، لم يتبه إليه إلا بعد وصول الفوت ، أنظر إليها في قعدتها الظهيرية هذه ، الآن تنكفي الضجة ، تلملم داخل البيوت ، عودة الرجال اقتربت ، كذا رجوع الأولاد من مدارسهم ، ياسلام .. متى يكبر جمال ويذهب لتلقى العلم ، تنتظر عودته ، وتجلس على مقربة منه أثناء مراجعته الدرس ، تبسم ، إن ما تأمله هو الباعث على هذه الانفراجة في ملامحها ، إذن .. تتعجل الزمن ، تود لو يكبر أصلي ويدب ويسعى ، هذا ما لم يقف عليه أبدا ، تلفها ساعة الظهيرة القاسية

الانتظار ، يبلغ ذروته إذا امتدت ظلال السور وتناولت حتى
ى من السطح ، إن اقتراب العصر ينبئ بالوحشة والقفرة ، وهنا

أُمى مثل انتظارها

ا ، هذا .. دليل ، مديد ، تدور عليه الهية وكأنها الرحي حين
طلب منى ألا أدون اسمه ، فحوته بعد أن كتبت ، لذا شكرنى
خشيت وابتهجت ، أما خشيتى فلفظهوره المفاجئ عندى ،
جوده قربى ، وأيضا لأنه دليل ، ولأن الحوار سيتصل بنا ، مع
إلا من بعيد ، حالت بينه وبينى الحواجز ، فسبحان مغير
ت به لأنه يخاطبني ، ليس بلهجة الأمر ، أو النصيح ، لكن
، بسريره إلى خله وصفيه ، يواصل حديثه إلى بينا الأم فى
من أمرنا شيئا .

الشقوة بعد فقدى أُمى .

نظر :

رحيلها ، كنت بعيدا أطلب العلم ، وعندما رجعت إلى البيت
قلبي بأول حمل ثقيل

.. :

ج روجى بعد فقدتها عظيم مرزوعا

أصلى :

تلك

أما أتوسم حضورها ، أهفو فلا ألقى إلا قبسا ، وعندما صار

الأمر إلى لم يكن يفجر حنني وضيق إلا اطلاعى على شقاء أم .. .
ثم يقول :
« كان بودى أن أدفع الشقاء عنهن أجمعين ولكن الأمر خرج عن
طوعى .. » .
أصبح :
« بمحاصرا كنت ، ومحاصراً لم يزل .. زدنى .. » .
يقول :
« مازال البون شاسعاً .. » .
أقول :
« ألم تحلف لنا رفيق السوء .. ؟ » .
يسطأ أصابعه محذراً بلين :
« لاتلمح إلى ، ولاتذكر مايدل على .. » .
أقول بلوم لاينقى :
« هاعحك الله .. » .
يشير إلى الأم :
« لاتدع لحظة تفلت ، ماتظنه باقيا لن يدوم .. » .

حرك كلامه هذا شجنى وأجج حننى ، وصير ريح ودادى إلى عندى ،
غلب على حالى من حيث أنى جمال ؛ فكان حالى مثل غرب يتحدث أمامى
عن محبوب غال ، فينبعث هذا المحبوب ماثلاً بالنخيل وكأنى أعرفه مرة ، جرى
مثل ذلك لأصل مرارا . حدث أنه كان فى زيارة البلدة التى أول ما لامست
أرضها رأسه ، فى دكان القهوة والشاى قعد ، جاء الأقارب والصحب ، جاء
الشيخ عبد اللطيف ، سأله عن أبيه ، ثم مال قائلاً : خذوا بالكم من أيكم ،

تطلع إليه مستفسرا بصمته . قال : أبوكم تقدم في العمر ، ثم قال : أنتم لا تعرفون مقدار عمره ثم قال : أنا تجاوزت السبعين بعامين .. هل تعرف أن أباك شالتي وأنا ابن عشرة وعدى بي حفيرة المياه قبل البلدة ، ثم قال : ظننت أن الهرم لن يدركه أبدا لحيوته ونشاطه حتى رأته السنة الماضية ، سكت لحظة ، ثم رفع أصبعه : لا يا جمال أبوك تعب ، والكبر بان في عينيه .

هنا اجتاحت أصلى حنين وشوق وشفقة ، حتى ود رؤية والده للتو مع أن المسافة نائية ، قويت عليه الرغبة في القرب حتى شجا ، فحاش الدمع عن الطفر من مقتلته غصبا ، أضمر النية على ضمه عند رؤيته ، على بثه رقيق اللفظ ، أن يهون عليه ما يلاقيه ، أن يرفق به ، أن يصنى إليه مطولا .

أقول أنا المأمور بأن يكون غيره ، أقول وعندى مس من غضب : وهل أنت في حاجة إلى من ينهك يا كليل البصر ؟ ألا تعيش معه ؟ أليس أصلك وأنت فرعه ، أم أن الجذع لا يرى جذره ، والغصن لا ينظر إلى منبته . أهي طبيعة إنسانية ؟ هل نسيت أنا ما يكون عليه البشر ؟ والله لو أن الأمر كذلك فلا بد أن الموضوع فيه نقص ، هل تعرفون ما كان من أمره بعد وصوله إلى البيت ورؤيته أباه ؟ لقد أرجأ وأجل . إن هذا مقيت عندي ، مغاير لخصالى العتيقة التي كنت عليها ، أنتبه إلى دليلي في تلك الأحوال ، يغدق حنوه على أم أصلى .

حدثني فيما بعد ، قال : لم أنس أبدا نظرات من حنت على ، خاصة عند الرحيل أو الوصول ، كذا دخولها الليلي على ليطمئن بالها ، ودعاؤها الصامت لي أثناء غيابي في القاهرة أطلب العلم ، وقعودها صامتة أثناء تناولي الطعام . تغدق على ودا ، ورجاء وخوفا لا يفصح عنه ، وحنان ، ووصايا ، تتقل المعاني ، تتدافع ، فلا تلفظ ، غير أن جوهرها يصل . كل المراد يصل ويبلغ ، فيرق ما بي ، حتى يستعصى ما بيننا على النطق . عندما أطلعني على ذلك قلت :

كانك تكنى عني ، كأنك أتى . هذا حال أصلى ، وما كان بينه وبين أمه ، عند سفره لم يكن يقبلها ولم تكن تقبله ، غير أنها بالنظر تودعه كل ماعندها ، يقول دليلي :

« لا تفارقها في وحدتك ، الزم هذه القعدة .

إن ماتراه لن يدوم .. » .

ينبني إلى ما طمس على ، ألفت ، غير أنه يلمس يدي ، يقول ونظره غريب :

« وصالح نفسك ، ولا تفصل بينك وبين أصلك .. » .

ثم يقول بعد لحظة صمت :

« كل ماسى إليه تسعى إليه ، وكل مانأى عنه ستأى عنه .. » .

هنا لزمتم صمتي ..

فصل ..

عمر الله قلوبكم بالصبر الجميل يا أعزائي ، اعلما أن عهد أصلى بهذه القعدة الأمومية قديم ، إنها تاريخ ، إنها أطوار ، إنها حالات ، إنها علامات في طريق ، وارتباط وثيق بأنغام مندثرة ، ودرجات من الضوء متعاقبة ، ودفقات شعورية ، وتداعيات ، وصور ، وأصول ، وفروع ، وندى ، وشوق ، وغيوث هواطل .

اعلموا أن الجلوس لا يكون إلا لانتظار ، انتظار قدوم ، أو إقلاع ، أو انتظار للفراغ من تعب ونصب ، أقدم موروث أصلى وأعتق ما يعلق بذكريته قعدة أمه تلك ، وسبغها في البيت ، يذكر حركتها الدعوب منذ صحوها ، فلكل حاجته ، ولليوم الجديد تدبير يجب أن تعد له . الظروف عسرة ، والزاد

شحيح ، بعد سعيها مابين الغرفة والسطح تبدأ قعدتها . تصفو وحدتها ، فوق مشية قديمة أو مكنسة من لوف النخيل البنى اللون ، تطوى ساقها ، وهذا وضع يستلزم ميلا خفيفا إلى الأمام ، ميلا ينتهى بإطراقة رأسها ، تنظر إلى ما يصعب تحديده ، تحلق إلى بلاط السلم ، درجاته ، إلى السور ، إلى عمامات عابرة ، إلى حداة محلقة ، غير أنها تنظر إلى ما وراء هذا كله . إلى ما يستحيل تعيينه ، فى عينيها معان غير مقيمة ، عابرة ، فيها الوداعة والرقائق الوعر اجتماعها ، وظل عتاب على أمر مجهول .

هذه نظرات أوغلت فى حشا أصلى وتمكنت ، وحركت عليه - عند استعادتها- هبوب الحنين، حار دائما فى إستكانتها تلك ، فى هجومها إلى ذاتها الساعات الطوال ، عمرها كله تستيقظ قبل الجميع ، تماما كأهمها التى لم ترها نائمة قط ، ردد جمال دائما، إنه لم يرها مغمضة العينين أبدا، حتى بعد اتساع المسكن ، وانفراده بغرفة ، فإذا كانت مستغرقة فى الحجرة المجاورة وفتح هو عينيه تستيقظ لتوها وتحديث سعة ، أو تلفظ كلمة تنادى بها نفسها « يا بوريا » أو « يا أنا » ، وهى تنبئ من سكنوا رحمها وتكونوا فيه أنها متبهة ، مستيقظة ، فله الأمر من قبل ومن بعد .

أول ماتعنى به فى يومها أن توقد نارا ، صوت دفعها الكباس أول ما يسمع ، تعد الشاى بسرعة ، وقت الأب ضيق ، أقل هفوة ستفقده مصدر رزقة ، وقد عاش زمنا لا يعبأ ، أما بعد مجيئها إلى مصر ، بعد مجيء خلف ابنها البكر ثم كمال ، ثم جمال ، جمال من حلت فى كينونته ، أصبح الأمر خلاف الأمر ، إنه مرغم على المسايرة ، على الخضوع والمسايرة ، استمر ذلك حتى زمن ابن عبد الناصر الذى أمّن المهضومين ، وحمى لقمة العيش ، الوالد يشرب كوب الشاى ، يلف ماتبقى من خبز ، وقطعة جبن ، أو حلوى طحينية ،

ماتيسر ، لا وقت للإفطار في البيت ، يحرص على التزول مبكرا ، يمر بضريرح الشهيد ، فإذا سمح الوقت ركع وصلى وطلب الصفح الجميل ، أما إذا ضاق تلا الفاتحة وأضر العنر وطلب الاستجابة ، يبدأ المشي من ميدان الحسين إلى الدق ، يوفر ثمن تذكرة الترام ، بعد انصرافه تقوم إلى البيت تكس ما تجمع من غبار ، بعد استيقاظ الصغار ترتب الفراش ، حشية كانت فوق الأرض ، أو سريرا أو أسرة ، تملأ صفيحة مياه تموطا وحذرا من انقطاع المياه ، السطح مرتفع ، عندما يفتح الجيران صناييرهم تشع ، تصفر المواسير الرمادية ، إذ تفرغ وتطمئن إلى أنها لم تسه عن شيء ، تغير جلبابها ، تعصب رأسها بمنديل أبيض حف بدوائر زرقاء ، عندئذ تبدأ خلوتها تلك .

في جهينة كانت تقعد تنتظر أخبار أحمد ، بعد عقد قرانها تبدل حالها ، أصبحت ضيفة ، والضيف لابد أن يرحل ، وإلا صار بقاؤه ثقila ، تسأل نفسها دائما ، متى سيجيء ؟ متى سيصحبها إلى بيتها ؟ أما قعدتها في بيت الشيخ فيصى فانتظارا لعودته ، ولحشيتها ونحجلها من الحركة في بيت لاتعرف من حجراته إلا ركنا قصيا استضافها الطييون فيه . في غرفة « جوش قدم » مضت عليها ساعات بلىء انقضاؤها ، هنا فوق السطح تشم الهواء ، تغمرها الشمس في الشتاء ، في الصيف تعبر النسمات السطح الفسيح فتطيب القعدة مع أحمد ، أحيانا تمدد الولد فوق وسادة وتجلس بعد أن تدلك جلده بقشر البطيخ ومعالجة لحمو النيل ، ترقب كل ظل يتحرك حول وليدها خوفا من شر العقرب ودابة الأرض .

أقول أنا صورة جمال الراحل ، المبدد ، الموزع ، إن هذا السطح موقوت ، سيزول يوما ، فاثمة بناء يبقى أبدا ، حتى مانظنه متجاوزا للدهور ، فالأمر نسبي ، والأجل مقدر ، هذا الفراغ الذي يشغله وجودها الحسى سيصير معلقا ،

أو يشغله جزء من بناء آخر يقوم ثم يندثر . أرى الأثر الخفى الذى لا يمكن لعين تطلع عليه أو ترقبه ، أرى لحظة يندثر فيها مالا يمكن رؤيته ، الزمن ذاته ، فيولى الباطن بعد زوال الظاهر يتلاشى كل ما خلفته قعدة الأم ، كما تبددت بقايا من أمت إليهم ، من أمضيت معهم مدة وجودى الأول ، مامن أحد فى غربى هذه يمكنه الإشارة إلى حيث كانوا ، وسعوا ، وأقاموا ، نسى أمرهم بالكلية .

عند هذا الحد أقف على دافع من دوافع هجاج أصلى ، أراد المسكين أن يدرك مالا يدرك ، أن يلحق مالا يمكن اللحاق به ، حتى إذا أوشك على إدراك الكنه ، ولس مشارف الجواهر ، صدر الأمر ونزلت به وبى العقوبة ، تبدد وذرى ، إني مشفق عليه ، متفهم لحاله حتى وددت لو مثل أمامى فأحاوره ويحاورنى ، مع أنه أنا وأنا هو ، فما أصعب ألا يكون الإنسان ذاته ، لكننى مالى دهش ؟ ألا ينطق الإنسان جميع الأسماء علما اسمه هو فإنه ينادى به ١٩

أطيل النظر ، أتعلق بذلك الفراغ الذى كانت تشغله ، هنا أصغت إلى أصوات شتى ، مقطوعاء .. اصطفاق باب ، نداء بائع ، تنف من محاوره ، أصداء مبهمه ، ولأنها تناغى طفلا لا يقدر على النطق . فليس أمامها إلا أن تصغى ، من حركة الظل فوق البلاط المربع يمكنها أن تعرف موعد اقتراب بائع البصل ، أو من يدعو إلى مبادلة الملابس القديمة بالأواني الزجاجية والأوعية ، مع كل نداء تتذكر أن البيت بحاجة إلى شيء من هذا ، تنقص أكواب ، براد الشاى تقشر طلاؤه ، الثوم قارب على النفاد وشهور تقصه من الأسواق تدنو ، لكن .. القدرة منعلة ، والحمد لصاحب الحمد أن لديهم مايسد الأفواه ويغرس جوع البطن ، أمها لاتدعها ، مع كل قادم إلى القاهرة يمت إليهم بصلة ترسل علبه سمن ، أو جوال طحين ، وحمامات ، أو أوزة مذبوحه ، وماتيسر من البلح والأرغفة ، حتى لو قبضت على نقود وقاض القرش عن حاجتها ، كيف

ستزل الطوابق الخمسة ، لم تكن قد عرفت زمن البيع والشراء بعد ، لن يطول بها الأمد ، فسعيها أوانه قريب ، هذا ما أحطت به علما .

إنها الآن وحيدة .. مرات قليلة نزلت فيها الدرج بمفردها ، فقط عرجت على شقة نعيمة الممرضة صاحبة ابنة أم هدهد ، لابد أن تمر بشقة السيدة فوقية ، تبادلها التحية ولا تخالطها ، تعتذر بحجج شتى حتى لاتتلى دعوتها لشرب كوب شاي عندها . قال أحمد إنها عملت راقصة ، وأن رجلا أغرابا يزورونها ، وأنها ادخرت أربعائة جنيه من المال الحرام . وأنها تقرض النساء بالفايز ، إن تجنبا أفضل ، إذ تراها ، تأخذها رجفة ، تذكر مجيء الغوازي إلى جهينة ، اللاتي يغوين الرجال ، ويخطفن الصغار ، البيوت تغلق أبوابها عند وصولهن ، والأولاد لا يسمح لهم الأهل بالخروج حتى ابتعادهن . لن تختلط بفوقية ، أما صعود نساء البيت إلى السطح فأمر تم حسمه ، بعد سكناهم بأيام معدودات ، طلعت ثريا ابنة ساكن الطابق الأول تحمل سجادة قديمة لنشرها فوق جدران السطح . أحمد غضب ، رمى السجادة فوق السلم . زعق معلنا أن السطح من حق ساكنه لاغير ، ولن يصعد إليه غريب ، خرجت السيدة اوجيدة وصاحت مهددة ، متوعدة ، وسمعتها الأم تقول إنها قريبة لوزير الهوين في حكومة الوفد ، جاوبها أحمد بقوله إنه لايمه تهديدها وأن وزيرها هذا لا يضر ولا ينفع تهددته وتوعده . وأكدت أنها ستقطع عيشه من وزارة الزراعة ، فسخر قائلا إنه قطع رجلها بالفعل من السطح ، أرجف الأمر الأم ، حاولت تهدئه رجلها وتهوين الأمر ، أن تعود به إلى الغرفة ، غير أنه طمأنها ، إنه يعرف ناس مصر ، لو سكت أول مرة سيطلعون إلى السطح في كل حين ، يكذبون عليهم عيشهم ، ويحرقون عوراتهم ، بعد حين استقر الأمر ، وخلال الأيام التالية التقى أحمد بزوج السيدة وجيدة ، وتعاتبا ، عرف أنه من طهطا ، البلدة

المجاورة لجهينة ، أى صدفة طيبة ، غير أن الأصول أصول ، واستقر الأمر ..
لكن إلى حين ، وهل يدوم شيء أبداً ؟.

إنها تصفى إلى نغمات سبحات مصدرها مذياع السيدة وجيدة ، تدرکہا فى
محملها ، تعرف الآن بعد طول مدة أن لكل فترة من النهار موسيقاها وأغانيا فى
الصباح النهارى ، مع خروج الخلق ، إلى أرزاقهم ، يتموج صوت أم كلثوم
فضائيا كونيا كترقرق الضوء على أطياف مذهبة ، تتشد لصباح الخير ، تمنى
النفس بقاء الحبيب باكر ، أغنيتان ترددتا على البعد ، لونتنا بداية النهارات ،
ورقرقتا أيامها ، وقد انتقل ذلك إلى أصلى ، بقی معه هذا التأثير ، أهو موروث
أو كسبى ؟ لا أقدر على الجزم . على التحديد . لكننى لم بأصباح شتى عاشها فى
موطنه ، وفى مدن غربة . ومنها حدائق تعد من علامات هذا الكوكب ، غير أن
النهار لم يكن ليشرق فى صبح نفسه ، إلا عند سماع هاتين الأغنيتين ، وأضاف
إليهما صوت مغنية عرفها صبياً ثم فتياً ، قدّ صوتها من ضوء سلسبيلى نجومى ،
ليلى مراد ، إذ يستمع إليها يمشى فى الأرض مرحاً ويبسطها كل البسط ، ليلى
مراد عرفتها الأم فى لحظات الظهيرة ، قبل النغم الذى يسبق نشرة الأخبار والمبشر
بقرب انتهاء وحدتها بعد عودة أحمد ، فى بيت الشيخ قيصى كانوا يفتحون
المذياع الذى يتصدر صالة البيت ذات ظهيرة نائية ، ظهيرة يوم لا يمكن تعيينه
الآن عندى أو عندها ، أصغت إلى نغم شجى لغ فى قلبها فس الجانب الغائم من
شغاف القلب ، صوت يغنى كأنه الالتهاته الحسرى المصاحبة لبدء الرحيل ، أو
الحسرة المصاحبة لظلمة القلب عند الايفال فى البعد ..

على بلد المحبوب ودينى

زاد وجدى والبعد كاوينى

مس الغناء أغوار روحها وأقصى لحظات غربتها ، كأنها التقت بيوم تاه منها

عند منبع الغسق ، كأنها لحت عزيزا ، غائبا عند حد الأفق فهتت لتدركه لكن أعجزها الأمر فبمقدار قربها يكون ابتعاده ، كأن أشواقها ترحم الفراغ الفاصل بينها وبين جهينة ، رفيف لا يرى ، وترجيح لا يدرك بالحس لم تلقه من قبل إلا عند إصغائها زمن طفولتها إلى مديح والدها لخير البرية ، سيد ولد آدم ، رد الله غربة أبيها وأمن رحلته ، تطيل الإصغاء إلى كل نغم قادم من بعيد ، عليها تتقصى شواردها ، بعد إصغائها خشيت ألا تسمعها مرة ثانية ، أوحشت أيامها التالية بدونها ، تباعد الأمر ، حتى دنت منها لحظة أثناء عبورها الطريق المؤدى إلى ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، لم تدر مصدر انبعاثها أو المدياع الذى ييئها ، أو الفونغراف الذى يرددها ، هكذا جاءت إلى سمعها عبر النواصى والمنحنيات القديمة والمقاهى العامرة التى تمد الخطى أمامها اتقاء لنظرات الجالسين ، ودت لو تطلب من أحمد التمهّل ، لكن كيف تطلب ذلك ؟ أتقف بين الرائح والغادى لتستمع إلى أغنية ؟ أرهفت السمع بينما النغمات تتسل منها وتناى ، وكلا وهنت تمكنت من خباياها ، هنا فوق السطح تستعيدنها ، تتمم بها خفوتها ومجاهرة ، غناؤها لا يبدأ إلا إذا تمت وحدتها وابتعد الشريك ، هذا النغم صاحبها إلى آخر الحد المقدر لها ، فسبحان من له الدوام ، إذ أنطلقت فيها هذه الأنغام ما يصعب على اللسان النطق به ، وولدت عندها معانى لا يمكن التعبير عنها أو تعيين آثارها . كلما أحييت أوقاتا مواتا ، وسقت لحظات جفت ونضبت .

أقول أنا صورة جمال ابنها وقد اطلعت منها على دمع جرى ، إذ تشدها مستعيدة أيامها الغوارب - أقول : يا من نظمت لك المنة ، يا من شدوت فأثرت الراسيات الكوامن ، يا من أبدعتم هذه الأنغام ، لكم السلام من شفق ، مبدد ، أنوب عنه ، ولد هذه البنية التى أراها فى زمن فتوتها ،

وخضرة غضاضتها ، هذه الأغنية سلوتها . وباعثة حينها حيثما كانت أو تولت ، إلى جهينة ذات الورد والنخيل والظلال والطفولة الضائعة ، عند هذا الموضع ، قرب حافة السلم ، تشعر أنها نائية ، أنها قصة عن البيت القديم . عن روائح شتى تتفجر عند لحظة غير متوقعة ، أو عند انحناء النغم إلى منحرج يتصل فيه الحنين بالحزن العميق ، تلك رائحة الأرغفة بعد تحمرها في الشمس ، وهذه أطيايف من رائحة الدوم العتيق ، والقمح في صوامع الطين ، والروث الذي جف ، والبوص ، كذا وقود القرن ، واللبن الرائب في أواني الفخارية ، والطماطم المترعة لتوها من جذورها ذات القشرة الصلبة الناعمة ، رائحة ثياب أمها ، غير حضورها ، عند حافة السلم تلك تستعيد إيقاع اليوم في جهينة ، تقرن ما يجري هنا بما يقع هناك ، تصنع إلى آذان الظهر ينبعث من فوق المآذن القرية القصية ، ترى أمها تجلس أمام القرن ، شقيقها في السوق ، اقتراب الليل وتلملم الأحباب ، والأصوات المسائية الغامضة .

هذه القعدة يا إخواني تتر باللحظات المولية ، تتزف توقا إلى الأيام الغاربة ، ماحير أصلى تبدل مشاعرها في السنين التالية ، كان يشب عنده حين إلى جهينة فيعلن عزمه السفر ، عندئذ تقطب ملاحمها ، تلوح بيدها « لا تروح ولا تجيء ... ماذا يعجبك في جهينة ؟ » . ماذا بدد أو أفنى ؟ أهو رحيل أمها عن دنيانا ؟ أضييقها بفضول النساء ؟ أم أنه جفاء يخفى رقة لا يمكنها الإعلان عنها ، أم خوفها على أصلى من الحسد ؟ هذا ما حير أصلى زمنا ، غير أنه لم يشرع في التقصى إلا بعد فوات الأوان وانتهاء الأجل ، فخذوا العبرة ، لا ترجثوا ولا تتقاعسوا ! . كم وددت أن أفيض وأفضل ، لكن هذا ليس بالأوان المناسب ، ذلك أتى مشغول بقلعتها تلك ، بانفرادها ، بوحدتها ، وقد عرفت قعدات أطول في خريفها وقرب شتاتها الذي لم يدم

طويلا ، بعد بدء تساقط زهراتها /وشح فروعها وانعدام ثمارها ، من ذلك انتظارها الطويل بعد أسرجال - أسرى - وسجنه - سجنى - وإنى والله لحدثكم عنه

بدء الغمة

هذا مكان آخر ، مسكن مختلف فى الحارة ذاتها ، فالزمن متقدم عن الوصل السابق ، حجرتان ضيقتان يصلها ممر صغير يؤدي إلى دورة مياه وزاوية صغيرة فيها الموقد وآنية المطبخ . الأم تنام فى الممر ويجوارها الابنة ، من هى شقيقى فى هذا الوجود ، أصلى ينام فوق سرير خشبى عتيق إلى جواره منضدة من خشب رقيق ، مثقلة بكتب شتى ، منذ أيام مضت هو فى كرب ، إذ اعتقل صاحب له كان فى ذلك الحين عنده بمثابة الشيخ لمريده ، كان هاديا له ومرشدا ودليلا أثناء خروجه من زمن جاهليته ، اسمه صلاح ، إلا أن أمرهما لم يتصل شأن أمور شتى لا تتم وأحوال تنقضى وطرق تكون صالحة للسير ثم تصبح غير معبدة ، صار الود إلى جفوة ، ولو أن مخلوقا اطلع على حزن أصلى وروعه وألمه عند تلقيه نبأ صاحبه لما ظن أن الصلة ستخرب يوما ، لكنه الإنسان ، كل يوم فى شأن ، وهذا أمر يطول شرحه وتفصيله فلننثن عنه خشية التيه والضلالة عما نحن فيه . أما الآن فإنى مراقب لهدوء البيت الللى ، أنفاس النيام مسموعة ، كم الوقت ؟ ربما الثالثة والنصف أو الرابعة ، تتردد طرقات بغیضة ، صداها أمر ، ثقیل ، مقتحم ، لا يرتدع ، الأم فى الصلاة تقف متسعة العينين ، بها رجفة ، هذا قدر لم تعد له العدة ، يخرج الأب من الغرفة الأخرى ..

« من ؟ » .

فيجيبه مدامم الليل والدعة ، مفرق الجماعة ، مبدد الألفة ، يلفظ اسمه مقرونا برتبة الرائد ، وإتنى لمساائل هنا كما يتسامل أصلى ، لماذا يقومون بذلك فى عمق الليل دائما؟ أيستعصى عليهم ذلك نهرا، إلا أنهم يزرعون الخوف وييشونه فيقلب عليهم بعض منه ، أئخشونه وهو أعزل وحيد فى مواجهة هذا البنيان كله من ترتيب وتدريب وتلقى محاضرات وتعليمات ورصد وتراكم خبرة فوق خبرة . لماذا يمحشون دائما فى الليل ، لماذا النصف الثانى منه دائما ؟ .

حيرنى ذلك ، لما فزع أصلى فزعت ، ولما انتبه انتهت ، ولما نظر إلى أبيه الحائر نظرت ، ولما أصغى إلى أمه تقول « لا تفتح » أصغيت ، أجبت بمثل ما أجاب ، « لا يا أمى » . جمال ما هو إلا أنا ، والقبض عليه قبض على ، محتته هنا محنتى ، لذا فتحت الباب عندما فتحه هو ، رأيت كما رأى ضابطا يرتدى ملابس مدنية ، وهذا أدعى للخشية والحذر وراه ثلاثة جنود ثيابهم أيضا عادية ، أوما لأحدهم كى يبقى أمام الباب ، انجه الآخر إلى الغرفة التى كان يأوى إليها الوالد والشقيق الأصغر على ، أما الثالث فتبعه ، داخل الحجرة على يقف صامتا ، كأنما رجفة قلبه ، تلك لحظة ستعمل عملها فيما بعد وتترك جراحا وندوبا صعب اندماها ، ليته نطق ، ليته بكى ، إنما بقى جامدا ، شاخصا ، يرقب المخبر إذ يقلب الوسادة ينبش الأغطية ، مكان رقاد الأب منخفض يشع دفأ جسده ، المخبر ينتهك موضع الرقدة ، يلج الضابط عمق البيت ، لا يصبح للجدران معنى ، تفقد الأبواب دلالاتها ووظائفها ، وتنبش الأسرار التى تنطوى عليها الأدراج ، يتبدد الستر، لم يفت الأم أن تلف ابنتها بملاءة السرير فجلبابها قصير منحسر وذراعاها عاريتان ، يتجه الضابط إلى صوان قديم متين اشتراه أصلى من صاحب له ودفع ثمنا له أربعة جنيهات ، صف فيه كتبه وأوراقه ، يرمى الضابط بكل ما تعهده أصلى ورعاه وسفح البصر على أوراقه وسطوره ،

يدوسه بجذاء بنى اللون ، مدبب المقدمة ، يكومه ، يبدو جمال متضايقا ،
يستدعى إلى وعيه نصيحة مجرب قديم ممن عرفهم إذ قال على مسمع منه يوما ،
لا تحف لا تجبن وجادله ولا تسكت عما يفعل . يلفظ عبارة سمع نصها من
صاحب مر بمثل ما يمر به .

«إننى أحتج ..» .

ثم قال ما لم يسمع أن غيره قاله :

«إنك تلتف أوراقى وكفى ..» .

أرقب أصلى ، الحق أنه غير هياب ، غير وجل ، عجيب أمره - أى أمرى -
إذ عاش أياما طويلة يرتجف كلما تخيل هذه اللحظات ، يحار .. كيف سيقابلها ،
كيف سيتصرف إزاءها ؟ كيف سيواجه وطأتها ، غير أنه الآن وقد حل بها وحلت
به راسخ لا يميل ولا يخشى ، حريص ألا ينحنى ، متأهب ، مستفر لرد الإهانة ،
ألا يضطرب أمام أمه وأبيه وأخته . حتى إذا انقطع عهده بهم ، وحالت بينهم
وبينه الأسوار والأبواب المغاليت ، أو انقضى أجله تحت وطأة تعذيب أو نتيجة
قصد مبيت ، ذكروه ذكرا جميلا ، وحق لهم التباهى بآخر صورة رأوه عليها وهو
يتأهب للذهاب إلى المجهول ، عندئذ لن نخجلهم سيرته ، سيقولون إنه لم يهن ولم
ينثن ، وأنه مضى رجلا .

ما زال الضابط يتقى بعض الكتب والأوراق ، كل ما هو مخطوط .

«هذه مذكراتى الشخصية .. لماذا تأخذها ؟» .

يتطلع إليه وعلى ملامحه سخرية المقتدر ..

«تجركاتك وأفكارك ..» .

يكظم بغضه ، يقهر ضيقه ، هذه الكراسى ذات الغلاف الأحمر تحوى
المكنون الذى تصور أن مخلوقا لن يفرضه ، اللحظات التى رأى فيها سعاد ، أو

أصغى إلى صوتها ، ما تردد في خاطره ، كذلك صورة عثر عليها في مجلة أجنبية لفنانة تشبها إلى حد كبير ، فقصصها ، واحتفظ بها بين دفتي هذه الكراسة ، في أيامه التالية ، في سجنه الانفرادى بالقلعة ، في سراحته ، في سفراته إلى المدن القصية ، في لحظات تواجده بين جمع وصحبة ، يضيق حنقا كلما تذكر أن عيونا غريبة تفرست مسطوره ، اطلعت على خباياها ، ما سطره ، بعد سنوات عديدة لم يكف عن التساؤل ، أين مستقرها ، إلام آلت ؟ ، ليس دفتر خواتمه فقط إنما مراسلات الصحب ، وكافة ما التقط له من صور حتى هذا العمر الطفولة ، المدرسة ، الرحلات إلى الأماكن الخلوية مع الصحب ، صور الزملاء المهداة في نهاية الأعوام الدراسية ، يمسكها الضابط ويلقي بها إلى ما يعتبره مضبوطات ذات شأن خطير ، إنه لا يضيّع صوراً إنما يبدد لحظات أمكن تثبيت ملامحها ، من الصبا المزهري ، من بداية غضاضته ، يعتقل الأزمنة الآمنة واللحظات المؤدية ، والمشاعر التي كان يمكن أن تولد عند الانفراد والنظر إلى هذه الرسوم ، يبدد تاريخاً بأكمله إلى الأبد ، فما أخذه لا يمكن استعادته .

حدث بعد أن نقلوا أصلى إلى سجن القلعة ، وصار اسمه رقماً ، إذ يدخل عليه الحارس وهو مخبر يرتدى أيضا الملابس المدنية ، يصبح به :

«جذ يا أربعة وثلاثين ..» ، «تعال يا أربعة وثلاثين» ، قضى شهراً وعدة من أيام آخر ينادى كرقم مجرداً من كل هوية ، كانوا يخرجونه مرتين ، في الصباح ، وفي المساء لقضاء حاجته ، ومرة عند نهاية كل أسبوع إلى حمام قديم ، أنابيب المياه المؤدية إليه تمر بفنر عجيب ، وعندما ترعوا العصابة السوداء عن عينيه رأى مخبراً غامق السمرة يمسك بعضاً في يد ، ويتناول أوراقاً وكتباً بيده الأخرى يطعم بها النيران التي تتز وتضطرم ، أوراق وكتب ملح بعضاً من

عناوينها ، مضبوطات تم اعتقالها ، هذه لحظة بقيت عنده حية شائكة حتى بدء معراجها من فاس المغربية ، وانتقلت إلى بحكم الورث ، فأنا وارث لها وساع بها ، ومن جزئياتها هذا الغلاف ، «الآمالى» للقالى ، لحظة تناوله وتطويحه إلى اللهب ، لا بد أنهم طوحوا بكراسته هكذا ، بعد إشباعها فضولا وفحسا ، كان أصلى ضنينا بكل ما خطت يده . لا يفرط فيه إلا لأمر قسرى ، ولكن فى هذه الليلة تبتد ما تبتد ، فيا أيها الإنسان ما أظلمك ، ما أضلك ، لقد حفر هذا فى نفس أصلى آثارا شتى ، فما من سطور كتبها فيها بعد إلا ظن أن غربيا سيغتصبها قسرا ، وما من كتابة شرع فيها إلا ظن أنها لن تكتمل ، وما من رقم هاتف دونته إلا ظن أنه مساعل عنه يوما ، وما من خطاب وصله إلا خمن أنه قرئ قبله ، هذا كله صار عندى ، صعب على تحمله ، فالى أنوء ، وماذا جنيت حتى يحل بى ذلك ؟ ، أقول هذا وأنا أعطف على أصلى ، مشفق عليه ، أدرك كم عانى ، وكم أخفى ؟ ، هذا حق .

إنى محقق ، محيط بهذا الضابط إذ يفرز ويتفحص مكتون الصوان ، حقدى يتأجج ، لكم وددت الاطلاع على الصور القديمة لأرى ملامح أصلى فى الأزمنة المولية ، ملامحه أى ملامحى ، وقفته بفناء مدرسة عبد الرحمن كنتخذا الابتدائية ، مدرسة محمد على ، مدرسة السلحدار ، فى حدائق الحيوانات ، القناطر الخيرية ، مقابر الأقصر ، وادى الملوك ، الملكات ، قبة سيدى أبوالهواء فى أسوان ، تلك الوقفة عند دير الأنبا سمعان ، وهذا التسلق للمرتفع الصخرى المؤدى إلى مدينة هابو ، أما الصورة التى تسجل وقفته بجوار أمه وأبيه وأخوته الثلاثة فى حديقة الحرية فشأنها فريد ، لا أعرف صورة للأُم قبل هذه السن ، لم يحدث فى طفولتها أو فتوتها أن وقفت أمام آلة تصوير حتى هذه اللحظة ، من ذلك اليوم المجهول فى شهر يوليو عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين . كيف

كانت ملاحظتها قبل هذا التاريخ؟ ، هذا ما لا يمكن معرفته ، مالا أقدر ومالم يقدر أصل الإطلاع عليه . كيف كانت تبدو عند هذه الفترة ؟ كيف كانت ترى قبلها ؟ . يعرف قبسا من ذلك بعض ممن عايشوها وعرفوها في الطفولة وزمن الصبا ، لكن .. أنى لهم الذكرى وقد أوغلت الأعمار في التقدم ، وبعضها يدنو من المحط الأخير لحظة تدويني هذا ، مهما بلغت الرؤية ، ودقة الوصف ، وقدرة اللفظ ، محال .. فما تبقى في خزانة كل فؤاد سره لاسر غيره ، فوداعا ملامح الأم التي غيبها الزمن ، طواها ، وداعا هذه الصورة التي لامت حتفها على يدى هذا الضابط ، فبددها وضعيها وهو جاهل بما بدد ، بما ضيع ، لعنه الله في حله وترحاله ، ومرر عليه لقمته ، وأوجع قلبه كما أوجع قلبي ، وأورثه الحسرة على موروثه وصوره التي كانت ، رحل أصلى وهو غير مسامح ، كاظم سخطة ، وأنى غير مغتفر ما كان منه أبدا ، أضاع ملامح الغالية ، شوهت ملامحه وطمست في الدنيا والآخرة ، في الحضور والغياب ، كان يمكن لى التطلع في خلواتى إلى هذه الصورة ، فأرى الكريمة ، الصبورة ، فأطلع على ما كانت عليه قبل تسعة وعشرين عاما من سفرها الأبدى ، سفرها الذى حضرته وشهدته ، واكتويت به ، وعند تمامه جرى صلحى على نفسى والتامى بأصلى كان يمكن أن أرى ملامح الأب ، وطفولة الأخوة ، وتقاسيم ، وتعابير ونظرات شتى يا حزنى .. فَنهى هذا كله وتبدد ، ليس عندى إلا صور قليلة ، متناثرة ، متباعدة للوالد قبل تمامه ، كلنا الوالدة .

حدث يا صحبى الأغراب عنى ، يا من لن تدركوا أصلى قط ، يا من لن تسبروا أغوارى أنا ، ولن تطلعوا على المنابع التى جثت منها ، حدث بعد رحيل الكريم ، أن اصطحب أصلى شقيقه إسماعيل إلى وزارة الزراعة ، ولبناها عنده منزلة ومعزة ، فن كدح الوالد فيه ، ومن نزه العرق فى جنباته ، ومن كتبانه

قهره إزاء عسف رؤسائه ، من احتماله الضيم وبذله رحيق العمر وخلصته بين جذرانه ، من كده هنا أمكنه تقويمها وتجنّبها مأشقا وكدره وحد من آماله وأن يحصل ما سافاته ، ذهبها معا لترتيب إجراءات صرف معاشه ، عند اقترابها من الممر الذى كان الوالد الكريم يقضى فيه جل أوقاته ، إختلج أصلى وطحا قلبه ، جاء إليه من زاملوا الراحل عمرا لتعزيتة ، ثم جاء موظف قديم بملف ضخّم ، أوراق متراكمة لكل منها مناسبة ولحظة زمنية . قلب وتحمّس ، لمح صورة صغيرة ، حال لونها وأصفر ، ترجع إلى عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف ، عام مجيء الشقيق إسماعيل إلى هذه الحياة الدنيا هذا وجه الأب ، إنه دهش ، متطرّشا ما . تعب ، حنين حزن لا يطل من العينين إنما يحيط بهما ، كم عمره لحظة التقاطها ؟ لم يكن له تاريخ ميلاد معروف أو محدد تاريخ مجيئه إلى الدنيا مجهول ، أما تاريخ خروجه منها فثابت مدون ! .

في هذا العام الثانى أحالوه إلى طبيب حكومى لتحديد عمره حتى يمكن تدوينه فى تلك الأوراق الرسمية ، أصغى الطبيب إلى القلب فلقى عفا ، سليما ، تفحص ونظر ، ثم حدد وقطع ، إنه فى الثلاثين ، وطبقا لروايات القوم من أهل جهينة ، خاصة المعمرين منهم ، فإن الوالد فى هذه السنة تجاوز الخمسين وربما أكثر ، ما وثقت منه أن الطبيب لم ينظر إلى ما يحف العينين ، لو أنه رأى تلك الظلال الخفية ، لو أنه رأى عمر هذا الحنين الضارب فى الحدقتين ، إلى هذا المعنى الذى لا يمكن اكتماله إلا بعد الخمسين أو الستين وربما السبعين ، بعد قطع شوط ومقدار فى الرحلة ، لو أنه رأى هذا ، لو أنه دقق ولحظ لكان أنهى خدمته ، تلك الظلال أنبأتني مع أن أصلى لم يلحظها فى صغرى ، إذ لها عنها ، كان غيبا لا يعى ، وعلى عينيه غشاوة فلم ير أعلى الصورة ختم دائرى بلغتين ، عربية وإنجليزية ، حكمدارية القاهرة ، وأسفلها خط مشوش كتب بمداد

قديم ، ورقم ليس له تفسير ، خمسة وخمسون ألفا ومائة وتسعة وخمسون .
ماذا يعنى هذا ؟ ، إلى أى شىء يشير ؟ ما موقعه فى الأضابير ، حيرنى ذلك
كما حير أصلى ، أوضح لى يا إمامى الحسين ، يا شيعى محبى الدين ، يا دلىلى ،
يا غامض ، يا من تظهر وتغيب ، يا من أمرتنى ألا أسميك ، حزنى ناطق ولسانى
صموت ، أوضحوا لى ، دلونى ، ماذا يعنى الرقم ؟ وما علاقته بنظرة العينين ،
ومعنى التأهب للسؤال فى عينيه ، وما هذه الغيمة على الوجه ، الغيمة التى تحبس
ولا ترى ، هل تبدلت برحيل صاحبها إلى الأبد ؟ أى الصور كانت تفارق مخيلته
عند التقاطها ، وأى الصور كانت تفارقها ، فى أى المواضع جلس عند
التقاطها ؟ ومن واجهة ، وتطلع إليه ، وطلب منه أن يعدل الوضع ، لماذا يبدو
كأنه على وشك مخاطبتى ؟ لماذا يوحى برسالة لم تتم أو بإشارة مهمة يستعصى
إدراك فجواها ، لماذا يغمض على الأمر ؟ ! أعاود النظر والتمعن ، هل أنبئ
وقت التقاطها أنه سيطل يوما بعد رحيله عبرها ، وأن من أنجبه سيتأمل ويأسو .
الورقة مقسمة إلى خانات ، خصصت كل منها لبصمة من بصمات
أصابعه ، تلك أصابع يده اليمنى ، وتلك أصابع يده اليسرى . انحناءات
الخطوط وتجاعيدها ودوائرها ، ما انفرد به ، تلك علامات أصابعه التى دب
إليها البلى ، التى ما بقيت ، التى فنيت ، التى لن تقع عين عليه أبدا ، ولن
يحتويها نظر ، الصورة مثبتة فوق الركن الأيمن للورقة ، رجا أصلى الموظف أن
يسمح لى بها ، ولأنه أدرك ، ولأنه قدر ، سحبها من الملف وأعطاها لى ،
فيالندرة ما تبقى من هذا الجهاد كله ، وبالشح ما وصلنى من العمر الطويل
والكد ، فيا مجهولا يترصدنى ، ما الذى سيتبقى منى ، ومنذا سيتطلع إلى رسمى ؟
إلى ظلى بعد اندثارى ؟ ومن سيخلو إلى نفسه ويتطلع إلى صورى التى ستسمى
قديمة بالية ؟ من سيجيء ومن سيتذكر نبرة صوتى ؟ .

لك السلام يا أصلى ، يا من رحلت دون أن تبيك عين ، أو ترثيك دمة ، أو يدري بمعراجك أحد ، حتى الأقربون الأقربون لا يعلمون أنتى لست أنت . وأنتى آخر غيرك مكلف بإتمام ما كان منك ، غير أنتى محب لما يبق عنك مشفق ، حان عليك ، وأنتى مفض إليك بما قد يبعث راحة عندك إن أدركته يوما ، ذلك أنتى بعد استيعابى لما قام به هذا الضابط الجهول ، الغتيت ، خشيت على صورة والدك الذى هو جذرى فى هذا الوجود الأعم . فأنا فى نظرهم أنت ، وملفاتك عندهم إنما هى ملفاقى ، مفتوحة أبدا ، ربما داهمنى ، ربما خربوا ، ربما عاثوا فسادا فى تاريخى ، لذا سارعت إلى صاحب حميم اختص بالتصوير وفنه ، هو صاحبك لا يدرك كنهى ، ويظن أنك أنى ، سأله استنساخ صورة الوالد وأن يكبر حجمها فاستجاب ولى ، شيعت منها نسخا إلى جهات شتى لأحفظها وأدارها خوفا من المداومة ، أما الصورة الأصل والورقة التى تحمل بصمات الأصابع فقد صنتها فى قرار مكين ، أعلم أن هذا يرضيك ، يهدئ ذراتك فى منفاها ويخفف اغترابك فلا تبتس ولا تحزن إن شرقت أنت وغربت أنا ، فما عندك ورثته ، وما كتبه أكون ، يا صاحبي المسكين الذى ضيع ما ضيع ، وأفتى ما أفتى ، أعرفك أنتى ألمت بهذه اللحظات الأصبلية ، عندما دخل الوالد بيتك آخر مرة . وشكا إليك تلميحا لا تصرىحا بعضا مما كابده ، دار مجلدك لحظتها أن تأتى بجاز تسجيل الأصوات وتدون ما يقول ، لكنك أجلت وأرجأت ، ثم سافرت وعدت ، فإذا بالفرصة قد ولت ، فزادت عليك الحسرات .

أقول لك يا أصلى البائس إننى نويت الحذر ، وتتيه النفس إلى تدارك الأمر ، نويت أن أجلس يوما إلى والدة ، وأن أستنطقها الماضى الغالى ، أسجل ما تقول فأصون الذكري ، ولأننى ورثت عنك ما ورثت ، رحت أرجئ العزم ، وفى كل

زيارة أقرر إتمام النية في اليوم التالي .. حتى وقعت المباغمة يوم السبت ، وليس الآن مناسباً لتدوينه ، فهذا الحال ليس حاله ، وليس عمله ، أكفى بالقول ، إننى صنت صوت من أنجبتك ، ولكن رغما عني ، كيف جرى ذلك ؟ لا بد من تفصيل ولو يسير ..

الأمر دورى

.. على غير العادة ، وبدون انتظار أو توقع ، رن جرس الهاتف رنيناً متصلاً دعواً في بيتك - بيتي - بعد منتصف ليلة الأحد ، أول ليلة نخل بالدنيا وقد خلعت من الأم ، إذ انتهى سعيها وتم سفرها ، أول ليلة تقضيها في المثوى ، لم تكن ملاحظتها قد تبددت بعد وإن شأنت ، لم يكن قد تم فناؤها عن فنائها بعد ، ولم تكن أنت في البيت ، أقصد نفسى ، إذ كنت على مقربة من الشقيقة نوال والشقيق على .. الصغيرين اللذين قدرلها مشاهدة انتزاع الوالدين من هذه الحياة الدنيا ، أصغت رفيقة عمرك - عمرى - إلى رنين الهاتف ، وعندما فوجئت بصوت إسماعيل الأخ الذى سافر منذ شهور ثلاثة لطلب العلم وبقي له مثلها ، اضطربت وحارت لكنها أملت بالزمام ونطقت « أهلاً » . استفسر عن جمال ، فقالت إنه لم يعد بعد . أبدى تعجباً ، ليست عادته التأخر .. ماذا جرى ؟ ، قالت إنه يودع صاحباً له . وذكرت إسماء ، وعندما أنهى المكالمة تنفست وتعجبت ، لماذا يتصل في هذه الليلة ، الأمر صدفة ؟ أم أنه الإحساس الذى لا يدرك ولا يبين ؟ . كان إسماعيل قد رتب مع صاحبنا فى الطريق ، يوسف الذى يسكن على مقربة من الوالدة ترتيباً مفصلاً أن يتحدث إليها مرة كل أسبوعين ، يصنى إلى صوتها فيهدأ باله ، ويستفسر عن نسبة السكر فى الدم

ليطمئن ، كذا عن الضغط في الأوردة ، ولما أقلعت الكرمة فجأة نشبت الحيرة عندى . هل أخبره فتقلب أحواله وهو في هذا البعد السحيق ، حيث الوقع هناك أنكى وأوعر؟ أم أكتم عنه ؟ وكيف أبرر غيابها عنه ، كيف يكون التصرف ؟.

كان قد تبقى أسبوع على اتصاله ، وخلال له بسطت الأمر وأفصحت عنه للناس الطيبين ، أهل الوداد الذين تردوا عصر كل يوم . يواسون ، ويقدمون العزاء ، ويتلون الذكر الحكيم ، فريق منهم قال إن الصلح منج ، وفريق آخر قال إن الأمر لثقل على الأخ الناقى المغترب إلى حين ، وما بين هذا وذاك حرت ، فاذا أفعل ؟،

بعض الصحب قالوا بكتابة خطاب ، ولكن إخباره في الهاتف فظيع ، فالمدة محدودة . والعبارة عاجزة ، مع مرور ليلة إثر أخرى ملت إلى ضرورة الكتمان ولو إلى حين . لكن .. ماذا عن اتصاله ؟، قلت لصاحبنا في الطريق يوسف ولأمراته ولعياله ، إن ميعاده معلوم ، ورنين الهاتف له علامة ، فلا نجيبوا ، وبالفعل أصفوا طويلا إلى الرنين حتى صمت ، مرت دقائق ثم عاود الكرة ، لكن لم يحبه أحد ، فانتقل إلى الهاتف عندى . بذلت الجهد لكى أبدو عاديا ، سألتنى ملهوبا ، لماذا لا يجيب يوسف ؟ ، فقلت إنه ربما خرج ، غير أنه ذكرنى بتحديد الموعد قبل أسبوعين ، اكتسى صوتى جدية مشوبة بتجهم ، قلت إن خلافا وقع بينى وبين صاحبنا يوسف ، ونسبت إليه فرية لم يأتها ، وقلن إننى طلبت من الوالدة ألا تذهب إليه ، ألا تتردد على بيته ، وأبدت الوعد بالبحث عن هاتف قريب من البيت يمكنها أن تتحدث عبره ، بدا حائرا حتى أنى أشفقت عليه ، وصباح اليوم التالى أخبرنى من أثق به أنه كتب فى مفكرته أرقام ثلاثة هواتف ممن كان يحاورهم أثناء تأدية الفريضة فى المسجد القريب ، ومنهم إمام

المسجد نفسه ، سعت إليهم ، رجوتهم ألا يخبروه بالرحيل الأبدى ، أبدى الإمام ترددا ، وقال إن هذا كذب يعاقب الخالق عليه ، فوضعت الأمر بين يديه فلبى وقال إنه سيطلب المغفرة ، وكان ما توقعته ، إلا أن شبهة لم تتسرب إليه ، وخلال مرات اتصاله بي ، كنت أبلغه تحيات الكريمة ، وأنقل إليها رغبتها في شيء ما ، آلة تخفف عنها عبثا منزليا ، أو قطعة قماش ذات لون معين تحبه شقيقتنا وتخجل من طلبها ، وخلال هذا كله حرت في أمر هنى وأقضى ، ذلك أنه قبل سفرها مربها زميل دراسة مسافر ليلحق به ، وأبدى النية لحمل ما تريد أن ترسله إليه ، وطلب شريطا مسجلا ليسمع إسماعيل صوته باستمرار ، أخبرني بذلك . قلت لها إننى سوف أحضر فى المرة القادمة شريطا ، وكأنها كانت تدرك دائى وبلائى ، إذ قالت بلهجة من يدرك أن الوعود قد لا تتحقق ، « لا يعينى .. اشترينا شريطا وسجلناه .. » ، ما عذبنى أننى كنت أود أن أطلب من إسماعيل الحفاظ عليه ، إذ يحتوى أثرا غاليا من الكريمة الراحلة .

فيما بعد أخبرنى شقيقك وشقيقى ، أن الهواجس كانت قد نالت منه وتمكنت ، وأنه عندما أوغلت الشكوك فى قلبه حفظ هذا الشريط على مقربة منه ، وإذا خرج يضعه فى الحبيب الملاصق لقلبه ، وعندما نزل من الطائرة تحسسه ، وعندما حانت لحظة فراقه الأرض الغريبة قبل سماعه الهاتف ويكى طويلا ، فنها سمع صوت أمه الذى كان حسه الخفى ينبث أنه لن يصفى إليه أبدا ، هذا الشريط يا أصلى المسكين عندى نسخة منه ، ولكننى حتى زمان تدوينى هذا لم أجرؤ على سماعه ، لم أقدر على الإصغاء إليه ، هذا فوق احتمالى وخارج طاقتى ، أما إذا شاء الدهر وعدت مرة ثانية فستلقاه ، نسخة فى درج مكتبى ، ونسخة فى مكان لن أبوح به ، ذلك أننى أخشى ضياعه وفقداه على أيدي القوى الشريرة التى لها الهيمنة والقدرة على اقتحام البيوت والنيل من

الأمر عميقة الخصوصية كما جرى لك مع هذا الضابط ، أما ما عقلته فنتي
الطمانينة البحتة .. ذلك أن الأمر دورى !.

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة »

(قرآن كريم)

ها هو ذا الضابط ، يجرب ولا يضبط ، يفسد ولا يتفحص ، فإذا
قابلته كتاب من جزءين سطا على أحدهما وترك الآخر ، حتى الورق الأبيض .
لماذا الورق الأبيض ؟

يرفع وجهه ساخرا ، متمكنا ، مدعوما بقدرات لا ترى ..
لطباعة المنشورات طبعا ..

يقول أصلى :

إنه ورق الكتابة .. وليس للطباعة ..

يبدى تجها :

هل ستعلمنا شغلنا ؟ !

حاشا يا غشوم ، كلا يا وطاة القیظ ، أبدا يا طول المرض ، يا جدوية
الزمن ، يا مفرق الأحبة ، مصادرتة الورق أثارت حتى أصلى ، انشغل به حتى
أنه رآه في منام أيام سجنه الانفرادى ، رأى كتبه مصفوفة ليس كما رتبها
وفهرسها ، تتوسطها رزم الورق ، شقيقته الصغرى غلفت الكتب وكتبت اسمه
على قدر طاقته في ذلك الوقت أثناء غيابه القسرى ، أما الوالدة الملوحة فرتبت
ونفخت الغبار مرارا ، كانت تدرى وتعلم أنه قتر على نفسه ليقتنها وليصونها ،
وأنه من أجل ذلك عاش في كبد ، وهنا رحلت بالنظر إلى لحظات شتى ، أول

عهد أصلى بالكتابة ، إنه يجلس إلى الطبلية المستديرة ، فوقها كراساته ومداده
وقلمه ، خشية ، قصيرة القوام رافقتهم زمنا ، فى آونة العلام يتظلمون حولها ،
فى الليل يسمح سطحها ، أو يفرش صحيفة قديمة ، يبدأ انكبابه ، إنه يتزعزع
ورقة أو ورقتين من كراسات المدرسة ، يصوغ كلماته وما يراه وما يفيض به ،
تقعد الوالدة أمامه ، لا تنطق ، لا تتكلم ، هكذا اعتادت حتى يفرغ ويقوم
ليتمدد ثم يرحل عبر نومه عندئذ تغمض عينيها ، إذا غلبها إعيائها وتعب النهار
الطويل فى قعدتها هذه ترفع رأسها بغتة ، مبتسمة ، تلفظ كلمة ، تسأله إذا
كان بحاجة إلى شىء ما ، فيقول مشفقا :

قوى نامى يا أمى ..

تقول مبتسمة - والله حيرتى ، هذه الابتسامة حتى لا أدري كيف اقترب
منا ، ومن أى جهة أنظر إليها ، فلكم أسررتى وداعتها ، ومالت بى لرقتها - .
أتظننى نائمة .. أنا صاحبة ..

يقول فى لحظة أخرى ..

أنا فى حاجة إلى ورقتين أو ثلاث يا أمى .

تقول :

والله يا بنى الفلوس شحيحة عندى إلا ما ترك أبوك لحاجة البيت ..
يصمت ، وتصمت ، عنده حاجة للورق ، ورق الكراسات لا يصلح ،
يريد أن يقدم ما كتبه إلى الجهة المعنية فى أحسن صورة . آخر القعدة الليلية ،
قبل عودة الأب من مسجد الإمام الحسين ، تقول :
« اجمع يا جمال .. » .

إنى مصغ .. فذلك عبارتها عندما تقرر أمرا ، أراها تدس يدها فى صدرها
تخرج منديلها المصروع على دراهم معدودات ..

«خذ قرشين .» .

ثم تقول :

«اشتر ما تحتاج إليه .» .

ثم تقول :

«لا تحزن أبدا ..» .

ثم تقول وفيضها الأومى يندى .. ثم يقطر ثم يغمر ..

«أنا سادبر حالى ..» .

يتطلع صامتا ، ماذا بوسعها أن يقول ؟ حتى وإن لم ينطق .. فإنه يدرك وصول ما يريد الإفصاح عنه إليها ، وأن مكنونه الذى لم يفيض به فى رتبة منبئة الحس عندها تقتر على نفسها ، تدخر من قوت البيت ، لا تخبر الأب فحالها ضنك ، ما يعنيه انتهاء أصلى من دراسته ، أما ما يخرج عن كعب المدرسة ، وما يقتضيه نجاح آخر العام فأمر كلها معطلة يجب تلافيها ، ترقب الأم المنشاء ، والضوء الأصفر الباهت ، لا تدرى ما يخطه قلمه فوق هذا الورق ، إنما هى راضية لأنه ساكن ، أورثته هذه الأوقات قلقا ممضا خفيا ، أطلعت عليه وكابدته ، ألا يجد ما يخط عليه سطوره ، أن يفتقر يوما إلى الورق ، قلق منشأه حقب العسر والمشقة ، ضاعف منه وأججه سطو هذا الضابط على أول أربع رزم يدخرها ، ثلاث أعطاها له زميل يعمل على الطباعة فى ديوان المؤسسة ، والرابعة جاء بها الوالد من موظف بالوزارة ، قلقه وخوفه من نفاذ الورق الأبيض لم يفارقه منذ ذلك الحين حتى بدء معراجه ، واغترابه عن الحياة الدنيا ، له حسن السعى ، ولى الصبر على ما أرى ، وما أعان .

قفلت راجعا إلى تلك اللحظة التى بدأ معها النخر فى أغوار الأم ، عندما وقف الضابط ، ونحاطب أصلى ..

« تجهز فستجىء معنا ... » .

حتى نطقه ، تعلقت آمال الأم بانصرافه ، فليأخذوا ما شاموا من كتب وأوراق ، من محتويات حتى ، ألم يتزع ملامق لسريرين وكوم عليها رحيق عصور خلت و خلاصة أزمنة من شعر وقصة وفكر ، ليأخذوا ما نهبوا ، ولكن .. جمال ١٩ ، أن يخرج بصحبته من هذا الباب ؟ من يديرها متى يكون دخوله إذا عاد ؟ تراءى أمامها ظلام ما بعده ظلام ، وآبار جافة ، وطرق لا يدوسها أحد ، وصخور تنز حرارة القيط ، آلام لا تطاق يحض منها من حنت عليه ، ومن رعته ، خلع أظافر ، وكوى باطن قدم ومالا يطيقه بشر . في المطبخ انحنى على الصنبور الوحيد يقتسل قبل أن يولى وجهه شطر المجهول . يلمح أباه يرنو إليه ، غير مدرك ، غير مصدق بعد لما يجري ، فتلك لحظات لم يعد لها عدة ، يهمس بسرعة . « اذهب إلى أمين عز الدين وأطلعه على ما جرى ... » . أمين هذا صاحب ممن عرفهم أصلى أول عمره ، رجل طيب ، فيه قبول وله مقدرة ، وعلى يديه تم جريان أول رزق لأصلى ، إذ تسبب في إلحاقه بوظيفة وإنهاء فترة بطالته التى دامت عامين من الضنى ، استمرت صلتها مع تقلب الأحوال . ولهذا تفصيل طويل يصعب شرحه الآن ، وسوف يرد في الحلال المناسب والظرف المواتى فلكل نبأ مستقر .

أما الآن فإنى ذاكر لكم لطيفة ، ذلك أن الرجل كان في ذلك الوقت ذا مهابة ، وله شأن في التنظيم السياسى ، ويحتمع بجمال عبد الناصر . يصنى إليه ويحاوره في زمن لم يره أصلى في الصور أو المواكب ، لما سمع الوالد اسمه تبدد بعض من حيرته ، فحتى اللحظة لم يكن يدرى إلى من سيسعى ؟ فكل الأقارب ، والمعارف ، وأبناء البلدة يقصر نفوذهم عن هذا الملم . في أول النهار واليوم أحد ، مشى حائرا مأخوذا حتى وصل إلى وسط

المدينة ، توقف أمام باب المقر ، ولما سأل من يقف بالباب تطلع إليه في شك وريبة ، أفضى إليهم بالسبب ، عندئذ أخبروه بما حيره ، أمين عز الدين معتقل منذ ليلة أمس ، ربما في نفس اللحظة التي انترعوا فيها ابنه ، كان المكلف بالباب رجلا من القوم ، لما رأى جزع الأب وملاحه المكدودة المرهقة بثقل سنين طوال ، رق له ، أشفق ، دعاه إلى الجلوس واستفسر منه عما أتاه ولده ، أى جناية ؟ هل أخطأ في حق الوضع القائم ، لم يجب أبى إنما صمت ، ليس عن كتمان ، وإنما عن حيرة ، وإنى والله مثله ، وحيثى من حيرته ، فكل ما اطلع عليه ينحصى ، ويلزمنى ، وقد جئت إلى هذا الكون الغريب متفيا فإذا بى أواجه ما لم يخطر ببالى ، وما يبدو معه كل ما قاسيته فى زمنى القديم يسيرا .. هينا ، أنطلع حولى ، على ألح دليلى فى هذه الأحوال ، أليس هو سيد الوقت ؟ لماذا لا يشرح لى ، لماذا لا يفسر لى ؟ غير أن نظرى لم يقع عليه ، ظهوره ليس رهن مشيتى ، من هنا أضمرت العتاب والنية على الاستفسار . انثنيت إلى هذه اللحظة من فجر الأحد ، تاسع أكتوبر عام ستة وستين وتسعمائة وألف ، ينظر الضابط إلى ملاءات السرير الثلاث وقد انتفخت بالكتب والأوراق والمواد والمعانى ، عقد أطرافها فصارت بقجا ضخمة ، ينحنى الأب ، يحمل أضخمها وأثقلها بعد أن يمسك طرف جلبابه بين أسنانه ، تبدو ساقاه النحيلتان الصليبتان وقد توترتا ، تماما كما رأهما أصلى فى المواقف . عندما حمل أجولة البذور ، يحمل المخبر واحدة ، وأصلى الثالثة ، وهذا مما أثار ضيقه فيها بعد ، وعده تنازلا فى حق نفسه ، غير أنه علل الأمر وبرره بعدم الرغبة فى تأجيل مشاكل قد يكون لها انعكاسها المزعج على الوالد والوالدة والشقيقتين . عند نزوله أولى درجات السلم صابحت الأم :

«يا كسرى ...» .

تلك صبيحة أرجفتي ، فعندما تلفظها المرأة الكوم ، فذلك يعني أن الأمر بلغ مداه واشتد ، إن ما يحشاه المرء قد وقع ولا راد له ، فيها الجزع المقطر ، والأسى عينه ، وأصل الخوف القديم ، وقد سمعت نساء يطلقن هذه الصبيحة في زمني الأول ، تتغير اللغات وتبدل اللهجات غير أن اللب الإنسانى واحد ، تنزل الأم درجتين غير أن الضابط يشير بيده ..
«ارجعى .. وإلا أخذناك معه ..»
تلوح يديها غير عابثة ، مثالة ..
«خذوني معه ...»

اختفوا عند منحنى السلم ، تنزل حافية ، لم تثبت إلا عندما استدراج جمال وطلب منها أن تبقى ، تتابع خطوهم فوق هذا الجزء من الحارة ، راجية ألا تنقضى اللحظات ، أن يقع أمر مفاجئ يبدد هذا كله فتراه يرجع متمهلا ، يجتاز الباب ، يتمدد فوق السرير ، تردد أنفاسه هادئة ، يتبدد ما جرى كله ، يتلاشى الفزع وينتهى الفقد ، غير أنهم اختفوا عند المنحنى ، ويبلغ جمال هذه الناصية يتم وقت انتزاعه ، ويبدأ زمن غيابه . وهذا أقصى ما مر بها . وأشد ما عانت حتى هذه الفترة .

والمعروف المقطوع به أن الخوف على الحى الغائب أمر وأقسى من الحزن على الميت ، فالألم من اللقاء تعقبه راحة ، وخروج الميت لا ترجى معه رجعة ، أما الغائب ، المغترب قسرا ، فنار الحسرة عليه لا تهدأ ، والأمل فى عودته لا ينقطع . يقترب منها الابن الأصغر مرجوفا فرعا ، أما نوال فتحاول أن تكون صاحبة المؤنسة ، للحظات القفر هذه ، يطرق الباب ، يتوافد الجيران ، عطيات ، وزوجها ، أم سهير ، سعدية من البيت المقابل ، يوسف صانع التماثيل الخشبية ، تتساءل أم سهير :

«ألم يكن ممكنا أن تدفعوا للضابط جنيات خمسة ويتغافل عنه؟»
تتخيل الأم سريان ابنها عبر طرقات المدينة الآن ، أى الشوارع يسلك ؟ أى
النواصى تتوارى عن عينيه ؟ فى أى الأماكن سيأوى ، وتحت أى سقف سيتزل
عليه الليل ؟. كيف سيقع الخبر على أخيه إسماعيل الذى يقضى الآن أول أيام
دراسته بالكلية العسكرية ؟ هل سيلحقه أذى هو الآخر؟
يرجع أحمد فيصف العربة الرمادية التى كانت تنتظر عند مدخل الحارة ،
أمام مسجد سيدى مرزوق ، يصف ثبات جمال وانعدام خوفه ..
تقول سعدية :

«جمال جدد وأمير.. فى حاله ..»
تكره الأم إيقاع هذه الكلمات ، فيها رثاء والمرثية للميت ، فال سيئ.
تقول ويلهجتها حدة :
«أخلوه لأنه يكتب عن الغلابة ..»
ثم تنم مضطرة ، فتسأل :
«أين أنت الآن يا كبدى ؟»

فى هذا الموضع ، بجوار صوان الكتب قعدت أوقاتا ثقيلة ، فى لحظات
بعينها تقف أمام الرفوف ، تنفض عنها الغبار ، وتمسك بعض الكتب تقلب
أوراقها ، ليتها تعرف القراءة ، ليتها تقدر على فك السطور ، منذ أمد ليس
ببعيد ، أحاط بها جمال وإسماعيل ، وقالوا إنها سيعلمانها سر الحرف ، بدأ معا ،
وكانت تأنس إلى لحظات حفها بها وتحرص عليها أكثر من حرصها على تمييز
الألف من الباء ليت ذلك دام ، ليته استمر ، لا تدرك الآن لماذا توقفت عزمها ؟
لا تتذكر .. أرسلت نوال وعلى لشراء ورق تغليف ، طلبت منها تجليد
بعضها ، وكتابة اسمه ، تماما كما يفعل حتى لا تنقطع عادة ، ولا تنتهى خصلة ،

فتكرارها حتى بدونه بشرى برجوعه ، أراها تقبل الصفحات ، تدعو بقصر
الغنية ، بجوار الصوان أمضت أوقاتا طويلة ، فما بعد قالت لأصلي :
« هذا المكان أكل من جسمي حتما ، وأخذ من عمري مقدارا .. » .
ما بين الشرفة وهذا الركن تتقل وتسعى ، تنتظر عودة أحمد ، بعد ترده
على التنظيم السياسى ، لقاءاته بأمين عز الدين الذى لم يستمر سجنه طويلا ،
زياراته لبعض أسر من عرفوا جمال وكانوا صحبه فى السكة الوعرة بعد أن عرف
الطريق إليهم إلى بيوتهم ، حتى إذا رجع تستجوبه طويلا ، تستنطقه
التفاصيل ، المسامى التى تمت ، وما استجد ، وتلك التى يؤمل منها . تطلب
صحبه ، تمضى معه أحيانا ، تنتظره عند ركن قصى حتى يعود من زيارته
للمقر ، تطوف بضحك الإمام الحسين ، ترجو سيد الشهداء أن يخفف الغيمة ،
أن يرد الغربة ، هذا يوم أراها فيه وحيدة ، تجلس فى الصالة الضيقة مندمج
وجودها المادى بغبرة المساء الرمادية ، والليل الشتوى سريع القدم ، ورائحة
البرد ، أين على ، أين نوال ؟ لم ألق جوابا شافيا ، الباب يطرق ، وافد
غريب ، هكذا تنبئ طرقاته ، ماذا ينبئ المجهول ؟ السر ، السر ، ترى
شابة لا تعرفها ..

- خير ..

- أنا امرأة صاحبه الأبنودى .

- الشاعر ؟

تومئ مبتسمة ، تجلس عند طرف السرير ، الأم فى مواجهتها ، تصفى :

« جمال بخير .. إنه فى طرة .. » .

- اللبان ؟

- لا .. فى المعتقل مع صحبه ..

تقول إن زيارة المعتقلين سياسيا محظورة ، إنه بيعت سلامه ، تقول صاحبة
الصاحب :

- ابنك رجل ..

لا تريد أو تنقص ، غير أن الأم تفهم الإشارة وتترك كنه العبارة ، ذهب
جمال رجلا وسيرجع رجلا ، يمكنه النظر في وجوه القوم ، لا ينجله شيء ،
برغم كل شيء احتمل ولم يبيع ، وهنا أقول أنا صورة جمال بن أحمد الغيطاني
إنني اطلعت على ما لم ينطق به أصلي ، رغم إيلام جسده ، تعذيب روحه ،
والضغط لقمه ، ما الذي أخفاه ؟ ، ما الذي كتمه ؟ ، وقفت عليه كله ، هذا
ما لن أقوله قط ، لم يلفظ به أصلي رغم الحبس الانفرادي ، الإغلاق الليلي ،
وغمر المضجع بالماء لاستحالة الرقاد ، وعصب العينين والإرغام على الجري مع
مداومة الصفع والركل ، لن أذكر شيئا فالإذن لم يصدر ، والإشارة لم تلح ،
والأمر فيه خطر ، فليفهم القطن ما يشاء ، ولينم من أراد النظر فيما أقول ،
ولكن .. لا تظنوا بي السوء لأن إفشاء ما لم يطلب مني كفرا .
غير أني سأقص عليكم تفصيل أمر من أغرب ما ورثته عن أصلي .

«وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ»

(قرآن کریم)

.. بدأ الأمر في اليوم السابع عشر لحبسه بم عزل عن الخلق في سجن القلعة القديم ، المغرب انقضى الوقت بين بين ، فتحت البوابة الخارجية ، ثم البوابة الداخلية المصمتة عدا فتحة صغيرة قرب نهايتها ، مسدل عليها من الخارج غطاء متحرك ، أصلى يرى ثلاثة مخبرين أشداء ، واحدا منهم تقدم داخل الزنزانة .
« قم يا أربعة وثلاثين .. » .

إذن .. دنا الوقت .. ستقع المواجهة ، مما حيرنى في هذا الحال أنه بقدر ما شعر به من خوف ، بقدر ما ارتاح ، الآن انتظار البلاء أشد من وقوعه ؟ ربما .. لوى أحدهم ذراعه ، أحاط آخر عينيه بعصابة سوداء فغابت عنه المراثيات ، والجهات ، نزلت العصا الرفيعة على إلبته ..
« إاجر .. إاجر .. » .

يتعثر ، يسقط ، يدفعونه باتجاه جدار ليصطدم فجأة به ، أمسك أحدهم بذراعه ، يصعد درجات سلم حجري مرتفع ، ويتزكونه يقف لحظات في فراغ سحيق ، قد تجمىء الضربة من أى جهة ، يدفعه أحدهم فجأة ..
« إاجر .. » .

يعدو حتى يصطدم بحاجز ما فينقلب إلى الناحية الأخرى ، بينما يعدو إلى

يمينه من يحمل عصا ، وإلى يساره من يحمل سوطا ، يلهبان به جسده . كم دام ذلك ؟ لا يدري .. ولا أعلم ، فالوقت ملغى ، هنا ، يوقفونه فجأة ، يقودون خطواته ، يدرك أنه توقف داخل مكان مغلق ، أداروه حول نفسه عدة مرات . يكفون .. فيتوقف ، إنه يفكر .. كيف ستتقضى هذه اللحظات ، بعد انقضائها تمضى عليه الدقائق العسرة ، يصغى .. إنها خطوات خفاف ، يتوقف أحدهم أمامه ، يصغى إلى تردد أنفاسه ، يوشك أن يسمع دقات قلبه ، ينوب سماعه عن حواسه كلها ، فيصبح السمع بصرا ولمسا ورصدا للمجهول . كم مضى ؟ لا يمكنه التحديد .

فجأة .. تهوى كف غليظة على صدغه فيميل جسده كله ، يتعد ، صفع يميل به إلى الجهة الأخرى ، غير أن الميل الثالث أقل ، إذ استجمع قواه ليقاوم ، وبعد توقفه عن العدو وتوالى الصفع صار ثابتا ، وجهه انتفخ ، إنتابه سخونة .. أما خيط الدم الدافئ الذى سرى من جانب الفم الأيمن حتى الفك فلم يشعر به إلا بعد توقف الكف الغشوم . هنا أقول إن أصلى لم ينطق عن ألم ، لم يفصح عن آهة ، إنما واجه جلاده بملاحمه .. بعماه المؤقت ، فى خزانة أسرارهِ الدفينة أجداد فى الصعيد الجنوبي قُطعت أطرافهم وسملت عيونهم ولم ينطقوا بكلمة واحدة فيها نجاتهم .

فلما كان المجلود الضحية غير قادر على الرد .. فليحرم جلاده سماع الأنة أو صرير الغصة .

يكف الصفع فجأة ، تمضى اللحظات المثقلة ، يرصد الأنفاس التى تزايد إيقاعها ، إلى رائحة العطر ، لم يصغ إلى خطوات أخرى ، يتبدد الصمت فجأة ..

« ما هذا .. ؟ من قال لكم اضربوه .. من أمر ؟؟ »

تمتد يد ، تتزع عنه العصابة ، اضطر إلى إغماض عينيه وفتحها بسرعة عند انتقاله من الظلمة إلى ضوء الظهيرة ، يرتدى الواقف أمامه قيصا وبنطلونا رماديا ، يميل إلى امتلاء ، أملس البشرة ، أسود الشعر ، قحى اللون ، يضمر مالا يظهر ..

«آسف يا جمال .. إنه خطأ ..» .

يشير إلى مقعد بدون مسند وسط الحجرة تماما في مواجهة مكتب .

«تفضل .. اجلس ، أنا الرائد منير ..» .

يمضي إلى خلف المكتب ، يواجهه ، يتطلع إليه لحظات ..

«سببوا لك ألما .. انس ذلك .. تدخن ؟» .

يمد علبه سجائر خضراء الغلاف ، أجنبية في وقت ندرت فيه السجائر غريبة النوع ، لم يكن أصلى قد عرف التدخين بعد ، إنها جزء من الخطوة ، فالسجائر مصادرة منذ دخولهم إلى هنا ، وظهورها فجأة قد يميل بمن اعتادها ، وعند لحظة معينة يمكن الإلقاء بها ارضا . يهز رأسه نфия مؤكدا أنه لا يدخن ، يشعر بوقع أقدام خلفه ، يلتفت بسرعة ، إنهم ثلاثة يحملون عصيا غليظة .
«انتبه هنا ..» .

تتلاشى لهجة الود المصطنع ، يأمر ألا يلتفت .. غير أنه يعاود اللين ، فأوان الشدة لم يمن بعد ، يرفع النظر إلى الثلاثة ..
«لن يمد أحدكم يده عليه ..» .

أمر بالنفى يحوى تهديدا ، وإشارة إلى إمكانية ، وقوفهم يقلقه ، يمكن للعصا أن تهوى في أى لحظة . يبدى الضابط ودا مصطنعا ، كأنه لم يصنعه ، لم ينهره ، يبدأ المحاوره ، يسأل عن أشخاص بعينهم ، كيف عرفهم ، ومتى التقى بهم ، يستفسر عن اجتماعات عقدت . وجلسات تمت ، وجوارات إنتهت ،

يجب أصلى إجابات مبتسرة ، مختصرة ، أعد للأمر عدته ، ورتب وتوقع ،
أيدوم الأمر طويلا ؟ تراجع إلى الوراء قليلا ..
« أنت لن ينفع معك الذوق .. »
ثم يقول :
« أنت ابن قحبة .. »

يسبه بذكر فرج أمه ، يتطلع أصلى بلامح خلت من التعابير تماما ، كأنه قد
من حجر عدا رفة في يؤذى العينين ، رفة فيها الرد وإن لم يبلغ جلاده ، تحوى
الحق والكظم الأشد .

الصفع أقسى ، العصي أسرع ، الجرى أطول ، الجهات تختلط ، السواد
يقع ، الضوء يبرق ، عندما ألقوا به في الزنانة لم يقدر على الرقاد لتورم جسده ،
غير أنه لم يعبأ ، لم يتوجع ، إنه ما بين شعورين .. الأول عابر مضمونه الراحة
لانتفاء ما توقعه ، ولتحمله الأذى كاملا بدون أن ينطلق إلا ما أراد النطق به ،
أما الآخر فقيم ، نفذ إلى لبه ، دفع إليه بالضيق ، بالحجل ، بالرغبة في التواري
عن الخلق ، سب الرائد هذه لأمه ، وذكره فرجها ، ما ذنب أمه ، انقهر لأنه
لم يرد غيبتها ، لم يدفع عنها . لم يقارع السب بسب مماثل . أمضى السجن كله ،
استرد حرته ، تقلبت به الأحوال وتغيرت الظروف ، ارتحل ورجع وطرق
دروبا شتى ، وبقي عنده سباب هذا الجلاد كلمة لا تشفى ، وندبة في روحه
لا تذهب ، غير أنه أضمر في روحه أمرا ، أن يرد الإهانة يوما وإن طال المدى ،
راح يتحين الألوان المواتى . يتبع أخبار هذا الضابط قدر الطاقة ، ترقيه من رتبة
إلى رتبة . خروجه من الشرطة السياسية ، عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف .
انشغل بكيفة رد الإهانة ، هل يدخل عليه فجأة ويسبه بنفس الألفاظ ؟ ..
هل ينتظره في مكان ما ؟ هل يتصل به هاتفيا ؟ ، آخر ما عرفه عنه قبل بدء

معراجة من فاس المباركة أنه تولى قيادة شرطة جامعة من جامعات العلم ، بدأ سفره اللانهاى وغله لم يرد ، وقراره مستعر . انتقل هذا بتمامه عندى فصار إلى ما كان عنده ، وإنى لمتبع أخباره حتى وقت تدوينى هذا ، إنه يتولى الآن الشرطة النهرية . أحيانا تطل على صورته من الصحف ، انتزعها ، أحفظ بها ، أدقق فيها .

حدث أننى كنت مسافراً إلى مدينة قصية ، رحت أدير المؤشر بحثاً عن إذاعة القاهرة فإذا به يتحدث عن جهود الشرطة النهرية ، الصوت نفسه الذى سب أصلى بذكر فرج أمه ، الأم التى لا يعرفها ، لم يرها . لم يلتق بها ، الأم التى لم يفض إليها أصلى بما جرى ، بما تفوه به ، وفى يوم من أيامى فى هذه الحياة الدنيا رجع ابن أصلى محمد من المدرسة ، وأنا أبوه فى نظره وفى نظرى وفى نظر الحق ، محمد لم يلحظ غياب أبيه ، كذا امرأتى لم تلحظ حلول الصورة مكان الأصل ، واحتواء الظل للمصدر ، والتفاف الفرع حتى تغطية الجذع . وإن كانت تتطلع إلى أحيانا ساهمة ، متعجبة ، وتتساءل : مالى أراك شاردا .. مالك بعيد عنا ؟ ، عندئذ أبدى أعذاراً شتى ، غير أننى لا أضطرب ولا يهن قلبى ، من المحال أن تدرك ما تبدل وما تغير إلا إذا نزلت المشيئة ، وهذا خارج طوعى ، ليس بيدى ولا بيدها . ابنة أصلى الصغيرة أيضاً لم تلحظ ، أنى لها ذلك وقد وعت على أول ما وعت ، غير أننى أستريب أحيانا إذ تجفل منى وتخشى ، الأم لم ترفى إلا ابناً الأكبر ، امتدادها وتمام عمرها ، أما نظراتها الصامتة الممتدة تجاهى فلم أدر ولم أحط علما ، أمى امتداد لعادة أم أمر مستجد ؟ ، يحيرنى هذا كله ، ويأخذنى أحيانا ، لكننى لا أنحى باللائمة على نفسى أبداً ، ذلك أنى أخفيت وكتمت قدر الطاقة .

أعود إلى ما بدأت ف أقول : ذلك المبنى المطل على النيل ؟ قال نعم ، قلت :

هل التقيت بقائدها ؟ قال : نعم . قلت : أهو قحى البشارة ممتلى ؟ قال :
نعم . قلت : أهو أسود الشعر ؟ قال : نعم . قلت : هل اسمه منير ؟ قال :
لا أعلم . أطرقت لحظة فتساءل محمد : هل تعرفه ؟ ، أو مات ، نعم ، ولم أزد
حرفا ، انسحب إلى صمته . أمه تؤكد أنه أصبح صموتا ، كوما خلال الحقبة
الأخيرة وأنه لم يكن أبدا هكذا . تحدد بدء الفترة بما يوازى ويتفق مع مجيء
ذاتى إلى هذا الكون وبدء إسرائ أبيه ، أصغى لأصمت وأخفى عجبى ، ضممته
وحنوت عليه ، هذا ما كان سيصدر عن أصلى فى هذا المحل ، شفقة وحنو
وازدراء لمجرد تصويره لقاء بهذا الجلاد وهو لا يدرك أنه صافع والده وسابه
ومعذبه ، فما أعجب تدبير الشريعة فى هذا العالم ، إني لست متخاذلا ، فما
اعتزمت أصلى ونواه أنا مكلف به والطاعة واجبة مسبقا . وعندما يأذن الإذن
سأنبشكم بما أدبت حتى أحمو ما لحقنى ، وإن كنتم فى ريب مما سأفعله ، فإنى
أعدكم وعدا لا خلف فيه ، فلا نكوص ، وإنى لنأجزه ، خاصة أن أصلى
حاسب نفسه طويلا ، شعر بالحجل كثيرا ، فلطالما تساءل ، لماذا لم يرد الإهانة
فى حينها ؟ ، علل الأمر بقلة الحيلة ، وشحوب التجربة ، وصفر السن ، لكن لم
يخفف عنه ، ولا عنى . لم يقنعنى أيضا . أطلت الفكر وتمعنت . أهو الخوف من
تضاعف الألم لتوقع الضرب الأشد وربما الفتك ؟ لكن الخوف نتاج وليس
أصلا ، ما تمكنت من إدراكه ، ما لم يعه أصلى ، حال الوحدة .

فى مقام القرى من هذه التجليات المباركة ذكرت ما نصه ، أن الإنسان
جبل على الرقعة والصحبة والأنس ، فالوحدة تجعل الإنسان ضعيفا خاصة إذا
واجه عدوا غشوما بلا صحب . أدرك الجلادون ذلك ، وعوه تماما . فرضوا
الإنقطاع القسرى على من سيتم سؤاله ، هذا ما فعلوه مع أصلى وصحبه وغيرهم
مما لا حصر لهم ، ألقوا بهم فى الزنازين المصمتة ، مزدوجة الأبواب ، منعوا كل

إشارة أو خبر ، حتى أن ملامح الأيام اختلطت .. فلامست ولا أحد ، ولا اثنين ولا ثلاثاء . ولا أربعاء ولا خميس ، أما الجمعة فلا بين ، ما من علامة تتحدد ، وما من حدث يميز ، وما من صدى في النفس للحظة خاصة . مثل الغروب أو الشروق أو ميل الشمس عن منتصف السماء أو امتداد الظل أو سبوح الغيوم ، ما من مسافة تقطع ، ما من وافد مأمول أو سفر يرجى أو مهمة تنجز ، تنعدم الحركة فينتنى الزمن ، يتشابه الوقت ويتشابه يتلاشى ، ولولا أن زنازين القلعة مشيدة فوق سطح مرتفع لما أدرك الأسير المعزول الضعيف تعاقب الليل والنهار . فما من رحيل إلا عبر الذات . والسفر على وجه العموم فيه نصب ، مبنى على شظف العيش والحنن والبلايا . ينعدم فيه الأمان ، فما يربه الإنسان اليوم سيتغير غدا ، وما يراه هنا ، سيري غيره هناك . وأهل كل محلة يخالف أهل المحلة الأخرى ، هذا عن السفر في عمومه ، أما أوعره وأصعبه فما كان رحيلاً في الرحيل ، وحركة في انعدام حركة ، لا محط مأمول ، ولا نقطة للبلوغ ترجى ، إنه الهيام على حافة الموت حاول أن يحدد ، بدأ يخفر صباح كل يوم خطأ بظفره على الجدار خطأ خفيفاً . لو رصد لأوقعوا به الكدر الأشد .

في البدء فكر في الاحتفاظ ببذور الزيتون الأسود ، طعامه الليلي الذي لم يغيره ، غير أنهم أعدوا لكل أمر عدته ، الحارس يطالبه بالبذور عقب طعامه ، حتى لا يستبقها ويصفها فتسلي روحه ، الويل لو كانت ناقصة ، ليت الأمر كف عند ذلك . إذ حدث أكثر من مرة أن فتح الباب ، يظهر ثلاثة ، لا يحيثون فرادى أبداً ، دأماً اثنان أو ثلاثة ، لا يدخلون ، إذا أرادوا خروجه أشاروا إليه أن يتقدم ، كأنهم يخشون أمراً مع أن العسف بجانبهم ، إنه خوف الجلال من ضحيته ، خوف صعب إدراكه وقد عرفته ونفذت إليه ، وهذا بطول شرحه فلزجته ، يمسك أحدهم دلوا يدلق ما فيه من ماء فوق الأرض

العارية الخشنة ، يضطر المحبوس إلى الوقوف ساعة إثر ساعة ، ثم يأخذ النصب فيبقى ، وربما يضطر إلى الوقوف ليلاً ثم نهاراً إذا استطاع ، لكن من يقدر ؟ .
بعد وصوله إلى الحبس ، في بداية الليل الثالث والشوارع نائية قصية رغم قهرها . انفجرت صرخة ثاقبة ، ممتدة ، متلوية ، قادمة من الحشا ، من أزمينة الممجية ، من زحف مغولى ، تنفذ إلى المكنون الإنسانى ، قام واقفاً ، من كل صوب تأتية ، حروف مدموغة ، مختلطة أطرافها ، جعير يصهر المكان ، ينكس المآذن العتيقة ، ويظلم المحارب ، يذرى الصور والأحاسيس ، عدا ما يحويه من ألم يلغى الألم ، إنه المنتهى ، تراجع في الحيز الضيق ، الصراخ محلق به ، يحيط .. كأن في حركته اللغاة محاولة للتواري من صراخ لا محالة مدركه ، لحظات صمت بغيص ، ينفجر الألم متدفقا فلا بد أن سلكا حميا أو مشحونا بالطاقة يلسع خصية أو يخترق دبرا .. يتواصل حتى تشع القدرة فينقلب عواء جريحا آيسا من كل منعذ أو انفراجة . وجه أصلى متقلص ، متصلب النظرات ، هذا أصعب ما واجهه .. تتضح كلمات بين الصراخ الطويل ، صوت هادئ ، محذر ، منذر ، مئذ ، مقتدر ..

« قل ولا تنكر .. » .

تمضى الليلة ، بطيء سرياتها ، ثقیل وقعها ، خطو الحراس فوق الزنازين ، يتعمدون وطء فتحات التهوية المغطاة بقطع مستديرة من الصفيح المثقوب ، يتوالى الصدى كأنهم يدهسون مناماته ، بعد مضي أيام قدم محاييس جدد ، كيف أدرك وصولهم وهو محاصر ، مقيد ، مقطوع الصلة بما حوله ؟ أقول إنه أتقن إرهاف السمع والنظر عبر الفتحة الدائرية الضيقة . إذ عرف كيف يزحزح غطاءها الخارجى المتحرك بأصبعه الوسطى من الداخل ، ورؤيته العابرين المارقين ، كما أمكنه التمييز بين أصوات المكان الثابتة من حركة معتادة وسريان

هواء أو أصوات غامضة بين الأصوات الطارئة المفاجئة .

؟ .. من هم ؟ من جاءوا بهم ؟. يتوقع رؤية البعض . وأحيانا يختلط الأمر عليه ، كما جرى له عندما رأى من خيل إليه أنه شقيقة إسماعيل ، حدث ذات ظهيرة أثناء اختلاسه النظر أن لمح فتي يرتدى قبضا غامقا ، ملاحه ليست بنائية عنه . إسماعيل .. ربما ، لم يتأكد ، هل جاءوا به ؟ لكن ما لإسماعيل وما هو فيه ؟ ارتجف ، سمع عن احضارهم الشقيقات والزوجات واغتصابهن غيلة وعنوة على مرأى ومسمع ، يمر به خاطر عجيب ، من يقوم بالاغتصاب هذا ؟ كيف لا ينجل من عريه ، كيف تواتبه المقدرة في حضور جمع ، أحقا هو أخوه ؟ لكم سبب إضطرابا للأسرة البسيطة ، مرت به أيام سود ، يدنو محاذرا من الباب ، يحاول النفاذ عبر الفتحة ، أهو أم لا ؟ حتى جرى ما لم يتوقعه ، عند توزيع الغداء في يوم لا يدري موقعه ، فتح الباب ، رأى الحارس ، وراه هذا الفتي يحمل طاولة من الصاج عليها أطباق الفول وأرغفة الخبز ، لم ينظر إلى الخبز ، إلى الطعام ، إنما سدد النظر إلى عيني الفتى مباشرة ، لقاء اللحظى مارق .. خاطف ، غير أنه كشف ما كشف .

معنى بآئمه يتركز في هذا اللقاء اللحظى حيث لاحديث ممكن ، لاحاورة ، وامن استفسار يعقبه مجاوبة ، يتصل الإنسان بالإنسان عبر اللمح الخاطف ، فيث ويناجي ، ويجهر ويسر . بعد إغلاق الزنانة أنس بنظرة الفتى ، أنس بها لأنه أول اتصال إنسانى منذ ولوجه الحبس ، كذلك اطمأن إلى أنه ليس إسماعيل ، وفي الليل انشغل بها ورأى فيها ما لم يره في ضوء النهار ، رأى أنه ملمومة ، وشكوى : لا تدري ما فعلوه بي ، ورأى ألما : لا تدري كم تعذبت . فيها استفسار ، من أنت ؟ من أين جئت ؟ كيف قيدوك ؟ كل المطالب الأربعة هل وكيف وماذا وأين ؟ ، لا يدري كيف تلقى نظره إليه ؟ لماذا كلفوه بنقل الطعام ؟

أهو مرضى عنه ؟ هل أقر بما أرادوه منه ؟ ثم كافأوه بالتثقل وبذل الجتهود ؟ لا يدرى .. لم يره مرة أخرى ، لم تقع عيناه عليه مرة ثانية ، حتى شك في أن ما مر به حقيقة ، ملاحه لم تغب عنه أبدا .. بقيت معه وانتقلت عندي ، ما يعنني تلك القسبات لحظة تبادل النظر الخاطف اللحظي ، لا يهمني إذا تقدم مني الآن شخص ما وقال إنه هو من واجهني ذلك اليوم التالي ، العسر . هل فهمتم عني - بصركم خالقي - بعضا من السر ؟.

أقول إن تطلع المقيد المحاصر إلى مثله مع منع الوصل أشق لحظات الوحدة كأسالة الماء على مرأى ممن يموت ظمأ وتلك درجة يندر وقوعها أو تصورها . إذا أردنا التنبيه لعلنا يجهل أكثر الخلق بها ، إنها لاتشبه النظرة العابرة المتبادلة بين شخصين يمضى كل منهما في اتجاه مغاير للآخر ، لكن وفق مشيئته وإرادته ، لا يعوق خطاه قسر ، فالزم وانتبه يا من تتطلع إلى الفهم والإدراك ، واعلم أن الكينونة الإنسانية بقدر اضطرارها بقدر قدرتها . إذا تعطلت تنهض بقية الحواس للمساندة والمدد

انظر إلى الأعمى ، ألا تراه يسمع مالا يسمعه المبصرون ؟ . مع مضي المدة أصبح يدرك من إيقاع فتح الزنزانة المراد ، فإذا أدير المفتاح في القفل مرات متواصلة متعاقبة عرف أنهم يقتعلون أحدهم إلى التحقيق ، من قوة الصوت أو ووهنه يمكن له تحديد مقدار بعده عن زنزانه . أما معرفته اليهين أو الشمال فأمرها سهل .

تلك الليلة أدرك أن جددا قدما ، سمع الحارس يقول آمرا ناهيا :
« اسمك منذ الآن أربعة وعشرون .. » .

من صاحب الإجابة ؟ إجتهد أنت يعرف لكنه لم يفلح ، في الليلة التالية انفجر جعير فظيع ، هنا أساءل .. هل رأى أصلى نفسه في الزنزانة ؟ كلا بالطبع

لم تقع عليه سوى نظرات الحارس المتلصصة المنتهكة وحدة المحاييس .. أنا رأيته في حال القبوع والتللم . منطويا ، مزرودا في الحيز الضيق القصي ، رأيته مرتين ، الأولى عند سماعه صراخ الألم في هذه المرة ، مدركا المغزى ، إذ يتعمدون تعذيب أحدهم أمام مكبر للصوت عند وصول مساجين جدد لبث الخشية ، للتلويع بالأمر العظيم المنتظر وقوعه ، أما المرة الثانية ففي ليلة باردة من ليالى حبسه الانفرادى بعد تناوله حبات الزيتون الأسود ، ونصف رغيف يابس ، رقد مقاربا ما بين مقدمة ركبتيه وصدره فكانه يتخذ وضعه داخل رحم الكريمة الحانية رغبة في الولوج إليه مرة أخرى بعدا ونأيا من قساوات هذا العالم .

كان قد قلب عدة مرات حتى يمكنه اتخاذ الوضع الملام لتحاشى ضوء المصابيح الكهربائي الذى يدركه أينما ولى أو المنجه في هذا الحيز المحدود ، فجأة .. دوى الرعد ، أول رعد شتوى .. ثم نزل سكون يبده انهيار عظيم ، تساقط حجارة ، ما هذا ؟ أينهار السجن أم يهدمون الجدران فوقهم ليعلنوا نفاذ القضاء والقدر ؟ أم حجارة من سجل ؟ يتوالى التراطم وما من عاصم ، يتراجع إلى الركن ، أقصى ما يمكن أن يبلغه وآخر ما يمكنه اللجوء إليه ، تتداخل أصابع يديه يغمض عينيه .. ينتظر الموت !

في هذا الوضع رأيته وتأملته ودرت حوله ، ينطق الذعر لأنه وقع في الوحدة ، ما أشأم الوضع عند دنو الإنسان من النهاية وهو بمفرده ، ما من معين أو سند أو مودع أو مشفق أو ملئاع ، والمعروف أن من يرحل غريبا يمضى وعنده حشرات ، يعظم الأسى عليه ، فما البال والحصار قائم ، والإبعاد عن الأهل والصحب جبرى .

لا أدري متى وعى أصلى حقيقة ما جرى ، أفى الليلة ذاتها أم التالية ،

ما ظننه تساقط حجارة أو بدء انهيار سقف ليس إلا نزول البرد ، وظهوره في مصر نادر يؤرخ به ، ومنذ تلك وحتى أوان تدويني هذا لم يتزل ولم يسمع به إنسان من أهل البركلهم ، اصطلمت كراته بالجدران ، بأبواب الزنازين الحديدية ، غير أن ما ضاعف الصوت وضخم الصدى .. سقوط الكريات فوق دوائر الصفيح التي تغطي فتحات التهوية . غير المألوف يثير الرعب لانتفاء التجربة .

هكذا رأيت أصلي ، مرعوبا شأن الإنسان إزاء ما لم يحيط به علما ، وقد عرفت النوم في أماكن شتى ، لكل موضع أصواته كما ألحت ، منها ما يسهل معرفته ، ومنها المبهم الغامض الذي يستعصى على التفسير ، لم أر أصلي إلا مصغيا ، مضموما ، الحق أنني ضقت منه ولم أرض عنه ، صحيح أنه لم يهن ولم يفش مكتماته ، صحيح أنه من الطبيعي في حال وحدته أن يقمى ، أن يللم أطرافه ، أن يضيق ما يشغله من مساحة ، أن ييكي حتى وهو في منأى عن جلاديه ، ولكنني لا أفهم اعتصامه بالصمت عند مواجهة أسريه ، فالعذاب واقع ، واقع ، والألم لا مهرب منه ، لماذا يصمت الإنسان إزاء ما يثق من وقوعه ؟ .

أذكر مقام الضنا فأردد مرة أخرى ، لماذا رضى الجلد العجوز بحمل جثث أحفاده ؟ لماذا استجاب لقتله ؟ أظن أنهم سيقون عليه ؟ أظن أن الدقائق التي تسبق قتله ستمتد دهرا ، لماذا صمت جبال في مواجهة الضابط عندما سب أمه ؟ أخشى مضاعفة الضرب ، ولو .. لكن أثره سيندثر ، أما الألم النفسى فلا يمحي ، يبقى في غور عميق ، دفين ، وهذا ما عانى منه وشقى به ، ثم انتقل ذلك إلىي ، لكنني لورددت الإهانة بعد هذه السنوات كلها فهل يشقى الغليل ؟ لن يمحي هذا إلا شيء من أشياء .. أما الرد في عين الوقت فهو الشاق ، لن

أحيد عن قناعتي وخواطرى بإمكان القصاص بعد طول مدة ، غير أننى أحاور النفس ضاربا المثل بما فعله إبراهيم ، وهو واحد من صحبه الذين سبقوه ، حدث أن ضابطا شابا أخضر العينين ، أجرد البشرة ، مليح التقاطيع ، اعتاد فتح الأبواب فجأة ليردعهم متهكا هجعاتهم كذا التلصص على النيام العزل ، أو اصطناع اللطف فى البداية مع إبداء الرقة فى المحاوره ، ثم ينقض فجأة مسددا السباب أو الضرب بالعصا ، يحميه فى تجواله دائما حارسان غليظان مظهرهما يصدع القلوب الجامدة ، وأحيانا يجرى من ألفت بهم المقادير ، يقيهم كما ولدتهم أمهاتهم ، يضرهم على ما بين أفضاذهم ، لن أطيل وسأمضى متجاوزا عن ذكر الكثير فهذا مخجل .

ظهر يوم اقتحم زنازة إبراهيم ، أمر بإخراجه ، وطلب منه أن يقول بصوت مرتفع «أنا امرأة» فأبى إبراهيم ذلك . عندئذ أشار إلى رجله ، فطرحوه أرضا ، قيدوا ساقيه ، لجلد باطن القدمين ، وقبل أن يهوى بعصاه ، قال إبراهيم هادئا :

«ماذا تريد منى ؟...» .

ثم جابوب نفسه :

«تعذبنى .. إهانتى .. لا .. أنا سوف أريحك تماما ..» .

رفع رأسه عن الأرض ، هوى مصطلما بالحجارة العتيقة ، وكان صدى غريبا مفزعا ، فى المرة الأولى فوجئ الضابط .. غير أنه قهقه ظنا منه أن فى الأمر تهويشا غير أن المرة الثانية كان لها وجه أشد فصمت ، وفى الثالثة أصغى من فى الزنازين إلى ما يجرى ، صمتوا صمتا يفوق سكون وحدثهم ، حتى النائمين عن الوضع أرهقوا سمعهم ، حياة على وشك أن تمضى ، شؤم محلق ، دان ، ينبئ بطبيعته حتى لمن هم خارج دائرة النظر ، مع ارتفاع الرأى تمهيدا

للهدية الرابعة يصبح الضابط ملون العينين ، « حوشوه المجنون .. » .

انقضا ، رفعا مقيدا والدم غامق ، أيقنت خوف الضابط ، نزواته تتجاوز خطا محددًا له ، وكل شيء هنا بقدر ، حتى كوب الماء الذى يتسلل به الحارس عند الفجر إلى الزنازين المدلى فيها من علقوا عرايا مجردين من كل شيء ، ممنوع عنهم الطعام والماء ، مشخين بجراح شتى ، لو أن جمال أقدم وأنى فعلا يشبه ما فعله إبراهيم لرتق فتقا ومنع جرحا ، غير أنه كظم خوفا وخشية ، علمت هنا أن الكتمان أورثه ما شيب سالفه ، بسببه طق أول بياض فى شعره ، كثيرا ما حيره ذلك وتساءل عند النظر فى المرأة ، متى ولأى سبب ؟ أهى ليالى الوحدة فى إقليم المنيا عندما نقلوه قسرا ؟ أهى لحظات غضب أبيه وانصرافه طافشا ، هاتما ، وخروجه للبحث عنه ؟ ولهذا أمر يطول شرحه ، أهى أوقات غامضة يصعب تحديدها ، عكته خفية وأورثته شيئا ثم وهنا يصعب رصده الآن ؟ لطالما فكر وقدر ، رغبة فى تعيين لحظة انسلاخ اللون الأبيض من الأسود ، فلما كان الليل أصلا والنهار منفجر منه ، لذا كان الشيب تابعا .

ألا يولد الأطفال سود الشعر ومع مراحل السفر وتقدم العمر يبدأ التحول ، أصل الألوان الأبيض ، والأسود وما عداهما برازخ تتولد من امتزاجها ، فيظهر من ذلك الحمرة والخضرة والغبرة إلى غير ذلك من الألوان ، من هنا كان الأسود كظلام الليل ، والليل ستر وغطاء ، فإذا جاء الصبح تكشف شمس الحقيقة ما ستره الدجى ، فوقوع الشيب انكشاف ، والبصر والفكر لا يدرك كنه المكشوف عنها لذا لم يستطع أصلى التحديد ، ولأنى عابر ، ولأنى غير مستوطن .. فقد أحطت علما ببعض وليس بكل .

وقفت على الشعيرات التى انكشفت بعد سماع العذاب .. وليل سقوط البرد ، ولحظات وحشة النفى ، وهنا حديث يطول لو فصلته لخرجت عن

عندما أنزلوه في الضوء الكاوي الذي يعتم المدخل الضيق ، وقف قريبا من ضابط الحراسة الذي أخرج خطايا رسميا دونت به الأسماء ، وتعليقات تنص وتشدد على نقلهم من طرة إلى معتقل القلعة تحت الحراسة المشددة .. مشددة ؟! دارى ابتسامة وأخفى ضحكة ، الوقت ليل ، أما زمني أنا فهارى . توقفت متطلعا وعندى من الفضول قدر عظيم ، مقدار من عمر أصلى قضى هنا ، فإذا تبقى منه وأين ولّى ذلك ؟ لو يمت وجهى شطر اللامكان هل أبلغه ، إني مردد عين ما أقص مضجع أصلى قبل بدء معارجه ، واكتمال نأيه . كم تعاقبوا على هذه الزنزانة ؟ كم قضوا فيها ؟ وأى آلام تتر بها جدرانها الصفراوية ، الكنه مستهم ، وما مضى انقضى ولم ينقض ، انتهى ولم ينته ، فإذا يمكن توقعه ؟ أرئى لى وأشفق علىّ ، أصلى لم يوجمه استرجاع الأيام العجاف ، أو إلغاء اسمه ، والصفع والركل ، وتجريده مما يغطى سواته ، أبدا ، إنما ما عقد الماراة فى أغواره ، ظلال أصوات مجهولة المصدر ، وظلال رؤى ، وصوصوة عصفور لم يره كان يحىء فى ميعاد معلوم .. ظهيرة كل يوم ويقف على باب الزنزانة الخارجى ، يؤنسه ثم يتخذ طريقه فى الفضاء سرا ، والمعلوم أن أقسى المنافى والحبوس ما قام فى قلب العمار ، وأصعب الوحدة ما تمت واكتملت فى قلب الزحام . وحبس القلعة المقيت كان قريبا قصيا ، سهل الوصول .. وعرا الاقتراب ، الطرقات مؤدية ، لكن حيلت دونه ، البيوت قريبة لكنها لا تتواصل معه ، فهو فى موقع الغرب النافر .

مسجد محمد على قريب مطل عليه بمثلثتين من أربع ، تجىء الرحلات المدرسية صباحا فتسرى حيوية فى الفراغ المحيط اللامرئى ، يتنادرن ، يمرحون ، عند انصرافهم تبعد ، تضمحل ، فيقع خواء وأشدّه ما يعقب الونسة ، كالفقد بعد غياب الإلف وقديما قيل : ليس أطول من يوم الفراق ، الأبواب لا تؤدى

قصدي ، أما الآن فأقول : إن كتمانهم لم يرقني ، وحذرهم لم يرضني ، وصمتهم في مواجهة من سبه باعد ما بيني وبينه قدرا ليس بالهين ، مع التنبيه على أن موقفي هذا مخالف لما أنا مأمور به ومكلف ، إنما أنا مأمور بإطاعة الأفعال والتزام الجانب قدر الطاقة ، وقد أطلت ذكر ما عانيت ، وإن كان جل ما دونت لا يساوي إلا مقدار ما التقطه الطائر بمنقاره من البحر العميق .. فعندي من الكتمان كثير.

حدث في صباح خريف أن مررت بالقلعة ، لم يكن قد مضى على زمن طويل في هذا الكون بعد بدء معراج أصلي. رحت أعاين مبانيها ، تجولت في زواياها ، وألقيت النظر مرارا على مدخل السجن الجهم .. بعد فراغي من الطواف بظلال مسجد الناصر محمد بن قلاوون عليه الرحمة وطيب الهجعة ، خرجت منه وعندى مالا أقدر على ذكره وإلا انكشف بعض المستور وبان ما ينبئ بالهوية ، مرة أخرى رمقت المدخل المؤدى إلى السجن ، لسنوات شغل أصلي بمحاولة تحديد موضعه من القلعة وأستدل بعلامات من فترة حبسه. منها موقع اللثنتين عند ذهابه وعودته من دورة المياه ، واتجاه الأصوات ، وقراءة التواريخ المنبثة الدالة ، غير أنه لم ير مدخله كما رأيت ، إذ جاءوا به في عتمة الليل من سجن طرة القديم. وعند مطلع الطريق المؤدى إلى جبل المقطم .. تطلع إلى صحبه ، إلى صبري ، إلى عبدالرحمن ، إلى كمال ، إلى سيد ، وتبادل معهم حديثا غير منطوق ، ثم حوّل البصر إلى الطريق .. استوعب التفاصيل التي لا تلفت الانتباه في الأوقات العارية ، هذا المقهى ورواده ، وتلك البضاعة المصفوفة أمام البقالة ، رأى سائق نقل عجوزا يغطي رأسه بطاقية من الصوف ، رأى خدشا عميقا في سور العربة ، وسيافور الخط الحليدي المهمل حولي ينبئ بمروق قطار لن يحى أبدا ، وضوء بعيد يلمع أعلى الجبل ، تساءل : هل سيقدر له أن يرى ما يراه مرة أخرى ؟.

إلى معلوم إنما الأبواب هنا تؤدي إلى أبواب ، والفتح في الوقت عينه إغلاق
والقفل إلى قفل ، والقيد ينفي السراح ، والضيق يؤدي إلى انفراج ، ولكن هنا
المكان ينفي المكان ، فالزمان مندغم ، الأصوات تنقلب معانيها بمجرد وصولها إلى
فراغه ، تصبح مهمومة ، تشير ولا تدل ، تنبئ ولا تفسر ، تفصح عن جمع
وليس عن وتر ، كل صوت يحوى صده ، أصل وظل معا ، لا برزخ بينهما
فيغيان ، يطفى الحس الغروي ويفيض . لكم أشعره ضجيجهم أنه بعيد ،
معزول ، محاصر ، هذه الأصداء المبهمة من أشد ما نكل به ، كذا نداء تردد مرة
واحدة ، شخص يدعو شخصا أو يتحداه أو يدعو إلى تزال ما ، نداء بدد وحدة
عصر غميق ، وإغفاء كالإغماء ، مرة واحدة ، لم يتكرر ، كذا ضجيج مطلع
النهار ، تدفق العريات في طريق صلاح سالم القريب ، الأصوات لم تبدد وحدته
القسرية إنما حددت معاملها ، مع مجيء العصر تبتس اللحظات ، يثق من
استحالة حدوث شيء حتى صباح اليوم التالي .

مع مطلع النهار يسرى هسيس أمل .. فالضباط المحققون الآن في مكاتهم ،
والأوراق تتداولها الأيدي ، والافراج لا يتم إلا نهارا في الأغلب الأعم ،
التحقيق يجري ليلا ، كذا الترحيل من سجن إلى سجن ، أما العصر فما أهمده
وأثقله على الغريب ، المحاصر ، في معتقل طرة القريب من حدود الصحراء ، في
ساعة بعينها عند عمق الليل وبعد انتصافه بساعتين ، آخر قطار قادم من حلوان أو
متجه إليها ، يطلق صفيرا يضيئ على الليل عمقا وبعدا بعد البعد وانقطاع صلة ،
تلك أصوات آلمته ، لم يرتعب لاحتمال عودته ، إنما يرتجف لاحتمال تقييده
واصغائه إلى مشتملات الدنيا مرموزة في أصوات وشظايا أصداء ، إني مرجئ
حديثي عن الرؤى ، فن لا كشف له لا يثبت ولا يقدر ، إنما ذكرت بعضا من
بعض لا أريد أن أثقل ، فما أنا إلا ضيف ، والضيف ينبغي أن يبقى خفيفا فلا

يل مضيفه ، ولأني ضيف فأنا مرتحل ، غارب ، ولو أقت لما صحت لي الضيافة ، إنما سأصير أهلا ، وهذا عين الاستحالة عندي . أنا عابر ، ماض دائما وأبدا ، فالشوق ملازمي ، والفقد من سيائي ، عند تأهبي للنقلة من طور إلى طور لحت دليلي ، أقبلت نحوه ولكنني لاحظت أنه بمقدار اقترابي منه يكون ابتعاده عني ، شغلني ذلك ، غير أنني انتهيت عندما نطق ..
« أباك جوى نكته ؟ » .

أقول :

« عندي منك .. » .

متطلع هو ناحيتي لكنه ناء . ما أوسع الشقة ، كأن أصلي لم يعرفه ولم يشهد أيامه ، كأن ما يفصله عنه أمد سحيق وليس سنين معدودة ، بصمت ولا أكف :

« ألم يمر ذلك في زمانك ؟ .. » .

ثم أقول :

« ألم يؤد ذلك إلى زمن الانكسار ؟ » .

أشير بأصبعي إلى اللاحظة ، أرى في عينيه عتابا ولوما ، يقول :

« ليس الأمر كما تظن .. » .

ثم يقول :

« إنه قديم وسيطول .. » .

أتأهب للمجادلة .. غير أنه يشير محذرا :

« انتبه .. فما يعرض لك لن تلمحه ثانية أبدا .. » .

أرد إلى السطح فإذا بي غير مقيم .

« هذا ما كنتم به توعدون. »

(قرآن كريم)

فضاء بلا حد ، وجهات صعب الوصول إلى بداياتها ، سماء تمت إلى زمن انقضى ، أما الأرض وما عليها فن زمن مغاير ، أما الأم القاعدة أمام باب الغرفة فتمضي في زمن ثالث يصعب على تحديده ، الملح أطراف شجرة باسقة ، منمنمة ، تمتد إلى زمن سحيق أنأى من الأزمنة الأخرى الثلاثة ، غير أنني لم أحط علماً بالبعد ، صوب مستقبل أم إلى ماض ؟ كل فرع ينتهى بشمرة من نوع مغاير لما انبته بقية الفروع ، كل ورقة خضراء نضرة أو صفراء جافة تمت إلى وقت مغاير . فكيف جرى الائتلاف ؟ وكيف اقترن البعيد بالقرب ؟ تتجاوز الأزمنة ، تتداخل ظلال من عصور مختلفة ، وهذا من أعجب رؤاى منذ بدء سفرى وإتمام إقلاعى ، أما أنا فعندى زمنى ، أحتويه ويحتوينى ، يبيلنى وينشئنى ، أنا منه وهو منى ، بدأ معى وكان قبلى ، يندثر برحلى ويبقى بعدى ، أنتبه إلى دليلى ، يقف عند نقطة من الفراغ أعلى منى ، كأنه يقف عند قبة درج غير مرئى ، أسأل بالنظر من بعيد ..

« أين أنت الآن ؟ » .

يحاولين بالنظر :

« محاصر .. » .

« أى حصار .. فلکم حاصرت وحوصرت .. » .

« جصار الحرب .. » .

« وماذا عنك ؟ » .

« آخر من يأكل ، وآخر من ينام ، وأول من يستيقظ .. »

يغيب صوته عنى مقدار لحظات ، ثم يجيئنى ..
« القصف شديد والممدد متقطع .. » .

أقول ملما :

« كان الأجدى أن تحكم الحصار على من عادوك وهم كثر .. » .
« لكنهم يقولون بقسوتى .. » .

« هذا صحيح ولكن على من اتبعوك .. » .
يقول وصوته واهن :
« هذا تقدير .. »

أكف حتى لا أحدد ولا أعين ، أرسو عند لحظة من أقدم اللحظات التى بقيت مصونة فى وعى أصلى ، وقد عايتها فى بدء أسفاره ليلة من ليالى الحقبة المندثرة ، أشعر بوجود دليلى فى موضع لا أقدر على تحديده . أو رؤيته بإمكانية بصرى ، المدينة معتمة ، ليل الحرب يضيح ، نجومه أغزر ، أما ضباب الهجرة فسرمدى غميق ، أكاد أشغل بما أنا فيه محاولا النفاذ إلى المغزى وتوسم علامة ، ما هى كينونتى وماهيتى ؟ كذا مقارنة السماء التى داومت التطلع إليها فى زمنى الأول مجتهدا فى تتبع نجومها وتقصى مصائر شهبها وتحديد مسارات رواجمها وتأثير بعضها فى بعض ، هنا وجب تنبيه ، لم أكن عالما بالنجوم فى نشأتى الأولى ، لكننى كنت منشغلا بها ، ولأننى ممنوع من التصريح لذا أكتفى بالتلميح ، فلاأطو سرى فى قرار مكين .

قال واحد من الأجلة .. كل من أخفى السر سرعان ما يفوز بمراده ، عندما تختفى الحبة فى الأرض فإن سرها يجعل البستان مخضرا ، إذا لم يكن الذهب والفضة مختمين فكيف ينضجان فى أغوار المناجم ، إذن .. اجتهدوا فى فهم ما

أقول ، وتفحصوا ما أرمز إليه من إشارات ، ولا تظنوا في السوء ، أعوذ بالله أن
أكون من الجاهلين المتعالمين ! .

من أجلها تركى القرار وخفضه
وتجشئ ما لم أكن أتجشم
ولقد كنت غداة بانت حاجة
في الصدر لم يعلم لها متكلم

لا أعرف اسم النهار السابق ولا الغد اللاحق ، أصلى لم يع ذلك ، ولم
يحفظ بما يدلله ، وأنا مقيد بعلومه حتى عن ذاته ، فبش المصير ! ، إنه العام
الثامن والأربعون ، منه تبقت أول علامة في طريق سفره ومشقته ، والسفر هو
الظهور ، سمي السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال لما فيه من تعب ،
وطريق أصلى وعمر ، قبل هذه اللحظة أحاطه غمام فكانه لم يكن ولم يغشه ولم يمر
به ، لذلك كان دائم التطلع إلى ابنة وهو ابن عام أو عامين ، يقول لنفسه ، إن
ما يراه محمد الآن لن يبقى معه ، سينساه ، سيمحى منه ، سيتلاشى من رصيد
وعيه تماما ، فهو يعيشه ولا يعيشه .

في أول الطريق يكون الطفل متلقيا ، حتى إذا قطع في السفر مدى ، ربما
عامين أو ثلاثة فيستعيد شيئا أو ملمحا مما استقر عنده ، وكلما أوغل وتعد ..
تزايد تراثه ، حتى إذا قرب تمامه ودنا اكتماله وقرب الحط انكفأ على قديمه ..
فيرى عندئذ ما لم يره من قبل لحظة وقوعه ، ويعلم ما لم يعلمه في الحين عينه .
إنها اللحظة الأتأى ، الأبعد ، هذا ظني ، الأب مستيقظ والأم قاعدة ، يلدو
أنها حامل ، لم أتحقق ، لم أتأكد ، طفل فوق السرير الحديدى أسود الطلاء ،

طفل واحد ، فقد رحل كمال ومن قبله خلف ، لها حسن العقبى يوم التناد ، من ؟ إنه أنا من ناحية ، وأصلى من ناحية أخرى ، يقوم الأب متجها إلى الباب ، يشد المزلاج الخشبي ، تقول : إلى أين يا أحمد ؟ تخالف خروجه إلى السطح ، منذ أيام سمعت امرأة تحكى عن حادثة جرت بالطوف ، إذ خرج رجل حلاق إلى الشرفة بعد إطلاق صفارة الإنذار ، وفجأة شقت شظية ساخنة طريقها إلى رقبته ، ذبحته من الوريد إلى الوريد ، ذبح الشاة ، أخطر ما في هذه الغارات تلك البشظايا الفضالة المندفعة كالمصير ، خطر يقرها منه ، ماذا كان يمكنها أن تفعل بدونه في تلك الليالي الغاصة بالموت ؟ .

تستعيد الآن ليالى الحرب الكبرى ، عندما كان الألمان يغيرون كل ليلة على مصر ، كان السكان يتزلون إلى الطوابق الأرضية ، يفتشون الأرض أمام الغرفة ، في الظلام تحتك الأيدي مصادفة ، إحصى الليالى لجأ جماعة من بيت قديم مجاور إلى الفناء ، اضطروا إلى فتح الباب للدخول لبعض الجيران الأقربين إلى الغرفة ، أم هدد وابتتها غير أن رجلا أو صييا - لا تدرى ولا تعرف كيف دخل - اقترب منها هامسا « أنت عطية ؟ » ، ارتجفت خوفا ، « أحمد .. أحمد » أجابها غير بعيد متسائلا مستفسرا ، غير أنها قالت ، « لا شيء .. لا شيء » تخشى غضبه ، وقد يتطور الأمر إلى ما تكره وتبغض ، لذا كتمت والكتمان طبع غلب عليها وطفى ، فكم أخفت ، وأضمرت ، وصانت ، إذا نامت بحمل أو تعاظمت أفعالها ، ربما تبلو منها كلمة أو آهة أو إيماءة . لكن في الأغلب الأعم نظرة دالة ، أعرق تعبيرا وأمضى تأثيرا .

عيناها اتصلتا بشفتيها دائما ، فنظرة العكارة يصحبها زم ، أما السرور فله الانفراج والوسع ، صلة بين ممكن وواجب ، بين ضرورى ومحتمل ، غير أن ثمة لحظات استحصت على فهم أصلى ، ولم يلق لها تفسيرا ، تضيق ملاحظها فجأة ،

تفضي في ندرة ، « إني في ضيق » تخرج إلى الشرفة ، أو تقوم لتروح ونجى ، تبدو وكأنها على وشك انهيار غريب ، يتطلع أصلى صامتا ، لا يلبح ولا يحاول النفاذ ، يعرف أنها لن تفضي ولو بشذر ، ما الذى أقلقها ؟ ما الذى جعلها تنتفض فجأة ؟ هذا ما لن ألقى الإجابة عليه ، فقد أتمت رحيلها بعد معراج أصلى ، وقدر لي أن أعيشه وأشهده ، وهذا حديث له تفصيل وموضع . فكم من المكتات ذهبت بصحبتها ولن تنكشف أبدا ، تلك كوة أغلقت ، ونبع اندثر ، ونسيم لن يهب أبدا . وأيام زالت ، فلها الرحمة ، وطيب المثوى ، وحسن العقبى إن كانت هناك عقبى ، وأطلب الرحمة بالأخص لصوتها لحظة لفظها كلمة « ياولدى .. » ، فلم أشهد في قديمي أو محدثي صوتا أوتى قدرة على تحميل نقطة واحدة بشتى المعانى والعبر مثلها ، هذا مترسب في خاطرى وفي دمي ، صعب شرحه ، غامض نبره ، فليس الذى يمرى من العين ماؤها ، ولكنها نفس تذوب وتقطر ، يثقلنى استعادة ملامحها الهادئة ، تثير عندي أحاسيس شتى ، هى محل تكوين أصلى ، وأول موطن له ، وآخر محل آمن ، احتواه وضمه حتى سواه كائنا يسمى ، أخرج من الغرفة إلى السطح ، غير عانى بالشظايا ، فأنا مضاف إلى هذه اللحظات ، لست منها .

يقف الأب أمام الحجرة ، سماء مزدحمة بالنجوم ، لم يرها هكذا أبدا حتى في أيام هجائه بالحقول ، ومبينه قرب الطريق الوعرة في خلاء قفر ، تبدأ انفجارات متباعدة ، ينشطر ظلام الأفق ببرق لاهب ، صيحات من ناحية قصر الشوق تأمر بإطفاء الضوء ، يقولون إن الطيار يرى لهيب عود الثقاب ، الأب يتململ بتأثير غامض ، خفى ، ليس بتأثير الحرب ، يوشك على الصباح « من هنا ؟ » . كأنه يصنئ بشكل غامض إلى صدى وجودى ونفاذى إلى هذا الزمن ، أضواء الكشافات تشق سواد الليل كتنصال كونية ، تلمس الظلمة إذ تمر

بها ، خلال بريقها تبدو أطراف من المدينة ، ملمومة ، متضامة ، متحفزة ، متأهبة لصد أذى ، تتجمع حزم الضوء المستطيلة عند نقطة بعينها ، هدير يعقبه آخر ، ضوء ثم صوت ، برق بعده رعد ، يعلو صوت من الحارة آمرا سكان الطوابق العليا بالتزول ، المكوث خطر .

يرجع الأب إلى الغرفة ، يوقن أن غريبا في السطح ، ربما أنس وربما روح هائمة ، لا يفصح خوفا على امرأته الحامل ، الولد مستيقظ ، منكمش بجوار أمه ، لا يبكي ، هذا الصبي ما هو إلاي ، أنا ، أتطلع إليه في الغبشة ، أى علاقة بين هذه الكينونة وبينى ؟ ، بين الملامح التى أراها وتلك التى ستتغير وتبتدل ، بين هذا الحيز المكافئ الذى يشغله الآن ، والأماكن التى سيرحل إليها ويشغلها ويطأها بقدميه هاتين ؟ .

بين الصور التى تشغل ذهنه الآن هو المثلث لا غير وبين الأفكار المواجهم والبواده والواردات التى ستقلل سكينته ؟ ما سر العلاقة ؟ ما الفرق بين الإنسان فى محط السفر هذا والمحط الذى يليه ونقطة التوقف النهائية ولحظة الوصول التى تنعدم الأمكنة والأزمنة بعدها ؟ هل يقع التغير والتبدل ، أم أنه الإنسان هو هو عينه ؟ إني من الحيرة والله لنى حيرة ، فتنى ألقى الإجابة ؟ .

يتردد نداء « المجرسى » ، إنه باشجاوئش فى المديرية ، يحض الأب على النزول ، تنقطع خواطرى ويسكن عندئذ ميدى ، أنتبه حتى لا يفوتنى من الأمر شيء ، الليلة ليست مثل الليالى السابقة ، بيت انهار فى العطوف ، وآخر اشتعلت فيه النيران قرب الكفر ، الخطر قريب ، البيت كله عند أحمد عمر ، لو أن الأمر يخص الأب لما نزل درجة واحدة ، ألم يمنع ابنه عمر من الصعود إلى السطح لنشر الأبسطة القديمة فى الشمس ؟ صحيح أن صلحا تم فيما بعد ، عندما توسط بينها حسن أفندى . تساءل ضاحكا : ألا تعرف أن أحمد عمر

من طهطا ؟ فأقسم الأب أنه لا يعلم ولا يدري ، من أى بيت فى طهطا ، قال أحمد عمر إيه من بيت الذعبي ، قال الأب ، أتعرف فلانا ؟ فيقول الرجل نعم أعرفه ، عندئذ يذكر الأب طرفا من السيرة ، بمن تزوج من أنجب حتى تعجب أحمد عمر وقال إن القبطانى يعرف عائلتي أحسن مني ، صحيح أن الود اتصل ، ولكنه لم يقبل بصعود أحد إلى السطح فكيف يتزل الآن ويدخل شقته مع امرأته وابنه ليحتموا داخلها ؟ الهجرسى يلح ، الأمر خطر ، الهجرسى عنده ولدان ، شافى وشعراوى ، هما الآن يحاهدان متطوعين فى فلسطين . إنه عالم بمخاطر هذه الغارات وأهوالها ..

« لا بد من الترول .. » .

ينظر إلى جبال ، إلى ..

« هل أحمله ؟ » .

تقول الأم :

« إنه .. يقدر على المشى .. » .

لحظة تجاوزهم الباب ، بالضبط تلك اللحظة ، لحظة رؤيته النجوم والأضواء الكاشفة ، لحظة لسع البرد للوجنتين ، وسماع صفارات نائية منبعثة من أماكن شتى بالمدينة ، ورنين جرس سرعان ماكف ، فيا هذه الموجودات من عابرة ومقيمة ، قدر لك أن تبقى حية فى هذه الذاكرة التى سنطفىء عند حد بعينه ، قدر لك أن تكونى أول وعيه عندما يتذكر قديمة ، أما ما سبقك فتواري ، اندثر داخله ، فكيف حاله لو وعى وأدرك أنها ستبقى معه أبدا ، وأنه سوف يستعيد بها فى بقاع شتى ، وأزمة مختلفة ، لكن أنى له ذلك .. خلق الإنسان جهولا ، وإنما العلم كسبي ، حتى ما أظنه باقيا لا يبقى ، إنما تومض اللحظة عند استعادتها لا غير ، ثم تنطفىء . ويوما ما سنعلم الذاكرة ،

تتطفئ ، فأى الصور الأخيرة ستترأى قبل الإغماضة الكبرى ؟ أى اللحظات
أى ؟ .

أتبع النازلين . أراهم فى شقة أحمد عمر ، إنها المرة الأولى التى يشهد فيها
أصلى مسكنا من داخله فى هذا البيت ، إلى اليمين غرفة فسيحة خصصت
للنساء . أما الصالة فالرجال يصطفون حولها قعودا ، تبدو الوجوه نائية بملاعنها
فى ضوء المصباح الذى غطى بورق أزرق شفاف ، أصلى يؤثر الانضمام إلى
الرجال . يلتصق بالأب ، يصغى إلى أحاديث شتى ، تتداخل مخارج
الحروف ، تنوء الجلسة فى أخرى ، أرى ليالى عدة فى حيز واحد ، يتحدث
المجرسى عن ولديه .. شعراوى لم تصل أخبار منه ، أما شافعى فأرسل خطابا ،
إنه فى المجلد ، يخبر عن دبابة اسمها النمر ، ومدفع يشطرها نصفين ، وعن شبان
عرب تنفذ ذخيرتهم فيلقون أجسادهم على الحديد المدجج ، ونساء اليهود
يحاربن كالرجال ، أطرف بعينى ، هذه آرائك مفروشة بقماس ملون ، رائحة
مبيد حشرى ، الباب المؤدى إلى الشرقة مغلق ، مسدلة ستائره ، لكم أتمنى
الخروج إلى الشرقة ، أرى الليل ، السماء الملتبة ، والمدينة التى تتخفى .

صفارات الأمان ، طويلة ، ممتدة ، مع أن الأمان فى السفر قليل والمخاطر
غالبة ، تتبدل المراثيات ، أوقن أننى مقبل على أمر سيئيردهشتى ويزلزل ما أيقنت
منه دهرا ، أرى امرأة بديئة . لا تساعلنى الرؤى وطبيعة الضوء على التيقن من
ملاحظتها ، إنها مريضة ، تلازم فراشها ، والأم تزورها ، تصحب أصلى معها ،
أتوقف ، أدق ، من أى منظور أتطلع إلى هذا الرقاد ؟ هل أنا واقف .. هل أنا
قاعد .. هل أنا محمول ؟ لم أدر .. من أى زاوية أنظر ؟ لم أحط علما ، هنا
أتوقف فقد لزم التنبه ، ثم التعليل ، إذ عاش أصلى على يقين أن أول الصور
الباقية فى ذهنه ، أول ما لم يدركه المحر ، أول ما استحصى على التوارى ، تلك

اللحظة التي أفضت فيها وتكرر ذكرها ، لحظة خروجه بصحبة أبيه وأمه ، ليلة هذه الغارة ، لكن مهلا ، إن ما تكشف لي مغاير لما استقر عليه وعيه منذ أمد ، لماذا ؟ لأن هذه المريضة الراقدة هي نعيمة ، امرأة ييومي الحلاق ، المريضة ، صاحبة أم هدهد ، إنها تقطن شقة الطابق الثالث التي سكنها الهجرسي وأولاده بعدها ، أما هي فانتقلت إلى بيت آخر في ميدان بيت القاضي ، لم تكن نعيمة من سكان البيت في ليالي الحرب من أجل فلسطين ، إذن .. ماموقع هذه اللحظة ؟ من أي جهة تطلع أصلى إلى المريضة ؟ كم عمره وقتئذ ؟ أم أن الرؤيا نتاج أحاديث جرت على مسمع منه ومرأى ؟ لا ألقى الجواب ، تعزى العلامات وتندر الإشارات عند هذه النقطة من الطريق ، لماذا تبقى لحظة دون أخرى ؟. ما طبيعة العناصر التي أبقت هذه حية ، وجبت ماعداها ؟ أتكن في المتلقى ؟ أم في المصدر ، أم ترتبط بحدود الامكان الإنساني ؟ أكاد أضل ، خاصة أن المعالم منطمسة ، لكم أنويه بعجزى وهى إذ يغمض الأمر ويعسر ، لكم كنت في وجودى العتيق أكثر قدرة ، حتى دليل غائب عني ، عزيز المشاهدة ولولا أنى مأمور مكلف لانصرفت وما أتممت .

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى
على كبدي خشية أن تصدعا
فليست عشيات الحمى برواجع
عليك ولكن خل عينيك تدمعا

عند هذا الحد لاح ما يخفف عني ، ويطرى قلبي ، أليس اليسر يعقب العسر ، وبعد الليل انبلاج فجر ؟ ، والتخفيف عني يكون بظهور امرأة ، إما في دائرة بصرى ، أو في أيامى ، هكذا رأيت بنية باسقة ، لوجودها رحيق وأزيز ،

أدرك أنها ظهرت لمؤانستى وإن كانت لا تخصنى ، رأيتها من موقع اللحظة المندثرة
فرغبتها وأججت عندى شهوة مندثرة ، فأجيت أرضا من بعد جذب فانتعش
أمرى ، كنت عند العام الثامن والأربعين ، هذا موقعى فى السفر حيث اللحظة
التي أطلت المكث عندها ، لم تكن قد ولدت بعد ، وهذا غريب .. غير أن ما
عجل ظهورها ضيق وحيرتى ، خاصة أنى مازلت فى أول المسعى ، وموقع ذلك
فى الترتيب بعيد ، لكن عجل بظهورها للتخفيف ، وهذا من مظاهر اللين
والرحمة لى ، هامى ذى تمثل أمامى ، متفجرة الحضور ، قبل أن تولد ، قبل أن
تتكون فى رحم أمها ، فكأننى أشتى العدم ، وأعشق المحال ، ولكن هذا ما تقرر
لى ، وقد حاولت التقريب جهد الطاقة ، فن لم يدرك ومن لم يفهم فالذنب ذنبه
لاذنبى ..

﴿ وأما من جارك يسمى وهو يخشى فأت عنه تلهى ﴾

(قرآن كريم)

.. ها هو ذا أصلى ، أراه مكتملا ، يقف فى مطار بأرض غربية ،
يتحدث إلى امرأة عجوز تتكلم اللسان العربى بصعوبة ، إلى جوارها يقف
رجل أحمر الشعر يمسك قبعته بين يديه ، يومئ برأسه وإن بدا عليه أنه يفكر
فى شىء ما ، يخالف ، مغاير لما يدور حوله الحديث ، أحاد ، ما العلاقة بين
وجود أصلى فى هذا المكان وبين البنية الهيفاء التي رأيت من جالها بشارة
وقبسا ، غير أن قلنى لم يعجل أمرا ، فكل شىء يمضى بقدر ، أرى البعض
يمشى ، والبعض يقعد ، شابة تقرأ كتابا فى لغة لا أفقه منها حرفا . وبائعة
جميلة ترتدى ثوبا بنيا قائما تقف خلف صوان عرض نظيف ، به أكواب

عصير ، وأطباق الطعام الجاهز السريع ، وقطع حلوى ، ورائحة طيبة منبثة في فضاء المكان ، أسمع صوتا بلسان غير مبين يتردد عبر مكبر الصوت ، فيتأهب قوم كانوا جالسين ، إذن . هذا تنبيه بإقلاع وشيك ، أكاد أشرد ، غير أن هاتفا خفيا يردني إلى أصلى .. أرى عينيه تتطلعان ونظره مستنفرا ، أتبعه فأراها هي .. هي ، القامة السيسبانية والشعر الصفصافي المنسدل يوطر الملامح ويحددها ، أراها الآن أوضح وأقرب ، تتلفت حولها ، ثم تحسم أمرها فتجلس في مواجهته تماما ، وعندما تطلعت إليه نفذ وجودها إليه ، فامتزج عبرها بثناياه ، وتغلغل في أعضائه فانتفض ميله وتفتحت عنده طرائق ، واتقدت رغبته ، وتكاثرت الأمنيات على خواطره .

يعاود النظر فتعائق عيونها ، يتأكد من وقوع الأمر ، يود لو أنه بمفرده ، لو انصرف الجالسون معه ، تقوم واقفة فينهض معها صدى قلبه ، ينتفض داخله ومظهره ثابت ، يتحرك ما في أعماقه ويسكن خارجه ، فأى جهد ، أى عناء ، تغيب تاركة حقيبتها فوق المقعد الجلدى الوثير الذى مازال يحتفظ بحرارة ملمسها ، لا يطول غيابها ، ترجع فكأنه يراها من جديد ، ينهر بطولها المتناسق ، قامة دالة مفصلة ، قدت من استواء واستدارة ، هذا السريان الخفى ، ينبعث من جسدها فكأنها تمشى فوق الماء ولا تبتل ، أو تخطو في الفراغ ولا تطفأ اليابسة ، كأن داخلها وتر مشدود يوشك أن يرمى ولكنه لا يرمى : كأنها تطاول شيئا خفيا يحلق على مقربة ، تجتهد في الابتعاد عن جذرها إلى أطراف لا يمكن رصدها ، دعاه صبحه إلى صالة الطعام .. تبعهم صاغرا وعنده تشب حسرة ، غير أنها بعد لحظات ولجت فراغ المطعم ، واجهته من المنضدة المقابلة ، أيقن أن في الأمر قدرا وتدبيرا ، وأن في أفق المجهول بشارة ، اتصل النظر ، وعبر ما عبر ، فما أعجب الأمر الخفى وأندره ، فيه ما

يصعب الإفصاح عنه ، أو تفسيره .

بنظراتها حركت أوضاعا ، وبعثت عنده خدرا ، وأورقت فيه المنى ، فأحلى ، وما أجمل وجود الأنثى في هذا الكون ، بها يبدأ الكمال ، وتستمر الديومة ، ويقع اللطف ، وتتشهى الراحة ، وتولد الطاقة ، وينفجر الانبعاث ، ألم يقل الهادى الأكبر الشيخ محيى الدين أنها محل التكوين ، بقدر تأجج رغبة أصلى واتقادها فإن اشتعالها يصاحبه حزن ، لا يغيب عنه أبدا ، إن ما بدأ سينتهى ، قد تنصرف بعد لحظات ، حتى اللحظة لا يدري عن وجهتها شيئا ، غير أن أساء هذا لا يتعلق بهذه البنية تحديدا إنما هو طبع جبل عليه ، وعنصر من خصائصه ، لحظة تقييله الثغر العذب الريان ، وإيلاج لسانه متحسسا فم المحبوبة من باطن ، إنما يفكر في عظام الجمجمة الخاوية التى سيؤول إليها هذا المصير ، والعدم الذى سيخلف الروق الدافق ، وعظام الساعد الملتف المعانق والترقوتين خلف النهدين ، والحوض الذى يكتمل عنده الاتحاد ويتم إيلاج الكل فى الكل ، وهيكल هذا الخصر إذ يعثر عليه يوما بعيدا منفصلا عن تاريخه الحى ، وكل ما مر به ، وما تردد عبره ، وما شدا حوله حقا .. إن العدم كفر ، إن العدم كفر ، أما الزمن فغالبا مبدد ، مهلك ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وعندما أوشك أصلى على الفهم وإدراك الكنه .. تبدد .. ونفى إلى أرجاء الكون ، لا تجتمع منه ذرتان فى موضع واحد ، ورثت عنه كافة عذابات ، هو الذى لم يستكن أبدا ، ولم يرتح باله أبدا ، ولو قر قراره لحظة لظن أنه الأبد الصامت .

ها هو ذا منعقد الجبين ، ساهم ، لا يدري من بقره ، من يفكر فيه ، ترى .. من هى تلك الحساء الباسقة التى تنأى بعدا عن الثرى منبتها

ومثاها ؟ ، عند كل خطوة منها تبدو كأنها مستشب ، ستقلع ، تمضي عبر الفراغ كطير نادر ، فما لب القصة ؟ .

يرتفع نداؤه .. اقترب وقت الرحيل وتحدد ، يودع رفاقه ، يضطر إلى التحول بعينه عنها ، تغيب عنه ، تشب عنده حشرات ، يتجه بطيئا ، مثقلا صوب باب الخروج ، طابور ممتد ، بوابات التفتيش مستببة ، أين ؟ لا يراها ، تعبر العرية ساحة المطار ، الممرات ممتدة . لماذا تبدو الأرض هنا كأنها على عتبة السماء مباشرة ؟ ، لماذا ينأى الأفق بعد غيابها عن بصره ، تتوقف العرية .. يحلق ..

تقف عند عتبة السلم .

تتظر دورها في الصعود ، تقصد البلد الذي يسعى إليه ، هي بعينها ، تستدير قليلا فتواجهه وعندها ابتسامة ، تقف بكيئونتها الفارحة .. كالحقائق الأزلية ، كالشرق والمغرب ، لا أقول كالشروق أو الغروب لأنها غير ثابتين ، غير دائمين ، فلها أجل ، يبصرها بالتوالي ، مرة غير مصلق ، فلكثرة ما رغب ولم ينل ، لطول ما تمنى ولم يصل ، ولشدة الإخفاق الذي أصبح تراثا مكتملا .

لم يتصور قط أن الأمور ستمضي هكذا ، طيبة ، هينة ، تلتفت ، يلتقي بها بالنظر ، خلصة فيها الاستفسار الأتم ، وغامات بعيدة مسكونة بالطل والوعد بغيث منهر ، ستضمها الطائرة معا ، غير أن مخاوف تتجدد ، في أى مكان سيكون مستقرها ومرساها ، مشغل أى حيز ، ستجلس إلى جوار من ؟ ستسبقة إلى الدخول ، هل سيجد المقعد المجاور خاليا ؟ كيف يمكنه الاقتراب منها ؟ غير أن جراءة تواتيه لا يعرفها في أرض موطنه ، وإنى لمتسائل ، لماذا لا تبدد حواجزه الحتمية إلا في أرض غربة ؟ لماذا لا يتحرك إلا في أرض غريبة

ودار سفر.. مع أن الغرب ضعيف ، ربما لأنه ناء ، قصى عن البنية المعتادة .. والستارة القمعية والعيون التي تعرفه ؟ .

إنه يلج الطائرة وأمره في ثبات وحاله مترقب ، يقطع الممر الضيق بين المقاعد ، متمهلا ، محذقا ، متجاهلا المقاعد الخالية المتاحة له الجلوس فيها ، ها هي ذى إلى جوار النافذة المستديرة ، تضع حقيبتها فوق المقعد المجاور ، لتمنع جلوس أى شخص آخر. هذا جلى إذ تتطلع مرحلة ، مبتسمة ، يومئ ، قومئ ، يحببها تحية من كتب له وقدر عليه أن يقابلها منذ مولدها ، تحية القادم من بعد سحق ليتقاطع وقته بوقتها ، وفي الحيز المحدد يلتقيا ويتجاوزا ، كل شيء بقدر .

اعلموا أن اللقاء أثناء السفر له خصوصية . لأن في الأمر قدرا من الغربة .. إذ أن الغرب للغرب معاضد ، وعند الانتقال تدنو الأخطار ويمكن اللامتوقع ، المجهول ، خاصة إذا أسرعرت الوسيلة وضافت المساحة ، يقول القائل لنفسه : ربما ألقى حتى كذا جارى الذى لا أعرفه ، فيبدأ عندئذ الاقتراب ، ويدنو الفرد من الفرد .

أول ما وصله منها رائحتها ، انبعاث وجودها ، عيرها الأثنوى ، إشاراتها الخفية إلى العالم الخارجى ، لحظة استنشاقه لها بقيت عنده حتى بدء معراجه ، وذهاب مدته ، ثم انتقلت عندى ، لكل أنثى أريجها ، اعتاد الاحتفاظ فى خزانته حتى إذا انقضى العهد وتمت العلاقة استعادها مرات ومرات ، لا تن مع مضى المدة ، ولا تحب رائحة أخرى ، وفى الأغلب الأعم تكون مفتوح الذكرى إلى طرائق وسبل لا حصر لها .

يمد يده ، تلتقى أصابعه القادمة من بعيد بأصابعها ، يسرى إليها وتسرى إليه فيخفق قلبه ويدب عنده انتشاء ، لم يخش ظهور أمره ، لم يخجل ، تقرب

وجهها منه ، تشير إلى صدرها ، تقول بلسان عربي غير مبين : « أنا » ، تتوقف ، لم تكمل ، تفتح حقيتها ، تخرج دفترا صغيرا ، بنى اللون ، لا مذهب الحواف ، تقلب صفحات ، تشير إلى سطر يحمل اسما وعنوانا ورقم هاتف ، تقول بفرنسية : « صاحبي » ، لا تعرف من الإنجليزية التي يلم بجانب منها إلا كلمات معدودات ، أما حصيلتها من العربية فنادرة ، علمها صاحبها أسماء الأعضاء الجنسية ومواضع الشهوة في اللغة الدارجة .

في الطائرة عرف أنها تقصد البلد الذى يسافر إليه في أجازة مدتها أربعة أيام ، تلك عين المدة التي سيقضيها ، لن تريد أو تنقص ، عندما جاءت المضيفة بالطعام قدم إليها الصينية المغطاة بورق شفاف ، ساعدها في ترتيب الملعقة والسكين ، يبدى ودا ، يظهر عناية ، تقول ممتنة : « شكرا » . لم ينظر إليها أثناء تناولها الشطائر ، كما خشى أن تبدر منه علامة نهم غير مستحبة .. فراح يقضم قطعاً صغيرة يصفها بتأن ، يختلس النظر إلى من يمكن لهم رؤيته . هل يرقبه أحد ؟ هل ينظر إليه أحد ؟ أبدا ، الكل لاه .

تطلع عبر النافذة ، غيوم وكون رمادى ، تتقلص ملامحها ، تقول ما يعنى رداءة الطقس ، هكذا قدر ، وحتى إقلاع أصلى من فاس المباركة لم يدر ولم يقدر على إدراك كيف اتصل حوارهما رغم شحة اللفظ ، وندرة اللغة ، لو طلب منه استعادة اللحظات بعد انقضائها وشرح هوية التواصل لما استطاع . ولكل أمره .

إسمها اليزابيث ، تعمل في متجر يبيع الأدوات الكهربائية ، على وشك التخرج في إحدى مدارس اللغة ، تنوى الالتحاق بمكتب للسياحة ، حيث الوضعية أفضل ، إنها من الريف ، أمها تعيش في قرية صغيرة يمر بها نهر صغير صافية مياهه ، تشى بما يستقر في قاعه من حصى ، القرية قرب الحدود

الجنوبية لكنها جاءت إلى العاصمة تستأجر غرفة صغيرة ، ضيقة جدا مع امرأة عجوز ، تدخر مالا كل سنة لترحل إلى بلد غريب ، إنها تقصد هذا البلد أول مرة ، لا تعرف صاحبا أو صاحبة هناك ، أما جمال ففاض للمشاركة في مؤتمر ، البعض ينتظره في المطار ، أحدهم يرفع لافتة كتب عليها اسمه ، يتقدم نحوه مبتسما غير غافل عن موضعها في الطابور المصطف أمام مكتب الجوازات ، يقدم جواز سفره . إلى مستقبله ، يسأله عن محل إقامته ، يطلب منه التمهّل لحظة ، يخط عنوان الفندق وعنوانه ، يفترقان ، كل إلى سبيله .

طوال ليله الأول يتساءل ، هل سيراه مرة أخرى ؟ لو أنه في إجازة لما فارقها غير أنه اضطر ، عندما أغفى ، أثناء اجتيازه البرزخ الفاصل بين اليقظة والنوم ، استعداد رانحتها ، وحضورها الخامس ، ولملمس شعرها السيال الناعم المنسدل ، عندما مال عليها وفكر أن يلثم وجنتها . تردد ، ليته فعل ، غمره حضورها الأنثوى فبدد تعبته وانتزعته من تخوم النوم إلى أنون الرغبة واليقظة .

في وحدته هذه ، حام حولها ، جردها ، قبلها ، مرغ رأسه على نهديها ، حاد بها ، ضمها وهي نائمة حتى كفى ذاته بذاته ، هذا لم يرضى ، لم أتقبله منه ، لم يكفنى ، وهنا دهشت لما وقفت على المرات التي اعتصر فيها خياله وأرهقه مستدعيا ساقين عاريتين أو مطلع فخذين انحسر عنهما ثوب ، أو مرأى جارة شابة ناهدة الصدر . عصر كل يوم تخرج إلى النافذة ، تنحنى مطلة ، ذراعاها سحيتان ، ومفرق نهديها باد ، ثوبها يتوارى في مفرق ردفيها ، فيتحدد الأمر وتبرز التقاسيم ، يشعل هذا فيه حمى ويبعث هذيانا ، يناجيا عبر النافذة بداية بالكلام الرقيق ثم يثنى بما يمكن التفوه به عند المضاجعة ، حتى أنه ليخور ويزوم ويطلق صرخات بدائية وحتى تقييدى هذا لم تعلم الجارة بما فعله بها ، كان إذا يلقاها في الطريق يومى محيا فتبادله ، ضقت بذلك ، تراث طويل من نكح اليد ، وارضاء الذات بالذات ،

وعندما ضاحج أول انثى بعد الثانية والعشرين لم تكن تخصه ، إنما أجرت فرجها وأحضانها لقاء قدر معلوم !. أتعجب من ظروف تؤدي إلى هدر الإمكانية ، وتؤدي إلى فساد البنية .

في نشأتي الأولى لم أعرف هذا الحرمان والتصحّر ، وبرغم سخطي ، إلا أنني أشفقت على أصلي البائس ، ورثيت لضياح عمره الغض بدون ارتواء ، اطلعت على ليال عدة لا حصر لها . يغمض فيها عينيه ودماغه كوعاء لماء يغلي ، والرؤى الشهوانية تعصف به وتبليه ، كأنه ارتد إلى أيامه النائية تلك في هذه الليلة ، لا أدري كيف نام ؟ ، لكنني رأته لحظة استيقاظه ، يفتح النافذة ، إنه قريب من الطريق ، الأرصفة رمادية ، المتزلز المقابل مغلق النوافذ ، ثلاث شجرات .. لحضرة أوراقها بريق وزهاء ، امرأة شابة تمشي بسرعة ، تميل إلى أمام ، لسبب ما ، ربما يكن في لون الضوء ، في طريقة مثنى المرأة ، ربما بتأثير الشجرات ، أو الستائر المسدلة خلف النوافذ الزجاجية . لسبب يستعصى على الإدراك ، فاجأته وحده وأدرك بحدة أنه غريب ، مرقت فتاة أخرى تضم كتباً ، من ؟ من أين جاءت ؟ إلى أين مقصدها ؟ لن تقع عيناه عليها مرة أخرى ، هذا مؤكد . إنه يتساءل - وإنى قلق معه - هل ستجىء ؟ هل ستبقى ؟ .

ها هو ذا في مطعم الفنتلق ، يجلس إلى ثلاثة من صحبه سبقوه في السفر ، يقضم كعكة مستديرة ، من المدخل الرئيسي للقاعة تهل ، تبدو ، تجمىء ، تسرى غير المناضد إليه ، صوبه مباشرة كأنها تعرف موقعه ، يعتذر لصحبه ، يقول أحدهم وهو عجوز أشيب « مرحى بالشباب » ، يسألها : « هل تناولت إبطارها ؟ » . تنق ، تلفظ « لا » كالشكوى ، إذ فرغا من الشاي بالحليب ، انصرفا ، خط اعتذارا ، لن يحضر الجلسة الافتتاحية

ليحدث ما يحدث ، أعجبنى منه ذلك ، يمضى بجوارها ، أولى خطواته فى العاصمة التى كادت تمحى فى الحرب العالمية ، الحرب التى ولد ليلة توقفها ، أول أيام السلام ، وإن خلت حياته منه ، عرف التاريخ والمصادفة على حين فجأة .

ولذلك قصة .

إذ اعتاد التردد على متجر قريب من البيت يبيع الورق القديم ، صاحبه جنوبي من قرية مجاورة لجهينة ، يقلب الصحف والمجلات القديمة ، أحيانا يعثر على ثمن الكتب مقابل قروش زهيدة ، فى إحدى المرات رأى عددا من صحيفة الأهرام ، عددا نحيفا من أربع صفحات ، استسلام ألمانيا وانتهاء الحرب فى أوروبا ، فى صدر الصفحة رسم لامرأة تمسك سيفاً بيد وغصنا للزيتون بيد أخرى ، وصورة لجنرال ألماني يوقع وثيقة فى مدرسة مهجورة قيل إنها بنيت من طوب أحمر اللون ، التاريخ ، التاسع من مايو عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ، سأل الأم : هل ولدت يوم أربعاء ؟ قالت : فى الفجر .

فيما بعد تساءل : لماذا معظم حالات الولادة فجرا ، كذا الموت . احتفظ بالعدد سنوات طويلا ، فقد منه ولم يدر أين ؟ ، إنه يحث الخطى بجوارها ، تبدو عليمة بالمدينة على الرغم أنها رحلتها الأولى ، ينظر إلى المباني متقاربة العمر ، مدينة بُنيت بعد دمار ، قامت عماراتها وشقت طرقاتها فى زمن واحد ، كيف كانت تبدو أثناء الغارات ، وعند الاجتياح ، كيف حالها صبيحة يوم مولده ؟ .

عند ناصية رأى لوحة سوداء ، عليها أسماء بالقلم الغريب ، أمامها باقة زهور نضرة ، لا يخلو شارع من لوحة مماثلة ، يتوقف ، تنظر إليه دهشة ،

يتطلع إلى الأسماء ، التاريخ يعرفه ، قبل مولده بعامين ، يستغرقه الأمر وهذا عجيب ، فكان خياله لم يلتب بمرأى من تقف الآن ، يتب إليها ، يشم ، يرفع يدها إلى شفتيه ، يقبل شفتيها الورديتين فيتمكن من رانحتها ولملمس ضواحيها ، يتحسس شعرها برقة مبديا الحنان ، بينا الرغبة تشب عنده وئيدة ، في عربة الأجرة أبرزت عنوانا ، استأجرت غرفة عند عائلة ، هذا أرخص من فندق ، تبسم ربة البيت ، بدينة إلى حد ما ، ثوبها أزرق ، لا يفهم لغتها ، غير أن ملامحها تفيض بالود ، مسكن غير فسيح ، ثلاث حجرات لا غير ، الطابق أرضي ، عبر النافذة يرى ساحة فسيحة تمتد بين أربعة بيوت ضخمة ، طفلان يجلسان على درج عند الناحية الأخرى ، تومئ ربة البيت ، تغلق الباب ، إنها الآن منفردان ، متواجهان يقترب فيدنو كوكب من كوكب ، تتصارع الجاذبيتان ، تتسارع أنفاسه ، تمسك طرف قبضها تروم قلعه ، غير أنه يمسك يديها ، فلتكف ، بيديه هو ، على مهل ، ليس أعظم لذة من البداية ، بداية السفر ، بداية الحب ، بداية الأمر.. أى أمر.

لم ينس قط لحظة تلاقى جسديهما ، إغماضها العينين ، ضمها شفتيها وإغلاقها منافذها لحظة أسر كل منهما للآخر ، تنفجر البداية من سحق الحجر ، يتجاوزان أفلاكا لم ترصد ، ويلسعان شهبا ، يستقران قدرا لا يمكن تحديده في روض منمنم ، عندما دنت من الذرى ، زلزل زلزالها ، بدأ ارتجاجها ، منها انبعث دوامتها ، فكانت هى المركز ومحيط الدائرة والقرار المكين ، شرقت وغربت في نفس الاتجاه ، طلعت ونزلت في حركة واحدة فتخففت من أحمالها ومرت أثمانها ، محققة لحظة الدمج الإنسانية ، أدعشه ذلك فنظر ، فحديق ، فمكن ، فأحاط بها من كافة جهاتها . هذا ما حيرنى منه .

في قمة نشوته لا يتشئى ، إنما يعى بجلدة ، لا يغيب ، إنما يحضر ، هنا
تذكر بنية فتية لا تزال بعد في أول طريق التجربة ، عرفها زمانا بعينه وكان لها
عنده شأن ، بمجرد ملامسة مشارف علمها انتابها ما يشبه الفواق ، تتابع
خروج أنفاسها في شهقات سريعة ، متلاحقة حتى ظن بالأمر سوءا ، وعندما
فتحت عينها حدثت فيه : كان مرتكزا إلى ركبتيه مدققا بصره في ملامحها ،
متفحصا ذروتها ، متعته في إدراكه أنه فاعل ذلك ، للحظة بدت صامتة
كأنها فوجئت به ، ثم تغيرت ملامحها ، انقلبت إلى خوف ثم رعب ، صرخت
مولية وجهها بعيدا عنه « ماما .. ياماما » ، ارتلّت بكامل أنوثتها المتضجرة إلى
طفولة مرعوبة ، لم يفلح انحناءه عليها ، وهددته إياها ، وتقبله شعرها
وعنقها ، وضمه لها ، ورققه بها ، وحتى تمام مدتها وافتراقها ، ومضى كل
منها إلى سبيل .

لم تفصح له عما أخافها منه ، لم تصرح .. مع أنه عرفها وعرفته مرات بعد
فرعتها تلك ، ها هي ذى اليزايث تتطلع إليه ، يلثم صدرها ، مازال متمكنا
منها ، غير مفارقها ، يرفع يده المتدللة المستسلمة ، يقربها من شفتيه ، ابتسامتها
تحوى وهناً كأم فرغت لتوها من ولادة فبدا عليها نصب العناء ورضى من
أعطى الحياة الدنيا مددا .

في عينها الواسعتين ، الغريبتين وسن مزهرى ، مخملى ، في نظراتها طل ،
والطل هو أول نشء المطر ، إذ أنه ضعيف ، أما هو فقد اطلعت على مادار
عنده ، يقول لنفسه إن في عناق الرجل بالأنثى ذروة الحياة وتجديدها ، وفيه
الموت أيضا ، فبعد تشيع النواة إلى الأعماق ، يحىء الممود والسكون ، بل قد
تنشأ الرغبة في المفارقة ، ينسحب منها ، يتمدد إلى جوارها ، يفرد ذراعه
لتوسدها ، لم يتأ عنها ، لم يولها ظهره ، قديما نصحه خير مجرب ألا يفعل ،

تضيق المرأة بانفصال سريع يعقب اتصالا وثيقا ، إنما يؤثرن الود والهددة ، هذا حسن منه غير أنه مختلق ، لذا لا يدوم ، سرعان ما يتحمل ويتتابه ضجر ممض ويختلق الحجب للانصراف ، وإذا سأل سائل ، ماذا عن لور التي لا يرغب فراقها والابتعاد عنها ؟ الوحيدة التي احتفتها وأغمض عينيه مستغرقا في نوم كالقطيفة ، مع أن عاداته التوحد عند النوم ، أقول إنه عايش ذلك في نشأته البديلة ، ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى المقامات ، إذ فصلنا الأمر وجليناه في مقام الاغتراب ، إنه الآن صامت ، هي ساكنة ، غير أنها تفيض رضا ، أما سكيتها فلا تعكرها شائبة ، صمتها رضائي ، يشعر أنها وحيدة تماما ، لم تصرح له ، لكن في رقتها قضية ، يلمح نهيها المشرعين كالجهر بالسر ، وحلمتها المشرعتين وأخمص بطنها المنخفض ، يولى وجهه صوب السقف الأبيض المنخفض ، تلك الأنفاس ستكف يوما ، وهيكل هذا القوام سيتمدد عندئذ في حفرة قصية بعيدة عن الموضع الذي سيحتويه هو ، قد يعثرون على عظام ساعد منه ، أو قطعة من ترقوته ، أو ينظرونه مكتملا ، متصلا ، فمن أين للرأى المتفحص العلم أن هذا اتحد بذلك يوما ، وأن نشوة انبعثت هنا والتقت بنشوة هناك ، من أين لهم إدراك ما مر به من دقائق ، من استجابات وغير ذلك ، حقا .. إن العدم كفر ، إن العدم كفر ومذلة ، هذا حق .

مصغ هو إلى أنفاسها ، كأنها لو تركته ستبقى أبدا ، يقوم جالسا في الفراش ، يلمح أطفالا يلعبون في الساحة ، يتقاذفون كرة لا يراها ، ضوء حليبي اللون ينشئ ببرودة سارية ، يتبه إلى اقترابها منه ، عارية ، فارغة ، تشير بيدها وملامح وجهها بما يعنى استمتاعها ورضاها ، ثم تشير إليه ، تلمس صدره بطرف أصبعها ، تسأل .. وأنت ؟ ، فيكون جوابه انحناءة وتقييلا ،

نقطة الوصل والاتحاد ، تبسم ، تبدى سرورا ومرحا ، غير أنه راغب في الانصراف الآن ، يود الانفراد ، الجلوس داخل مقهى ورؤية المارة من وراء زجاج ، أو التيه في شوارع المدينة على غير هدى ، حتى إذا تعقد أمره يركب عربة أجرة مبرزا عنوان الفندق .

هذا دأبه عند نزول مدينة لم يطأها من قبل ، يشير إلى ساعته ، إلى جهة ما ، يجب الانصراف ، تومئ بحجية ، يرتدى ملابسه بسرعة ، يمسك حافظة نقوده ، يبدو عليها انزعاج ، ماذا سيفعل ؟ ، كلا .. إنه يود تقديم مقدار من المال يسير إلى صاحبة البيت مقابل ترده ، إنها تفهم ، تضع الورقات المالية الثلاث تحت لفافة بسكويت ، تودعه ، يؤكد لها أنه سيجيء في الغد ، بعد انتهاء جلسات المؤتمر ، تقريبا .. في الثالثة ، تقبله ، تقول إنه رقيق ، ومعان أخرى لم يدركها بالدقة وإن عنت الشاء والود ، ينصرف ، تودعه ربة البيت مبتسمة ، مرحبة ، يجتاز المرر والمدخل الرئيسى ، يتجه إلى العلامات التى تمكنه من العودة ، المباني متشابهة ، يتحسس الورقة التى خط عليها العنوان ، عند المنحنى راقه الشجر الأخضر ، وتأمل بلاط الطريق القديم فحن ، هنا محطة للانتظار ، هذا المنحنى من زمن ما قبل الحرب ، أخطأته البلايا ، بيوت صاحبة ، طابق أو طابقان سقوف القرميد المحببة .

فما بعد استعاد وقفته تلك طويلا ، كذا مدخل الضاحية ، وبيوتها القديمة المتضامة ، وعمارتها الحديثة الشاهقة لحظة عبوره الجسر الحديدى فوق النهر هب عليه حنين ، لماذا فارقها بهذه السرعة ؟ لماذا وأيامها معدودات ؟ ضايقه أنها بدت مصدقة لما قاله ، لكل ما يقوله ، لماذا ادعى كذبا أنه ماض إلى المؤتمر ؟ لماذا فارقها وحيدة فى تلك الغرفة الضيقة ؟ لم يعن حتى بسؤالها ، كيف ستقضى ليلتها ؟ . عجبت من أمر صاحبي هذا ، كلما مضيت قدما فى

هذا الحال يبدو لي منه ما يحيرني ، ما يشير عجي ! .
أعرف بكيونتي الأولى أن الحيرة تلزم الهوى ، وكل من يتصف بالهوى
والميل يتصف بها ، غير أن ما يلوح لي منه ليس حيرة وليس هوى ، أخشى
أن نكون ضدين فيستحيل اجتماعنا ، هذا يقضني ويرمئني في شتات ما له
نظام ، عند محطة لا يعلم اسمها أو موضعها ، يغادر العربة ، يتثنى راجعا ،
تستقبله ربة البيت باسمه ، تتقبل منه باقة الزهور بود وترحاب ، للزهور شأن
عظيم هنا . تشير إلى الغرفة ، يدفع الباب ، يتوقف ، مستغرقة في نعاس ،
متكومة في الفراش ، ملمومة ، تلامس مقدمات ركبتها صدرها ، تنشأ عنده
شفقة ، ويبدأ رثاء ، وحدة مكتملة ، مقطوعة عن الصلة ، والإنسان يبدو
ضعيفا في نومه ، مستسلا ، ألم يقل الشيخ الأكبر أن النوم هو الموت
الأصغر ، تفتح عينها متمهلة ، كأنها أمضت لحظات حتى تبيته ، أى
مفاجأة ؟ تلثم وجنته البني مرتين ، ثم اليسرى ، تشب فرحة ، تدعوه
للجلوس .

الساحة خلت من صيحات الأطفال ، من الأصدااء ، من اللعب ، هذا
أوان العصر ، فكان المكان بدل تبديلا ، موحش ، والفراغ مشحون بنذر
شئ ما ، غامض الكُنه ، ربما بواده الليل المقرب ، ربما تأثير النهار المولى ،
لو أنه استمر في طريقه لكان متمددا في الفندق الآن ، يبدأ اغفاءة العصر التي
اعتادها منذ القدم ، لو اتصل نهاره كله يقضى ليلا ضنكا ، مرهقا ، وهذا
مغاير لما جبلت عليه في نشأتي الأولى ، يضيق بالبقاء ، لكن كيف سيبدو في
نظرها لو أنه انصرف الآن ، الحق أن عجي يعظم واستكاري يدب ، يقترح
تناول الطعام في الخارج ، توافق بلا تردد .
عصر اليوم التالي جاءها .. إنها منتظرة ، ترد إليه الوريقات المالية ، أبت

رية البيت أن تتقاضى أجرا مقابل تردده ، هذا العصر بدر منه ما فاجأه هو ذاته ، مع اليزايث يمتاز حواجز عتيقة طال نصبها ، ولأنه سلك طريقها بالأمس فقد بات عارفا ملما ببعض علاماته ، أما هي فكانت تقترح عليه مسارات وعبور دروب شتى ، وورود منابع سخية لم ينهل منها قبل الآن .

بعد فراغها كان يأتيه من عالم أنفاسها التحية والأخبار المطمئنة ، اقترح أن يخرججا معا ، أشارت إلى ما بين ثدييها تكتئ عن هويتها « أنا » ، تدعوه إلى العشاء ، تبسم ، كيف يمكن أن يخطر لها ذلك ، هو الداعى ، أبدا ، تشير بيدها إلى أعلى ، مطعم للسماك فوق الجبال القريبة من المدينة ، الطريق إليه بديع ، ليتها يقطعانه قبل الغروب ، تتوزع قرى صغيرة على السفح ، لا تبدو للناسر الطرق الفرعية المؤدية ، فكأنها منقطعة عن الاتصال ، كل قائمة بذاتها ، عوالم متباعدة ، قصى كل منها عن الآخر ، منزل على الطريق ، وحيد ، خشبي ، أمامه تخطو امرأة عجوز متمهلة تحمل سلة ، ترتدى معطفا وتحيط رأسها بطرحة قائمة ، يتابعها أثناء حركة السيارة حتى أنه يستدير إلى الخلف حتى لا تغيب عن بصره ، بينا المنزل ينأى والمرأة تتوارى ، تتطلع إليه صاحبه دهشة ، ما الذى يدعوه إلى التحديق ؟ لا يبدى إشارة تشرح ، أو حتى إيماة تفسر ، أما أنا فتساءلت أيضا عن الدافع ، انشغلت به غير أننى لم أقف على التماسير ، وإن شكلت هذه الرؤية العابرة فى ترائه علامة ، إنها يغادران العربة عند محطة قرب منحى ، للصمت الجلى هبة ورسوخ ، طريق ترائى مهدته الأقدام وتوالى السنن ، يمر بغابة تنحدر أشجارها وحشائشها وزهورها ، يتنوع الضوء من بقعة إلى أخرى ، يعبق الفراغ برائحة رطوبة ، رائحة نباتات خضراء شتى ، ندية فأستعيد وجدا قديما كان ممكنا ألا يبعث أبدا لولا إيابى وحلولى عند أصلى هذا .

هنا يبدو المكان لناظرى غريبا ، كأنى فى وقت ، ونظرى يقع عليه فى وقت آخر ، كأنى يقظ وأراه ، فالأرض مترققة ، موجة إثر موجة ، والأشجار من ظلال وأصداء ضوء ، والأصل أشرف من الظل ، لأن الظل تابع ، وقد يوجد الإنسان أو الشئ بلا ظل ، لكن لا يمتد الظل إلا فى أثر أصل ، وربما يكن هذا وراء حنى الذى يهب فجأة على جمال ، فلولاه هو لما جثت أنا ، ولولا معراجة لما كان نزولى ، ولولا ذهابه لما صار إيابى ، وما تم من أفعاله لا حيلة لى فيها ، ولا قدرة على تبديلها ، أما ما تبقى فمحكوم بما انقضى من المدة .

ها هو ذا يظهر فجأة ، عاريا تماما كالحقيقة الناصعة ، على وجهه تعابير لم أطلع عليها أبدا فكان كل ما مر به من أحاسيس ومشاعر شتى ورقائق لا تبين وتجل عن الإفصاح . كأن كل ما تردد داخله أخذ أقصى مداه فلم يعد هناك مزيد ، تضيق قساياه بما يعتمل داخله فيصرخ ويطلق أصواتا غريبة كالطبيعة عندما تستعصى على الفهم .

أرى صاحبه تعدو أمامه ، تمد ذراعها فى اتجاه ذراعيه ، كأنها يتعلقان بخيط لا يمكن للرائى إدراكه ، أرى إدراكه لها ، تقلبها فوق الحشائش الخضراء ، تنفذ إليه رائحة الأرض الخصبة والندى المتكون على الأوراق والمختلط بالتراب المبتل ، والمار المتساقطة التى لا تمتد إليها يد فيتغير لونها ، يمرغ رأسه على صدرها ، بسرعة خاطفة يلثم حلمتها ، يتقلب فوق ذراعها الممتد ، ينتقل إلى الأرض فيستمر وكأنه لن يتوقف أبدا ، يزعق ، يحجر ، تبدو منه أمور يخيل للناظر من بعيد أنها متنافرة ، تتسرب إليه رائحة اليزايت فتمترج بعبير الزرع والبلبل ورائحة الطير الساكن ، يذوب هذا كله فى رائحة ما لا يمكن إدراكه بالنظر ، يعتبر هذا دليلا على سلامة مشروعه ، وعلامة على صحة

وجوده ، وبرهانا على حقيقته واتساق نظامه ، انه يتلحرج مبتعدا عنها .
ملتصقا بالأرض ، متشرها ذراتها .

عند حد بعينه يبدأ غوصه وتواريه مع كل دورة يدورها ، حتى يغيب عنى
تماما ، بينما تقف صاحبتة متطلعة ، متجردة ، مثال على النشأة الكمالية ،
متممة لما حولها من عناصر ، مستوعبة وملخصة لها . أعجب فوق عجبى ،
فن لى بالإيضاحات المكنونة ؟ ، ما أطلع عليه من تراث يمت الآن إلى ، غير
أن علمى به شاحب ، وعندى منه شبهة ، فجعل من أوضح الأمر وكفى
الإنسان مشقة السؤال ، غريب أصلى فكأنه جمع الفوق والتحت معا ، فلا
جهات له أو عنده ، إنه ينبوع أمامى أراه ثانية فكأنه لم يغب عنى أبدا ،
يجلس إلى صاحبتة هذه فى مطعم السمك النائى .

يرهف أذنيه لخطى مجهولة تدنو وتبتعد .. إنه يجاهد لرصد مرور الوقت ،
ليس فى تغير المظاهر وانتقالها من طور إلى طور ، من ليل إلى نهار ، ومن نهار
إلى ليل ، ولكن الوقت السارى ذاته ، تبسم ، يبدو أنها تستفسر ، هل
أعجبه الطعام ؟ يشير إلى المرق الأصفر المزرق الطعم ، أسمعه يقول : من أجل
هذا المرق سيجىء مرة أخرى إلى البلد . يطلب مقدارا آخر ، ينهم حتى يشرع
فى شرب كوب منه بلا خبز ، توقفه ، فى المرق زيد ودسمه شديد ، هذا
ضار ، أما النيذ الوردى المثلج فاجتاز به المدى وطفا ورقى من قسوة
الموجودات وكشف عن قبس مما يخفى خلف الأشياء مما يصعب إدراكه
بالبصيرة الإنسانية ، هذا حاله ، يأكل المتاح له ، لا يأنف ولا يمتنع ، حتى
إذا واجه الطعام المتقن تمهل وتقصى وتمعن ، فكأنه اعتاد ذلك وجبل عليه ،
إن قلبه يخفق ، وهلمه يشب خوفا على اللحظة أن تنقضى ، فيرفع الصوت
بغناء شجى راجيا تمهلها ، ومضيا هونا ، تلك اللحظة بالذات ، اللحظة

الاستثنائية ، غير المدرجة فى الحطة ، غير أن الحال لا يدوم ، الوقت حاد ، وقانونه الأبدى القوت ، وفهمه مستعص على الكافة .

أراه يمشى فى طريق عريض تحفه مبان شاهقة تحجب المدى الأتم والأفق الأوفى ، هى إلى جواره ، تحمل حقيبتها الصغيرة ، منذ قليل اتحدا ، تضاماً ، تمددت فوقه بعد هموده ، قبلته ، ناغته بلفظ مجهول عنده وإن ألمح إلى مدلوله ، رأى عينها تترقرقان ، فوق به كمد ، قدمت إليه صورتها ، خطت عنوانها وعنوانه .

الآن يقترب افتراقها ، سترحل بعد ساعة ، هى فى اليوم التالى ، بالأمس عقد النية على اصطحابها حتى المطار ، أما الآن فيود الانفراد ، الفندق قريب ، يبدى أسفا واعتذارا ، المؤتمر ! ، لقد نسى جلسة ما بعد الظهر ، آهتها حسرى ، تقبله دامعة ، ملاعها أصدق منه ، يتمنى انتهاء اللحظة ، غير أنه يبدى الجزع عند الافتراق ، راغب هو فى ولوج غرفته ، فى اغلاق بابيه ، أن يغفو اغفاءة الظهيرة ، ولكم ضيعت منه هذه الإغفاءة ، ولهذا تفصيل وشرح سياتى فى موضعه .

تراجع بظهرها متطلعة ، ملوحة ، معلنة بدء الهبوط ، تلثم يدها تجاهه ، تصطدم بفتاة مسرعة ، تتبته ، تولى وجهها شطر السفر ، حتى المنحنى التفتت خمس مرات ، ولوحت خمس مرات ، دارت عند الناصية ، والنواصى تحجب الرؤية ، وتضع الحد بين الجمع والفصل ، ولما اختفت نزلت به سكينه ، والسكينه جمود ، وهى مطالعة الأمر بطريق الإحاطة من كل وجه ، وما لم يتم ذلك فالسكينه لا تصح ، وكما خبرها العرفاء ، أصحاب الطريق ، هى الأمر الذى تسكن إليه النفس لما وعدت به ، أو لما عرفت منه ، وسميت سكينه لأنها إذا حصلت قطعت عنه وجود المبوب إلى غير ما

سكنت إليه النفس ، ومنه سمي السكين سكيناً لأن صاحبه يقطع به ما يمكن قطعه ، وهذا اللفظ كما أوضح الشيخ الأكبر محي الدين مشتق من السكون وهو الثبوت ضد الحركة ، فالحركة نقلة ، والسكينة تعطي الثبوت على ما سكنت إليه النفس ، ولو سكنت إلى الحركة فليس ذلك حقيقتها ، ولا يكون ذلك إلا عن مطالعة أو مشاهدة .

هذا ما جللاه الشيخ وأوضحه ، غير أن سكينه أصلى غريبة ، هي ليست نهاية أو استقرار أمر ، إنما بداية فورة ، وعتبة مؤدية ، ليست بداية طمأنينة . ولكن نهاية ، إنها أشبه بصمت المحزون المفجوع قبل تفجر حزنه في صراخ أو نواح ما بعده بعد ، فهي إذن إلى الهبت أقرب ، إنها لحظة الصمت الذي يسبق الدوى ، أو سكون ما قبل الزلزلة .

بعد اختفائها ، وإدراكه فجأة انقطاعها ، تنفذ برودة إلى صميم نخاعه ، يمر به كثيرون لكنه لا يرى أحداً ، فارقه .. إنه المعنى الوحيد الذي ظن وعم وطعم داخله ، يتساءل بصوت مرتفع غير عابئ بمن حوله ، كيف ضاق بها ؟ كيف ألتمس الحجة ليعتذر عن آخر وقت متاح للرفقة ، للصحبة ، للقرى ، كيف ؟؟ .

يعدو منقلبا إلى حيث ولت ، اختفت ، موجودة وغير موجودة ، راحت وراح الوقت الذي حقق فيه ما حقق وانحد وانطلق ، كأن الوقت لم يكن ، يرقب الوجوه ، نساء ، فتيات كثيرات ، لكن ملامحها تائهة ، بينه وبينهن هوة سحيقة .. يحول الطرقات ، يلجج باب الفندق عند الغروب ، في حلقه مرارة ، وفي صدره وحشة ، أما روحه .. ففي خلاء ، بمخيلته حاول أن يعيش وقتها ، سفرها ، اجتيازها البوابات ، وصولها ، إذ يستعيد لحظة دخوله غرفتها ورؤيتها متكومة ، متوحدة ، منفردة ، يسب ذاته ، يضيق بما سلك .

في هذه الليلة حكى لصحبه عنها ، داعبه البعض ، وأصغى إليه الآخرون وفي عيونهم حسد وريفة ، وقبل مغادرته البلد خطب بطاقة إليها ، شيعها صندوق البريد في المطار ، وما بين يوم وصوله ونهاية الأسبوع الأول ، خط كل يوم خطابا أودع سطره ماتيسر من كلمات أجنبية يتقنها ، مشى أمام المتاجر هونا ، يتوقف عند كل شيء انشوى فينوى شراءه وإرساله إليها ، فإذا رأى ثوبا مليحا تخيلها فيه ، وإذا ملح حقية أودعها يدها ، وإذا عاين قرطا ذهبيا استدعى إلى ذهنه أذنها الرقيقة التي يشف تكوينها عن الشعيرات حاملة الدم داخلها ، بل إنه مضى إلى مكتب البريد واستفسر عن ارسال الطرود وأسعار الرسوم ، ومقادير الأوزان .

في الملهى حدث الصبح عن وقته معها ، وأثناء حكيه لا يصدق ما مر به ، كأنه يقص عن شخص آخر ، فيعيد الرواية ممعنا في ذكر التفاصيل ، كأنه يود أن يصدق نفسه قبل أن يصدق الآخرون ، وعندما تسلم أول خطاب منها مشى في الأرض فرحا وسطها كل البسط ، ولما قرأ أنها ستتعلم العربية حتى تكتب إليه ، وأنها سوف تنتظره بصبر ، دمت عيناه تأثرا ، وهجم عليه حنين طاغ ، فاستعاد ملامحها عند بلوغ وهجها اكتماله ، كان ملتناعا بالفقد ، فلما رأيت حسرتة واطلعت على دقائق كلومه ، واستوثقت صلق أوجاعه ، وقع عندى النفور منه ، فتمنيت لو أخلمه غنى ، وأن أطرده منى ، أن أهج منه فلا يكون لنا اجتماع قط .

لماذا لا يكون إدراكه للأمر إلا بعد الفوت ؟ ، لماذا يصل إلى مشارف الجفوة ، حتى إذا مرقت منه اللحظة وصارت إلى عدم بحض عاط واستغفر وسعى وتأثر ، تمنيت الفراق ، أن أمضى إلى حالى ، وأن أدعه ، فهذا طبع مغاير لما جبلت عليه ، مخالف لميراثي ، لكن إلام يصير الأمر لو انفضت

الصحبة ، وما قدومى إلى هذه الحياة الدنيا ، وما تزولى ، إلا لأكون هو ،
وهذا أمر دقيق ، عسر تفصيله ، وعر شرحه .

لم أدر أن ما ينتظرني في هذا الحال أفدح ، وأن ما سيتقلب علىّ
أصعب ، إذ ألمت بما تعاقب عليه خلال ثلاث سنوات أرضية من مشاعر
ورؤى تخص هذه البنية ، وما عنده تجاهها ، قرأت الصفحات المتبادلة ،
تابعت في الوقت عينه جهدها ودأبها لتعلم اللسان العربي ، حتى رأيت منها
خطابا وصله خطته هي بالفصح من الكلمات ، أكبرت عزمها ، وقدرت
جهدها .. كفاحها تقصيت جهده ، وادخاره المال حتى يتم سفره وسعيه
إليها ، حتى تلك اللحظة ، وأصبح إقلاعه إليها وشيكا ، ميعاد الطائفة لم
يتغير ، أما المطار الذى نزله وكان نقطة عبور فقد صار هدفا له هذه المرة ، إنه
يتأمل الطريق المؤدى إلى المدينة ، يراه لأول مرة ، وما أمتع إحساسه وتلقيه
لأرض يظوها أول مرة .

اليوم سبت ، تبدأ العطلة الأسبوعية ، يرن الهاتف في مكتبها وما من
عجيب .. اذن .. فليستظر حتى صباح الغد ، الوقت الآن متأخر والليل يدنو .
يخشى أن يضل ، يؤثر البقاء بمفرده ، ناء بالوحشة ، لا يعرف أى إنسان في
هذه المدينة علماها ، يشتد وطء الغربة ، عرف مثل هذه الدرجة من بغض
الانفراد عندما اغترب عن أهله أول مرة لما أصدروا أمرا بنقله من عمله في
القاهرة إلى المنيا بوسط الصعيد ، وألزموه التنفيذ في أربع وعشرين ساعة ،
وهذا أمر يطول شرحه ، وله موضعه ، يتضاعف إحساسه أنه متبوذ ، بعيد
عن يعرفهم ، عن الألف والإيلاف ، زحام الناس في الطرقات ، وأصوات
حديثهم في الفندق لا تريده إلا شجنا وحسرة وإحساسا بالغربة .
في الصباح الباكر كتب العنوان على مظروف خطاب ، حتى يوحى لمن

يسأله أنه يحمل رسالة يريد توصيلها ، بدأ يستقصي ويستفسر ، ركب الترام العتيق البطيء حتى يدخر ما لديه وهو قليل ، مشى مسافة يتابع أرقام البيوت ، المنازل قديمة ، متساوية الارتفاع ، جهة الواجهات ، مغلقة النوافذ ، يعلو بوابات بعضها تماثيل وزخارف جصية ، يتوقف أمام مدخل فسيح يحمل رقفا ، الثامن والثلاثين ، إلى هنا كانت تصل رسائله ، امرأة تمسك مكنسة ، تومئ بحجبة ، تشير بيدها ما يعنى طول القامة ، الطابق أرضى ، مصعد عتيق معطل ، تراكم عليه غبار كثيف ، أنا فى لفة وتوق حتى أرى ما يكون من أمره عند اللقاء ، تفتح الباب صبية فى العاشرة ، اليزايث غير موجودة ، ذهبت إلى المتحف ، ستجىء بعد ساعة ، يعود ليمضى الهوينا فى الطرقات المستقيمة المتقاطعة القرية ، يجهد لتثبيت علامات فى ذاكرته حتى لا يفضل عودته ، مثل هذه اللافتة الزرقاء ، والصيدلية عند الناصية ، يطرق الباب مرة أخرى .

الساعة الآن ، الواحدة والربع ، على مهل تبدو ، فى ضوء المدخل الواهن مبتسمة ، مرحة ، هى ، هى ، قدر لعينه أن تقعا عليها مرة أخرى ، الثياب مختلفة ، أما أنفها فيبدو أطول قليلا ، لا يتقدم ، لا ينطق ، تقول بلسان عربى ذى عوج « تفضل » .

فى كينونتها دعوة ، تبدو منبسطة كمروج أخضر ، هادئة كلحظة وصول ، يدخل ، يعبر صالة تعبق بالقدم والبعد عن ضوء الشمس ، غرفتها قرب المدخل ، ضيقة ، أريكة النوم لا تدع إلا فراغا محدودا لا يتيح الحركة ، حفية يطل منها ثوب ، مظاريف خطابات ، طوايع بلدان مختلفة ، قعدا متجاورين ، لا يتكلم ، يهدئ رفيف قلبه ، تقبله ، تقول إن خطابه وصلها صباح أمس ، يقول دهشا إنه أرسله منذ شهر أو أكثر ، ياطول المدة ،

يتطلع إليها ، كأنها تدرك مقدار اشتياقه فتضك قيصها ، تزيح تنورتها إلى أسفل ، يضطرب أمره ، فاللهفة تشغل الملهوف ، غير أنها تضم رأسه إلى صدرها العارى ، يبدأ عنده سرور إذ يستعيد عبرها الذى لم يكن إلا مجرد ذكرى غير متيقن من تنسمه مرة أخرى ، تقول إنها آسفة ، لن تستقبله فى البيت إذ أن صاحبته تأبى وتمنع تردد أى صاحب ، يقول : لكن فى هذه البلاد يحق للإبنة أن تصطحب صديقها على مرأى ومسمع من والديها ، تقول إن هذا صحيح ، ولكن لهذه العجوز طباعها وقد اشترطت عليها ذلك ، عند استئجار الغرفة ، تقول إنها ستجىء إليه ، ما من مشكلة فى الفندق ، يسألها : هل تناولت طعامها ؟ تومئ ، يقول إنه جائع ، سيمضى إلى أى مطعم ، بصمت ثم يسألها عن صاحبها العربى ، وكأنه باستفساره نكأ جرحا ، إذ اعتمدت عيناها الواسعتان فجأة ويدت عكارتها ، وحاولت جاهدة أن تحوش دمعا أطل ، قالت إنه رحل منذ شهر واحد ، أتم دراسته انتهت فترته ، يطغى حزنها على ملامحها ، تقول إنها عرفا بعضها منذ أربع سنوات ، رعت شثونه ، إذا دعا صحبه أعدت هى المأكول والمشروب ، فى كل أحد يخرجان معا ، وأحيانا تقضى الليل معه ، تساعده فى نسخ أوراقه ، تقول متحسرة ، إنه منذ رحيله لا تدرى ما تفعل ، ما من صاحب لها فى هذه المدينة ، إنها من الريف ، الحياة فى قربتها رتيبة ، ظنت العاصمة تضج بالحيوية ، لكن الوقت ثقيل ، والناس متباعدون ، والرفقة ضرورة ، أيام الأجازة تحشاها ، تمضى بدون أن تحاطب إنسانا ، وعندما تضغط عليها الوحدة توشك أحيانا على الصراخ ، لكن من سيحنو ، من سيدرى بجالها ، الناس بمعزل عن بعضهم البعض ، وكل منهم ينأى عن الآخر ، يتساءل ، لماذا لم تسع إلى صاحب آخر ؟ لماذا لا تتزوج ؟ تقول دهشة ، الأمر ليس

سهلا ، أما الزواج فصعب ، ولابد من وفاق ومدة وترتيب .
استنكرت منه هذا السؤال ، استفسار غريب ، كذا ضقت بما يبدأ عنده
الآن ، إنه يراجع نفسه ، بل .. يلومها ، أمن أجل هذه اللحظات أمضى
ثلاث سنوات من اللهفة والتأجج والكد وتفصيل الحطة كى يراها مرة
أخرى ، كم من اللحظات خيل إليه أن مامضى بينها لم يتحقق فى عالم
الواقع ، إنما خيال مر به ، أو رواية أصغى إليها من صاحب له ، ها هى ذى
الآن أمامه ، عارية ، ضعيفة ، مهجورة فى هذه الحجرة التى لا منافذ لها ،
أما حديثها إليه فشكوى إلى ذاتها ، كأنها لا تسعى إلى المجاورة ، إنما إلى من
يصغى إليها ، تفض حملا طال عليها ثقله ، تبكى صاحبها الراحل بعد ترحيها
بقدمه ، بل إن حسرتها على من رحل تفوق فرحها بمن جاء ، يبدأ تحمله
عليها ، يسيئ الفهم ، يقصر عن الإدراك ، والمعروف أن كل محب لا يشغله
وجود المحبة عن وصال الحبيب ، وفراقه تكون محبة معلولة ، أتمنى لو سعى فى
هذه اللحظة إلى سد جسور الوصل ، فاقترب منها ، وكفكف شجوها ، ولثم
شعرها ، وحنأ ، وترفق ، وددت لو أنه أصغى ، لو حاول مداواة الجرح ،
ربما تفتحت له طرائق لم يدر بخلده أبدا وجودها ، ربما تغير الترتيب ، غير أنه
لزم الصمت ، صار فى شرق وهى فى غرب ، والشرق فى محل والغرب فى
محل ، لذا لا يجتمعان ، لأنها نقيضان .

لم أدرك كيف فارقها ، أراه فى طرقات المدينة بمفرده ، فى المقاهى ، فى
مطعم هنا وآخر هناك ، فى محال الوجبات السريعة ، الغريب أنه يخلق فى
وجه الفتيات وهو ظامئ ، لكنه لا يتحدث إلى أحد ، يحصى الأيام المتبقية
على رحيل الطائرة التى تقلع كل أسبوع إلى موطنه ، لحظة دخوله الفندق
يتسلم رسالة جاءت ، سعت إليه ، الرقعة متاحة ، ويومه كله يدور فى

الطرق قاطعا ممرات الحدائق العامة متأملا الغراء عنه ، حيث لا صلة ولا جسر ممتد فما أعجب أمرك أيها الإنسان ، إذا كان الإعراض عن المجالسة يورث موت القلب ، فكيف يكون الإعراض عن الإلف .

يلوم نفسه لأنه شغل بها ، لأنه لم بعدها مغامرة عابرة ، ورؤيا مارقة من رؤى السفر ، كان يجب أن تنقضى مع تمام وقتها ، يمضى نومه معتما ، ثقيلا ، بلا أحلام ، كاره نافر من المدينة الغريبة عنه ، غير أنه استيقظ صباح اليوم السابق على سفره تماما وقد انقلب حاله ، لم يستطع أن يتذكر تفاصيل حلم غامض عاشه وصحا متأثرا به ، حلم محوره هي ، لكن أين رآها ؟ .. في أى حالة ؟ لم يتبين ذلك ، هرع إلى الطريق ليلحق بها قبل خروجها ، الوقت باكر ، والصباح مندى .. هذا ضباب الغربة ، كل ماض في طريقه ، مشغول بأمره ، يفيض أمره حتى يحدث نفسه بصوت مرتفع ، غير عابئ بالناظرين ، « لكم أنا أحق ، غبي ، كيف ضيعت هذه الأيام الثمينة كيف بددت ما بددت ؟ » .

عند ناصية الطريق يحرق ورائحة بن قوية منبعثة من مقهى قريب ، زحام تحت مظلة المحطة ، يتمهل حتى يتفحص القادمين الواقفين لا .. ليست بينهم ، هذا ما تراه صباح كل يوم عند خروجها ، يتخيلها إذ تخرج وحيدة ، مسرعة ، تحمل حقيبتها الصغيرة ، تخرج إلى يوم من أيامها المكرورة .. المعادة ، المصعد ما زال جاثما ، طفل صغير يحمل حقيبة ممتلئة بكتب وكراسات . فوق ظهره ، يتردد رنين الجرس ، الرطوبة عميقة والضوء غميق في هذه الساعة المبكرة ، وحركة الطريق تبدو نائية مع قربها ، بعد فترة يفتح الباب ، العجوز تبدو غاضبة ، مزمومة الشفتين ، يلفظ اسمها « اليزابث » ، مستفسرا عنها بنظراته وملاحه ، تقول باختصار كالبت « ماتت .. » .

تعلق الباب ، لم تنح الفرصة لكلمة ، أو التفوه بحرف ، أراه ثابتا ، غابت اللحظة وما تحوى وبقى المعنى ، انمحت الصورة وانطمس الظل ، أنا لم أدر ، هل أشفق عليه أم ألعنه فى وقفته الجامدة هذه ، أم أوبخه لو أتيج لى ذلك ، تابعت خطوه المتعثر ، وكدت أبرك لثقله الذى حط عليه وداهمه ، أليس حمله حملى ؟ لم يصدق المرأة ، غير أن إحدى زميلاتها أخبرته عبر الهاتف أنها انتحرت ليلة الثلاثاء ، أول أمس أى بعد ساعات من مجيئها إلى القنلق .

عند هذا الحد أبيت الاستمرار فى المشاهدة ، ورجوت من بيده الأمر تقلب الحال علىّ ، أشهدت هذه البنية تخفيفا وتيسيرا لأمرى ، غير أن ما عاينته انقلب علىّ ، فزادنى كيدا . أيتها النفس أجملى جرجا ، إن الذى تحذرين قد وقعا ، بأى شىء أدرك هذا وأعقله ؟ ، العقل ، القلب ، إذا سمينا العقل قلبا ، فذلك ليس العقل ، وإذا اعتبرنا الروح قلبا فذلك ليس القلب ، وإذا قيل إن العلم قلب ، فهو ليس بالقلب ، إذن .. لا توجد منه إلا العبارة ، فبماذا أعقل واستوعب ؟ .

تغمرنى الرغبة أن أطلع على طفولتى ، أن أصير أولا ، لا أعى قديمى لأنه ما من قدم يمكن الوعى به بعد ، لا أنشغل بالخطر المحتمل ، غى لا أعى الجفوة وقسوتها ، لكن أنى لى ذلك وأنا مقفل بحاضرى ، وحاضر غيرى ، وماض يحننى ويخص غيرى ، ومستقبل أنا جاهل به ، فحظ المشاهدة ما أبصرت وما سمعت وما طعمت وما شممت وما لمست ، وحظ الكشف ما فهمت من ذلك كله ، وما فهمت فهو أمانة ، وإن كان البنيان على اليقين أحوط ، ذلك أن مذهبي فى كل ما أورده آتى لا أقصد لذة بعينها دون غيرها ، مما يدل على معناها إلا لمعنى ، ولا أزيد حرقا إلا لمعنى فما فى كلامى

بالنظر إلى قصدي حشو وإن تحيله النظر ، فالغلط عنده لا في قصدي ! .

بلى ، ولكن ..

.. ثم أتى وجلت نفسى في زمن لا يمكن تعيينه ، رأيت دليلى ، فهممت نحوه ، لكننى لم أتقدم ولم انتقل . ضرفت أنقى معانٍ فقط ، رأيته يقف بساحة الجامع الأزهر ، وسط الصحن المكشوف ، تمنو عليه مثلثة قايتباى ، ومثناة الغورى ذات الرأسين ، والبوائك كلها ، وعلى مرمى النظر داخل الجزء القديم المغطى ، تحت المحراب ، والمنبر الذى أعلن منه الجهاد عام الحرب التى شهد أصلى أيامها ولم يعيش وقائمه ، إنه يرتدى لباسا أبيض ، والناس يهرعون إليه ، يدخلون ويأبسون فلما خفوا ، أتانى الأمر فتقدمت نحوه ، وأخذ يبدى ، قال لى :

« أتعرف من ينادى كما أنادى ؟ » .

أبدى الغفلة ، وقلة الفهم .. يقول :

« ابن أحمد الغيطانى ، من هو أنت .. » .

أقول :

« نعم .. » .

يقول :

« إنا أمرناه بأمر ، قتل له ، يا جمال ، انهض لما أمرك به دليلك .. » .

أقول :

« لكنه راحل .. » .

يقول :

«ألست مقبلاً فيه ؟» .

أجيب :

« بلى »

يقول :

« إذن ، لا تحد عن الخطوة » .

نصير بمفردنا ، إنها المرة الأولى التي تخلو فيها ساحة الجامع الأزهر من كل مخلوق منذ أن خط بنيانه ، يتسم ، يبدو رقيقاً كالحظة ميلاد الندى الفجرى ، رأيت طلائه التي صارت قديمة ، وقوفه في الشرفات متطلعا إلى حشود جمعة ، انتظام الخلق على جانبي طريقه ، واختفاء النواصي بالكثافة البشرية ، إذ يهل ينبثق من الجموع تهليل وتكبير ، هذا الانبثاق أين ولى ؟ هذا الغرس أين راح ؟ ، أكف ولا أفيض حتى لا أكشف ما طلب منى ألا يهتك سره .

يقول :

« بلغ الرسالة ولا تحد ... » .

أستفسر معاتباً :

« لماذا قسوت ؟ » .

يحييني :

« ما كان كان .. » .

أهم لأستأنف المجادلة ، لكنه يقول بنبر فيه عتاب وتحذير :

« من دليل من ؟ » .

أنتبه إلى تجروى ، وإبدائى عزم القناعة ، تلك خاصية لم تكن بنفس القدر عند سلفى . فعندما أتبع سيد الشهداء ، ومن بعده سيد العارفين الإمام

الأكبر، لم ييدر منه إلا التساؤل، وخشية التابع من المتبوع الذى هو أعلى منه مرتبة ، وليس له أن يسأل عما يظهر منهم أو يعرض لهم ، فما عندهم ، وما ظهر منهم يخضهم وليس له أن يدخل فيه ، غير أن حالى مختلف ، إني قادر على المجادلة ، وابداء الحجة ، ذلك أمرى ، ربما تعلق التصرف بالمرتبة ، فليسيد الشهداء سبق المطلق والمترلة الأعلى ، يليه الشيخ الأكبر ، ثم .. دليلى هذا ، تفاوتوا ، لكن جمع بينهم طريق الجهاد الأعظم ، وقد ثبتوا فيه وتمكنوا .

هنا . عند هذا الحد من ذلك التقييد خرج الأمر عن طوعى ، وبدأت أتلقى ما يلى علىّ ، فأكتبه بلا مجادلة ، وكان الأمر كذلك ..
» .. لما كانت الأمور مقسمة إلى مراتب ودرجات - أنظر إلى تركيب العالم - لذلك كان المسبب والسبب . من هنا كانت هذه اللحظات المارقات الأولى . المتبقية فى وعى سلقى وأصلى ، السابقة كل ما عداها لذا كانت لها الأولوية والسبق ، ولأنها مرتبطة بهذا السطح كانت أقرب إلى السماء ، إلى الأفق النائى ، وقد فرغت من تأمل لحظة موقعها هذه الليلة من ليالى حرب فلسطين ، ولحظة أخرى لم أدققها ولم أتمكن منها ، وإنى لماض الآن إلى لحظة متبقية ، ما قبلها وما بعدها مطموس الملامح ، لكننى على قدر طاقتى واجتهادى سأحاول ، فذلك شرع لى ، حتى وإن كالت ، فكل مذكور من الناس إذا ما فقدوه ، صار فى حكم حديث حفظوه فنسوه ، هذا أصل ومنطلق !

إنى ملازم الآن هذا السطح ، غير بارحه ، أحيانا أراه بعينى سلقى ، وهو طفل بعد ، إذا به فسيح ، يقطعه فى خطى عديدة متتابعة رأسه لا يبلغ سورة ، لا يرى ما وراءه ، أراه أحيانا بعد بلوغه العمر الأشد ، فإذا به ضيق

يمكن قطعه فى ثلاث خطوات ، وإذا به رث ، بال ، تتخلل الشقوق
حجارته ، طلاؤه تمشر ، وذرات الرمل تفككت ، انكشفت جذوع الخشب
العتيقة التى تصلب البيت ، تاهبت للتزلزل إلى الطوايق السفلى ، لأرى جيران
العمر الأول ، لكننى تذكرت الأمر ، ان ألزم الخطوة ، فخرجت إلى تلك
اللحظة ، إنها بين بين ، لا شتوية غائمة ، ولا صيفية حارة ، ولا خريفية
تميل طورا إلى صيف وتارة إلى شتاء ، أرجح خريفيتها ، والخريف فى موطن
أصلى فيه حنية على الخلق ، تهب نسائمه رقيقة لطيفة فتبعث مكنون
الذكريات ، يحطب بها الود ، وتميل عندها القلوب على بعضها ، إذن ..
استصحت هذه اللحظات على الفناء .

اعلموا أنه ما من زمان يذكر أو يستعاد إلا ومكان ملازمه ، فلا بد من
مكان يحتوى الزمان ، ولا بد من زمان يوجد فيه المكان ، وإلا كان الهباء ،
وإلا صار العدم هذا مقطوع به ، فانتبهوا إلى ما أخفيته بين سطوري ، فكثير
أشير إليه ولا أبسطه .

تلك إذن الغرفة ، الباب مغلق ، رائحة الجير قوية ، لم يحف بعد ، لذا حذر
الأب من الالتصاق به ، أو الاستناد إلى الجدار ، خاطب بذلك الأم والطفل
الذى هو أصلى ، أو بمعنى آخر أنا ، الوجود لأربعة ، الرابع إسماعيل ، عمره
أربعة أو خمسة شهور ، إنه العام الثامن والأربعون من هذا القرن الذى ولد
أصلى قرب متهى نصفه الأول ، ولا أدري الآن هل أنا متمه أم لا ، فلا
علم عندى بما قدر له أن يسعاه ، لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، ولا
تدرى نفس بأى أرض تموت ؟.

لون الطلاء قريب من زرقه سماء صافية بلا كدر ، هذا لون مالت إليه
الأم وارتاحت إليه ، الشريط المستطيل المحاذى للأرض ، أزرق غامق ، هذا

عصر ، الضوء واهن ، والأصوات ضعيفة ، الأب يمسك أحد أعمدة السرير الحديدية ، هاهو ذا أصلى ، من هو أنا . مرتديا جلبابا أبيض تتخلله خيوط بنية اللون ، خط عريض وخط نحيل ، يبدو أن أصلى حاول المساعدة ، لكن الأب أبعد ونحاه ، تلك ملامحه بعد إقصائه ، خشية عليه من سقوط عارضة السرير فيمسه أذى ، الأب والأم ينصبان السرير ، أربعة أعمدة سوداء اللون ، كل منها ينتهى بغطاء مخروطى الشكل ، نحاسى أصفر ، فى ركن الحجرة ثياب مكمومة بترتيب ، إنها فراش لإسماعيل ، لا يتقلب ، إنما يحرك يديه وساقيه ، ملفوف فى رداء أسود ، عيناه واسعتان ، تتعلقان للحظات بالسقف ، تستديران حولهما ، تتحولان إلى نظرة جانبية ، أى شىء يرى ؟ وكيف يرى ما يرى ؟ ، هنا مالا يمكن معرفته أبدا ، لا أرى الأخ الأكبر كمال لأنه راحل ، وهنا ورد على قوله تعالى ، « وجوه يومئذ ناعمة ، لسمعها راضية .. » .

وكان ذلك إيذانا بسماعى صوت الأم ، أصغيت وأنا أنظر إلى أصل نفسى : لاتس كمال أنحك ، اطلب له الرحمة ، واقرأ الفاتحة . اللهم ارحم الراحل الصغير الذى لا أعرف ملامحه ، ولا أذكر طرائق لعبه ومرحه ، وكيف تعلقه بأمه وأبيه ، يقف أصلى ممسكا بشىء لا أتيت به .. لا أعرفه ، غر ، لا يدرك أحوال أمه وأبيه ، أو طول حزنهما على فراق شقيقة كمال ، وأوجاعهما لرحيله المبغت ، غير مطلع على مكتبات الأب المحجوبة عن أقرب الأقربين ، أنا جاهل بنظرة إلى الدنيا فى تلك الحقبة عموما وهذه اللحظة خصوصا ، فما أقرب الصلة وما أبعد الشقة ، ما أمتن الجسر وأعظم الهوة .

السرير مكتمل ، متين ، مرتفع ، الأم تعلق الستارة الدائرية المسدلة على جوانب السرير من أعلى ، أتأمل الشقيق الرضيع ، أطلع على سبب لقه فى

هذه الخرق السود ورسم دوائر من البن الغامق على جبينه ، ووجتيه ، وتفصيل ذلك حين جاء إسماعيل بعد سنة من رحيل كمال ، عندما وصل الخطاب من البلدة تسلمه الأب لحظة ظهيرة ، عبد المقصود أفندى قرأه له ، عند هذه المقصورة في مدخل فندق الكلوب أصغى إلى النبأ ، اتجه إلى ضريح الحبيب ، وبين الركعة الأولى والثانية عزم وتوكل ونوى تسمية المولود الجديد : إسماعيل ، إذ تردد في وعيه ترتيل كريم ، أصغى إليه والظلال خاشعة والحضور خفيف والقلب حسير .

« يا أبت افعل ما تؤمر... » .

« وفديناه بذبح عظيم... » .

بعد فراغه من صلاته ، وخلوه إلى وحدته ، تمنع في مجيء إسماعيل ، في مغزى الأخذ والعطاء ، استعداد ماوراه الشيخ عبد اللطيف في البلدة ، بعد أن انجبت هاجر إسماعيل كان بهما ظمأ شديد ، حرك قدميه كسائر الأطفال ، ضرب كعبه الأيمن الأرض فتفجر نبع مبارك ، إنه بثر زمزم ، جعلنا الله من الموعودين ، المصطفين ، الشارين منه ، المرتوين من سلسيل مائه . في فراغ المسجد المغمر بالظلال ، المبتل بالسكينة .

في هذه اللحظة قرر اسم المولود ، مجيء إسماعيل ذكره بميلاد المرحوم كمال رحل صغيراً فله طيب المثوى ، معنى من السؤال والحساب ، يطلب له الرحمة ويتلو الفاتحة على روحه ، فسبحان من أعطى ، وسبحان من استرد ، إنه يسامح من قلب صاف ، مندى ، غير قادر على احتواء الضغينة ، كما أن اليقين غير محدد ، هل يجزم أن صده عند باب البك كان سبباً في فقدان الولد ؟ . صحيح أن لكل شيء سبباً ولكن الأعمال والآجال مقدرة ، بهذا آمن وسلم .

في البلدة تطلب الأم من الجدة ألا تخبر بحقيقة المولود ، ترجوها إخفاء أنه ذكر ، أن تخبر عنه أنه أنثى ، واسمها فاطمة ، يكفى حرقة قلبها مرتين ، مرة على خلف ، ومرة على كمال .

هكذا ألبست إسماعيل رداء أنثى ، ولم تناديه أمام الأغراب إلا بفاطمة ، على وجنتيه ، وضعت دوائر البن المحروق لتخفى ملامحه التي بدت جميلة ، لم تكف بذلك .. إنما زارت الشيخ أبو درية الرجل المبارك ، صاحب والدها ، المنبئ ، الموقن بعودته ، طلبت منه أن يعد حجابا يقي ابنها شر العيون ويحميه من سوء الواردات ، طلب الشيخ مرارة حمامة بيضاء خالية من أى لون كدر ، وقطعة من سعف نخلة أنثى ، أته بما طلب ، أعطاهما حجابا مثلثا طلب منها أن تعلقه إلى صدره عند موضع القلب ، ألا يفارقه أبدا ، أن تحقيه تحت جلبابه بشرط ألا تقع عليه عينا امرأة أبدا ، خاصة إذا كانت ثيبا ، عندما جاءت به إلى مصر ، أخفته عن العيون ، لم تكف عن تلطيح وجهه بالبن خشية الحاسدين ، وشرار الخلق أجمعين .

أرى لحظة مندثرة ، الأب متمدد ، عن يمينه أصلى ، وإلى يساره إسماعيل ، يقول أصلى : لماذا لم تسمنى باسم أحد الأنبياء كما سميت أخى إسماعيل ؟ ، يقول الأب : سميتك اسم أحد المجاهدين ، جمال الدين الأفغانى ، يتساءل أصلى : أهونى ؟ ، يجيب الكرم ، المغترب إلى الأبد ، « إنه مجاهد كبير .. » ، فيمتعض أصلى ويتزوى حاسدا شقيقه على اسمه .
عند هذا الحد تجلت لى الأم ، وادعة الملامح ، عليها سدول حزين ، عاتبة المظهر :

« أذكر شيئا عن أخيك كمال .. » .

أتطلع إليها حائرا ، غلاما عون ناضب ، وما من صور متبقية ، تقول :

« هذا أوان مناسب ، بعد ذلك لن تذكره أبدا » .

أدق البصر ، إني راغب في إرضائها ، ألا ترتد عني خائبة لأنني لم ألب رجاءها ، أدركت أنها لم تتعرف إلى حقيقتي ، لم تدرك جذر هويتي ، إن المائل أمامها صورة ولدها ، لم تعرف أنني مكلف ، مأمور بإتمام مدته حتى يقضى الله أمرا .

تقول بأسي :

« يعني ما من ذكر لكالم ، ما من شيء عنه » .

أقابلها بصمت .

تقول وعتابها أشد :

« نسيت كما نسيت سورة يس ... » .

فوجئت ، كأنها ضبطنني لحظة ارتكاب جرم ، كأنها فتحت الباب ورائتي عندما كنت أنكح يدي تهدة لجوى شهوتي وانتقاد مراقبتي مع انعدام الوليف ، وهذا أشد ما كنت أخشاه واحتاط حتى لا يقع ، غمرني خجل ، وحيرة ، آن لي أن أقر ، أن اعترف بالنسيان ، باكتماله عندي ، ذلك أني بعد رحيلها الذي قدر لي أن أشهده ، في أيام المראה التالية والأحزان عفية بعد . قال أخى على الأصغر إنه رأى الأم في الحلم ، جاءته بادية الشجن ، وطلبت منه إبلاغ جمال رسالة منها ، أن يقرأ من أجلها سورة يس مساء كل خميس ، أفضى إليّ على بذلك فكلمت أنوح لولا حرصى إبداء الجلد أمام الأشقاء ، وعندما خلوت إلى نفسي بكيت ، فأحيانا يكون طلب الأحبة المغتربين عنا هينا ، ميسورا ، بسيطا حتى ليثير الشفقة وغوامض الأحاسيس الأسبانية مع سرعة البت في التلبية مساء كل خميس وقبل شروعي في النوم أبداً التلاوة ، داومت على ذلك عاما وشهورا ثلاثة ، لم أتقاعس حتى مع

سفرى ورحلى خارج الديار . ثم بدأ الوهن يدركنى ويتمكن منى ، فكنت أقبل على التلاوة كفرض أنا مكلف به وليس كتلبية شأن الفترة السابقة ثم اكتشفت صباح يوم جمعة أنى نسيت ، فالتجست لنفسى أعذارا ، اضطربت المواظبة ، حتى جرى انقطاعى ، ولم يعد تبينى النسيان يوخز ضميرى ، ويؤنب داخلى .

اعلموا وفقكم الخالق ، البارئ ، الأعز ، أن الإنسان حينما ولى وجهه صاحب فوت ، لأن الأمر لا يتناهى ، وكل منكم فى الفئات المستأنف ، أما الماضى فلا يرجع إذ لو عاد لتكرر ولا تكرر فى الوجود أصلا ، لذا يتبدل كل شىء ، يتغير ، ويصير المحدث قديما ، ويلف النسيان كل شىء ، ليست المعانى والصور والخيالات وكل مالا يدرك بالحواس فحسب ، إنما الموجودات المادية ، ما يعرف منها ومالا يعرف ، تفضل الملامح فى الملامح ، حتى يصير التعرف إلى أصل اللمرة أمرا مستعصيا .

هل يقدر أحدكم على تحديد شكل الشجرة من رؤية اللمرة معزولة عنها بعد قطافها ؟ ، هذا صعب . اللمرة فى الفروع مخالف للأصول مع أنه كامن آت من الجذور المتوارية ، واللمرذاته يجب أن يحف ويضممر وأن يتلاشى متى تؤخذ منه البذور ، الفروع لا تثمر إلا إذا بعدت عن الجذور ، وفى طرحها تتغير الملامح وتندثر وان ظل جوهرها خفيا ، المصاحب لهذا كله النسيان ، وما كان عزيزا يهون ، وإلا فهل مرور عام واحد على رحيل الكرم المجاهد يماثل الثانى أو الثالث ؟ فادفن ما عندك ، إن مالا يدفن لا ينبت ! . عند دنو اليوم الذى به تكتمل السنة الأولى ، ألم يطابق اللحظة على اللحظة ؟ ألم يسع فى الصباح الحار إلى المثوى والمرقد ؟ أما فى الرابعة فقد تباعدت الرؤى ، ودنا الفراق من النواصى .

في العام الأول مضى أصلى لزيارة المئوى ، غير عابئاً بصهد الطريق ، وقفر
الناحية ، وقسوة الشمس ، لكنه في الرابع تقاعس ، تكاسل ، ولم يقم بالزيارة
إلا بعد يومين من تمام الذكرى ، هذا ما جرى .. ما كان ، أما أحلامه التى هى
رؤاى .. فلم يعد الوالد يطرقها إلا لئلا ، وكأن المغترب الكريم يشعر بدبيب
النسيان فينأى بنفسه حتى عن الدنو عند الغفوة ..

منذ يومين طبقا لميقات هذه الدنيا التى سميت دنيا لدنوها وسرعة زوالها ،
كنت مجتمعاً بالأشقاء ، قال إسماعيل إنه إذ يتذكر أباه الآن فيخيل إليه أن البون
شاسع ، وأن الزمن الفاصل سحيق ، كأن أربعين عاماً انقضت وليس أربعة ،
أنتت الشقيقة ، قالت إنها لا تراه إلا نادراً ، وإذا زارها فى الحلم يقوم بينهما
حاجز غير مرئى ، حدثونى وهم يجهلون كنهى ، ولا يعلمون أن شقيقهم غرب
وأقصى .

أصغيت كما كان يصغى ، حتى شرود عينيه صاحبنى ، غير أن ما ألقى فى
معارفى لم أصرح لهم به ، لم أكشف عنه ، أخبرنى دليلى ، أن الإنسان إذا تم
رحل ، وأنه كالراحلة يمر بمحطات ، واحدة إثر الأخرى ، لكل منها مقدار من
الصعب أن نحسبه بقياسات هذه الدنيا ، كما أنها تختلف من إنسان إلى آخر طبقاً
للاستعدادات وإمكانيات القبول العرفانية ، والقدرة على ثبات المدرك ،
وطول الصون ، ظن أصلى أن أساء سيترف أبداً ، غير أن طوارق شتى نالت
منه ، من مرض ، وغدر صحاب ، وعسر حال ، وقلة مال ، ومضايقة
عسس ، ويزوغ ملذات .

بما عرفته أن المراحل تكون أربعاً أو خمساً ، لكنها لا تريد على سبع أبداً ،
وعند بلوغ الأخيرة تنخ الناقة وتترك الراحلة ، ولا يكون لها قيام صوب الاتجاه
عينه ، قد يوازى ذلك فى دنيا الحس اختفاء آخر إنسان فى عالم الحس يكتشف

في وعيه عبارة أو ذكرى أو لحظة تتعلق بمن وُفِّي وتم، عندما أتساءل - ومن طبعي ألا أكتّم أبدا - حتى وإن أودى ذلك بي . ألم أطرده من مقام عزتي لأجبيء غريبا . لأصير من أجهل ، لأكتشف نفسى خطوة إثر خطوة بعد أن كان الأمر ملء يدي ، وجلّه معي ، أتساءل الآن فأقول : ما حكم الإنسان الذي يسعى ، ألا ينحدر من جلدع لا يدرى عن جذره شيئا ، لم يرها ولم يطلع عليها ، ثم ما حكم هؤلاء الذين لاتنقى عنهم العيون ولا تنام ؟ لا تتساهم الأفتدة ، وقد عرفت بعضا منهم ، إما بالقرى أو المصاحبة ، ومنهم ، مولانا سيد الشهداء ، وشيخنا إمام العارفين محيي الدين ، كلنا نصير المستضعفين جمال بن عبد الناصر .

هنا يتلى في مسامعي وفي قلبي :
« يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار .. » .
هذا خوف الزمان .

« وهنا أصغيت إلى من يتشلفى بعضا مما فاض به مولانا جلال الدين الرومي ، وهذا ما ناسب حالي ، استسمحكم واستأذنكم في ذكر بعضها تبركا وترينا لهذا التدوين ..

استمع إلى الناي كيف يحكى
ويشكو آلام الفراق
منذ أن اجتروني من منابع القصب
بكى الرجال والنساء من تصبيري
أريد صدرا ممزقا من لوعة الفراق
حتى أبسة ألم المهجر والاشتياق
كل من وقع بعيدا عن أصله

يطلب أيام وصله
لقد نحت في كل ناد
وأصبحت قرين التعساء والسعداء
ظن كل واحد أنه صار صديق
بيد أنه لم يقف على ما يكنه قلبه

عند هذا الحد تجلّى لي دليلي .. قال لي :
« عد إلى ما أنت فيه ، أقصد حال الجهات الأربع .. » .
ثم قال لي :

« إن ما شاهدت وما أبصرت وما سمعت وما طعمت وما شممت وما
لمست ، وحظ الكشف ما فهمت من هذا كله ، أما ما فهمته فهو أمانة يجب أن
تؤديها .. » .

ثم قال :
« إسمع .. » .
ولم يكن بوسعي إلا أن ألبّي ..

* * *

حَالُ الْجَهَنَّمَاتِ الْآرْبَعِ

«يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى»

(قرآن کرم)

قبل إيغالى فى هذا الحال . نحب الإشارة إلى أن حال الفوت مازال غالبا ،
مسيطرا ، إنه فى موقع المجرة بالنسبة لشموسها ، أو الشمس التى تأسركواكبها
وتشدهم فى دوران أبدى إليها . لذا لزم التنويه أقف فوق السطح ، الممتد ،
المغطى بالصهد فى الصيف ، المنبسط الغائم فى الخريف والشتاء ، سماء رمادية ،
غمامات قصبية ، حلأة محلقة تتحين الفرصة للاتقضاخ فوق دجاجة شاردة ،
أو قطلة وليدة ، أو جيفة ملقاة ، من هنا تلوح الجهات والمشارف ، الأزمنة
والأمكنة ، إليه تتراعى أصداء الأنغام ، وضجيج المدينة ، تبرز أغنية لا أدرى
مصدرها ، أدركها فى مجملها ، حروف الكلمات مطموسة لما بزوغ إشراقى ،
الشمس تطل دامية ، وتنتهى فى الغرب قانية ، فما أقرب البداية إلى النهاية ،
فسلام من أصلى الغائب ومنى إلى هذه النجمة الأولى الوافدة ، النجمة التى
تبدو فى الفضاء السحيق قبل كل النجوم ، التى تجمىء وحيدة فى سماء قاحلة ،
حتى إذا بدأ قدوم الأخريات أصبح من الصعب تمييزها وكشفها ، وعند الرحيل
تبقى بمفردها ، بلا أنيس .

فيا أول البادين ، وآخر الراحلين ، لك الإيماء ، وتحية عابر غير مقيم ،
غالب عليه حال الفوت ، مامن أنيس له أو صاحب ، منفرد مثلك ، لك

ناصرع البريق ، وطيب المهجوع ، والصبر على المصير المعلق ، والدوام للألق المنفرد ، إذ يتم الظلام تجمي النجوم ، فرادى وجماعات وعناقيد ، تقول الأم ، هذه أرواح الصالحين البررة ، أما الشهاب المارق فروح تهوى ، - إنسان أوفى وأنجز فرضه ورحل ، لكل منا نجمة ، ثابت مادام يسعى ، يبدأ أفوله مع ديب الوهن ، إذ يتم الأجل يهوى إشارة إلى سقوط ورقته من شجرة الخلق التي وقف عندها أملى واطلع على بعض منها قبل سلوكه مقامات الطريق ، « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وماغوى ، وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ماكذب الفؤاد ما رأى .. » « مازاغ البصر وماطنى » بل صدرى ماتلى عندى ، فأدرت النظر ، وثبت البصر .

فى فضاء المدينة الللى تبرى لافتات إعلانية متباعدة ، أوضحها لافتة دائرية ، ألوانها زرقاء وحمراء وبيضاء ، أعلى عمارة ناحية غمرة ، يقول الأب إنها قرية من بيت خلف بك ، أرى أصلى إلى جوار أبيه ، يحمله حتى يشرف ويرى ، الأفق ناء ، ولهب يرتعالى متصاعد ، ودخان أسود سائل صاعد ، يقول : هذه نيران ناحية الأويرا ، يشير إلى لهب آخر : هذا قرب الظاهر ، يدرك أصلى خوف غامض ، هل تطولهم النيران التى تبدو بعيدة ، يقول الأب : البلد يحترق .

فى السماء الغروية حامت طائفة غربية المنظر ، تخالف الطائرات التى اعتاد أن يرقبها طوال النهار ، طائفة بلا جناحين ، بطيئة كجرادة ، فوقها مروحة تدور كمراوح السقف ، يقول الأب بغموض : طائفة غربية .. ، إذن ، يمكننى تحديد اليوم ، السادس والعشرين من يناير ، عام ألف وتسعمائة واثنين

وخمسين ، هذا ظلام مكتمل ، يعبر أصلى السطح صيبا بصحبة أبيه ، يؤنسه حتى يقضى حاجته في دورة المياه المعزولة ، المنفصلة ، البعيدة عن الغرفة ، عبر المسافة القصيرة يرقب السماء وجلا ، ماذا تخفى العتمة ، وهذا الفضاء العجيب ؟.

أتلقت فأرى الناحية الأخرى أبنية قديمة ، خرابة ، يبدو سقف المسافر خانة العتيق ، وهذا السقف البارز الأحلب الذى يعلوها ، حذرت الأم من الذهاب إلى هذه الجهة ، قالت إن غولة تأكل الأطفال تسكن هناك ، لطالما حلق من وراء السور ، متخيلا امرأة يكسو الشعر جسد لها ، بارزة الأنياب ، متحفرة لاختطاف أى طفل تطوله ، هاهو ذا يمر أمام دكان صغير يبيع اللبن ، مجاور لمدرسة عبد الرحمن كتحدا ، أول معهد تلقى فيه العلم ، يرتدى جلبابا وصندلا بنيا ، إنه صغير ، تلك ملاعبه في طفولته وقد ولت إلى أبد ، أحتفظ سنين ببعض من صور تسجلها ، تلمح إلى ماكان ، غير أن هذا الضابط الغيتت بدد مابدد ، لعنه الخالق .

هاهو ذا يمشى وحيدا ، يرتدى جلبابا ، يتطلع إلى مبنى من أربعة أو خمسة طوابق تحته علائف ، يبيع الفول والقمح والذرة واللوييا والترمس الجاف ، بجواره محل لتجليد الكتب ، في مواجهته رفاعى السباك . لم يره إلا منحنيا على موقد غازى .. أصابع يديه مكسوتان دائما بهباب أسود ، يمر ويشقى عند المنحنى ، يختلس النظر إلى البيت القديم ، يتمم « بسم الله الرحمن الرحيم » ، يمد الخطى ، إن مايشير خوفه « غية » حمام من صفيح وخشب ، يؤدى إليها سد نخيل ، لا يذكر من قال إنها مهجورة ، وأن عفريتا يسكنها ، يجرى ، يجرى ، لا يبدأ له قلب حتى يصل إلى مدخل الحارة .

أمام موضع آخر يحجب الحذر منه ليلا ، ثمة عفريت من شرار الجن يبدو

للمنفرد المتأخر وقد يسد عليه الطريق بحاجز غير مرئى ، تماما كما جرى مع حسن أفندى على ، فوق السطح يقف الأب ، ولولا خشيتى الاطالة لوضعت فصلا مطولا فى هذه الوقفة ، تناولتها فى ذاتها وميقاتها ، فيما تراه عيناه فى الظاهر ، ماتراه فى الباطن ، ما يمر بخاطره من شوارد ، فالحال عسرة والزاد صعب ، لولا ماترسله الجدة من دقيق وسكر وسمن وبلح بجفف وملوخية وارغفة وأوزة مذبوحة لبان الجوع وألح .

فى هذه الفترة يقترب أصلى من العمر الذى يجب أن يلتحق فيه بالمدرسة ، أبناء البلدة يهزون وعوسهم ويقولون إن هذا قصر نظر فالتعليم له مصاريف ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها : لماذا لا يلحقه بورشة ليتعلم حرفة يمكنه بعد اتقانها أن يساعده ، لم يحبهم الأب إلا غاضبا ، مامر به لن يسمح لمثله أن ينال من أولاده ، أبدا لو أن أجل أبيه امتد ، لو أن أمه لم تقتل ، لعرف الطريق إلى سر الحروف ، لتجنب الشقاء العظيم الذى حل به .

صباح يوم مجهول اسمه الآن ، وفى ساعة مندثرة ، انطلوت فى المجهول ، مضى إلى مدرسة عبد الرحمن كتحدا ، التقى بإبراهيم أفندى ، رجل يرتدى جلبابا فوقه جاكته من الصوف ، وغطاء رأس أحمر - طربوش - وعلى جبهته آثار وشم عتيق ، أصغى إلى الوالد الكريم ، إبراهيم أفندى من المصلين دائما فى مسجد الحسين ، وكثيرا ماتجاورا ، وتضافحا عقب انتهاء الفرض ، أوضح المطلوب ، بين القصد ، الأوراق وكيفية تقديمها والتاريخ الذى يجب ألا يتجاوزه ، أما مقدار الرسوم فجنيه واحد ، جنيه لا غير لكنه مشكلة وقتئذ ، توفيره صعب ، وأن يفيض عن الحاجة ليس بالأمر الهين ، واقتراضه عسر ، أما إيجار نصف الفدان فما زال متبقيا عليه ستة شهور حتى يبدأ محاولات الحصول عليه . قال إبراهيم أفندى : يمكنك أن تكتب شهادة فقر ، غير أنه أبى ، هذا

نذير سيئ ، أن يبدأ رحلة ابنه بورقة استجداء وطلب اعفاء ، إنه يتطير من ذلك ..

عند ذلك الحد قبلى دليل ، قال-آمرا :

« لا تثبت .. » .

ثم قال لى :

« لا تكن كالماء الراكد ، فإن ثباته يجعله نتنا ... » .

ثم قال :

« كن سيالاكجريان الماء الذى لا يثبت على شىء إلا زمن مروره عليه ... » .
فوليت الوجه .

الجهة الجنوبية

.. يختلف الضلع الجنوبي من السطح عن الجهات الأخرى ، ذلك أن الغرفة تقوم فى هذه الناحية ، إلى جوارها دورة المياه فتلك مسافة ملغاة من السور ، يتبقى جزء صغير لا يتجاوز طوله مترين ، يشكل ما يشبه الشرفة مع ضلع السور الشرقى ، من هذه المسافة القصيرة يؤدى الفراغ إلى الأفق ، أفق مغاير ، يختلف عن الغربى ، ذلك أنك أينما وليت النظر فثمة مآذن رمادية ، تحدد وتؤثر الطريق المؤدى إلى أعلى عليين ، عند حد الأفق تقوم مآذن مهية ، ظلال أبدية ، تصل السفلى بالعلو ، تنتهى بجواسق وأهله ، وقرب منتصفها الأعلى أعمدة نحيلة يتخللها الضوء ، فتبدو الفراغات معددة ، يقول الأب ، إنها مآذن الرفاعى والسلطان حسن ، ولأن أصلى كان غرا بعد لايمى ، ظن وجود صلة ما بين هذه المآذن وعم رفاعى السباك العجوز .

عند نقطة أخرى من عمره المبكر ظن صلة أخرى بالرفاعي الذى يستدعونه ليخرج الثعابين من جحورها ، أو يمشى فوق جمرات الفحم المتقدة ، ويتلعم الأمواس ، وقطع الزجاج ، وحتى وصوله إلى سنّ متقدمة لا يذكر مسجد الرفاعي إلا وتموج في ذهنه صور مضيقية قديمة لم رفاعى ، وبما يناسب ذلك نادرة لأبأس من ذكرها ، فعندما كان إسماعيل ابن عامين أو ثلاثة ، أصغى كثيرا إلى الوالد الكريم إذ يذكر اسم النحاس باشا ، وعند خروجه من حارة الطبلاوى ومروره أمام دكان مبيض أوعية نحاسية قرب مدخل الحارة ، إذ يرى الرجل يستند إلى الجدار يدور داعكا الوعاء بقدميه ، يقول لنفسه : إذن .. هذا هو النحاس باشا !

هذا حال الطفل ، الغر ، الذى تختلط عناصر العالم عنده ، من واقعية وغيبية ، وقصية ودائية ، ذلك عين حال من دنا وقارب على اختتام الطريق ، بداية الدائرة هى نهايتها ، غير أنى لا أقول بالكل أو بتشابه الأحوال ، فكل إنسان كون بمفرده .

حدث يا كرام أن أصلى سعى بعد هجرة الوالد الهجرة الكبرى إلى عزيز أحبه وظل على صلة دامت عمرا به ، فهو سبب جريان رزقه ، وقد مر ذكره ، فى تلك الأيام . كان احتراق قلبه متقددا ، فى أوجه ، ولحيه فى اتقادده ، ونار حسرته حامية ، كان يخيل إليه ، بل يكاد يوقن أنها لن تحبوا أبدا ، كان يمضى إلى من عرفهم الراحل فيسلم ويهديهم التحية الطيبة ، ويجلس فى نفس الموضع الذى كان يقعد فيه الوالد ، ينحنى عين انحناءته ، ويشير اشارته ويتحدث بإيقاعه ، بل يسلك نفس الطرقات التى اعتاد المرور بها وخلت منه إلى الأبد .

يمر أمام مبنى وزارة الزراعة فيدمع ، ويرنو إلى المعابر والمفارق والنواصى التى وطأتها القدمان اللتان لم تتركا أثرا بعد ، ويردد : يا حسرة على ما فرطت ، ليتنى

زرتة يوم أن تكاملت ، يوم أن تقاعست ، من بين الذين مضى إليهم هذا متمهلا ، وتفحص الجدران التي وقعت عليها العينان اللتان انطفأتا ، لن ينعكس فيها شيء بعد ، إذ ولج غرفة الرجل المريض شم رائحة بول ، لم يفارق الفراش منذ شهر ، بجوار السرير رأى أنبوبة التبول المعوجة ، كان نحيلا ، مترجرج النظر .

قال أصلى مخاطبا المريض : أبي يسلم عليك ، قال الهرم الذى أقمى وحط رحله : أحمد لايسأل عني .. حتى هو؟. قال أصلى مغالبا جواه : برد أئزمه الفراش . قال الرجل محدقا فيما لا يرى ، ولايين : أحمد لم يستسلم لمرض أبدا لم يقعه إعياء .. هل استسلم للكبر؟. قال إنه يود رؤيته ، يود الاستماع إلى حكاياته ، ولو سمح الزمن بصحبته إلى ضريح سيدنا الحسين لصلاة الجمعة ، ياسلام .. هذا عين المنى ، قال إن جلسة ما بعد صلاة الجمعة عند الصاوى تبدو كحلم عصي الآن ، لم يتخلف عنها أبدا .. أبدا . ومنها تعرف إلى الأب ، ثم قال : إن هذه الجدران منذ أن تبدلت تغير كل شيء . طعم الأيام ، ولون الغروب ، ومذاق طلعة النهار ، وهناك وهن الجسر ، قال إنه يريد الخروج من هذه القرية الضيقة إلى العالم الفسيح ، يريد العودة إلى السقف الذى أظله فى مصر ، حار أصلى ، عن أى قرية يتحدث ؟. مال الإبن الأكبر هامسا ، إن الأماكن تختلط على آبيه ، والأزمنة تتداخل عنده فجأة كذا الأسماء ، شخص واحد لم يغب عن باله ، لم يأفل أبدا فى وعيه ، هو أحمد الغيطانى .

وانصرف أصلى إلى الشوارع موجوعا ، لو أن الوالد قام بهذه الزيارة لأدركه حزن وأسى ، أهذا ما انتهى إليه الرجل الذى كان سيبا فى جريان رزقه ، الذى اقترب منه ونأى ، الذى أحبه وأبغضه ، كان الوالد يردد دائما أن البك لو رحل فلن يطول به المقام ، قديما بدأ أمرهما والبون شامع بينهما ، ولولا مشاعر شتى

ودقائق تستصحي على التفسير المتاحة ولكنه الإنساني لانهى أمرها منذ أمد بعيد .

بعد أن عمل الأب في وزارة الزراعة وتقلب بين أقسامها ، استقر في قسم الشئون القانونية ، كان البك وقتئذ ذا حول وهية ، والوالد عاملا أمره ضعيف ، يمكن لأى موظف أن ينهى خدمته ، أن يقطع رزقه بحجرة قلم ، لكم كظم في نفسه وحاش روحه عن إبداء انفعال خشية أن يلحقه أذى ، غير أن مايجب تتيته والتدقيق عليه أنه لم يأت مايعتبره لكرامته ، أو حاطا لقدره في نظر نفسه وربما هذا ما جعله يلزم عمله كمثال زمنا ليس بالقليل ، يحمل أجولة البذرة فبرغم الجهد الجثاني الشاق ، إلا أن عمله هذا جنبه التعرض لمطالب الموظفين الصغيرة .

أبلا .. لم يتمكن منه الاحساس بالضعة ، لم يأت مايتقص من قدره في حق ذاته . ايضاح الأمر هنا دقيق ، صعب ، لكن .. ربما انضح بضرب المثال . إذ اعتاد بعض من زاملوه أن يمضوا إلى بيوت من يرأسونهم لقضاء الحوائج ، وأداء الخدمة أما هو فتجنب ذلك ، تماشاها قدر الطاقة ، إذن .. لماذا كان يتردد على بيت البك ؟ .

أقول أنا الفقير إلى المساعدة لمواجهة هذا الكون الغامض على ، أن خطاه لم تقله بتأثير ضعة أو عن خضوع وامثال ، إنما بتأثير شعور متصل بضرورة رد الجميل والمودة والرغبة في القرى ، هنا لا بد من الاشارة إلى نقطة دقيقة حرج أمرها ، ذلك أن البك كان بمثابة الحامى له من مضايقات الموظفين . كان الوالد في مواجهة مضايقاتهم ، واستهانتهم بشأنه ضعيفا ، أى غضب أو اضطهاد يحصف به ، يلهده ، كانت صلته بخلف بك سندا ومعانة ، واستمر الأمر بعد انتقاله إلى العمل كتقاض من القضاة .

هل أدركتم ماردده الوالد دائها، لو أن ابن عبد الناصر لم يفعل إلا حاية الضعيف في مواجهة القوى لكفاه وحسبه ، غير أنى أعود إلى الزمن القديم ، أكرر الحيرة ، لماذا استمر في التردد على البيت ؟ لماذا .. حتى بعد وفاة ابنه الأصغر كمال ، مع اصرار الأم على أن المقابلة السيئة هي السبب في رجفة الولد ، وخضته لماذا ، هل يستوى البحران ، هل يلتقي الجمعان ؟، هنا تجلت لى الأم غاضبة ، تلك هيئتها التى عرفها أصلى ، إذ يعم وجهها ، وتبدى ضيقها الذى اعتادت أن تكظمه عنه .. قالت :

« كف عن ذلك ، أنت تخوض فى سيرة أليك . »

شغلت عن سؤالها بتأملها ، هى الغاربة ، الراحلة ، التى يطورها الوقت بأسرع مما قدرت ، قالت :

« هذه فضائح .. لماذا تجرنا بين الناس ؟ » .

ثم قالت مؤبنة :

« ألا تعرف ظروف أليك ، أبوك كانت ظروفه وعرة ، صعبة ..

ثم قالت :

« طول عمره شقى ، ويسردك هذا تريده شقاء .. » .

مسافة تفصلنى عنها، وثمة حاجز غير مرئى يقوم بينى وبينها، وعندما انتهى التجلى الخاطف ، المارق ، حرت ، كيف لم أدقق أكثر ، فى أى عمر بدت ، وأى ثياب ارتلت ؟، هذا فوت آخر ، نزل فى سكون ، وصمت ، وحيرة ، وددت ألا أعصى لها أمرا ، خاطبنى العقل أن أكف ، غير أن الحيرة لم تهدأ . ماذا عن تأثير هذا الموقف الذى أفضى به الأب إلى ابنه بعد ما يقرب من أربعين عاما على وقوعه ، فى آخر زيارة قام بها إلى بيته ، بدا وكأنه يقص ماجرى أول مرة ، ماسمه أصلى فى هذا اليوم لم ييل فى خاطره حتى بدأ معراجة .

قال الأب : إنه كان بصحبة البك في محطة مصر ، كان يقف على بعد منه ، كان البك يتحدث إلى ثلاثة من صحبه جاء يودعهم ، فجأة التفت ناحيته ، اتجه إليه رافعا عصاه ذات المقبض العاجي المفضض ، انهال عليه ضربا على مرأى من الناس . هكذا بدون سبب ؟. أجل . بدون سبب ، قال الأب حائرا ، في صوته دهشة كأن ماجرى وقع منذ لحظات قصار : وأنا لا أعرف السبب حتى الآن ! ثم قال : لم يبد منى أى تصرف يدفعه إلى ذلك ! ، صمت ، جلسا متواجهين ، يتقلها عصر خريفى ، ويلوح زمن أقل على مقربة ، وغربة يتأجج اشتدادها ، ليست الواقعة الوحيدة التى حيرته ، ماذا عن هذا اليوم النائى ؟ .

حدث ذات غروب منقضى أن رجع إلى البيت مهموما ، ليس من عادته اخفاء منغصاته حتى إذا لزم الصمت فى البداية . ألحت الأم فتكلم ، قال إن امرأة البك سألته بلهجة ذات معنى لالحنى ولا يغيب ، هل رأى الملاحق القضية ؟ ، ست من الفضة الخالصة ، كانت فوق المنضدة الرئيسية ، قال : ألم تسألى الطباخ ؟ قالت : إنما أسألك أنت . صمت ، لم يفصل الأمر ، إنما انقطع عن البيت عاما ، اتصل به البك فى الوزارة ، أوصى الصاوى الخياط ، لكن الأب لم يصغ ، لم يلب ، أبدا .. لم تكن صلة بين تابع ومتبوع ، بين سيد وخدام . بالأخص فى المراحل الأخيرة من الرحلة ، كثيرا ما ردد ، هذه السيدة لن تفهمنى . لن تعرف دوافعى لزيارة البك ، أبدا لن تفهم .

بعد انتقال البك من الوزارة ، بعد أن أصبح قاضيا ، لم يقطع عنه ، كان يزوره : ويصحبه إلى صلاة الجمعة ، إلى ضريح الإمام الشهيد ، إلا أنه يعود أحيانا غاضبا ، حزينا ، يقول : إنه لن يذهب إليه أبدا ، تسأل الأم وتستفسر ، غير أنه لا يوضح ، وبعد لحظات قصار . تعلن ارتياحها . لم تنس

ماجرى لكمال ابنها ، لم يوضح الوالد بواعث كمدته ، غير أن أصلى ألم بشدرات ، أحيانا تطلب منه الزوجة شراء أرغفة أو قضاء حاجة من السوق ، ينصرف وعنده ضيق ، غير أن القطيعة لم تدم ، يتصل به البك أو يسعى هو إليه ، وإذا يطلب منه البك أن يمر بالكواء ليأتى من عنده بياقات قصانه لا يعد ذلك خطأ من شأنه ، في سنى الطفولة اعتاد أن يصحب عياله معه أبنا ولى وجهه ، بقى فى وعى أصلى محل الكواء قرب ميدان الإسماعيلية ، وكان ضيقا ، تبعث منه رائحة بخار ، وهج قماش ساخن ، تؤدي إليه درجات ثلاث ، كواء تخصص فى تنظيف ياقات السادة ، بيضاء ، صلبة ، تثبت إلى القمصان بزازير صغيرة لاترى ، لم يبد الأب تدمرا ، لم يفصح عن شعوريشى بوقع الاهانة .. لماذا ؟ هذا ما حير أصلى ، أخلو الخطاب من نبرة السيد ؟ ، إذن .. هل استشعرها فى الزوجة ؟ ، ربما .. مامن يقين قاطع ، مامن نبأ دال ، غير أن ما عاينه أصلى وخبره عن قرب ، بروز الندبة فى أمر العلاقة ، بتأثير دوام العشرة ؟ ربما ، أم أن ذلك نتيجة لهذا الحلقى الذى لا يرد ولا يبين إلا بغته ؟ الذى يقبل ويدبر ، يكشف ويحجب ما تعارفنا عليه أنه الوقت ، الزمن ، الدهر ؟ ربما . مع العلم أن هذه المسميات كلها لا تحيط به ، هل قرىها وساوى بينها هذا القاهر ؟ ، ربما .

عندما طال المرض بالرجل سعى إلى الموظفين القدامى بقسم الشئون القانونية ، حدثهم عن إعفاء البك الذى عرفوه وعملوا معه ، قال لبعضهم إن السؤال عنه فيه ثواب وأجر عند من يحاسب الأجر ، إنه وحيد فى رقده ، ذكرهم برقم هاتفه ، بعد أيام قال لامراته .. دنيا موحشة ، تصورى .. لم يسأل عنه أحد ، لم يتخلف عنه بعد بدء مرضه .

قبل بدء رقاده كلّ بصره نور عينيه ، اعتاد أن يمضى إليه صباح الجمعة ،

يصحبه ، يمسك ذراعه ، ينهه إلى المنحنيات .. إلى انتهاء الأرضة .. إلى حفر الطريق .. إلى العوائق .. إلى موضع مناسب لانتظار عربة أجرة ، يتفرق قلبه إذ يرى الرجل الذى كان عزيز الجانب ، مهاتبة تملأ العين ، منيعا ، لايلين لسلطان عند نظره قضايا الخلق ، وله فى ذلك حوادث شتى .

هذا الرجل الذى تسبب فى جريان رزقه ، يلين له ، طوع يده ، يرتجف عند أقل بادرة لايتوقعها أو صوت مفاجئ ، للرجل الصارم ، من عرف بقوة حضوره ، عند اعتلائه منصة القضاء ، يبدو كطفل أسلم القياد ، هذا مما أوجع الوالد ، يخبره ويطلعه بين الحين والآخر على الشوارع التى يمر بها ، قد يتوقف البك ، يسأل عن معلّم معين ، أباق كما هو ؟ أحيانا يقول ، لماذا جئت بي إلى هذا الشارع ، أريد أن أمشي فى طريق آخر. يقول الأب : لكن هذا أقرب ، عندئذ يغضب ، يتوقف . وقد يأبى الاستمرار .

مرة طلب منه أن يعود إلى البيت ، نهه الوالد إلى أن صلاة الجمعة ستفوتها ، لكن الرجل أصر ، راح يحدث نفسه بصوت مرتفع ، رأى حاله وتمكن العجز منه وقلة حيلته مع ضعف بصره ، قال إن أحمد يتحكم فيه ، يملئ عليه إرادته ، أغضب ذلك الوالد ، كيف يخطر له مثل ذلك ؟ ، انصرف مضمرا النية على بدء القطعة ، البك صار عصيبا ، لايطيق جدلا ، أما هو فصحته لم تعد تقوى ، حتى أنه لم يعد قادرا على المشى مسافات بعيدة ، وانتقال المسكن من الجمالية إلى تلك الضاحية نأى به عن عادة الزمن القديم ، لكم مشى ، من جهينة إلى طهطا ، من قرية إلى قرية ، من مدينة إلى مدينة . من الجمالية . من مسجد الإمام الشهيد إلى وزارة الزراعة بالدق ، لكم سعى ، حفظ ملامح الدروب والعطفات والنواصى واللافتات وخصائص المكان وتوالى الحارات ، كان يستيقظ مبكرا ، يصلى ويمضى ماشيا ، هكذا بدخ ملهمات

التذكرة ، مالمديه يكفيه بالكاد ، ومايدخره يحتاج إليه البيت ، لم يقلقل هدوءه
بأله ، ولم يبدد يسر أحواله إلا خلو البيت من زاد قليل .
مما أحطت به أن ظروفها عسرة مرت به ، جعلته يرتاد منها شاقة .. صعبة ،
خاصة بعد مجيء الأولاد وتقدمهم في التعليم ، وتزايد الحاجات ، لم يقل لهم
أبدا إنه كان ينتهى من عمله في الوزارة ليبدأ جهدا شاقا في مخزن للقصب ناحية
أمبابه . يكسر العيدان ، يعدها للعصير ، لم يفض إلى الأم بذهابه إلى مرسى
للقوارب القادمة من الجنوب محملة بالأحجار البيضاء المقطوعة من الجبل ، لم
يقبل إنه حمل الأحجار على كتفيه ، يفرغ القوارب مقابل قروش قليلة ، لم
يحدث عن هذا . لجأ إلى أماكن نائية في المدينة حتى لايلمحه أحد الجيران أو
المعارف ردد بينه وبين نفسه ، العمل ليس عيبا ، ولكننى لا أريد أن أكسر
نفس الأولاد .

لم يطق أبدا مجرد تخيل أنه سيضطر إلى اخراج جبال أو إسماعيل من المدرسة
بسبب ضيق ذات يده . بذل أقصى مايمكن لقواه الجثمانية أن تبذله ، غير أنه لم
يبن ذاته أبدا ، هذا ما تجنبه ، مدافع عن نفسه حتى لايدنونه أو يقع فيه ، ولو
أنه أعطى الوسيلة الأفضل لما قصر ، لما تقاعس ، لكن شاء عسر الحال إلا أن
يلازمه ، ان يحرم تحصيل العلم ، فلم يعد بوسعه إلا بذل الطاقة وتقديم القدرة
المتاحة ليوفر مايكنى الأود ، أفهم ذلك وأجله ، غير أن كنه الصلة بينه وبين
البك مما لا أقدر على الوصول إلى لبّه وجوهره الدفين حتى وقت تدوينى هذا .
لم ينس أصلى تعابير وجهه الأسبانية ، وحزنه البادى عندما دخل إلى البيت
عصريوم بعيد ، حط قاعدا ، ينوء بالهم . قال إن البك تلقى خطابا رسميا بإنهاء
خدمته ، آلمه لهجة الرسالة الجافة الموحشة ، الخالية من عبارة شكر أو مجاملة أو
إيماءة حتى إلى سنوات العمل الطويلة ، الحافلة بخدمة الدولة ، قال إن انتهاء

الخدمة نذير بدنو الأجل ، بلدا مكتنبا ، كايا ، وخلال الأيام التالية تردد كثيرا على البك . يقول البك مخاطبا صحبه : إن أحمد من محاسيب سيدنا الحسين ، وأنه من زمرة سيد الشهداء ، قال هذا كأنه ملم بما جرى في الأسفار والمواقف من هذه التجليات المباركة ، لكن أتى له ذلك ؟ .

قبل عام من بدء الرحلة الكبرى ، جلس الوالد في الشرفة صامتا ، قال بعد حين : أما من وقت عندك لتزور خلف بك ؟ ، تساءل جمال : أعدت إليه ؟ قال بأسى : الرجل مريض ، أجرى عملية جراحية بعد انحباس بوله ، دس يده في صدريته ، أخرج أوراقا شتى وقصاصات ، اختار منها واحدة ، فردها ، مدها إليه ، هذا عنوان المستشفى ، ورقم الغرفة ، تناول أصلى القصاصة ، قرأها ، زدها ، كان مشغولا بمواقيت عدة .

فيما بعد تئى لو أنه زار الرجل ، كان الوالد يسر بصحبة ابنه في كبره كما سر بذلك في صغره ، لكن في العمر المتأخر لم يكن الأمر بيده ، هذا من مساوئ أصلى التي لن أملكه عليها ، ولن أتقبلها منه ، لو أنه بذلك الجهد اليسير ، لو قلل وقت جلوسه بالمقهى ، لو خصص الزمن البسيط لبعث سرورا وراحة عند من جاء به إلى الحياة الدنيا ، وإن كان هنا قبس يسير من حسن الأفعال يخفف مرة عرج أصلى على الوزارة لسبب غير واضح عندى الآن ، اتجه إلى الممر حيث المقعد الذى أمضى عليه الأب أوقاتا طويلة ، صحبه إلى الموظفين ، تبعه ، قدمه فرحا ، عند نزولها الدرج رجاء أن يعرج على فلان ، فلم يعص له طلبا ، في الممر توقف فجأة ، نادى على أحد المسرعين ، صافحه ثم التفت إلى أصلى . قال : جمال ابني .

في ليلة أخرى كان جمال في طريقه من مكان إلى مكان ، فارق عربة صاحبه ، ثمة عرس قريب ، لم يكن قد قرر الذهاب ، غير أن وصوله إلى شارع

قريب من مقر العرس دفعه إلى المضي ، إنها ابنة إبراهيم أبو الفضل آخر من زاره
الوالد. ليلة بدء الرحلة والهجرة الكبرى ، دخل أصلى صالة النادي ، رأى جمعا
جلّه قادم من جهينة والنواحي القريبة للتهنتة والحمامة ، عندما نظر إلى
العروس ، استعاد ليلة مولية ، قصية ، صحبه أبوه لزيارة إبراهيم في بيته
بالعباسية ، جلسا ، دخل عليهما طفل صغير ، بدا غاضبا ، طبطب عليه والده
وحنا ، بعد خروجه قال : الولد يغار من أخته ولا بد من معاملته بالحسنى
والرقة ، وأوما الأب مؤمنا ، هذه العروس المكتملة ، ناهدة الثديين كانت ابنة
أيام لاغير في هذه الليلة النائية ، عندما أنجبت امرأة أصلى ابنتها ، قصد متجرا
يبيع اللعب ، اشترى طائرة صغيرة وعلبة ألوان ، قدمها إلى محمد ولده ابن
السنوات الأربع وقتئذ قال له : انظر ما أحضرته لك اختك . غير أن نظرات
الصغير بقيت ساجحة في الفراغ ولم يبد عليه أنه اقتنع .

عندما خلا بامرأته ورفيقه سفره - التي أصبحت امرأتى وصاحبة فترتى التي
قدر على أن أقضيها بدلا منه - قال : انتهى الولد يغار من أخته ولا بد من
معاملته بالحسنى ، لسبب بعيد . تذكر لهجة إبراهيم أبو الفضل زمان ، قالت
امراته مستنكرة : طبعاً إنه محمد ، ثم كررت ، إنه محمد ، إنه محمد .

دخل الأب إلى صالة الفرح مبتسما ، هذا حاله إذ يلقى نفسه بين جمع
وصحبة ، غير أنه لم يركز النظر ، لم يسدد البصر تجاه ابنه ، لم يلمح عنده السرور
القديم بمجيء ولده ، بظهوره في مكان يود أن يصحبه فيه . ولّى هذا فلم يعد
يؤثر فيه . لاحظ أصلى ذلك فتأسى ، كما لاحظ نحوه ونقصان وزنه ، وترنح
مشيه وهذا مستحدث غير معهود عنه ، تزايد أساه حتى غمقت مداخله
واعتمت مشارفه . التفت إبراهيم إلى المدعوين . قال بصوت مرتفع : هذا
بركننا ، قعد ، غير ملتفت إلى ابنه ، كأن حضوره عارض ، استثنائي لا يعنيه ،

راح يسأل المحيطين ، خاصة القادمين من النواحي النائية ، يستفسر عن رجال ،
عن مصائر ، لكنه كلما ذكر اسما يقول أحدهم : تعيش أنت . فجأة صاح أحد
المدعوين : اسمع يا عم أحمد ، أرح نفسك ، كل من تعرفهم ماتوا ! .
عندئذ لزم الوالد الصمت ، وبقي في شرود ونظره ساع يمر عبر الفراغات
التي تتخلل الحضور ، وعند الانصراف سلم شاردا ، صحبه أصلى ، مشى إلى
جواره في الشوارع الهادئة ، المذرة بظلال وأضواء متداخلة ، يتقدمها ظلها
حيناً ويتراجع حيناً ، لا يتبعها ، إنما ينقاد إلى مصدر الضوء الذي هو موجوده
وباعثة فجأة قال الوالد الكريم : تغير الزمن .. وتغيرت الدنيا . وكأن أصلى
بوغت باللفظ يتلو اللفظ ، حدث الوالد نفسه ، فلو أن ابنه لا يصبح لقال ما
قال ، يستوى وجوده أو انعدام رفقته ، والحق أن الوالد لم يبدأ الانقطاع عن
الرفقة ، فعندما كان الأمر بيده لم يقصر أبداً ، إنما حافظ وصان ، وسعى ،
وعندما خرج النظام عن طوعه ، واتخذ كل سبيله في الحياة سرياً ، سعى ، غير
أن ذلك لم يدم ، أصلى هو الذي بدأ الفرقة ، والفرقة مضادة للرفقة ، قال سيد
الخلق ، إن الله يحب الرفق في الأمر كله ، فالعالم من علم الرفق والرفيق
والمرفوق ، فما من إنسان إلا وهو رفيق مرفوق به فهو مملوك من وجه .. مالك من
وجه .

عند ناصية مؤدية إلى طريقين متباعدين لن يلتقيا أبداً ، توقف الوالد
فجأة ، مد يده في وقفته المفاجئة رغبة في النأي ، وسعى إلى الانفراد ،
تصرف لم يكن ممكناً أن يأتيه أبداً في الزمن القديم ، الحق أن أصلى كان في
هذه اللحظة راغباً في الصحبة ، وكعادته عن اللحظات المؤدية إلى الفراق
تتنفص كل المشاعر المؤجلة ، ود أن يخطو إلى جواره ، أن يصنى ، غير أن
الوالد أدار ظهره ، قال إنه سيركب من هنا ، لم يتذكر العبارة فيما بعد إلا

واستدارة ظهر والده ملازمة لها ، وبعد وقت معلوم إذ يستعيد اللحظات لا يرى أباه إلا موليا عنه في هذا الطريق . قال كلاما يرجوه فيه أن يخطط متمهلا ، أن يتبه عند نزوله في مملكة نصر .

بعد يومين أثناء زيارته للبيت حكى لأمه عن العرس .. عن ابنة إبراهيم التي عهد لها طفلة ، عن مرور الأيام .. عن ضيقه من ذلك الغشم الذي خاطب الوالد قائلا إن كل من يعرفهم ماتوا . دهش عندما أخبرته أمه أن الوالد لم يرجع إلى البيت ، أنه قضى هذه الليلة عند صاحب له في الهرم ، أصغى ثم صمت ، لم يجبره حتى بمقصده ، فأى أبواب أوصلت ؟ .. وأى حواجز أسدلت ؟ ، يستعيد الخطوات المتعقدة ، الخطى المثقلة البطيئة ، يسعى صوب ليل أليل ، أمضى عمره ساعيا إلى كل الجهات ، فلم يدع جهة إلا ييم وجهه شطرها على قلميه ، ليس للإنسان إلا ماسعى .

كل إنسان يبدأ رحلته ، يقطع منها المراحل وهو لا يدري ، يمضى حيناً ، يحترق يطير ، يشرف أو يغرب ، لكن المدى واحد ، والسعى جوهره لا يتغير ، الخيث أو التمهّل ، ومع انقضاء كل مرحلة ينتهى شوط لا يتكرر ، فالطريق ممتد وإن دار ، مستقيم وإن تشعب وتفرعت منه الدروب ، والوالد الكريم من قلة قليلة قطعه كله مشيا على قلمين ، بلا دابة ، بلا راحلة ، بلا مركبة ، وعندما بدأ الهجرة الكبرى سعى واقفا ، لم تختلط عليه الرؤى ، أبدا لم يرقد حتى يعافه أهله إنما أتم سعيه وأن سعيه لسوف يُرى . صحيح أنه وهن .. لكنه لم يقعد . صحيح أن بصره ضعف .. لكنه لم يكل صحيح أن مشاعر من الزمن الأول انتابته ، ألم يقل للأُم مرة : تهتمين بالأولاد ولا تعتنين بى . لكن مهلا .. حتى لا أنساق فيها أوغل فيه أصلى ، يجب ألا يغيب عني أن جال غمى وإن كتته ، فالخدر ، الخدر .

ماقاله لها طرَحَ ظروف لا يد له فيها ، كثيرا مارآه أصلى مهموما ، محمقا إلى

السقف ، ربما تبدر منه ضحكة مفاجئة ، يظل الباعث خفيا ، ربما خاطب الصمت متأوها « ياسلام » آه يابوى « فما الذى أضحك ؟ وما الذى أبكى ؟ وما الذى أنطق ؟ وما الذى طاف بالحدقتين عند تواربهما عن العيون ؟ إن الصور المستعادة جالت ومرت فى أوقات الانفراد ونوه الوحشة وهجرة الصحبة ؟ إن هذا ما لم يعلمه أصلى ولن ألم به ولن أقف على شئ منه ، ليس لنا إلا التساؤل والفضول اللامجدى ، لكم أشفق هو على خلف بك . فى التحول الذى لاراد له ولا مانع للوقت كان يعى دنو الرحلة من نهايتها ، يتقطع عنه غاضبا ، لكنه بعد ليلة أو ليلتين يلوم نفسه ، يقول : كان لابد أن أكون أكثر صبرا ، وعندما قال ما قاله كان يجب ألا أرد . فالرجل صار عاجزا ، يجب احتماله . ثم يقول مخففا عن نفسه لكننى تقدمت فى العمر.. لم أعد مثل الزمن الأول .

فى صباح أحد الأيام مضى إلى عمله عاقدا النية على مكالمة الرجل والحديث إليه مستفسرا عن أحواله ، عندما وصل إلى مبنى الوزارة قالوا له ، خلف بك يرجوك الاتصال به . لم يسع إلى هاتف .. إنما مضى إلى البيت قبل أن يتم يومه ، قال أصلى مداعبا : عدت إليه مرة أخرى ، قال الوالد مهونا ، مفسرا ، إنه سبب جريان رزقى ياجمال .

كان الوالد الكريم يحتفظ بأغراضه وحاجياته فى قفة من خوص مجدول يتناولها من حين إلى حين ، يفردا ، ينفض التراب عنها ، فى حافظة عتيقة قصاصة من مجلة « المصور » ، حوار مع قاضى الخليفة وصورة له إذ يعلو المنصة متشحا بشرط أخضر ذى نجوم فضية ثلاث . كان يطلب من أصلى أن يقرأه ، ويبدو أنه حفظ عباراته ، حتى أنه كان يردد من ذاكرته بعضا مما قاله البك فى هذا الحوار . احتفظ بشال حريرى مطرز أهدها البك إليه إثر عودته من

الحجاز مطرودا لأنه وقف ضد من أراد إترال ظلم في غير ذى وجه ، هكنا روى الوالد وهذا ماقاله .

مرة واحدة أحاط عقه بهذا الشال الحريرى ومضى إلى مكان ما ، في مناسبة لم يدبر عنها أصلى شيئا ، كذلك أنا .. غير أن مالم ينسه جمال أبدا من امر هذه العلاقة لحظات بقيت حية واضحة إذ حدث أن مرض الوالد ورقد أياما ، مرة من المرات القلائل التى اضطر فيها إلى ملازمة فراشه ،

في مساء مكمل ، طرق باب البيت ، إنها المرة الأولى والأخيرة التى زار فيها الأسرة ، بلدا الوالد حجولا ، لا يدري مايفعل ، حتى أنه أنهى الرقاد وقام مغالبا إعياءه وأبدى فائض الترحيب ، وعند تأهبه للتصريف ..

هنا نودى على ، أرى الأم في نفس موضعها الذى تجلت لى فيه ، ملاحظها لوم وغضب صريح ، صارم ، غير ذى عوج ..

« جمال » .

ما تزال تظننى ولدها ، لا تدري في دار هجرتها اتى لست هو وإن كنت هو ، فسبحان من أطلع بعض قومه على أسرار ، وأخفاها عن آخرين .. امتثلت وأجبت بالنظر ..

« يا جمال ، تعلم أن هذا يضايق والدك ، فابق شيئا مكمنا .. اصغ إلى مرة وأطلع .. » .

كدت أسألهما عن الوالد ، لماذا لم يتجل لى ؟ لماذا لم يأمرنى هو ؟ ، كما استوقفتنى كلماتها أن أصغى لها مرة ، ألم يطعمها أصلى أبدا ؟ هل خالفها بحيث لم يعد تقبل لمزيد ؟ . هذه المرة كان صوتها مؤثرا ، وفيه نبرة لا ترد ، فسكت ولم أتم ، وعلى مهل عاودت التحديق إلى الجهة الجنوبية ..

« فهل ترى لهم من باقية »

(قرآن كريم)

.. تلك مآذن أفق الجنوى ، لكل منها حضور ألقى ظلا في قلب أصلى ،
منها السامق ، مآذن مسجد محمد على النخيلة ، المهيمنة عند الحد ، ومآذن
السلطان حسن والرفاعي المتقاربة المهية ، مآذن قصيرة غير أنها تعلو على البيوت
المجاورة ، تعلن عن مئاوى أحباب مجهولين ، أو جند مجاهدين ، أو أغراب من
أهل الطائفة قضا هنا ، قم بعضها مدب ، والآخر مستدير ، وكلها حافة ،
متحلقة بالثلثنة الأوضح . الأول ، الألف ، الأقرب إلى الأثنية ، الطالعة
دائما ، مستمرة الصعود في ثباتها ، إنها القائمة على مشى الضريح القاهري
لناصر المستضعفين ، لمن حيل بينه وبين الماء قضي ظمأ ، الإمام الحسين ،
مثناة يراها أول النهار وحتى غروبه ، في لبالي رمضان يتقلد خصرها بطوق من
ضوء أخضر ، في ظهيرة حادة يتطلع جنوبا ، في شرفة الثلثة الدائرية يرى شيخا
يبدو ضئيلا فلا يخطر بباله أن الحجم يتضاعف بسبب البعد ، يرى يديه إذ
ترتفعان لتلامسا أذنيه ، لا يصل الأذان متصلا إلى سمعه إنما متقطعا .. فلماذا ؟
مسافة منبسطة ، لا يفصلها بناء أو حاجز ، يدور المؤذن حول الثلثة ، ظهيرة
بعينها بقيت في وعيه ، استعادها مرات شتى ، فما الذي حدد ، وما الذي ميز ،
هذا مجهول عندي ، صعب الوقوف على أصله .

فما تلا ذلك من سنوات علقوا مكبرات صوت ، اختفى الشيخ ، كثيرا ما
أمضى أوقات الأصائل والمغارب قاعدا في مقهى مواجه للمسجد ، مشرف على
الميدان متبع لحركة البشر وما يطرأ عليها من تغيير وتبدل ، حتى إذا حان أوان
المغيب ، ارتفع صوت المؤذن عبر مكبر الصوت ، يصغى صامتا حتى وإن كان

فى صحبة إلى الابتالات المتصاعدة إلى السماء التى يتكدر ضوءها بسرعة .
الطف بنا يامولانا فيما جرت به المقادير ، عبارة تذكره بلحظة الظهيرة النائية ،
المتقضية إلى أبد . فما أصل العلاقة ؟ . أما المثلثة فبقيت سامقة ، مزروعة فى
بؤرة قلب الأب ومن بعده ابنه ، جذورها الخفية ضاربة فى صندوق فؤاد أصلى
كذا فؤادى . هذا الضريح القاهرى أداوم العروج عليه والتوجه إليه ، أتبرك
وأتمس وألثم عتبات مؤدية إلى قبلة لم يغب عنها الأب إلا بالرحيل الأتم ، أنسم
أيام الصبا المولية ، ورفات العمر الجميل .

اعلموا يا صحب أن أصلى أينما ولى وجهه فلا بد أن يرى الضريح وأبنا حط
رحله لا بد أن يطوف به ، إما بالحس عن قرب ، أو بالتمنى والخيال عن بعد ،
هذا واقع لا بد من إقراره ، والتنبيه عليه ، والأشارة إليه ، فالحسين حوى الأيام
الغالية ، وما الصبا إلا جزء من سيرته ، أما ما فاض به قلب الأب وما توجه به إلى
المرقد فلم يفن ولم يتبدد .

اعلموا أن الطريق من حارة الطبلأوى إلى المرقد عزيز ، طريق جنوبي ،
وسالكة من بعدى لن يقف أبدا عن ماتركه من أثر وعلامات ، لذلك الحلم جل
جهدى حتى أنه وأنبه إلى ماكان ، طريق قصير ، تمضى عبر شارع بيت
المال . ثم حارة الوطاويط ، يوما ماكانت مسقوفة ، يقولون أنها كانت
مسكونة بعفريت من شرار الجن ، يظهر قرب الفجر فى هيئة رجل يرتدى عباءة
وطربوشا تركيا ، يستوقف المارة ، يستفسر عن سكة مؤدية إلى العطوف ، وإذا
بهم المار بالإجابة بولى ظهره .. عندئذ يرى الناظر نصفه الأسفل جسم ماعز ، له
حوافر وأظلاف بدلا من الساقين الآدميتين ، هنا تقع الرجفة ، ويضل العقل
وتفسد الهمة ، تنسد الجهات ، ينعدم المخرج .

عند الخروج من الحارة يلوح الضريح القاهرى ، عبارة شاهقة عدها الوالد

دليلا وعلامة على فساد الأحوال . إذ حكى فقال يوما أن تاجرا أجنبيا بنى عمارة على مقربة من المسجد الأزهر غير أنها بقيت ثلاثة أعوام خالية لا يقترب منها طالب سكن أو باحث عن مأوى مع رخص إيجارها وسعة غرفها ، لماذا ؟. لأن التاجر الأجنبى شيدها من خمسة طوابق فارتفع بها عن المسجد ، خاف الناس سكناها أو العيش فيها ، ثم عمرت ببعضهم ، صار ماكان غير مألوف فى زمن .. عاديا فى زمن آخر ، حتى أن شخصا واحدا لم يستنكر ولم يلحظ حتى تجاوز هذه البناية لسطح الضريح الحبيب ومطاولتها لمثدته ، ومن يدريك بما سيقع فى الأزمنة الأخرى ؟. أو فى الزمن القادم ، فالزمن واحد والأفعال متغيرة ، وإن كان الأمر غير يقينى ، فالبنيان هنا على الحيرة أحوط .

بالقرب من العمارة مقهى المجاذيب ، بعد صلاة الجمعة وخروج القوم يقف ثلاثة رجال فوق رؤوسهم العمام . عازف كمان ، وعازف ناي ، وضارب بالدف ، بجوارهم نساء ثلاث مكحولات الأعين ، أوسطنهن بدينة ، أسنانها ذهبية ، تنشد المدايح ، صوتها قوى فيه شرخ لايبين ، كان أصلى يخافهن أثناء مروره بصحبة الوالدين ، قالت الأم : إن مثل هؤلاء يتظاهرون بالغناء لكنهن يسعين إلى خطف الأطفال ، مثل الغوازى فى جهينة ، يتزلن إلى الأسواق ، يرقصن ويعملن على إغواء الرجال ، وبعد انصرافهن ورحيلهن قد تكتشف أم اختفاء ابنها ، يصحبن الأولاد إلى بعيد ليتعلموا السرقة وملاعبة القرود ، لهذا يخافهن أصلى ، وكره الجلوس فى هذا المقهى حتى بعد تقدم العمر به ، بعد استقلال أمره وسعيه منفردا .

على مقربة ، وفى نفس الموضع يظهر رجل قصير ، متسخ الثياب ، جلبابه أصفر ، تتخلله خطوط باهته ، حافى القدمين ، ذو لحية أحيانا يرتدى طاقية قصيرة ومرات يظهر هائش الشعر ، وإذا ما ابتسم يبدو مكان أسنانه الفارغ ،

سمع أصلى شذرات شتى عن عم أحمد العضاض هذا ، بعضها من الوالد ،
والآخر من المقهى أو من الصاوى الخياط .

قالوا إنه كان ثريا غنيا ، وتحت إمرته عالم ، وعنده ذهب وفضة ونحاس
وزاد كثير ، وذات ليلة كان نائما فتحرك سقف البيت قليلا كأنما أحد يمشى فوق
السطح ، فنادى من هذا ؟ ، فجأبه صوت غريب عنه : صديق فقدت بعيرا
أبحث عنه فوق السطح . فصاح : يا جاهل أتبحث عن بعير فوق السطح ؟ ،
قال له الصوت : وأنت يا غافل تنام فى ثياب حريرية ، وعلى سرير من الذهب
بينما تار الحسین قائم ودمه لم يحف بعد كل هذه الدهور ! فوقعت الهية فى نفسه
واندلعت فيه جمره ، فارقه النوم ، ولما طلع الصبح ذهب إلى محل عمله ، ولم
يمض وقت طويل حتى دخل عليه رجل مهيب لم يقدر أحد من الخدم أو الحشم
على منعه ، تقدم منه وحلق فيه فقال له :

ماذا تريد ؟ .

قال : أريد أن أنزل فى هذا المحل .

قال :

يا مجنون ليس هذا لك وإنما هو محل .

قال : لمن كان قبلك ؟ .

قال : كان لأبى .

قال :

وقبل ذلك ؟ .

قال :

ملكا لفلان .

قال : أوليس هذا المحل ما يتزل به أحد ويغادره الآخر ؟ .. قال هذا

واختفى ، فازدادت حرقة قلبه ، وعند العصر سمع مناديا يناديه : قم إلى ميلك الحسين والزم ! . فنادى خلمه وقال : أعلوا لى الزاد ، ركب دابته ، أمن وأوغل فى البرية فسمع مناديا يصيح به : امض إلى إمامنا الحسين والزم ! وبعد مرحلة سمع نفس الصوت من قريوس مرجه ، فأيقن أن الكشف قد وقع ، رمى كل ما عنده . ما كان خارجة أو داخله ، وراء ظهره ، ولى وجهه صوب الضريح القاهرى الشريف ، ومنذ أربعين عاما يطوف به ، ينام عند عتبة بابه ، يغتسل بمائه ، يستظل فى المهجير بسقفه وظله ورطوبة أرجائه ، قد يغيب قليلا فلا يتنبه أحد ، لا يسأل عنه أحد ، لكنه عند ظهوره بمدخل دكان صامتا أو مبتسما ثلبي حاجته على الفور ، حتى لو وقف بمدخل عمل الأسطى سيد الخلاق ، كان إذ يرى الوالد يتسم مرجبا ، يضحك بصوت مرتفع ، وإذا لمح ولديه معه يتظاهر أنه يود تقييلها أو عضها ، ولأن لحية طويلة ، ولأن موضع أسنانه المخلوعة يبدو فارغا ، ولأن عينيه مملقتان دائما إلى ما يتجاوز الواقف أمامه ، خافا منه وسعيا إلى الاحتماء بوالدهما .

فيما بعد ، بعد تقدم عمر أصلى ، وسعيه منفردا فى طريق المشهد الحسينى ، كان يلتمحه بجوار إحلى بوابات المسجد ، أو ماشيا على مهل ممعا فى الحرم ، تلتقى نظراتهما فلا يعرفه ولا يذكر ولا يتقدم للمازحة ، أما أصلى فيرثى ويشفق على زمن منقضى وليس على شخص بعينه . فى أيام شيخوخته تلك ، بعد نحول جسمه ، وتضاؤل حجمه وتباطؤ خطوه شوهه مرات عديدة يقف تحت المذنة ، يطلق زعقات هائلة لا تتناسب مع حجمه وإيقاله فى العمر ، ينظر إليه العابرون أو المقيمون ولا ينطقون عن الهوى ، إنما هو وجد وجوى .

انتابنى فضول ، أن ألم بأحواله ، أن أحيط بما مضى منه فى تفصيله وليس فى جملة إذ عرفت فى زمنى القديم مثله ، فهل من المعقول عندى أن يكون

هو هو؟ وما دلالة ذلك؟ ماذا يعنى؟ لم يظهر دليل رغم تأجج حيرتى ولم أعرف ما يشقى غليلي ، كم رغبت التحقق من لب الأمر ، لكن دليلى لم يتح لى ، إنما سرى عندى أمره أن أتابع النظر ، ألا أقف فى رحلى ، فرأيت دكان الأسطى سيد ، حلاق قديم هنا ، دكانه ضيق لاجود له الآن وقت تقييدى هذا ، لم يخلق الأب فى البيت أبدا ، كان يصحب ولديه وهما صغيرين يافعين ، الأسطى سيد قصير أشيب الشعر ، شاربه على هيئة بصمة ، يبدو متأففا دائما ، يتحرك على مهل ، يرتدى معطفا نظيفا ناصعا ، يجلس الأب فوق المقعد الضخم المتحرك ، يجلس جمال وإسماعيل فوق مقعدين دائريين صغيرين ، فى كل مرة يحذرهما الأسطى من التحرك حتى لا يتسببا فى اتساخ أو كسر شيء ، يسحب فوطه من صوان نحيل أبيض ، مطبقة بعناية ، ينبعث منها عطر خفيف ، يفردا متمهلا ، ينفصها فى الهواء حتى تحدث ما يشبه الفرقة ، يعود متخللا ستارة الخرز الملون الملئ الذى يفصل فراع الدكان عن الخارج ، فى زاوية المحل تحت الحوض علبة دائرية من الصفيح خصصها للبصاق ، مغطاة ، علبة أخرى لأعقاب السجائر ، من الجدار يبرز حامل متحرك مستطيل من الخيزران فوق صحيفة مفرودة ليقراها من يشاء بدون أن يثنى الجريدة ، مرة حاول أصلى أن يقرأها ، نهره قائلا « بستمزقها » . توارى عندئذ خجلا وعنده ضيق منه . اهانه ، لا يعرف عنه حبه للقراءة ، وحرصه على الجرائد والمجلات ،بقى معى خجل اللحظة وضيقه من الرجل حتى اقلاعه من فاس المباركة أورثنى اياها . كثيرا ملام نفسه لأنه لم يرد عليه وقتئذ ، نعم ، إنه صغير ، لم يدخل المدرسة بعد ، لكنه أوعى من تمرق ما يصل إلى يديه ، لم يدخل المدرسة بعد لكنه يقرأ ، يفضى مغاليت الحروف ، كيف ؟ الأمر فى حاجة إلى تفسير حتى لو سبق ذكره .

أرى صباح يوم عطلة ، يوم جمعة ، أو عدة أصباح منديجة ، متلاخلة ، من الوعر استعادة خصوصية كل منها ، مع أن جلها من تراثي ، وأنا - عبر أصلى - من عاشها لاغيري . هكنا تلتخص الأيام في يوم ، كل في واحد وهذا يتبقى إلا بعضه ، لا يستمر العدد إنما يبقى المعنى ، نستعيد مشهدا يحوى ماعلاه فأنتبه يالا ه ! ، يامن تبدد مايمربك من أزمنة وبقاع ، حاول أن تعرف أى لحظة من زمنك المنقضى ستبقى ولاتمحى من ذاكرتك الواهنة ، هأنذا قد نهت فاجعلوا بالكم لما أشرت إليه وبسطته ، فالناس جلهم عنه في عماية ! .

ما أبهج صباح الجمعة بعد الاستحمام ، يتم التضام ، التقارب ، نكتمل فالأب حاضر ، هذا يوم عطلته ، إذا تيسر الأمر تقلى الأم فطائر أو زلاية ، تروينا سكينه فالطوارق اللواهم ناثيات ، قرب العاشرة يصبح عم محمد بائع الصحف ، فلاح من ريف قصي ، يرتدى صديرية بلدية ، وطاقية من لباد جلبابه قصير ، حافى القدمين ، تحت إبطه حافظة من ورق مقوى تبرز منها حواف الصحف ، صوته قوى ، يتزل الأب الطوابق الخمسة ، يرجع بالأهرام أو المصرى ، يتردد صوت عم محمد مبتعلا ، كان جوالا ، لامقر يعرف له ، حتى اتخذ محلا له في دكان منحوت تحت مسجد عتيق . حتى المشتري منه مضطر إلى الانحناء ليخاطبه ، أما الداخل فلا بد أن يتزل خمس درجات ليصل إلى أرض الدكان ، فوق منضدة خشية صف الصحف وصندوق سجائر وعلب حلوى .

أثناء تجواله تقف امرأته ، ييضاء ، مستديرة الوجه حلوة التقاطيع ، أحيانا تظهر شقيقتها ، سمراء ، واسعة العينين ، صوتها مرتفع ، جرىء ، وقد توالى الأيام ، كل منها يقفو أثر الآخر ، وسمع أصلى يرحيل عم محمد رجيلا أبديا ، حزن حزنا عابرا غير مقيم ، في المحل يرى امرأته وحزن يعقد حاجيها ، وبوجهها

أسى ، على باطلها طفلة صغيرة ، أحيانا تقف شقيقتها .
بعد زمن طويل ، قال حسن صاحب أصلى منذ طفولته الأولى إن سهرة
تنتظرهما ، صديق له ترك له مفتاح بيته ، وأن امرأتين على ميعاد ، صالة البيت
فسيحة والأثاث وثير ، وأثناء الانتظار الملول قال حسن ناصحا : عليك
بالملاطفة ولا تكن جها ، لكنه عندما رأهما تلجان البيت وقع عنده كدر عظيم
الأولى قصيرة صامته ، والثانية طويلة عابثة ، مناغشة ، الأولى يجهلها ، أما الثانية
فهي أنوار بعينها شقيقة امرأة عم محمد ، فما أغرب الرحلة لمن لم يقف على
مراحلها ! .

هاهو ذا الأب يتمدد فوق حصيرة مفروشة قبل السرير ، يستند برأسه إلى
الجدار ، على مهل ، بتأن ، بصوت مرتفع يقرأ العناوين الرئيسية ، أصلى يتابع
إشارة أصبعه إلى الحروف ، من التؤدة تعرف على الكاف والنون والميم والحاء ،
والواو ، وأمة الحروف كلها ، أتقن القراءة قبل أوان المدرسة ، فن أبيه الأُمى
تعلم وفك المغلق ، فسبحان من يحلو السر ويشي بالسبب .

يفرغ الأب ، تتمكن منه روح مرح ، يقوم جالسا ، يفرد الجريدة ، يبدأ في
قراءة نص وهمي لاستقالة يرفعها إلى وزير الزراعة ، يرجوه قبول استقالته لأنه غير
راض عن الأحوال ، يتلو أخبارا قصارا عن مقابلاته ، أو سفره ، أو عودته من
رحلة رسمية . يصغى أصلى وأشقائه ، بينما تنشط الأم ، ترتب جوانب البيت ،
يطلب منها القعود فتومئ راضية مرضية هذا زمن أمن تبدد ، احتملته
السافيات الذاريات التي لا تبتقى ، هل قصد الأب تعليم ولده القراءة ؟ لا يمكن
القطع أو الجزم ، غير أن الموثوق به عندي ، عزم هذا الرجل المجاهد الذي عرف
النوب السود ولم ينثن عزمه عن تعليم أبنائه ، وتجنبيهم مارآه وعابنه واكتوى
بجمره ، كذا البعد بهم عن الذلة ، وقد كان حرصه شديدا وجهده عظيما ، حتى

أنه لم ينأ بهم عن الولايات فحسب ، إنما نأى بهم عنه هو ، كيف جرى ذلك ؟
كيف حادت عن قصدها الأحلام ، هذا من أجل المكتات وأدقها وسافح
عنها في الحين المواتى ، كل شيء بقدر .

أما ماضيق أصلى في هذا العمر النائي فهو الأسطى سيد ، صحيح أنه لم
يتم السلدسة بعد ، لكنه يشعر أن انتماءه إلى الطفولة بالقامة والملامح ، أنه
متجاوز كينونته ، وهذا حاله الذى لازمه في مختلف أطواره ، لم يعيش لحظة في
لحظتها أبدا ، ولا فترة في فترتها أبدا ، شاخ في عثوان شبابه وناء بهوم عظام
قبل أن يتم العشرين . بدأ زمن اختصاره في الثلاثين ، وسعى متسكشا طفولته
الأولى وهو يخوض صوب الخمسين ، حتى إذا ماولى الشفق ، وبدأ اكتمال
الفسق والليل وماوسق ، انتبه متأخرا إلى لب القضية ، إلى أن الباب يفتح من
جهة واحدة ، خروج لاغير ، من باب إلى آخر ولاعودة أبدا ، طريق للمضى
إلى الأمام فقط ، لاعودة ولا استعادة فيه ، ولانكوص على عقبين ، « يومئذ
يتذكر الإنسان وأنى له الذكري ، يقول ياليتنى قدمت لحياى ، فيومئذ لايعذب
عذابه أحد ، ولايوثق وثاقه أحد » ، فياحسرة على مافرط من ذاته ، فى حق
من اكتملت لهم القرى ، وياحسرتى أنا المعنى وغير المعنى على مافرطت فى زمنى
العتيق ، هذا حالى أنا أيضا ، كأنه أنا وكأنى هو ، كفانى . فما أقدر على
التلميح بمزيد !

هاهوذا أصلى فى ضيق ، كيف ينهائ الرجل عن متابعة القراءة فى الصحيفة
المفرودة فوق الحامل الخيزرانى . لم يأنس للبقاء عنده ، كان يراقبه ، سنه
للموسى على سير الجلد المثبت فى الجدار ، نفذه غبارا غير منظور عن المقاعد
بمنشة ذات مقبض عاجى ، تمهله فى اغلاق علبة البودرة ، اعادتها إلى نفس
موضعها ، حركته الباعثة على الضحك عندما يبدأ تنعيم البشرة بالخيوط المزدوج

يمسك بطرفيه . يثبت به بأسنانه . يقترب حتى يوشك على الملامسة ثم يتراجع ،
يبتعد ، يقترب ، موسعا الخيط ، مضيقا اياه ، ليستريح ماتبقى من نجلور
الشعيرات . يغالب أصلى نفسه حتى لا يضحك ، تردد الأم دائما ، الضحك
بدون سبب قلة أدب . بعد الخيط يمسك قطعة شبه دائرية ، يدلك الوجه
الناعم ثم يرش العطر من بخاخة مستودعها مطاطى ، لا يسمح للزبون بالمغادرة
إلا بعد انتزاعه الفوطه ، ثم يمسك مرآة يرفعها ليرى المحلوق قفاه ومؤخرة رأسه ،
ثم يضيق عينيه متأملا الوجه ، إذا لم يرض تماما يبدأ من جديد .

الأسطى سيد يخلق للبك ، لبعض الوجهاء ممن اعتادوا التردد على ضريح
الحبيب القاهرى ، يتقاضى من زبائنه ما يوافق مقدرتهم ، لا ينظر ولا يمحصى
ما يقدم إليه : وما عرف عنه أنه يخلق بالحنان لبعض طلبة الأزهر وشيوخه
والمجاورين الفقراء فيه ، لم يكن مزينا للشعر فحسب إنما يداوى بعض الجروح ،
ويبلى بوصفات علاجية لمن يسمي إليه ، ولا يجرى عمليات الختان إلا فى أيام
الاحتفال بمولد سيد الشهداء أجمعين ، يقف ببابه جمع من قصاده ، جلهم
قادمون من ريف البلاد ، يحملون أبناءهم إليه تبركا ، لكنه لا يسمح بدخولهم
إلى محله الضيق جماعة خشية اتساخ البلاط ، أو يزحزح مقعدا أو وعاء عن
موضعه ، أصلى ممن نجتوا على يديه ، كذلك إسماعيل وعلى .

أرى الأب يحمل أصلى ، يعده بالترهه والحلوى ، يقعده فى حجرة ، يباعد
ما بين ساقيه ، هذا قضيب صغير رخو ، فأين منه تلك القروج التى استضافته
وحنت عليه وقبضته هونا إن فى شرق أو فى غرب ! .

ذكرت بالأخص تلك البنية الأجنبية عنه التى لم تكن قد جاءت بعد إلى
الدنيا ، أعرض شفتى ألما إذ أرى الأسطى سيد يدس آلة نحيلة حادة ، يدفع
القضيب إلى الخلف ، يبرز جلد الغلفة مفرغا بينا يشرع الموسى .

أدهش ، أتعجب ، إذ أتى خنت أيضا في خلق الأول ، أيعرفون هذه العادة أيضا ؟ عرفت اننى لم أنظر إلى نفسى حتى وقت تكوينى هذا ، حتى حسبتى كهؤلاء المحاربين الذين كنا نأسرهم ونكشف متعجين أنهم ليسوا بمختونين ، لم أر إلا انفراج ساق أصلى ، ومشى متباعد الساقين ، والربط ، الطى مبلا بالأحمر والأصفر ، ورائحة المطهر القوية. أدق النظر لأطلع أكثره لكننى ألح دفوقا ويبارق وجموعا ترتدى البياض وعمامات خضراء ، ورجلا طويل الشعر يدور بسرعة ناشرا حوله رداءه المستدير ، وحصانا يتهاذى على مهل ، راكبه شيخ مهيب يختصن طفلا صغيرا أجهله ، أرى من يمشى على رجلين ، ومن يمشى على بطنه ومن يمشى على أربع .. أرى رجلا نحىلا جدا يحمل يتوازن على طرف أنفه عصا ملونة تنتهى بثقل فى حجم طربوش كبير مصمت تتلنى منه شرابيب ملونة . فما أغرب ذلك عندى ! .

أرى الأسطى سيد الحلاق ، إنه هرم ، نحيل ، مكوم أمام محله فوق مقعد بدون مسند ، ياقة قميصه مسودة ، فى عينيه قذى ، أين ستارة الخرز الملونة ؟ .. أين صندوق الأدوية والأربطة والمطهرات ؟ ، المرأة صديئة ، شققت صفاءها خيوط متعرجة ، لماذا لاتدور مروحة السقف ؟ كيف يطوف بها الذباب ؟ أين بلاطات القيشانى المترعة تاركة فراغا كثيبا نسج فيه العنكبوت ؟ .

الرجل مطأطى ، يمر به أصلى ، يتمهل أمامه ، لا يدو عليه أنه لحظه ، إنه موجود لكنه راحل ، قريب غير أنه بعيد ، هذا حاله منذ أن صعبت الكهرباء وجيده ، فيا عبثا رزيا ثقيلًا خفف الوطأ ، خلق الإنسان ضعيفا ، والفجر وليالى عشر والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، إن أسى رقرقا يغد على ؛ ترونة هينا وأراه بغيبضا ، فلما نال منى الأسى هب على عقب مشروب أدمته وكذا هام به أصلى ولم يقتنع بغيره ، وكان هذا الهبوب بلا لريق وتطرية لأحزان قلبى .

بحوار الأسطى سيد محل تخصص فيه ، رخام واجهته قديم ، يفيض بعبير
الخروب ، برائحة ماء الورد . وقد بغضت ماء الورد لسبب سيرد ذكره في حال
الوداع ، مشروب غامق اللون ، سلسبيلي ، في سطل من نحاس مختوم بخاتم
دائري من قصدير ، إلى الروح يسعى ، جمع فأوفى ، ومن عبيره السكرى
تنبعث لحظات مارات كان الأمل في تذكرها أو استعادتها نائيا قصيا ، أقسم
بخالق القادر على كل شيء ، إنه لولا الخشية والملامة وتقول الناس على
لأفردت له فصلا ، أحاول فيه النفاذ إلى جوهر الشراب . وماصيبه لهواى ،
وماقلبه في بالى ، غير أننى أكتفى بالتصريح عن عشقى له . وسعى إليه مادمت
حيا ، وإن كان القيض الذى يأتينى من هذا الدكان لا مثيل له ولا تكرار ،
والأمر ليس مصادفة ، إذ أحبيته في زمنى العتيق بما يماثل تعلقى به في خلقى
الثانى .

أيمكننى التوقف والنظر إلى هذا المحل قليلا ، فلن يدوم أمره طويلا ؟؟
يحيئنى الإذن من دليل ، مما أوجب الأمتنان والتحية ، أعرف أنه مثلى من
الحبين لهذا الشراب ، ألم أقل إن الأمر ليس مصادفة ؟ ، بل إنى مطلعكم على
ماهو أكثر ، فجال بن عبد الناصر ، من ناصر الأب حيا ، ومن ناصر الوالد
راحلا ، غائبا ، توقف مرارا عند الموضع عينه ، لفترة غير قصيرة أقام في حارة
خميس العدس ، ناحية الخرنفش ، القريب من ضريح الحبيب ، نزل عند
عمه خليل ، طابت له الإقامة في البعد اثر رحيل الكاملة أمه . وزواج أبيه ، في
هذا الموضع أمضى لياليه ، غالب السهاد ليستوعب مايدرس ، وكان قاسيا على
ذاته ، إذا أوشك النوم على التمكن منه قام إلى الماء البارد ليغمر وجهه ، أو
نزل إلى الشارع ليمشى قليلا أو كثيرا ثم يرجع يقظان نشطا . وهكذا قد يصل
يومين ببعضها لايعرف يوما .

فوق هذه الأرض مثنى ، فى نفس الأسواق سعى ، وعلى جدران المباني وقعت عيناه ، أحب الناحية وما فيها حبا جما ، وبعد تمام الأمر له لم يركع لصلاة العيدين إلا فى الضريح القاهرى . هذا سبب لم أعلمه من قبل ، رآه أصلى عفيا يركب عربة مكشوفة بعد أداء الصلاة على مقربة من ضريح الحبيب ، رآه يخرج صباح عيد والنهار معتم بعد فلا بد أنه شتاء ، المصاييح ماتزال مضاءة ، والحراس كثيرون ، لمح هامته المكتمل شيئا ، ومن الجمع صاح رجل يرتدى جلبابا وطاقية « اعطونا سلاحا » .

وثق أصلى أن النداء وصل إلى أذنى ابن عبد الناصر ، من أطلق الصيحة ؟ هذا مالن يعرفه أبدا ، كما أنه لن يطلع على ماهدهد ابن عبد الناصر وجعله يمضى القهقرى إلى زمن ناء قبل سماعة صبيحة الرجل ، استعداد للحظة مارقة رحلته القديمة من خميس العدس إلى هذا الميدان ، زمان ! . يخرج من الحارة ، يرتدى الحلة والطربوش ، باسق القامة ، إذ يسرع الخطى يميل إلى الأمام قليلا ، يعبر قبو قرمز الممتد تحت مسجد الأمير متقال ، قبو كان أصلى وأطفال الحارة يرهبون المرور فيه نهارا ، سمع من أبيه يوما أن شخصا مذبوحا اعترضه فى عز الظهيرة ، يترف دما ، عدا خلفه محاولا نيله ، وعندما اجتاز الأب ظلمة القبو التفت فرآه خاليا ، لا أثر لأحد ، ولادماء حتى ، قال إن مانجها ، أنه ذكر اسم الله وتلا فاتحة الكتاب ، لولا ذلك لجرى ماجرى .

ابن عبد الناصر يتم عبور القبو ، ثم ميدان بيت القاضى ، تلك الموجودات رسخت عنده لكثرة ما انطبعت فى وعيه ، شجرة خضراء مباركة تتوسط الميدان حتى وقت تدوينى هذا ، وحوض للماء مستطيل تشرب منه البغال والحمير والخيول والدواب على الدوام ، مبنى الشرطة ، مقعد القاضى

ماماى ، مدخل حارة الصالحية ، مدخل مدرسة خان جعفر ، السيل الرقيق
المواجه الذى لم يعد يقدم للعابرين مايروى ظمأ المشتاق ، ومدخل فندق
الكلوب العصرى ، وبائع للحمة الرأس ، ومحلات متجاورة تعرض لوازم
الحلاقين ، ثم سبج متدلية ، وطواق مزركشة وشيلان حريرية ، وعصى
خيزرانية ، ونراجيل ، وحقائب مختلفة أحجامها وأشكالها ، وزجاجات صغيرة
للعطور البلدية ، وعلب دقيقة تحتوى على العنبر .

يتوقف أمام محل الخروب ، رائحته تلون الظلال الرطبة فتجعل المكان
وارقا ، فى مواجهة ثلاثة خشبية ، الجدران مبطنة بألواح من معدن ، بجوار
المنضبة الرخامية القديمة التى امتلأ سطحها بحجر صغيرة لكثرة ما سال فوقها
من ماء يوجد مستقر الخروب ومستودعه ، يقف أمام الدكان ، تلامس قدماء
مواضع وطئها أصلى وأبوه وإخوته فيما بعد .

الأرض هى هى ، لا تتغير ولا تتبدل ، لا تريد أو تنقص ، إنها الموجود
الوحيد الذى لا يبل من المواد إلى مدى بعينه ، لا ترحل ولا تتقل فى
الظاهر ، أما سعيها فخفى ، غير مدرك بالحواس ، كل شئ يتقلب ، يتبدل
يتغير ، عداء هو ، الذى يبذل هذا كله ويغير هذا كله .

يقف رجل يرتدى جلبابا فوقه سترة من جوخ أخضر ، لا يُرى إلا على
هذه الهيئة ، مطرق الرأس بملامحه جدية واعتزاز شأن من يدرك قيمة
ما يفعل ، وهذا تعبير رآه أصلى على وجه الخضرى الحلوى ، الذى عرفه القوم
واقفا يبيع البسبوسة فى صينية أمام حمام النحاسين بشارع المعز ، حتى اشتهر
أمره ، وتيسر ، فاتخذ له محلا قرب الجامع الأزهر ، ثم توسع فكسا الجدران
رخاما ، وأضاء الواجهة بالأحمر والأزرق ، وأصبح لا يرتدى إلا جلبابا
أبيض ، نظيفا ، ولا يظهر إلا لاما ، لينظر يرصا إلى صوانى الكثافة والبقلالة

والروانى ، ثم يومئ لهذا أو ذاك ويختفى عن العيون .

التعبير عنه كان يرى فى عيني مصطفى النقاش ، ينحنى على صينية النحاس يحفر الخطوط المتشعبة المتعرجة ، المتلاقية ، المتفرقة ، يدق مطرقة النحيلة ، وقد يطول انحناءه ساعة أو ساعتين ثم يرفع رأسه والرضا ملء عينيه يتأمل ما أبدع ، يدير الصينية يمناً ويسرة ، هكذا ينظر بائع الخروب إلى مشروبه وقد يرفع السطل فى الهواء قليلاً قبل أن يقدمه ، يضع الزيتون نصف القرش فوق الرخام ، أقرب رشقات ابن عبد الناصر، طلبة من الأزهر ، شيوخ كمل ، منهم فاقد البصر ، والنحيل الهزيل ، وعظيم البطن ، منهم من يرفع الرأس إلى أعلى ، منهم من يرشف بصوت مرتفع ، وآخر يحسو فى صمت ، وإذا يفرغ يدعو لصاحب المحل ، يرجو له الست ودوام الفتح فى الطريق ، عرفت حب ابن عبد الناصر لهذا المشروب ، وعرف عنه القوم تفضيله للجبن الأبيض ، حتى أنه كان يصحبه ابناً ولى وجهه ، لم يستهوه أبداً فاخر الطعام ، شأن كبار القوم من أصحاب السفر ، إذ كان أشد ما يخشاه اتباع الهوى ، وهذا درس عظيم ، راق ، وعاء أصلى وتمثله . فالإنسان ساع فى هذه الحياة الدنيا ، التى يعرفها مثلى ، ومن هم على شاكلى بأنها طريق ، أوله اقلاع وشروع ، وآخره هجرة عظمية . وختم حقبة ، والمسافر يجب عليه التزود بأقل الزاد ، فإذا ركن إلى دعة بعض الوقت وجاءه طيب الطعام أكله وشكر خالقه ، وإذا يستأنف رحيله فلا ينتظر مثيلاً لما أطمع فى نقطة تالية ، لو تحقق ذلك صار الأمر عادة ، والعادة عبودية ، وهذا ملمح أعجبني ورضيت عنه إذ لقيته عند أصلى ، أمضى رحلته حتى اسرته من فاس المباركة يأكل ما يلقاه أمامه ، لا ينفر ، لا يتأفف ، سواء فى حال عسره أو يسره ، خشى الارتباط بعادة ، لأن ما يتوافر له ساعة ، قد يفقده ساعة أخرى ، عندئذ

يحمل نفسه ما لا طاقة له به ، وهذا لب سلوك أكابر القوم المسافرين ،
المغترين أبدا ، ولنا في سيرهم أسوة حسنة .

قال الشيخ الأكبر محيي الدين : إنا قوم سفر نقطع المناهل بالأنفاس رحلة
الشتاء والصيف لنطعم من جوع ونأمن من خوف ، لأنه مازاد على وقايتك فما
هو لك ، وما ليس لك لا تحمل ثقله فتعب ، وهذا ما كان عليه جمال بن
عبد الناصر كان بعض المقرين يحاولون تعريفه بنفيس الزاد ، فيذكرون أطعمة
بعينها ، فيصددهم صدا لينا حازما ، وأحيانا صارما ، رادعا .

حدث أن جاءه أحدهم يوما بتفاح ، وتلك ثمرة ديارها بعيدة عن مصر ،
أبدى ضيقا وغضبا ، ومما جرى على لسانه : كيف أطعم ما لا يأكله عامة
ناسي ، قال ذلك عند مرحلة من الطريق كان فيها إذا اشار لأحد لبي ، وإذا
طلب استجيب له .

أين ذلك من خليفة السوء الذي كان يطعم فيتمطى ، ويلقى إلى الكلاب
ما عثر على القوم ، ويرسل في طلب اللذائذ من كل فج ، ويسعى إلى المتعة في
المتعة ، هذا يا صبحي عين العبودية ، فالحرية الحقبة ألا يكون بقلب الإنسان
رق لشيء من الأعراض البادية لا عاجل دنيا ولا حاصل هوى ولا سؤال
ولا قصد ولا إرب ولا حظ ، كنا لا يجرى عليه سلطان المكونات .

لم يتعلق أصلى ولا والده ولا جمال بن عبد الناصر بشيء ، أحبوا شراب
الخروب ، نعم ، الشاي المعطر بالتناع ، نعم ، لكن إذا انقضت أيام طوال بدون
توافر شيء من هذا أو ذاك لا يتبدل الأمر عندهم أو يتغير ، إذا حان وقت الطعام
لا يسألون ولا يردون ما قدم إليهم ، إن أعجبهم تذوقوا ، وأن نفروا لم يردوه ،
لم يمتنعوا إلا عما قضت به الضرورة ، وهذا من أجل خصائص السفر والشيم الواجبة
للسبر على مشاق الطريق ، وهذه أمور لا يعلمها إلا قلة .

دليلي يومي إلى ، إذن .. أطلت الوقفة ، أعزم أمرى ، أقطع المسافة من
عمل الحروب إلى الدكان . المجاور ، جدارهما واحد ، لكن هذا اقتضي منى
مشقة ، خطوة مكانية ... هذا صحيح ، لكننى أسافر بقلبي ، والسفر
نوعان ، الأول حسي ، بالبدن ، وهو الانتقال من بقعة إلى بقعة ، ومن
لحظة إلى لحظة ، وسفر بالقلب ، وهو الارتقاء من صفة إلى صفة .

قال لى دليلي :

« اجتهد أن تكون دائما راحلا بين مترلتيين ... » .

وقد لست قبل أن أنادى ، فما أنا إلا راحل أبدا ، ضعيف ، أسير زمن ،
طاوى حشا ، خائف من نسو المنقلب ، لا أتقيد بحدود في سفرى هذا ، قد
أعبر المحيط الأعظم قبل أن يرتد طرفى إلى ، أو اختراق الجبل بدون حاجة إلى
الدوران حوله ، وربما ألقى العسر في الانتقال من موضع إلى موضع مجاور ،
هذا عين حالى عندما دنوت من محل الحاج الهوارى ، إنه كان تاجرا للأثاث
غامضا ، إذا تكلم فإنه يههمهم ، وإذا نظريبدو مسدل الجفنين ، أراه كما تبقى
في وعى أصلى ، رب قوم عاشرناهم ، دنونا منهم ودنوا منا ، وكان لنا معهم
وقفات ومعاملات ، إذ تباعد السنون ما يبتنا وبينهم ، وإذا نستعيدهم فلا
نرى منهم إلا وضعا معينا أو تعبيرا خاصا ، لذلك لا أرى الحاج الهوارى واقفا
إلا عند مدخل ، يرتدى معطفا كاكى اللون ، تحته جلباب ، يغطى رأسه
بطربوش أحمر ، متطلعا دائما إلى مثنوى سيد الشهداء ، نظرة يامدد الأجرة .
الدكان داخله معتم ، إذ يمتد تحت ثلاثة مبان ، ينحني إلى الداخل ، لا يمكن
رؤية آخر ، الأثاث مكدمين ، مرايا تحتويها أطر مزخرفة من نحاس ، وآخر من
حديد .

للحاج أبناء ثلاثة ، أكبرهم لا يبدى ودا ، عنده سن ذهبية ، الثانى

زامل أصلى فى الدراسة زمنا ، أما الثالث فلا ألمح منه إلا ظلا ، لا أتمكن من ملاحظه أبدا ، ثلاثتهم لا يلفظون إلا مهمة ، أبوهم يبيع الوالد الكرم سريرا من الحديد أسود الطلاء ، السرير الذى رأيت الأب ينصبه ، أول سرير ينام فوقه كذا أمى ، لكنها أفراداه لأصلى وشقيقه اسماعيل ، ولمن رجل طفلا - محمد - له الرحمة وطيب المثوى إلى جانب شقيقه خلف وكال ، فوق الأرض تجاورا وأغمضا عيونها .

هذا السرير رقد فوقه أصلى مريضا ، بعد أن أدركته الحصبة ألبيسته الأم ثيابا حمراء ، وحاشت عنه الزيارة ، لذكرى هذا المرض تنميل ورعشات ، وقلق أمومى فى العينين الخائيتين ، وحزن أبوى مكتّم وتساؤل وجل قديم لم ينطق به اللسان أبدا هل يلحق جمال بخلف وكال ؟ ، كلا .. وربى هذا كثير ، ثقیل .

للحبيب ، الأمير ، الشهيد ، الحسين ، نذرت الأم الفول النبات ، وأضمر الأب النية لإطعام مساكين ، يخاف ولا يبدى إشارة ، بعد العودة من جهينة ، بعد بدء مرض محمد ، بعد أن قال الشيخ عطية أن نجمه يهوى ، وأن شمس الجمعة إذا طلعت عليه سيعمر طويلا ، بعد منتصف الجمعة . أغمض محمد الصغير عينيه ، بدا جسده مرتجفا ، صار أمره إلى حشرجة عاتية ، ناغته الأم كأنه يتأهب لنوم ، نوم طويل ، لا تعقبه صحوة ، نادته بالكلم المرقق ، قالت له أن الملائكة والصدّيقين يحفون بك الآن ويطوفون ، غير أن ضعفها فاض وطفى ، فقالت متوسلة ، راجية ، آملة ، دانية ، « رب .. لا تعذبني » ، ثم قالت ، « رب .. سبه لى » . ودمنت عيناها مع أن البكاء بحضرة مريض عندها شؤم ونذير .

عند هذه اللحظة رأيت ما لم تره هى ، ما لم تحط به خبرا ، ما لم يعه أصلى ،

رأيت أنا والدعاء، الشيخ على باشا المداح، الذى خرج من جهة منذ سنوات بعيدة مليا نداء الجمال الغريب، ولج نافذة الغرفة المغلقة كان يرتدى اللباس الأبيض ذاته الذى خرج به من داره، اقترب منها، تطلع إليها، فاض حنوه، غير أنها لم تره، دنا من السرير، فتح محمد الصغير عينيه، تطلع ناحية جده، وعلى وجهه لاحت بشارة ابتسامة، ظنت الأم أنه الفرج بعد الضيق، غير أنه تعلق بصره بجده الذى جاء يساعده ساعة احتضاره، ليعجل بخاتمة الترع حتى لا يطول الأمد، مد يده فمسح جبينه وحتى أطراف قدميه، عندئذ فارق محمد محمدا، غاب الجد واتضح الحد، أى الفرق بين ما كان وما يكون فسبحان من كشف بعض السر لقوم وأخفاه عن آخرين.

أدركت الأم أن الساق التفت بالساق وأنه الفراق، فهوى رأسها مستندا إلى ذراعها، اهتز جسدها هزات متعاقبة، فلما رأيت ظهرها المنحني، رأيت انحناء ابنتها نوال عندما تشبث بجوار السرير يوما في مكان بعيد عن هذا تحنى وجهها باكية، بالضبط هكذا، تماما كما أرى، أصابعها تشبث بجسد الوالدة، رافضة فراقه والنأى عنه، فما أعجب اللحظة إذ تقترن باللحظة، غير أن نوال لم تكن ملمة بنهر الأسى والأحزان الذى تدفق عبر كينونة أمها قبل أن تولى وجهها شطر الأبدية.. صوب العدم!

لكن مالى أتعجل؟ هذا له أوانه، وتأثيره عندى، فصبرا. كرهت الأم السرير الحديدى الأسود، فارقتة إلى الأرض، أبت أن ينام فوقه جمال أو اسماعيل بعد خلو البيت من محمد، محمد هذا الذى التقيته فى مقام الضنا ولكن فى خلقه الآخر، فن شاء الاستزادة فعليه مطالعة ما أثبتناه هناك!

ألحت الوالدة، كما أبدت تشاؤمها من الهوارى، فسعى الأب إلى تاجر أثاث آخر لكنه ليس من أهل الناحية الجنوبية، إنه الحاج فؤاد، اختار

للأب سريرا من خشب ، أعيد تجديده بإتقان ، حدث وقتئذ أن وصل إبحار الأرض المتأخر كما زاد راتبه خمسة قروش ، فغزم وتوكل ..

إصطحب الأم وابنيه إلى الحاج فواد ، اختارا صوانا خشبيا تتوسطه مرآة بلجيكية الأصل ، هاهى ذى الأم تفرد ثيابها فى القسم الأوسط ، إنها فرحة ، آن لجلايبها وقصاتها الداخلية وفستانها الأسود الوحيد وبقية ملابسها أن تفرد ، أن تفارق القفّة والحقيّة ، غير أن نظرها يشرّد ، فى عز فرحتها بالصوان . تنظر إلى جلايب ولديها . لو أن محمدا لم يرحل ، لصار له ركن هنا وشغلت هدمومه حيزا ، لصار عنده الآن خمسة أعوام ، هذا نصيبه من الدنيا ، لو أن خلف وكال .. تستدير إلى النافذة فلا أدرى وجهة عينها ، أجهل المدى الذى سافرت إليه بنظراتها .

أطيل النظر إلى الجهة الجنوبية ، أرى محل الموارى مغلقا ، ومحل الخروب ، جف منه العبير وفارقه الطلل ، هذا زمن متقدم ، فلا تمهل ، خاصة أن محل الصاوى الخياط عند الجهة الجنوبية ، وقد ورد ذكره فى المواقف ، كان مقرا لخلف بك بعد صلاة الجمعة ، كيف بدا الأمر ، كيف نشأت العلاقة ؟ هذا ما لم يتجلى لي الوقوف عليه .

إنه يقعد عند الطرف القصى للمصطبة الأمامية ، أمامه منضدة قصيرة القوائم ، فوقها الأقمشة والخيوط والابر ، أصبغة مغطاة بالكستبان ، ساق ممدودة وساق مثنية ، وعند طرف أنفه يرتكز المعلق . وحركة يده المسكة بالإبرة ذات الفتلة لا تتوقف . أما القماش فيسوط على ركبتيه ، يصنى الأب إليه بعد انصراف البك ، يتحدث دائما عن أيامه التى قضها فى استامبول ، وعندما استدعوه ليقص قفاطين السلطان ، دخل القصر الكبير وخصصوا له غرفة وخدما ، رأى السلطان عبد المجيد بعينه ، صافحه ، سألته عن أحوال

مصر ، أجا به بما يليق . دار حوله ، لامس جسده ، حفظ مقاساته ، لم يكن في حاجة إلى تدوين مما أدهش المحيطين به ، أكرموا للغاية ، الافطار اليومي لم يخل من القشدة وعسل النحل المصنّى والفطائر تترسنا ، أما الغذاء ففيه كل ما تشتهي الأنفس ، وفي العصر لا بد من نزهة بحرية في القرن الذهبي ، ثم صلاة العشاء في مسجد السلطان أحمد ، يوجه كلامه بداية إلى الأب ، وسرعان ما يتجاوزه بنظراته ، فيحلق إلى جهات مجهولة يذكر شيئا ما عن دخان نرجيلة عطري ، ومآذن نحيلة ، وقباب ، والخليج المغطى بقوارب وسفن شتى ، ومرتفعات ، وأشجار متعانقة أغصانها ، ونساء جميلات يرتدين الحرير الشفاف ، تبدو قعدته السكونية مشحونة بالرغبة في الاقلاع ، أما ارتفاع كتفيه ونفور عروق رقبته فيومئان إلى ضجيج الجسد المجهض ورغباته التي لم تلب ، وخلال هذا كله لا تكف أصابعه عن غرز الإبرة وشد الخيط ، بعد حين يقول عند الوصول والعودة إلى محلته .

« رفضت البقاء قرب السلطان ، وعدت لأجاور ابن بنت رسولنا الكريم .. » يرفع الأب يديه :

« الفاتحة لإماننا وميدنا .. » .

يسط كفيه ، يتلو فاتحة الكتاب ، يمسح الوجه ، وموضع القلب .

يقول الصاوى بصوت خافت :

« والخيرة فيما اختاره الله ، بعد عودتي خلعا السلطان » .

يقف الأب ، يقول إن الأوان حان لذهابه ، يقول الصاوى إنه لو بقي لفتكوا به يقول الأب إنه لا بد من ذهابه إلى فندق الكلوب ليلحق ببعض أبناء البلدة ، يطلب الصاوى بقاءه قليلا ، يتناول من تحت الطاولة قصيرة القوائم علبة معدنية في حجم عقلة الأصبع ، إنه متخصص في تركيبة للسهوة

لا يتقنها إلا هو ، لخلف بك علبة أسبوعية يمضى بها الأب إليه ، يعود الصاوى ليثبت فيه النظر ، « اقم يا أحمد » ، لكن الوالد يكون قد مضى وغاب عنه ، غير أنه يستمر فى وصف بيوت استامبول والقباب المتجاورة ، والموسيقى الشجية التى تسمع من بعيد ، وآذان الفجر ينبعث من المآذن النحيلة المشرفة على البوسفور الجميل .

تلك بوابة الفندق ، فسيحة ، تؤدي إلى ساحة مستطيلة تطل عليها نوافذ المبنى وشرفاته ، فى ليلالى الصيف ، فى نهارات الشتاء المشمسة تصطف المناضد ، إلى الجانب الغربى شرفة متسعة تؤدي إليها ثلاث درجات قيل على مسمع من أصلى ، لا يعرف من القائل أو متى ؟ إن هذه الشرفة شهدت أول عرض سينمائي فى مصر عام ألف وتسعمائة وعشرة ميلادية ، كان رواده من عمد البلاد ومشايخها واثرياء الريف ، وأجانب قادمين من أصقاع شتى ، جل القوم من الأحبة المريدين الذين قصدوا الإقامة على مقربة من الضريح القاهرى ، ولحرص بعضهم على صلاة الفروض الخمسة حاضرة ، واصغاء إلى أدعية الفجر التى تتردد عبر صمت الليل النهائى ، بناء الفندق إلى يمين الداخل ، أربعة طوابق ، شرفات الغرف مسورة بحديد مزخرف ، فى نهاية القناء المكشوف يقوم بناء مطبعة الحلبي العتيقة التى تمت إلى القرن الماضى .

فندق عتيق ، إذا سددت إليه البصر الحسى أو العقلى أو القلبى فلا أراه إلا ساعة ظهيرة ، ويوم الجمعة ، وبالتحديد بعد صلاة الجمعة ، بعد أن يتفرق الجمع الذى انتظم صفا ، صفا ، بعد انصراف جلهم ، وتفرق آخرين فى المقاهى والدكاكين والمتاجر والوكالات المحيطة بالمرقد . يمضى بعضهم إلى الفندق ، يقصده الأب بعد جلسة دكان الصاوى ، بعد انصراف خلف بك . هنا يلتقى بأبناء جهيته القادمين إلى المدينة ، أراه مقبلا ، أصلى إلى يمينه

وإسماعيل إلى يساره ، محب لصحبتهما ، يقول للأُم دائما : « حتى يروا الناس ويشوفوا الدنيا » .

الحاج عبده النوي مدير القنلق ، جاد الملامح ، لباسه جلباب صيفا فوقه معطف شتاء ، وطربوش لا يميل ، لم أره مبتسما أبدا ، يميل إلى الأمام وكأنه على وشك أن يهمس ، محلق ، مزمووم الشفتين تشابك أصابع يديه . إنه مهمت جدا بحرب مستعرة في بلد اسمه كوريا ، بجواره راديو ضخمة الحجم ، تتوسط واجهته لمبة صغيرة تضيء لونا أخضر إذا اتضح الأمر ، يعرف مواعيد نشرات الأخبار ، وأصوات المذيعين ، كذلك الألحان المميزة

ظهر الجمعة يخبر القوم بأهم ما أصغى إليه طوال أسبوع ولى ، يقص ما سمع من أنباء ، يتحدثهم عن مسار الحرب ، يذكر أسماء المواضع والبلاد ، والقادة ، يقول إن جمعا من المحاربين قصدوا الهجوم على القوات الأمريكية ، اعترضهم مجرى مائ متدفق التيار كانوا بحاجة إلى جسر يعبرون عليه ، فما كان من الجماعة إلا أنهم ألغوا أنفسهم في النهر ، تكلسوا فوق بعضهم البعض حتى وصلوا الضفتين يحس من الجثث وعبر من تبقى ، يصغى الأب ، أصلى يستمع منبها ، مجهدا نفسه في تخيل هذا البلد الثاني .

عبد المقصود أفندى ، عمر الخادم النحيل جدا ، الطويل جدا ، يتوقف عن خلمة الزبائن ، الكل يستمعون ، يقول الحاج عبده إن القائد الأمريكي لو تدخل بالطيران لحسم الموقف ، لكنه لم يفعل ، ثم يقول مؤكدا أنه عندما أصغى إلى عنوان النبأ استنح مقلما ما أقدم عليه قائد الكوريين ، ولحظة اصغائه إلى التفاصيل صحت توقعاته ، قال الأب للأُم إن الحاج عبده كان يتابع معارك الحرب العالمية ويعرف أدق التفاصيل ، وكذلك حرب فلسطين ،

وأنه يقضى أياما متتالية متكدرا حزينا لأن النتائج لم تتطابق مع توقعاته وما أشار به ، وكثيرا ما شوهد غضبان آسفا لأن الوسيلة معدومة في توصيل نصائحه..إلى القادرة، خاصة حرب فلسطين. يردد الحاج عبده أنه معجب بالكوريين ، أنه اختار الانحياز إليهم فخطأه معهم ، لأنهم يحاربون في بلدهم ، يكرر مرات هجوم حشودهم غير عابئين بالنيران والهلاك، ثم يردد :

« لن نهزم إسرائيل إلا بهذه الطريقة .. » .

يوميٌ عمر مؤمنا ، ينطق بعد طول صمت :

« صحيح .. مضبوط .. » .

إنه نوبى أيضا ، يشتري الطعام للتزلاء ، والصحف ، ويقضى الحاجات ، جهته مستطيلة تؤدي إلى رأس أصبع تماما تنفر منه عروق خضر ، على جانبيه بقايا وشم جاء به من البلدة ، لكن بعد عمله في الفندق ، وتندر الزملاء به ، عاجله بماء النار عند الأسطى سيد، احتمل جلدا، حتى إذا انتهى الأمر أبدى الأسطى دهشة وتعجبا ، إذ أن عتاة الرجال وجبايرتهم يصرخون لحظة ملازمة الحمض جلودهم ، غير أن عمر لم يلفظ آهة ، لم يعض شفته العليا أو السفلى ، لم تتلفص ملامحه ، لم يغمض عينيه ، إنما حلق في المرأة كأنه يرقب شخصا آخر لا علاقة له به .

إذ يبدأ الحاج عبده حديثه عن الحرب ، يترك عمر ما يشغله ، يحيى ليحلق ويصغى ، وإذا تصادف عودته من مطعم حاملا صينية عليها أطباق ساخنة يقف ولا يتحرك ، وعندما يصغى يزداد اتساع عينيه ، يدوى فيها بريقها الغريب . ربما يهز رأسه مرة أو مرتين أو يعلق بكلمة « صحيح » أو « تمام » ، أحيانا إذ يفتقد الحاج عبده زبائنه يدعو عمر إلى الاقتراب منه ، لا يجلس في حضرته أبدا ، يبقى واقفا ، مصغيا مما يضطر الحاج إلى رفع رأسه

وعينيه ، يستمع إلى المواقع التي احتلت وتلك التي يجب تدميرها ، وأخرى كان من الممكن اجتياحها ولم يتم ذلك ، إلى خطط كان يجب تنفيذها ولم توضع أصلا .

عمر من أحباب الإمام الحسين ، يؤدي الفروض في مواقيتها داخل المسجد ، إنه يسمح الميضاة ، ودورة المياة مرتين في الأسبوع ، نذر قديم قطعه على نفسه ، يشهد المصلين والزوار أن الميضاة تبدو أنظف صباحى الثلاثاء والجمعة ، يفعل هذا راضيا ، وبرغم صمته الذى يستغرق أسابيع ، وهدوئه وصبره على الشدائد والأعمال الصعبة ، فإنه يشتعل كحريق وتتوتر عروقه وتتصلب يداه ، يقلد بأى شىء فى متناوله إذا سب شخص أمه مها كان مركزه أو وضعه .

بعض خبيثاء الناحية بثرونه من بعيد ، يزعمون بسبها ثم يعدون جريا ، عندئذ يزعم زعيما هائلا يهلع منه المارة بقره ، يبدو خروج هذا الصوت غريبا من جسده النحيل ، حتى إذا عجز عن اللحاق بخصومه يقعى جالسا فوق الرصيف ، يغمض عينيه ، يرفع وجهه متألما فتبرز حنجرته ككرة صغيرة داخل حلقومه ، يضرب صدره بقبضتيه ، مطلقا جعيرا ينجشاة الكبير قبل الصغير ، ولم يعرف سبب ذلك ! .

أراه فى جلبابه الأبيض النظيف ، يمشى حاملا طبقا من الفول ، يعبر ميدان بيت القاضي ، يتحدث إلى الأب ، واضح جلى أنه يكن له الود ، لكن عن أى أمر يتحدثان ؟ عن أى أمر ، لم أصغ ، لم يوضح هذا لى ، حتى حركة الشفاه لم أرها ، لم يتحدث أصلى إلى عمر غير مرة ، التقى به فى شارع المشهد الحسينى ، كان ذلك بعد مرور سنين ، بعد طى السجل للكتب ، بعد شقاق وقع ، إثره هجر الأب البيت غاضبا ، لم يدر له أحد مستقرا أو

مقاما ، هاهوذا عمر يحيى من ناحية الميدان ، يحمل دورقا مليئا باللبن ، رأسه مرفوع ، يعيل إلى الخلف ..

« صباح الخير يا عم عمر .. »

ينظر إليه ، لا يتكلم ..

« ألم تر أبى ، ألم يحيى إلى الفتلح ؟ »

تفرج شفناه ، لثته حمراء كالدم ، أسنانه ناصعة ، غاضب ، عدائى اللهجة .

« امش »

يرتبك أصلى ، يهدد عمر ، يستكر ، يلوم ..

« تفضبون أباكم الطيب .. »

يولى ظهره ، صار أصلى يتجنبه خشية ، إذا رآه حاد عن طريقه ، فيما بعد كثيرا ما استعاد يوم جمعة لا ينسى ، بعد أن خطب نصير المستضعفين فوق منبر الأزهر ، ورج صوته قلوب الخلق عندما أعلن الجهاد ، « سقاتل .. سقاتل .. سقاتل » . أنبا القوم أنه باق يئهم ، كذا أولاده ، وصحبه ، وأنه سيلقى ما يلقونه ، ضج القوم ، ودمع بعضهم ، وهتف آخرون ، وانبتق حضور المسجد العتيق ، فتلك لحظات لن تنسى إلى أمد طويل .

بعد انصرافه ، بعد اظهار البيعة له ، عاد أصلى إلى ميدان المشهد الحسينى ويده صحيفة « الأخبار » ، طواها على عنوان أحمر يقول : إن بورسعيد دفعت ضريبة الدم ، رأى الميدان غاصا بقوم من كل فج ، يرتدون ثيابهم المدنية ، جلايب وطواق ومعاطف وشباب مُعدّ ، متأهب للموت ، كل يمسك بنذقية ، يشدون « الله أكبر » قبل انطلاقهم إلى جهة ما ، وعلى مقربة عربات نقل عسكرية ضخمة ، غمامات فى فضاء الميدان ، يوم خريق .

يقف أصلى ، دماؤه متدفقة ، حارة ، رغبة ، قصوى فى المشاركة ، ألا يكون غيره قريبا وهو بعيد . إنه يلمح فى نهاية أحد الصفوف عمر النوبى طويلا ، فارها ، نحىلا ، يقبض بيده ماسورة بندقية «لى انفيلد» ، طلاؤها بنى ، ماسورتها سوداء ، عيناه متجهتان إلى أمام ، طويل ، أطول من أى مرة رآه فيها ، هذه لحظات بقيت معه ، استعادها فى نواح شتى ، وظروف مختلفة ، وأوقات متباعدة ، وفى الأعم ، الأغلب ، بدون ترتيب .

لم ير عمر بعد ذلك ، غاب تماما ، وقيل إنه ذهب إلى الجبهة وهناك فُقد ، وقيل إنه قتل فى غارة ، ولأنه لا أهل له ، ولا يعلم أحد شيئا عن أقربائه أو من يمتون إليه بصلة ، دفن فى مقابر الشهداء بالاسماعيلية بلا علامة تدل عليه ، قيل غير ذلك ، إنه شوهد فى بورسعيد يمشى بجوار امرأة ييضاء وطفلين ، لكن لم يثبت صحة ذلك ، أما المقطوع به ، فعدم رؤية أصلى له حتى اسرائه من فاس المباركة ، وفى السنوات العشر الأخيرة السابقة على قدومى إلى هذا الكون وحلولى محله لم يذكر عمر النوبى كثيرا ، سيجهل البواعث التى تبعث به إلى ذاكرته ، ولكن إذ يبرق اسمه ، يتذكر وقته أثناء حديث الحاج عبده ، ونظرتة إمساكه بالبندقية ، وسرعان ما ينساه ، يغيب عنه ، كذلك نسى عبد المقصود أفندى ، أنه كان كاتباً للفندق ، وحافظاً لأوراقه ، استعاد دأثما فى وضعين لا ثالث لهما ، إما جالسا فى مقصورة جدرانها نصف خشبية نصف زجاجية ، أو منحنى إلى الأمام يتحدث إلى واقف أمام المقصورة من خلال فتحة مستطيلة ، ضيقة ، بجواره لوحة تليفونات الفندق ، صندوق بنى الألوان ، يبرز منه مفاتيح ، وسماعة معلقة خلف خزانة حديدية ضخمة ، مقبضها دائرى ، محفور عليها كتابة بارزة بحروف لاتينية ، لفتحها صرير ، فيها النغود والايصالات وأمانات التزلاء وأوراق قديمة وبقايا

ثمينة نسيها التزلاء محفوظة حتى لحظة قد تهيء يسأل فيها صاحب حاجة عن حاجته ، في الحزاة أيضا أسرار منسية وأخرى لا يعلمها إلا هو ، إنه يحول المكالمات إلى الغرف ، كما يحسب ويدون الطلبات التي ترسل من مقهى الفندق ، الشاي ، القهوة ، المياه الغازية ، كما يسجل الطعام الذي يهيء به عمر من المطاعم القريبة ، يكتب الأرقام في دفاتر مقيمة إلى جداول وخانات ، إنه يستلم الخطابات من وإلى الفندق ، ومفاتيح الغرف عند انصراف التزلاء ، كما أنه يراقب الصاعدين .. فالسلم يبدأ عند نهاية المقصورة كما يرد على تساؤلات الأغراب .. إنه بدين ، يرتدى حلة كاملة صيفا وشتاء يبرز تحت السترة الخارجية صديري أفرنجي تتدلى منه سلسلة ساعة ، ينام في حجرة صغيرة بابها قصير مجاور للمكتب مباشرة .

أرى الأب يقرب منه يوما ، ما من أحد يقف قريبا أو يمكنه الاصغاء ، ينحني الأب انحناء من ينوى السؤال ، وللسؤال ذلة أيا كان موقف السائل ، إنه يطلب خمسة قروش ، هذا يوم من أيام الفنك ، لا أدرى موقعه أو علامة تحده ، عبد المقصود أقرضه مرات ، يدعو له «رينا يقولك يا أحمد ويقدرك على تربية الأولاد» ، يعود إلى صمته ، إلى مراقبة السلم ، لم يره أصلى إلا جالسا ، لحظة انتقاله إلى غرفة النوم الضيقة لم يشهدها أبدا ، كما أنه لم يره خارج الفندق أبدا ، وكان يثق بشكل ما ولسبب ما أن الرجل ينام مرتديا حلته كاملة .

أرى الفندق من جهات شتى ، المبنى من الخارج ، شرفاته ، نوافذه المستطيلة أراه من الداخل ، أمشي في مرطويل على جانبيه غرف ، هاهذا أصلى يصحب أباه لزيارة شيخ من البلدة ، جاء إلى هنا بعد عملية جراحية في قصر العين ليتبرك بقرب الحبيب ولتيم الشفاء ، ألمح مدخل المطبعة ، رجلا قصيرا أكرت الشعر

يدخلها ، أرى صناديق مليئة بزجاجات المياه الغازية الفارغة ، المواسير السوداء ملتصقة بخلفية المبنى .

أرى الأسرة كلها مصطفة كأن الجدران التي تفصلها قد زالت ، يتعاقب القوم عليها ، كل من أغنى ، أو نام ، أو دهمه كابوس مروع ، كل من حملق إلى السقف المرتفع المظلي بالقدم ، كل من نكح أو نكحت أو نكح داخل هذه الغرف ، الطلاب يتجدد ، يغمق ، يتسخ ، يتقشر ، يتساقط ، الشروخ تتسع يوما بعد الآخر .

أرى التبدل ، التغير عبر سنوات شتى ، أما جلسة عبد الرسول الهندى فلازمت الموضع عينه ، حتى قدماء لم تطفأ إلا المواضع التي اعتاد وطأها عند مشيه ، إنه أسمر ، ناعم الشعر ، يميل إلى بدانة ، مستدير الوجه ، بارز الوجنتين ، صديري أفرنجى فوق قميص ، بنطلون بنى ، صندل غريب يبدو أنه من جلد حيوان مجهول غير مألوف في هذه البلاد ، نظارة معدنية الاطار ، على وجهه طيف ابتسامة لا يغيب أبدا أثناء حديثه أو صمته ، إنه نزيل قديم ، لا يدرى أحد مقدار المدة التي قضاها في الفندق ، لم يبدل غرفته ، وعندما أجروا اصلاحات منذ سنوات وتقرر اغلاق المبنى والتوقف عن استقبال التزلأ لمدة أسبوعين ، رجا الحاج عبده أن يأوى مع عمر في الطابق الأول ، استجاب الحاج له ولم يناقش الأمر ، ما عرف عنه انتاؤه لطائفة تعيش في الهند ، يعتبر أفرادها أنفسهم من سلالة السيدة فاطمة والدة الحسن والحسين عليهما السلام ، يحولون إليه مبالغ على فترات متباعدة يعرف الجميع موعد وصول الحوالة عند ذهابه باتجاه الموسيقى حيث فرع البنك ، لا يدرى أحد ما يقوم به ، أو سربقائه ، لكنه يقضى وقته كله على مرأى من الجميع ، جالسا فوق مقعد من الحديد قرب مدخل الفندق ، يقرأ كتباً باللغة الأردية ،

يتحدث العربية بلغة تثير فضول أصلى ، أحيانا يقعد بين الزبائن ، يحتدم الحوار ، لا يتوجه إليه إنسان بكلمة ، ينسى وجوده تماما ، لا يدري به إنسان ، حضوره كالظل العابر ، إذ ينصرف أو يتململ أو يبدل وضع جلسته لا يلحظ أحد ، غير أنه أحيانا يصمت المتناشون ، أو تبدأ هذه اللحظات التى تتخلل الحوارات ، عندئذ يتبته الكل إليه . يبرز حضوره فجأة مديبا ، ثقيلا ، فيتوجسون منه خيفة ، يبدأ انصرافهم .

أرى الأب يجلس إلى جوار عبد الرسول عند مدخل الفندق ، يتحاوران ، يتهمسان أحيانا ، تتعاقب التعبيرات على وجه أبى ، ييسط يده أحيانا ، أو يشير بأصبعه إلى الجهات ، ينظر إليه عبد الرسول بود ، مرات عديدة صاح الحاج عبده مداعبا : ماذا يقول لك وماذا تقول له يا أحمد ؟ . يضحك أبى ضحكة خاصة مؤداها ومعناها أنه لن يفضى ولن يجيب ، «حقا .. ماذا يقولان ؟» .

أهم بالاقتراب لكنها يوليان متراجعان أو ابتعد أنا ، أوقن أن ما بينها جللا ، غير أنه ما من علامة تشق الغليل ، وهذا بين أمور شتى حيرتى حتى زمن تقيلدى هذا .

رأيت فى باحة الفندق ممن لاحصر لهم ، لم أدقق ملاحظهم جيدا ، لم أعن بالاستفسار ، لم أضمر سؤال دليلي عنهم ، وجوه عديدة ذهبت عن حفظى .. إلا عبد الرسول هذا بقى فى ذكرى ، ربما يرجع هذا إلى جلسته ، إلى صمته ، إلى حيرتى تجاه ما دار بينه وبين الأب ، لكن وددت أن أسطر عنه ما أعرف ، غير أنى بلغت هذا الموضع من الكتاب وما بى طرف عنه ولا معى ذهن . ذلك أنى أجهله .

أراه فى صمته يوم قدوم هذا الفتى الجميل ، على وجنتيه وفوق شفتيه يرى فى الضوء زغب أشقر ، يقعد فى الصالون الداخلى يحرق فيه الحاح عبده ، وعمر ، وجلوس آخرين ، أما عبد الرسول فيتطلع إليه حانيا ، ودودا ، وطيف ابتسامة مشرف من بعيد ، جاء الفتى الليلة الماضية بصحبة شاب يكبره سنا ، هيئة الشاب ومنظره لم تطمئن عبد المقصود أفندى ، يبدو أن الغرب لم تكن عنده احاطة بتقاليد الفندق القديم ، استفسر عبد المقصود أفندى عن الفتى ، عن درجة قرابته ، أهو شقيقه ؟ ابن أخته أو أخوه ؟ أى قرابة تربطها ؟ ، لما أبدى اضطرابا نظر عبد المقصود إلى الفتى ، أمره أن يجلس فى الصالون الداخلى ، أن ينتظر .. أطاع الولد ، مضى إلى الأريكة الرئيسية .

عندما رآه عبد الرسول يقترب منه وقع أمر محير ، إذ اضطرب حاله فجأة ، وصار وجهه فى لون الليمونة الجافة ، ثم تداخلت أعضاؤه ، وبق قابعا ينظر ولم يدر أحد سبب ذلك ، أما الشاب فبدا مرتبكا ، حريصا على تخليص نفسه أكثر من حرصه الدفاع عن الفتى ، زعق عبد المقصود لاعنا أولئك الذين يريدون تلويث الفندق حسن السمعة ، القريب من الضريح الطاهر ، فليقل لهم من يعلم أن هذا المبنى كان مقر الوجهاء ، ومشايخ البلاد وفرسانها ، وأن التاجر الذى كان يريد أن يعلن عن متانة أحواله كان يقول بفم مليان ، أنا أنزل بالكلوب ، وأن العروس التى يتباهى بها أهلها كانوا يشترطون على عرسها أن يقضى شهر العسل أو جزءا منه فى الكلوب ، ماذا جرى ؟ أى زمن أغبر هذا ؟ من أى مصيبة جاء مثل هؤلاء ؟ ، أمثالهم لا ينفع معهم إلا البوليس . استدأر إلى لوحة التليفونات ، لكنه عندما عاد لينظر إلى الشاب لم يجده أمامه ، اختفى .

أسمع الحاج عبده يقول إن الفقى هارب من أسرته ، وإن جاء من الجنوب ، وأن الشاب اصطاده وغواه ، وكان سيفسده لولا أن عبد المقصود أفندى تدارك الأمر ، أرقب العيون المخذقة ، يتخيلون ما كان سيصير إليه الولد الآن لو أنه صعد إلى القرقة ، ربما اشتهاه أحدهم سرا ، أما عبد الرسول فانسحب مضطربا ، لم يره أحد عند انصرافه الأخير ، عبد المقصود طمأن الحاج عبده أن حسابه مدفوع حتى نهاية العام ، وأنه لم يستدن من أحد ، أما حاجاته فمحفوظة فى الخزانة الحديدية حتى يعود أو يظهر من يمت له بصلة ، لماذا اختفى عبد الرسول بعد ظهور الفقى ؟ لم يعرف أحد ، لماذا غافلهم الفقى واختفى ؟ ، أسمع الأب يقول : إنه غافل الناس ومضى ، ثم يقول محدثا الأم : الولد يبدو فاسدا بطبعه ، تقول أمى : ربنا يستر على أولادنا وأولاد الناس الطيبين .

تلك الوجوه عديدة ، تتابع ، بعضها يتمهل ، بعضها يبرق ، تختلط الملامح ، تذوب فى غسق خرفى ، تبدل وجوه أخرى ، تطوف الضريح القاهرى للحسين الشهيد ، رجل ينحنى مقبلا العتبة الرخامية المؤدية ، آخر يلثم نحاس المقصورة المتشابك ، عجوز ترجو طلة من الحبيب ، أخرى تنوح بالنظر الصامت ، طفل يروم شم العبير الحفى ، ونشال يسمى فى الزحام إلى ما يمتلكه الخلق ، تطوف الدنيا بمن فيها حول الضريح والمثوى ، فانصف ياسيد شباب أهل الجنة ، ياخير الأدلة .

نخرج من الباب الجنوبي ، عقود الخرز الملون ، الطواق ملونة ، والبخور بنى اللون ، عليه المستكة واللبان الجاوى والعصى المعلقة ، والطارات والطبول والشارات ، ومجنوب يلوح بسيف خشبي مرسلا الاشارات المهمة ، ربما معبرا عن قصد ، أو مفصحا عن نوايا ، أو منبثا بأمور لم تلح طلائعها بعد ، أو

مستغيثا من دواه لا يرى نذرها إلا هو ، أما الباب الأخضر فقابع تحت قاعدة
المثدنة الأصلية ، مظلل ، عبق ، شق الجدار غمق لونه ، صار ملمسه
صخريا ، ردت الأحجار إلى حالتها الأولى ، إنه الموضع الذى حطت فيه رأس
الحبيب الشهيد بعد أن طارت أربعين يوما من الموضع الذى اجتزت فيه إلى مصر
المحروسة . وهذه واقعة شغلت أصلى زمتنا . أجهد الخيال فى تصور أم الغلام الفقيرة
التي اقتلعت الرأس الشريف برأس ابنها ، وقد أشار إلى هذه الواقعة فى قصة
عنوانها « أيام الرعب » تضمنها كتابه الأول « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » .
فن أراد الاستزادة عليه مطالعتها هناك ، فخططنا هنا الاختصار فى التقيد قدر
الطاقة .

أرى أصلى يمر بصحبة أمه وأبيه وأخيه أمام المارشال على ، معروف ، أمره
ذائع فى الناحية ، تناقل أخباره الناس ، بادلله أصلى التحية مرارا ، تلك ذكة
مرتفعة مفروشة بسجادة من بخارى ، لونها أحمر قو ، يرتدى حلة عسكرية
تمت إلى جيش مجهول ، على جانبيه كتفيه رمانتان حريرتان ، أما صديريته
فثقيلة بالأوسمة والنياشين وأغطية زجاجات مياه غازية وخمور ، يتلى من
حزامه سيف فى غمد جلدى محلى بنقوش عربية من جانب ، أما الجانب الآخر
فكتب عليه « سيف الله الغالب » ، عل بن أبى طالب . حذاؤه جلدى طويل ،
يبرز منه مهازان من حديد ، ينتفض واقفا ، مشدودا ، يرد التحية بأحسن
منها ، يغطى رأسه ببطاقيّة من فرو عليها شارات وعلامات .. قيل إنها تخص
قائدا كبيرا بالجيش الأفغانى القديم .

فيما بعد أصفى جمال إلى من يقارن بين المارشال على ويشبه الجلف الجافى
- لعنه الله - به ، غير أنه استنكر ذلك واستكبر ، عارض القائلين ، جمال رأى
الجلف عن قرب ، فى احتفالات عديدة ، فى المراحل الأخيرة لمناورات الجند ،

يا مرنى :

«امض إلى الجهة الشرقية» .

أرجوه :

«أنى منصع ، مطيع ، لكن اسمح لى بطله .. وتدوين قصير...»

يقول :

«إذن . اسرع وأوجز...»

أرى ظلال عودتها عبر هذه الجهة ، لسعيها جوهر عابر خلف آثار
لا يمكن للرائى إدراكها بعد خلوكون المحسوسات منها ، بعد تمامها مضت
شقيقى نوال بصحبة على أخى لزيارة الحسين ، ثم شقا هذه الجهة ، من ضريح
الحبيب ، وحتى ميدان باب الشعرية ، كل موضع هنا له عندهما معنى
وترجيح ، عادت نوال لتقول : كل من عرفناهم ما زالوا يعيشون ، فلماذا أبى
وأبى ؟! ، أصغيت ولم أقدر على رد الجواب أو التعليق ، كما أنى لم أستطع
الادلاء بشئ عن هذه الظلال الساعية المتبقية ، فما من ظل إلا وله صدى ،
لكنها أمور إلى الإدراك الخفى أقرب ، فلا حواس تطلها ، وفوق كل ذى علم
عليهم .

أرى صدى عودتها بعد زيارة الطبيب وأصلى بصحبتها ، تمشى هادئة ،
مصغية غير جزعة إلى ما جرت به المقادير ، أما أصلى فهموم مرتجف خوفا من
احتمال ثبوت الداء الخبيث .

ها هو ذا يعود مبتهجا ، على وجهه علامات البشرى ، أرى ظلال سعيها
وجهادها ، إلى عيادات الأطباء تصحب عليها الأصغر ، إلى المثوى الطاهر لترفع
دعاء بفك أسر جمال بعد بدما سجنه وتقييد حريته ، لعن الله الضالين .
هذه فترة مغايرة ، خروجه من المدرسة ، فسحة مقدارها نصف ساعة ،

كان الميدان أقصى حدود العالم عنده ، ثم امتد حتى أرصفة الأزهر ، وعبر الكتب القديمة تمدد كونه ، توالدت مجراته ، واتسعت الأصقاع ، يمسك كتابا لا غلاف له فيقرأ ، رواية يجهل مؤلفها ، يلتهم الصفحة أثر الصفحة ، خرج بمفرده أكثر مما ينبغي ، فالأخطار محدقة ، بلا حصر .

تلك ظلاله عند عبوره الميدان إلى الترام ، إلى العباسية ، ثلاث سنوات يدرس المنمنمات وفن نسج الأبسطة ، كم زمنا استغرقه عبوره تلك الجهات مرارا ، كم عدد الخطي ، كم تنوع الخواطر والصور ، كل خطوة في عمره ترددت أصدائها عنده أثناء عبوره تلك الجهة ، انتقاله من مهنة إلى مهنة ، من طور إلى طور ، اكتسابه المعرفة ، عودته بالنبا اليقين ، بالشك .. كم تغير حاله لرؤية محبوبة ، وكم انتشى لمواتاة فكرية ، وكم توهجت اشراقة بالمباغنة ، مفاجئة ، كذا كل من ارتبط به ، من ذوى قرابة أو صحبة .

فيا تلك الجهة التي منك البدء .. ويا هذا الطريق الذي انطبعت موجوداتك ، ما يحف بجانيبك ، وما يسعى فوقك ، في أحداق الأحبة ويا هذه الأرض التي لم تتغير؟ ولم تتبدل .. أين راحت هذه الظلال الكوائف؟ ومن يدرك سعي الأحبة وخواطرهم ، تلك التي ولت وانمحت ، وتلك التي توارت ، وتلك التي أقامت .

ياמרني دليلى :

«عجل فالوقت محدود .»

أبدأ على الفور تدويني ، وإن لم أرتو من الطلعة ..

«تلك وجوه رأيته ، وبعضها رأي ، كل منها أودع عندي أثرا ، بعضها أدركت أصحابها وعرفتهم ، والآخر أجعله ، ولما كان الإنسان نسخة جامعة ، لذا كان عندي منها مقدار ونسبة ، فإذا قدر لي رؤية كل منها متفردة ،

إذ رافق المقاتلين سنين عددا من عمره ، ودون أخبار ذلك في صفحات شتى ،
ولهذا موضعه الآتي لكن في غير هذا السفر .

أقول إن الجلف كان مغرما بترين حلتة العسكرية ، وأضاف إلى نفسه ما لا
يحق له ، فارتدى وشاح القضاء الأخضر ، علق الأنواط والأوسمة أبدى
التكلف ، تصنع الهية ، سخر الخلق منه ، تندرأ عليه ، لم يقنع أحدا أبدا ، مع
أنه قصد بث الهية وترسيخ المكانة .

قال جمال - أصلى - إن الماريشال كان من مباهج صباننا ، أما الجلف فلم
يكن إلا كابوسا .. مدعيا .. كاذبا .. جلأبا لكل سوء . ربما كان لدى الماريشال
أمر جمة لم يفصح عنها ، حسبي ذلك وكفى .

إنى عائد إلى حارة الطوايط ، أتجاوز المنحنى ، أرى الرجل الضريع ،
مدكوك البدن ، يرتدى جلبابا تحته جلباب ، لا يبدل .. لا يغير في الصيف ،
رقبته قصيرة ، رأسه مستدير ، شعره قصير أما عيناه فظلمتان ، متجهتان دائما إلى
أعلى ، يدها تريان ، تتفحصان ، تحددان المعالم ، لم يدل غلوق باسمه ، لم يتناول
طعامه أبدا على مرأى من أحد .

الشيخ دياب الصعيدي تاجر الورق أخبر عنه فقال : إنه كان مقيما في بلد
قصى بالريف ، عندما جاءه الهاتف يوما ، أمره بالنهوض لتوه .. بالمضى إلى
سيدنا الحسين ، ألا يعمل إلا بصناعة المفاتيح ، فلما حاروا اضطرب وردد بينه
وبين نفسه ، خلقتهم مبصرين ، وخلقتنى ضريرا ، كرر الهاتف أمره فقام من
ساعته قاصدا الضريح ، ولزم هذه الحارة المادنة ، حيث لا تمر عجلات أو
دواب ، ولا تنأى عن الثوى والمرقد ، بجواره صندوق من حديد ، حوله
سلاسل تتنظم بها عشرات المفاتيح ، مفاتيح حقائب صغيرة ، أبواب ، مفاتيح
ضخمة لأقفال لم يعد لها وجود ، أخرى تمت إلى عصور بعيدة ، مفاتيح

دقيقة ، صغيرة لعلب حلى أو ماشابه ، إنه غليظ اليدين حتى ليظن الرائي أن بهما ، يمسك المفتاح المطلوب صنع مثيل له ، يتحسس انحناءاته ، استداراته ، أسنان المفتاح تذكره بالمفاتيح المنتظمة حول الحلقة ، فإذا تضمنت ما شابه أمسك الحلقة ، هزها مرتين ويسحب المفتاح المائل بدون عناء أو حيرة . أما إذا لم يكن لديه فتبداً يده العمل ، لا يغير من وضعه ، لا يغير اتجاه عينيه إلى أعلى ، يصف أمامه مبارد شتى ، مبرد نحيل ، آخر عريض : ثالث كالابرة ، يتناول كلا بترتيب ، فى دقائق يفرغ ! .

قال الشيخ دياب إنه معمر ، أدرك هوجة عرابي وأن منظره لا يوحى أبداً بحقيقة عمره ، يحفظ القرآن ، ويتقن القراءات السبع ، صوته يسمع عند باب النصر إذا رتل القرآن عند الفجر ، وتلك مسافة نائية ، لكن لأمر غير معروف كف ، لا ييتسم ، غير أنه رضى مرتين ييكى ، ينهر الدمع من فجوق عينيه الخريتين ، وكان ذلك إثر زيارتين لرجل هندي يقيم فى فندق الكلوب ، ولم يعرف أحد ما جرى بينهما .

يتجلى دليلى هنا .

«ولن تعرف أنت ...» .

أقول :

«لماذا يا من تغيب عني ...» ! .

ينجربنى :

«ليس كل ما يراه المرء يدركه ...» .

ثم يقول :

«اعلم أن الجهة الجنوبية عزيزة ، غالية ، فيها ولد أصلك ، وإليها رحل

لكن لا تظن أنك باق فيها أبداً ...» .

فسأقول : أنا معك بكليتي ، ليس عندي غيرك ، وإني لصادق ، فإن من أثر
فيك ومربك فإنه يعطيك من الأسرار والخواص بعضها مما عنده ، لذا كان
اهتمامي ، وهذا يسرى على من جرى لقاءهم صدقة ، فما البال بمن عايشناهم
وكانوا إلينا أقرب من جبل الوريد؟ » .

الجهة الشرقية
وَيَكُلُّ وَجْهٌ مِّنْ مَّوَلِيَّهَا»

(قرآن کرم)

.. الشرق مطلق ، والغرب مطلق ، أما الجنوب والشمال فنسيان . نقول الشرق لطلوع الشمس منه ، كذا الغرب لغيابها عنده ، أما ما هو جنوبي عندي قد يكون شماليا عند غيري .

للشرق الطلوع ، ومسرى الدفء ، والانتظار ، تلد الشمس منها وإلى دنيانا نجيء كل يوم ، عندها يلوح الطريق إلى الأدنى والطريق إلى الأعلى ، إلى المكانة الزلنى ، إلى المستوى الأزهى ، إلى الذروة الأسمى ، إلى حيث الأشياء التي لا تقال ، ولا يصرح بإدراكها بشر ، إليها وليت وجهي .

هكذا أدرت ظهرى لفراغ السطح ، واستقبلت الأفق الممتد حيث تلوح تلال المقطم ، والمآذن مجهولة الهوية عندي ، والقباب المتباعدة وأبراج الحمام ، والسطح المجاور ، الحق أنها سطحان : الأول منخفض ، والآخر فى نفس المستوى ، المنخفض بيت محمود اللبان ، أسرة كل أبنائها بيض البشرة ، مستديرو الوجوة ثقيلو الأوزان ، أطواهم متساوية ، أشهرهم فى أخرس ، كان يطل من نافذة البيت المفتوحة ، المظلة على حارة الطبلوى ويطلق زعقات غير مفهومة ، النساء يتطلعن إليه عابثات ، ملوحات بأيديهن ، ولأنه لا يمكنه النزول إلى الحارة .. فدخل البيت من ناحية قصر الشوق ، لذا تجرأ عليه

الصبية ، نادوه بقييح الألفاظ ، لوحوا له بفاحش الحركات ، جاوهم بمثلها
وبصرخات متتابعة تزايد حتى تشبه العواء ، عندئذ يدرك الصغار خوفا غامضا
فيختبئون بعيدا ، ثم ينقطع حسهم من الطريق .

يعود إلى صمته ، تبقى اطلالته الثقيلة مهيمنة ، غامضة إن الليل يعقب
النهار ، والعممة تذيب ملامح الجهة الشرقية ، غير أنني أبصر فأرى ، هؤلاء
رجال سمر الوجوه ، كلويات ضخمة للاضياء ، أوعية نحاسية ، ينشطون ،
يقطعون كميات كبيرة من البصل ، ذبائح كاملة ، مرق حمرة داكنة تصل
رأسته إلى أنقى ، أصابع كفته ضخمة وحلوى مستديرة ، بيضاء تترجرج عند
حملها ، تقول الأم : ألاماظة ، تلتفت إلى ، تطلب مني الدخول ، شفقة على
من رؤية طعام لا قبل لنا به ، إنه عرس ، عرس من ؟ لا أدري ، لكنه من
الأفراح التي تحدث الناس عنها زمنا طويلا ، هذا ما قاله الأب ، غير أنه قال
أين هذا من الفرح الذي أقامته عائلة صبح منذ خمسة عشر عاما ، غنى عبد
الوهاب ثلاث ليال ، وقيت الموائد منصوبة أسبوعا تقدم الطعام لكل عابر أو
غريب أو زائر .

أبدأ بالطلّة ، فأقول إن هذه الجهة عندى هي المؤدية ، فلكي يخرج الأب
إلى عمله يتجه إليها ، ولكي يتم الذهاب من الضيق أى الحارة إلى السعة حيث
الميدان فلا بد من سلوكها ، إنها جهة الذهاب ، منها يكون الرواح ، الهجىء منها
أيضا ، لكنها ارتبطت عند أصلى بالسعى ، بالشروع ، بالاقلاع .

أرى ظلال أبي في شارع المشهد الحسينى ، عند سفره ، عند عودته
مصطحبا جدنى أو خالى بعد وصولها من البلدة ، عند خروجه لتدبير قروش قليلة
ليتم بها القوت ، أرى ظلال خروج الأم ، تصحب الأب لزيارة ضريح
الحبيب أو تتوجه إلى مثنى شقيقته السيدة زينب ، أو السيدة نفيسة ، سيدى

زين العابدين ، ذلك هو الوقت الذى تبدل فيه واقعها اليومى وتشم الهواء ، وتعطر أنفها بروحها بعق الأولياء وآل البيت الكرام ، أراها عند خروجها لزيارة أقارب يسكنون قرب القلعة أو مصر القديمة ، أرى ظلها ، تسمى بمفردها بعد أن عرفت المسالك والدروب ، وانتفت عنها الحشية ، تعبر الميدان فشانخ الأزهر حتى مدخل الباطنية تشتري من جزار بيع اللحم بسعر أقل ، أما الخضر فتأتى بها من بائعة جنوية تقعد فى حارة أم الغلام ، تتعاطف معها وتحن عليها لسبب غامض ، ربما قرب الشبه بينها وبين والدتها النائية عنها .

أرى فتاة سمراء ، طويلة ، واسعة العينين ، ترتدى جلبابا منقوشا بورود كبيرة ، لم يكن أصلى على نقعة من اسمها ، لكنه لسبب ما ايقن أنها فاطمة ، غير أنه كان يهرب مظهرها ، كان ينشأها ، وكلما ظهرت فوق السطح المجاور تراجع حتى يختفى عن نظرها ، سمع الأم تقول مرة - وإياها تعنى - مسكينة . حظها وحش ، تزوجت عبده الساعاى لكنها طلقت بعد أيام ثلاثة ، تقول الأم : يبدو أنه ليس رجلا ! ! لماذا كان يخاف فاطمة ؟ ، لا يدري ، وان حاولت من جانبي أن أعلل ، هذا السطح كان من النادر ظهور إنسان فوقه ، كان بلا سور يحيطه أو يحده ، الحركة فوقه خطر ، وزمان قليل إن لصا مشى فوقه ليلا فسقط عند الحافة ، كان جاهلا به ، ربما عد ظهور فاطمة خرقا للعادة .

مرة واحدة أرى الأم تتخطى سور السطح ، تعبر إلى هذا البيت لترور امرأة كانت تخط لها جلبابا ، امرأة لها علاقة بفاطمة هذه ، هل عبرت الأم أم لا ؟ ، ما من شيء يقينى ، فالروى عاثمة ، والذاكرة التى ورثتها وانتقلت محتوياتها عندي مثقلة ، مرهقة بما هو كثير ، ما أتق منه أن أبو غزالة جاء من هذا السطح .. تتخطى السور ، وقف يتحدث إلى الأب ، راح أصلى يرقبه من مسافة ، نحيل ، طويل ، رأسه مستطيل ، شفته غليظتان ، السفلى تبدو كأنها

مقلوبة إلى الخارج ، إلى أسفل ، عيناه مستطيلتان أيضا ، أصلع ، أضنى ذلك عليه حضورا غريبا ، لاشك أنه أثار رهبة أصلى .

جاء أبو غزالة وتحدث إلى الأب حول تركيب مصباح كهربائي في الغرفة ، وقتئذ كان متخصصا في سرقة التيار الكهربائي من مصادره الحكومية ومن وسائل أخرى لم يفصح عنها ، يمد سلكا يجتهد في إخفائه حتى لا تقع عليه العيون ، ينتهى فى المكان المتفق على إضاءته أو مد التيار إليه ، كانت الأم تضىء مع اقتراب الليل مصباحا غازيا ، نوره ضعيف ، بجهد للعيون ، غير أن الأب وأبو غزالة لم يتفقا ، لم يتوصلا إلى سعر يرضى الطرفين ، سعر لتركيب المصباح ، وآخر لضمان استمراره يتقاضاه أول كل شهر .

عبر أبو غزالة السور عائدا من حيث أتى ، لم يظهر فوق السطح ، غير أن أصلى رآه مرات شتى عبر السنوات التالية ، رآه يعبر شارع الجالية حاملا فوق كتفه أجرة قديمة ، فارغة من الخيش ، يسعى من جهة إلى جهة ، مرة أخرى رآه صباح عيد الأضحى يحول الحارات ممسكا سكيناً وسيخاً حديدياً قصيرا ، كان ينادى معلنا استعداداه للذبح الأضحية مقابل الحصول على فرائها ، ثم رآه عصر يوم يقعد مهموما عند المدخل الشمالى لضريح الإمام الشهيد ، وفى كل هذه المرات كان يتجاوز الحاضر إلى هذه اللحظة المتقضية ، المندثرة ، لحظة وقوفه فوق السطح ، حواراه مع الأب ، مهتة الغربة وقتئذ ، بعد أن رآه فى التلفزيون لم تقع عيناه عليه أبدا .

حدث أن مضى أصلى للفرجة على أول قصة كتبها عند تحويلها إلى تمثيلية ، وكان عنوانها «أيام الرعب» وعند جلوسه للراحة فوجئ بأبى غزالة يمر أمامه ، كان يظهر لمدة ثانية أو أقل ، يعبر طريقا صغيرا ، ضيقا ، لا يغير من تعابير وجهه أو نظرة عينيه ، تثير هيئته الغامضة تلك الخوف فى قلب شاب مطارد ، بعد

التصوير فوجئ أصلى به يقترب منه ، يقول متوددا ، ألسنت أنت فلان ابن فلان ؟ فيومئى أصلى ، عندئذ رجاء أبو غزالة أن يتحدث إلى المخرج حتى يستعين به فى تمثيلات أخرى ، قال شاكيا : تصور يا جمال بك أنتى أجيء مرة واحدة فى الشهر مقابل جنبيين .. ، ثم صمت ، واستدار مبتعدا ، لم يره بعد ذلك أبدا ، لافى حوارى الجمالية أو غيرها

إلى الشرق يقوم بيت أحمر الطلاء ، ثلاثة طوابق ، إنه بيت الدواباتى الحانوتى ، قال الأب يوما إنه من يجهز موتى قصر الشوق والكفر ، للموت خشية ، إذ تقع عيناه على البيت يحيد نظره بسرعة ، يظن أن الدواباتى يحتفظ بالموتى فى بيته ، لو كشف هذا الجدار لرأى أكداسا مخفية ، مفزعة ، كثيرا ما استلقى الأب على ظهره فى ساعات صفوه ، يقص القصص ، يذكر النوادر والأخبار ، مما قاله عصر يوم مجهول ، إن ملاك الموت عزرائيل كان يحمى ظاهرا لمن سيقبض روحه ، وأن ظهوره يثير فزعة ورجفة ، وظل الحال على ما هو عليه حتى أسرى بأشرف الخلق أجمعين ، فرجا الخالق - بين مارجا - ألا يظهر ملاك الموت عزرائيل إلا لمن دنا أجله لا غير ، ألا يراه المحيطون به ، فاستجاب البارئ لحبيبه وصفيه . قال الأب إن عزرائيل يمر بكل بيت أو مكان فيه بشر خمس مرات يوميا ، يراجع المصائر .

أرى عروق الخشب التى تسند الأسقف فى بيت الدواباتى بارزة نهاياتها من خلال الجدران ، لذا أمكن تحديد الطوابق ، أين تبدأ ؟ أين تنتهى ؟ ، على الرغم من خلو الجدار الخلقى من النوافذ ، أولى وجهى بسرعة ، إنتى لا أولى وجهى إلا حيثما مد أصلى النظر . غير أن ما أثار حننى من حيث أنى أصل وصورة معا ، وقفة الأم عند هذه الجهة ، إذ تفرغ من قضاء حاجة البيت ، تفرغ إلى وقتها وتلج صمتها ، تنفرد بعنصر وحدها ، تمشى بجوار السور ، يدها

تلامسه أثناء الحركة ، تغطي رأسها بطرحة بيضاء ، في الموضع عينه تتوقف ، تنظر إلى الشرق البعيد ، إلى الأفق الذى تجهل ما فيه ، تعرف أن اتجاه قبلة الصلاة قريب من اتجاه جبهة فتحدت مشاعرها بالختين إلى البلدة ، إلى أمها ، إلى شقيقها الوحيد ، إلى الموضع الذى غاب منه أبوها ، أما التطلع إلى الجهة الشرقية فيحرك عندها أحاسيس كامنة لا يمكنها تحديدها أو تعيينها .

تنظر إلى البيوت المنخفضة .. إلى غسيل منشور ، إلى امرأة تخرج من غرفة فوق سطح ، إلى طفل يومئ ، إلى أطراف شجرة بازغة بين البيوت ، إلى غيات الحمام . هذه الجهة مزروعة بغيات الحمام ، إنها تعرف كل غية وما تحوى من كثافة الأسراب المنطلقة منها ، إنها تركز على غية بعينها ، قائمة على أربعة أعمدة نخيلة جدا كما تبدو من هنا .

في لحظات معينة يحول ضوء دون رؤية ملاحظها ، تبدو الغية كصندوق ضخم معلق في الفراغ ، في العصر ترى سلما خشبيا يسند ، يبدأ شاب في صعوده متمهلا بعلينا ، تتخلله نقلات حادة ، مع توالى الأيام تدرك أنه قعيد ، مشلول الساق ، ترق لحاله ، وإذ يستوى جالسا داخل الغية يبدأ التلويع برباياته الحمراء ، إن صفيره منغم ، خص به سره فاعتاد عليه الحمام يليه حتى لو نأى وابتعد ، تتابع ارتفاعه الذى يبدو لانهايا حتى نقطة قصية ، ثم ارتداده السريع ، دوراته المفاجئة ، اقترابه من أسطح البيوت ، اختفاؤه خلف مبنى مرتفع ناحية الجبل ، يمد الشاب الراية الحمراء ملوحا ، يتصل صفيره مناديا ، يظهر السرب مرة أخرى ، إنها ترقب اقتراب الأسراب من بعضها ، تتلامس حمامات هذا بذلك ، إذا انتقل بعضها من سرب إلى سرب حتى ذلك لصاحب الغية ، لا حرج ولا شكوى ، أو عتب ، تدعو الأم ألا ينقص طائر واحد من طيور هذا الشاب المقعد الذى تشفق عليه عبر الفراغات الفاصلة ، ترق لحاله

من بعيد ، إذ يقترب المغيب ويتزل رداء رقيق من ضوء رمادى مضافا على زرقه السماء فراغا غير مرئى ولا نهائية موحشة تنبئ بالليل القادم ، هنا يدركها شجى ، تفقد الأصراب المحمومة تهمس :
« مع السلامة بإحلام الغيبة ، أشوفك تانى .. » .

تداعى إليها يمامة الظهيرة التى نجبها عند انفرادها بحالها ، وهذه حمامة ادركها أصلى ، وأثارت عنده الكوامن ، وقد جرى ذلك فى مقام الحزن ، ودون بلسان أصلى ، له الرجعى ، ولى العودة إلى ما كنت عليه ، فالزمن ليس زمنى ، والموجودات لا تخصنى ، والصحب غير صحبى ، الغربة محيطة والوحدة جاثمة ، إلا أنى لا أخفى ميلا بدأ عندى ، ميل يخصنى تجاه أم أصلى كذا أبيه ، يمكننى تحديد لحظة بدئه ، تجاه الأب ، إنها لحظة من لحظات عودته إلى البيت ، يحمل قرطاسا فيه طعام ، وأرغفة خبز ، رأيت فى خطوه ، ملامحه ، حدود هيئته ، الأب ، الأب الذى يسعى ، أما ميل تجاه الأم فبدأ مع وقفها هذه متطلعة إلى الجهة الشرقية .

تمكن منى فيض عينيها من حنين وتوق وقدرة على مغالبة الظروف ومعان لا يسعى الإفصاح عنها لأنها من المجردات لنا .. لا تقال ، لو قيلت لدخلت فى المواد كما سبق أن صرحت .

فيا من تنظر أو تتطلع أو تولى وجهك إلى جهة مشرق الشمس ، حد الطلوع ومنبته ، يا من يقدر لك الوقوف عند هذه النقطة المادية التى مصيرها إلى زوال ، ليتك تدرك معنى وديمومة وعمق ورقة وحنو هذه الطللات الأوموية التى حركت عندى الميل ، وأينعت أحاسيس البنية لهذه الأم ، وإن لم تبدد غربتى ، ليتك .. غيرك أيها الناظر لن تغف أبدا على هذا المعنى الحنون من تلك الحدقتين السمحتين الإنسانيتين ، لم تفيض بكراهية مخلوق ، أقول هذا عن ثقة عملاقى .

هاتان عينان ولتا إلى مجهول ، انطفأتا ، انقضتا ، قفلت صاحبتها عن الحياة الدنيا ، موثق أنا أنه لن يعرفها أحد ، أن مصيرها إلى محو أتم عند من خرجوا من رحمها ، فالأحفاد أتى لهم أن يدركوا هذه الطلة الغروية وماحوت أو تلك الخفقة القلبية لحظة ظهور يمام الظهيرة ، أو هذه القعدة التي أفضت عندها .

الحق أن أم أصلى هذه كانت بداية صلحي مع العالم الأرضي الذي جثته غصبا ، محكوما بقدر مسبق لن أتعجل ، يقول الخالق الباري : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » أما الآن فإني أمعن النظر إلى الشرق ، أرى مطلع الشمس ، وظلال القبور عند سفح الجبل ، وأضربة قايتباي وبرقوق وبرسباي والخلفاء ، فسبحان من جمع بين الموت والميلاد في جهة واحدة .

صحراء قايتباي عند أصلى في سنيته الأولى تغني الأبدية ، حافة المعمور ، الرمال ، الوحشة ، قبور الراحلين وخلايا الدراويش ، لكم حملق إلى المثلثة النحيلة الرشقة كأنثى ، الضاربة في الفراغ بهلال يعلو جوسقا دائريا ، يتساءل : ماذا هناك ؟ ماذا في قايتباي ؟.

عصر يوم بعيد صحب الأب جمال وشقيقه اسماعيل ، إنه احتفال رسمي بالمولد النبوي ، في صحراء الدراسة تقيم كل وزارة سرادقا كبيرا ، مهيبا ، إنه سرادق وزارة الزراعة ، مقاعد مذهبة ، مقاعد من الخيزران ، مقاعد مرتفعة تصدر الواجهة ، مذهبة ، مكسوة بقطيفة خضراء .

عند المدخل أوعية ضخمة من نحاس ، حولها طاسات ، رجال سود يرتدون قفاطين بيضاء ، حول خصورهم أحزمة عريضة خضراء ، يقدمون عصير الليمون للوافدين ، نصفي إلى التلاوة خاشعين ، نتطلع مبهورين إلى عربة

مطهمة تجرها خيول ستة ، لقد وصل عظيم ، أرى دخانا يتصاعد عصر كل يوم ، كثيفا ، سائلا ، يبق لحظات عالقا ثم يتبدد . أرى طائرة منخفضة تبيء من الشرق إلى الغرب ، عند حد معين فوق صحراء العباسية تزرع خلفها على خط مستقيم نتما صغيرة ، تنتفخ أثناء نزولها حتى يكتمل تفتحها ، تغيب بعد لحظات ، استفسر أصلى ، ممن ؟ لا أدرى ، لكنه علم أنهم جنود مظلات . هنا تجلى لى ابن عبد الناصر ، كان مبتسما ، ودودا ، شرعت فى عناقه غير أنى أحجمت ، نظر إلى ، عرفت أن هذه اللحظة بالذات شهدها هو ، رأيتها أنا من فوق السطح ، ورآها هو من فوق منصة خشبية أرضية ، إنها الدفعة الأولى من جنود جدد ، قوة جديدة قدر لأصلى بعد سنوات عديدة أن يصحب فصيلا منهم ، أن يطير معهم صوب منطقة من سماء الصحراء الغربية ، أن يرى لحظة فتح الباب الخلقى للطائرة ، واختفاء الجند واحدا اثر الآخر فى الفراغ المعتم ، بما أدهشنى أن هذه اللحظة لم ترد على ذهن أصلى عند صعوده الطائرة مع الرجال أو عند بدء تخليقها ، فما أعجب ذلك ! .

حدث صاحبه الشهيد يوما فقال : بعد قفزى بالمظلة أول مرة ، واثرتزولى إلى شوارع المدينة مشيت واثقا ، وعندى رغبة المجاهرة بما قت به ، وعندى ثقة لا حد لها ، أرى صدر الشهيد سليما لم يمسه أذى ، أته الشظية من خلف ، نفذت إلى القلب عبر الضلوع من الظهر ، أمضى ، أطوى مسافات متداخلة ، يلوح لى هذا الملعب ، وتلك المناسبة ، افتتاح نادى الجالية الرياضى ، ساحة مفروشة بالرمال ، خطوط بالجير تحدد وتؤطر ، مدرجات تزدحم بالخلق ، باللونات مثبتة إلى الأرض ، منصة بعيدة عن موضعنا ، محاطة بقماش السراقات ، لافتات معلقة لا يمكننى قراءة العبارات ، المدى بعيد غير أنى أرى ضباطا يصلون فيلدى تصفيق ، وترتفع هتافات ، ابن عبد الناصر يتوسط

الداخلين ، يقول أحد الجالسين بجوارى :

« سيزرعون تلال الدراسة أشجاراً ... » .

أستعيد وقفة روحية جارتنا إذ تتابع طائرات محلقة ظهر الثالث والعشرين من يوليو ، تقول ،

« الجيش سيرخص الأسعار ، ويحمل ركوب الترام بالجان » .

يعدو الفرسان من أول الملعب إلى آخره ، يميلون بأجسادهم حتى أظن أنهم على وشك السقوط ، يفرقعون البالونات المثبتة إلى الأرض ، يقف ابن عبد الناصر ، يعلو صوته ، إنه طويل ، باسق ، أسمعته يتحدث لكن من زمن آخر ، ليس من هذه المناسبة ، إنما من لحظات شتى ، متباعدة ، متفرقة ، الوقفة في مكان ، والصوت آت من زمان مغاير ، فصل لى بين ما لا يفصل ، فما أجل ذلك ، يغمرنى انفعال وتأخلى رعدات ، أين دليل ومرشدى ، إنما أنا فى حاجة إلى شرح وتفصيل ، أين ابن عبد الناصر الذى تجل لى منذ لحظات هينة ، لم يجبنى مرشدى ، إنما بدأ تردد واهن بعيد يتلوفى مسامى شعرا نظمه ابن جاهين الشاعر ، فأصغيت :

وقف الشريط فى وضع ثابت

دلوقت نقدر نفحص المنظر

مفيش ولا تفصيلة غابت

وكل شىء بيقول ويبعبر

من غير كلام ولا صوت

أول ما ضغط الموت

بجفة وجبروت فى يوم ؟

على زر في الملكوت
وقف الشريط في وضع ثابت

* * *

دلوقت نقدر نفحص الصورة
انظر تلاقى الراية منشورة
متمزعة لكن ما زالت فوق
بتصارع الريح الى مسعورة
وانظر تلاقى جبال
رافعها باستبسال
وتزيف عرق سيال على القورة
وف عنفوان النضال
وقف الشريط في وضع ثابت

* * *

لم ارتو ، لم أهدأ ، فزادنى ..
وحشتنا نظرة عيونك للبلد يا جمال
والحزم والعزم فيها وحبا المكنون
وحشتنا عبسة جبينك وأنت بتفكر
ونيرتك وأنت بتعلمنا وتفسر
بسمه الود لما تواجه الملايين
وقبضة اليد لما تدق ع المنبر

* * *

قبضتى أنا تلقى ، يلى تلوح ، إنه يتكلم محندا ، بينا ملاهى أنا هى التى
تعبر ، تصفيق يقاطعه بين حين وحين ، ورجل يرتدى جلبابا أبيض وطاقية
بيضاء يقف قريبا ، لا أسمع ما يقول ، فنظرى محقق بلحظة مغايرة حط
عندها رحله ، أتزود بمعارف شتى ، تلك مكتبة ضخمة ، جدرانها مرتفعة
مغطاة بالكتب ، مجلدات مختلفة أشكالها وأحجامها ، أصلى يقف فى القاعة
الفسحة وحيدا ، يقلب صحفا عتيقة ، يتوقف عند عنوان رئيسى مأخوذ عن
خطاب ألقاه ابن عبد الناصر فى افتتاح نادى الجمالية الرياضى ، إنه يسمعن ،
يدقق ، يحاول استعادة الملامح والمعانى ، يخلق فى صور الاحتفال ،
المدرجات المزدهمة ، لا تبدو الملامح فيها ، سمى هنا ، ملامح الوالد
واسماعيل منبثة ، غير أنها مندخنة ، ناثية فى المنظر .

عند هذا الحد شعرت بظل على مقربة منى ، تجاه الحد الشرقى ، تلاشت
جدران المكتبة وتبددت المجلدات ، ها هو ذا ابن عبد الناصر ، اطلع إليه
وأنا ملهم ، كمن اشتاق زمنا لرؤية من أحب ، حتى إذا لقيه أمامه فجأة بدون
تمهيد ، لزم السكينة ، نزل عليه صمت ، أخفى أثار الشوق .

تعلم أصلى من أمه ألا يظهر عواطفه ، ألا ييوح بها بسهولة ، كلما بعدت البذرة
فى عمق التربة ، ازدادت متانة الجذع ، وندرت الثمرة ، غير أننى لم أسكت عن
شجى وتأثر ، إنما لعتاب أيضا أضمرته فى قرارى ، ألم يسجن أصلى فى زمنه ؟ ،
ألم يوقع قرار فصله بنفسه ، ولم يكن وقتئذ إلا موظفا صغيرا ، وعندما اطلع الوالد
الكرام على امضائه غشى عليه ، أيقن أن جرم ولده شنيع ، ثم .. من أين له
بتوقيع مماثل يعيده إلى مصدر رزقه ؟ .

أطلع إليه :

« انظر .. من ذرف الدمع عليك ، انظر .. من حفظ عهدك ؟ » .

« يقول متأسيا :

« لم تحل النية من فتى ، وكان الرق عين الفتى .. » .
« لا يكف :

« من بددت شملهم ، عانوا من أجلك ما عانوا بعذك .. » .
يقول :

« الرضا بالحال عين الموت » .

لاح عنده غم ، لم أعيا ، إنما تأهبت كى أوصل بينا يميل بوجهه إلى ،
تلك فزة طالما استعادها أصلى بعد غيبته ، وهنا ، فى هذه اللحظة التى
يصعب تعيينها أوتيت من حيث لا أدرى بكتاب قيل لى إن الراحل ابن عبد
الناصر ألفه فى البرزخ الأبدى بعد غيابه النهائى عن البعوض ، وأن فى هذا
الكتاب شرحا وتفصيلا ووصية ، وتفسيرا لأمر جمّة طال غموضها ،
وتنادى إبهامها ، أما لغته ورموزه ومعانيه فلا يدركها إلا من قطع مسافة
شاسعة فى الطريق .

قيل لى : ففى الكتاب واقرأه بعد فراغك مما أنت فيه ، ولا تصرح
بمضمونه إلا بعد إذن ، لا تسرف .. لا تفرط ، لا تبدل القول . قيل لى ،
أيها النائى ، المغترب ، لا تنس ذاتك ، انتبه إلى غيك ، اذكدت تتناول
على من تعلق به أبوك وأمثاله من المستضعفين ، فى محاورتك معه غلظة ، هل
تجرات على من تجلى لك من السادة . المجاهدين مثلاً تجرات عليه ؟ هل
خاطبتهم بمثل ما خاطبته ؟ انتبه ولا تغفل .

قيل لى : لا لترعم أنك فى الأسفار والمواقف والمقامات كنت شخصا
وأنت الآن فى الأحوال شخص آخر .

قيل لى : ما أنت إلا واحد . واصغ إلى هذه المروية ..

قيل لى : إن رجلا حلف الأيمان المغلظة ان العارف بالله الطشطوشى بات عنده ليلة كذا ، فحلف صاحب له أنه بات عنده نفس الليلة فاختلعا ، فاحتكما إلى صديق ثالث ، قال لهما ، الشيخ لم يبت عندك أو عنده ، لكنه بات عندى فى هذه الليلة ، وأقسم ، فأرسلوا إلى الشيخ الطشطوشى ليعرفوا الحقيقة منه ، وليعلموا من حنث فى عيینه ؟ فقال :

« لو أن أربعة قالوا أنتى بت عندهم لصدقوا كلهم .. » فما حنث واحد منهم قط ..

قيل لى : كن حشما ، اغمض ..

قيل لى : اعمل الصحبة الجميلة ، واظهر الود ..

قيل لى : الطريق وعمر ، والمفازة موحشة ..

قيل لى : ما تجزع منه اليوم ، قد تأنس به غدا ..

قلت : إنى معه بقلبي ، ولكن للمحاسبة أوان ..

قلت : كيف أصبر على ما أمر أصلى وأرسى كدوراته .. ؟

قلت : من يعيد مسلوياى أصلى ، من صور وكراسات وأيام محاطة ؟

قلت : من وأد الأحلام الكبرى ؟

قيل لى : لا تكن جهولا ، تعلم أن الظرف غلب ، وأن الأمر نفذ ، وأنه واجه ما لا طاقة له به ..

قلت : لو أن البنية سليمة ..

قيل لى : لو أن .. تفتح عمل المساوى فانتبه .

قيل لى : إن زمنك محيط بك ، ومن أحاط بك فقد أطبق عليك ..

قيل لى : ليس لك منفذ مع وجود الاحاطة ..

قيل لى : لا تنس أن الإنسان حيثا كان ما يزال صاحب فوت ، لأن

الأمر لا يتناهى وما تذكره عن خلقك الأول فى الفئات المستأنف ، والفئات فى الماضى ، فإنه لا يرجع ، إذا لو رجع لتكرر.. وما فى الوجود تكرار أصلاً ، وأنت لا يستعاد لك ما انقضى ، إنما تسرى سريان الماء فى الماء ، واللون فى المتلون ، فاطلع على ما أنت كائن ..

قيل لى : اعلم أنه لا بد لكل مجتمع من افتراق ، ولكل دان من تناء .
قيل لى : أنت وأصلك شىء واحد ، والشىء لا يضاف إلى نفسه ، لأن الإضافة لا تكون إلا بين مضاف ومضاف إليه ، فالك تضييق ؟ ، مالك تتململ ؟ .

قيل لى : إن العالم مربوط ببعضه البعض ، فلم تثبت سنبلة إلا عن زارع وأرض ومطر. عند هذا الحد ، أشهرت المجادلة ، أبطلت الانصياع ، أبطلت المطاوعة ، فنشأ خطر ، إذ تهدد مضى واستمرارى ، والكف سكون ، والسكون موت ، وهنا أطل على فى سماء رحلى ، نجم هذا الوجود وسر أنسه ، بهى الطلعة ، سيد شباب الأولى والآخرة ، من اغتيل بعد ظمأ ، صاحب الولاية على بحق وجودى القديم ، وبؤرة وجودى المحدث ، أطل فأملت خيراً ، وحقق عندى ففهمت أموراً جملة ليست مباحة ولا ينبغي تدوينها ، مصانة فى المحظورات ، المحجوبات ، يكف فلا أكف ، يبطل الالتقاء فلا أنه التلق ، يرد على سؤاله بدون نطق :

« إلى متى التوقف والرحيل مستمر... » .

أقول :

« يا نور الأحبة ، يا من ظننت أن عهدى انقطع به ، يا حسنى ، من يرحل تمشى به السفينة وهو قاعد... » .

يبتسم ، يترقق ما بخاطرى وهو جليل ، يقول لى :

جهاتك أصلك ، فارحل ... » .
أشير إلى مطلع الشمس ، أقول :
« لم أتم بعد ... » .
يهر رأسه يمينا وشمالا ، أقول :
« سمعا وطاعة ... » .
أمضى مستعيذا بالله من الضلال ، أسأله الحياطة ، واطابة أحيارى ! .

الجهة الشمالية

.. جثتها وأنا حي ، خجل ، مع أن ظهور الحبيب تدانى ، غير أننى استكثرتة
على ، والمعروف أنه لا عذاب على النفوس أعظم من الحياء حتى يود صاحبه
ان لم يكن شيئا ، كما قالت الكاملة ، المكلمة « يا ليتنى مت قبل هذا ، وكنت
نسيا منسيا » .

قال من ييده أمرى « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وإننى لأحمده
وأسبح بفضلله إذ جعلنى من أدنى القليلين الذين يعلمون .. هذا فى قديمى ،
وأبدى العذر إذ أقول : إننى حتى لحظة استقبالى هذه الجهة لم أتوحد ، لم
أصبح أنا هو . فجال الذى جث بدىلا له عنده خلجات أجهلها وأحاسيس
لم تراودنى أبدا ، وتجهم فى غير محله أنا فى غنى عنه ، ورضا زائد عن الحد
أستنكره ، وخطايا لا ذنب لى فى تحمل تبعاتها ، واختيارات لم أشرع فى
التوجه إليها ، ومعارك لا أرغب فى خوضها .

صحيح أن ميلا هفا على إلى الأم مبعثه انسانية حضورها ، وشفافية
وجودها ، وغربتها فى هذا الكون ، وتحملها المقادير بجلد ، كذا حين الأب

جهاده القديم والمحدث ، لكننى لست ابنها ، ما أنا إلا قائم بأمره ، أنا لست هو ، لست على نفسى بمسيطر . أما الصحبة والرفقة فليست خيارأتى ، من شرط الصحبة الموافقة ، وأنا لست على وفاق ، قيل لى ، الرضا بالحال عين الموت ، وإنى يا سادة ، يا أياما لم أعشها وينبغى لى أن أشهدھا ، يا ليلالى قدر لى أن أستظل بنجومھا ، يا أفلاكا قدر لى أن أدور وتدور بى ، يا أفقا أضنانى الوقوف عند حده أو على رأى منه ، إنى غير قانع ، غير مقتنع ، أقول هذا وحبك يا حسنى أذرته ولو عندى خصاصة ..

أتطلع إلى الجهة الشمالية حيث تلوح طرق شقى ، من جهات أدنى إلى جهات أعلى ، من مكانة زلنى إلى مستوى أزھى ، إلى حيث ما لا يقال ، لم أرفى البداية شيئا ، لم تلح لى شذرة ، ثم أدركت الأمر ، فثمة ما تبقى لى رؤيته من الجهة الشرقية ، لكننى لن أراه كما ينبغى لى رؤيته ، فالأعلى سآراھا أسافل ، والأول آخرا ، هذا فناء خرب ، قام فوقه قديما بيت جميل وسط حديقة فيها بئر عذبة لذة للشاريين ، نوافذه من دقيق الخشب المشغول البطن بزجاج ملون ، أقام به شيخ جليل من مشايخ الأزھر ، تترك به أهالى قصر الشوق وتيمنوا ، تحدث الأب عنه ، عن بلدته فى أقصى الصعيد ، عن وقفاته ومما روى عنه أنه قدم للمحاكمة إثر انكسار هوجة عرايى وخمود حركته ونفيه غريبا عن موطنه ، قدم الشيخ إلى المحاكمة ، وعندما دخل على قضائه بسط هيئته حتى على آسريه الانجليز ، ولما سأله القاضى البريطانى :

« هل وقعت عريضة تطالب فيها بعزل الخديو ؟ » .

تطلع إليه القوم ، ما الذى يمكن أن يجيب به شيخ هرم عجوز ، خاصة بعد تساقط من هم أشد منه بعد انكسار عرايى تلك الكسرة المهولة . نزل صمت مهيب ، قال الشيخ :

«لا .. لم أوقع ..» .

إجابة مستظرة من المتعلمين ، المحملين ، غير أنه لم يكن قد أتم كلامه ..
قال مواصلا ما بدأه :
«لكننى لو أحضرتكم الآن عريضة تطالب بخلعه ما ترددت . سأوقعها
فورا ..» .

نزل على القاعة بهت . كان الأب يردد عبارة الشيخ الأخيرة بطرق شتى
حتى أنه كان يعتدل لينطقها إذا كان متمددا ، أو يقف متصببا ، ليقولها إذا
كان قاعدا . أحيانا وأثناء مشيه يتوقف فجأة ، يمد يده ، يلفظ العبارة بصوت
منهم مرتفع ، هذا من طبعه ، أصغى إليه جمال مرارا ، يصف خروج الشيخ
منفيا إلى الصعيد، وداع أبناء الناحية له ، لم يدخل بيته مرة ثانية ، بقى فى إقليم
المنيا حتى وافته كنيته ، خرب البيت ، نبت الهيش والأذى فى حدائقه ،
مالت جذرانه ، هبط سقفه ، وفى زمن أصلى لم يكن قد تبقى منه إلا بقايا
أعمدة رخامية مصفوفة ، وشجرة عتيقة قرب فوهة البئر التى ردمت ، غير أنه
بعدما يقرب من مائة عام على وقفته تلك ، حصل تدبير وتم نقل جثمانه ..
أعيد دفنه عند الناحية الشرقية من ضريح مولانا الحسين ، صار بنى الأكرمين
لا يذكرون اسمه إلا مقرونا بسيدى ، أدرك الأب ذلك ، وتزود منه ، طاف
بالمشوى ، ناجى سيدى حسن العدوى برقيق اللفظ ، لطلالا أطل على بقايا
البيت من فوق السطح ، يقول لمن أنجب : هنا عاش عظيم : ثم يردد
العبارة ، وكأن الشيخ ينطقها فى ساحة المحكمة . إننى أرى الساحة المسورة
مقلوبة ، الباب إلى الغرب مع أن موضعه فى الشرق .

هذا عم رضوان السباك ، يتردد هنا بين حين وحين ، يفتح حجرة بنيت
من فلق النخيل ، يقضى وقتا ثم ينصرف ، أراه متقلبا رأسه تلامس الأرض ،

قدماء تخطوان في فراغ ، بقدر الخطو يكون السعي لسبب ما سماه الأب «جم
أونة» . يلتقط الاسم ثم يضحك ، اعتاد تسمية البعض بأسماء من عنده ،
نطقها غريب ومدلولها عجيب .

«أرى «أونة» بوضوح أتم ، كأنه يتطلع عبر فراغ نقي شفاف ، يقول الأب
مشيرا إليه ، هو الذي سيصنع لكما الدراجتين ، كثيرا ما تحدث عن عجلتين
ينوى شراءهما واحدة للجمال ، وأخرى لاسماعيل ، يسأل أصلى عن عجلته ،
كيف هي ؟ ، يقول الأب «كبيرة» يعاود الاستفسار «أكبر من عجلة
اسماعيل ..» ، يومئ الأب ولا يصرح . يسأل ، مالونها ؟ ، يقول الأب ،
حمراء يغضب أصلى ، «وعجلة اسماعيل أيضا حمراء ؟» ، يقول الأب
«عجلة اسماعيل زرقاء» ، عندئذ يبكى اسماعيل ، «أريد عجلة حمراء» ،
يصر أصلى اصرارا غثيثا لا يرضيني «كلا .. زرقاء» ، ثم أراه طفلا بعد
فأتقاضى وأتجاوز . يصبح الأب عبر السور ، «يا أونة خلص لنا العجلتين»
يرفع الرجل وجهه ، لا يبدو غاضبا ، بل باسماء ، «العجل ؟ حاضر ..» .

أرى في الخرابة التي كانت يوما حديقة وممترها لأهل البيت ثلاثة رجال
يحيثون بفرس حمراء اللون ، وثلاثة آخرين يأتون بحصان أسود فاره الرقبة ،
أرى هذا كله مقلوبا ، يقف عم أونة مشرفا وناصحا ، ثمة اشارات وأصوات
من الرجال الثلاثة ، الحصان الأسود يلتحم بمؤخرة الفرس . يشب بقائمه
الأمامين راسما خطوطا غير مرئية في الفضاء ، يهتر جسده ، يتلفت ، يعاود
الوثبة ، ترتجف قوائمه ، ينفض رأسه يمينا وشمالا ، يتطاير عرف رقبة ، يبدو
مزهوا ، مختالا ، مجيدا ، يقترب من الفرس يسمح بطنها برأسه ، ثم يرفع
رأسه في صهيل قوى ، فرح .

ينيب هذا كله ، غير أن هذا الفناء يدع عندئذ أثرا ، وروائح وأمورا

شقي ، أرى وجها بلا ملامح ، أرى عينين سوداوين ، أرى فمًا تبرز منه أستان
ذهبية فيثير ذلك خوفا غامضا عندي ، من هذا الثار المتباعد يبرز صوت
مذيع متحمس ، إنه مذيع الست وجيدة الوحيد في البيت قيل شراء الست
روحية لجهاز آخر فيما بعد ، المذيع يعلن بحماس عن خطاب ، يردد اسما ..
سوكارنو ، أصغى إلى لغة لا أفهمها ، تصفيق ، غير أنه منبثق من اللحظات
أخرى ، هذا زمن يمكنني تحديد عمر أصلي عنده ، التاسعة من عمره ، أما الوقت
فغروبي ، يتدفق صوت ابن عبد الناصر غاضبا ، تنضح ملامح هرج بعد طلاقات
الرصاص ، يختلط صياح خلق ..

«كلكم جمال عبد الناصر..» .

«ليثبت كل منكم في مكانه ..» .

«كلكم جمال عبد الناصر..» .

يفارق أصلي السور .

«الحقّي يا أمّي .. الحقّي .. ضربوا جمال عبد الناصر..» .

يسأل اسماعيل :

«كيف .. كيف ؟» .

«ضربوه بالرصاص ..» .

تقول الأم متأسية :

«عيني عليك يا هند .. سيأخذون زوجها الآن ..» .

تعني بذلك أحمد الهجرسي ساكن الطابق الثالث ، سبق سجنه عام ألف
وتسمائه وثمانية وأربعين ، قضى شهورا وأفرجوا عنه لكنهم يسعون إليه ،
يسجنونه ، كلما وقع اضطراب ، أو اختلت الأمور .

حدث أيها الإخوان عند اجتياز أصلي مدخل المعتقل عام ألف وتسمائة

وسنة وستين ، أن نظر إلى الممر المؤدى إلى الفناء ، رأى عم المجرسى ، فى ثياب تشبه قماش أجولة الطحين ، وأما الرجل مشجعا - محيا ، فكر أصلى « إذا خرج قبل يمكنه إخبار أمى وأنى بمكانى وبحالى » ، ثم فكر ، « وإذا خرجت قبله فسأخبر امرأته وأولاده .. » ، غاب المجرسى لحظات ، رجع ويده نصف قطعة جبن مطبوخ قدر الأصبع الصغيرة مغطاة بورق معدنى ، رماها ناحيته ، تلقفها أصلى متعجبا ، « ما هذا ؟ » ، أكلف نفسه مشقة من أجل قطعة صغيرة كهذه ؟ . بعد أيام قليلة أدرك أن قطعة كهذه تعد من نفائس الطعام هنا « ما أغرب ذلك ! .

عند هذا الحد بدأت أطوى الجهة الشرقية طيا ، يمر أمامى ما يصعب تفسيره من ملغزات ، وما يمكن الإشارة إلى قبس من كنهه ، فن ذلك وقفة بجوار الأب فى شارع عريض ، عربات عسكرية تمضى متتابعة ، ضباط يرفعون أيديهم بالتحية ، لمن ؟ لا أدرى ، ها هوذا الأب يمضى وحيدا ، مسرعا ، بمشيته ميل ، عند حدود خلاء فسيح لا يصحبه أحد ، لا يؤنسه أحد ، تبدو ملامحه متعبة كأن مشيه بدأ منذ دهر ، أرق وأشفق ، هذه قمة مثذنة أى مثذنة ؟ ، الأزهر ؟ المؤيد ؟ القلعة ؟ أم الرفاعى ؟ .

أرى حشدا من الخلق ، وجودهم متبع ، كأنهم قدورا من سائل مجهول الهوية ، عربات يركبها جند مسلحون ثم عربة لونها أحمر ، لا يركب مثلها إلا الملك ، إنه فاروق ، الملك الذى يتساءل الأطفال عنه فى الحارة . أيقضى حاجته كبقية الناس ؟ أى طعام يتناوله ؟ مامدى قوته ؟ وإذا صار ابن جوريون قائد اسرائيل فن الغالب ؟ فاروق طبعاً ، يقول طفل إنه ضخم ، قوى ، يمكنه أن يسحق الآخر فى ثوان ، يتساءل آخر ، لماذا هزمنا فى الحرب ؟ ، يتساءل طفل ، ومن قال أنا هزمنا ؟ . يقول عجوز يجلس على

مقربة من الحاج عبده مدير الكلوب ، إن فاروق يشرب صباح كل يوم كوبا من خلاصة مخاضى القروء ، وما من امرأة تطيقه ، تغيب الأصوات ، تهليل جماعى ، لحظات نشوة فى ذكر دينى ، جمع من الناس ، لغاتهم غامضة . أرى طريقا ممتدا مدثرا بالظلال فى نهايته مسجد عتيق ، يظهر رجال يتمددون بجوار بعضهم البعض فوق الأرض ، يمسك كل منهم سيفا مشهرا ، حد السيف يلامس الصدور ، عيونهم محمقة ، فيها انتظار واستسلام ، يظهر جواد أبيض ، يمتطيه شيخ مغربى ، عباءته بيضاء ، متوشع بجزام أخضر ، يقترب على مهل شديد ، يدوس أول المستلقين ، لا يمضى مسرعا ، إنما بطيئا يتلفت حوله ، رأس الحصان يتبعه أينما نظر ، عندما يتوسط الطابور يبدأ رقصة غريبة ، يتواثب الحصان فوق السيوف المسلولة ، يتتابع يشبه خروج البخار المتتابع من قاطرة تاهب للانطلاق ، الصوت يخرج من صدور الرجال .

يتبدل الوقت ، هذا جمع من الناس يلوحون ، يرفعون أحدهم فوق الأكتاف ، يده ممتدة ، يقول شيئا يردده الخلق ، الأب يتعد بولديه ، ينأى بها ، يقول « هذه مظاهرة » ، أرى حداة تحوم ، تقترب ، يظهر عدد منها على ارتفاع قصى ، نقط سوداء تسبح متمهلة ، للسماء لمعة وحدة ، هذه ظهيرة نائية . بعيدة جدا ، تنتمى إلى ماضى سحيق ، تحديق الأم وعصابة رأسها تغطي جبهتها حتى حافة الحاجبين :

« نجوم فوق شىء ميت » .

ثم تقول :

« لو أنها ترى كتابك طليقة » .

يسأل جمال :

« هل ترى من هذا العلو؟ » .

تقول :

«إنها ترى سعى الغل ..» .

أحيانا تستقر الحداة فوق هوائى المذيع ، يطيل التحديق إلى عينيها
الصفراوين ، المتقار المذنب ، تقول الأم :

«إنها مؤذية» .

يولى ذلك . تولى الظهيرة ، انتظارات الأم ، سكوانتها ، اطرافاتها ، تنأى
إلى الأبد أى فرصة أو إمكانية للاطلاع على قبس مما دار فى ذهنها أو عبر
مخيلتها . وحرك تداعياتها ، يستحيل هذا كله إلى عدم محض ، أتم ، فسبحان
من يحى العظام وهى رميم .

يولى الصمت وضجيج المدينة المدغم وبقايا الأصوات النائية ، من ذلك
صفارة الظهيرة المطوطة ، الطويلة المنطلقة لحظة انعدام الظل ، يحل
اللاشئ فى اللاشئ ، تتحول حجارة المآذن والمباني السامقة إلى انخرة
نعاسية شفيفة . الآن أدرك أن عهدى بالجهة الشرقية قد انقضى ، وأنتى شأن
من يركب قطارا بدأ يتحرك متمهلا ، تتراجع مباني المحطة من أرصفة
وحجرات انتظار ومقاعد ومودعين ومقبلين ومتسكعين ، تتزايد السرعة
فتقارب الخطوط وتذوب الفواصل ، تنطمس المعالم ، إذا دقق الراكب
أرهق البصر وكلّ النظر فيودع المرء أرضا قد لا يبلغها مرة أخرى ، وقوما ربما
لن يراهم ، فما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض
تموت ؟.

أرأنى كل يوم فى انتقاص

ولا يبقى مع النقصان شئ

بدأ ولوجى إلى هذه الجهة وأنا أرى أصلى طفلا يعى ، كنت محملا ،

مثقلا بما أشهدته، مع أنى لم الملح إلا شظايا مارقة، ونثار عمر ظن أصلى يوما أنه مكتمل دائما، لن يبدأ أبدا، لم يتصور أنه سيسعى جاهدا يوما ليتلمس بعضا من سر لحظة ، أو استجلاء غوامض موقف عاشه بملء الحس ونفاذ البصيرة ، ثم على مهل عجيب لا يرصد ولا يلحظ ، نال منه القادر على كل شيء فطمسه ، كأنه تلك العملة المصبوبة من فضة أو نحاس أو حديد ، ومع انتقالها وتداولها وطول حفظها تهت وتملس ويغم المعدن ، تتغير ملامحه بدون صهر ، إنما بتأثير ملاسة خفيفة تعقبها أخرى ، لا يمكن تحديد اللحظة التي وقع فيها التغير أو التحول ، هل يمكن لمخلوق تحديد اللحظة التي تم فيها مشيب شعرة من رأسه أو لحيته ؟ .

أصلى أدرك جوهر الخفى الذى لا يرى ، من يبدلنا دون أن ندرى ، يغير قسما بنا بغير أعلامنا ، أدرك أصلى أنه محيط بنا ، متغلغل فينا كطعم الثمرة في الثمرة ، كاللون في المتلون ، كالاسم في المسمى به ، فإذا توجه النظر فإليه ، وأن تم السمع فته ، وإن اكتمل العقل فعنه ، وإن سعى الفكر ففيه . وإن هاج الشوق فإليه ، وإن ما تواعدون لواقع » .

هب على نسيم بلل روحى ، لا عجب ، أليست الجهة شمالية ؟ مصدر اللطائف والنسائم الرقيقة ، قصدت التوجه إلى هذه الجهة فعبرت عرض السطح ، لا شيء يتخلل السور الشمالى ، لا غرفة أخرى ، ولا دورة مياه ، ولا منور ، مصمت ، غير منقوص ، أتم ، فوقه كان جمال يدفع العربة الصغيرة التي اعتاد الأب شراءها أيام الأعياد . يمشى رافعا يده ممسكا بها ، يديرها ، يحاذر ألا تقع ، وراء السور فراغ يؤدى إلى الحارة مباشرة .

مع اقتراب العيدين الأكبر والأصغر يصحب الوالد الكريم ولديه إلى الموسيقى ، يقفا حائرين ، زائعى البصر ، تغمرهما روائح شتى ، البالونات ،

الطلاء الحديث ، صناديق الورق المقوى ، قش توضع فيه الأوعية القابلة للكسر ، ألوان اللب مبهجة براءة ، أثناء العودة لا يطبق أصلى صبرا ، يحاول فتح اللعبة ، يقول الأب ناصحا « انتظر » ، عربة زرقاء يجلس داخلها سائق صامت أبدا ، يوقن إنه يتحرك ، يفارق السيارة أثناء الليل ، قبل اغفائه ينصت ، ربما يستمع إلى خطاه ، عربة ترام ، من كل نافذة يبرز وجه راكب ، غير أن لون العربة أحمر أما ترام شارع الأزهر فأصفر ، وقد حيره هذا زمنا ، وشغل من ذهنه وقتا ليس هينا ، اسماعيل يختار لعبة مختلفة ، جبال يتقرب منه ، يتودد إليه يطلب منه مشاركته اللعب ، يقترح المبادلة ، العربة مقابل الدبابة ، يستدير مرة أخرى ، يقترح ضم هذه إلى تلك ، يقدمها اسماعيل طائعا ، إنه يلبي ما يطلبه يقلد ما يفعله ، يتشبه به ، حتى إذا تم الأمر وحاز اللعبتين انفرد بهما ، لا يعبأ بكاء أخيه .

هنا أضعنت النظر في أصلى هذا ، إنه طفل مازال ، ولكن تبدر منه قسوة تجاه شقيقه ، لا أذكر أتى كنت على شيء من هذه القسوة في خلقى الأول ، بل إننى دفعت الكدورات عن أشقائى ، أما جبال هذا فلكم يبدو مأوى ومجمعا للمتناقضات ، وملتقى للمتناقضات ، يتحایل حتى يستأثر بمحاجات أخيه ، وإذا بكى اسماعيل لا يعبأ ، غير أنه عند نزوله الحارة للعب يتذكر شقيقه ، فيود لو عاد إليه مسرعا ، يدركه ندم ، يقول لنفسه ، ليتنى لم أضايقه ، أنه صغير ، يرتجف خوفا من احتمال اصطدام اسماعيل بشيء صلب أثناء جريه ، أو تدرجه فوق درجات السلم ، يعد النفس ألا يضايقه ، أن يترك لعبه ، ألا يحاول الاستئثار بها مرة أخرى ، حتى إذا عاد إلى السطح ، ودخل الغرفة ، ورأى اسماعيل ، عاد سيرته الأولى .

منذ البكورة وأصلى دائما في الفوت ، عنده القسوة ، وعنده المنة ، وأشد

ما يظهر منه بهذا الخصوص ما يبين عند المضاجعة ، لكم يبدو رقيقا ، يمس الشفتين مسا ، ويلامس النظر بالنظر ، ويمر بأطراف الشعر ، وعند لحظة بعينها قد يشب أظافره في كفي المحبوبة فقلت منها آهة ، أو يتشبث بالشعر فيشده ، أدركت لور ذلك في خلقه البديل ، قالت له ، «أنت توجعني» ، ثم قالت في لحظة الاسترخاء ، « بقدر ما فيك من رقة ، بقدر ما عندك من عنف...» ، يحيرني أنا من حلت محله ، أى يحير ذاته بذاته ، فما أتعبه ما أبأسه .

كدت أعلن الضيق وأجهر بالأسى على ما آل إليه حالى ، غير أننى ذكرت مولانا الأقدس ، وتجليه لى بعد غياب ، فضجبت وكمت ، وحدثت البصر إلى هذه الجهة ، وقد اختصت بعبارتها بالنساء ، لذلك هى الأرق ، الألف ، الأرطب .

اعلموا أن هذا السطح هو الأعلى ، ليس في حارة الطبلوى ، إنما في ناحية قصر الشوق أمامى بيتان متلاصقان ، متشابهان ، سبقت الإشارة إليهما ، الأول يعرف ببيت «خضر» ساكن الطابق الأول ، عنده دكان لتصليح مواقد الغاز وفيه مآرب أخرى ، المجاور له يعرف ببيت القيومى ، نسبة إلى عائلة قيل إن أصلهم من ناحية القيوم ، نوافذهم لم تر مفتوحة إلا نادرا ، وعلى أوقات متباعدة ، ثم عرف فيما بعد ببيت الكودية ، بعد أن نزلت به عائلة سودانية تخصص أفرادها في إقامة واحياء حفلات الزار ، قيل إن باني المترلين شخص واحد . ثم بيع أحدهما إلى تاجر ، والثاني إلى آخر . قبل امعان النظر لابد من ذكر القوائم الخشبية المثبتة إلى السور ، فمن ذلك القائمان النحيلان الخاضعان يهوائى مذياع أحمد عمرو ، وقائمان آخران أغلظ وأحسن . الأول في الزاوية اليمنى ، والثاني في اليسرى ، قرب منتصف كل منهما عارضة خشبية تثبتها ، إليها يشد حبل الغسيل ، فوق العارضتين يشب

أصلى ، ينظر إلى ما وراء السور ، إلى الأسطح المجاورة ، يتطلع إلى أفق الدنيا ، إلى الخيالات النائية ، إلى الصور الباهتة ، يرمق «صفاء» . تطلع إلى سطح بيت خضر عصرا ، دائما بمفردها ، تسقى الدجاج والبط والأوز في عشة الصقيح ، أو تلم الغسيل الذى جف ، تبدو مرتدية جلبابها ، بلا أكمام فهي عارية الذراعين ، أحيانا تطل من السور المواجه ، تميل ، ينحسر ثوبها حتى يتعرى باطن الفخذين ، هذا ما ثبت منها فى وضع أصلى ، تلك الانحناء ، امتداد ذراعها إلى الحبل ، هذا أمر لا يخص أصلى وحده ، إذ نرى شخصا مدة من الزمن ، فإذا تقدم الرحيل بنا ، ذلك رجوع بعيد ، إذا استعاده وعينا الحفيظ ، لا تذكره إلا فى وضع معين ، أو بعبارة واحدة تبقى من كل ما لفظه ، لا ينطبق هذا على الأغراب وحدهم ، بل يشمل ذلك الأقربين ، تبصره لما تبقى من الذكرى .

انظروا الى" مثلا ، إذ عرفت ما لم يدركه غيرى ، خلق أول منقضى تماما ، وخلق ثان مفروض على ، مكلف به ، وإذا أستعيد واحدا ممن عرفت ، أو قريبا ممن أحببت ، فلا أراه إلا فى وضع بعينه ، لا أعى من لفظه إلا جملة . إنى لمخبركم الآن بواقعة أرجأت تدوينها حتى الآن ، إذ حدث بعد نزولى مباشرة مدينة فاس المباركة ، وبعد مضى وقت يسير على ، مع أول خطوى فى الطريق ، أن تمنيت من سادة الديوان زيارة البيت لأتبرك ولأتمكن ولأستوثق ، فاستجابوا لى ، على أن يلزمنى دليل ومرشدى ، الفارق بيننا أنه مستتر ، أما أنا فباد إذ أن ظهوره بين القوم وفى هذا الحين بالذات سيثير فتنة ولجاجا ، كفاهم ما هم فيه .

أثناء طوافى بالكعبة رأيت رجلا يتخذ وضعا معينا ، إذ كان يقف منحنيا إلى الأمام قليلا ، وفى عينيه تساؤل قديم ، لفت نظرى وضعه ، فلما دقت

النظر وتحققت تبين لى أنه جد من جدودى الأقدمين ، سمى لى نفسه ، سألته
عن زمان مدته ، فقال لى ، منذ سبعين ألف سنة ، سألته عن آدم أبو البشر ،
فقال لى ، عن أى آدم الأقرب أو آدم الأبعد ؟ ، فقلت : اياك أعنى ، قال
لى ، لا أعلم للعالم حدا نقف عنده لأنه ما يزال خالقا ، وما يزال دنيا وآخره
والآجال فى المخلوق بانتهاء المدد لا فى الخلق ، فالخلق يتجدد مع الأنفاس ،
فاستفسرت لماذا يتخذ هذا الوضع ، لم هذه الوقفة ؟ ، يقول لى : لأن هذه
الوقفة يذكرنى بها جل أحفادى ، ولو أنك ممن رأونى حيا أسعى لما ذكرتى إلا
بها ، لذا أتخذها دوما كلما تجليت لأحدكم ، ثم قال : إني مفارقك إلى لقيا
لن تتم ، عندئذ أحتفى من محيط نظرى ، غاب عن ادراك بصرى ، وبقيت فى
الطواف ، لكننى .. لماذا أثقل ، وأذكر لكم الملهزات ؟ إني لمسائل ..
وهنا رأيت دليلى .

« أنت تغرب .. » .

استفسر :

« أليس ذلك عين الطريق ؟ » .

يأمرنى :

« الزم الخطوة .. » .

أجاده :

« إني مدون ما يترامى لى » .

يقول :

« أرجئ ذلك .. » .

استفسر :

« إلى متى ؟ » .

يقول :

«إلى أن يشاء صاحب الأمر كله ...» .

أمثل ، ألزم الجهة الشمالية ، أضمر مانويت ، لم أحد ، التحذير قاس ، وأنا أجهل العاقبة ، أعاود النظر ، ها هي ذى صفاء ، تمشى ، تتوقف ، تضرب الأرض بمقدمة حذاثها ، تطوف عند أصلى عواطف مبهمة ورؤى ، يرغب البقاء متابعا ومحققا ، لو تأخر ظهورها يثبت البصر عند مدخل السطح ، تدركه وحشة ، ينقله فقد ، نجىء ، تطل تجاه الناحية الغربية ، تشير يدها ، فى البدء تلويحاتها خجلى ، حية ، تحاذر أن يراها أحد ، ترقبى ، تعرف انتى متطلع ، شاخص ، غير أنها تبتسم ، أو تحيد البصر عنى ، ثم ترجمه تجاهى فجأة ، أنجبل ، ثم أتابع النظر ، اشاراتها أكثر جرأة ، إلى موضع الساعة حول المعصم ، أصابعها ترسم أرقاما ومعانى ، ترفع باقة أناملها إلى فمها ، تقبلها ، تشيع قبلتها عبر الفراغ ، لمن ؟ لا يرى أصلى أحدا فى مدى رؤيته ، البيوت فى هذه الجهة منخفضة ، تبدو الحجرات المنزلة فوق الأسطح ، إحداها قرية ، نافذتها دائرية ، حيره ذلك ، لماذا النافذة دائرية ؟ تمشى صفاء مطرقة .

لا يدري أصلى متى ظهر محمد أبو رأسين ، شاب طويل ، عريض الصدر ، مستفخه ، لذلك يبدو مائلا إلى الخلف فى وقوفه أو مشيه ، أخته زكية طويلة جدا ، الغريب أن أمها قصيرة ، نحيلة ، أما والداهما فلم يره أحد ولم يعرفه أحد ، يبدو أنه يعيش فى مكان ناء ، إن محمدا ضخم الرأس ، ثائى الجبهة ، عريضها ، عيناه واسعتان ، يقال فى الحارة إنه تراهن على جر عربة بأستانه ، وقد فعل ، قيل إنه مدرس ، وأنه يرفع الأثقال بتأدى الجمالية الجديد ، متى ظهر محمد هذا فوق السطح المجاور لصفاء ، والذي يمكن

اعتباره امتدادا لسطحها علما سور نحيل عرضه طوية واحدة يفصلها .
في البداية كان يقف عند أقصى السور بقامته القاهرة ، موليا وجهه شطر
الجهة الشرقية ، موليا صفاء ظهره ، بينما تلملم غسيلها متمهلة ، أو تعلق
الملابس إلى الجبال ، إيماءة تقابلها إيماءة يوما بعد يوم يقتربان ، يعقد يديه أمام
صدره ، تضربه بقبضتها ، لا يرد ، إنما يتسم ، مرة تالية يمسك معصمها ،
يشدها ، تتلفت حولها ، عبثا تحاول تخليص نفسها ، تشير ناحية البيوت ، إلى
الفضاء فوقها ، غير أنه يجذبها على مهل ، أصلى يثنى ركبته حتى لا يرى ، يدرك
أن ما يشهد يستوجب اختفائه ، يتواريان خلف الغسيل ، ينحنى ناحيتهما ،
الضوء الرمادي يغرق ، تتحول البيوت إلى ظلال ، تسمع الملامح ، تتداخل
الفواصل ، يتردد صوت مناديا صفاء . ترد بصوت متخمر ، متخثر ، الأم تتأدى
على أصلى أيضا وكأن النداء جالب للنداء ، تطلب منه أن يعود إلى الغرفة ، الليل
مكتمل ، تخشى عليه مما يدب فوق السطح ، مرة قلت عقربا ، ومرة رأيت ثعبانا
طوله أكثر من متر ، البيوت عتيقة ، والشقوق عديدة ، والخطر كامن ، يحيب
أصلى « حاضر » ، غير أنه يحدق ، عله يفسر الملامح ، ما يجري في العتمة .

بعد حين .. يسمع أطيط شبشب صفاء تنزل السلم متمهلة ، مودعة
الفراغ منها أثرا ، بينما يتردد صغير محمد أبو رأسين ، إنه يتجه إلى السور المطل
على ساحة عم «أونة» ، لا يكف عن صغير مبهج ، منغم ، يوقن أصلى أن
صفاء فارقت ، فيرتد عن السور ويصدره أثر حز لا تكفائه زمتا .

عصر يوم آخر ، لم أحده ، وإن أيقنت أنه خريف ، ها هي ذى صفاء
على مرأى من أصلى تتأق أبو رأسين ، إنها أقصر ، تقف بين ركبتيه ، إنه
يجلس فوق السور غير عابئ ، هي لا تعبأ ، لا تبالي ، لا تلتفت حولها
خائفة .

هذا مغيب يوم آخر ، أصلى يلعب عند نهاية السطح ، غير أنه مصغ إليهما ، الحارة تتكلم عن صفاء ، تقول الأم : « دم يكسر رقبتها .. إنها فاجرة » ، يقول الأب : « إنه ينام معها لكنه يحفظها بكرا » ، ثم يقول « كثير من بنات مصر يفعلن هذا » ، تقول الأم : ماذا يتبقى بعد أن تتعري البنت وتشلح سرواها يقول الأب : « تربية ناقصة » ، ثم يقول : « أهلها يحاولون لها بأية طريقة » ، أترجع إلى الوراء قليلا ، تلك خلوة كلامية يتحدثان فيها ، صوتهما هادئ ، والتوتر ناء ، والهلم بعيد ، أما اللحظة فدثرة بظلال العصر الرمادية ، ورائحة الغسيل المنشور ولم يحف بعد ، أصوات الطريق بعيدة ، وضجة المدينة نائية ، باهتة .

تلك أيام تالية ، السطح يخلو من صفاء ، لا تظهر أبدا ، امرأة عجوز تطلع لتسقى الدجاج وتطعم الأوزة وتقضى الحوايج ، ها هو ذا أصلى في الحارة ، يرى شابا أحمر الوجه ، أشقر الشعر ، شعيرات رموشه خفيفة جدا ، لا يقدر على التحديق في الضوء الطبيعي ، يسمون أمثاله عدو الشمس ، إنه فتحي الكهريائي ، قال قائل من الجيران : « أراد أبوها أن يستر عليها ، زوجها إلى فتحي ، هذا » ، صفاء تعبر الحارة ، إنها منتفخة البطن ، تمشي مطرقة ، نحل جسمها ، تهلك صدرها ، مال بعد نهوض ، كف ثدياها عن النفور الأشد ، إنها فوق السطح ، تقعد في الشمس ، على حجرها رضيع ، تخرج ثديها الأيمن ، رخوا ، مستطيلا كشامة ، إنها وحيدة ، تحملق في الفراغ ، تحط التراب بأصبعها ، قد تتطلع أحيانا إلى السطح الآخر ، لكنه تطلع عابر ، غير متأن ، ماذا يعبر خاطرها والسطح خال ؟ .

هذا أصلى يمشي وراء محمد أبو رأسين في حارة الوطاويط ، إنه بصحبة زميل له لا يسمع من حوارهما إلا عبارة واحدة .. « مجهد أكثر .. » ، لم يدر

أى شىء مجهود ، ماذا يقصد ، غير أن ما يمثل فى وعيه أن هذا الضخم عائق صفاء ، وشدها إليه وأقعد لها فوق حجره ، أحاط بنهارها ، وعجل بدنو عصرها ، إن صفاء تدخل الحارة الآن تحمل على كفها طفلا لا يمكنه المشى ، تمسك يدها آخر يمشى ، تلتقى عيناها بنظر أصل ، تجهله ، ربما لا تذكر أنها لوحث له .. لم تخرج لسانها يوما له معاتبة ، يمشى أمامها فتحي عذو الشمس ، امرأة البنان تقول عنها : «سبحان من هدانا كان فائزة» .

يدرك جوهر المعنى ؛ يستعيد حركتها فوق السطح ، مشيا ، استدراتها المفاجئة مفرودة الذراعين ، انحناءها فوق السور ، هذا كله راح أوانه ، لكنه أودع عنده أثرا ، فلم ير صبية ترتدى فستانا يتسنى إلى اللون الأصفر ودرجاته إلا طفت صفاء إلى وعيه ، ولم ير شعرا ذهبيا هفهافا إلا استعداد خصلاتها أو استرخاء ضفيريها الغليظة ، ولا يسمع نداء أنثويا متأججا متلهفا إلا أصفى إلى بقايا صوت صفاء النائي إذ ترد على أمها التى تتعجل نزولها ، ولم ير راقصة متشبهة مزهوة إلا استعداد دورانها فوق السطح وامتداد ذراعها كأن كل عضو منها ينفى المضى إلى الطريق ، أما طيورها التى أطعمتها الحب فقد ذهبت ، خلت عشة السطح منها ، مالت جدرانها وانكشف داخلها ، وعاء مستدير معلن يبق .

أودع هذا كله عنده حزنا فريدا ، صار جزءا من أحزانه الكامنة التى لازمته أو صاحبه ، حزن شجى كالهواء الذى يعقب المطر ، كعلامات دالة على أنواء قادمة ، وحيث أن النظر أحاط بصفاء ، فإني محدثكم عن الحمراء صحيح أن موقعها بعيد ، غير أننى أعد بالاختصار قدر الطاقة ، ذلك أن الأسرة اعتادت قضاء الصيف فى جهينة ، استمر الحال على ذلك ، حتى عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين ، يصحبهم الأب ، يقضى أياما معدودات

تخفى شعرها بطرحة سوداء ، لم تنصرف ، إنما قعدت في مواجهة جبال ، تنظر وتبتسم ، ترفع الملامح المثقلة بالغضون وتبتسم ، قالت امرأة الخال : ألا تعرفها ؟.. إنها الحمراء ؟ لم يبد عليه رد فعل يشي بأنه استعداد ، ملاحه بقيت جامدة ، كررت امرأة الخال : «إنها الحمراء» .

حلق بعينين جامدتين ، عندما قامت الحمراء صافحته ، فوجئ بخشونة يدها ، تقدد جلدها وتشقق ، قالت امرأة الخال : «مسكينة .. بعد انجابها خمسة طلقها زوجها وتزوج أخرى من طهطا» ، لم يجب أصلى ، تذكرها ليلا ، ما بين اليقظة والنوم ، انتبه مستعيدا هيئتها في القديم الأقل ، وفي المحدث ، تأسى ، وتعجب ، فتقلقل نومه ، تمنى لو يراها مرة أخرى ، لكنها في النهار التالي لم تأت ، وكان عليه أن يفارق ليلاحق قطار الثالثة ، فسبحان المبدل ، المغير ، مقلب الأحوال واليسر ، من أدرك أصلى كنهه بعد اجتباره مقام الجوى فحكم عليه بالتذرية في فضاءات الكون ، فمن يرده إلى ميعاد ؟ ذلك رجع بعيد ، صعب ، مستحيل الشروع فيه ، أو الخوض ، لذا أنا محدثكم عن علياء .

هذا صباح ناء ، يقف أصلى فوق أرض عطفة باجنيد ، لهذه الفترة من النهار طابع وملامح ، لاضحة تسمع إلا صياح الأطفال ، إذ يحرون ، يتنادون ، نوافذ معظمها مفتوح ، الأغطية معرضة للهواء ، مبسوطة عند الحافات ، وقت التنظيف وترتيب الحاجات ، قد يسمع سقوط آنية ، أو خبطات تنفض التراب عن وسادة أو حشية ، بعد قليل سيبدأ دخول الباعة ولحيثهم ترتيب ، اقتضته الحاجة فهو غير مقصود في ذاته ، أول القادمين باعة الخضر ، باعة البصل والثوم والحبوب من فول وقمح وذرة ، أما بائع السمك فلا يبيع إلا ظهرا ، باعة البطاطا المشوية وحلاوة زمان والقطاير يهلون

يطوف خلالها بالأقارب والصحب ، يسلم ويطمئن ويستفسر ، ثم يعود إلى مقر عمله ، في نهاية الصيف يحىء إلى جبهة ليصبح الزوجة والأولاد .
كان جبال قد قطع من الطريق ست أو سبع سنوات ، هنا لن يمكننى تخذيد ما لم يقدر على تعيينه هو ، فالحمراء أول من تعلق بها قلبه ، أول أنثى حركت مشاعر كانت في هذا الزمن غامضة ، غضة ، الحمراء فتاة من الحد الشمالى لبيت خاله ، تمت إليه بصلة قرابة ، نجىء للسلام ، تقضى وقتا في البيت تساعد امرأة الحال في قضاء بعض الشئون ، هى ممشوقة ، فارهة العنق ، حريرية الشعر ، للملاحمها صدى في النفس وترجيع ، ابتسامتها مضبئة يتمنى المرء دوامها ، أما عيناها فكأنها حفتا بترديد ضوئى غير مرئى ، منها تفوح خميرة الأنثى ، إذ تبدو يتبعها أصلى ، لا يحيد بوجهه عن عيناها تداعبه ، يقول لها : تتزوجينى يا حمراء ؟ ، تضحك أمه وتضحك جدته نجمة وتضحك الدودة التى تلقته على يديها عند مجيئه إلى الدنيا تقول : « كل هذا يطلع منك يا ابن الغيطانى .. » تضحك الجارات ، يضحك الوقت ، تقول نجمة : « الحمراء ستزوج ولد الحويج » ، عندئذ يحمر أصلى ببيكاء ، يضرب الأرض بقدميه ، تمل الحمراء عليه ، تغمره رائحتها المخملية ، تقول له ، « لن أتزوج غيرك يا جمال » .

إذ تنصرف من البيت ، يتسع المكان ، يشعر بفراغ .. كأن قبضة لا مريئة انتزعت قلبه ، ثم قفلت السنون يحمر بعضها بعضا حتى شد أصلى رحله إلى جبهة بعد تمام طريق الأب وبدء هجرته العظمى إلى الحق .

في صحن بيت الحال الذى بدا ضيقا قعد فوق الدكة بالمدخل ، نجاء جمع للسلام عليه ، ولتلق عبارات العزاء ، كان خاله الذى قارب بصره على الكف يعرفه بهم ، ويذكر الاسم متبوعا بالقرابة ، جاءت امرأة بيضاء ، نحيلة

عصرا ، ألحظ ما لم ينتبه إليه أصلى ، إنه لاه ، سادرفى غيه ، حدود دنياه
هذه الحارة ، الاحساس بالبعد ، بالنأى عن موطن الألفة ، يبدأ عند قرن
الحاج ناصيف الذى يقع على مسيرة ثلاثين خطوة من البيت وعنده تنحنى
الحارة ، مع انقضاء الأوقات وسعى الدهر تطول المسافة وتمتد وتعظم حتى
تترامى إلى أطراف الكوكب الأرضى ، لهذا تفسير ربما أتيت به ، لكن فيما
بعد .

هذا صباح بعيد ، أصلى لا يعبأ بتحديد الوقت ، ليومه علامات جهت
بعدئذ وتلاشت ضمن ما تبدد من مكنونه الدفين ، من ذلك مجيء النهار
وغرويه ، وخروج الوالد إلى سعيه كارها ثم عودته ، وفراغ الوالدة من تنظيف
البيت وترتيب الفراش ، وبدء قعدتها أمام الغرفة ، كلما وقت التزول إلى
الحارة للعب ، ها هو ذا أصلى يقف مرتديا جلبابه وصندله الجلدى ، لم
تسمح له الوالدة بالتزول حافيا قط ، تحشى شظية مدموسة أو ذنب عقرب ،
أن ينتظر من يماثله عمرا ليلعب معه ، ها هى ذى עליاء تقبل ، نحيلة ،
سمراء ، طولها يماثل طولها ، كلما نحافتها ، غير أن بشرتها شاحبة ، إنها واسعة
العينين ، ناعمة شعر الرأس .

تقول : « تعال نلعب سنات » ، تمسك يده ، يتبعها صامتا ، لعبها مرات
ولكن فى جمع ، يجلس كل صبي وصبية فوق بسطة من السلم ، يرصان علب
السجائر الفارغة ، وصندوقا أو اثنين من الصفيح ، تصبح هذه اللعبة
سريرا ، والأخرى صوانا ، أما الابنة أو الابن فعروس محشوة بالقش ! .
يحدث أن تطلب منه رفيقته زيارة الأقارب ، فلا يكلفها الأمر بعدا أو
مشقة ، ما عليها إلا الصعود بضع درجات أو التزول ، لم يلعب إلا جماعة ،
أما الآن فهو بمفرده ، شعور غامض يبدأ عنده لحظة اجتياز البوابة ، رائحة

تراب مغطى بالظل زمتا طويلا ، رائحة أخرى لا يدرك كنهها ، ربما بقايا مبيد حشري ، أو آثار عطن ، باب الشقة مغلق ، أم علياء تخرج في هذا الوقت ، يقال إنها تعمل دلالة ، تبيع بضائع في حوار بعيدة ، منذ زمن توفي والد علياء ، ثم تزوج أحد أقاربه أمها ، هذا رجل لا تقع عليه العين إلا نادرا ، يخرج مبكرا ويعود في غميق الليل ، لم يره أصلى أبدا .

علياء تفتش الأرض تحت السلم الذى يرتفع درجة ، درجة ، مؤديا إلى الطابق الثانى حيث يسكن محمد أبو رأسين ، يذكره فيستعيد صفاء وفردا ذراعيه ومشيا في الأرض مرحة على أطراف أصابعها واقتربا من محمد وعناقها والدهشة والوجل والنظرة المختلطة ، علياء تدنونه ، تمسح شعر رأسه يبادلها فعلا بفعل دون أن يفقه قولاً ، يميل إليه ، تسند رأسها إلى صدره ، تنظر إليه بعين طفلة صغيرة وتعبير أنثى مستعار من بعيد .

حرت فيما أطلع عليه .. هل رأت عيني أمها عند المضاجعة ؟ تقبله ، تهمس « تعال نعمل زى ماما وزوجها » ، لا تنتظر رد فعله ، إنما تتمدد ، تراب ناعم ، آثار بلاط مخلوع ، طلاء أصفر قديم ، تشلح جلبابها ، تريح سرواها تباعد ساقيها فيواجه فرجا ، صغيرا ، دقيقا ، أملس ، شقه كخط قصير ، إنه الأول الذى يراه ، لم ينمح أبدا من مخيلته ، تشده إليها ، « يا الله يا حبيبى » يخلع عنه سرواله ، تحتضنه ، تهزه ، ترفعه ، تحفضه ، ولأنه جاهل للفعل فإنه يهز جسده مينة ويسرة كأنه يتأرجح ، وهذا مبهم ، ذلك أن رد فعله جاء تلقائيا ، ثمة فكرة مسبقة عنده ، من أين واته في هذه السن المبكرة ؟ ، لم أقف على المصادر ولم أعرفها ، إنما المقصود من وقوف بهذا المخط أمر واحد لاغير ، اطلعى على هذا الفرج الأول ، فيما بعد رأى فروجا عديدة .

عند هذا الحد نهيت عن الاستمرار ، فهمت أن الأمر ليس مشابها لما كان في دهرى الأول ، وأن تفصيلي مثل هذه الأمور قد يشرب لجاجا ونفورا ، وربما سبب لى نصيبا ، فامتنت ممتعضا ، فقد وددت صادقا أن أفضى إليكم بسيرة كل فرج ولجه أصلى أو لأمسه كذا وصفه ، غير أنني أعتذر . لذا أكف مكثفيا بذكري هذا الفرج الذى صار إلى عدم عدا طيف ملاحه التى بقيت عند غيلة أصلى ، فقد فنى منذ زمن ، كيف جرى ذلك ؟ ، هذا ما أذكره فى عجالة ، بعد اجتيازها الصبى ، صارت فارغة ، لا تلتفت حولها أثناء مشيها ، يراها ، تلتقى عيناهما ، فكأنها لا تعرفه . يفكر ، تتجاهلنى ، ويوما ما اطلعت على ما تخفيه الآن .

عصر يوم سرت ضجة تنذر بشؤم ، خرج إلى الشرفة ، أطلت الأم ، الكل مطل ، منظر ، يعبر الحارة ضابط وراءه ثلاثة من جنود الشرطة .
ماذا جرى ؟ .
علياء ماتت .
كيف ؟ .

من قول هنا ، ولفظ هناك ، تجسد المصير وبان المنتهى ، عادت الأم من إحدى خرجاتها ، وجدت ابنتها متمددة فوق السرير الحديدى وسلك الكهرباء مقطوع يلامس رأسها ، قال قائل : إنها اغتصبت قبل موتها ، وأكد آخر أن التشريح أثبت أنها امرأة مكتملة وليست عذراء ، وقيل بوجود علاقة بين البنت وزوج أمها ، وأن الأم قتلت ابنتها بهذه الطريقة المتقنة ، رابع قال إن زوج أمها حاول اغتصابها ولما قاومته خشى الفضيحة فكهربها ، تعددت الأقاويل ، وغزت الريبة حول الأم ، لم يرق لها أحد ، ولم يشفع لحزنها أحد . ولم يرث لارتدائها السواد أحد ، لم يمر شهر إلا رحلت .

عند خروج العربة التي يجرها بغل محملة بأثاث البيت رمت أم زهرة وراها قلة من فخار تناثرت شظاياها إظهارا لفرحة أهل الحارة بمخلصهم من المرأة التي تسترت على قاتل ابنتها ، أعوذ بالله من الخوض في سيرة الخلق ، غير أن ثمة ما يجب ذكره .. إذ حدث بعد عامين من موت علياء أن روت امرأة دلالة من ناحية بعيدة أثناء زيارتها للحارة ما جرى بعد خروج أم علياء وزوجها ، إذ يبدو أن بعضهم أرسل إلى الشرطة أو إلى جهة ما مطالبا بإعادة الكشف على الميتة ، وقيل إنه أخ لها غير شقيق يقيم في بلد بعيد ولم يرها أبدا وحدث بالفعل أن أعيد الفحص ، فتبين أن علياء رحلت مقتولة ، قبض على زوج الأم ، واعترف ، ما شغل أهل الحارة ، كيف تتكشف حقيقة كهذه بعد عامين ، وهل يقدر الطب على ذلك ؟ ، إنني أحقق عبر حجب الجهة الشمالية لعل أرى ما تبقى من أطراف هذه البنية ، لكنني لم أبصر ، فالحجبات كثيرة ، لذا فارقت متجها إلى ذلك اليوم الذي عرف فيه أصلى سناء ! .

تلك حافظة سوداء صغيرة ، قفلها معدني أبيض ، ملقاة أمام عتبة مسجد سيدى مرزوق ، يقف مترددا ، تطل منها أطراف أوراق مالية ، خمسة ، عشرة قروش ، يتلفت حوله ، لا أحد . ينحني ماذا يده إلى صندله البني ، يتظاهر بتعديل رباطه ، تقبض يده الكيس ، يقف ، يده في جيب جلبابه ، يمضى متمهلا ، ابتسم لذلك ، أعجب لحيطته وحذره ، ابتسم لذلك ، يمشى متمهلا حتى دكان محمد بائع الصحف ، الدكان تحت مسجد الأمير الجلمى ، ثلاثة محال متجاورات .. الأول لبائع فحم ، والثاني لتاجر أدوات المقاهى .. نرجيلات ، أكواب زجاجية وفناجين خزفية ، أتعجب لموقعهم تحت المسجد ، لو أني أحطت علما بالقوت الذى تحولت فيه الخانات الثلاثة إلى دكاكين ، لكن هذا ليس ميسورا الآن، إنى مقيد فى رحلى

هنا ، هاموذا يمضى وجلا ، فى جيبه مبلغ من المال لم يمك بمثله أبدا ،
حائر .. لا يدرى كيف يتفقه .

منذ لحظات اشترى خمس حبات حلوى على هيئة ثمار الفراولة ، تراها
فتخسها حقيقة انتزعت لثوها من أصلها الذى هو فرع ، أكل اثنتين خلصة
واحتفظ بثلاث ، يتمنى أن يبقى لشقيقه واحدة ولأمه أخرى ، لكنها
ستسأل : من أين له بالمال ؟ أو .. من قدمها إليه ؟ ، ستغضب لأن المال
حرام ، كان يجب ألا يأخذه ، كما أنها حذرته مرارا من الاستجابة لأى
غريب ، أو قبوله شيئا ممن لا يعرفه ، أو الأكل عند الجارات إذا دعتة إلى
طعام ، أما تحذيرها إياه من الغرباء فخشيها الغجر الرّحل ، الذين يجوبون
البلاد وأعينهم على الصغار .

فى جهة إذ يسمعون بقرب الغجر أو الغوازى أو الحلب كما يعرفون ،
يغلقون الأبواب ، يمتنعون الصغار من الخروج إلى الباحات ، تخشى عليه
لصوص الأطفال المتشرين فى المدن ، أنباتها أم هدهد أنهم يأسرون
الأطفال ، يعذبونهم يعلمونهم السرقة والميل ، والغواية تعنى أن يستدرجه ذكر
أكبر منه فيتلقه ويفسد كينوته الناموسية الطبيعية ، كانت تلوح له بذلك ولا
تصرح ، قبل نزوله الحارة تقول بصوت هادئ ، مبتلثة بمأثورها « جمال
يا ولدى » ، ثم تذكر فى لين تحذيرها ، مخافة أن يستخيله شاذ أو عابث ،
تحذره من الانحناء ، وركوب أى طفل صغير أو كبير فوق ظهره أثناء اللعب ،
تقول وقد اكست ملاحظها جدية وصرامة إن هذا من أقبح الأفعال ، أنه
رجل ، والرجل يجب ألا ينحنى أبدا ، تنبه إلى ضرورة ابقاء جلبابه مسدلا .
تلقى إليه القول مبذبة اللامبالاة أحيانا ، كأنها تحكى أمرا هينا ، غير ذى
أهمية ، كثيرا ما يكون ذلك فى قعدة الظهيرة بعد فراغها من أمور البيت ،

وبدء انتظارها اليومي ، تقول ما تضرع ، بينما معراجها الداخلى على أشده ،
«إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر» .

أما تحذيرها له ألا يأكل عند امرأة غريبة ، فلأن الإنسان يجب أن تكون
عنده عزة نفس ، فإذا لقي نفسه جائعا والمقام غير مناسب ، ومن غير المناسب
الجهل بصاحب الطعام ، يجب أن يكبح جوعه ، وألا يمد يده إلا إلى صحن
يألف صاحبه . ويكون قادرا على ردّ مقابل لما أكل ، تلك أصول وجذور
وعلامات يجب عدم الحيدة عنها ، فنعلم عقي الدار

يمثل أصلى ، حتى إذا قرصه الجوع أثناء اللعب ، يهرع إلى منتصف السلم
مناديا : ماما .. أنا جائع ، ابعنى لى رغيف ، فإذا دعت إلى الصعود ليأخذ
ما طلب ، عنى ذلك أنها لن تستبقه وستسمح له بالعودة ، يعرف أنها
لا تقول شيئا وتفعل ما يغايره ، فإذا دعت إلى الصعود ثم العودة للعب
صدق ، وأمثلة . إذا أرادت منعه تعلقه فى غير ذى عوج ، أدرك من قديمه
لا تموه ولا تستدرج ، لا تلفظ قولا له أصل وظل إنما صورته فى أصله ، هذا
حالتها ، وقد بقيت عليه وثبتت .

ينادى جمال :

«ابعنى لى رغيف ..» .

تلك بارقة ، جملته ، لم يدرك ناطقها أنها ستصير علامة دالة وإشارة إلى
ومتكأ على .. ، وأن ألفاظا قالها طفل لا يعنى ، ستقلب دهرًا عتيقا وتبعث زمنا
آفلا ، وتبدد مغارة النسيان ، عبارة مندثرة الآن من عالم الممكنات ، قائلها
شب وأمعن المضى فى الطريق ، حتى أن ادراك كنه الصلة بين ما كان عليه
وقت نطقها وما أصبح عليه قبل معراجها يحتاج جهدا ومشقة ، عبارة تبدد
ناطقها فى فسحات الكون وذرى ، يصعب التفتيح عنها فى منزل الأصوات

الباقية ، أمر يحتاج إلى جهد جهيد ، أنا هو ، لكنني لم أفه بها ، لهذا كله سأطلب في البيان اراحة لى قبل الآخرين ، وريا لظمتي قبل رى غيرى ، حق على أفراد فصل بعد الخامس الإذن ورجاء الإشارة ..

تفصيل

أقول كما قال القائل :

ديار بأكتناف المغيب ندمع
وما أن بها من ساكن وهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب
فيصمت أحيانا وحيثا يرجع
فخاطبت منها طائرا مفردا
له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تلوح وتشتكى
فقال على دهر مضى ليس يرجع

يا من يتلقى غنى ، يا من لم ألتق به ولن .. يا من لن يدرك جوهرى
الأول ، تلك عبارة لا تعنى شيئا عند الجيم الأعظم ، ولكن لا تستخف ولا
تسخر ، فعند حين مقدر قد يتخلص ما عاشه الإنسان فى تموجات عبارة ، أو
إيماءة ، أو ظل لون كوني ، هذه العبارة بدأت تلوح فى أفق حنين الأم عند
عمر معلوم ، بعد أن شب وسعى مبتدئا حياته بعيدا عنها ، أراها تتحدث إلى

جارة قريبة لم أتبين ملامحها ، تقول وعلى وجهها ضياء ابتسامة :
« كان جمال يلعب التهاركله فى الحارة ، حتى إذا تعب .. وقف فوق السلم
وصاح .. » .

هنا تتغير ملامح الوالدة الكريمة تغيرا طفيفا ، تبدأ محاولة ظاهرها محاكاة
صوت من سكن رحمها جينا قبل أن يسى ، وباطنها استعادة لحظة
مندثرة ، و احياء حقبة غاربة ، إنها تلفظ العبارة وعندما من الدهشة قدر غير
يسير ، جمال يسافر بمفرده ليسى فى بلاد نائية لم ولن تراها ، الدهشة تميد
فتحول إلى تأثر ، غير أنها تتقن الاحتفاظ بما تبطن فلا تظهره إلا فيما ندر ،
وهذا من أقوى وأجل خصالها ، لكم أخفت ، ولكم كمت فما صرحت حتى
لا تقلق عزيزا ، أو ترعج غاليا بألم قد يشعر به .

هامى ذى تقف بأحد الأسواق ، تحاطب الحاج فؤاد تاجر الأثاث
القديم ، فى عينا نظرة حيرى ، تدرك أنها تبدى التعجب من أمور لا ينبغى
إظهار الدهشة من تحقق وقوعها ، تقول :

« جمال كبر الآن يا حاج ، الأيام فاتت بسرعة ، والله كأنى أراه البارحة
عندما .. » .

ثم تذكر الموقف ، وتتلو العبارة ..

تلك قعدتها فى صالة البيت الذى خرجت منه إلى الأبد ، المقعد بعينه ..
الفراغ الذى تنظر إليه ، تعبته بعينها ، فيها أصداء سفر ، وآثار رحلة
منهكة ، هى مجهدة ، يتقل دماغها ، تتوالى الأفكار ، تتقلب صورا ولحظات
متداخلة بما حوت ، توشك أن تعقو ، تن رقبها . تكاد ذقتها أن تلامس
صدرها ..

« يا ماما .. ابعنى لى رغيىف .. » .

تنتبه ، يتوالى شهيقها وزفيرها ، ناداها بالحس ، أصغت ، تستعيد واقعها
إذ تتم إيقافها ، يستجيب صدرها بتنيدة خافتة ، مثقلة ، كأنها غمامة ، خفيفة
ناثية ، مقبلة ، تسوقها رياح ، منذرة بسحب تتبعها مسحة .
ها هي ذى فى صالة البيت ، بعد نقله الكتب إلى بيته الجديد ، بعد فراغ
رفوف المكتبة ، تصفى إلى صدى صوت الجدة «الدودة» إذ تقول : «مبروك
يا بنحيتك جاءك ولد» ، تصفى إلى الصرخة الأولى ، كان جبال صامتا لا يجب
الكبار أن يعاملوه معاملة الصغار ، فى يوم بعيد رجع باكيا لأن الأسطى سيد
الحلاق نهره عن قراءة الجريدة خوفا من تمزقها ، يغيم وجهها ، تعلق متجاوزة
الفراغ الذى يشغله وجودها المادى ، تتجاوزة ، تموش ابتسامتها ، دمعتان
دننا من مشارف مقلتها ، تحاذر البكاء وجبال يستعد ليوم عرسه ، شوم ينبغى
تجنبه ، لا تدرى من قال يوما على مسمع منها إنه يخشى على أولاده من بعده
ثلاثا : جور السلطان ، وغلبة النسيان ، وافتقاد الحنين .

عندما اقترزت بأحمد ، كانت كالعدد الصحيح ، يتبدى من أقل
الكية ، اثنان ، ثم يتزايد بلا نهاية ، جاء خلف ، وتذكره خالقه ، جاء كمال
وأوفى مدته طفلا ، جمال أول من عاش ، جاء اسماعيل ، وجاء محمد الذى
لم يتم ، وجاء من تجهل فقد أجهضت حملها ثلاث مرات ، وجاءت نوال ،
وجاء على ، وكل منهم واحد ، سيصير اثنين ، وفى عين الوقت الذى
سيتريدون فيه ستتقص هى ، سينأون عنها ، تصبح كأول الكسور ؛ تبدأ من
النصف ثم تمر فى التجزؤ بلا نهاية ، كلامها من حيث الابتداء ذو نهاية ، ومن
حيث الانتهاء غير ذى نهاية ، الأصل واحد لكنه هنا يتكاثر وهنا يتجزأ ، والله يعلم
وأنتم لا تعلمون ، هاهى ذى أصابع يديها متشابكة ، مستغرقة فى جلستها الأوموية
كأنها على وشك أن تحموم عدم وجود المحنى عليه ، فى عينها دهشة وجل ، تقف

عند تخوم أنهار حزين واستغراب للسهولة التي انقضت بها الأوقات ، لليسر الذي يتم به الفراق ، إلى ريك يومئذ المساق ، وهنا أكف عن الإطنا ب خوف الملال والنفور فأعطف صوب ما كنت عليه ١ .

رجعى

إنه مدخل الدرب ، إنه ضريح سيدى المجاهد مرزوق ، تلميذ سيدى أحمد البدوى ، إنها ظلال المسجد العتيق تلزم مدخل الحارة ، روائح شتى ، مزيج من رائحة الجير النطفي ، والأصباغ المنبعة من دكان عبد الحميد المبيض . هذه رائحة عطر غامض منبث من نوافذ الضريح المبارك ، رائحة الظلال المستقرة منذ اكتمال البنيان ، رائحة قدم ، وبلاط مضلع يغطى أرضية الحارة ، وأخرى غامضة يصعب تحديد مصادرها ..

هنا .. تقف سناء ، أكبر منه بعامين أو ثلاثة ، لا أقف على تفاصيل الملامح ، غير أن ما يحف بها من بهاء أسنى لا يحطته نظر ، لا تنجى إلى الحارة إلا نادرا ، لا تلعب مع الأطفال ، لا تخالط كاميليا ، أو علياء ، أو عزة ، وآها مرتدية أثوابا عديدة ، غير أنها مثلت في وعيه دائما مرتدية فستانها الأخضر ، ذا الباقة المرتفعة ، تماما كما استقرت لور في لب حشاشة قلبه مرتدية دائما قبصها الأحمر النيلى الصوفى ، وينظرونها الأسود القطي المصلى .

إنه يقترب من سناء ، في جيبه تلك المحفظة ، لم أدرك كيف اتصل حوارهما كيف بدأ؟ رأيتها يمشيان ، يقفان عند دكان عم حسن تحت المسجد القديم ، عم حسن يرتدى جلبابا ، وطاقية لاتفارق رأسه صيفا أو شتاء ، دكانه منخفض عن الطريق ، جذرانه حجرية ، لا يبدو منه إلا رأسه وكفها ، إذ يخاطب

الزبائن ويلبي حاجاتهم ، رائحة السجائر قوية ، كذا التبغ والنشوق ، أما الحلوى فستقرة داخل أوعية زجاجية متسخة ، غير أن أهم ما اشتهر به ، بيعه أوراق اليناصيب ، وأن الكثيرين يتفادون به ، في ثلاثة أعوام متعاقبة فازت ثلاث ورقات باعها بالجائزة الكبرى في ياناصيب الاسعاف .

يعد أصلى يده إلى جيبه ، لا يبرز المحفظة ذاتها ، ربما رآها صاحبها ، تصير فضيحة أمام سناء ، كما أنه يخشى العاقبة ، يتسم عم حسن فيلوح الفراغ في مقدمة فم الخالى من الأسنان ، قطعنا شيكولاته ، تناول سناء إحداها ، لا تنتظر إليه ، لا تلتفت ، تحتفظ بها دقائق ، قرب حارة الميضأة تبدأ فض الورقة ، فيبدأ يرقها خلسة ، لن يأكل قبل أن تبدأ هي ، شفتاها ورديتان ، نديتان ، تقضم قطعة صغيرة ، يتوقعان أمام بائع للجيلاتى ، بقدر سروره يكون خجله ، يظن أن عيون الخلق كلها ترقبها ، مدركة هويتها .

قبل باب النصر توقفا ، لم يتجاوزاه ، هذا حد لم يبلغه ، كما أن شواهد القبور فوق المرتفع خارجه يمكن رؤيتها من موضعها ، خشية غامضة تثيرها هذه القبور عنده ، عندما سحب الوالد في عصار ولت إلى هذه الناحية ، وجلسا فوق السور الحجري الذى يحد الخندق العميق الممتد تحت حائط القاهرة القديم ، كان يحاذر ألا يقع نظره على الشواهد البادية فوق مرتفع من الأرض ، شعور غامض لم أدركه يغمره ، يقبضه إذ يقترب من القبور . في مرحلة متقدمة من طريقه غزاه خوف من الموت ، عانى من حدة الادراك ، وخشية المجهول ، والحسرة على فوت كل ما هو بهيج ، فأعان الخالق من بدأ احتضاره في عز شبابه ، استمر سنين قبل تمام الأجل القدر ، وبارك ربى البررة الكمل الذين قطعوا الطريق كله وهم لا يهابون ، وأمضوا الوقت كله لا تلهيهم تجارة ، وقد كانت أمى وكان أبى من أهل ذلك في خلق

الأول ، كذا أمي وأبي في حلولى هذا ، لم يشطا ، لم ينأيا ، فسبحان من له الخلق والتبديل ، ويأخذ ويعطى لا معقب لحكمه وهو على كل شيء قدير .
هذه سناء تجلس أمام أصلى داخل دكان الفطير عند مدخل حارة الرشيدى تنظر إلى المارة ؟ ربما ، إلى الطريق ؟ ربما ، إلى الطبق ، جائر ، غير أنها لا ترنو إليه ، تمسك الشوكة فى يد ، والسكينة فى يد ، تمضغ على مهل ، حيره استخدامها الشوكة ، يخشى مجاراتها فيرتبك ، أو يبدو منه ما لا يليق ، الفطيرة ساخنة ، يبرز منها حشو الكريمة البيضاء ومرى حمراء ، غير أنه لا يقرها ، لو أنه بمفرده لتناولها بأصابعه ، لفها وقضمها ، يسأله الرجل : « لماذا لا تأكل ؟ » يقول : « نفسى تعبت فجأة » ، يتساءل الرجل : « ألفتها لك ؟ » ، يتطلع إلى سناء ، يتمنى لو قال : نعم ، لكنه يخشى أن يبدو ذلك أمرا غير لائق ، يمضى ، هى إلى جواره ، لا تخاطبه ولا تجاوره ، فقط تسأله من حين إلى آخر ، « كم بقى معك ؟ » .

يعبران حارة الدرب الأصفر إلى شارع المعز ، قرها يسرى عنده ، فيه لذة ، شربا سويا ، أحب المشروب الأبيض السميك ولكن لم يرتق إلى مرتبة الخروب . ارتشفه متمهلا ، مضغ اللوز والبندق وأحب ذرات القرفة ، حاذر ألا يصدر عن فمه صوت مفاجئ يبدو منكرا ، خاصة أن حواسها مقتصدة ، إن وحشة مفاجئة تقسو عليه ، كيف يأكل شيئا لم تلتوقه أمه ! كيف يطعم ما لم يوضع أمام أبيه وشقيقه ! .

سناء تمشى الهوينا ، تقدمه دائما بخطوة أو اثنتين ، كأنه لا يصحبها . ولا تصحبها ، مشيا عبر درب قرمز ، وعندما احتواهما برطوبته وظلاله المعتمة ازداد قربا منها فعرف العبير الأنثوى ذا الخصوصية ، وهذا غير معين يقوى فى إناث دون غيرهن ، ويتعلم عند أخريات ، لا عجب ، فن الزهور ما كان متعة

للنظر ، يدون عقب ، ومنها الفواح المسكر ، عرفها أصلى فى قلة من إناث
الفهن ، وتمكنت حواسه منهن .

حدث فيما بعد أن صحب حسن صاحبه لزيارة معارف فى ناحية الدرب
الأحمر ، عندما فتح الباب ، بدت شابة خمرية ، طويلة الشعر ، معها ضخ
البيت كله رائحة الأنوثة تلك فياضة ، طاغية ، جسدها يشب داخل الثوب
قلبا ، فائرا كالماء يغلى فى قدر مكثوم ، يود لو أفلت ، لو عبر ، غير أن ما لفت
انتباهه واستنفر حواسه قاطبة ، رائحتها الأنثوية ، وهذه الرائحة أو ذاك العبير من
المسائل الدقيقة ، من الصعب الاحاطة بكنها أو مصدرها ، أو التعبير عنها
بمفردات الكلام ، عرفها فى قلة ، كما صادفها فى امرأة مضمومة ، مدملجة ،
حنون ، تبيع الهوى فى بيت قديم ناحية العباسية ، دهش وأدركه عجب ، إذ
ظن الرائحة لا تتبع إلا عن كائن خص بوضع مكنون ، مستور ، فن أين لهذه
المرأة بها والرجال يتبدلون عليها فى اليوم الواحد مرات ، خاصة لما عرف عنها من
رقة ، وعدوية مجاوية ، واحاطة بالموضوع ، ما شده إليها أنها كانت فواحة ، لها
حضور ، وحنانها باد ، حتى أتى عاينت منه فى هذه الجهة ما لم أره منه إلا فى
خلقه البديل ، عند مضاجعته لور ، إذ يذفس أنفه فى ثنايا شعرها ، ويمرغ
الوجه عل النهدين ، ويتمنى التلاشى .

هذه الرائحة الأنثوية عرفها داخل هذا القبو العتيق الممتد كالمهبل ، لم يكن
اقترابه من سناء بدافع شهوة تحركت ، إنما بتأثير جذب غامض مبعثه هذه
الرائحة ، بعد اجتيازهما القبو يتنفس بعمق ، غير أن رائحة سناء يتبدد بعض منها ،
القبو للمها وصانها .

لما خرجا إلى ميدان بيت القاضى التفتت إليه ، تستفسر بصوت حياذى ،
كم تبقى معك ؟ ، يهز رأسه ، لا شيء ، تقول : هيا بنا ، غير أنى لم أتبعها ، لم

التفت إلى الجهة التي غربت عندها ، ذلك أننى رأيت لور ، هى بعينها ، بأطرافها ، بحضورها الباسق ، تقف تحت شجرة من بلاد شمالية ، أما الأرض المغروسة فيها فضمن إقليم جنوى ، وأما فروعها فتشترى فى فراغ مدينة تقوم حيث لاجهة يمكن تعيينها ، لور ، ظل الندى ، وصدى الخاطرة ، هذا وقتها الأرق ، وتلك وقفها الشفيفة ، واطلاتها ذات السهوب .

هنا أكشف عن خيئى ، ذلك أن لور هذا اسم أمر صاحبى وأصلى بتسميتها به ، إذ أنه كلف بالستر على أمور بعينها ، من بينها اسم هذه البنية ، فكتمته فى هذا التدوين ، أما اسمها الحقيقى فقد توزعت حروفه فى ثنايا مقام الاغتراب ، وجرى التلميح إليه خفية ، فمن رغب التدقيق والتحقيق فليراجع ما تم تدوينه .
لور تقف بين عناصر متباعدة متقاربة ..

فماذا جاء بها إلى هذه الجهة ؟.

من أتى بها إلى الزمن المبكر ؟.

ظلمت إليها ولم أرتو ، تقف ولم أهدأ ، فحننت إلى انتظارها قدومى ، وسنا عينيها إذ ترانى ، لم أعد قادرا على تتبع البنت التى صحبت أصلى فى هذا اليوم النائى ، أشرفت لور على الجهة كلها فلم يعد إلا هى ، وتبدد ماعداها ، وقد كنت أنوى الحديث عن عزة التى أصبحت راقصة فيما بعد ، وكاميليا التى اجتازت عمرها بدون رفيق ، وثرى الجميلة الراسخة التى مضت إلى بلد بعيد ، وعن محاسن التى أنجبت أحد عشر ذكرا وانثيين ، كلهن لزمان هذه الجهة ، غير أن ظهور لور أبدل الخطوة ، لم يعد إلا هى ، إنها الأصل ، غمرنى ما كان سيمر به أصلى ، ما أذهلنى أن الوقت انقضى ، وأنتى مختم مشاهدتى هذه الجهة ، لابد من الاقلاع ، ولأنتى راحل ، ماض قسرا ، فقد أنشدت :

أقطع الليل كله باكتاب

وزفير فما أكساد أنام
نحو قومي إذ فرقت بيننا الدار
وحادت عن قصدها الأحلام
وأنشدت :

كفى حزنا فراقهم وأنى
غريب لا أزار ولا أزور

وهنا سمعت من ينادى :

«الزم ولا تحدد..» .

أتطلع إليه كايّا ، أدرك أن عهدي بهذه الجهة قد ولى ، وأننى ماض إلى
آخر الجهات المعلومّة ومختمها ..

* * *

الجهة الغربیة

«وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا»

(قرآن کریم)

.. جثتها يصحني دليلى ، رأيت درجات الشفق ، بدايات الليل ، قرب اكتمال الغروب ، هنا أطلعني دليلى على عدة كتب تخص والدئ ، كتاب يحصى أنفاسها ، يقرن كل نفس بموقفه ، وكتاب يحصى خطواتها ، ويحدد مواطئ السرى ، وكتاب فيه كافة ما حلها به ، إن فى يقظتها أو منامها ، وكتاب يلخص مشيرات أحزانها ، ملحق به فصل دون بواعث أفراحها ، وكتاب حوى تفصيل كل ما وقع عليه بصرهما . لم أقرأ إلا العناوين ، لم أحط بما دون ، لم أدر سبب اطلاعى على عناوين هذه الكتب دون الوقوف على تفاصيلها ، أو الإلمام بما احتوته ، ولئى فصولى إذ أطلعنى بسرعة على لحظات متباعدة ، متفرقة ، غير أننى أشهدتها متجاورة ، كل منها تعقب الأخرى ، برغم انتماء هذه إلى حقبة وتلك إلى أخرى ، فما أبلغ النفار ، وأعظم التضاد !..

رأيت فى لحظة حرقة أصلى على الفراق حتى ظننته يوشك أن يهلك ، فى لحظة أخرى يستعيد ما كان ثم ينسى ، فى الثالثة يسرى إلى المثوى ، حتى إذا دنا واستوى جالسا تذكر وسعى فبكى ، وفى الرابعة يمشى قاصدا زيارة المثوى غير أن فكره يسرى متطرقا إلى أمور شتى ، أدهشنى تفكيره فى مقدار الشقة التى ينوء بها إذ يمضى إلى مرقدهما ، تلك لحظة أخرى ، يهب عليه حزن مفاجئ فىطرق حتى يكاد يقعى ، أما هذه اللحظة فتمت إلى فجر عيد الأضحى ، إنه يستيقظ

مرهقا وإذا به يتأهب ويضطج ، يقول إن القيظ في الخارج لشديد ، ذهابه سيكلفه عسرا .

ها هو ذا يدخل البيت الذى عاش معها فيه ، الذى خرجا منه إلى الأبدية ، فلا تطوف به صورة ولا ترد عليه ذكرى ، ها هو ذا يمضى . الأوجاع العتيقة ، والأزمنة التى كانت مألوفة نائية ، يقسم برحمة أمه وأبيه ، القسم الذى تجنبه طويلا ، الذى عاف التعلق به وخشى ، صار عنده مألوفا ، يقسم به صدقا وأحيانا كذبا ، فهل عاد كالرجلين القديم ؟ .
أنسامل :

هل اكتمل الغروب .. هل دنت لحظة يبدو فيها ما كان كأنه لم يكن ؟ .
لا إجابة من مرشدى ، إنما يتردد فى سمى قول قديم للأمم ، لم أدر متى قالته أو مناسبة قوله ، حتى أننى ظننت مصدره جهة الغروب ذاتها .
تقول متأسية :

وأصل الإنسان نسأى يا ولدى .. .

أستعيد من وجودى القديم ما حيرنى وأثار عندى ما أثار ، ذلك أن طريق اليومى كان يمزج بموضع المقابر خارج المدينة ولسبع سنوات متصلة صباح كل ثلاثاء ، وأمام شاهد محدد ، أرى امرأة شابة وحيدة تحثر ، تدرف دمعا ، تنحنى فى مناجاة صامته ، لا أدرى مما تقول شيئا ، ولم يقطع عهدى بها إلا بعد تأبى عن هذا الطريق ، فما لأصلى تهت عنده الأصول ، ولم يتم من الأعوام إلا خمسة على رجيل الوالد الكريم .

يقولون إن الدنيا تشغل الإنسان حتى عن ذاته ! .

إنى غير مقتنع ، غير متقبل لما اطلعت عليه .

يجئ مرشدى إلى موضع غروب الشمس ، ما رآه أصلى من فوق السطح

عند تطلعه ، فن ذلك بؤرة المدينة ، مركزها ومبانيها ، مصدر الأصوات المتداخلة ، المتدغمة ، أرى أفقا مشريا بحمرة ، خفيفة وردية ، غامقة ، ثم يا قوتية تتدرج إلى سواد ، في لحظات معينة بعد ميل الشمس يشف الفراغ وينحف ، فتصح الرؤية وتمتد ، يرى الأهرامات الثلاثة كالظلال عند حد الأفق ، لا يحول دون بصره حائل ، كثيرا ما توقف الوالد وحدق ، أمعن البصر ، لا ينطلق ، لا أدرى في أى الأمور فكر وتأمل ، ولى هذا تماما ، اندثر ..

يطلعنى دليل على من جاء إلى هذا السطح وعبر ، فهذا رجل من جهينة ، خرج الوالد عند صلاة الفجر فلقيه بجوار ضريح الحبيب الحسين ، بدا متعبا ، ضائعا ، سكتة صعبة ، وماله قليل ، فأقسم الأب واصطحبه . الرجل ليس غريبا ، يمت بقرابة إلى والدين ، مد الأب جبلا في وسط الغرفة ، ثبت إليه ملاءة حجبت نصف المساحة ، أقام الرجل ليلتين ، في الصباح يخرج مع الأب ، يفترقان عند الإمام الحسين ، يسعى كل منهما ، وفي المغرب يلتقيان ، ترقيها الأم أثناء العشاء ، بعد شرب أكواب الشاي الثقيلة ، يتمددان ، تنسحب إلى ما وراء الملاءة يتمدد أصلى بجوارها ، وصغير لا أتبين ملامحه ، فلا أدرى ، أهو كمال أم اسماعيل

الغرفة تفيض برائحة الضيف ، العرق الممتزج بنسيج الصوف ، يغيب الرجل ، غير أنه يتردد من حين إلى آخر ، شال عمامته أصبح نظيفا ، ملامحه أقل اجهادا ، عنده تجارة ، وشونة غلال ، ومال وخير وفير ، من المدينة تزوج بامرأة أخرى ، قاهرة ، بيضاء شعرها طويل ، مكشوف ، قال إن وجهها ذو فأل حسن عليه ، تباعدت زيارته ، ثم جاء زمن انقطع فيه عن الحجى ، غير أن الوالد لم يكف عن زيارته ، وعندما علم بخبر المقبرة التي بناها قرب ضريح

الإمام الشافعي ، قال موصيا اياه : ادفني هناك . فليس لنا مأوى ، ضحك الرجل قائلا ، يا سلام يا أحمد .. أنت ستشيعنا كلنا ، وقد كان ا . إذ مشى أبي في جنازته ، وليلة العزاء وقف بجوار الأولاد يصافح من قدموا وهم كثير ، غير أن المقام لم يطل به ، بعد أربع سنوات أتم طريقه ، وبدأ هجرته الكبرى وورقد على مقربة من الرجل .

أشار دليلي إلى رجل بدين أصلع ، قال إن اسمه الطيب ، إنه يجلس فوق حشية أمام باب الحجرة ، أصلى يقعد إلى جانبه ، يتلقى درسا ، خشى الأب ألا ينجح في امتحان نهاية العام ، غير أن جمال رجا الوالد أن يدعه يتم دراسته بدون مساعدة ، لم يجيئ الطيب إلا مرة واحدة ، إنها التي رأيته فيها ، هل استجاب الوالد لرجاء الابن . أم أنه انقطع لسبب آخر؟ . هذا ما لم أقف عليه ، غير أنني علمت متعجبا ، دهشا أن أصلى عاش حتى بدء اسرائه من مدينة فاس يذكر خطوط الرجل في كراسته . كذا توقيعه ، لا يقدر على استعادة وجهه ، أو ملامحه .. فما أعجب ذلك ا .

نهني دليلي إلى عبد العال ، كان ينادى الوالدة قائلا : يا خالة . وهي ليست شقيقة أمه إنما تمت إليها بقرابة ، في ملامحه شبه خفي منها ، إنه منتظم الزيارات ، لم ينقطع عن الحجى إلى السطح ، أصلى يقعد بجواره ، يصغى مبهورا إلى ما يرويه عن قوم يعيشون في الغابة ، يأكلون لحوم البشر بعد طهيهم أحياء ، إنه يشم رائحة عبد العال ، لماذا يوقن أن رائحتهم تشبه رائحته؟ . بعد رحيل الوالد الكريم ، وذات يوم كان أصلى يهبط الدرج ، رأى عبد العال أمامه ، رأسه منخفض بين كتفيه ، هل صار أقصر؟ ربما ، قال إنه تردد على العمل مرات ولم يحده ، دعاه إلى مكتبه وأن بدا متعجلا ، وعندما خاطبه فوجئ به يقول له : يا ولد الخالة ، ثم بدأ يقول له ، سيادتك ، حضرتك ،

فتخرج أصلى من ذلك ، هو الذى كان يجلس إلى جواره طفلا غريبا يصنى إلى مروياته ، وما يقصه عليه من أنباء العالم الذى كان فسيحا بقدر وقتئذ ، رجاه عبد العال بحكم الصلة ، والأيام المتقضية ألا يحمل شأنه ، عنده من الأولاد خمسة ، والراتب شحيح ، والظروف معسرة ، لولاحت أى فرصة للعمل ، للسفر .. لعله يعرف أحدا ذا صلة ! .

يطلقني مرشدى على إبراهيم أبو الفضل ، إنه من الأقربين ، ممن رافقوا الوالد آجالا ، لم أراه فى مقهى الفنلق ، أو فى صلاة الجمعة ، أو فى لقائه الأسبوعى بالوالد أو فى بيته بالعباسية عند انجابه الابنة التى شهد أصلى زواجها بعد سنين طوال ، لا أراه عند عبوره ميدان الحسين ، لا أشهده مرتديا جلبابا بلديا ، يمضى فى القرية مرشحا نفسه ، ساعيا إلى أصوات الناخبين ، إلى جواره دائما الوالد ، إنما أراه عند عبور السطح منصرفا عقب افطار رمضان ، يجلس أصلى إلى جوار الأم وراء الباب ، يقول إبراهيم أبو الفضل : « تسلم يداك بأمر جبال .. الكناقة حلوة جدا .. » .

حلوى الأم هذه لما شرح بطول ، إذ أنى ورثت عن أصلى تفضيله لها ، ودقة تذوقه لها ، ولأنى عشت رحيل الأم بدلا منه ، فقد افتقدت مذاقها ، صرت أبحث عنه بدون جدوى ، ولهذا تفصيل قادم ، أما إبراهيم هذا فعرفت برحيله المفاجئ ، المباغت ، أفضى لى أحد أبناء البلدة بالنبا ، وعندما جلست إلى الأم وكان ذلك أول أيام عيد الفطر ، عندما صحبت امرأة أصلى وولديه الصغيرين ، أنا أبوهما ، رحت أتطلع إلى وجه الأم الذى بدا منهكا ، متعبا ، يوشك أن يوفى المدة ، لكن من يدري ومن يعلم ماذا سيصير غدا ؟ . رأيت تعبها بعد صيامها شهر رمضان كله ، فى زمنها هذا كنت أدنو منها ، معها وبها أوشك على مصالحة ذاتى على ذاتى ، كنت أرقب حمرة الغروب ، ولا أعلم ، أرقب دنو الليل واكتماله قلت :

«البقاء فى حياتك ...» .

«من ؟» .

«ابراهيم أبو الفضل ...» .

«ياه ...» .

متأملة بدت ، رجعتى الماضى إلى أولاده ، ألا أهمل العزاء ، الرجل كان عزيزا على الوالد ، غاليا عنده ، أطوقت . رأيا كدرة ، ندمت على إخبارى لها ، ما خفف عنى أننى لم أقدم إلا على ما يطابق جبلة أصلى وجوهه ، هنا أطلعتى مرشدى على كل من وفد إلى السطح ، أشار إليهم ، سماهم . أدركت أن أوانا انتهى ، أن ما يشبه الشفق يولى ، وأنتى أجتاز الحد الذى يبدأ بعده الغسق ، وأنتى مقدم على طور أعانى فيه ما أعانى ، ليس باعتبارى بدىلا للجمال ، أو صورة منه ، أو ظلاله ، ولكننى باعتبارى أنا أنا ، عندئذ يتغير الحال ، وتلوح الحقائق ، فليس من تكلم عن نفسه كمن أخبر عن غيره ، ليست الثكل كالتأمة المستأجرة ، وليس من شرب ماء بئر واحدة كمن شرب من آبار ، متى ستحقق ذلك ؟ مطلب هنا وعز ، صعب ، ولكن مع تحول الأضواء إلى عتمة كابية ، مع قرب اكتمال الغروب ، ومضى الشمس بعيدا ، وحاجتى تتزايد مع مجيء الليل إلى الرقعة ، تعمق وحلى ، أدرك بحس خفى أن ما ظننته بعيدا يدنو ، غير أن اكتمال الغروب يجب أن أشهده حتى أقف على بعض مما احتوته هذه الجهة .

أرى صاحب البيت ، قصير القامة ، ممتلئا ، الشيخ حسين ، يقف عند منتصف السطح ، إلى جواره رجلان ، أحدهما يرتدى جلبابا ، يشيران ، يقيسان ، وعند لحظة بعينها يخطو الشيخ لقيس السطح بخطواته بعد أن شمر جبته قليلا ، الأب ، الأم ، مطرقان ، مهمومان ، أمر لم يعد له العدة ،

أخيرا اكتملت الحجرات ، قامت فوق فراغ السطح ، سدت الجهات الأخرى ، من خلف الباب تصفى إلى قدوم المتفرجين ، يدخلون ، يتفقدون دورة المياه ، يسألون عن قاطنى هذه الحجرة فتسمع من يقول لهم ، أناس فى حالهم طيبون .

فى احدى الليالى ترددت فوق السلم خطى ، اتجهت عبر السطح إلى جهة الغرف الجديدة ، أطل الأب مستطلعا ، رأى شابا ، إنه أسمر ، غزير الشعر ، ناعمه يحمل حقية ، قال إن اسمه عبد الهادى ، كاتب فى فرن أفرنجى ، قال إنه متزوج ، امرأته مقيمة فى قريتها بمديرية الشرقية وأن والدها اشترط عليه تهيئة مسكن مناسب حتى يسمح لابنته بالذهاب إلى مصر .

كان عبد الهادى يستيقظ مبكرا ، يسمع صوت قبقابه عند توجهه إلى دورة المياه ، ثم ينصرف ، لا يرجع إلا بعد العشاء ، الحق أنه فى حاله ، لم يدر منه ما يزعج ، لكن ضيق الأب لم يتبدد ، هذا لا يليق ، لو أن الأمر وصل إلى البلدة لصارت جرمة ، ولد الغيطانى يسكن بجوار أعزب ، هذا ما سيقولونه ، الناس ألسنتهم طويلة .

فى ليلة طرق الباب ، فتح عبد الهادى بابه ، بدا مدغمس العينين ، يحمل لمبة غاز ، رأى الأب طبقا به بقايا فول ، يحواره كسرة خبز ، واجهه الأب بعينين مزوريتين ، طلب منه أن يقسم أنه متزوج ، فأقسم ، تناول حافظته من جلابه ، فرد ورقة مؤكدا أنها وثيقة زواجه ، قال إنه يدبر أمره ، بعد أيام سيشتري سريرا ودولابا ، ثم يسافر إلى البلدة ليعود بزوجه ، ابتسم وقال : يعنى ياعم أحمد.. هل أنا راض عن حياتى هذه ؟ قال الأب إنه مستعد كى يصحبه إلى تاجر أثاث قديم ، بعيد ترميمها وطلاءها ، وبييعها بثمان بخس .

فى اليوم التالى رجع مبكرا عن مواعده ساعتين ، مضى بصحبة الوالد إلى الحاج

لا يقدران على منعه ، على رده ، شرع صاحب البيت في بناء ثلاث حجرات من الخشب «البغدادلى» المطلى بالجير والحصى ، ستكون دورة المياه للجميع ، هذا ما لم يعدا له العدة ، لم يتوقعا حدوثه يوما ، آن لفراغ السطح أن يتدد ، وقعدة العصر ألا تتكرر ، والإيجار مع النظر عبر السبل المؤدية إلى الأفق .

الشيخ حسين صاحب البيت ، متصرف فيه ، شاء بناء السطح وسيفعل ، إنه ليس مستأجرا يمكن منعه من الصعود، إن عهدا يتقضى، ستقوم جدران، تستد الجهة الشمالية ، لن يمكن القعاد في شمس الشتاء ، أو الوقوف والتحديث الصامت إلى تلك الجهات ، سيحىء غرباء ، سيصنى كل منهم إلى قلبه في فراشه سيسمع تردد أنفاسهم ، دورة المياه لن يلقاها متاحة عند الضرورة ، سيقف رجل غريب ، فضولى ، متخيل ، ينتظر بينا امرأته تقضى حاجتها . منذ أعوام لم يرض بسكنى حجرة تشترك في دورة مياه مع حجرات أخرى مع أن الحال كان معسرا ، ضنكا ، هل يقبل الآن وأطفاله أربعة والحال ميسور بعض الشيء ، واقع جثم عليه ، لا يمكنه دفعه ، لكن كيف الانتقال إلى مسكن آخر؟ العثور على إيجار زهيد مماثل مستحيل الآن ، أى الأمور تخفيها الأيام؟ ، لم يمض وقت طويل حتى ظهر البناءون جاءوا بالواح الخشب ، وأكياس الجير ، وصفوا علما شتى ، وصناديق ، بعضها صغير ، والبعض كبير ، أوصى امرأته ألا تخرج إلى السطح ، غرباء لا يعرفهم ، أوقات طويلة انفضت والباب مغلق ، لا تفتح إلا عند عودة جال من المدرسة ، تبقى النافذة مفتوحة ، لولا صحبة العيال ، وانشغالها بهم ، وهذه النافذة المظلة على البيوت ، لتشابهت الأوقات ، يسعى الأب ، لكن أين المأوى المناسب ؟. الأمر يحتاج إلى جهد وبذل مال .

قزاد بشارع أمير الجيوش ، تم الأمر ، بدت الغرفة ضيقة بعد نصب السرير الخشبي .

مر أسبوع ، أسبوعان ، في كل عشية يستفسر الأب عن موعد وصول الزوجة ، حتى استيقظ صباح الجمعة ، قابل عبد الهادى خارجا من دورة المياه مبتلا ، نضرا ، قال مبتسما ، غابزا بعينه ، الجماعة وصلوا يا عم أحمد ! . في اليوم نفسه زارت الأم جارتها الشابة التي وصلت ليلا ، لكم بدت حية ، هادئة ، إنها جميلة ، شعرها أسود غزير ، لوجهها شفاية كمقل العصافير ، ملاحظها متعة للناظرين ، قالت الأم : لو احتجت أى شىء ستجدينه ، اتبعت قولها اقراضها طبقا من الصاج ، لم يكن لديها إلا طبق واحد ، ولما لاحظت أنها لا تمتلك طشتا لتغسل وتستحم فيه ، قالت إنها ستعيرها ما لديها عندما تطلبه .

في الليل قالت الأم : البنت هادئة ونحجول ، ثم قالت : غريبة ، ثم قالت : وأنا في مصر غريبة ، عادت الأم إلى قعدتها أمام الغرفة ، في مواجهتها تجلس هدى ، هدى تزور الأم ، تدخل عليها نهارا مرات ، عند اقتراب عودة الأب تدخل كل منها وتغيب عن نظر الأخرى ، تغيب المنغصات غير أن الأب لم يهدأ إنه يحعد حرجا عند الخروج من دورة المياه ، لا يمكنه النظر في خط مستقيم ، كما أنه لم يقترب من عبد الهادى ، كما دنت الأم من هدى ، ثم ما ينفره منه ، يذكره بكثيرين من أبناء المدينة الذين تجنبهم ، ونأى عنهم ، ليت الأمر اقتصر على عبد الهادى ! .

بعد زمن غير قصير بقيت فيه الغرفتان الأخريان خاليتين ، سكنتا في أسبوع واحد ، بل في يوم واحد ، استأجر الأولى رجل نقاش اسمه عيد ، جاء بزوجته وسبعة أطفال ، أما الأخرى فترها رجل عجوز يبيع الروائح العطرية عند ضريح

الحبيب ، وأحيانا داخله ، إنه بمفرده ، وقد جاء بعدد من الأجولة ، وصناديق ورق مقوى ، وزجاجات فارغة ضاقت بها الغرفة ، وضع بعضها في فراغ السطح الضيق .

أصوات عيد وامراته وعياله تسمع حتى ساعة متأخرة من الليل ، كما أنهم يشغلون دورة المياه أوقاتا طويلة ، امرأته محبة للشجار ، تحرشت بالأم مرات ، غير أنها تجنبتها ، أما هدى فلم تغلت منها ، علا صوتها مهددة بضرب فرجها وقص شعرها ، وعندما عاد عبد الهادى أول الليل كاد أن يطرح عيد أرضا ، لولا تدخل الأرب ودعوته كلا منها أن يذكر ربه كثيرا ، أن يهدئ حاله .

فوق السلم ، قال المجرسى للأب :

« لم يعد السطح مناسباً لك يا أحمد .. » .

بعض زملائه من الساعة أخبروه عن مساكن مناسبة قرب الوزارة ، أوفى الهرم ، غير أنه أبى ، لن ينأى عن ضريح الحبيب الحسين ، قال إن روحه هناك .

أراه يقف في شرفة بيت ، ينظر حوله متفحصا ، ويبدو أن الأم بصحبته لكننى لم أتمكن من التدقيق .

مشاهد عديدة تتوالى ، لا أتبين على وجه الدقة ما تحوى ، تتداخل الحدود ، وتذوب الملامح ، أضطر إلى تقطيع عيني ، أتبين جاهدا الأم ، تلملم حاجاتها ، الأب انتهى لتوه من فك السرير ، والدولاب ، العربة التى يحرمها حمار هزيل تقف تحت فى الحارة ، إنها لحظات الانتقال من طور إلى طور ، من حال إلى حال .

أعلم أن الأب أقدم على تأجير شقة صغيرة فى عمارة حديثة ، على ناصية الدرب الأصفر القريب ، الايحار خمسة جنيهات وربع ، أى ما يتجاوز نصف

راتبه الشهري بقروش ، غير أنه مضطر ، الأم تستعد لمفارقة السطح ، جزء من عمرها موزع هنا ، في هذه الغرفة جاءها الخاض ، فأرسلت جمال إلى أم حليلة الداية ، جاءت المرأة ، وضمت وعاء الماء فوق الموقد ، هكنا وفدت نوال إلى الدنيا ، نوال ابتها الوحيدة ، مستودع سرها فيما بعد ، وأقرب الخلق منها ، لكم رغبت وتمنت من قبل أن تنجب ابنة ، فالابنة للأم غير الابن ، في الغرفة أيضا جاء على ، آخر من أنجبت ، بعده أجهضت مرتين ، ختمت بعل ، عانت في ولادته وعانى معها ، عندما أطل على الوجود جزعت لمراى رأسه المستطيل ، فزعت أكثر لرجفاته المتتابعة ، حتى أنها أبدلت اسمه ثلاث مرات ، من محمود إلى إبراهيم إلى .. على ، بعد أن سمته عليا زالت الرجفات فرضيت بالأمر ..

هنا فوق السطح ، في بقعة يقوم فوقها الآن جدران وسقف غرفة عبد الهادي بكت أمها ، سحت دموعها حزنا وألما ، إنها ظهيرة نائية من ذلك العام فوجئت برجوع أحمد من عمله مبكرا على غير العادة ، بدا متاثقا ، مهموما ، إنها تعرفه ، لا يمكنه إخفاء نبا عنها ، وعندما قعد في هذه البقعة بعينها ، جلست في مواجهته ، استفسرت ، مالك ؟. قال : لا شيء ، قالت : لكنك على غير عادتك ؟ ، قال : لا ، بعد صمت لحظات لفظت السؤال الذى خشيت اجابته ، هل هناك مكروه في البلدة ؟ ، تطلع إليها ، لا يقدر أن يخفى ، أخرج من صديريته خطابا ، قال : أنت مؤمنة يا أم جمال ، صرخت ملتاعة : أمى ؟ ، مد الخطاب إلى أصلى الذى وقف يرقب ما يكون ، بدأ يقرأ الخطاب المرسل من خاله ، يخبر عن مرض الجدة عائشة مرضا طويلا ، وأنها طلبت منهم إخفاء ذلك عن ابنتها حتى لا تضطرب ولا تتخض ، حتى اشتد الأمر وطلع لها خراج كبير في فخذهما الأيسر ، فذهبوا بها إلى طهطا ، إلى أحسن طبيب في البندر

النائى ، قال إن الأوان تأخر ، وأن مرض السكر قديم ولم يعالج منذ بدئه ، عادوا بها إلى جهينة ، لم يطل الأمر ، إذ شاء القدير على كل شيء ألا يبطىل عذابها .

قبل آذان الفجر استرد صاحب الأمانة وديعته ، ففست راضية مرضية ، لم تصرخ ، لم تلطم ، إنما انقضبت ملاعها ، وضمر وجهها ، قالت بحس مكوم وقعه أشد وأنكى من الزعيق والصراخ : آه يا أمى ، وبقيت فى بهت إلى ما بعد العصر ، حتى رجاها الوالد أن تبكى ، أن تلطم ، أن تشق ثيابها حتى ، وردد ما يمكن قوله عن قضاء الله ، والموت الحق على كل إنسان ، صحيح أن الفراق صعب ، لكنه قدر لا قبل لنا به ، ولا قدرة على رده ، ومن شاء غير ذلك يكون كافرا .

بقيت صامته ، التصق بها أصلى ، أدرك أن أمرا ثقيلا قد وقع ، وأنها المرة الأولى التى يواجه فيها مثل ذلك ، أيقن أنه لن يرى جدته مرة أخرى ، لن يستمع إليها أبدا ، وكما لُزمت أمه الصمت ، سكت هو ، فى الليل بكى الأم ، اهتز جسدها وكان نشيجها خافقا ، مرا ، وفى الصباح بدت عيناها محمقتان ، مغيومتان ، غير أنها أعدت الشاى ، وأصرت على ذهاب أحمد إلى شغله . فوق هذا السطح ، فى قعدتها وفى عمق وحدتها أغفت ، جاءها والدها فى المنام ، مرتديا البياض ، بدا كما هو ، تماما كيوم خروجه مليا نداء الجبال ، لامس ذقنها بأطراف أصابعه ، طمأنها ، قال إن أمها فى أحسن حال ، وأوصاها ألا تبكى فالبكاء يؤلم الميت ، يؤذيه ، ويقلقل مضجعه الأبدى ، ولتقرأ لها فاتحة الكتاب الشريف ترحا عليها مساء كل جمعة ، لتذكرها بالخير أمام أولادها ، ولتذكر أن الدنيا لا تدوم ، قال ما قال ثم اختفى . فى هذا الموضع قرب الجهة الشرقية كانت تجلس صباح يوم بعيد ترتق

ثوباً ، على مقربة منها اسماعيل وجمال يطل إلى الجهة الغربية ، عندما طنت حولها ذبابة غريبة ، زرقاء الجناحين كأنها صبيغا من ضوء شفيف ، رفعت أصبعها ملاسمة فيها عذرة ، يجب الصمت ، الكف عن النطق ، خشعت ، دارت الذبابة مرات حولها ، حطت على كتفها ، ثم ارتفعت مولية ، بقيت ساكنة تترب فلما أيقنت من نأياها ، من ذهابها ، قالت : إنها روح جدتكما جاءت لترورنا !

بالضبط كان ذلك في هذا الموضع ، إنها تنزل الدرج ، تحمل حقيبة ، تولى ظهرها لعمراً ثم ، لن تصعد مرة أخرى ، فلم تعد إلى السطح أبداً ولن تصافح جارتها ، توغل في التزول ، منتقلة من طور إلى طور ، من زمن إلى زمن من مكان إلى آخر ، ومنذ هذه اللحظة رضيت ونفرت ابتعدت واقتربت ، تقلبت في أمور شتى ، تعاقبت عليها مشاعر لا حصر لها ، ونزلت مساكن شتى ، وكل سكن وعاء لزمن ، اكتسبت كافة ما مر به أصلى ، وهو غزير ، غريب . لكم كان بودى أن أطلعكم على المراحل كلها ، أن أقف بكم عند كل محط ومستقر ، لكن مع اكتمال الغروب ضاعت ملامح الجهة الغربية ، ونوديت أن أولى شطر مشارف الهجير الأعظم ، أمر صدر ، وكان على أن أمتثل ، كما أننى نيت عن التصريح ، وأن أبقي مادونته تحت عنوان «السراثر والقول» مكتماً ، أن أصونه حتى يحىء الإذن ويلوح التصريح ، فأظهره ، وأشهر تفاصيله ، وأنشر ماحواه من أحداث وأحوال متى تلوح البشارة ؟ هذا ما أجهله الآن ، وإن كنت ملماً بأن على الإنسان أن يعلم الكثير حتى يدرك أنه لا يعلم ، أما الآن فإننى مأمور بالولوج إلى حال الوداع ، يتقدمنى مرشدي الذى نيت عن التصريح بهويته ، والوداع حال عزيز ، وعرض صعب الاقتراب منه كذا الخروج عنه ، قدم لى على ما عداه ، وعندى لاحت لى منه بشائر الهداية ، واقتربت الذات من

الذات ، فيه اتضحت نيتي ، وللنية في الأمور سلطان عظيم ، مثل المسافر الذي
يرد مدينة ويبقى مدة ، فإنه لا يصير مقيماً ما لم ينو الإقامة ، وإذا نوى صار
مقيماً ، ومع ادراكى هنا عرفت أيضاً أن كل ما هو عابر لا يبقى ..

* * *

حَالُ الْوَدَاعِ

«تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ»

(قرآن کریم)

.. صال على زمني ، وكرت أيامي ، فاستدلت الأمور إلى أصولها ، ودنت
الغصون الأقاصى من جذوعها ، قال الشيخ الأكبر ، ما أن التقى طرفا الدائرة
حتى حدث المحيط . إذ يكتمل فإنما يدل على نقطة الدائرة التي أوجدها ،
فالمحيط يحفظ النقطة علما ، والنقطة تحفظه وجودا ، أمى كانت المحيط ، وأنا
بمترلة النقطة .. الإجابة فرع من السؤال ، والسؤال عويص ، منتهى الدائرة
نقطة بدئها ، ينعطف الأول على الآخر ليتلاشى كل منها ، فما حار أهل الحيرة
سدى ، أمر عظيم ، وخطب جسيم ، المشهد عام ، والوجود طام ، الحكم
نافذ ، أما اللحظة فحرجة .

هكذا ولجت الحال لحظة خروجي من باب البيت ، يرزؤنى ثقل غير مرئى ،
قطعت الطريق الطويل غير مصدق ، عند دنوى تطلعت عبر النافذة إلى شرفة
صاحبي ، يوسف ، رأيته واقفا ، مرتديا حلته ، أم عياله ترتدى السواد ،
ياسود لباب حظي ، هذا تبار المحنة لم يزل بعد في بدايته ، وقوفها علامة ،
طاف عندي خاطر ضعيف ، لعلها لم تتم بعد ، لعل الترع قائم ، وجهها مستسلم
هادئ ، طريح ، أنا الذى لم أعتد رؤيتها هاجمة ، لعل ظلال الأنفاس
باقية ، مترددة ، فيتاج تبادل عبارة ، أو مجاوبتها بنظرة ، ذاك حسبي .
يلقانى جار قريب ، وأواجه منحنيا ، مثقلا بما لا يدرك ولا يرى ، بوصفى

بالصبر والشدة ، أذن .. يترسخ اليقين ، أصدد السلم مستنلا إلى الجدار ، هذه الدرجات نزلتها منذ عشر ساعات ، عندما جثتها بمصطحبا عيالى مودعا ، إذ يجب على الرحيل فجر اليوم التالى ، يصل إلى مسمى بكاء مكوم ، نشيج متصل ، ويرغم اتشاحه بالجوى الملوع أتعرف على نجيب أختى ، تنادى أمتا أن تقوم ، أن تهض ، أن ترد عليها كما كانت ترد ، أمتا التى لم تتأخر عنا ، تسعى منا وإلينا ، ترجوها ألا تطيل رقادها هذا ، لقد طلع النهار ، وهى لم تقابل النهار نائمة أبدا .

باب المسكن مفتوح ، كأنه لم يغلق أبدا ، مباح للموت ، أجتازه ، أعبره إلى داخل خلا منها ولم يحل بعد ، هى هنا وليست هنا ، وجود ولا وجود ، وهذا أشق ما يواجهه إنسان .

من عويل شقيقى ، من قعدة جارتنا فوق الأريكة داخل الغرفة التى بقيت نحصى حتى بعد انتقالى إلى بيتى الجديد ، تتمدد فى الموضع عينه الذى أشغله كلما جثت ، فوق سريرى ، أنجه إلى الشرفة ، أخشى لحظة المواجهة واليقين فأرجتها ، أميل إلى الجدار ، يهمس القوم ، تجلد ، أنت الأخ الأكبر ، أخوك مريض ، أما أختك فتوشك أن تنفطر ، إنها تقعى بجوار السرير ، تنشب أظافرها فى جلباب أمتا المهاجرة من هذا الكون ، نوال تأبى الحركة قيد أتملة منذ تمام الأمر وأنقضاء الأجل ، أما اسماعيل فيفصله عنا يباب شامع ، أنه هناك ، انقضى على سفره أربعة شهور ، يطلب العلم فى الطرف الآخر من المحيط الأعظم ، باقى على عودته ثلاثة شهور ، جثت إليه مودعا ليلة سفره ، لقيته مضطربا ، يشكو وجع المعدة ، رأيت الأم معصوبة بحزن عتيق لا يبدو إلا فى أوقات الشدة ، إنها ضنينة بأوجاعها .

قالت لى : إن اسماعيل مريض ، وأمامه سفر طويل ، تطلعت إليها ،

أدركت كم تعاني لتعجب ، والكتمان خصلة قديمة معها ، منذ وحدتها في
جبهة قبل أن يصحبها أبي إلى مصر ، في تتبعها لأحوالنا ، واحتفاظها بأحزانها
لفراقنا ونأينا عنها ، وسكوتها عن فعالنا ، عدا إبدائها اللوم من بعيد ، وقعه على
أثقل من تصريحها ، قطعت رحلتها ساعة لأرضائنا ، وبث الطمأنينة عندنا ،
وذبح المكاره عنا ، وهنا أمر يطول شرحه ، غير أنني أكتفي بالإشارة ، ليس عن
ترفع إنما عن عجز .

في ليالى سهري المتقضية ، المباداة ، أيام تحصيلي الدرس ، أو عند بدء
المجاهدة لأعلم ما لم أعلم ، لم تكن تغفوا أبدا ، تقعد على مقربة ، تشارك بالحضور
والصمت ، حتى إذا تمكن منها تعب ، ومال رأسها مثقلا ، مرغما ، فإنها تفيق
فجأة ، تفتح عينيها دهشة ، تخلق مبتسمة ، تؤكد بلفظ موجز ، دال ، « أنا
صاحبة » ثم تأوى إلى سكون شديد ، على شفيتها نبا بابتسامة ، فأى الصور أى
البواعث ، أى الصور والأفكار أى ؟ ، يا حرقه السؤال الذى لن يلقى إجابة
أبدا .

قالت يوما لأم عيالى : عندما كنت أنده على جمال ولا يحينى ، أعرف أنه
مشغول ، مستغرق ، فلا أكرر النداء ، أما سعيها وكدها زمن العسر والمشقة ،
فلا يمكن الإحاطة به ، أمى التى قضت زمنا مددا تجهل الدروب والشوارع
وانعطافات النواصي ، لا تخرج إلا بصحبة أبي ، عرفت الطريق إلى عبد الهادى
البقال ، إلى باعة الخضر ، إلى جزار تخصص في بيع لحم الأبل رخيص السعر ،
تلتف بملاءتها السوداء ، تلتف حولها حذرة ، تعبر مسرعة ، ساعة في الزحام
ما أنا إلا امتدادها ، فأنا منها ، وهى منى ، ذلك حشر علينا يسير .

حدثتني الكاملة التى تم سعيها ، التى خلفت آثارا صعب على عيون الغرباء
نينيها ، حدثتني فقالت : « خرج أبوك يوما متعبا ، حاله ضنكا ، خفت عليه

وخشيت ، فسعيت وراءه ، أدركته عند عبد المنعم البقال ، رأيتته متهدل
الأكتاف ، يرحوه أن يعطيه جينا وييضاً . أن يصبر عليه يومين .. فقط يومان ،
يقول له البقال : أبدا لن أبيعك بقرش واحد ، صعب علىّ حال أليك ، أعلم
يا ولدى أن أوعر شيء عند المرأة أن ترى رجلها منكسرا ، أو مهانا ، شدّيت
يده ، قلت بصوت مرتفع : تعال يا أحمد .. سيك منه ، يا جمال .. أبوكم
تعب ، أبوكم ذاق المر ، يومها قلت له أن يبيع السرير ، يمكننا النوم فوق
الأرض ، لكن .. لا يمكن أن يقف هذا الموقف أبداً .

قبل سفر إسماعيل رصدت تشاؤمها ، لحت وجلها ، حزنها الدفين ، لكم
بلذت من جهد ، أشد ما تخشاه أن تظفر من عينها عبرة عند سفر ابن ، هذا
نذير تتجنبه ، ألم تودع أمها مبتسمة عند خروجها من جهينة إلى مصر ، مع أنها
أخفت ما أخفت ، فكيف تدع إسماعيل ؟ كيف تتركه يرحل وآخر صورها عنده
مبللة بالدمع ؟ ، سفره أرقها ، أغمّ خواطرها ، وألقى ظلالا على توقعاتها ، وأغمّ
زمنها الخاص المستعاد بالخيالة ، غير أنها لم تبج .

قالت : أخوك مريض ، أنا قلقة عليه ، أمامه سفر طويل ، صحبته إلى
طبيب ، كشف وفحص وأشار بعلاج يسير ، نصبح بالسفر ، إنما الأمر
اضطراب عصبي وله بالمعدة أعراض ، ودعت إسماعيل ليلة سفره ، وكما يحدث
عند الفراق ، يكتشف الإنسان أنه لم يعرب عن كثير ، لم يفصح عن كنه
مشاعره ، إن فرصا عديدة ضاعت ، يتمنى لو تأجل الأمر مقدارا هينا يعوض
فيه ما فات ، تحمل أحزان غامضة ، هذا حالى وأنا الأخ الأكبر ، فما البال بالها
هى ، وإسماعيل منها بمنزلة الضياء من العينين ، فهو مؤنسها وصحبها بعد
زواجى ، وبعد رحيل الوالد الكريم ، ما بال حالها هى المريضة بداء السكر منذ
سبعة عشر عاما ، قبل سفره عانت ما عانت ، دارت بها الأرض ، راحت

تهوى في جب سحيق أسود ، حتى أيقنت أنه التفاف الساق بالساق ، وأن
الفراق واقع .

كانت وحيدة في ذلك العصر ، تصادف بحىء الجارة الطيبة ، أم محمد ،
بعد افاقتها من غشيتها قصت ما جرى ، وما عن لها من رؤى ، طلبت منها أم
محمد أن تتمدد .. عصرت ليمونتين ، قالت لها لا بد من ذهابك إلى طبيب كبير .
هنا لا بد من وقفة . فهذا حد مسلط على ، ذلك أنى دخلت عليها يوما ،
زيارة من الزيارات التى كان أصلى يقوم بها ، استقبلنى صامته ، لم تقل لى
ما بها ، كنت أجيء - مثله - بادی التعب ، ما أرجوه أن أراها بخير ، فيسكن
قلبي ، ويهدأ بالى لراحتى ، وهذا عين الأثانية ، ولب انفصالى عنها وعن ذاتى ،
لكنه طبع جبل عليه أصلى ، ليس منى ، لا يمت إلى جوهرى العتيق ، وما أنا
إلا مأمور ، مكلف باتباع ما كان عليه أصلى ، ولو رمت إبدال أمر بأمر عسر
ذلك وصعب .

رأيتها ساهمة واجمة ، فلما استفسرت لم تجبني تصريحها ، لم تبادل بالافصاح ،
فن خصصها كتمان ما بها حتى الألوان الموائى ، لا تفاجئ عزيزا بنبا مزعج حال
دخوله عليها ، إنما تنتظر ، وشيئا فشيئا تبوح حذرة ، خشية منها وحرصا ، لم
يغب عنى يومئذ سكوتها ، وتشقق نظراتها ، إذن .. ثمة أمر تحجبه ، لم يرث
أصلى هذا عنها ، لم يتقل إليه ، إذ كان يبدى ما عنده حال رؤيته لها ، لا يبق
على أمر ولو لحظة ، لا يلفظه على حاله ، إنما يضخمه ، فتبدى الجزع
وتصنى ، تعطف وتحنو ، تبذل الجهد الأتم لتخفف وتقصم .

سددت إليها البصر أثناء تناولى طعامى ، لم تنث الى ، لم تلتفت ، هى التى
تتبه بمجرد تطلعى إليها حتى إذا كانت مولية الوجه والبصر بعيدا عنى ، خفت

فتساءلت ، التفتت الى ، قالت باختصار :

« ياريت تشوف لى دكتور كويس يا جمال .. »

قالت إن علاج المستشفى لم يعد كافيا ، لا تلق الإهتمام ، سكنت مقدار لحظة ، قالت :

« والله ، افتكرت نفسى راح أموت يوم الخميس ... »

قصت على ما جرى ، غير أنها خففت الوقع ، انصرفت مهموما ، وعندما ابتعدت عن البيت استعدت عناقتها لى ، ضمنتها الأمومية ، مضيت إلى المقهى ، قلت لواحد من أقرب الخلق الى ما أخبرتنى به ، حكيت عن لهجتها المختصرة الدالة ، المشوبة بنذير ، قال منها ، ناصحا :

« جمال .. لا تهمل أملك . »

استفسرت عن اسم طبيب كبير ، ذكر كل منهم اسما ، معددا فضائله ، بعد أيام ثلاثة جثتها ، لم أكن بعد قد اتصلت بالطبيب ، حال دخولى عليها ، سألت :

« حجزت لى ؟ »

« أين ؟ »

قالت :

« عند طبيب .. »

قلت :

« الليلة سوف .. »

قاطعتنى معاتبة ، وفى الصوت مرارة :

« ألم أقل لك ، ألم أطلب منك ... »

هذا أقصى غضبها ، وأصعب عتابها ، تلك خيبة أملها ، كل فى ذروته ،

فى أوجه ، وأنا بمترلة البلىء ، الصءى؁ لماذا لم أفعل ؟ لماذا أءلت ؟ أو مئلا ذلك ىءمل الإراء ؟ .

قالء بعء لءظات :

« على أية ءال .. اسماعىل ذهب بى إلى طىب فى مصر الءىءىة .. »
عءئذ مرى ماكان سىءعربه أصلى؁ راحة وانزىاح ءقل لأن شقىقه قام بما وءب علىه هو؁ وإن بقىء ءءلا؁ أءىء بعنى وأناى بنظرانى .

فما بعء قصىء على بعضا من أنباء هذا الطىب؁ كىف يلقاها ؟ ءرءىه بها؁ إئثاره لها؁ أمره بءءولها على فور وصولها؁ كان يقول لها إنها ءذكره بأمه؁ لىس فى الهىة؁ لكن فى الجوهر؁ قبل سفر اسماعىل قالء لى إن الءوار البغىض فاءأها أثناء تأهبا للصعود إلى العىاءة؁ ءمىعت أرضها؁ واضطرىء موءوءاتها .

قال :

« والله يا ءمال أنا ءائفة .. »

فما بعء؁ فما ءلا اكءال المءة؁ ءءئنى شقىقى؁ وقء كانت أقربنا إلى الكاملة؁ أءىءى الءى ىءرءء عوىلها الآن فى مسمى؁ قالء : رأىء أمنا صباء يوم بعىء ساهمة؁ كمءة؁ قلت : ماذا بك ؟ لم ءفض إلى؁؁ إنما هونء بإشارة من ىءها؁ لاشىء؁ غىر أنى ألءء؁ فأفضىء إلى؁ بما أعمء وءوءها؁ قالء إنها رأت المرحومة عائشة - قرىة لها - فى المنام ءبسم وءءعوها أن ءبىء؁ أن ءأنى؁ ألا ءهاب؁ فءءطء نءوها؁ لاماىع ىوقءها أوىرءها . قلت لها؁ ءءك يا أمى من الأحلام إنما هى هواءس؁ وماءمء قء أفضىء بها؁ فهذا ىعنى فساء أءرها؁ ءطلءت إلى؁؁ لم ءبب؁ قالء نوال أءىء : كانت نءرا ءلوح بوارق ءومض لكىئا لم نئبه ! .

عءءما سافر اسماعىل لم ءقل له أن قلبها ىنبئها إنها لن ءراه مرة أخرى؁ وأنه

سيرجع فلن يلقاها ، إنها سترحل قبل عودته ، لم تصرح ، ولم يطلعها أنه أدرك جواها ، فسبحان علام الغيوب ، ودعته بقلب منقطر ، وفؤاد ملتاع ، غير أنها كتمت فلم تبيح ، سلت إيتسامة من أغوارها لتواجه بها ، يجب أن يتذكرها مبتسمة ، إنه ماض إلى اغتراب ، ويا .. عالم متى يلتقي الحى بالحي ؟ فأى أرزاء ناء بها قلبها أى ! .

ماذا رأيت من المراثيات عند خروجه ؟ كيف تواتت دقات قلبها ، كيف شعجا فؤادها عندما وصل زميله ليصحبه إلى مطار الاقلاع ؟ كيف ترددت أنفاسها عندما اختفت السيارة من مجال بصرها ، عندما غاب عنها اسماعيل ، عندما غربت بالنسبة له وهى لم تزال بعد تسعى ، عندما انقلبت إلى عدم وهى بعد باقية ، كيف ؟ ، هذا ما لن أعلمه أبدا ، هذا ما توارى ، ما انطبقت عليه الغياهب ، بيانه مجهول ، غامض عندى ، مستعصى الكنه على ، وعر الإدراك ، ذلك أننى تقاعست ، فلم أودع اسماعيل ، تمحججت برحيله مبكرا ، ومترل اقامتى البعيد .

فى اليوم نفسه جثت إليها ، أعرف قسوة نهارها ، فليس أطول ولا أثقل من يوم الفراق ، بادرتنى باللوم على غير عادتها :

« ليه ماجيتش الصبح لتسلم على إسماعيل ! »

تعثر نطقى ، قلت شيئا عن بعد المسافة ، وشيئا عن الوقت المبكر ، ثم حدثت عن الجرى ، ققلت : لا تخزنى على سفر اسماعيل ، تقبليه بقلب راض سبرى الدنيا ، تعرفين أنه تعب ، مرهق ، وأن فرص سفره قليلة ، هذه الشهور ستفرج عنه ، ادعى له بالسلامة . أومأت واجمة ، وعندما حان انصرافى قبلتها مودعا ، إذ كنت على سفر فى اليوم التالى ، سفرى لأيام ، ورحيله لشهور ، سفرى متكرر ، معتاد ، أما غربته فغير مألوفة لها ، ثم إنه هو المقيم بقرىها ، خلا

عالمها منا ، إسماعيل وأنا ، لا يمكننى معرفة كنه الأيام الأولى بعد أن خوى البيت ، بعد أن صار انتظارها عقيما ، لا ينتهى بوصول من تحب ، الثالثة ظهرنا تدنو ، وإسماعيل ناء ، الطريق قفر ، ممتد ، ولا أمل فى ظهوره بين العابرين ، عينها لن تقعا على من تبغى رؤيته وتتمنى قربه .

حدثنى أختى بعد أن وقعت الواقعة ، كأنها تكلم نفسها ، أنها لحت الغالية تفتح صوان الملابس يوما ، تقلب هدموم إسماعيل ، تنفض الغبار عنها ، تعدل وضعها ، تقرها من شفتيها ، تتحسس راحتها بأنفها ، ثم تغمض عينها ، تلف وجهها بقميصه ، تنسم رائحته ، فهل كانت تدرى أنها لن تراه ، وأنه لن يراها أبدا ؟ وأنها عندما ودعته صباح ذلك اليوم البعيد من شهر مارس أنها كانت تبدأ وداع الأقربين ؟ قالت نوال إنها كانت تنفض فراشه صباح كل يوم ، تنظف حاجاته ، ترتب كبه ، وأوراقه ، وعلبه الصغيرة التى تحوى أسلاكها ومفاتيح دقاقا يستعين بها فى عمله ، ومصباحا يدويا ، وزجاجة عطر ، وفرشاة حلاقة ، ومنفضة صغيرة من بلاستيك أعتاد نش الذباب بها ، تنظف اطارات صورته ، كأنه سيرجع فى موعده ، تماما .. فى الثالثة ، أو الثالثة ويضع دقائق إن تأخر . فى الليل تمر بغرفته تماما .. كما كانت تطمئن عليه بعد نومه واستغراقه أحيانا بعكم الفراغ قلبها فتولى داعية خالقها ، من بيده الأمر ، ألا يحرمها من طلته أبدا ، تتناول طعامها فى الوقت الذى اعتادته فى وجوده حوالى الرابعة بعد أن يكون قد فرغ هو ، وفى مطلع النهار تدلى السلة ليضع البائع الصحف التى اعتاد قراءتها ، أما أقسى أيامها فعطلات أيام الجمع الأسبوعية ، كان يتأخر فى نومه ، لا توقظه مبكرا ، كانت تجد الوقت والفرصة لتسحدث إليه ، لتفصى هى وليصغى هو ، فى هذه الأيام التى بدت لها باردة ، جوفاء ، تجلس فى الصالة صامتا ، راحلة بفكرها فى ثباتها ، مطرقة ، وإذ يفيض بها الشجن ، وتشتد

عليها أنواء الوحشة ترفع رأسها متنهدة متسائلة :

« يا ترى .. أنت فين يا اسماعيل يا ولدى ! »

فأى الصور؟ أى الأفكار؟ أى خلجات؟ أى أحاسيس؟ أى بواده؟ أى هواجم؟ أى شوق؟ أى توق؟ أى خوف؟ أى رجاء؟ أى مواقف متوالية انبعثت فجأة ثم ولت؟ أى روائح عتيقة مرقت؟ أى خواطر لم تلفظ؟ وكم من حال - أرخى عليه العدم سدوله - فاض به وضج هذا الجثمان الذى سكن ، الذى همد ، الذى بدأ اقلاعه صوب الفناء والأبد ، محتويا رحما كان محل تكوينى ومبعث نشأتى ، أول موطن لى ، لا يتقلب ، لا يتهدج ، لا يملك من أمره شيئا ، موجود وغير موجود ، فما أمر اللحظة ، وما أوعر الخطوة؟ إني مضطرب ، مثلث .. أقوم ، أنقل خطى بطيئة صعب جرها ، أولى وجهى تجاه الحجر ، على الأريكة تقعد جارتنا الجنوية ، الطيبة ، بجوار السرير تقعى نوال ، ربنا لا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، أعوذ بك من كآبة المنظر ، وسوء المقلب ، وعناء السفر ، ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به .

تقول الجارة :

« نوال تأبى الابتعاد عنها .. هذا حالها منذ الفجر .. »

أدنو ، اقترب ، ألمس كتفها ، تقول الجارة :

« دعوه ينظر إليها .. »

مدة هى ، مغطاة كلها بملاءة ثقيلة ، المرة الأولى التى أراك فيها نائمة اقترب فلا تتبهين ، أدنو فلا تهضين وعلى وجهك ابتسامة تخففين بها عنى وزر ازعاجك وإقلاق نومك ، ازيع الملاءة ، أتطلع إلى العمر الذى تم ، إلى أصلى الذى ذوى ، إلى جذرى الذى ييس وجف ، إلى أول المحط ومنتاه إلى بداية الدائرة وآخرها ، تغيرت ملامح كان عهدى بها طويلا ، غير الترع الشديد

القسمات ، هذا عناء ، هذه مجاهدة ، العينان مغلقتان إلى أبد آبد ، والفم مزمووم
بعد أن حاول دفع مالا يمكن دفعه ، ونطق مالا يمكن نطقه ، اليد مبثنية ،
والزبد الأبيض لم يصف بعد عند الشفة السفلى ، فأى ألم اجتاح الكيان الذى لم
يعش إلا ليحنو ، ولم يسع إلا ليشفق .

الوشم الباهت يتوسط الذقن ، أما الشعر فرمادى ، معظمه أشيب ، المرة
الأولى التى أراه فيها هى آخر مرة ، دائما كانت تغطى الرأس بعصابة ، لم أرها
حاسرة قط إلا فى هذه اللحظات النهائية ، كنت مأخوذا عنى ، غير أن أشياء
كثيرة انحسرت لا يسعنى إيرادها بتفاصيلها ، فى هذه اللحظة أدركت تمام
الرحلة ، وانقضاء الشوط ، غير أن الأمر لم يكن عبثا ، لم يكن بددا ، إلى أقف
شاهدا على رقدة ما بعد المجاهدة التى أثمرت وأعطت ، وتفرعت فى الكون سبلا
شنى .

عند هذه اللحظة تمت المصالحة ، تم الدمج ، تم الحلول فى الحلول ، لم
يعد بإمكانى القول أنها أم أصلى ، إنها أمى أنا ، جمال أنا ، وأنا هو ، لم يعد فى
ناحية وأنا فى ناحية ، أمامها تمت المصالحة ، هى التى ولت ، هى التى لم تعد
ترى ، ولا تصفى إلى صاحب أو قريب حميم ، التقى المسعى بالسعى ، غير أن
هذا تم بعد فوات الأوان ، وهنا أمر دقيق ، عسر تفصيله ، صعب بيانه ، ربما
أفضت فى شرحه إذا سمح الدهر وإذن لى بتدوين السرائر التى لم أفصح عنها
والمخاطبات التى سكنت عنها عمرا .

على مهل ، بدون قصد ملت على الجبين والوجه الذى تناثرت عليه بقع
خضراء ، آثار الترع الوعر ، فماذا جنت ، وأى ذنب أتت حتى يكون تمامها
مؤلما ، فظا ، قبلت الجبين الذى همدت حرارته ، وطويت بصرى الملامح التى
انطفأت ، والوجه المكدود ، الذى تقلصت ملامحه ، بين السماء والطارق .

على مهل سحبت الملائة الثقيلة ، ورأيت العمر الذى ولى كشهاب ثاقب ،
قيظ يوليو يشتد ، والنهار يتقدم ويبدأ ، بطيئا خرجت من الحجرة ، هنا فى هذا
المكان ، بجوار تلك المنضدة كانت تجلس منذ ساعات ، أو الليل الفائت عندما
جئتها لأسلم وأودع قبل سفر كان مقدرا له أن يبدأ بعد ساعات ، ومن عادنى إذا
شرعت فى الرحيل ، إلى خارج الوطن أو داخله ، أن أجىء فأسلم ، وأودع ،
أتم ذلك فى اليوم الذى يسبق سفرى مباشرة ، فانظروا يا صاحب إلى التدبير
المحكم فى الكون ، ذلك أننى قضيت يوم الجمعة بصحبة عيالى وأضمرت العزم
والنية على الذهاب إلى أمى غداة السبت للسلام ، قبل دنو الأصيل اتصل بي
صاحب لى من أرض الحجاز ، قال إنه فى زيارة عابرة وأنه ماض من بلد إلى
بلد ، يود لو رآنى ، حددنا للقائنا موعدا قبل الغروب ، توجهت بالسؤال إلى
امرائى ، أن تصحبني مع عيالى ، تمر بالصاحب ، لن أتأخر بصحبته إلا دقائق
معدودات ، ثم نمضى إلى أمى ، أراها وترانى ، أودعها وتودعنى ، ثم ان
ذهابى إليها بصحبة محمد إبنى وماجلة ابنتى أحسن وقعا عندها من ذهابى
بمفردى غدا ، فلکم تحب رؤياهم ، وتحرص على إبقائهم .

منذ عشرة أيام - وقتئذ لم أكن أدري أن العمر يقى منه عشرة لاغير - كان
من المفروض أن أصحابهم إليها ، غير أننى خرجت مبكرا بمفردى إلى اجتماع
يخص سفرى هذا ، مضيت وحيدا إليها ، ولما دخلت رأيتهما تجلس فوق
الأرض ، تعد باذنجانا أبيض محشوا يحبه ولدى حبا جما ويطلبه منها عند مجيئه
إليها ، تساملت :

« آمال فىن الأولاد ؟ .. »

تضمن صوتها لوما ومرارة رحمت أبلى أعتارا شتى ، دخلت الغرفة ،
لامست الموضع الذى تتمدد فوقه الآن ، جف قلبي فجأة ، سؤلها عنهم فيه

حدة لم أعتدها منها ، لوحت بيدها غاضبة ، نافثة آهة حزن ، لم تخف ، لم تدار ضيقها ، حتى إنها تبعثني ، ولامتني ، وأبدت الغضب ، بما دفع بالحرج والحيرة عندي ، فقلت مخاطبا شقيقتي :

«يظهر أن أُمي غاضبة على أكثر من أى مرة ، سأنصرف وأرجع بعد أن تهدأ ...»

كنت ألوح بما لن تقبله ، بل أهدد بما أعلم ردة فعلها عليه ، بما لن ترضى به ، وكما توقعت ، عادت إلى ، اقتربت مني ، وانحنت حتى كاد وجهها يلامس وجهي ..

« ما تزعل مني يا جبال يا ولدي .. كان نفسي أشوف ماجدة ومحمد .. أصلهم وحشوني .. » .

لماذا تكاسلت ، لماذا تقاعست عن صحبتها ، لماذا ؟ لماذا حلت بينها وبين أمر بسيط ، كان سيرضيها ، ويهدئ خاطرها ، لماذا ؟ هذا ما فات أوان استدراكه ، ما لفت نظري غضبها مني ذاك اليوم ، وأن تظهر ما أظهرت فهذا يعني أن بداخلها أضغافا مضاعفة ، فأى الأمور وارتها ولم تعلنها أبدا ، هذا ما ضاع مني إلى أبد ! ، وسبحان من ألهمني صحبة ولدي مغرب هذه الجمعة ، أهو وحى خفى بحكم نشأتي القديمة ، أو بحكم طوري الجديد ؟ ، لم تكن المصالحة قد تمت بعد ، فإلى أيها يمت الخاطر الطيب ، الذى جعلنى أصحب عائلتي ، وأمضى لأسلم وأودع وداعا لم أدر أنه الأخير ، عندما رأيته تقف بالمدخل كان النظر القصير يكشف لى أن ما تبقى على سفرى ست وثلاثين ساعة ، ولكنى كنت جاهلا بالموضع الذى ستكون فيه مساء الغد ، ليت الإنسان يعلم بما ليس يدرى ، أتت بما عندها من مشروب طيب وفاكهة ، ولما أبدت زوجتى رغبتها فى شرب فنجان من القهوة ، أسرعته تعدها لها ، لم تتكلم إلا

قليلا ، طوال الوقت تسند ووجنتها إلى راحتها ، توزع النظر بيننا ، وأى نظر ؟
أى نظر ؟ كانت بالجانب الغربى وما كنا بالعالمين ، كان يدنو بها العمر ونحن
جهال لا نعى الإشارة التى تتطوى عليها هذه النظرة ، لم يتوقف الخطر أمام
طبيعتها وكنها وسرها الدفين ، والنبوءة ، والمعنى الذى يعز فهمه ، وإن أثارت
عندى رجما بعيدا وأصداء استعصى على تفسيرها ، أطالت التحديق شأن من
يتروذ برؤى لن تقع عليها عينيه قط ، أو من توقن بإقلاع وشيك لا إياب منه ولا
عودة فتسمى إلى التروذ قدر الاستطاعة بلامح الأحبة الأقربين ، تقف عند نهاية
عمر أشرف على الحمام ، غمرها الشوق ، فانبعثت ترنو إلى الأم ، حدثنى امرأتى
فيما بعد فقالت : كلما تذكرت سلامها علينا بنظراتها ، وطواف عينها بنا
واحدا ، واحدا ، تدركنى رجفة ، كيف لم ندرك ، كيف لم نفهم ؟ .

عند هذه النظرة وقفة ، وإطالة ، ومحاولة تلمس ، فالمعانى عديدة وليست
مفردة ، أدق وأرق من أن تلمح ، مستعصية على الرصد ، غير آتى بأذى جل
الجهود للمحاولة ، أقول إنها حوت الدعة والركة والسلام الأبدى ، سلام يحل
بمن يشعر أنه صار قاب قوسين أو أدنى ، فيها الوعي بالفراغ من أمر هذا الكون
المربى ، فما من تبدل بعد ، ما من تغير ، ما من غضب آت ، أو ضغينة يحملها
المرء أو يضمرها له غير مترصد ، سلام أبدى فيه بيان للناس ، هذا من
جانب ، ومن جانب آخر فيها الأسى على ما لم يتحقق ، والحسرة لفراق
الأحبة ، والقلق الممض على ما يستظرهم وخشية المجهول ! .

ربما يصح قولى هذا ، وقد لا يصح ، غير أن ما أقوله أنا جمال ابنها ووالد
حفيدتها ، أن تلك النظرة استقرت عندى فى قرار مكين ، اختصرت ما
عداها ، دخلت غرفة شقيقى الغائب ، قلت إني تعب ، قالت : لا تعب
نفسك يا جمال ، وهون من الأمر ، ثم قالت : خد بالك من نفسك ، لم أدر

أنها تقول آخر وصاياها ، آتى لى العلم ؟ عندما دنا الحين ، قلت إن طريقنا طويل ، والليل يوغل ، وأنا سنخرج على حسن صاحبي الذى جاء من بلاد نائية حيث يعمل وقيم ، وأنا على سفر ، سأرجع فلا ألقاه ، ما من فرصة متاحة لرؤيته إلا الليلة ، ودعنا ، صافحت وسلمت وعانقتنا ، ضممتها إلى ، حتى نقلت رائحة شعرها إلى أنفى ، قبلت رأسها ، حتى أنها قالت لشقيقى بعد انصرافى : « جمال سلم على » واحتضنى بشدة .. أرجعه الله سالما . لوحث لها من الطريق ، نفس الموضع الذى رأيت منه أبى من قبل ، تلك الجمعة الأخيرة ، عندما دارت العربة مبتعدة ، تذكرت فجأة دواء الضغط ، طال بحثى عنه حتى عثرت عليه فى الصيدلية القريبة من عملى ، دواء شحيح فى الأسواق ، قلت لزوجتى ارجعى ، نسيت الدواء معى ، وقفت تحت الشرفة ، صحت مناديا ، أطلت ، طلبت منها أن تدلى السلة لأضع فيها الدواء ، رأيت يديها مرفوعتين ممسكتين بالسلة ، صحت بعد أن وضعت الدواء :

« ارفعيها يا أمى .. »

جاءنى صوتها ..

« مع السلامة يا جمال .. »

ثم جاءنى مرة ثانية :

« مع السلامة .. »

ثم وصل سمعى لآخر مرة :

« مع السلامة يا جمال .. »

هذا آخر عهدى ، ومنقطعى ، ومختتم سماعى لصوتها .

ركبت العربة ، آتى لى أن أعرف أن شمس اليوم التالى لن تطلع عليها ، آتى لى النفاذ إلى ما ستجىء به الساعات القادمة ؟ . آه .. ليت الجاهل يعلم بما

ليس يدري . أنى لى ذلك ؟ .

زرت صاحبي ، انصرفنا ، سلكنا الطريق ، تعددت فوق الفراش متعبا ، على أن استيقظ مبكرا ، ثمة أمور يجب أن أقضيها فى الغد ، رحت فى النوم مقدار ساعة ، أو ساعتين ، صحت على نداء زوجتى ، ما بين الإغفاء واليقظة سمعتها تقول إن بتا اسمها منى تحدثت ، وقالت إن شقيقى على سوف يتصل ، تساءلت ، من منى هذه ؟ من ؟ غير أن توجست ، أدت قرص الهاتف ، أيقظت يوسف صاحبي ، من قدر له أن يشهد رحيل أبى ، تساءلت : أئمة أمر غير عادى فى البيت ؟ قال إنه لا يدري ، طلب أن أمهله حتى يطل من الشرفة ، إذ يمكنه رؤية النوافذ الخلفية ، عاد ليخبرنى أن النور مضاء ، ثم قال إنه سيتزل إلى هناك ليستطلع الأمر ، وضعت الساعة وقد بدأ الخنائى ، رن الجرس ، جاعنى صوت شقيقى ، قال إن أمنا تعب ، وأن الطبيب جاء ، وقال إن النبض ضعيف ، قلت : انقلوها إلى المستشفى القريب ، وإنى لقدام . إذ صمت الليل فى مسمى ، قلت لامرأتى : « أمى ماتت » ، ثم قلت « أمى ماتت » ، ما من خبر يقين ، لكن حدسى أكد لى وقوع الواقعة التى ليس لها كاشفة ، نطقت بدون حذر ، لم أتردد فى التصريح بالموت .

فى الطريق والفجر مقرب كنت أميل إلى الأمام ، كأنى أحاول تلمس مدى أوسع للرؤية ، ماذا جرى ؟ ، لماذا يكون موتنا دائما عند الفجر ، لماذا نفارق العالم فجأة ، هكذا رحل أبى ، وهكذا أمى ، عندما تسارعت أنفاسها ، وارتفع الشخير ذو النذير ، راحت تتطلع إلى نوال أختى وعلى أخى ، وجاراتنا اللاتى جئن فى هذا المزرع اللئلى ، تبسط يدها ، تصارع قوى غامضة ، لانراها ، لانعرف كنهها ، وعندما برز لسانها قليلا أمكنها التفوه بكلمتين ، « هاتوا لى جمال .. » ، ثم أغمضت العينين وانقلبت متمددة فوق السرير ،

وجھها إلى الجدار ، منية الرحلة ، مختمة السفر ، وإنا لمقبلون كما انقلبنا .
هذا أنا أخرج خطاي ، الباب مازال مفتوحا ، المقاعد مضطربة ، فوق
أحدها طرحة أمي ، كل ما وضعته في مكانه حتى ليلة الأمس باق حتى تللمه
الأيدي ويتزوي فلا يراه إنسان أبدا ، صعدت السلم إلى مسكن الجارة حيث
الهاتف ، أدت القرص ، لابد من الاتصال بأقاربي الذين استضافوا جئان
والدبي في مقبرتهم ، هاتف كبيرهم عوض لا يرد ، أدت رقما آخر لشقيقه
الأصغر الذي يسكن بعيدا عنه ، جاعنى صوته مثقلا بالنوم ، قال إن هاتف
الحاج عوض معطل ، فاعتذرت ، أدت قرص صاحب لي من الأقربين ساعيا
إلى المدد ، لكنه لم يجيني ، نزلت الدرج .

تنوح شقيقي ، تؤكد أنها نائمة ، وأنها سوف تنجى ، وأن ماجرى
كابوس ، ملت عليها ، رجوتها أن تحافظ على أمانا ، أن تساعني حتى يكون
رحيلها كريما ، أن تدعها هادئة في رقدتها ، ثم تسألت : هل تغلبن أنها راضية
الآن عما فعلينه ؟ .. لا أظن ! ، بذلت المحاولة حتى فككت يدها عن ثوب
أمي ، ساعدتها على الانتقال إلى الحجرة الأخرى ، باكية نائمة ، والجارات
بصحبتها ، أغلقت الباب ، أمي وحيدة الآن ، كما ستكون بمفردها الليلة ، نائمة
عنا ، مطوية طي السجل للكتب ، أما ما يجب مواصلته الآن فتجهيزها
للرحلة ، ومعاونتها على المضي إلى المثوى ، فن سيعينني ، من سيعانني ؟ ،
وددت كشف وجهها ، ومخاطبتها ، تمنيت أن أقول لها ما لم أقله ، إن ابنك -
الذي هو أصلي - رحل منذ زمن بعيد ، وأنتك عشت أمدا غير قليل ، وأنت
ثكلتي ، ولا تدرين ، لعلك تعلمين الآن ، لم تبكيه عند رحيله ، جئت بك بدلا
عنه فلم تخاطبي إلا صورته ، ولم تحني إلا على بديله ، كنت قرية مني ، وكنت
نائيا عنك .

جال هذا كله بذهني ، غير أني لم ألفظ كلمة واحدة من مضمون الخاطر ،
ذلك أني أدركت برحيلها ما لم أدركه في سعيها ، إذ صالحت ذاتي على ذاتي ،
وحللت في الموضوع الذي لا يمكن تحديده ، كي أكون أبنا ، لا يعذبني وعي
أنني لست هو ، ولا يضمنني أنها أم غريبة عني ، ولي هذا كله لكن بعد أن
اكتمل يتمي ، وانقضى الأوان المقدر ، ذلك هو القوت الأعظم ، فن
اغتراب إلى اغتراب ، ومن فقد إلى فقد ، ذاك أمرى ! .

أولى ظهري للبيت الذي ستخرج منه أمي بعد زمن قصير إلى أبد آبد ،
يرفقتني صاحبي ، وجار طيب أثر ألا يفارقتني ، سعيها إلى الأقارب ، من
استضافوا أبي في رقدته الأخيرة ، صباح حار ، والطريق يمر قرب المرقد والمحط
الأخير لرحلتها ، بعد قليل ستوارى المجاهدة في هذه الجهة ولا يكون سعي إليها
من بعد إلا لمجاهدة الصمت ، والوقوف عند حافة العدم ، فمن الله العون
والعصمة ، فناء لا يجرى عليه التبديل ، وبقاء لا يقبل التغيير ، فلا الفاني يصير
باقيا حتى يكون الوصل ، ولا الباقي يصير فانيا حتى يتم القرب ! .

أطرق الأبواب المغلقة ، لا أعرف بيت الحاج عوض ، أقصد بيت شاب
أجهل درجة قرابتي منه ، تفتح الباب امرأته الشابة ، ترتدى ثياب النوم ،
مكشوفة الذراعين ، طالة النهدين ، فتية ، عفية ، ملامحها ولمحجتها تنبئ أنها
من البلدة ، كذا لمحجتها ، قلت دامعا أن أمي رحلت ، وأنني أريد الوصول إلى
بيت الحاج ، إني أجهل الطريق إليه ، تبدى جزعا ، تطلب مني الدخول حتى
توقظ زوجها ، تولى ظهرها لنا ، أعجب وأحجل من تعلق نظري برد فيها ! ،
ومنطوق جسدها ، أمازلت مفصلا ؟ غير أن واردا هب علي فادمانى ، إذ
ذكرت بحبي أمي من البلدة ، أيامها الأولى في المدينة ، غير أنها بقيت غريبة ،
لا بيت لها ، ولت هذه الأيام ، قفل عليها ، كذا سعيها في الأسواق ، ترى .

أى يوم جاءت فيه من البلدة ؟ أهو سبت كيوم رحيلها اذا ؟ أم أحد ، أو اثنين ؟ أى يوم أى ! أبى رحل يوم الثلاثاء ، فى أى يوم سيكون مختتمى ؟ لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، أمى ودعت أبى ، وأنا أعيش وداعها ، فنن سيسى فى أثرى ؟ من سيشينى ، وأى لحظات دامعة سيدكرها ولدى أو ابنتى أو امرأتى إذا لم أقض غريبا ، وشهدوا ذهابى ؟ وعلى أى مشهد سأغمض مقلتى إلى الأبد ؟ أى موقف سيرق من الماضى بينا العتمة تهوى على ؟ .

يحيى الشاب إلى الصالة .

« البقية فى حياتك .. »

صيغة الغراء ، أصغى إليها دهشا ، أمى التى كانت تسعى أنقلب إلى ماض .

يتساءل :

« هل يمكننا أن نشرب شايا .. »

أومئ شاكرا ، يغيب عنا ، يعود حليق الذقن ، رائحة عطر تنبعث منه ، يصحبنا إلى البيت القريب ، نقف عند المدخل ، أواجه ضوء النهار ، أول نهار يخلو من أمى ، أتابع سعى الخلق ، هذا حزنى المتعثر لا يدرى أى سبيل يسلك ؟ نشيج ، نواح ، أم عويل ؟ يتزل الحاج عوض ، وعنده شبه عظيم بأبى ، يضافحنى ، يطالبنى بالشدة والجلد ، يقول :

« أدت رسالتها كاملة .. وتركتمكم رجالا .. »

أدت رسالتها ؟ كل من يخاطبنى يذكر التهمة والنهاية ، ومع كل ذكر كائى أفيق على ما جرى ، يحيى الحاج يونس ، أرى أيام قدومه من جهينة ، قبل استقرار أمره وتيسر حاله ، قيام أمى عند الفجر لتعد الشاى ، والافطار قبل خروجه بصحبة أبى ساعيا فى هذه الدنيا ، يقول جارنا إنه سيمضى إلى مقر عمله

ليستأذن في الغياب ، يقول صاحبي إنه سيمر بمقر عمله وينبهم بما جرى حتى يرتبوا أمورهم بدونه في هذا اليوم ، سيلحق بنا ، إنما هي مسافة الطريق لا غير أركب العرب ، بجوار الحاج يونس يمصمص شفثيه آسفا ..
« يا سلام على الدنيا ! » .

لماذا قال ما قال ، أى باعث ! أولى وجهه صوب الطريق ، ماذا يفعل اسماعيل الآن وما يفصلنا عنه ليل ونهار ، الوقت عنده الآن ما بعد منتصف الليل ، رحيلها عندنا فجرا ، وعنده غروب ، كيف يتلقى النبأ ؟ أم أبذل المحاولة لإخفاء الأمر عنه ! ، تقترب السيارة من المرقد والمثوى ، هنا أئى ، لكم جاءت أمى زائرة ، كانت تقعد فوق الحصيرة ، صامته ، متطلعة إلى ما نهجل ، تضع أمامها ما جاءت به فطائر ، وبلح ، وفاكهة تمد يدها إلى الصغار المتوافدين عليها ، ما أضيق المسافة ، وما أسرع المدة بين غيابه وغيابها ، لم تكتمل ثلاث سنوات بعد ، فيما جزعى ، بعدكم سألحق بهما ؟ ، هذا عبده ، من حمل أبى ونزل به الدرجات الحجرية ، ومدده ، وفك رباط كفته ، يميل دانيا من نافذة السيارة ، يعرفنى ، لكم صافحته ، لكم استفسرت منه عما يجرى للجثمان ، يقول الحاج عوض :

« افتح العين الجديدة . »

يستفسر عبده كأنه يدرى :

- الحرىمى ؟ .

تستدير العرب بطيئة ، الطريق غير ممهدة ، ترابية ، وعرة ، كل حركة تقربنى ، وكل سعى يدنبنى من لحظة آتية لا ريب فيها ، ما تزال شقيقى تناديا أن تقوم ، كعادتها التى لم تنقطع منذ مجيئنا إلى الدنيا ، أن تضع حدا لهذا الكابوس ، أن تسأل عما نحتاج إليه ؟ أن تسعى ، أن تودع ، أن تنتظر ، أن

تلقانا ، أن تجلس ، أن تنظر إلينا كما أعتادت ، لكن .. ما من مصغ ، ما من
محجب ..

صرخات حادة ، متقطعة ، تدخل إلى الصالة امرأة لا أعرفها تحمل سلة من
خوص تحوى قاشا أبيض ، وآخر أخضر ، ترائى فتطلق صرختين ، هذا من
لوازم عملها عند حانوتى الناحية ، ظهر شاب فى أعقابها ، يحمل خشبة قوائمها
مثنية ، طلب ازاحة المقاعدة من الغرفة التى تتمدد بها أمى ، يختل النظام ،
يتنقى الاتساق ، يخرج الشاب من الغرفة ، ينظر إلى ، يقول :

« هل سنمشى بمجرد الانتهاء ؟ »

يشير إلى الغرفة ، أومئ محجبا .. نعم ، يقول بلهجة فيها حدة :

« يعنى لن تقول لى إن أشخاصا سيجيئون .. ويجب الانتظار .. »

تطلعت إليه صامتا ، غير قادر على المجادلة ، نهره جارنا الذى وصل لتوه
مسكا بشهادة رسمية تثبت وفاة الكريمة .

« خلاص يا أختنا .. »

فى الغرفة أزمحت الكنبه ، والمقعد ، والبساط العتيق ، وطويت المنضدة ،
أما خشبة الحانوتى فنصبت ومدت ، تقول بهية امرأة صاحبي إن المياه لم
تنقطع ، ولكن للحبشة ملأت عدة أوعية ، أصغى إليها ، إلى أصداء شتى
قادمة من بقاع بعيدة وأزمنة مندثرة ، ثقل لسانى ، وعاد إلى وجومى ، أتحرك
كأننى أخطو فى فراغ ، أروح وأجىء ، أصغى إلى نواح نوال ، اتخذ بعدا
غامضا ، كأنه قادم من بعيد ، اقترب من الغرفة ، بهية وأم محمد جارتنا ،
وأستاذة جامعية تسكن فى الطابق الأخير ، والمرأة الحانوتية ، يتبآن لأداء
الواجب الأخير ، وكلهن معرفة السنوات الأخيرة ، وإحادهن مجهولة لم ترها
أمى أبدا ، ولم تسمع بها ، وفى مثل هذا الوقت من الأمس المنقرض كانت

تسعى فى ناحية ، وأمى فى ناحية ، والآن قدرهما أن يلتقيا عند تخوم الأبد ،
كشفن الغطاء عن الكريمة ، التى ختم على جهادها ، وصبرها ، وصمتها ،
وزهدها ، وتجردها واختافها الكرب عن نحب ، وضعها لم يتبدل ولن ،
مستسلمة بعد غياب الروح الحساس .

ذهبت اللحظات وبقي المعنى ، غابت الصورة وثبت الظل ، فهل ثمة فارق
بين ما هى عليه الآن قبل أن يطويها المثلوى ، وبين ما ستكون عليه بعد عام أو
عامين أو مائة ، أم أن الأمر يستوى مند اغماضة العينين ، منذ بدء الاحتضار
وتمامه ، إذ يشتد الهول ويبدأ الحال الأعظم ، ويرى البصر ما لا يراه
الحيطون ، القائمون ، فالوت نزع ، والموت جهل ، والموت فراق ، وغيبة .
قال شيخى الأكبر الذى طالت غيبته عنى ، الموت فزع للمؤمن لما قدم من
إساءة ، وفزع للعارف لحوائه من الخالق عند القدوم عليه ، وندم للكافر لفقد
المألوفات ، أقول إنه كم كمد لافتراقها القسرى عن أحب ورعت ، ومن لم
تطمئن عليهم بعد ، الغائب الذى لم يصل ، والصغيرة التى لم تزل بعد وحيدة ،
والابن ذو العلة ، الفزع واحد وإن اختلفت المسببات .

أقف عند باب الغرفة ، بطنها الذى كان أول موطنى ومحل تكوينى علا ،
أكبر حجا مما كان عليه عندما رأيته أول مرة صباح هذا النهار ، الزيد الذى
غطى الشفتين انزاح إلى أسفل عند اللقن ، تبيع قوامه ، وتلاشت ققاعاته ،
لا يملك الميت لنفسه ضرا ولا نفعا ، تلك كينونتها العدمية ، تنأى بالعزل لا
بالاعتزال ، تمضى بالعلم لا بالانتقال ، تغيب بالاحتجاب لا بالارتحال ،
لا شىء يمكن أن يظلمها ، ولا شىء تحتها فيقلها ، ولا شىء أمامها فيجدها ، ولا
وراءها فيدركها ، ذاك حسبى !

تقترب بهية ، وأم محمد ، تبسطان الأيدي ، لابد من حملها ونقلها

وتعديها فوق الحشبة التي اكتمل نصبها ، وتحتها وضعوا آنية فارغة من نحاس ،
تتراجعان ، الحمل ثقيل ، تشير بهية إلى ..
« تعال يا جمال .. ساعدنا »

لكن !!

يبدو مني ما حيرني وبحيرني حتى زمن تدويني هذا ، إذا وليت وجهي ،
ونأيت ببصري ، لم أقدم على حملها هي التي حملتني مضغة فجلينا فطفلا
فكبيراً مستويا ، هي من كان صدرها مرعاً ، وحجرها فراشاً ، أعياني
تفسير ذلك فيما بعد ولت نفسي مرارا .. هل مبعث ذلك تقزز منها ، من
الموت ، من هودها ، أم أنه الخوف والحشية ، ألوذ بأخف تفسير يمكن الرضاء
به ، بعدم احتمالي الموقف الصعب ، لكن عبثا حاولت أن أهدئ نفسي .
« طيب .. تعال يا محمد .. »

يتقدم صاحبي ، ما بين سرير الفراش وسرير الحشبة انتقل الجثمان الهامد
من موضع إلى موضع ، تقول بهية :
« أخرج يا محمد »

قبل اغلاق الباب ، أشبع البصر عبر فراغ الحجرة ، أرى وجهها ناحيتي هل
تبلى ملامحها أكثر هدوءاً ؟ هل خفت تقلصاتنا ، وهذه الأوردة المختنقة على
صفاء الجبين ؟ ربما .. وربما هذا ما خيل إلي .

عند ركني عينيها تحت دمعين ، من أنفها سالت نقطتين لا يمكنها مسحها أو
إخفاؤها ، شأن الطفل إذ يغزربكاؤه ، فتسيل أنفه ويتصل دمه ، قيل فيما بعد
إنها كانت تبكي أثناء غسلها ، إذ فارقت وأمنيات شتى لم تتحقق وأحباب كثر لم
تتل منهم طلة .

أطلت النظر ، تعلقت بملامحها ، هذه القسمات لن أراها أبداً ، لن تقع

عيناى عليها ، ستصبح مجرد مكونات لأخيلنى وذكرىانى المسترجعة إن طال بى العمر ، وقد تهت فأعجز عن استعادتها وقد يحىء وقت لا تعاودنى حتى فى رؤى منامى ، هذه الملامح أمامى وغير كائنة ، تلك المعالم لن تكون ، انتهى زمنها وبدأ رحيلها ، رحيل لن يوقفه أحد أبدا .

يتساءل أحد الأقارب :

« هل تعرفن الغسل الشرعى ؟ »

أجابته إحداهن ، لكنه راح يشرح كيفية صب الماء ، بأى عضو يجب البدء ، تراجعت عن الباب المغلق ، نواح شقيقى دام ، رحت وجئت ، وعندما صاحت احداهن تطلب زجاجة ماء الورد ، خرج شقيقى على ممسكا بها ، كان صامتا ، والكتمان هنا خطر لذا خشيت عليه ، غير أنه ألقى فجأة بالزجاجة أرضا ، جمر صارخا ، دامعا ، قال لى فيما بعد إنه اشترى قبل رحيل أمنا المجاهدة زجاجتين من ماء الورد عند زيارته لضريح الحبيب الحسين ، كانا نذير شؤم ، لام نفسه ، قلت له ، تشاعون وتشاء الأقدار أتوقف بجوار الصوان ، قالت شقيقى إن زجاجه طرشق فجأة قبل طلوع الصبح ، ألوم نفسى ، لماذا أبعدو متعجلا ، لماذا أود مواراتها بسرعة ، أهذا نصيبها عندى ! وهنا أصغيت خائفا إلى صوت غريب ، لا يمت إلى أى من الحاضرين :

« يا جمال ، قد ورد أن العجلة من الشيطان إلا فى ثلاث ، منها تجهيز الميت ، ومن تجهيزه الاسراع به إلى مثواه .. »

على مهل أراه ، يستوى أمامى شيخى الأكبر محبى الدين ، غاب طويلا ، إنما جاء فى هذا الوقت بالذات لينوب عن كثيرين ، ليخبر عن أشياء وليومئ ملمحا ، لم يره إلا أنا ، ولم يسمعه إلاى ، كنت أخطبه بالنظر ، فيجيبنى

لأصغى أنا وحدي ، استفسرت منه عن دليل ، كيف لا يحىء في لحظة
كهدنة ..
« منذ الآن إنما أنت دليل ذاتك ، فند أن تمت المصالحة لم يعد لك به
حاجة .. » .

قلت :

« ولكنها مصالحة متأخرة .. »

قال :

« هذا تقدير .. »

ثم أمرني أن أبقي هوية دليل سرا ، لا أطلع عليه أحدا ، ولا أصرح به ،
ولا أذكره بسوء ، لم أستفسر ، فلا بد أن في الأمر سرا وسببا ، لماذا يلوح بين
خضم أحزاني إحساس مبهم أنني لن أرى الشيخ الأكبر ، وأن هذا تجليه الأخير
عندي ، كأنه أدرك ما أفكر فيه ، هذا ما بدا في عينيه ، لكنه لم يجبني ، لم
يفسر لي ، إنما تلى في وعي ، « إن ما توعدون لواقع » ، أمرني أن أفتح نوافذ
البيت كلها ، فامتلت دون أن استفسر ، أومات وإن لم يلحظني أحد ، أتطلع
إلى باب الغرفة المغلق ، غير أن قلبي ، غير موصل ، والقلوب كما علمني شيخى
ثلاثة ، قلب مثل الجبل لا يزيله شيء ، وقلب مثل النخلة أصلها ثابت والريح
تميلها ، وقلب كالريشة يميل مع الريح يمينا وشمالا ، وقلبي أنا كالنخلة ، جذعه
راسخ لكنه يميل مع كل هبوب ، هينا كان ، أو صرصر عاتيا .

يتطلع شيخى الأكبر إلى الأرض ، يتبع نظره ، الماء يتسرب من تحت باب
الغرفة ، كل قطرة منه لامست الكرمة ، هذا الوجه المولى جهتي ، والقم
المزموم ، وآثار الترع ، يحيط الماء شيخى من كل جهة ، لكنه لا يفارق ، ولا
يتزحزح ، تمضى اللحظات ، وهن الوقت ، فلا يسرع ولا يبطىء ، صمت من

ورائه نهار حار ثقيل ، تخرج أم محمد :

« ادخل وسلم على أمك .. »

التفت إلى مولاي محبي الدين ، لا يدرى أحد إلى من أنظر ، ولا من أستشير ، فلم إذن تقدمت ؟ ، مخطاة تماما ، « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » ، ملفوفة في كفن أخضر وأبيض ، والكفن للميت كاللباس للمصلى ما يصل عليه لا فيه ، ما يحول بينه وبين الأرض ، تقول المرأة :

« قل ساعحك يا أمى .. »

أنا ، أساعها أنا ؟ ، قال أبي قبل رحيله « بساعحنى » ، أنحن من نسامح ؟ أم نحن الذين يجب أن نرجو السماح والمغفرة لتقصيرنا ، ولما أتيناه في حقها بقصد وبدون قصد ، لم يطاوعنى لسانى ، فكررت المرأة :

« قل ساعحك يا أمى .. »

فلفظ لسانى ما صح عندى ..

« بساعحنى يا أمى »

فكأنى الميت ، هممت بالتراجع ، غير أن المرأة كررت :

« قل ساعحك يا أمى .. »

رددت :

« بساعحنى يا أمى .. أنا مساعحك .. »

دخلت نوال ، جاء على ، ظهر الحانوتى الشاب المتعجل ، حملوها ، لم أدر ، لم أدق من ؟ ، وقفت قريبا من أختى الملتاعة ، وعندما مروا بأمتنا أمامها ملدت يديها تروم امساكها ، تبغى إيقافهم ، لكن من يحوش ، من يمنع ! ، هذا لاراد له أبدا .

قلت راجيا :

« لا نريد لأمننا الهدلة .. »

فجأة ، تهرول أم محمد ، تلطم وجنتيها صارخة :

« مع السلامة يا أميرة .. مع السلامة يا مجاهدة .. »

أنزل السلم منحنيا ، وضعوها داخل النعش الذى أسندوه أمام المدخل ، دفعوا به وبها إلى جوف العربة ، لم تمس وراءها ، لم تنتظم صفوف ، اكتمل الركب فى هذه السيارة ، ركبت عربة صاحبي .

الظهيرة تدنو ، قبض يوليو يشتد ، هجير ، والطريق شبه خاوية على غير العادة ، كنا ثمانية من عالم الحس ، وواحد من عالم الغيب ، أما الثمانية فهم أقارب ثلاثة انقطع عهدنا بهم منذ أمد بعيد ، وجاران لم تعرف منهما إلا الاسم ، وصاحبان لى أعرفها بقدر ، وأخى ، أما الذى جاء من حيث لا يمكن لى أن أعرف أو أدرى فهو مولاي الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ، هؤلاء من سعا خلفها ، من ودعوا عند سفرها الأخير ، من الشرفة انبعث صرخات أخنى ، الشرفة ذاتها التى وقفت فيها وأطلت منها قبل ساعات ، انطوى الليل ، وطلعت الشمس على دنيا خلت منها ، وأسمى الآن فى وداعها ..

قبل ركوبنا ، قال أحد الأقارب :

« هل أوصت بالصلاة عليها فى مسجد بعينه .. » :

قلت : لا .

قال الخانوقى الشاب :

« مسجد السيدة عائشة فى طريقنا ، لو دخلنا إلى مسجد السيدة زينب أو

الحسين سنحتاج وقتا .. اليوم سبت والزحام شديد فى البلد .. »

لماذا لم أصر على الصلاة عليها عند ضريح الحبيب ومثواه القاهرى ؟ لماذا

لزمت الصمت ؟ أهذا لعجلتي ؟ لماذا فكرت في السفر الذي كان يجب أن أبدأه بعد ساعات ؟ لماذا ؟ هل انتابني طيف ضيق وتدم لامتناع سفرى ؟ هذا ما أرقنى زمنا ، خاصة أنني قارنت بين حزنى الأشد على رحيل الوالد ، وبين آلامى التى بدأت فجر هذا السبت ، فهل اعتدت الموت وتأهبت له ، أم أن فى الأمر قضية ؟ .

قطعنا طريق صلاح سالم الممتد خارج المدينة ، عند القلعة لحت بين زحام العربات وتدافعها المركبة التى تحمل جثمانها ، لحت الشيخ الأكبر يلزمها ، يمشى إلى جوارها طاويا المسافة بخطى يشق على تفسيرها . فى هذه العربة نعش .. يحتوى خفوت أمى وهودها .

كانى أدرك ذلك أول مرة ، بدا الأمر مستعصيا على التصديق ، فبدأت بث حزنى ، اندلع نواحى ، ممتدا ، مرا ، وعندما توقفت العربة نزلت سارعت للمشاركة فى حملها ، أقبل مجهولون ، أناس لا أعرفهم ، لم ترهم أمى أبدا ، تناوبوا حملها ، داخل المسجد المدثر بالظلال العتيقة جاء آخرون ، اصطفوا أمام النعش ، مال على شيخى الأكبر ، ولما كنت أجهل صلاة الجناز ، لقننى ما يجب أن أعمله ، قال : لا ركوع ، بل قيام ، وكل وقوف له تكبيرة . علمنى رفع الأيدى عند كل تكبيرة ، إذ أن رفعها يؤذن بالافتقار ، يقول المصلى على الميت ، هذه أيدينا قد رفعناها إليك فى كل حال ، ليس فيها شىء ، ولا تملك شيئا ، علمنى التكتيف إذ أنه شافعى والشافعى سائل ، والسؤال حال ذلة وافتقار فيما يسأل فيه ، سواء كان ذلك السؤال فى حق نفسه أو حق غيره ، فالسائل فى حق الغير ، هو نائب فى سؤاله عن ذلك الغير ، فلا بد أن يقف موقف الذلة والحاجة لما هو مفتر إليه فيه ، علمنى التكتيف ، وهو صفة الضعفاء الذين لا يمكنهم تبديل الأمر ، وصفته وضع اليد على الأخرى ،

بالقبض على ظهر الكف والرسغ والساعد ، فيشبه أخذ العهد ، في الجمع بين
اليدين ، يد المعاهد والمعاهد ، أى أخذت علينا العهد أن ندعوك ، وأخذنا
عليك العهد بكرمك في أن تجيئنا ، « وإذا سألك عبادى عنى فأبى قريب أجيب
دعوة الداع إذا دعان »

علمنى قراءة الفاتحة بعد التكبيرة الأولى ، والصلاة على الحبيب المصطفى
بعد التكبيرة الثانية ، والدعاء بعد الثالثة ، « اللهم أبدل له دارا خيرا من
داره » ، قال لى شيخى : المصلى داع أبدا ، والمصلى عليه ميت أو نائم أبدا ،
فمن نام بنفسه فهو ميت ، ومن مات بربه فهو نائم نومة العروس والحق ينوب
عنه

هكذا لقننى ، ثم قال لى : لا بد من الخير ولو بعد حين ، ثم قال لى : إن
الميت قد يرى فى الطريق أهوالا عظاما ، لهذا ينبغى أن تكون الشفاعة له ، قال
لى : فإذا فرغت فانصب .

أسارع إلى حمل النعش مع الحاملين ، أعود إلى مقعدى فى العربة ، المشوى
قريب ، أقطع الخطى الأخيرة ، يشتد أنفى ، يتعاطم وعيى ، إنها النهاية ،
ألفظ باكيا « يا خرايى » ، أطم وجنتى ، يطالعنى الشيخ الأكبر لائما ، يقول
بالصمت ، ألهذا جئتك ؟ ، غير أننى لم أكف ، لم أتوقف ، نزلت مترجلا ،
كف نواحى ، رأيت مقاعد مصفوفة ، المدخل المؤدى إلى داخل المقبرة
مفتوح ، بداية درجات حجرية تغيب بقيتها عن النظر ، لم أدر ماذا يجرى ،
لحت انصراف الخانوقى الشاب ، سمعت محرك العربة عندما أقفلت راجعة ،
رجلان يحملانها ، رائحة ماء الورد الذى ضمخت به قوية ، يتقدمان باتجاه
الفوهة ، أراها محمولة ، لم أرها إلا ساعية ، لم أرها إلا ماشية ، فى الطريق
المجاور لضريح الحبيب ، بمفردها تشتري خبزا لنا ، بمفردها تصحب أخى على

إلى الطبيب ، إلى جوارى صامته ، مستسلمة عندما شك الأطباء أن ورما في صدرها ، بمفردها إلى الحاج فؤاد تفاوضه على تقسيط ثمن أريكة وصوان قديم ، إلى جوار أبي عند اعتقاله ، يذهب إلى أحد المعارف ، تبقى منتظرة نبأ عن ضئها الغائب ، أراها طفلة تعدو عبر الزمن العتيق ، واقفة ، متطلعة ، منتظرة قدوم أحدنا ما زاغ البصر وما طفى .

تروح وتجيء ، فرحة نشطة عند قدومي بصحبة حفيدتها ، تلك طلتها ، وهذه نظرتها ، واللحظة الأولى لظهورها ، وذلك سلامها ، أصغيت إلى صوت غنائها ، والغناء يعنى ذروة انفرادها ، وتوحدتها ، وهجرتها الداخلية إلى مالا أعلمه ولن ، أراها فى هيئة لم أعهد لها ، لم تمر بي أبدا ، قاعدة ، تمد إحدى ساقيها وتثنى الأخرى ، تنظر نظرة جانبية ، بحلة بسواد غريب ، حمرة العينين ، باكية ، متحسرة على فراقنا ، فهذه هيئة ما بعد الرحيل ، والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، إنما هو وحي يوحى ، ها هى ذى تبدأ سعيها أجمل كنه ، رحلة لا أعرفها ، ألم يقل عز من قائل « إلى ربك الرجعى » ، فالرجعى تستلزم السعى ، الرجعى تعنى قطع اللامسافات التى لا أدرى من أمرها شيئا ، « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » .

هذا تاريخ بأكمله يغيب ، يتوارى عني ، جذرى بأفل ، وأصل كينونتي وأول موطنى ، أقوم على مهل ، محققا ، محاولا اختراق الحجب ، مجاهدة لمعرفة السبب ، أقرب الحبيبة ، المجاهدة تغيب شيئا فشيئا ، فن جاء ، ومن رحل ، من أعطى ومن أخذ ، من أقبل ، ومن رجع ١٤ .

أشير بسبابتى إلى فراغ عقيم ، لا تصلنى منه إشارة ، غير أنى مدرك ، موثق ، هو وجود كل شيء ، المقصود فى كل شيء ، المترجم عنه فى كل شيء ، الظاهر عند ظهور كل شيء ، الباطن عند فقد كل شيء ، الأول من

كان الفراغ منه ليلة الاثنين الموافق سادس إبريل ، ألف وتسعمائة ستة
وثمانين المنقضى على ميلاد السيد المسيح ، السابع والعشرين من
رجب ، عام ألف وأربعمائة وستة المنقضى على هجرة من لانت له
الأرض ، وظلته الغمامة ، ويكى القزال بين يديه .
فبادروا ! .

١٩٨٠ - ١٩٨٦

كل شيء ، الآخر من كل شيء ، يتدفق جميعي ، لكن أني لي بإيقاف الدهر ،
الدهر الذي لا راد له ، من تنعدم عنده الأمكنة والبقاع ، اللحظات والأزمنة ،
أنني لي بوضع حد لذلك الذي أوجدها ، وغاب بها ، وسيمحو أحزاني عليها .
أنقلب من حيث جئت ، إلى نفس ما مر به أصلي قبل تبدده وتوزعه بعد
أن أفشي ! تتبدل على المشاعر وتتعاقب ، أهوى قابضاً على التراب ، ناثراً ذراته
فوق رأسي ، يمسك بي الشيخ الأكبر ، يمسك بي الأقارب وصاحبي والقوم ،
أقضي جاثياً متطلعا إلى شيعي ، يبدو غاضبا ، غير أنني لا أعبا ، لا يوقفي
إيماء ، أو همس ، ولا يمنعني ردع ، أو تلويح بتهديد ، أقول بصوت مرتفع غير
غائب بمن يحيطون بي ، جاهلين من أحاطب ، « إن أكون ذلك الذي وصفته
أبدا ، لماذا تناقض ذاتك بذاتك ، ألسنت القاتل ، ألسنت المتسائل ، من أقرر
الناس لنفسه ؟ ألسنت الحبيب على تساؤلك بنفسك ، إنه الراضى بالمقدور ،
فلماذا تريد مني ذلك الآن ، لماذا ؟ لست أنا ، ولن أكون » .

يرفع يده ، بينا يمد القوم أيديهم ليمسكوا بي ، يحولون بيني وبين التراب ،
يختلط جميعي بنواحي ، فما قلته ذلك الذي لم أقله ، وما لم أقله ذلك الذي
قلته ، فأين المفر ، أين المفر ؟ .

عند هذا الحد أضطر إلى التوقف ، فلم يكن بومسي إلا الامتثال ، بعد أن
بدأت صيرورتي تلقى ما لا قبل لي بوصفه أو التعبير عنه ، لذا أنهى هذا السفر
على غير رغبة مني ، أما إذا سنحت الفرصة ، وسمحت الوسيلة ، فربما جمعت
ما تبدد ، وللمت ما تشظى ، على أصوغ يوماً القول والمخاطبات والسرائر ،
فينكشف من السر قدر جلال ، أما الآن ، فأدنوا مني ، وحنوا علي ، ففقداني
قريب ، ولا تبخلوا بدموعكم لتكون تأنيسا في وحشتي ، ووحمة بي في غريقي التي
لانتتهى إلا لتبدأ ، ولا تنقطع إلا لتتصل ، فياحسرتي على القرب بعد بدء البعاد .

الفهرس

التجليات الأولى

٩	وهى تجليات الفراق
٢٥	ومنها التجليات الديوانية
٤١	ومنها تجليات الأسفار
٤٣	السفر الأول
٤٣	سفر الميلاد
٦١	تجليات الأسفار ومنها أسفار الغربة
١٤٥	المواقف
٢٥٧	السفر الثانى
٢٨٥	مقام الاعترا ب
٣٨٣	مقام الضنا
٤٠٥	مقام القرنى
٤٣٣	مقام الحزن
٤٥٩	سريان بين مقامين
٤٧٣	مقام الجوى
٤٩٧	« .. منتهى .. »
٥٠٣	السفر الثالث
٥٣٣	حال الوداد
٥٥٩	حال الفوت
٦٥٩	حال الجهات الأربع
٧٨٣	حال الوداع

صلى للمؤلف

- أوراق شباب عاش منذ ألف عام
- ارض .. ارض
- الترضى بركات
- الترويل
- وقائع حارة الزعفراني
- الحصار من ثلاث جهات
- حكايات الغريب
- ذكر ما جرى
- الرفاعي
- عطل العيطاني
- كتاب التجليات ، السفر الأول ،
- مجموعة قصصية
- (طبعة خاصة عن صلاح الدين بالقدس المحتلة ١٩٧٥)
- مجموعة قصصية
- رواية
- قصص
- رواية
- مجموعة قصصية
- مجموعة قصصية
- مجموعة قصصية
- رواية
- رواية
- طبعة أولى ١٩٨٠
- طبعة أولى ١٩٨٣

، عن دار الوحدة في بيروت ،

طبعة أولى ١٩٨٣

، عن دار المستقبل العربي - القاهرة ،

طبعة أولى ١٩٨٤

مجموعة قصصية

١٩٨٥

السفر الثاني

١٩٨٧

السفر الثالث

١٩٨٧

رواية

١٩٨٩

رواية

١٩٨٩

مجموعة قصصية

● الحاف الزمان بحكاية جلي السلطان

● كتاب التجليات

● كتاب التجليات

● رسالة في الصباة والوجد

● رسالة البصائر في المصائر

● نجاد الوقت

دراسات ومشاهدات :

- ١٩٧٤ ● اسلة القاهرة ، سلسلة قاهريات ، ١٩٨٤
- ١٩٧٥ ● حراس البوابة الشرقية
- ١٩٨٠ ● نجيب محفوظ يتذكر
- ١٩٨٣ ● مصطفى أمين يتذكر
- ١٩٨٣ ● ملامح القاهرة في ألف عام
- اسلة القاهرة ، سلسلة قاهريات ، ١٩٨٤
- شارع المعز لدين الله
- بيوت القاهرة القديمة
- الحياة اليومية في القاهرة القديمة

رقم الإيداع . ١٩٨٩ / ٢٥٢٧
التوقيع المرفق . ٧ - ٣٧٢ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطالع الشروقة—

الكتاب ١٦ طبع مراد حسى- هـ ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

مكتبة ص ب ٨٠٩٤- هـ ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٧١٣



كتاب التجليات

- أي كتاب هائل هو كتاب التجليات ، هو كتاب يحكي لنا من أسرار الحياة قدرًا عظيمًا ، إنه عمل أدبي عظيم يستخدم فيه الكاتب أسلوبًا له مذاق خاص جاءت قبل أن نخلق أشجار الكرم .

أحمد بهجت

- الحق أن بنية التجليات بأسلوبها والعلاقة بين عناصرها ، تشكل ظاهرة جديدة في أدبنا العربي المعاصر .

محمد أمين العالم

- القبطي كاتب جاد يعاقب فيها يريد أن يقول ويفرق أشد دروب العلاقة في محاولة للتوصي والإدراك ثم يعالج بعد ذلك في الحرفة الفنية .

د . عبد الصمد طه بدر

- في التجليات يسعى القبطي إلى تحقيق شكل في تجريدي يقوم على أساس تعظيم بنية الشكل التقليدي في الكتابة والرواية .

فهمي البشير - المغرب

- كتاب التجليات خطوة كبيرة في الرواية العربية على طريق تحقيق ملامحها الخاصة ومخصوصيتها القومية في أدب ، فهي من الأصالة في موقع الرقص المتدني من أديان الهند وفي موقع التسلسل الهائل بعلم الجمال القومي .

د . نوال نبوقه - دمشق